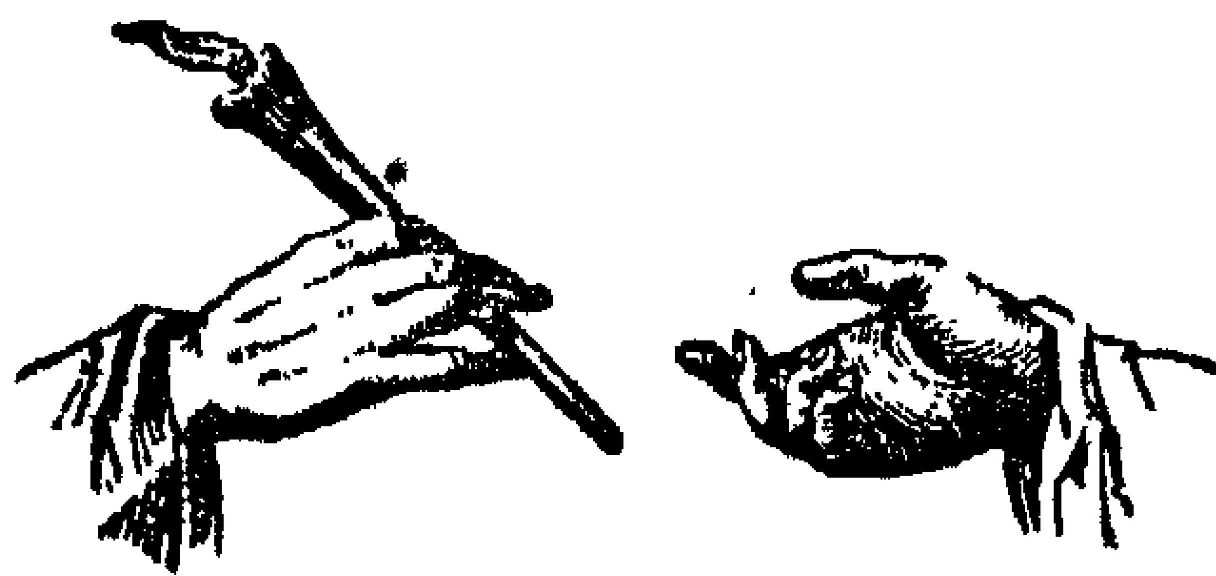


المقتطف

الجزء الاول من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يونيو ١٩٤٧ — ٢٦ رجب ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن نجتهد ان نفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الأول من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يونيو سنة ١٩٤٧ — ٢٦ رجب سنة ١٣٦٦

مآثر العرب
على الحضارة الحديثة

١ — غلق مدارس أثينا

على كثرة ما وقع في عصر يوستنيانوس من الاحداث فان أعظم هذه الاحداث جميعاً من وجهة النظر العلميّة والاجتماعية، حدثان: الأول غلق مدارس الفلسفة في أثينا، والغاء نظام القنصلية الروماني. فان ما خلفت هذه المدارس من الأثر في عالم الفكر وما خلق ذلك النظام من أثر في عالمي السياسة والتشريع، وما ينطوي وراءها من تقاليد القرون العديدة، يجعل لمحوها تلك القيمة الكبيرة التي نعزوها إليه. وليس لنا أن نتكلم هنا في شأن نظام القنصلية الروماني، ونقتصر على الكلام في غلق مدارس أثينا.

ظلت مدارس أثينا موضع عناية العقلاء والفضلاء من أمراء الرومان، ومضت مستظلة بحمايتهم أزماناً طويلة. ولقد أسس الامبراطور «هدريانوس» في أثينا مكتبة جامعة شيد لها مكاناً خاصاً وزينه بالصور والتماثيل، وسقفها برخام الالباستر الجميل، ولقد أقام ذلك البناء في صورة شرفة واسعة الجنبات يحملها مئة عمود من الرخام الفرُوغي. وخصص الامبراطوران من آل أنطونين مرتبات سخية للقائمين على هذه المدرسة، فكان مرتب كل أستاذ في السياسة أو الخطابة أو المذهب الأفلاطوني أو المذهب المشائي أو الرواقية أو الأبيقورية حوالي عشرة آلاف دراخمة (حوالي ٣٠٠ جنيه مصري). فلما [illegible] عرش

أوريليوس أنطونينوس ألغيت هذه المخصصات ثم أعيدت ، ثم أنقصت ثم زيدت ، بحسب أهواء الامبراطور القائم وبحسب الحالة الاجتماعيـة والفكرية التي تناوبت الامبراطورية الرومانية . ولقد بلغ حال تلك المدارس من الاضطراب مبلغاً كبيراً في حكم خلفاء قسطنطين

ولقد نعـلم أن أسلحة القوط وجيوشهم قد دمرت الجزء الأكبر من عمارية أوربا . ولـكن هذه الأسلحة المدمرة كانت أقل أثراً في هدم مدارس أثينا من انتشار دين جـديد في جوف الامبراطورية الرومانية . فان رجال النصرانيـة قد ألغوا العقل وأحلوا محله حكم النقل والايمان المطلق ، وألقوا بأولئك الذين اعتبروهم كفرة أو من أهل الشك الى النيران تأكلهم وتذهب بريحهم . وعمدوا فضلاً عن ذلك الى مجلدات ضخام حملوا فيها على كل ما خلق عقل القدماء من آثار الحـكمة والعلم يرمونه بالمروق والارتداد والـكفر . ذلك بأنهم اعتبروا تلك الآثار من المسممات التي تسمِّم عقول المؤمنين .

على ان البقية الباقية من الفلاسفة الأفلاطونيين حتى عهد يوستنيانوس ، كانوا قد انحدروا عقليًّا إلى درجة كبيرة، حتى انهم مزجوا ذلك المذهب الإلـهي الرُّوحاني بكثير من الخرافات وغلّفوه بالأساطير والسِّحر . وفضـلاً عن ذلك فان بقاءهم على وثنيتهم في قلب دنيا نصرانية ، قد ولّـد الشك تلقاءهم في قلوب الحكام والأمراء ، حتى لقد ظنّ أنهم قد يعملون سرًّا على الاضرار بمصالح الدولة .

بعد موت الامبراطور يوليان بقرن كامل دعي « إفروقلوس » ليلقي دروس الفلسفة في الاقاديميا . ولقد بذل في هذه المهمة أقصى الجهد ، وأثمر أعظم الثمرات ، فتناول في دروسه فلسفة الأخلاق والإلاهيات وما بعد الطبيعة، وكان مما تناوله من البحوث انه وضع ثمانية عشرة قضية منطقية ينقض بها قصة الخلق النصرانية . ولـكنه الى جانب هذا كان يدعي القدرة على الاتصال بآلهـة وثنيـة ، ويقول علناً انه محيط بالكثير من أسرارهم . وحدث خسوف في أواخر عمره ، فكان ذلك عنده نذير باقتراب ساعته ، فلما مات جمع بعض تلاميذه كل ما خلفه من أوراق ، وكذلك كل ما كتب حواريّـه « إزيدور » ، واحتفظوا بجميع ذلك ليكون للاخلاف من بعدهم دليـلاً على ما وصل إليـه العقل اليوناني إبان ذلك الزمان من انحطاط وتطوح مع الوهم والأساطير .

غير ان « السلسلة الذهبيـة » ، سلسلة الفلاسفة الافلاطونيين كما كان يدعوهم القدماء ، ظلت متصلة أربعين سنة بعد موت « إفروقلوس » حتى أصدر يواستنيانوس أمره الامبراطوري بأن يصمت آخر لسان تحرك بقضية فلسفيـة في جنبات المدارس في أثينا ، والأقاديميـا على الأخص .

كان آخر هذه السلسلة سبعة من الفلاسفة جمع بينهم العلم وألفتهم الصداقة هم: ديوجينيس [١] وهرمياس [٢] وأولاليوس [٣] وإفرسقيان [٤] ودمسقيوس [٥] وإزيدور [٦] وسنفليقيوس [٧]، لم يرضوا الارتداد عن دينهم الى دين أميرهم فراحوا يهاجرون الى بلاد أجنبية لعلهم يجدون فيها من الحرية ما أنكره عليهم بنو جلدتهم.

كانوا قد سمعوا، أو ترامى إليهم زوراً، إن جمهورية أفلاطون قد طبقت عمليًّا في بلاد فارس، وأنَّ ملكها الحر العالم قد أقام العدل وعضد الفضيلة في تلك البلاد الحرة السعيدة. فلمَّا وفدوا إلى بلاط كسرى الذي أشيع عنه أنه فيلسوف وعالم، ألفُوا أن مفاسد الدنيا التي خلفوها من ورائهم قد سبقتهم إلى بلاد فارس، وإن دولة كسرى، لم تكنْ أشرف ولا أفضل ولا أعلم ولا أحكم من عالم الهمج الذي تركوه فراراً من الشرور.

لقد صدمتهم حقائق الحياة الانسانية، فقضوا أعمارهم في سلام، وخلفوا الدنيا بغير جلبة، وانحدروا الى جوف الزمن ومعهم آخر ماخلفت الأكاديميا من الآثار الدنيوية.

وكان ذلك أول اتصالٍ للشرق بعلم الاغارقة الذي نهل منه العرب.

٢ — الحضارة العربية

تفرَّد العرب في العصور الوسطى بأن كانوا حفَظَة المدنيـة والقوَّامين عليها. كذلك استطاعوا أن يقاوموا تلك الهمجية التي اجتاحت أوربا وهزتها من الأعماق وزلزل قواعدها الثابتة توالي الهجمات الحربيـة والمغازي التي شنَّها عليها شعوب الشمال. وفي ذلك الوقت، وفي خلال هـذه الفوضى الغامرة، عكف العرب على ثمرات العقل الأغريقي يحيون منه ما أماتت الهمجية. ذلك بأن العرب لم يقنعوا بما اجتمع لديهم من ثروات العالم الذي دَانَ لسلطانهم، بل عمدوا الى سبل العلم والمعرفة يفتحون بها ما استغلق من قضايا العقل، وما استكنَّ من أسرار الطبيعة.

إن حروب الغزو التي شنها العرب عقيب انتشار الدعوة، وهي حروب قلَّما تخللها شيء من الانشعابات المدنيـة، قد ظلت قائمة خلال القرن الأول من التاريخ الاسلامي متوجة بأعظم الانتصارات. وحتى سنة ٧٦٠ م، وهي تاريخ سقوط الدولة الأموية، لم تظهر في حياة العرب بادرة تدل على أن تلك الفترة الحربية، بما يقع في أمثالها من فوضى وارتجاج، سوف يعقبها عهد تكون أجلى مظاهره الحضارية، نهضة عقلية ارتقائية النزعات.

في ظل الدولة العباسيـة بدأ عهد من الترفّـه المدني أخرج العرب من خشونتهم التي

(١) Diogenes (٢) Hermias (٣) Eulalius (٤) Priscian (٥) Damascius (٦) Isidor
(٧) Simplicius

عرفوا بها في العصرين الجاهلي والاسلامي الأول ذلك بأن خلفاء العباسيين قد ظللوا حركة التثقيف بعنايتهم وأمدوها بسلطانهم فأثمرت سراعاً وآتت أشهى أكلها ، فشحنت الأذهان بمختلف المعلومات ، ونقل إلى العربية مؤلفات وكتابات ، كانت أساساً لأخرى قامت عليها واستمدت منها ، حتى أصبحت العربية مصدر الدرس والبحث في الشرق وفي كل مكان استظل بسلطة العرب.

وللخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يرجع الفضل الأول في حفز الهمم وتنبيه الأذهان الى دراسة العلوم الصحيحة . ولقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، شأن كل الأمم البدوية التي تعيش تحت سماء صافية لامعة النجوم . حفزهم الى ذلك البيئة والضرورة . ولكنهم رغم ذلك لم يكن لهم تقويم زماني يرجعون إليه حوادث أيامهم وحياة رجالهم ودولهم ، وإنما اتخذوا السنة القمرية وسيلة الى معرفة الأشهر ، لما للأشهر عندهم من علاقة ببعض التقاليد والعقائد . ولم يصبح للعرب تقويم يحدد أحداثهم إلا من بدء الهجرة . غير أن ذلك الميراث كان سبباً فيما أبدوا في عصور حضارتهم من حب لعلم الهيئة وعكوف عليه .

قال اسكندر فون همبولد :

« كان العرب بطبعهم ذوي كفاءة لأن يؤدوا دور الوسيط الأمين في تكييف عصر من عصور الحضارة تأثر به كل الأمم التي عاشت في تلك المنطقة الشاسعة الواقعة بين الفرات والوادي الكبير (في الأندلس) والجزء الجنوبي من وسط افريقية . لقد كان للعرب نشاط لا يبارى دمغ عصراً من عصور التاريخ بطابع ثابت لا يمكن محوه . كذلك كان لهم نزعة تسمحية عريقة في الحرية ، مناقضة تمام المناقضة لنزعة اليهود التعصبية ، فاختلطوا بالشعوب التي غزوها من غير أن تعود بهم الذكرى يوماً الى أنهم الفاتحين أو الى تفوقهم القومي أو الى تقاليدهم التي خلفوها من ورائهم في صحاراهم ، بالرغم من تأثرهم بمختلف البلاد التي غزوها والأراضي التي نشروا عليها سلطانهم . وبينما نرى أن السلالات الجرمانية لم تستطع أن تستوعب اللغة البولندية الا بعد زمان طويل من هجرتهم ، فان العرب قد نشروا ، مع دينهم ، لغتهم المتنقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتخلخل أصوله ولم تضعف روحه ، حتى بعد أن تجاوبت به أنحاء « بروفانس » في بلاد الاندلس .

٣ — التجارة وأثرها في الثقافة العربية

قلما فطن مؤرخو الفكر العربي الى ما كان للتجارة وانتشار المستعمرات العربية من أثر في الثقافة الاسلامية . فان الامبراطورية التي شادها الخلفاء ، باتساع أرجائها وما حوت من ضروب الفن وصنوف الثروة ، وما أظلت من مختلف الأقاليم والأجيال والأمم ، وما

احتاجت اليه من مختلف النظامات والتشريعات القضائية والادارية ، قد وجهت الفكر العربي نحو صورة من الحضارة لم يعرفها العرب في حدود جزيرتهم الأولى . فان خيرات اسبانيا وشمال أفريقية ومصر والحبشة وشمالي بلاد العرب وفارس والبلاد الحافة ببحر قزوين في جوف أسيا ، وكذلك الهند والصين ، كل ذلك قد تدفق من طريق الاتجار على البلدان والحواضر العربية مثل مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق وبغداد والموصل والمدائن ، فأنها جميع ذلك من الاتصالات الثقافية ما كان له أكبر الأثر في تنشئة صورة من الحضارة جديدة كل الجدة معقدة كل التعقيد.

لقد نشأت اتصالات تجارية ثقافية بين اسبانيا وحدود آسيا الشرقية . ولم يقتصر الأمر على ذلك فان أسطولاً عربيًا خرج من بوغاز جبل طارق الى عرض بحر الظلمات فتقاذفته الرياح حتى الجزر الخالدات ، وربما كانت قد تقاذفتهم الى أمريكا ، ولو لم يثبت ذلك ثبوتاً قاطعاً . ولكن الطريق الذي سلكوه الى الجزر الخالدات ، يكاد يكون نفس الطريق الذي سلكه كولمبوس الى أمريكا .

وبالرغم من أن نشاط العرب التجاري قد اقتصر على أنحاء العالم القديم ، فانهم لم يتركوا ناحية من نواحي العمل لم يقتحموها بقوة وبسالة نادرة ، فقد نقلوا خيرات الشرق وبلاد العرب الى اسبانيا وزودوها بكل ما احتاجت اليه من ضرورات مصدرها العالم الشرقي، صناعية كانت أم زراعية . وهامة ذا يدل دلالة قاطعة على ما بلغ العرب من ثقافة هي من ضرورات ذلك النشاط الكبير .

بلغ عدد الأنفس في طليطلة ٢٠٠،٠٠٠ نسمة وأشبيلية ٣٠٠،٠٠٠ نسمة في العصر العربي . وكان محيط قرطبة ثماني فراسخ طولاً ، وفيها ٦٠،٠٠٠ قصر و ٢٣٨،٠٠٠ منزل. أما طليطلة الآن فلا يتجاوز عدد الأنفس فيها ٢١،٠٠٠ وأشبيلية ١٤٣،٠٠٠ وقرطبة ٥٦،٠٠٠ ، فأية حضارة ازدهرت هنالك في ظل العرب ، وأية ثقافة أقامت ذلك الصرح الشامخ

يقول الادريسي وهو الجغرافي المعروف الذي عاش في القرن الحادي عشر وزار اسبانيا، ان واحدة من مقاطعاتها كان بها أكثر من ٦٠٠ محلة تشتغل بصناعة الحرير .

على أن كل محدثي المؤرخين ليعتقدون الآن أن خروج العرب من اسبانيا أصاب تجارتها بداهية لم تخلص من نتائجها حتى الآن . ولا يبعد أيضاً أن يكون لذلك الحادث أثر آخر في الثقافة العالمية لا يقل عن أثره في الرفاهية المادية . فان الكردينال « إكزيمانس » Ximenes في ساعة من ساعات النحس التي قد تصيب الانسانية ، أصدر أمراً هو الى الهمجية أقرب شيء ، فأحرق في ميادين غرناطة في يوم واحد ٨٤،٠٠٠

مخطوطة عربية في مختلف العلوم والفنون والآداب . هذا في مدينة واحدة ، فما بالك بما حدث في بقية أطراف ذلك العالم الاسباني الفسيح .

٤ — من آثار الحضارة العربية

لقد أثبت منصفو المؤرخين للعرب من الآثار الحضارية بضعة نواحٍ كان لها القدح المعلّى في رفع مستوى الانسان إلى آفاق بعيدة المدى قصية الغايات . وإذا كان من الحق ان العرب لم يكونوا أول من ابتكر بعض هذه الآثار الماديّة ، فلا ينبغي أن ينكر عليهم فضل إنهم كانوا أول من أخرجها من مخابئها وانتزعها من بيئتها ، ونشرها في أنحاء العالم المتحضّر . فان هذه الأمة العربية التي نشأت في محيط صحراوي ، لم تكد تخرج من محيطها وتختلط بآثار الحضارة الرومانية ، وهي وريثة الحضارات القديمة ، حتى أكبت على الزراعة والاستقرار في المدن وفي الأودية الخصيبة ، فرفعت من مستوى تلك الصناعة وأضافت اليها من ابتكاراتها ما جعل من العالم العربي جنة متصلة النواحي ، وجعلت من القفار التي خربها الهمج في خلال أربعة قرون ، من القرن الثالث الى السابع الميلادي ، مراعي نضرة ، ومزارع مثمرة وغابات ملتفة وحدائق دانية الثمرات .

على أنهم الى جانب ذلك قد استكشفوا في العالم الموات الذي حفّ بنهضتهم تلك ، ثمرات حضارية ظلت مقصورة النفع على بيئاتها التي نشأت فيها ، فتناولوها بالتهذيب ، ورفعوا من شأنها ، وراحوا ينشرونها أينما حلوا وحيثما كانوا ، وفي جميع الآفاق التي استظلت بحضارتهم الجيدة . من هذه الثمرات الانسانية على كثرتها ، ثلاثة أشياء كان لها أكبر الأثر في رفع مستوى الحضارة في جميع العصور : هي الورق والبوصلة والبارود .

استند بعض المؤرخين على كتابات يغلب إنها مزيفة مدخولة بالتدليس ، تنسب شرف استكشاف هذه الأشياء إلى أهل الصين ، محاولين بذلك أن يسلبوا العرب حقهم التاريخيّ فيها . يقول المنصفون إن الصينيين عرفوا صناعة الطباعة منذ القرن الثامن . غير ان أسماء جوتنبرج وفوست وشوفّر قد انتزعت منهم ذلك الشرف . فاذا كان العرب قد نقلوا عنهم مادّة الورق ، وهي من أخص ما يتصل بالطباعة ، ألا يكون من المعقول أيضاً ان يكونوا قد نقلوا عنهم الطباعة أيضاً ؟ وماذا تقول في الذين يدعون بأنهم أخذوا عنهم البوصلة أيضاً وقد ظل أهل الصين إلى سنة ١٨٥٠ يعتقدون إن في القطب الجنوبيّ اتون ملتهب تتلظى ناره ؟ اما البارود ، فإن كان قد ثبت لأهل الصين حقهم التاريخي فيه فانهم لم يستخدموه بنفس الاسلوب الذي استخدمه به العرب .

ولا يفوتنا ان نذكر أنه في حصار مكة سنة ٦٩٠ م . استخدم المحاصرون نوعاً من القنابر ، وان البارود استعمل في مصر في خلال القرن الثالث عشر لرمي قذائف مسافات بعيدة فتحدث صوتاً كأنه الرعد . ولقد ذكر ذلك أيضاً في وصف وقعة بحريّة بين ملك تونس وأمير أشبيلية في القرن الحادي عشر ، وذكر في القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٨) في حصار جبل طارق ، وسنة ١٣٢٤ في حصار بازه . كذلك استخدمه الملك اسماعيل ملك غرناطة سنة ١٣٤٠ ، والجزائريون سنة ١٣٤٢ ، ويؤخذ من وصف أهل فرّارة ان القنابر كانت تقذف بالبارود .

ولقد نقل أهل أوربا هذا الاستكشاف عند احتكاكهم بالعرب ، وأخذت جيوشهم تستخدم المدافع . ولو أن أهل أوربا هم الذين وصلوا الى هذا الكشف ، اذن لعثرنا في آثارهم على أقوال أو اشارات تدل على الخطوات التي تدرج فيها عندهم وتاريخ هذه الخطوات . ولكن الأمر على العكس من ذلك . فانك مهما استعمقت في بحث تاريخ العصر الذي استخدم فيه أهل أوربا هذه المادة ، فانك لا تعثر على أثر من تاريخ نشوئها عندهم . ومع هذا يحاول بعض المؤرخين نسبتها إلى أهل أوربا ، بالرغم من أن العرب استخدموها منذ نهاية القرن السابع الميلادي .

امّا البوصلة فليس هناك أي دليل تاريخيّ على أن أهل الصين قد استخدموها في الملاحة . في حين يتصل بنا أنّ العرب أخذوا يستعملونها منذ القرن الحادي عشر الميلادي لا في الملاحة البحرية فحسب ، بل في سياحات القوافل عبر الصحراوات ، وفي تعيين سمت القبلة لتعيين اتجاه مكة تعييناً دقيقاً .

وكذلك كان الأمر في الورق . فمنذ منتصف القرن السابع الميلادي (٦٥٠ م) كان ورق الحرير من منسوجات سمرقند وبخارى . وفي سنة ٧٠٦ م فكر يوسف المكّي في أن يستبدل الحرير بالقطن في صناعة الورق ، فأخرج بذلك الورق الدمشقي الذي وصفه مؤرخو الاغارقة . وفي إسبانيا شاعت صناعة الورق من الكتان والقنّب وشيدت لصناعته المعامل الواسعة ، وتنافست في اخراج مختلف أنواعه وضروبه كثير من المدن الاسبانية وفي مقدمتهم بلنسية . وفي القرن الثالث عشر استخدم الورق العربي في قشطالة ، ومن ثمّ انتقل الى فرنسا وإيطاليا وانجلترا والمانيا ، وما يشهد للعرب بمهارتهم في هذه الصناعة ، كشهادة مخطوطاتهم القديمة وقد خلفوها في ورق صقيل متين مزيّنة بضروب من الزخرفة هي موضع إعجاب العالم الى الآن .

فلا عجب إذن إذا نزع منصفو المؤرخين في العصر الحديث الى الاعتراف بفضل العرب

وفضل ثقافتهم على جميع المرافق الحضارية التي هي أعظم مظاهر المدنيـة الغربية . فانه في خلال الفترة الواقعـة بين القرنين التاسع والخامس عشر ، لم تخط الحضارة الغربية خطوة واحدة نحو الأمام إلاّ بفضل ميراثهم عن العرب ، سواء أفي الناحيـة المادّية ، أم الناحية الثقافية، كالفنون والعمارة والهندسة والآداب والعلوم .

٥ — تأثير الحضارة العربية في مدنية الغرب

كتب العـالم بايلي إلى فولتير الفيلسوف الفرنسي عبارة لا تزال تروى ويتناقلها المؤرخون فقال :

« إن الأمم الاوربية بعـد أن هاخت في أحضان المسَيحيَّـة ، قد عادت فاستنارت بغزوات العرب والاتصال بالأغارقة » .

أما المتفق عليه بين ثقاتِ المؤرخين فهو أن أثر العرب في تنوير أوروبـا ،كان أمكن وأثبت من أثر الأغارقة . ومن الدّلائل القاطعة على ذلك أن العرب هم الذين أحيوا في أوربا فلسفة الأغارقة وآدابهم وفنونهم ، وأعادوا الى العالم الحديث ذكر رجال من عظماء اليونان نسيت أسماؤهم وعفّـى الزمن على آثارهم .

ولا خلاف مطلقاً بين المؤرخين في أن العرب هم الذين تبنـّـوا الحضارة الاغريقيـة فترجموا عنها الى العربية جلة الآثار الثقافية التي وصلت يدهم إليها في مختلف فروع المعرفة الانسانية . ولم يقفوا عند ذلك بل شرحوها وأضافوا إليها وعلّقوا وحشّـوا من عندياتهم عليها ، فأورثوا الحضارة الحديثة أشهى ثمراتها العقلية والفنيـّة ، وكانوا بحق آباءً كراماً ، لورثة عاملين ، حفزهم ما رأوا في الآثارالتي نقلت إليهم، الى البحث عن الأصول التي ترجم عنها العرب، وما إن عثروا عليها حتى أكبّ عليهـا دارسون استعانوا بالصبر على تفهم آداب هوميروس وفلسفة أفلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من عظماء العالم الأغريقي القديم . ولقد قال المؤرخ « هايد » قولة حق إذ قضى : « بأنّ أكثر ما خلف الفكر اليوناني من الآثار العقلية التي عثرنا عليها في مخلفاتهم ، قد وصلت إلينا أول شيء عن الأمة العربية » .

لقد نقل العرب الى أنحاء أوربا ثمرات العقل الاغريقي ، قبل أن يبدأ الدارسون في أوربا التفقه في درس اللغة اليونانية في أواسط القرن الرابع عشر (١٣٦٠ م) وكان ذلك بمدينة فلورنسا أول شيء ، ثم بعد أن تفرق فقهاء اليونانية في أنحاء أوربا الشرقية بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (١٤٥٣م) . ولا شك مطلقاً في أن كثيراً من الـكتب

الاغريقية ، وبخاصـة في العلوم ، قد نقلت أول ما نقلت الى اللاطينية عن المؤلفـات والترجمات العربية .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من المؤلفات الاغريقية الثمينة ، لم يعرف لها أصل إلاّ مما كتب العرب . ولنضرب لذلك مثلاً . ففي العلوم الرياضية نقل العرب كتاب العالم الهندسي منلاوس الاسكندري في « المستديرات » ، وترجموه بعنوان « كتاب الاكر » ، ومن ثمت نقل الى اللاطينية ، ولولاهم لما عرف له أصل، ولا ثبت خبر. كذلك هم نقلوا الى العربية كتباً ثمانية وضعها العالم افولونيوس الفرغاوي في « القطوع المخروطية » ، نقل منها ابراهام الماروني (١٦٦١ م) الكتاب الخامس والسادس عن مخطوطة عربية في مكتبة آل مديتشي في فلورنسا. ولولاهم لما استطاع الأطباء إكمال تعليق جالينوس على مقالة ابقراط في الأوبئة ، إذ عثر على الترجمة العربية في الأسكوريال ، ولما استطاع العلماء أن يعرفوا شيئاً عن مقالة ارسطوطاليس في الأحجار ، لولا الترجمة العربية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس .

إذا تتبّعنا تاريخ المعرفة الانسانيـة ، وعرفنا أن أثر الثقافة الأغريقية قد امتد في الاسكندرية إلى ما بعـد الطور الروماني ، لما استطعنا أن ننكر أن العرب هم الذين ظلوا قوّامين على كنز الثقافة فتعهدوه ونمّوه منذ العصر الأغريقي الى عصر النهضة .

يقول المؤرخ الفرنسي مسـيو « ليبرى » : إنّ العرب اذا استحقوا التمجيد ، فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الأغريقيـة والهندية طوال عصور كفّت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئاً ، وكانت أوربا ما تزال في جهالتهـا ، عاجزة عن أن تحمل الأمانة الثمينة . على أنك اذا أوديت بالعرب من صفحة التاريخ ، إذن لتأخرت النهضة في أوربا بضعة قرون » . — ولا شك في أن مسيو ليبرى كان يصبح أقرب الى الحق اذا قال أن تلك النهضة ربما كانت قد اتجهت اتجاهاً آخر غير اتجاهها المعروف ، بل ربما كانت قد ضلّت السبيل القويم .

***

وفي مجال العلم خاصة بزّ العرب سابقيهم الرومان ، فكانوا بحق ورثة العالم الأغريقي . أضف إلى ذلك أن العرب لم يقفوا عنـد عظماء الأغارقة مثل أفلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريدس واقليدس وبطلميوس ، بل إنهم أكبوا على جماع الثقافة الأغريقية فنقلوا عن شعراء وخطباء وسفسطائيين ، لا ينبغي أن يقوم لهم ذكر الى جانب هؤلاء ، وفي ذلك دليل على أن نهمتهم للعلم والمعرفة لم تكن تعرف حدوداً ، ولا تقف عند غرض جلّ أو ذلّ .

٦ – الفلسفة الكلامية

عرفت هذه الفلسفة في أوربّا « بالفلسفة المدرسية » : Scholasticism ، وهي في الواقع صورة محوَّرة من فلسفة الكلام عند العرب .

نعرف أن العرب عكفوا على درس فلسفة المشائين ، أرسطو وأصحابه ، أكثر شيء ، ومن عكوفهم على درس هذه الفلسفة قد ولَّدوا فلسفة الكلام في اللاَّهوت الاسلامي . ولقد يرجع تصوير هذه الفلسفة وتحديد قسماتها الى الجدل الخلافي الذي قام بين الواقعيين والإسميين من فلاسفة العرب ، وكان الأولون يجرون على مذهب ابن سينا ، والآخيرون يجرون على مذهب ابن رشد .

ولقد حقَّق المؤرخ الفرنسي « هورو » أن الكندي فيلسوف العرب ، كان المرجع الذي اعتمد عليه الاسكندر الهاليسّي وهنري الغنتي والقديس بونا فنتورا ، بينما استمد وليم الأوفرني من تعريفات الفارابي وحدوده ، كما استمد منها فنسنت بوفيه والبرت ماغنوس (الكبير) . ومما يدل على أن فلسفة الكلام العربية قد أثَّرت في اللاهوت النصراني حقيقة ، أنَّ وليم الأوفرني كان يفضِّل العرب على الافارقة . لأن الافارقة فلاسفة أكثر منهم لاهوتيين ، والعرب لاهوتيون أكثر منهم فلاسفة . ذلك بالضرورة على قدر ميوله وبمقتضى نزعته .

على أننا اذا كنا نعتقد اليوم أن فلسفة الكلام ، سواء أعند العرب أم عند الاوربيين ، قد كانت من المباحث العقيمة ، فإنها قد أخرجت للبشرية بضعة مفكرين أحرار ، منهم المعتزلة عند العرب ، وقد ضاعت آثارهم أو تبددت ، ومنهم يوحنا اسقوطس أرغينا ، وبرنجاريوس وإبيلارد ، ووليم أوكام ، وتبعهم وليم هس وسافوناورولا ولوثر وبرونو وكامبّانلاّ .

بعد أن وضع العرب يدهم الجدَّدة على كل ما خلف الأغارقة من ثمار المعرفة والحكمة ، فنمّوها وأوسعوا من آفاقها في جميع النواحي ، أسلموا بمجاع ذلك إلى أوربا . وكانت إسبانيا أول بقعة أوربية تلقت عنهم . ففي القرن العاشر ، ذلك العصر الذي يمثل أقتم دورات الظلام في أوربا ، تراكت في إسبانيا ، على ما يقول المؤرخ « هلّر » كل الثمرات الانسانية ، فنمت فيها الدراسات العليا التي رفضها جميع العالم الانساني وأشاح عنها ، حتى في القسطنطينية منذ عصر ليون الايزوريّ (٧١٧م) .

وفي الحق أنه منذ القرن العاشر الميلادي أخذ الفكر الأوربي في إسبانيا يتجه نحو سمت آخر . فإذ ذاك ترجم يوحنا الأشبيلي الكتاب المقدس الى العربية ، وقام الفارو Alvaro القرطبي يلوم بني جلدته على إنهم تركوا لغتهم وشريعتهم الى لغة العرب وشريعتهم، فأخذ الفكر الاوربي في إسبانيا ينمو ويكبر ويشب عن الطوق فظهر هنالك أيطون أسقف ڤيش ولوبيت البرشلوني ، ورجل يقال له يوسف علّم أدلبيرو رئيس أساقفة ريمس ، وكلهم برّز في الرياضيات والفلك أخذاً عن العرب وآثار العرب .

٧ — العلوم الرياضية

أمّ اسبانيا في عصر ازدهارها بالثقافة العربيـة ، أولئك الذين تعطشوا للعلم وأمضّهم حب المعرفة . كان من أولئك دارسٌ كبير النفس كبير العقل يدعى غِربَرط (ولد في أوڤرني حوالي سنة ٩٣٠ ، وانتخب بابا سنة ٩٩٩ باسم سلڤستر الثاني وتوفي سنة ١٠٠٣ م .) ولقد عرف بمخاطراته وعلمه وأدبه وما تحمل من المشاق في سبيل العلم وتحصيل المعرفة ، فدرس في مدارس فرنسا وايطاليا والمانيا من غير أن يقع على مبتغاه من العلم ومن غير أن يجد فيها ما يشبع نهمته الشديدة للمعرفة ، فهبط اسبانيـا حيث وجد ضالته من العلوم الطبيعيـة والرياضيّـة ، فنقل منها الى فرنسا وايطاليا والمانيا قدراً كان موضع اعجاب العلماء والمتعلمين ونشره في الأوساط العلميّـة فكان منهلها العذب ومووردها الدافق . على أن روح ذلك العصر لم يكن ليترك رجـلاً مثل غربرط من غير أن يدمغه بأسطورة أو يحوطه بخرافة ، فقال بعضهم ان هذا الرجل قد حالفَ الشيطان .

***

ينسب إلى غربرط إنه أول من أدخل الأرقام العربية الى تلك البـلاد وانه أضاف الى الجبر والحسـاب بضعة مبادىء من وضعـه . ويقول المؤرخون انه أول من ركب ساعة تقيس الزمن .

على ان بعض المؤرخين يحاولون أن ينتقصوا الأثر العربي في ثقـافة غربرط ، فيقول بعضهم إنه لم يذهب الى قرطبة أو اشبيلية ، وهما من مراكز الثقافة العربية الكبرى ، بل اقتصر على زيارة لمقاطعة قطالونيا طوّف فيها بأنحاء ذلك الصقع طويلاً ، فان ذلك كله لم يحل بين المؤرخين ان يثبتوا انه مدين بكل معرفته للعرب ، وان معرفته الفذة التي كانت موضع اعجاب معـاصريه ، لا يمكن بل لا ينبغي أن يكون لهـا مصدر ، على ما يقول الثقة الثبت

« وليم أوف ملمسبوري » غير العرب وانها برمتها منقولة عنهم نقلاً لا تحوير فيه .

ان المثل الذي ضربه غربرط لأهل أوربا كان فذاً فائق الأثر، فراحت جماعات من المتعلمين يؤمون المنهل الذي استسقى منه . وكان منهم هرمنوس كونترا كتوس الألماني (المتوفي سنة ١٠٥٤ م) مؤلف كتاب « تأليف البوصلة » ، والانجليزي أدلارد (حوالي ١١٣٠ م) الذي ترجم اقليدس عن العربية ، والايطالي كومپانا نوڤارا الذي نشر « نظرية السيارات » ومنهم دانيل مورلي ، واوتو الفريزنجي ، وهرمن الألماني وافلاطون التيڤولي . أما جرارد الكريموني فقد ترجم في طليطلة نفسها كتاب الخازن وترجم عن ابن سينا والرازي وأبي القاسم والمجسطي لبطلميوس ، لاعن الاغريقية، ولكن عن العربية . ولقد جمع جيرارد من علوم العرب في طليطلة كل ما وصل الى يده في الرياضيات والطبيعة والفلك ، وحملها الى أهل أوربا . وفيه يقول مؤرخ ان جيرارد عاش في طليطلة وفيها لمع نجمه .

* * *

يقول المؤرخ مونتوكلا : كان العرب حفظة المعرفة والى نشاطهم التجاري ندين بأول أشعة من النور لمعت في سماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . ثم يقول :

في خلال ذلك العصر استمد كل الذين برزوا في الرياضيات من العرب وعلوم العرب ونشئوا في احضانهم .

ومن الثابت ان كل الذين كتبوا من الأوربيين في العلوم المحضة قبل القرن الخامس عشر لم يأتوا بجديد لم يكن يعرفه العرب ، بل انهم نقلوا عن العرب نقلاً ، وقليلاً ما أضافوا إلى ما نقلوا . على ذلك كان ليوناردو داپيزا الايطالي، وڤيتلسيو البولندي، وريموند لالي الاسباني ، وروجر باكون الانجليزي، ثم أرفو ده ڤيلنيف الفرنسي ، الذي ينسب إليه انه استكشف كحول الخمر وزيت التربنتين وغيرهما من المركبات الكيميائية .

وكان كل ما في أوربا في ذلك العهد من علم الجغرافية قاصراً على ما قال به الادريسي من تقسيم الكرة سبعة أقاليم ، وفي القرن السابع عشر عند ما حقق أبو اسحاق ابراهيم بن يحيي بعض الأخطاء الجغرافية ونشرها ، اضطر ابراهام هنكلمان الى أن يقول : « إن أكثر ما نحن مدينون به من الفضل والتنور ، وما يدين به أخلافنا ، إنما يرجع الى العربية » .

على أن الزيج المعروف الذي ينسب الى الفونسو العاشر وكذلك ما ينسب اليه من كلام في الأفلاك والكرات، إنما هو عبارة عن مجمل مما خلف العرب في علم الهيئة . لقد استمد هذا الملك الذي نعته أهل زمانه « بالعاقل » كل معرفته عن العرب ، ولقد تقدمت على يده

العلوم بما استقى عن أولئك الأعراب فكان من حلقات الوصل بين نظام بطلميوس الفلكي وكوبرنيكوس . على ان الثابت أن الزيج الألفونسي إنما هو استمداد من مختلف الأزياج الفلكية التي خلفها العرب بلا أقل شبهة .

عند ما أراد لويس الرابع عشر أن يقيس الدرجة الأرضية على خط الزوال ليعرف بذلك حجم الأرض ، لم يكن يعرف أن الخليفة المأمون قد قام بنفس ذلك العمل قبل خمسة قرون في بغداد .

***

يقول بايلي : ان أول خطوة اتخذت في القرون الوسطى نحو احياء العلوم كانت ترجمة كتاب الفرغاني في « مبادىء الهيئة » . أما الربي الاسباني « ابن عزرا » وقد نعت حيناً بالكبير ثم بالعاقل ثم بالباهر تقديراً لعلمه واعترافاً بما لكتابه « الكرة » من القيمة العلمية فقد ولد في طليطلة سنة ١١١٩م . وكان من الآخذين عن العرب في علم الهيئة ولقد نشر علم أساتذته الذين تلقى عنهم في أنحاء أوربا . وعن البتاني ، أكثر مما كان عن بطلميوس ، استمد العالم ساكروبوسكو (المعروف باسم يوحنا الهليوودي) مواد كتابه في «الكرات». وعنه نقل المعلق يوهان مولر ، الذي علق على كتابات روجيو مونتانوس الفلكي العظيم ، أول ما عرف في العلم الأوربي عن مماسات محيط الدائرة . وعن الخازن أخذ كبلر فكرة الانكسار الجوي . وربما رجع الى العرب الفضل الذي استحقه نيوتن بكشفه عن نظام تجاذب الأجرام ، أكثر من رجوعه الى سقوط التفاحة في بستان . فلا ينبغي للمؤرخ أن ينسى أن فيما كتب محمد ابن موسى[1] شيئاً عن حركة الأجرام السماوية وشيئاً عن قوة الجذب . وفي ذلك ما يكفي .

***

٨ — علم الطب

إن تأثير العرب في كل فروع العلوم الطبيعية ومنها العلوم الكيميائية والطبية ، لا يقل ثباتاً في التاريخ الانساني ، منه في العلوم الرياضية . ولقدكان روجر باكون وريموند لالي

(١) ترجمت كتب محمد بن موسى ونشرت في مجموعة لاطينية معروفة باسم :
Bibliot. arab. Philosophorum

من تلاميذهم في علم الكيمياء ، وكانوا يسمونه « الصناعة الكبرى » ، كما كانا من تلاميذهم في علم العدد والحساب .

ولقد أخذ عنهم ألبرت ماغنوس فلسفة ارسطوطاليس وكان يدعى البرتوس ، وهو البرخت جروتوس أو جروس ، وقد ولد في سنوابيا سنة ١١٩٣ ، وهو من الانسيكلوبيذيين المعروفين ، ومعلم القديس توماس اكوينوس أو توما الاكويني الذي سماه أهل زمانه ، كما سموا غربرط من قبل « بالساحر » .

وبعد سنة ١٦٠٠ ميلادية استطاع عالم نابه اسمه « فابريقيوس أكوابندنته » أن يقول في مؤلف له : « يرجع كل علمي إلى ثلاثة رجال سلوس من اللاتين ، وبولص الاجانيطي من الأغارقة ، وأبو القاسم من العرب » .

في عالم الفضاء برز البتاني . وفي عالم الأرض برز الادريسي . أما في عالم الطب فقد برز ابن سينا وابن رشد . وظل أثر هؤلاء قائماً في عالم المعرفة ستة قرون حتى انتهاء القرن السادس عشر الميلادي . على أن أثر ابن سينا في عالم المعرفة لم ينته بحلول القرن السابع عشر . فانه في القرن التاسع عشر نفسه ، ظهرت تعليقات على مؤلفاته في لوفان ومونبلييه في فرنسا .

ولقد اعترف بأثر العرب في هذا العلم كل كبار المؤرخين مثل بورهاف وهالّر ،ويقول بروكر : « حتى حلول عصر النهضة العلمية ، ظل ابن سينا ، لا في دوائر العرب فحسب بل في دوائر أوربا المسيحية ، الحاكم بأمره في عالم العقل » . وفي أوائل القرن الثالث عشر نقل الدكتور البرتغالي بدروجوان الذي كان رئيس أساقفة « براغا » ثم بابا باسم يوحنا الحادي والعشرين ، عن العرب كتابه المسمى « كنز المساكين » أو « دواء جميع الأمراض » ، ومقالته في « الصحة » ، ومقالته في « تكوين الانسان » ، حيث احتذاهم ولم ينحرف عنهم قيد شعرة .

ومن اسبانيا خرج جميع أطباء أوربا اطلاقاً ، وعنهم انتشر حب العلم الصرف وذاعت فوائده .

يقول هالر : ان الأطباء الاسبانيين في أثناء ذلك العصر الذين كان بنو جلدتهم يستردون من العرب أرض اسبانيا شيئاً بعد شيء ، استطاعوا أن ينقلوا الى أهل ايطاليا حب الآداب والعلوم » . وفي اسبانيا درس الأطباء اليهود الذين عرفوا في أنحاء أوربا بتبريزهم في صناعة شفاء الأمراض ، ومن ثمة نقلوا ثمرات العلم الى جوف أوربا . ولقد اتخذ الملوك والبابوات

أطباءهم من اليهود . ومن الأمثلة على ذلك أن طبيب الفونسو المقاتل ملك أراجون وإسمه بدرو الفونسو ، كان يهوديًّا فاستنصر . وكذلك بولس ريفيوس طبيب الامبراطور مكسمليان الأول ، كان يهوديًّا وظل كذلك ، وقد درس في اسبانيا حيث ترجم كتاب أبو القاسم وهو كتاب قال فيه « هالر » انه «النبع العام» في صناعة الطب

وقد انحدر الينا ان العرب أجروا كثيراً من العمليات الجراحية لم يكن يعرفها القدماء كما أضافوا الى الصيدلة بضعة مركبات كيماوية ذات أثر كبير في تقدم ذلك العلم .

* * *

إذا أغضينا عن ذلك كله ، قام عندنا دليل آخر على ما كان للعرب في علم الطب من أثر ورثته أوربا ، في أن جامعة « سالرنو » التي انتشرت براجها في جميع انحاء أوربا ، إنما يرجع انفاؤها الى العرب .

يقول مؤرخ : عند ما استرد روبرت جسكارد النورماني (سنة ١٠٠٠ م) مدينة سالرنو من القوم الذين يقال لهم العرب الذين احتلوا جنوبي إيطاليا أكثر من قرنين من الزمان ، وجد هنالك مدرسة تعلم الطب أسسها أولئك الكفّار . ولقد دلته حكمته على أن يحتفظ بها وأن يؤيدها بالمال والنفوذ وجعل رئاستها لرجل يدعى قسطنطين أفريقانوس (أي الافريقي) ، وكان من بربر قرطاجة أوقعته أسفاره ومخاطراته ، كالادريسي ، في يد النورمانيين بصقلية . وقد ألبسه قلنسوة الرهبان في دير جبل كسّينو الراهب المشهور دِسيدَرْيُوس الذي صار فيما بعد البابا فيكتور الثالث .وعند أوبته ترجم الى اللاطينية كل ما وقع اليه من كتب بني جلدته في صناعة التطبيب ، ثم ختم أعماله بتأسيس مدرسة سالرنو الطبية واليه يرجع الفضل في وضع كل المبادىء السالرنية في الطب وعنه أخذت.

وكذلك جامعة مونبلييه الفرنسية . فانها تعود في أصلها الى أهل أراجون (سنة ١٢٠٠ أو حوالي ذلك) الذين أخذوا عن العرب . ففضل ما نقل اليها من العلم يعود الى العرب بطريق غير مباشر . ولقد كان العرب معلمو ذلك الزمان غير منازعين .

اسماعيل مظهر

الوردة

قد حفَّها الشوك محتدّاً ومحتدماً خلَّتها أملاً مستشعراً ألما
وما اقتنت شوكها يوماً لتجعله جنداً ، كما زعمته الناس ، أو خدما
ولا لتجعل من أوراقها صحفاً تخط فيها ، ومن أشواكها قلما
وإنما هي أرحام قد اتصلت ووردة الروض ليست تقطع الرحما
لبّت ولم يدعُها داع ، وكم رجل أرحامه قد دعته فادّعى الصمما
رقيقة ، لو أجاب الله لي طلباً منها لقلت استحيلي في فمي كلِما
لم أدر هل سال في أوراقها شفقٌ أم أودع الله في أوراقها ضرما ؟
أم الندى وغدير النيل ما بلغا مدى صداها فاسقاها الربيع دَما ؟
أم نوديتْ هي والشوك الملم بها أن مَثّلا الشهوة الحمراء والندما ؟
أميرةُ الروض ، لكن لا تصانُ ولا يحمى لها في إمارات الرياض حمى
يا غصنها فيم تدنيها لقاطفها ؟ لا شك في أن كلاًّ منكما ظلما
قل لي بربك : هل أدنيتها عبثاً ؟ أم خيفةً ، أم وفاءً منك ، أم كرما ؟
لو أنني غصنها ما كنت أسلمها إلى « ابن آدم » مهما اعتزّ واعتزما
بل كنت أنأى بها في الجوّ متهماً هذا الذي قد مشى في الأرض ملتهما

شاعر البرازي

المدرسة المثلى

والتعليم الذاتي

المدرسة المثلى هي المدرسة التي لا يمكث فيها الزائر بضع دقائق حتى يشعر بأن محيطها مختلف جد الاختلاف عن باقي المدارس في الغاية والنتيجة : فغايتها أسمى من غايات باقي المدارس ، ونتائجها أرقى ، فهي لا تعمل للامتحان أو الاعتزاز بالظواهر. وفي هذه المدرسة عدد كبير من الطلاب وعدد كافٍ من المعلمين وبها ملعب وحديقة ، ومسرح ومكتبة .

أول خصائص هـذه المدرسة منظر الطلاب ونشاطهم ، وعلى وجوههم نضرة النعيم ، بعيدين عن الكسل والخمول . فان مقتبل العمر هو سن الحركة والنشاط ، كما تجده حواليك في الطبيعة . إذن فمصـدر الخمول هو المعلم الممل : ويقاس الفرق بين طالبين في ذلك ، بنسبة مقدرتهما على تحمل الملل الذي يعرض لهما في المدرسة بسبب عقم طرق التعليم ، فالطالب الذي يتحمل أكثر من غيره يكون نشيطاً ، والطالب الذي لا يتحمل يكون خاملاً .

الخصـيصة الثانية : هي حركة الطلاب الدائمة خلافاً للسكون المعتاد في المدارس الأخرى التي يُرى فيها الطـلاب ينهكون قواهم في مزاولة أشياء متعبة ، كالاصغاء المتقطع بالتثاؤب لسماع درس التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم أو غيرها من الدروس ؛ أو ينجزون عملاً لا قيمة له كحل مسائل رياضية ميكانيكية أو الرسم عن نماذج أو نسخ قطع الإنشـاء عن اللوح الاسود . أما في هذه المدرسة فكل طالب مشغول بشيء يهتم به ، ويجهد نفسه لفهمه أو حلـه ، وفي هذا حفظ لنشاطه وتجديد لسروره ، — ألم يقل أرسطو إن النشاط الحر المطلق عامل ضروري في السعادة والسرور ؟

والخصيصة الثالثة : أن ما يجري في هذه المدرسة جميعه يعبر عن النفس — فالطفل ماثل وراء ما يعمله ، وتلمح دائماً شخصيته في مداركها وتعابيرها من مخارج عدة ، وهي متنوعة وكثيرة وميسرة كل التيسير في هذه المدرسة المثلى فمنها : —

أولاً — المحادثة : وتكون بالتعبير الحر عن النفس وإبداء الرأي وطرح الأسئلة والمناظرة
ثانياً — الانشاء الخطي بأنواعه ، ويكون باختصار الدروس بلغة الطالب وانتقاء الملاحظات،ووصف الطبيعة ، وكتابة قصص قصيرة ، وتحويل الشعر الى النثر ، والنثر إلى الشعر
ثالثاً — القراءة الجهرية ، وهي التلاوة على الجمهور بصوتٍ عالٍ ، فيقرأ الطالب بفهم وروية على باقي الطلاَّب كأنه المعلم ، ونرى الطلاب يصغون له بشوق ولذة .
رابعاً — الالقاء — ويشمل إلقاء القصائد المختارة والقطع النثرية والأمثال السائرة والنوادر والملح والفكاهات .
خامساً — الغناء ويكون بإنشاد القطع الشعرية القديمة والحديثة .
سادساً — الرقص التمثيلي ويكون بتمثيل روايات قصيرة بحركات فنّية منسجمة .
سابعاً — الرقص البدوي وهو عبارة عن الدبكة وغيرها .
ثامناً — التمثيل ويكون بتمثيل بعض الروايات الشعرية أو النثرية ، ويكون بتمثيل بعض الدروس كالتاريخ والجغرافيا وحتى الحساب .
تاسعاً — الرسم بقلم الرصاص أو الطباشير الملوّن أو الزيت .
عاشراً — العمل اليدوي .
الحادي عشر — البستنة: وهي درس الحياة النباتية والدّواجن وهي درس حياة الحيوان .
الثاني عشر — النجارة ومجالها واسع في صنع الأشياء النافعة الضرورية كالرُّفوف والمكاتب والخزائن والكراسي والمناضد والمقاعد .
الثالث عشر — الطهي وهو خاص بمدارس البنات .
الرابع عشر — الخياطة والتطريز وشغل الإبرة والصوف وهذه أيضاً خاصة بمدارس الإناث.
ففي هذه الأعمال وما ماثلها يقف الطفل غير هياب ولا وجل ، ويظهر نفسه وينطق مداركه الكامنة ، فيندثر أثر التدليس من أعماله ويخلص في انجازها ، وأما المعلمون فعليهم أن يساعدوا الطلاّب على تهذيب أنفسهم بأنفسهم فيقدمون لهم أشياء ثلاثة لا رابع لها :— الرغبة والارشاد والمادّة ، وعلى الطلاب البقية من الجد والعمل والاعتماد على النفس — فهذا طريق غير ذي عوج ، وهذا هو الطريق المستقيم فمن سلكه اهتدى وكان النجاح حليفه .

أساس هذه المدرسة التعليم الذاتي أو تعليم النفس بالنفس : وهو أساس متين لا تنهار دعائمه ، وهو ما يعوز مدارسنا في المدن والقرى . وأعمال هـذه المدرسة تدل على أن النمو يأتي من الداخل ولا يمكن أن يوضع من الخارج ، وان النفس تنمو داخليًا وبواسطة نموها تتسع قوى المدارك وتتجلى قوة التعبير ، وعلى هـذا يكون واجب المعلم أولاً وآخراً : أن يشجع النمو — أي التعبير الذاتي .

لنفصل القول الآن في كيفية أو طريقة تدريس بعض المواضيع في هذه المدرسة المثلى : يُدرس التـاريخ بواسطة التمثيل ، فاذا ما مرّ الطلاب بحادث مهم يمكن تمثيله يشرعون في ذلك بلا تردد فيراجعون الكتب والحكايات التاريخية والمراجع الاخرى حتى إذا ما ملكوا ناصية الموضـوع بدأوا في نسج الرواية واعداد الثيـاب وغير ذلك . ثم يمثلون المشهد والمعلمون يشجعونهم ويشوقونهم ويرشدونهم ويساعدونهم واخوانهم الباقون ممن لم يشتركوا في التمثيل ينظرون إلى المشهد وكتبهم أمامهم، ومن وقت لآخر يصفقون استحساناً لما يبديه زملاؤهم ، وعلى هذا يفهم جميع الطلاب الدرس بشوق ونشاط زائدين ، وإذا طلب المعلم من فرقة أخرى أن تمثل درساً ما فلا تتأخر ، فالكل مستعد للقيـام بما يطلب منه : ففي مثل هذه الحال نجد لدرس التاريخ تأثيراً كبيراً على الطلاب ، كما انه يعود عليهم بالنفع العظيم إذ تمكث الحقائق التاريخية ماثلة أمامهم . وأما في مدارسنا الحاضرة فالحقائق التي ينقلها الطالب مملة لأنه يصرف ساعاته الطوال في سماع المعلم يتلو أخبار الأولين والآخرين ، فتدخل هـذه الأخبار من أذن وتخرج من الأخرى : وما أشد تلذذ الطالب بالدرس الذي يمثل أمامه ! وما أروع ما يفهم من روحه ، وما يدرك من حقائقه ! على أن التمثيل يدرّب قوتين كامنتين في الطلاب : وهما التخيل والحنان .

درس العلوم درس بارز في هـذه المدرسة ، فاذا ما أعطي الطلاب درساً عن موضوع كورق الشجر ، يأتي كل طالب بأوراق تساعده على دراسته ، وما على المعلم إلاّ أن يطالب من كل طالب ان يلاحظ الورقة ، ثم يخبر المعلم عن ملاحظاته ، فنجد الطلاب يظهرون قواهم الكامنة من حيث الطبيعـة ، ويتدرّج معهم المعلم في الدرس بالسؤال والجواب حتى يصل الطلاب إلى نتيجة مرضية ، فيحيطون علماً بمعرفتها وتقوى قوة الملاحظة فيهم . وهنـاك

جولات للطلاب والمعلمين في الحقول والحدائق والبساتين يقيد فيها كل طالب ما يلاحظه في دفتر خاص ، ويرسم الرسوم للايضاح ، وفوق كل ذلك يطلب المعلمون من الطلاب أن يفتشوا عن أشعار تصف الأشياء الجميلة التي يدرسونها في درس العلوم ، وهكذا يصبح درس العلوم أميل الى إنماء العاطفة بحياة الغير ودرس الطبيعة أكثر منه إلى حشو الدماغ. وبالجملة إلى الاعجاب بكل ما هو حسن وجميل ، وسأتحدث لكم على ذكر الاعجاب عن درس الرسم وأهميته في هذه المدرسة فأقول : —

إن ابراز النتائج الظاهرة أمرٌ لا يُهتم به في هذه المدرسة ، وقد يوجد ذلك ضرورة في الرسم لأن الفنان ينظر إلى النتائج المرسومة ، ومنها يقرأ أفكار الطفل الروحية الداخلية : وقد فحص أحد الفنانين عمل الطلاب في هذه المدرسة فوجده جيداً جدًّا ، مع ان المعلمين لا يعرفون الرسم كما يجب، وقد تعلمه الطلاب من أنفسهم فمهروا فيه . واليكم تقرير الفنان الذي زار هذه المدرسة : « لقد وصل الرسم في هذه المدرسة إلى أرقى درجة ممكنة لأن النتائج تعبر عن آراء الطلاب أنفسهم ولم تستعمل النماذج للرسم في هذه المدرسة ، فالطلاب يختارون نماذجهم بأنفسهم ويعتمدون على مداركهم ولا يبالون بالخطأ كما يُرى في غيرها من المدارس فكل طالب ينتقد نفسه بنفسه» ، وقد قال لي مدير المدرسة ما يأتي : « أعطيت كل طالب ورقة من شجر ما وقلت لهم : انعموا النظر فيها . ثم تحدثنا عن خصائصها حيناً ، وبعد ذلك طلبت منهم رسمها ، ولما فحصت النتائج وجدت فيها خطأً كثيراً ، فلم أقل للطلاب أخطأتم ولم أذهب الى اللوح الأسود لأبين الخطأ ، بل قلت : هل رسمكم في هذا القسم مثل الورق ؟ فقالوا : لا . فقلت : إذن ما هو الفرق ؟ فوجدنا الفرق ثم قلت : وكيف يمكنكم أن تغيروه ليصبح مثل الورقة نفسها ؟ وهكذا الى أن وصلنا الى النتيجة المطلوبة ، وبهذا جعلت الطلاب يلاحظون خطأهم بأنفسهم ولم أبينه لهم . وأشار الفنان بعد فحص رسوم الطلاب الى انه وجدهم يعرفون كيف يستعملون الألوان ، وانهم تدربوا على ذلك من أنفسهم ، وان المعلمين أخبروه أن بعضهم يذهبون الى ضفة النهر ليشاهدوا المناظر الجميلة فتثير فيهم الشعور بالجمال ، فلا يجدون طريقاً أقرب للتعبير عن ذلك الا برسمها : فهل من برهان أوضح على على أن تعليم النفس بالنفس هو الطريق الى النجاح» .

هذا شيء عن التدريب العقلي في هذه المدرسة ، ولكن نفس الطفل لا يمكن أن تقسم الى أقسام : فتدريب عقل الطفل يؤثر على نموه الخلقي .

ولقد مضى وقت كان يعطي فيه للمدرسة منحة خاصة على حسن النظام فيها ، وكان المفتشون يكتبون التقارير المفصلة عن ذلك ، فهذا أمرٌ غريب عجيب في تفسير غاية التربية والتعليم ، وإذا أردنا أن نكتب تقريراً عن نظام هذه المدرسة فيكون باختصار ، اذ لا نظام للمدرسة ، ولا حاجة اليها به لأن حب الطالب لمعلميه ولمدرسته يوثق عرى النظام والمحبة ولا يترك له مجالاً للتفكير في الخبائث ومخالفة النظام ، وحيثما توجد المحبة والاخلاص ، فلا مجال للخبث والغش ، ولا المراآة والخديعة لأن القوى المضغوط عليها هي التي تنفجر الى أعمال خبيثة شتى إذا لم تسر في طريق الخير والمحبة ، المحبة في هذه المدرسة نور ساطع والسرور انعكاسه : حدث يوماً أن كان معلم في المستشفى ، ومرض معلمان ، وتأخر بقية المعلمين والمدير لسبب ما نصف ساعة ، فأصبحت المدرسة خالية من المعلمين وعند ما وصل المدير الى المدرسة وجد الطلاب جالسين في صفوفهم يؤدون فروضهم حسب جدول الدروس كما لو كان معلمهم الى جانبهم ، وناب بعض الطلاب الكبار في الصفوف الصغيرة عن معلميهم ، واهتموا بها فكانت المدرسة سائرة بهدوء ونظام : من هذا الحادث تبين أن التعليم الذاتي يحمل معه الآداب والنظام المدرسي ، وإذا كان لا لزوم للقصاص في هذه المدرسة ، فانه لا حاجة للمكافأة أيضاً لأن كل طالب يجد سروره في عمله ، ونخره في مدرسته ، واحترامه في معلميه ، ولا يسعى ليبرّز على رفيقه .

إن التعليم عدوٌ الإنانية ، وغايته كما قلنا مساعدة النمو ، فهدفنا إذن أن نساعد الفرد على أن يتعدّى محيط فرديته ويهرب من نفسه الصغيرة : تدخل الأشياء التي تحيط بنا إلى أنفسنا وتصبح ملكاً لنا عن طريق المدارك الشعورية ، وبوساطة المدارك التعبيرية نخرج من أنفسنا إلى الأشياء التي تحيط بنا ، وهذان العاملان هما المظهران البارزان في التعليم الذاتي — فالتعليم الذاتي يوسع النفس ، ثم يسعى في نسيانها ، ويظهر حس الشعور الأخوي ، وأخيراً يوصلنا إلى السعادة الأبدية — الى مقت الأنانية : هذا ما يقوم به التعليم في هذه المدرسة المثلى ، وكل طالب فيها سعيد بنفسه ، لا يهتم أن يتفوّق على غيره ، أو ينال جائزة ،

لأنهم لا يحبون أن يجعلوا من غيرهم مطايا لهم : ومن برز منهم في درس أو أمر ساعد إخوانه المقصرين ليرتقي عمل مجموع الصف في كل درس أو شيء .

المتأخرون في دروسهم لا تثبط عزائمهم بتقصيرهم ، والمتقدمون في دروسهم لا يفاخرون بتقدمهم ! فمن المقصر الى المتقدم تجد كلاً جاداً في عمله مسروراً به . وحبذا نفحة من هذه المدرسة تهب على مدارسنا فتنسي الطلاب حب النفس والغرور، لأن حسن الأدب في المعاملة هو الغاية القصوى من تعلم الفضائل . فاذا أصبح محيط المدرسة بروح الوداد والإيثار ، والأخلاق الجيدة ، والخصال الحميدة بين الطلاب من نفسهم ، ساد اللطف بينهم ، وهو في حدّ ذاته إنكار الذات والاهتمام بالآخرين في جميع أعمالنا الاجتماعية .

يرى الزائر لهذه المدرسة التأهيل والترحيب به من كل فرد فيها كأنه صديق حميم ، أو رفيق كريم ، فهم يظهرون له كل لطف واعتناء ، وليس في ذلك تكلف لأنهم تدربوا عليه فأصبح مغروساً في طباعهم — أي أصبح طبيعة ثانية ، وإذا جاء هذه المدرسة مفتش تجتمع الطلاّب حوله يداعبونه بكل احترام وإعزاز ، ولا يني أو يتأخر الطلاّب الكبار عن مصافحته والسير معه أو تشييعه الى باب المدرسة .

ومن مظاهر هذه المدرسة التي انفردت بها حب الجمال ، فيتجوّل الطلاب في البراري والحقول ، في الحدائق والبساتين ، مصطحبين دفاتر الرسم ، يرسمون فيها ما يناسب ذوقهم ، وما هو جميل في أعينهم . ومن أخبار هذه المدرسة أن طالباً في يوم من أيام الشتاء كان جالساً في غرفته فأطلّت الشمس عليه من وراء السحب ، فهبّ من فراشه وأخذ قلمه ودفتر رسمه ، ورسم هذا المنظر الجميل ، فكان حس الطفل في التعبير عن المنظر السماوي عجيباً ، وكانت اللوحة آية في الابداع .

وأما الرّقص البدوي أو الريفي والغناء في هذه المدرسة فحدّث عنها ولا حرج ، لأنهما الظاهرة الخارجية لما تكنه بواطن الطلاب ، وهما دليلا السرور والفرح ، وابتهاج النفس والمرح : وترى الطلاّب في غدوهم ورواحهم في الأرياف والجبال ينظمون الحلقات ويشرعون بالرقص والغناء ، وإذا وجدوا أولاداً صغاراً في طريقهم أخذوهم من أيديهم ودرّبوهم على ذلك وأدخلوا السرور الى نفوسهم .

وإذا مثّل طلاب هذه المدرسة رواية فلا يتدرّبون على تمثيلها كثيراً ، وذلك لأنهم أخرجوها بأنفسهم فتكون نتيجة التمثيل جيدة يعجب لها الحاضرون : وصفوة القول أن هذه المدرسة فريدة في بابها عزيزة على طلابها يتعلمون فيها من أنفسهم تحت ارشاد معلميهم ويجيدون ما يتعلمونه لأن الدافع إليه من الداخل .

ما هي المبادىء التي نتعلمها من هذه المدرسة ؟ إن تلك المبادىء كثيرة منها : —

أولاً — إن التعليم الحقيقي هو تعليم النفس بنفسها — أي التعليم الذاتي — وهو يحتاج لإظهار مكنونات النفس بانتظام . فمنذ ٢٥٠٠ عام علّم ارسطو — أكبر معلم رآه العالم — مريديه إن طريق الخلاص يكون في سلوك سبيل نمو النفس . يقدر علماء التربية والتعليم أن يضعوا المبادىء الكثيرة ، ولكنهم لا يمكنهم أن يتقدموا خطوة واحدة عمّا في هذه الحقيقة . فالنمو حيث الحياة ، وجوهر النمو هو الاتساع الداخلي ، فجميع ما يوصل الى الكمال أصيل في كل إنسان وما عليه إلاّ أن يتحقق ذلك في نفسه ويسعى اليه .

إن فلسفة التربية والتعليم العملية موجودة فيما تقدم من هذه النظريات ، فما دمنا نتردد في الاعتقاد بصدقها والإيمان بحقائقها ، نكون قد أسأنا الى أنفسنا برعاية النتائج والظواهر الخارجية ، وجهلنا ما هو سر الحياة والنمو . إنه لمن السهل أن نعتقد بمبدإ التعليم الذاتي ونؤمن به ، غير انه من الصعب أن نتمثل معناه الداخلي والخفي .

إن الحلقات التي يقدر بها نمو كل شجرة من سنة لأخرى هي ذلك الاتساع الداخلي لتلك الشجرة ، وهو موجود في داخلها . نحن نفكر دائماً بشأن التعليم ، ونحن نسن نظاماً له وقوانين ونقيد غيرنا بقواعد كلية وارشادات عامة ، ظانين ان حلقات نمو النفس تأتي من الخارج — إن هذا إلاّ وهمٌ وتضليل ، وغش للنفس ليس بالقليل .

إذا فرضنا ان المبادىء التي تسير عليها هذه المدرسة المثلى صحيحة فكيف يمكننا أن نعمل بها ؟ السر في السكان لا في المكان ، السر في المعلمين لا في المتعلمين . فهل معلمو هذه المدرسة قد نزلوا من السماء ، وقد انطبعت شخصيتهم على المدرسة فجعلتها مدرسة مثلى : وأمثال هؤلاء المعلمين كثير بين المعلمين في جميع المدارس ، إذن كيف نكوّن مثل هذه المدرسة المثلى ؟ هذا سؤال عويص أقدر ان أجيب عليه بما يأتي : —

١ — إنني لا أظن ان معلمي هذه المدرسة قد نزلوا من السماء حقًّا ، أما ان لهم شخصية ممتازة ومغناطيسية، فذلك مما لا ريب فيه ، إذ ان هذه القوى المغناطيسية كامنة في كل واحد منا ، وأما ان لهؤلاء المعلمين مواهب طبيعيــة فذلك مما لا مرية فيه أيضاً — فالشخصية البارزة والموهبة الطبيعية قد كوَّنتا هؤلاء المعلمين فأصبحوا مُثلاً عليا للارشاد والتعليم الذاتي . ولقد أسعد الحظ هؤلاء المعلمين فأوجدهم في مكان لائق لاخراج الكوامن ، واتباع الطريق التي اختطوها فأوجدوا مدرسة مثلى — مدرسة نموذجية — سينقل عنها العالم بأسره ، وسيكون لها شأن عظيم في كل اقليم ، وستنتشر مبادؤها في القريب العاجل ، وقد شرعت المدارس الابتدائية في بلاد الانكليز باتباع تعاليمها والسير بموجبها ، وقد سرت العدوى منها إلى أكثر المدارس — وطرق التعليم كالمرض تسري بالعدوى ، فاذا أصبح التعليم الذاتي وحده متبعاً في جميع مدارسنا تمت الفائدة المنشودة ، وحصل المطلوب ، ولكن ما الذي يقف حجر عثرة في تغيير النظام الحالي في التعليم ؟ إنه ليس الامتحانات والنتائج الخارجية فقط ، بل الأصول المتبعة نفسها — إن الاتجاه نحو التغيير المطلوب هو ما تسعى وراءه البلاد المتمدنة بعد هذه الحرب التي لم تبق ولم تذر ، والتي دكت معالم وحصوناً ، ودرست تعاليماً وأصولاً ولكن مهما أتقنّا أو أكلنا أحوالنا جاءت معقدة عقيمة لأن هنالك نزاعاً قديماً في نفس كل انسان — نزاعاً بين الجمود والحياة . قد نظن أن ايجاد أنظمة وقواعد للتربية والتعليم ممكن نظريًّا ولكن الحقيقة غير ذلك ، فيغلب أن يقوم الواحد منا بعمل غيره عن طريق التدخل : وأضرب مثالاً لذلك بأن نجد المفتشين يتدخلون أحياناً في شؤون المديرين ، والمديرين يتدخلون في شؤون المعلمين ، فيرتب المفتشون المناهج ، ويقررون ساعات العمل حتى انهم ينظمون جداول ترتيب الدروس ، وكذلك يعينون العمل والمادة التي يجب أن تدرس في كل فصل . واما المعلمون فيَجدّون حتى لا يدعون للطلاب مجالاً يعملون فيه شيئاً من أنفسهم ، بل هم رقباء عليهم ، وعلى هــذا يصبح المرء مساعداً ومسيراً في جميع أعماله ، فيتعطل الاعتماد على النفس وتقضى على آثار الاستقلال الذاتي كما وجدنا فيما تقــدم وهو ان المدارس تسعى وراء الظواهر واتمام المناهج والامتحانات والعلامات وتحضير الدروس : قلنا ان الأعمــال الآلية قد أخــذت تخلف الأعمال النفسية ، وقلنــا

أن مظاهر التعليم الخارجية التي استولت على المدارس حتى أصبحت الغاية المقصودة التي يجري وراءها المفتش والمدير والمعلم والتلميذ هي اجتياز في الامتحان والحصول على العلامات الجيدة ، بينما نجد النمو الداخلي في الطلاب وهو الضالة المنشودة -- مهملاً كل الاهمال ولا يعتد به ، بل يقيد بالحركات والأعمال الآلية أي الميكانيكية . والذي هو أدهى من هذا وأمرّ أن المعلمين الذين تخرّجوا كالآلة المسيرة سيخرجون طلاباً مثلهم مضطرين مسيرين في حياتهم . فالأمل ضئيل والطريق مظلم والخلاص صعب ومستمر إلاّ إذا مشينا مشية الليث ،وسعينا المسعى الحثيث،سعي الجاد المشمر، ونظرنا إلى المستقبل نظرة المتفائل وقلنا : إن غداً لناظره قريب ، ولولا الأمل لبطل العمل .

نأمل أن تتلاشى موجة الفحوص الجارفة في الصفوف الابتدائية وتنجلي عن الطلاب أوضارها لأن ليس أضر على نفوس الطلاب الصغار من تعرضهم للامتحانات وهولها — هذه الآفة التي لا بد منها والتي هي شر في حد ذاتها .

لقد تقرر أخيراً في البلاد المتمدنة اعفاء الطلاب الصغار من الامتحانات ومن شبحها المخيف الذي يلازم الطالب الصغير وعما قريب سوف يتقرر اعفاء طلاب المدارس الابتدائية منها الا في السنة السابعة وهي الأخيرة من سني دراستهم في المدارس الابتدائية — فهذا يبشر بالنجاح الباهر وبالأمل الزاهر . إننا نرغب أن يفسح المجال للمعلم الغيور النشيط في عمله ليخطو الى الامام بقدم ثابتة وعزيمة قوية وراء غايته المنشودة . ولن يأتي التقدم في التربيـة والتعليم بعد اليوم من المراقبـة الشديدة ، وما مصدره الا المدارس التي يتلألأ فيهـا نور الحقيقـة — نور التعليم الحقيقي أو الذاتي — وإن بعد الفجر صبحاً ، وان بعد العسر يسراً .

اذا أردنا أن تكون مدارسنا مبعث النور الهادي في ظلمات هذه الحياة المطبقة، وجب علينا أن نترك المعلمين وشأنهم — أن ندعهم يخطون خطواتهم الواسعـة ، ويسيرون في طريقهم المعبد الذي سيؤدي الى النجاح ان شاء الله . ستقولون إن رحلاتي لأوربا لا سيما لانكلترا وزياراتي لمدارسها في المدن والقرى وشهودي التدريب والدرس وتخصصي في التربية والتعليم وفي الكشافة والرياضة البدنية واللغة الانكليزية ، قد جعلتني متشائماً

أنمي على بلادي ما أجده فيها من الأساليب السقيمة والطرق القديمة . كلاّ . فقد صيرتني هذه الرحلات والاختبارات متفائلاً أكثر من ذي قبل . فلقد تعلمت من المدارس الكثيرة التي زرتها أن في كل معلم وطفل قوًى كامنة ، وانه من السهل ابراز هذه القوى فيهما واستخدامها . فالتفاؤل لا التشاؤم هو ما يحدو المرء لرفع مستوى المقدرة أو المعرفة البشرية ، وان موجة واحدة من الفكر والسرور قد ترتفع بنا إلى أوج العلياء ، على أنه يجب ألاّ نقنط إذا تأخر مجيؤها أو إن لم تعم على طول الساحل ، وهذه الموجة وإن تأخرت آتية لا ريب في مجيئها ، وستتدرّج بالتدفق الينا حتى تشمل الساحل وتطم على الداخل ، واني متفائل جد التفاؤل ، والتفاؤل يفعم قلبي والأمل يزيدني وثوقاً في أن نفوس المعلمين والمطبوعين المخلوقين ستدأب وتتعب ، وتسعى وترغب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد الى قليل تقنع

لا شك في أن النفوس المستبشرة ستسير بالطلاب الى حيث النشاط والسرور ، الى حيث السعادة والحبور ، ما دمنا نعلم أن التعليم اليوم هو غيره بالأمس ، وأن ما يتعلمه الطالب من نفسه هو الذي يثبت وينفع ، وهو الذي يفيد ويشفع ، وهو الذي يجلب الخير ويمهد الطريق ويجعل الحياة لذيذة والعيش رغداً والتعليم سهلا .

إذا اقتنع كل معلم بأنه صاحب رسالة أخلص في عمله مهما ضؤلت عمالته ، ومهما ساءت حالته ، لأنه قبل أن يكون نبراساً وأن يكون الشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على غيرها ، وأخذ دائماً وأبداً يردد : فأما الزبدُ فيذهبُ جفاء ، وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض .

مسكين المعلم المخلص فانّ مثله كمثل النبي صاحب الرسالة يلاقي ما لاقى من العذاب ، ولكن يجب أن يصبر ويتحمل كل أذى ، فلقد أجاد المرحوم شوقي طيب الله ثراه حيث قال:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشىء أنفساً وعقولا
يا أرض مذ فقد المعلم نفسه بين الشموس وبين شرقك حيلا

فيأيها المعلمون المخلصون ! يأيها المعلمون الحقيقيون ! أصبروا وصابروا ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فالله بكل شيء عليم ، وسيأتي اليوم الذي يقدر فيه عملكم ، وترفع درجتكم الى المقام اللائق بكم ، وليس ذلك اليوم ببعيد ، وليس ذلك بعزيز على الجامعة العربية التي ستعمل على توحيد الثقافة في جميع الأقطار العربية ، والله من وراء القصد ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

يافا — فلسطين شريف النشاشيبي

الحمامة الطائشة

ضربت بقادمة الجناح ضحىً　صدر الفضاء وحلّقت صعدا
فكأنها في الجو حين علت　نتف الغمام تناثرت بددا
ويخالها من راح يرصدها　إذ حوّمت في الأفق سهم ردى
والريح تدفعها وتقذفها　قذف السفين تلاطم الزبدا
إن أسرعت أبصرت عاصفة　في جنح ليل جاش مطردا
وإذا ونت خطرت كغانية　راحت تجر مطارفاً جُدُدا
نشرت جناحيها كمروحة　والذيل لم ينفك منعقدا
وترف حيناً بالجناح كما　رفّ الشراع مصفقاً غردا
أو كالخزامى حين باكرها　من ريّق الأصباح صوب ندى

***

درجت تباري الريح غافلة　عما أعدّ لها القضاء غدا
والريح كالثكلى اذا ادركت　ولداً فراحت تندب الولدا
والسحب في الآفاق حائرة　كفراشة درجت بدون هدى
أو كالسقيم اذا تملكه　من يأسه ما استنفذ الجلدا
والليل — جياشاً ومضطرباً —　بحرٌ طغا أو خافقٌ وجدا

وحمامة الأيك المهتوف على غرب الرياح كتائهٍ شردا
ألقت لداعي الجهل طائعة لما دعا بزمامها فندا
ومضت وراء الغي عاكفة لا تستبين النصح والرشدا

***

هل أنتِ غير حمامة نزحت عن دوحة تطوي الفضاء سدى
قدمتِ للأحلام طائعة قلباً وأعطيت الهوى جسدا
ووهبتِ ثغرك غير آثمة للحب حين بكِ الغرام حدا
فتفتح الصدر اللجوج ضحى عن برعم النهدين مرتعدا
لم تمسكي عن لذةٍ عرضت كفَّ البخيل وما قبضت يدا
تجرين خلف هواك تائهة عجلى كمأموم اذا وخدا
عيناك متعبتان من صور لهواجس لا تنتهي أبدا
أمـل يكاد يشع بارقه في طرفك الوسنان متقدا
ومطامع في الصدر من ظمإٍ كالنار كادت تحرق الكبدا

***

بدمي وروحي طيش من درجت كفراشة تطوي الفضاء سدى
إني لأهوى كل طائفة ضلت وقد نزحت عن أيكها الجددا

دمشق عزالدين مردم بك

الحرب تؤدي

الى الحرب

كل حرب ناتجة من حرب أو حروب سابقة ومؤدية الى حرب مستقبلة ما دامت المنافسة سنة العمران وما دامت الأمم تختلف في مقدار قوتها وبأسها ونظامها ، وأوضح ما تكون هذه الحقيقة في الحروب العالمية الكبيرة التي تخلف مشكلات واسعة النطاق ولكنها تصدق أيضاً في الحروب الصغيرة . وإن خفيت وغمضت أحياناً . وقد تكون تأدية الحرب الى الحرب بطريقة غير مقصودة وبعيدة عن أغراضها . أو قد تكون بطريقة متصلة بأسبابها . فاذا نظرنا في تاريخ مصر الحديث وجدنا أن واقعة التل الكبير كانت متذرة بواقعة أم درمان وبأطماع إيطاليا في الصومال والحبشة وحروبها فيها .

وإذا رجعنا الى عهد الخديوي اسماعيل باشا وجدنا أن الحرب الداخلية في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية كان لها أثر في مصر فان انقطاع ورود القطن الخام من الولايات الجنوبية إلى مصانع انجلترة بسبب محاصرة أسطول الشمال لها أدّى إلى الإكثار من زراعته في مصر والى ارتفاع ثمنه ارتفاعاً كبيراً أغرى الحكومة والشعب بالاتفاق عن سعة . فلما انتهت تلك الحرب هبطت الأثمان وكان كثير من الناس يظنون أن هبوط الثمن هبوطاً كبيراً إنما هو أمر مؤقت وإنه سيعود الى الارتفاع وهذا مثل ما زعم الناس في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي أدّت إلى إفلاس كثيرين لاعتمادهم على عودة ارتفاع ثمن القطن بعد هبوطه ولم يصدقوا أنه هبوط دائم . وهذا الاتفاق عن سعة كانت له أسباب أخرى منها توقع إزدياد ثروة مصر زيادة كبيرة بسبب فتح قناة السويس لمرور تجارة العالم بين الشرق والغرب بها وربما كان سبب هذه الفكرة ما كان يذيعه المروجون لفتحها ، وأيضاً القياس على ثروة سلاطين المماليك وهو قياس لا يصح ،أولاً ـ لأن تلك الثروة كانت من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض على تجارة المرور وليس للدولة مثلها في قناة السويس .

وثانياً — انه لما كانت الصناعات يدوية في ذلك العصر كانت تقع على طريق مرور التجارة وتنتفع بها وتنفع الدولة والأمة . ومن أسباب الانفاق عن سعة أيضاً تعجل ثمرات الإصلاح والاعتماد عليها قبل أوان حلولها ، وارتفاع ثمن القطن بسبب تلك الحرب الداخلية كان من الأسباب . وهذا الإنفاق عن سعة أدّى إلى تداخل الدّول ثم بحلقات متصلة إلى الثورة العرابيّة . وإذا نظرنا الى حروب محمد علي باشا وجدنا أيضاً حرباً منها تؤدي الى حرب .

وإذا بحثنا تاريخ الولايات المتحدة وجدناه يسير على هذه القاعدة فحرب السنوات السبع التي نشبت بين انجلترة وفرنسا وأدّت الى انتقال كندا من فرنسا إلى انجلترة أشعرت سكان المستعمرات الانجليزية في الولايات المتحدة الأمان بسبب زوال الخطر عليهم من ناحية مستعمرات فرنسا . واستشعارهم الأمان أدّى الى نقد خطة انجلترة الاستعمارية نحوهم وإلى السخط من أوجه الأثرة فيها ولا سيما احتكارها الصناعة والتجارة فكان ذلك هو السبب الحقيقي لحرب استقلال الولايات المتحدة . وإن كان السبب الظاهر تشبث الحكومة الانجليزية بضريبة دخلها قليل ولكن النزاع كان على المبدأ . فحرب السنوات السبع مهّدت لحرب استقلال الولايات المتحدة وهذه الحرب الأخيرة مهدت للحرب الداخلية لأنّ هذا الاستقلال أدّى الى اعتماد الولايات الشمالية منها على صناعاتها وتجارتها بدل الاعتماد على الصناعات الإنجليزية وكان لتلك الولايات ميزات صناعية . ولكن الصناعة الناشئة فيها كانت تحتاج الى حماية، فكان همّ تلك الولايات فرض الضرائب على الصناعات الأجنبية لحماية مصنوعاتها من منافستها وأن لا تفرض على المزروعات كي تقل نفقات الصناعة ولم يكن يهمها أمر الرقيق ولم تكن في حاجة إليه لأن الجو يناسب العمال البيض . أما الولايات الجنوبية فكانت على عكس ذلك يهمها رخص المصنوعات الأجنبية وحماية مزروعاتها بالضرائب على المزروعات الآتية من الخارج . وكان يهمها بقاء تجارة الرقيق وزيادة الولايات المعتنقة لمبدأ تجارة الرقيق بين الولايات الجديدة . ولما كانت الولايات الشمالية صارت أكثر ازدحاماً بالسكان البيض فقد كثر عدد نوابها وخشيت الولايات الجنوبية سيطرة الولايات الشمالية فقرّرت حقها في الانفصال عن الوحدة ولو فازت هذه النظرية التي تعطي الولاية حق الانفصال لتجزأت الولايات المتحدة ولم يكن لها أثر في سياسة العالم .

ومن أجل ذلك قاتل أهل الشمال لحماية الاتحاد وصيانة الاتحاد أدّى إلى تعاظم الولايات المتحدة والى امتدادها كما في حروب آخرها الحرب العالمية الثانية . وإذا رجعنا الفكر الى العالم القديم رأينا أنّ حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ وحرب تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ هيئتا أسباب الحرب العالمية الأولى. ففي الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ انتزعت بروسيا الالزاس واللورين من فرنسا وأخذت منها غرامة كبيرة ساعدتها في نمو شأنها . وأدّت الحرب الى تأسيس الامبراطورية الألمانية الحديثة وصارت هذه الامبراطورية تدفع بالدول الى ميدان الاستعمار لأسباب كثيرة منها تصريف الزائد من مصنوعاتها التي زادت زيادة كبيرة لم يكن لها مثيل في ماضي تاريخها ومنها الرغبة في إيجاد مأوى لمن يهاجر من سكانها. ومنها أن تشغل فرنسا بالإستعمار عن التفكير في استعادة الالزاس واللورين ، ومنها محاولة إيقاع الدول المستعمرة في نزاع كي تكون المانيا حكماً بينها . وكل هذه الأمور هيأت الحالة النفسية والمادّية التي أدّت إلى الحرب العالمية الأولى وإن كانت شعلتها اشتعلت في البلقان بسبب جريمة سيراجيفو عندما قتل بعض الشبان من صقالبة الجنوب المؤتمرين في الصرب الغراندوق فردناند ولي عهد النمسا وزوجه . ثم أن نيل صقالبة الجنوب مآربهم من تركيا بحربي ١٨٧٧ و ١٩١٢ كان منذراً بحرب أخرى بينهم وبين النمسا لتحرير المقاطعات النمسوية والمجرية التي يسكنها الصقالبة . فالحرب العالميــة الأولى ناتجة من حروب سابقة حسب القاعدة العامة .

وإذا نظرنا الى الحرب العالمية الأولى والى عواقبها رأينا أنها لم تمح مشكلات العالم بل زادتها وهيأت أسباب الحرب العالمية الثانية لأن الحرب العالمية الأولى زادت مشكلة الشعوب الألمانية وخلقت مشكلات في بحر البلطيق وأواسط أوربا والبلقان وأدت بحلقات متصلة إلى البلشفية والفاشستية والنـازية وخلقت بين ما خلقت مشكلة الممر البولوني الذي أشعل نار الحرب العالمية الثانية وان كانت أسبابها متعددة ناشئة من كل ما خلفت الحرب الأولى من مشكلات .

وإذا ما رجعنــا إلى ما قبل حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ رأينا ان هـذه القاعدة تصدق أيضاً أي ان كل حرب تؤدي إلى الحرب فإن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ كان ظاهر

سببها ترشيح أحد أمراء أسرة الهوهنزلرن التي كانت تحكم بروسيا كي يكون ملكاً لاسبانيا فرأت فرنسا في ذلك تهديداً لها ولسلامتها من ناحيتين. فرفض هذا الأمير العرش الاسباني وكان هذا يكفي لتهدئة فرنسا ولكنها أبت إلاَّ أن تذل بروسيا بأن تتعهد لها هذه إن مثل ذلك لا يحدث في المستقبل فإن مثل هذا التعهد لا قيمة له إلاَّ ارادة اثارة نزاع جديد. وكان بسمارك السياسي البروسي يرى ان المانيا لا يتم اتحادها إلاَّ إذا قهرت فرنسا وأبعدت عن نهر الرين لأن فرنسا كانت لها أطماع في الدول الرينية. وقد نشر بسمارك الوثائق الكتابية التي تثبت ذلك فكان هذا مما أدى إلى امتعاض الدول من فرنسا ووقوفها موقف الحياد عندما هزمها الالمان واطماع فرنسا في الأراضي الرينية ظهرت أيضاً في عهد نابليون وفي عهد الدركتوار وفي الثورة الفرنسية. وقبل ذلك في عهد لويس الرابع عشر الملك البوربوني. وقد فقدت فرنسا كل ما غزته أيام الثورة الفرنسية وأيام نابليون ولكنها لم تفقد الأراضي الرينية التي استولت عليها أيام البوربون. ومن أجل ذلك قال بسمارك لبعض الساسة الفرنسيين « نحن إنما نحارب لويس الرابع عشر » وهذا دليل قاطع ان حروب لويس الرابع عشر بذرت بذور حرب ١٨٧٠ .

ويطول المقال إذا تتبعنا الحروب واحدة بعد واحدة ورأينا كيف تصدق هذه القاعدة فيها. فنرى أن كل حرب تؤدي الى حرب في المستقبل .

ولكن بعض المفكرين يقولون ان الحرب العالمية الثانية تختلف عن الحروب السابقة (أولاً) بسبب كشف سر القنبلة الذرية. و (ثانياً) لوجود هيئة الامم ومجلس الأمن العام. أما هيئة الامم فلا أراها تختلف اختلافاً كبيراً عن عصبة الامم في الجوهر . وأما القنبلة الذرية فإنها قد لا تمنع الحروب لأسباب (أولاً) ان الابحاث الذرية تقوم بها الآن دول كثيرة وليس من المستطاع الإشراف على كل بقعة في العالم لمنع صناعة القنابل الذرية . (ثانياً) إذا عرفت دول متعددة سر هذه القنبلة فمن الجائز ان تحدث حرب لا تستخدم فيها كما لم يستخدم غاز الخردل في الحرب الثانية في أوربا (ثالثاً) على فرض إنها استخدمت فمن الجائز أن يكون أثرها في قصر مدة الحرب أكثر من أثرها في القتل والتدمير وإن كان عظيماً . ففي الحروب الماضية كان الملايين من الناس يموتون في حرب أو عدة حروب بينهما فترات استجمام ولكن أسبابها

لا تتغير، فكانت مدة الحرب أو الحروب المتصلة الأسباب أطول ولكن الهلاك فيها أو بعدها بسبب المجاعات أو الأوبئة أو بسبب قتل الأسرى أو تعذيبهم أو اهمالهم أو استعبادهم لا يقل كثيراً عن الهلاك في الحروب الحديثة السريعة . والتخريب قديماً وان ضعفت أدواته كان تخريباً شاملاً حتى ان بعض الغزاة كان يقال عنهم ان النبات لا ينبت في أرض دمرتها جنودهم فكانوا يدمرون المدن ويقتلعون النبات والأشجار ويبذرون الملح في الأرض أو يسقونها بماء مالح كي لا تنبت شيئاً. ومن المعروف ان بقاعاً كانت عامرة هي الآن قليلة السكان والعمران بسبب تلك الحروب أو كانت الحروب من بعض أسباب خرابها أو تأخرها. ويبالغ أهل العصور الحديثة في زعمهم إنهم أرق إحساساً من أهل العصور السابقة وإنهم بسبب ذلك سينتهون عن الحروب وعن القتل والتدمير . فاذا قسنا رقة الشعور بالنزعات الانسانية ففي كل عصر كانت نزعات خير وأحلام بالسلام وإذا قسناها بآلات القتال فالعصور الحديثة لم تحجم عن استخدام آلاتٍ أشد هولاً من آلات القتال القديمة . ثم ان الظاهر ان الأمم قد تساق إلى الحروب سوقاً لأن الناس لا يسيطرون على نزعاتهم تمام السيطرة ولا يحكمونها حكماً تامًّا . والحرب الثانية لم تحل مشكلات العالم حتى يظن إنها خاتمة الحروب بل زادتها تضخماً واستعصاءً بالرغم من هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن العام. والنزاع بين الشيوعية والرأسمالية يزداد استفحالاً ومشكلة الشعب الألماني من العسير حلها حلاً نهائيًّا ولا تزال شعوب كثيرة تتطلع إلى التخلص من النفوذ الأوربي وبعضها به نزاع بين طوائفها. وكل هذه المشكلات بذور لحرب مقبلة لا تقل عن بذور الحروب الماضية ولا يستطاع القطع بأن الحرب لن تكون ونحن الآن في فترة الاستجمام ولكنه استجمام كله متاعب إلاّ انه قد يبعد عن الأذهان خطر الحرب المقبلة حتى تنسى ذكرى المستر تشمبرلين قبل الحرب الأخيرة عندما عاد بالطائرة من المانيا إلى انجلترة وصار يلوّح للجماهير بورقة اتفاق ميونيخ ويقول لقد كسبنا السلم !! ثم كانت الحرب بعد قليل . والحقيقة هي انه ما دامت الأمم مختلفة في مقدار قوتها ونظامها وما دامت المنافسة أساس العمران فمن الصعب تحقيق السلم الدائم . بل من المحال منطقيًّا ان يكون إذا لم نغالط أنفسنا في معنى تلك المنافسة ولوازمها .

ع . ش



نظرة شاملة

تشرف على أنظمة الحكم في العالم



يا عائب القدما بسوء نظامهم　　يهنيك عصرك للشرور منظما
تلك الشرور لها التمدن معدن　　والعلم والفن المدقق منتمى
لا تسفك الوحش الضواري دهرها　　ما يسفك الانسان في يوم دما
هذا ابن آدم فطرةً وحقيقةً　　لا يخدعنك إن أراد تكتما

توطئة

نعم هكذا حقيقة ابن آدم . لم يتقدم منذ ألوف السنين حتى اليوم ذراعاً أو ذراعين في شرف انسانيته وقضاء واجباتها ـ مع انه تقدم مسافات شاسعة واسعة تدهش قوة العقل وقوة التصور في الاختراعات والاكتشافات والعلم والفن والصناعة وتأنق المعيشة وترفهها والطب وسرعة المواصلات وتسهيلها . ان تقدم البشر في جميع هذه الأمور لا يجعلهم بنظر مفكرهم العاقل أرقى نفساً وطبعاً من أجدادهم الأولين سكان الغابات والكهوف وعشراء البهائم والوحوش . بل نرى آفات البشر بين أفرادهم وجماعاتهم لا تزال هي هي . وإذا أردنا شيئاً من التفصيل قلنا : لا ننكر ان هذه الآفات قد خفت وطأتها في بعض حالات المجتمع ولكن بعضها الآخر اشتدت وطأته في حالات أخرى من حالات المجتمع بحيث بقي مستوى المجموع على ما كان عليه في الأزمنة القديمة . ومن ثمّ يصح لنا ان نحكم حكماً جازماً بغير تردد إن أنظمة البشر في دولهم وأممهم قديماً وحديثاً قد أفلست تماماً وخابت كل الخيبة في اكساب المجتمع البشري رقياً روحياً صحيحاً .

وقد حان لنا ان نلتفت لفتةً عامةً إلى أنواع هذه الأنظمة التي اختارها الناس في ما مضى ولا يزالون يعوّلون على كثيرٍ منها في عصرنا الحاضر .

أنواع الأنظمة الحكومية ونتائجها

وموازنة بين نوعيها الأعظمين

إن استقصاء أنواع الأنظمة التي عرفتها حكومات العالم أمر شديد لا يستطيعه قلمنا في الوقت الحاضر وان استطاعه بعد بذل الجهد فليس من الحكمة أن يتناوله في مقال واحد كمقالنا الحاضر لأنه يدعو الى السآمة وتشويش الذهن وإعناته على غير فائدة تستحق الذكر ولهذا نكتفي في ما يلي بأهم أنواع الأنظمة الحكومية وهي هذه :

النظام الديني — النظام المطلق — النظام الاقطاعي — نظام تقديس القوة والمهارة — النظام النازي — النظام الدستوري — النظام الشيوعي .

أما النظام الديني فهو على سمو مقامه وقداسة مصدره لا يصلح إلاّ للامة التي تدين بدين واحد وان وجد بينها جماعات تخالف دينها العام فليس لها حق المساواة بالسواد الأعظم الذي تخالفه ديناً . وبديهي ان شرط هذا النظام غير متوفر للامم في زماننا الحاضر ولا فيما جاوزه من الأزمنة وأبرز الأمثلة على نظامه الديني حكومات بني اسرائيل وحكومة الخلفاء الراشدين في فجر الاسلام . وفي وقتنا حكومة ابن السعود في الحجاز ونجد . وحكومة الامام يحيى في اليمن فان أحوال هاتين المملكتين تساعدهما على استمداد الاحكام الدينية الشرعية في شبه الجزيرة العربية .

وأما النظام المطلق فقد كان عليه المعوّل في الأمم القديمة من بابل وأشور ومصر والخزر والفرس والترك والبربر والشعوب الاوربيـة القديمة . ولم يخرج عن هذا الحكم قديماً إلاّ قدماء اليونان والرومان . وهو لا يزال معمولاً به في كثير من القبائل الافريقية والأقاليم الهندية وفي جزر اليابان . وهذا الحكم ترجح بطبيعته سيئاته على حسناته كما تدلنا حوادث التاريخ وشواهد الحوادث الحالية . وانما تسعد البلاد وسكان البلاد في ظل الحكم المطلق حين يكون الحاكم عاقلاً عادلاً خبيراً . وهذه الخلال الثلاثة قلما اجتمعت في ولي الحكم . ومن الملوك المطلقي السلطة الذين نعمت بلادهم ورعاياهم في ظلهم معاوية الأموي وعبد الملك الأموي وأبو جعفر منصور العباسي وحفيده هرون الرشيد وابن حفيده عبد الله المأمون

والسلطان محمود الثالث العثماني وصلاح الدين الايوبي ومحمد علي باشا الكبير ومن سلالته الخديوي سعيد باشا . والامبراطور شارلمان والامبراطور الألماني فريدريك الثاني والقيصر الروسي اسكندر الثاني وأمير جبل لبنان بشير الشهابي . ويمكننا ان نعدّ من هذه الطبقة مئة رجل من فضلاء أصحاب السلطة المطلقة . ولكن اذا شئنا أن نحصي أردياء أهل العقد والحل من زملائهم اجتمع لدينا الوف من الملوك والأمراء . فكيف يثق أهل العقل بخيرات وبركات حكم مطلق والشاذ لا يبنى عليه حكم .

وأما النظام الاقطاعي فهو أفظع من النظام المطلق لأنه عند التحقيق هو هو مع زيادة دواعي الجور والقساوة فيه بتقسيم أملاك الدولة الى عدة قطع يقطع ملكها أو أميرها العام كل قسم منها رجلاً يجعله أميراً مطلقاً على ذلك القسم يضرب عليه الضرائب والمكوس كيفما شاء، وكل ما يهم الملك من أعماله هو أن يؤدي ذلك الأمير التابع له ما فرض عليه سنويًّا من أموال وأرزاق وجنود واستلام الاقطاع يكون بالمزايدة فالذي يعاهد الملك على تقديم أكبر جعالة له هو الذي يفوز برضاه ذلك الاقليم من المملكة ولو كان الرجل المزايد كما هو الغالب شر المتزايدين خلقاً وأقدرهم وأجرأهم في الجور وارهاق الناس على الف صورة وصورة .

وقد فشى الحكم الاقطاعي بين الدول الأوربية في القرون الوسطى التي انتهت باصطلاح علماء التاريخ في أواسط القرن الخامس عشر للمسيح. وكانت مدته أطول في أجزاء السلطنة العثمانية حيث بقي الى أواسط القرن التاسع عشر . ولا يزال الحكم الاقطاعي معمولاً به في بعض البلاد المسيحية .

وأما نظام تقديس القوة والمهارة وتقديمها على الحق والفضل والرحمة فأوضح صورة له في التاريخ طريقة الحكم التي اختارها يونانيو سبارطة قديماً لجمهوريتهم والذي وضع لهم هذا النظام المعوج وسجل مواده وشروطه رجل منهم اسمه ليكورغوس . وقد سرى نظام تقديس القوة والبطش من يونانيي اسبرطة الى غيرهم من الأمم فدسّوا شيئاً من روحه بين أحكامهم وعاداتهم ، وفي جملة هؤلاء عرب الجاهلية فإن تحليلهم السلب والنهب والاعتداء بحجة الغزو وافتخارهم في هذا السبيل يحسب ناحية من نواحي ذلك النظام الجهنمي

حتى ظهر الاسلام فأبطله كما أبطل غيره من المفاسد . ولكن عرب الجاهلية في ما عدا هذه الناحية أي ناحية الغزو كانت أحكامهم ومعاملاتهم شوروية نبيلة فيما بينهم لما طبعوا عليه من الصدق والصراحة والجرأة وعزة النفس .

وأما النظام النازي الألماني ويسميه كثيرون النظام الهتلري — وقد انقضى بانقضاء هتلر — فروحه الخبيثة هي روح النظام الاسبرطي بتقديم القوة على الحق مع غرضين خبيثين هائلين لم يكن النظام الاسبرطي يشتمل عليهما — الغرض الأول إذابة حق الفرد بحدذاته ومحو كرامته الشخصية تجاه مصلحة الدولة ومبادئها ومطامعها، فليس الرعايا كلهم إلاّ بمثابة آلات مختلفة التأثير والقوة وهي خرساء صمّاء عادمة الشعور تتصرف بها الدولة حيثما تشاء وحسبما تشاء . والغرض الثاني التسلط رويداً رويداً على ممالك العالم وشعوبه واستعبادهم وتسخيرهم جميعاً تحت النير الألماني بحيث يصبح البشر كلهم خدماً أذلاّء للشعب الألماني. والألمان أنفسهم خدماً أذلاّء لدولتهم . وهذا المبدأ بالغ منتهى الجور والتوحش حتى أن الفرائص ترتعد لهوله بمجرّد تصوره والتأمل هنيهة فيه . والذي وصل إلينا من مدونات التاريخ أن حب التسلط على العالم خامر قلوب دول وملوك قبل هتلر والألمان ولكن على غير تلك النية الخبيثة نية التسخير والتذليل والاستعباد ، بل على شكل أخف وطأة وأقل مقتاً وجوراً على شكل تبادل المنفعة والكرامة بين الغالبين والمغلوبين مع السعي جهد الطاقة في تمازج وتآلف الفريقين في معايشهم وعاداتهم وتقاليدهم بأمل أن تعمهم جميعاً وحدة قومية أو روابط قوية تشبه الوحدة القومية . هكذا كانت الأماني القصية بعد المساعي الجبارة في نفوس اسكندر المكدوني وقياصرة الرومان وملوك العرب ونابليون الأول .

بقي علينا الالتفات بوقفة أطول الى النظامين الباقيين النظام الدستوري والنظام الشيوعي وهما أشهر تلك الأنظمة وأقربها الى نيل ثقة أهل العقول ولكنهما مع ذلك لا يستحقان هذه الثقة لما فيهما من دواعي الخوف والخلل كما سيرى القارىء قريباً .

هذان النظامان نرى الخصومة اللدودة قائمة بين أتباعهما على قدم وساق إلى حد ينذر البشر بحرب عالمية ثالثة لا تبقي ولا تذر . والعياذ بالله من تحقيق هذه المخاوف بعد اتساع الخرق على الراقع .

حزب النظام الدستوري أو الشوري أو الديموقراطي سواءٌ كان بصورة جمهورية أو بصورة حكم ملكي مقيد تمشي في مليعته دول الولايات المتحدة الاميركية . وبريطانيا العظمى وفرنسا .

وخصمه العنيد النظام الشيوعي أو السوفيتي أو البولشفيكي ورافع لوائه النافخ ببوقه دولة روسيا المعروفة اليوم باسم الاتحاد السوفياتي وينصر مبادئها ومساعيها سرًّا وجهراً جماعات قوية في كل قطر من أقطار العالم وبينها شرقنا العربي والصين والهند وكثير من ممالك أوربا وأميركا .

إن النظامين يتخاصمان خصاماً لم تشهد العيون مثله ولا سمعت الآذان بمثله . وقد ينقلب هذا التخاصم بعد سنوات يسيرة إلى تطاحن استئصال وفناء . والذي نراه إن الذين يبقون سالمين من الشر بعد هذا التطاحن لن يتمتعوا بمعيشة دعة وسعادة ورغد سواءٌ كان النصر للدستوريين أو للشيوعيين فكل من النظامين عاجز عن أن يضمن أماناً واطمئناناً للبشر وعن أن يكافح الشقاء الذي يهددهم كفاحاً موفقاً محموداً .

لا ننكر أن النظام الديموقراطي أو الدستوري يرتكز على قواعد نظرية هي في منتهى الجلال والجمال لأن المراد منها تأييد الحرية والاخاء والمساواة . ولكنه كلما أصاب هذا الهدف الشريف مرة اخطأه مراراً ما دامت الثروة المالية في هذا النظام هي العامل الأعظم على التصرف بأحواله وتعيين مصيره . ومن ثمَّ أصبحت شروط النظرية الثلاثة الحرية والاخاء والمساواة أقرب الى الوهم منها الى حقيقة راهنة تشاهدها العيون وتلمسها الايدي . فالمال هناك هو الذي يوجه الانتخابات النيابية وغيرها من الانتخابات كما يشاء ، إذ يشتري من أصوات الناخبين ما يشاء . فأين يكون إذن نصيب الصواب والاستحقاق الصحيح ومكارم الأخلاق والفضائل السامية إزاء تلك القوة الغاشمة من المال . ان نصيب هذه المحاسن لا يكون حينئذٍ إلاّ صفراً الى الشمال . ومما يزيد الطين بلة والطنبور نغمة في هذا الخلل الاجتماعي نهوض شركات الاحتكار لكثير من الاصناف مما هو عند التحقيق سلب مقدّم لجانب كبير من أموال الناس وثمرات أتعابهم . وكل ذلك منشأه انحصار معظم أموال الأمة بأيدي فئة معينة من الرجال لا يزيد عددهم على واحد في المئة من مجموع الأمة . وكم نرى في البلاد

الديموقراطية بيت غني عظيم يتمتع بأعظم ملاذ الحياة وأطيب مطايبها وأبهج مباهج الدنيا وهو مع ذلك لايستغرق إلا عشر دخله المالي، ثم يدخر تسعة أعشاره الباقيـة في خزائنه الحديدية أو في المصارف الكبيرة. وحوالي ذلك البيت الغني ألف بيت يكاد أصحابها يقتلهم فقرهم جوعاً وعرياً وسوء معيشة. فما الذي يستفيده أصحاب هـذه البيوت المسـاكين من ادعاء المـدعين أن نظامهم الديموقراطي الشريف . . . قائم على ثلاثة أعمدة راسخة متينة البنيان هي الحرية والاخاء والمساواة . . . ألا يرى أولئك المساكين ان هذه الدعوى زور وبهتان أو نفاق في نفاق . وانما يستخدمهـا أولياء الامر مخدراً قويـاً لأعصـاب خمسة وتسعين في المئة من أبناء الأمة لـكي تتحمل أجسادهم الطعنات الدامية التي يجود بها عليهم الباقون من شركائهم في الوطن وهم خمسة في المئة.

هذا هو الوجه الحقيقي العملي للنظام الديمقراطي في عصرنا الحاضر مما يؤدي بين الفترة والفترة. والفترات كلها قصيرة الأمد الى ثورات دامية واضرابات واعتصابات وقلاقل آخذ بعضها برقاب بعض لها أول وليس لهـا آخر. فأي منصف يدّعي الكمال أو محاورة الكمال للنظام الديمقراطي.

وأما النظام الشيوعي فان تباعه ينعون على خصومهم الديموقراطيين ما تقدمت الاشارة من أنواع الخلل وضروب الجور الاجتماعي مع بطء سير المعاملات الرسمية عندهم تبعاً لشروط نظامهم الديموقراطي المذكور. ولاشك ان الشيوعيين يجسمون مساوىء خصومهم ويبالغون فيها ثم يعطفون على نظامهم الشيوعي فيذكرون في البراهين على فضله عدم وجود اعتصـابات واضرابات ومجاعات في بلادهم ثم يذكرون تقارب رعاياهم في الثروة والتمتع بمعيشة حسنة مع سرعة سير المعاملات الرسمية عندهم.

فيرد عليهم الديموقراطيون قائلين. ان المعيشة في المجتمع الشيوعي متقاربة الدرجات كما يدّعي أصحابها، ولـكنها على كل حال عيشة ذات مستوى منخفض ليس فيها من أطايب الحياة مقدار يستحق الذكر طعاماً وشراباً وكسوةً ومأوى. وأهم مما ذكر ينتقدون على الشيوعيين سلب حرية الفرد وكرامته في سبيل طاعته العمياء لدولته ونظام دولته. فهم في هذا المبدأ الجائر يجرون مجرى الحزب النازي الألماني كما انهم يستنكرون منهم أشد الاستنكار عدم مبالاتهم بالدين وأوامر الدين ونواهيه. متخذين الـكفر والالحاد ديناً لهم.

ونقول نحن ان أغفال الدين خطأ بل عناد بارد لا معنى له لا سيما بعد ما أبنت بالتنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح وانتقال الأفكار وازدواج الأشباح وصدق كثير من الاحلام وغير ذلك من متعلقات علم الغيب ان النفس البشرية لا تفنى بفناء جسدها وان بعد الموت غير عالم أرواح وان جهلنا كيفيته . وان لهذا العالم صلة بعالمنا الحالي وان جهلنا مقدار هذه الصلة وشروطها ان هذه الامور كلها قد ثبتت الآن علميًّا حتى ان كثيرين من العلماء اعترفوا بها وقد كانوا يجحدونها ولا يزال الى الآن فريق ينكرها وهو فريق غير كبير . وفريق آخر عظيم يتردد بشأنها بين النفي والاثبات . وعلى هذه يقوم أساس الأديان الراقية من يهودية ونصرانية ومحمدية .

ما الذي نستنتجه ؟

ان ما تقدم معنا بيانه لا يكلفنا عناء في استخراج النتيجة المبنية عليه . بل دعانا سياق الحديث في صدر هذا البحث إلى ذكر النتيجة المذكورة. ولا بدَّ هنا من العود الى ذكرها وهي ان نظم الحكم في العالم ليس بينها نظام واحد كان كافلاً برفاهية البشر وأمنهم وراحتهم وان تفاوتت تلك النظم في حسنها أو قبحها في السبيل السوي الواجب اتخاذه لأجل تأمين البشر واسعادهم ؟ والذي يلوح لنا أن هناك سبيلين ، فالسبيل الأول منهما شديد البعد والصعوبة وان لم يدخل في حيز المستحيل . والسبيل الثاني أقل بعداً وصعوبة وإن اعترضته عقبات جمة لا يستهان بها .

أما السبيل الأبعد الذي لا يعد مستحيلاً فهو أن تجعل ممالك المعمور كلها بمثابة مملكة واحدة لها مركز عام تتولاه أقطاب هذه المملكة العالمية وقد يجعل هذا المركز دائماً وقد يستصوب ضرب مهلة له من السنين فاذا انقضت المهلة اتخذ لهذا المركز مكان آخر. ثم مكان ثالث الى ما شاء الله . وأما ممالك المعمور الحاضرة فتكون شبه ولايات تابعة ذلك المركز ولا بدّ أن تتمتع كل منها باستقلال داخلي اداري واسع النطاق مع تبعيتها للمركز في التدابير العامة وفي كثير من التدابير وفي كل القوانين والأحكام أو في جلها .

هذه الفكرة الجريئة يتبناها اليوم بعض دهاة الرجال ولكن الصوت بشأنها لا يزال ضعيفاً فاذا امتد واشتد حامت الآمال حواليها .

هذه الفكرة الجريئة متوغلة في قدمها فقد عرج عليها منذ أربعة وعشرين قرناً الفيلسوف اليوناني أفلاطون وبسط مجملاتها ومفصلاتها في كتابه المعروف . بجمهورية أفلاطون . ثم هبّ لنصرتها الفيلسوف المستعرب التركي الأصل أبو اسحق الفارابي منذ احد عشر قرناً

وهو الرجل الذي يلقبه العرب بالمعلم الثاني لأنهم يلقبون أرسطو اليوناني أو كما يسمونه إرسطاطاليس المعلم الأول اذ اقتبسوا من مؤلفاته اليونانية كثيراً من ألوان العلم . وقد بسط الفارابي آراءه وتصوراته بشأن توحيد دول بني آدم في كتابه « المدينة الفاضلة » ثم تناول هذا الموضوع وعالجه حسب آرائه منذ ثلاثة قرون الكاتب الفرنسوي جان جاك روسو .

واليوم عاد أناس من كبار المفكرين الى هـذه العقلية التي كان أسلافنا معذورين في أن يضربوا عنها صفحاً لأول وهلة لصعوبة ما كان عليـه المعمور من صعوبة مواصلات وتبادل معاملات وقضـاء الوقت الطويل ولو بين مصر وسوريا مثلاً في القول بين مصر وسيبيريا أو بين سوريا وأستراليا الى ما شاكل ذلك من الأقطار المتباعدة . هـذا فضلاً عن اليأس من استخدام وسيلة لتفاهم النـاس بألسنتهم وأقلامهم . ومن ثمّ كانت فكرة توحيد المعمور تحت رايات دولة واحدة أمراً مدهشاً أقرب الى الحكايات الخرافيـة والتصورات المستملحة المراد منها أنس التفكهة أو لذّة التعلل . وكثيرون من أصحاب المزاج العصبي الحاد كانوا لا يحسبون هذا المشروع إلاّ مهزلة ودليل حماقة وسخافة عقل .

وأما اليوم فلا نقول أنه أصبح تحقيقه على قاب قوسين منا، بل نعترف أنه لا يزال على جانب عظيم من الصعوبة . ولـكن كثيراً من مصاعبه قد زالت بفضل تقارب المسافات وسهولة المفاوضات بفضل القطر الحديدية والطيارات والبرق والبريد والهاتف . وأما تفـاهم البشر مكاتبة ومخاطبة فلسنا ننظر إليه نظرة يائس متحسر كما كان أسلافنا ينظرون . بل أصبح من الجائز لنا أن نضمر أملاً وطيداً بنيل هذه الأمنية العظيمة عن طريق تعميم لغـة السبيرانتو السهلة البسيطة التي وضعها واضعوها لأجل هذه الغاية غاية التفاهم البشري عموماً فاذا تضافرت الهمم والمساعي بين الأمم على جعل درس هذه اللغة اجبارياً في المدارس ولو سنة أو نصف سنة يحشر درسها في أثناء هذه المدة القصيرة بين بقية الدروس فيحكمها دارسوها ولا تمضي عشر سـنوات حتى نرى كل زاوية بل كل قرية من هـذا المعمور فيها من يحسنون لغة السبيرانتو تكلماً وكتابة بحيث يصبح العارفون بهـا وقد لا يقلون بالتدريج عن نصف مجموع البشر وسطاء فعالين للتفاهم العمومي . هـذا مع احتفاظ كل فرد وكل شعب بلغته الخصوصية في كل الأحوال التي لا يحتاج فيهـا الى وسيلة تفاهم بينه وبين الغريب عن لغته ذلك عندما لا تقع معاملة أو مفاوضة بينه وبين هذا الغريب أو عندما يقع بينهما ذلك ولـكي يكون واحد منهما عارفاً لغة الآخر .

الى هنا انتهينا من تقديمنا وتقديرنا بشأن اتخاذ السبيل الأصعب لانشاء رابطة بشرية

عامة تتكفل بالسلام العام والأمن التام وتقضي على مخاوف الحروب بين الأمم ولتقي به المصائب والويلات الشاملة لمشارق الأرض ومغاربها بجعل هذا الكوكب السيار المسمى أرضاً تحت ادارة وتدبير دولة واحدة فاذا نجم حيناً بعد حين في هذا الاقليم من هذه الدولة أو في ذاك الاقليم ثورة أو فتنة فلا يكون الخطب الا خفيفاً محمولاً « يمكن حينئذٍ اخماد الثورة والفتنة في أقصر وقت على أبسط صورة » .

ولنلتفت الآن الى السبيل الثاني الذي هو أقل صعوبة وبعداً وآمال البشر بتحقيق أعظم هذا السبيل القريب ولو قرباً نسبيًا يقوم باختيار المحاسن التي ثبت ظهورها من النظامين الديموقراطي والشيوعي واجتناب عيوبهما التي ثبت أيضاً ظهورها فيجعل من هذه النخبة وهذا المزيج الحكيم لقيام حكم جديد لا يلبث أن تعم بركاته الخافقين وتتخذه طوعاً واختياراً جميع العناصر البشرية . هذا مع السعي الى توحيد ما يمكن توحيده بين أجزاء المعمور في الثقافة والتعليم والنقد والموازين والمكاييل والمقاييس وازالة المكوس والعوائق السفرية ومواقع التوطن والارتزاق هنا أو هناك فتزول ثلاثة أرباع مخاوف الناس المستحوذة اليوم على قلوبهم ومشاعرهم وهو تدبير عالمي يتطلب عقولاً جبارة . وجبابرة العقول لم تحرمنا الطبيعة وجودهم ، بل يمكننا العثور على أفراد منهم في كل بقعة من بقاع الأرض ولكن الذي يجوز أن يعوزنا ونخشى أن تكون الطبيعة قد حرمتنا فهو وجود جبابرة الفضل والفضيلة والاخلاص والنزاهة والاخلاق الكريمة فاذا وجد ولو عشرة رجال ذوي مناصب عالية على هذا الطراز بين دول الأرض وشعوبها استبشرنا بالنجاح والفلاح وانقشاع هذا الكابوس الثقيل عن صدورنا والا فعلى الدنيا وساكنيها السلام .

وتأييداً لكلمتي الختامية هذا أنقل للقارىء أبياتاً من قصيدة لي حديثة تناولت فيها ناحية من مشكلات العالم وحوادثه على أثر انتهاء الحرب المسكونية الأخيرة :

وقامت وفود ومؤتمرات   لتحقيق آمالنا الغاليه
بروقٌ رعودٌ غيومٌ ولكن   من الغيث خالية خاويه
ألا إنما طي جذع الاراكة   لا فرعها العلة العاتيه
أينفعها رش أوراقها   وأسباب علتها باقيه
إذن ما عهود اللسان تقي   بل عهود الضمير هي الباقيه

اللاذقية — سورية

ادوار مرقص
عضو المجمع العلمي السوري



أسباب القلق الدولي

الاستعمار : الحائل دون سلام العالم

لسعادة عبد الرحمن عزام باشا



إذا استطعنا أن نرجع بذاكرتنا إلى الماضي القريب ونتأمل حالة العالم عند ما كانت الحرب العالمية الثانية — بجميع أهوالها — تنزل الفناء بالشعوب وتنشر الدمار والخراب ، لرأينا أن العالم كان إذ ذاك مقسماً إلى ثلاث طوائف : اثنتان محاربتان وطائفة محايدة . غير أن الطائفة الأخيرة لم تفلت من خداع الفريقين الأولين وحيلهما .

وكانت كل من الدول المحاربة تكيل التهم على رأس الأخرى وتوجه اليها الاتهامات التي يصعب إثباتها ولا تجدي مناقشتها . وأكد كل من الفريقين انه كان مظلوماً وانه ضحية لعدوان الفريق الآخر ، وزعم انه كان يحارب الحرب الشريفة تأييداً للحضارة ونصرة للحق .

ولسنا نُعني الآن بشرعية هذه المزاعم أو عدم شرعيتها ، بل علينا أن نبحثها على ضوء قيمتها ونرى هل تستند الى أساس صحيح أم لا .

وتتألف الطائفة الثالثة من الأمم التي انتهكت سلامة أراضيها وحقوقها عن عمد ، ومن الأمم التي هددت بمصير مماثل . بيد أن الأمم الأخيرة كانت متيقظة تسلح أنفسها تسليحاً كاملاً ابتغاء تحاشي مثل هذه النكبات .

الأسباب الرئيسية

والواقع اننا اذا ألقينا نظرة عامة على اسباب الاضطراب بين الأمم في أثناء القرنين الأخيرين لرأينا أنها كانت تزداد خطراً وربما بلغت ذروتها في الحرب الأخيرة عند ما اشتركت فيها القارات الخمس بأسرها .

وقد يُسأل : ما هي أسباب هذا الشرّ المفزع الدائم النموّ ، وما هي تلك الأهداف المعتلّة التي ظلت بغير تحقيق في خلال العصور والتي لم تحقق بعد ، والتي يحتمل أن يكون من المتعذر تحقيقها ؟

أهي الجشع بعد التوسع ، والمزاحمة الدنيئة للسيطرة على الشعوب الضعيفة إبتغاء تجريدها من ثروتها وبمواردها ؟

أهي حرب الطبقات أي الصراع بين الذين يملكون والذين لا يملكون؟
أهي المباهاة بالقومية أو ببغض الأجناس أو التخلق بالأنانية المفرطة والطمع والتلهف على احتكار السلطة مع تجاهل حقوق الطبقات الأخرى والأمم الأخرى والأجناس الأخرى؟
أم هي الموجة الطاغية للمادية واشتهاء الترف مع ما يصحبها من عواقب لا انفصام لها عنها؟ أم هي تكديس الثروة والاغراق المفرط في اللذات كهدف رئيسي للحياة وبهذا تزيد هوة الخلافات بين الطبقات والأمم فتلجأ الواحدة إلى مخادعة الأخرى مع ما يترتب على هذا من صراع داخلي وصراع خارجي؟
أم هي انكسار المعنويات تحت ثقل قوات المادية المتدافعة وبهذا تتقوض أسس الخلق، وتتزعزع المعتقدات وتنجاب التقاليد النبيلة وتخبو النخوة وتتداعى عرى الإخاء وتنتهك العهود والاتفاقات؟.
قد تكون سبباً من تلك، أو مجموعة من هاته العوامل، غير أن النتيجة النهائية التي تتمخض عنها هي أن يكتب للخيانة والخداع الهيمنة، وتحل الخشية وعدم الثقة محل الثقة، ويصبح التأهب للحرب وإعلانها الفجائي سُنّة العصر.

التأثيرات المروعة

بيد أننا إذ نرجع ثانية إلى سبب — أو أسباب — هذه الحالة الخطيرة، سنقتصر — حرصاً على تحقيق الهدف المقصود بهذا السرد الموجز — على أول أسباب الاضطراب الدولي وأهمها ويمكن حصره في كلمة واحدة هي « الاستعمار »، أي الاستعمار الحديث، وهو المبدأ الذي يبشر بامتلاك ما يسمونه مستعمرات ودولاً غير مستقلة، واستغلالها بأوسع ما تحتمل هذه الكلمة من معانٍ على حساب السكان المعوزين ابتغاء زيادة ارتباكهم وإفشاء سخطهم.
والحق أنه لا يمكن أن نجد دليلاً على النتائج الممقوتة المروعة للاستعمار أجلى وأوضح من الحقيقة الماثلة وهي أن الحروب أصبحت أمراً عالمياً عقب انتشار مبدأ الاستعمار الجديد والدعوة له في جميع ربوع العالم.
فالاستعمار الحديث كان يتطلع إليه بشوق أفرادٌ وأمم، وعُدَّ الطريق السامي الذي يفضي الى الشهرة والثراء والسلطة. وتبارت الشعوب للظفر به وتزاحم بعضها مع البعض الآخر لتحقيقه، وأشربت نفوسها بالحقد بسببه دون نظرٍ إلى حقيقة ماثلة هي أن بعض روّاد الاستعمار سقطوا ضحايا شكوكه، ولنذكر على سبيل المثال ما حلَّ بالاسبانيين

والبرتغاليين والفرنسيين . والحق أنه تستمد دروس غير قليلة من المصير المروع الذي آل إليه دعاة الاستعمار وأبطاله المحدثون .

وقد قال رئيس الوزارة الإيطالية الأسبق « نيتي » في كتابه « أوربا بلا سلام » وقد نشره عقب الحرب العالمية الثانية إنّ الحروب الإيطالية في ليبيا كان معناها انفاق أربعة عشر ألف مليون ليرة لشراء حقيبة ملؤها رمل . فإلى أي ارتفاعٍ شاهق بلغ هذا الثمن بعدما أنفقته إيطاليا الفاشية في ليبيا وإثيوبيا وسواها من المناطق . والواقع أن إيطاليا أدمت نفسها في المال وفي الرجال ، وعرّضت كيانها نفسه إلى الأنهيار بسعيها لتحقيق مشروعاتها الاستعمارية ، ولم تجنِ سوى الدمار والخراب .

سراب

وستدرك جميع الأمم آجلاً أو عاجلاً ، بعد هذه الحروب الطاحنة التي سدّدت ضربات قاصمة إلى حضارة اليوم المادّية ، إن الاستعمار سراب . فهي تسعى إليه بجنون ، وتتحارب فيما بينها ولكنها عند ما تظفر بهدف معين تجد أن الاستعمار ليس سوى بديل سيء للعمل الشريف والجهد المقترن بالإخلاص ، وحياة الثقة والأمل والمحبّة . إنه في الواقع ككرةٍ تقذف في اتجاه صخرة . قد تصدم الصخرة ، وقد تترك بها أثراً ، بيد أن هناك احتمالات بأن ترتدّ القذيفة وتقتل راميها !

ومن الحقائق المسلّم بها أنّ الإستعمار — بوصفه استغلالاً للضعيف من جانب القوي — كان السبب الرئيسي لمعظم الحروب في السنوات المئتين الأخيرة . ويمكن تقصي آثار الإستعمار في جميع تلك الحروب . ومن شأن البحث الدقيق أن يبيّن أن آثار الاستعمار الشريرة تكمن في مكان ما من التراث الأدبي للدولة المقهورة متخذة شكل صنمٍ من الأصنام الحديثة وهي : الزيت والذهب والفحم والقطن أو أي إنتاج آخر من غلاّت الأرض الكثيرة .

والواقع أن الاستعمار في شكله الحديث شرٌّ وبيل للظافر والمقهور ، للمستعمِر وللمستعمَر على السواء . فهو يسوق الدول الظافرة بالتدريج إلى حياة عدم المبالاة والإهمال والتهاون مع ما يصحب ذلك من شرٍّ مستطير لا مهرب منه وهو الانغماس الذاتي المهلك . ويلي ذلك حروب قاتلة مع مزاحمي الدولة المستعمرة ويصبح بقاؤها بأسره معرضاً للتدهور والانحلال .

وما فتئنا حتى اليوم نستطيع أن نرصد في الذرية آثار الشرور التي حلّت بأمم الماضي الاستعمارية المتصفة بالصلف

وإن استبقاء المستعمرات والدول غير المستقلة واستخدامها كمجال للإستغلال الاقتصادي والسيطرة السياسية لا يسعه إلاّ أن يخفض مستوى المعيشة في تلك المناطق . وبهذا تحدد مقدرتها كدولٍ مستهلكة. ودع عنك آثار الإستغلال العكسية في الهمّة والنشاط وقوى الإنتاج . ومثل هذه الأحوال المقبضة لايسعها إلاّ أن تفضي إلى النزول بجانبٍ كبير من سكّان الكون إلى مستوى مقبضٍ من المعيشة يجعل من هؤلاء عبئاً على الإنسانية . واذا أضفنا الى هذا المكائد والدسائس والحروب وسواها من الشرور التي ينشئها الطموح الوحشيّ، رأينا أنّ صداها هو التعجيل بقيادة المدنية إلى وهدة الدمار والبلى .

حقائق جلية جلاء ذاتيًّا

ألم يكن الغلّ والغيرة والسباق للاستيلاء على ممتلكات الشعوب المقهورة سبب الحروب النبوليونية بجميع نكباتها وما سببها التي جلبتها على أمم رأس فرنسا نفسها، فضلاً عن العالم بأسره ؟ أولا ينطبق عين هذا على الغزوات التركية والروسية والنمسوية ؟ ألم يكن هذا شأن الحرب الروسية اليابانية التي اندلع ضرامها في مستهل القرن الحالي ؟ لاريب في أن الحرب الأخيرة ما كان يمكن أن تقع بسبب الشقة الفسيحة التي تفصل بين الدولتين ، لو لم يُفض توسعهما الاستعماري إلى تصادمهما في سبيل استغلال موارد الدول الصغيرة .

وهل يسع فرداً أن ينكر الحقيقة الجلية جلاءً ذاتيًّا وهي ان الغلّ والغيرة المضمرتين في صدور تلك الدول التي لم تظفر بنصيب من الأسلاب ، وان الشَرَهَ والشهوة النَهِمَة للتوسع علاوة على الظفر بالمواد الخام وأراضي الأمم المغلوبة على أمرها ، كانت الأسباب الرئيسية لكل من الحربين العالميتين الأولى والثانية ؟

أوَلم يكن إدراك الدول العظمى لشرور الاستعمار هو الذي دفعها بعد الحرب العظمى الأولى إلى البحث عن مخرج بمشروعات الانتدابات والتجريد من السلاح وحرية اقتناء الخامة ؟

لا ريب في أن هذا الطابع الحديث من الاستعمار والاستغلال — الذي يختلف عن الطوابع القديمة التي كانت الشعوب المقهورة بمقتضاها تشترك في الحقوق المدنية على قدم المساواة مع قاهريها في دولة واحدة ذات ادارة واحدة للجميع — هو أسُّ قلاقل العالم واضطراباته .

وسيظل هذا الإثم الحديث حائلاً دون سلام العالم إلى أن ينكشف لجميع الأمم، قويها وضعيفها على السواء، من اختباراتها وتضحياتها، حلٌّ يُرضي الجميع وتعاون عالمي في هيئة دولية لادارة شؤون العالم العامة لمصلحة الانسانية جمعاء على قاعدة تساوي حقوق الأفراد والأمم.

التضحية هي العلاج الوحيد

كانت الحروب التقليدية مقتصرةً عادةً على الجيران المتاخمين أو على دولتين متجابهتين. ولكن لما أضحى شرّ الاستعمار كونيًّا، جارته الحروب في ذلك. لذلك تحتم وضع مبادىء كونية لتسوية مشكلات العالم ومنازعاته.

والحل الوحيد لإنقاذ المدنية من أسقامها الحالية هو التضحية بالاستعمار

وإن مساعي بعض الدول العظيمة في هذا الاتجاه سواء في أعقاب الحرب العالمية الأولى لما وضع الرئيس ولسن مبادئه، أو في أثناء الحرب العالمية الثانية كما تجلى في ميثاق الاطلنطي أو ميثاق هيئة الأمم المتحدة — لتُعَدُّ دليلاً على الادراك العام للإثم الذي جلبه الاستعمار على العالم ولنتائجه العكسية على الظافرين والمغلوبين على حدٍّ سواء.

وفي ما خلا الأسباب التي تجعل من الاستعمار كارثة على الدول المدحورة — لأنها تُكره على النزول عن مستواها وتحرم من الهمّة والقدرة على الانتاج — فهو يلزم مئات من ملايين الجنس البشري بأن يفقدوا نصيبهم في تهيئة مدنية عامة.

فكيف يتسنّى للعالم إذن أن يستقر ما دام أولئك المئات من الملايين قد أصبحوا — من حيث طريقة تفكيرهم وعملهم — عبئاً على سائر البشر؟ لا ريب في أن الاستعمار شرٌّ شامل وإذا كان مصير الامم بعد هاتين الحربين العظيمتين سيظل خاضعاً لقانون القوة، فستتكرر المأساة مرة تلو مرة حتى تفنى المدنية — حسبما ندركها — في النهاية.

التعاليم الاسلامية الدولية

والتقاليد العربية المستمدّة من تعاليم الاسلام تستنكر الاستعمار. فالقرآن يحرم تحريماً تامًّا استغلال الآخرين باستخدام القوة للظفر بغنائم أرضية. وبمقتضى هذه التعاليم تعد جميع الحروب المدفوعة بمشروعات استعمارية ابتغاء التوسّع، ويعد الاستئثار بالخامة واحتكار الاسواق، والزعم بتحضير السائمة أو احتلال مواقع استراتيجية، أموراً غير

شرعيـة . ولا تسمح تلك التعاليم بدعوى تعالي دولة على دولة أخرى أو تعاظم جنس على جنسٍ آخر ما دام المقصود بذلك إيجاد جنس سائد والتمييز بين بني البشر .

وتؤكد تلك التعاليم تساوي بني الانسانية وتحظر التفضيل والتمييز بينهم الاّ بالتقوى والطهر والمحبة والمسالمـة . وهي تنكر الحرب والصراع الا في حالة الدفاع عن النفس أو لتحقيق حرية الاعتقاد لجميع الأديان . وهي تحكم على كل دافع آخر للحرب بأنه غير جائز .

* * *

وقد يحاج البعض بأن التاريخ العربي سجل حوادث تناقض هذه المبادىء . وهذا صحيح لأن بعض زعماء العرب وملوكهم لم يوقر مبادىء دينه . غير أن هؤلاء القادة دفعوا ثمن انتهاكهم لهذه المبادىء إما بأشخاصهم أو بشعوبهم في ما بعد .

وجلي من جميع سور القرآن وحديث النبي أن الاسلام يتبرأ من الاستعمار بجميع صوره وأهدافه . والواقع أنه ليس هناك حجة على صدق تلك التعاليم وبعد نظرها أقوى مما تجلى من دمار انشأته مبادىء الاستعمار الحديثة في حياة جيل واحد ، وما تلاه من جعل الاجرام أمراً قانونيـاً مشروعاً .

وإني لأضرع من كل قلبي وآمل بإيمان وثيق أن يدرك الساسة الذين يقررون مصير الأمم أن الأوان آن لاستخدام تلك التعاليم الاسلامية النبيلة والتقاليد العربية السامية في انشاء علاقات دولية متينة في اتجاهات تختلف عن تلك التي تمليها سياسة القوة وقانون الغابة مع التثبت من أن تلك العلاقات تنهض على روح المسالمة والمودة والاخاء التي يوحي بها الاسلام ، ذلك الدين الذي لا يعرف تفرقة بين لون أو معتنق ولا تمييزاً بين المعارف والجهالة ، والتقدم والتأخر ، وإنما يعترف بشيء واحد وحقيقة واحدة هي أن جميع الناس إخوة منحدرون من أب واحد هو آدم .

وإن من الواجب الديني على جميع المسلمين أن يستنكروا الاستعمار ، وهذه تبعة عظيمة شريفة وعلى كل عربي مؤمن ومتصف بالرجولة أن يعارض الاستعمار

ولن يشرق فجر يوم جديد يكتنفه السلم والأمل على هذه الدنيا المعذبة إلاّ عندما يدرك كل واحد منا — ظافراً ومدحوراً على السواء — ان الاستعمار حائل دون استقرار العالم وسلامه .

ترجمها عن الانجليزية وديع فلسطين

الطعام والهضم

١ - فائدة القناعة في الطعام : لا فائدة من الطعام ما لم يكن جيداً ، ولا فائدة من الطعام الجيد مالم يُهضَم جيداً ، وما دام الجهاز الهضمي يعمل بانتظام فالهضم يتم بدون صعوبة . أما اذا حدث فيه أقل تشويش أو اضطراب فيشعر المصاب بالألم والإنزعاج . ولسوء الحظ لا يمكننا أن نتأكد دائماً من سلامة أجهزة الهضم لعدم وجود أعراض ذاتية، وقد يحدث في كثير من الأحيان أن يصاب المرء بأمراض خطيرة من ناحية المعدة والمعى دون أن تكون هنالك أيضاً أعراض مرئية .

ومما يؤسف له أن الجسم لا يجاوب حالاً على ما ينتابه من الاضطرابات الهضمية بإحساسات مؤلمة . والواقع أنه يكفي أن يعيش الإنسان عيشة صحية معقولة ليبقى جهازه الهضمي سليماً ، وكثيرون من المرضى كانت معيشتهم دائماً منظمة جدّاً، وآخرون بالعكس كان من الواجب أيضاً اعتبارهم مرضى بسبب حياتهم المضطربة وغير المنظمة لم يشعروا فعلاً بأي مرض أو انزعاج ، وما ذلك إلاّ لأن كثيرين منهم قد حافظوا على صحتهم بقدر الامكان ولم يعيشوا عيشة صحية إلاّ بسبب ضعف جهازهم الهضمي . وعلى نقيض هؤلاء وأولئك توجد فئة أخرى يستطيع أفرادها أن يتحملوا مدّة طويلة أي نوع من الافراط لقوة مقاومة هذه الأعضاء ، وكلنا نعرف أن كثيرين منهم يجهدون معدهم ويحشونها حشواً بالطعام فوق طاقتها ، وقد قال أحد الأطباء المشهورين قديماً : « كل واحد لهُ المعدة التي يستحقها » لكن هذا لسوء الحظ غير صحيح .

والمهم في الأمر أن يكون رائدنا الاعتدال في كل شيء ، وخصوصاً فيما يتعلق بالأعضاء الهضمية ، وهذا واجب مهما بلغت هذه الأعضاء من القوة . لأن القناعة في الطعام ، وتناول الجسم حاجته فقط ، من الأسباب التي تطيل الحياة — بعكس النهم والشراهة فإنهما من

أقوى الأسباب التي تزعزع قوى الجسم وتصرم حبل الحياة قبل الأوان لأنهما يقضيان على أجهزة الهضم بعمل شاق غير مستعدة له . ولا حاجة بنا إلى القول أيضاً أن معظم أمراض القلب والمعدة والكبد والكليتين والشرايين وغيرها لم تنتج إلاّ بسبب الافراط في التغذية كما أثبتته المشاهدات الكثيرة . فجديرٌ بنا والحالة هذه مراعاة حالة الأعضاء الهضمية ونعرف خصوصاً ما يلائم معدنا وما لا يلائمها من الأطعمة ، فلا نعمل من ناحية على إضعافها ، ولا نعمل من ناحية ثانية على اجهادها دفعاً لسوء الهضم والتخمة وما يتسبب عن هذه الحالة من العواقب السيئة .

والقاعدة التي يمكن السير عليها هي في نظرنا كما يلي : يُترك الحدث في دور النمو يأكل ما يشاء وبقدر ما يشاء دون أن يتجاوز طبعاً الحد اللازم . ويكتفي البالغ من الطعام بقدر ما تسمح له شهيته وليس أكثر . أما كبير السن فيفضل أن لا يتناول من الطعام إلاّ أقل ما تسمح له به شهيته .

هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى أشخاصاً لا همّ لهم دائماً ولا شاغل سوى العناية بصحتهم ، ومع ذلك تراهم دائماً سقيمين مروضين . وآخرون بالعكس فإنهم لا يشعرون بأي ألم أو اضطراب من ناحية المعدة والأمعاء بالرغم من ذلك نجدهم يهتمون بأعضائهم هذه كل الاهتمام ويساعدونها في وظائفها الهضمية تارةً بتناول الملينات أو المسهلات ، وطوراً بعمل الحقن الشرجية دون أن تكون هنالك فعلاً أية حاجة لذلك ، لأن أمعاءهم تتنظف جيداً وتقوم بعملها من تلقاء نفسها على أحسن حال أفضل بكثير من الوسائل المار ذكرها .

ولذلك كان من الضروري عدم التشبث بمثل هذه العناية الفائقة والاهتمام بها الى هذا الحد ولا سيما في دور الطفولة . ولا ينكر أن العادات تلعب غالباً دوراً هامّاً في حياة الانسان وكثيراً ما يصعب التخلص منها ، وعلى الخصوص العادات السيئة التي يكتسبها المرء في شبابه . ثم أن الوالدين أنفسهم يلعبون أحياناً دوراً خطيراً بإعطاء الأمثلة لأولادهم. فاذا كانوا لا يقدرون مثلاً أن يأكلوا هذا الصنف من الطعام أو هذا النوع من البقول فليس بغريب أن لا يكون أولادهم مثلهم ، والغالب أنهم يحذون حذوهم في عاداتهم ومشاربهم إذ لا يخفى أن من غرائز الأطفال حبهم للتقليد وميلهم للتعود بمختلف العادات . وإنه لا يكفي

أن نقوم بتربية أولادنا وتهذيبهم في المدارس ، بل علينا أيضاً أن نلقنهم القواعد الصحية من قيام وقعود وجلوس وأكل وشرب ورياضة ولعب ولبس وعمل الخ التي تكفل لهم الصحة الجيدة . وإذا كنا نهتم خصوصاً بتغذيتهم تغذية حسنة موافقة لصحتهم ونموهم فكثير من العلل والأمراض التي يعود أصلها إلى عهد الطفولة والحداثة يمكن إذ ذاك اتقاؤها ولا تظهر في دور الكهولة أو بعده .

ننتقل هنا الى بحث آخر ، مهم جداً ، ونعني به :

٢ — أضرار سرعة الأكل والشرب : لا ريب في أنّ السواد الأعظم من الناس في عصرنا هذا يسرعون في الأكل ولا يمضغون الطعام جيداً بحيث أصبحت هذه العادة عندهم طبيعة ثانية . ولعلّ السبب في ذلك كثرة المشاغل ، والاحاجة الناشئة من معيشة المدن . وقلة استعمال الأطعمة الناشفة (كالخبز والخضار والفواكه) التي تستدعي اللوك الجيد ، فيندفع الطعام والحالة هذه الى المعدة كتلاً كتلاً وهذا ما يتعبها في عملها ويحملها على أن تترك أكثر هذا الطعام كما هو فيندفع الى الخارج دون استفادة الجسم منه . وعلى قدر عملية المضغ تتوقف الفائدة التي يحصل عليها الانسان من غذائه .

فضلاً عن ذلك فالآكل لا يشعر بتلك اللذة التي يجب أن ترافق الأكل عادةً ، والثابت اليوم أن اللذة التي ترافق الطعام من أهم الأسباب المهيئة للهضم والمساعدة على زيادة افراز العصارات الهضمية .

وسرعة ازدراد الطعام وعدم تنعيمه باللوك الكافي على نحو ما ذكرنا لها أضرارها من نواحٍ عديدة وينبغي محاربتها بأنجع الطرق دفعاً لما يترتب عليها من النتائج الوبيلة . وهذه النتائج تظهر عند الشخص ان عاجلاً أو آجلاً . وبقدر ما يكون الجهاز الهضمي عند أحدهم ضعيفاً أو قليل المقاومة يكون ظهور الأعراض باكراً . ومن ناحية أخرى فالذي يسرع في أكله وشربه دون أن يمضغ الطعام جيداً تملئ معدته سريعاً فلا يحصل لها عندئذٍ متسع كافٍ من الوقت لتتمدد باعتدال نسبة إلى كمية الطعام أو الشراب التي دخلت فيها . فوصول الأطعمة هكذا إلى المعدة بصورة فجائية له نفس التأثير الذي يحصل من الاصابة بضربة عنيفة على جدارها العضلي فلا تتقلص إذ ذاك أليافها بالكفاية ولا تأخذ الأوضاع اللازمة وتنخفض

محتوياتها كما في الحالة الطبيعية ، فينشأ من هذه الحالة إحساس مؤلم وشعور بالثقل والامتلاء ، كما لو ان جسماً غريباً قد دخل فيها ، فيضطر المصاب حينئذٍ الى حلّ ملابسه تخفيفاً للضغط الحاصل فيشعر بشيء من الراحة والانفراج ولا سيما اذا تجشأ ما ابتلعهُ من الهواء مع الأطعمة وليس هذا فحسب ، فالمصاب نفسه يشعر باحساسات مؤلمة ناشئة عن اضطرابات الهضم ، لأن المعدة المتمددة بسبب كثرة الأطعمة تحتاج طبعاً إلى وقت أطول للقيام بعملها فتتأخر عملية الهضم مع انخفاض الأغذية وتحولاتها الكيمياوية .

٣ — تأثير اللعاب في وظائف الهضم : نعود هنا الى نقطة هامة أخرى وهي ان الذين لا يلوكون الطعام جيداً لا يختلط هذا باللعاب الذي يحلل بعض أنواع من الأغذية ، فينشأ من هـذه الحالة نقص الهضم ومن ثمَّ عسره ، وخصوصاً في المواد النشوية . وقد أشار الى ذلك العالم الفرنسي كلود برنار (١٨١٣ — ١٨٧٨) فأبان الدور الهام للعاب في عمل الهضم. ولا يخفى ان هـذا الهضم لا يبتدىء فعـلاً بالمعدة كما يتصور بعضهم ، بل يكون ابتداؤهُ بالأحرى في تجويف الفم . فمن حركة المضغ ينفرز اللعاب ، وهذا اللعاب سائل تكوّنه الغدد اللعابيـة وتفرزه في الفم ، وفيـه أيضاً افراز الغـدد البسيطة المنتشرة على سطح الغشاء المخاطي للفم كما انه يحتوي على مادة مؤثرة تسمى (البتيالين) أو (اللعابين) ، وهذه المادة تؤثر في المواد السكرية والنشوية الموجودة في الأغذية وتجعلها مبدئيـًّا قابلة للهضم . وكلما كان المضغ كثيراً كان الهضم أسرع ، والمضغ يزيد افراز اللعاب فيختلط هذا بالطعام ، وبذا تأخذ المواد السكرية والنشوية في التحول الى غليكوز . ويتم هذا التحول في المعدة ثم في المعى بواسطة العصارات الهضمية .

وعند ما لا يحصل للخميرة اللعابية (مادة اللعابين المذكورة أعلاه) الوقت الكافي لتمتزج بالطعام الذي نتناوله ، فيصل هذا الى المعدة فالمعى غير جاهز بالكفاية . فاذا لم تأت العصارات الهضمية الأخرى لاصـلاح النقص الحاصل يؤول الأمر الى حدوث اختـلال في عمل تلك الأعضاء مع اختمارات وتسممات فيها ، بل إلى الاصابة أحياناً بالالتهاب المعوي .

فالشرط اللازم للهضم الجيد هو اذاً اجادة المضغ ، وامتزاج الطعام امتزاجاً كافياً باللعاب ويمكن للانسان أن يأكل وجبـة كبيرة ولا يتضرر منها اذا أحسن لوكها وتمهل في مضغها ،

قدر ما يتضرر من هذه الوجبة اذا أكلها بسرعة وبلا لوك .

٤ — الأفراط في الشرب : الملاحظ ان الانسان يفرط بشرب المـاء أكثر من افراطه بالطعام . والواقع ان شرب الماء يفيد بكثرة متى كانت المعدة فارغة ولا سيما في الصباح قبل الفطور ، وبعكس ذلك تكون الحالة اذا أُخـذ والمعدة مملوءة بالأطعمة . أمَّـا ما يختص بالمشروبات الروحيـة فالضرر يكون مضاعفاً والبلية مزدوجة . واذا قابلنـا المواد الجامدة بالمواد السائلة التي نتناولها فهذه الأخيرة تشغل حجماً أكبر في المعدة وتكون هـذه مثقلة مكظوظة ، وقـد تتأثر بسبب ذلك الأعضـاء الأخرى . والرجل البالغ يستطيع أن يتناول لترين وأكثر من السوائل ، ويدخل في هذه الكمية المـاء والقهوة والشاي والقسم السائل من الأطعمة الأخرى . ويمكن القول انَّ أغلب الرجال يشربون أكثر من حاجتهم الضرورية مبررين عذرهم بشعورهم الشديد بالظمأ . واذا كان الشخص ذا صحة جيدة فالافراط في شرب الماء يُعتبر عادةً سيئة .

وفي كثير من الأحيان يُلقى على الطبيب السؤال التالي وهو : هل ان شرب الماء مفيد أم مضر في أثناء الأكل ؟

فتنويراً للاذهان رأينا أن نذكر هنا ما تمَّ معرفته عنهُ .

١ — اذا كان الشخص ذا صحة جيدة ومعدة سليمة : فشرب الماء باعتدال على المائدة (قدر قدح واحد من الماء) لا ضرر منه البتة بشرط ألاَّ يؤخـذ والطعام في الفم لدفعه الى المعدة لأن اللعاب لا يسيل اذا كان في الفم ماء . وإذا أُخذ السائل بارداً فور تناول طعـام ساخن جدًّا فالأسنان ولا ريب تتأثر وتتألم ولا سيما « الميناء » وهي الطبقة الظاهرية الصفيقة جدًّا التي تغطي تاج السن وقد تتشقق وتتصدع هـذه الطبقة بسبب ذلك وتغدو الأسنان عرضة للتلف . واذا تجرَّع الانسان مقاديراً كبيرة من المـاء فغالباً ما يصاب باضطرابات هضمية مزعجة بل مؤلمة بعد مدة من الزمن .

٢ — اذا كان الشخص مصاباً بضعف أو مرض في المعدة : إن تجرُّع الماء بكثرة في مثل هذه الحالة يسبب حتماً اضطرابات هضمية مع تمدد في المعدة نتيجـة توسع زائد فارتخاء في الألياف العضلية لهـذا العضو . وقد تصاب هـذه الألياف بالشلل فيزداد الشعور بالثقل

والامتلاء ازدياداً عظيماً ويكون الألم شديداً جدًّا .

وجملة القول أن على من كان مصاباً بمرض أو اضطراب في المعدة أن لا يشرب الماء في أثناء الأكل بل بالأحرى بعد تناوله ويكون ذلك بجرعات صغيرة بحيث يكون امتلاء المعدة بتمهل وبطء ، ومثله تمدد هذا العضو ، وبذلك يحصل للطبقة العضلية في المعدة متسع كاف من الوقت لتعتاد على حالتها الجديدة . ويجب أن نقول هنا أيضاً أن الشعور بشرب الماء بعد الطعام أقل بكثير من الشعور بشربه بعده أو في أثنائه : وهي نقطة مهمة جدًّا ولا سيما في أمراض المعدة .

وقد يجد الكثيرون منهم — أولئك الذين اتخذوا عادة شرب الماء بكثرة في أثناء تناول الطعام — صعوبة كلية في ترك هذه العادة ، غير انه يمكن التغلب عليها بشيء من العزم وقوة الارادة . وعند ما تبطل هذه العادة يجد الانسان نفسه فيما بعد مسروراً ومرتاحاً جدًّا ويكون قد خطا خطوات واسعة في سبيل تحسين حالة جهازه الهضمي وازالة الاضرار التي تكون قد حدثت له .

٥ — تأثير الكحول في الهضم : يمنع الاحداث والشبان عن تعاطي المشروبات الروحية على أنواعها ، ويمكن السماح بها للاشخاص البالغين بمقادير معتدلة . ويجب أن نعرف أن الانسان الصحيح البنية ليس بحاجة قطعاً الى شرب المشروبات لأنها غالباً ما تكون مضرة حتى ولو أخذت بكمية معتدلة .

أما ادعاء البعض من أن المشروبات الكحولية تزيد قابلية الأكل وتقوي المعدة وتسهل الهضم . فتكذبه التجارب والمشاهدات الكثيرة . فان المشروبات المذكورة لا تجلب القابلية البتة ولا تساعد على الهضم بل تؤخره ! ويتضاعف ضررها خصوصاً حينما تكون المعدة فارغة حيث يسري السم في الجسم بسرعة .

وقد تقضي الضرورة في بعض الحالات بمنع المشروبات الروحية منعاً باتًّا ، وفي حالات أخرى السماح مثلاً بالجعة دون الخمر أو بالعكس .

وهناك حالة وهي زيادة افراز العصارة المعدية Hyperchlorydrie يكون فيها استعمال الخمر مضرًّا ؛ أما إذا كان حامض العصارة المعدية غير كاف Hypochlorie فالأمر بالعكس

إذ يستحسن أخذ مقداراً قليلاً من الخمر لمساعدة الهضم . وانه لا يمكن أن نعدد هنا جميع الحالات الخاصة التي يسمح بها استعمال المواد الكحولية أو عدم استعمالها ، فالطبيب وحده يقرر ما يكون ضرورياً استعماله أو غير ضروري وفقاً للظروف والأحوال الشخصية .

٦ — تأثير الشاي والقهوة في الهضم : الآراء في هذا الصدد متناقضة . فالبعض يعتكر أن الافراط في شرب الشاي والقهوة مضرٌّ جدًّا بالمعدة ويكون سبباً لكثير من أمراض الجهاز الهضمي ، والبعض الآخر يرتإي بالعكس . والواقع أن الانسان العاقل الذي يريد أن يعيش بحكمة واعتدال يكتفي فقط بتناول فنجان شاي أو قهوة كل بضع ساعات ، وهذا لا يضر شاربه بل يساعده على السير في عمله اليومي بغير تلكؤ ، كما انه يقوي المعد الضعيفة وينعش الجسم والعقل ويحثهما على القيام بوظائفهما من جديد كلما انهكهما التعب أو استحوذ عليهما الخمول . أما الذين يشربون ٦ الى ٨ أو ١٠ فناجين من الشاي أو القهوة يوميًّا كما يفعل الكثيرون منهم ، فليس بغريب أن يصاب هؤلاء الأشخاص بأضرار بالغة . فثلاثة أرباع حالات الأرق مثلاً ترجع الى ادمان الشاي ، كما ان مادة الكافيين تسبب ارتفاعاً في ضغط الدم واسراعاً في ضربات القلب . وكلما رخص ثمن الشاي كلما كان أكثر ضرراً .

وما تقدم ذكره عن الشاي يقال أيضاً عن القهوة وهذه يجب منعها خصوصاً عن الأشخاص المصابين بأمراض المعدة وعن العصبيين ، وهؤلاء كثيرون ونراهم يوميًّا ويشكون لنا أرقهم وخفقان قلبهم وتهيج أعصابهم . والانسان لا يكون عصبيًّا بدون سبب ، والغالب ان هذا السبب يعود الى طراز المعيشة ، والحياة غير الصحيحة التي تسبب له تسممات حقيقية من بعض الأطعمة التي يتناولها ومن الادمان في شرب الشاي والقهوة

٧ — تأثير التبغ في الهضم : مما لاشك فيه أنَّ التدخين مضر بالصحة مؤذٍ بالجسم ، وله أيضاً تأثير سيء على عقل الانسان ونفسيته ، وعلى جهازه العصبي والتنفسي والهضمي والدموي ، وكذلك على البصر والسمع وغيرها مما يضيق المقام هنا عن شرحه وتفصيله . ويحتوي التبغ على طائفة من المواد السامة جدًّا وهي : النيكوتين ، وأملاح البريدين ، والنيكوتيانين ، وغاز أوكسيد الكاربون والكولليدين . غير أن العنصر الفعَّال في الدخان والأكثر فتكاً بالجسم هو النيكوتين .

وإننا لا نحاول في هذه العجالة معرفة ما إذا كان واجباً أن ينقطع الإنسان تماماً عن التدخين بل علينا أن ننظر فقط في ما له علاقة بموضوع بحثنا أي أمراض الجهاز الهضمي . ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنه توجد اختلافات كثيرة بين شخص وآخر ، فهذا الشخص

مثلاً يتحمل منذ زمن طويل جداً تدخين بضع سيكار من التبغ القوي أو ٤٠ و ٥٠ سيكارة بل قبل ٨٠ سيجارة يومياً بدون ضرر على صحته ، وذاك يشعر باضطرابات مختلفة بمجرد تدخين بضع سيكارات يومياً . فالعبرة إذاً كما ترى ليست بمقدار التبغ الذي يدخنه الانسان بل باعتياده على التدخين ، وبمقاومته البدنية . اما ذوي الأشغال العقلية الكثيرة فلا يتحملون التبغ عادةً مثلما هم لا يتحملون الكحول أيضاً . وهؤلاء الأشخاص يجب عليهم أن يكونوا أكثر حذراً واحتراساً بسبب سرعة تأثرهم وقوة حاسيتهم .

ولننظر الآن في الاضطرابات التي تتسبب عن التدخين عند الذين يبدأون في ممارسة هذه العادة . وأهم الاضطرابات المذكورة كما يلي : شدة ضربات القلب . عدم انتظام النبض . دوخان . اصفرار الوجه . ألم في الرأس . تهوع أو قيء . أما الذين قد اعتادوا التدخين بافراط فالاعراض تكون هكذا : (١) اضطرابات من ناحية القلب : ضعف القلب وسرعة دقاته مع عدم انتظام هذه الدقات ، والذبحة الصدرية أحياناً ، وضيق التنفس (٢) اضطرابات من ناحية الدماغ : ضعف في قوة الذاكرة خصوصاً فيما يتعلق بأسماء الأشخاص ، وأحياناً فقدان قوة النطق وقتياً (٣) اضطرابات من ناحية البصر ضعف شديد في البصر يمكن أن ينتهي أحياناً بفقدانه . (٤) تصلب الشرايين : يرجح بعض الأطباء أن لانتشار التبغ دخلاً كبيراً في ازدياد الوفيات العائدة الى أمراض الشرايين .

والاضطرابات التي تهمنا هنا هو تأثير النيكوتين على جهاز الهضم . فتأثيره في المعدة مثلاً يزيد أولاً العصارة المعدية مع زيادة حموضة هذه العصارة . وهذه الحالة تكون مصحوبة بعوارض مؤلمة وإذا أفرط الانسان في التدخين قلت بالعكس العصارة المعدية وقد تنقطع تماماً ، ويتسبب عن هذا كله فقدان شهوة الأكل والامساك . اما من ناحية الأمعاء فالدخان ينبه حركة عضلات هذه الأمعاء ، ولاسيما الغليظة منها ، فتتقوى على طرد الفضلات المتجمعة فيها وبذلك يسهل وينتظم تفريغها .

وبوجه عام نقول ان شرب الدخان باعتدال جداً في الأمراض المعدية المعوية لا ضرر منه . غير انه يستحسن الاقلاع بتاتاً عن هذه العادة بالنظر لمضارها الوخيمة العاقبة التي أتينا على ذكرها .

ويوجد أحياناً في الأسواق سيكار يقال انه بدون « نيكوتين » لكن لا يوجد ما يؤكد لنا أن هذا النوع من السيكار غير سام فالافراط في شربه قد يكون مضاهياً بنتائجه الى أنواع التبغ الاعتيادية ولذا يُحترس من استعماله .

بيروت الدكتور عبده ندى

المخترع العالمي

توماس اديسون

أمريكا تحتفل بذكراه المئوية

عندما يحتفل شعب الولايات المتحدة بالذكرى المئوية لميلاد توماس الفا اديسون ، طليعة المخترعين في أمريكا ، في ١١ من فبراير عام ١٩٤٧ فسيشيدون بذكرى رجل لعله أكثر الناس توفيقاً في العالم إذ جعل حلم العصر الميكانيكي الحديث حقيقة واقعة .

وقد قدر رجال الاحصاء ان مخترعات اديسون أسفرت عن تقدم في صناعات يزيد رأس مالها الآن على ٢٠ ألف مليون دولار وتستغرق من العمال أكثر من ٤٠ مليون شخص . على أنه لو زيد نطاق هذه التقديرات حتى لا تشمل الصناعات التي لم تسفر عنها مباشرة مخترعات اديسون فحسب ، بل تشمل الصناعات التي كانت تكون مستحيلة لو لم يساهم في مجالات المعرفة والتقدم ، لبلغ الرقم نسبة عالية جداً .

* * *

وابتكر اديسون نحو ١٠٠ر١ اختراع ، وذلك عدد من المخترعات لم يكد يسجله من قبل شخص أو هيئة اختراعات في الولايات المتحدة . واذا كان خير ما يذكر به أنه اخترع أول مصباح كهربائي وهاج ، وانه كشف وسائل توليد وتوزيع الكهرباء ، فانه لم يعرف مجالٌ من مجالات المحاولة غريباً على مواهبه .

واخترع أول « فونوغراف » ، استطاع أن يحيله آخر الأمر الى آلة ميكانيكية تسجل الاسطوانات . واختراعه الكاميرا المتحركة غدا أساساً متفقاً عليه للحصول على الصور المتحركة وأدت الى صناعة السينما .

ووضع جهازاً يسمح بارسال الاشارات التلغرافية بين محطات سكة الحديد . كما اخترع الجهاز الناقل الذي ساعد الكسندر جراهام بل على جعل التليفون الذي ابتكره تطبيقياً من الناحية التجارية . وأدخل التحسينات التي أحدثت ثورة في عالم البطاريات ، وفي صناعة الاسمنت ، والتعدين ، وصهر الحديد الخام . واخترع وأنشأ أول قاطرة كهربائية في أمريكا ، وأحدث اكتشافات أساسية في مجال الالكترونات .

وهكذا ظلّ اديسون حتى وفاته في ١٨ من اكتوبر يعمل بلا انقطاع في معمله ليحسن من طبيعة منتجاته وليزيد من الاقتصاد في نفقات صناعتها .

وقد ولد اديسون بميلان في اوهيو يوم ١١ فبراير عام ١٨٤٧ ، وأبوه ينحدر من أصل هولندي ، وأمه من أصل سكوتلندي .

وبالرغم من أن مدة ثقافته الرسمية لم تتجاوز ثلاثة أشهر قضاها في إحدى مدارس بورت هورون بولاية متشيجان فقد أبدى شغفاً شديداً بالمعرفة وحبًّا في العمل على نحو غير مألوف عند الأحداث . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره جعل يبيع الصحف في القطارات المتنقلة بين بورت هورثون وديرويت في متشيجان ثم اتخذ لنفسه معملاً في حجرة المفش يقوم فيه بدراسته الكيميائية ..

اشتغل وهو في الخامسة عشرة عاملاً في التلغراف ، غير أنه ظلّ يواصل دراسة الكيمياء وأخذ يعمل لابتكار مخترعات في أوقات فراغه . وكان أول ما ابتكره في هذا الصدد أجهزة توفر عليه عمله الخاص .

***

وفي عام ١٨٦٨ ظفر بأول امتياز لاختراع مسجل الصوت الكهربائي لاستخدامه في الهيئات التشريعية . ثم أعد أجهزة أخرى بعد ان أدخل تحسينات عليها ، وفي العام التالي شرع في مد خطوط تلغرافية في مدينة نيويورك .

وافتتح في اكتوبر عام ١٨٦٩ معمله الخاص في نيويورك بنيوجرسي ومعه كثير من الفنيين الذين ذاع صيتهم بعد ذلك . وتسنى له أن يبتكر خلال السنين التالية القلم الكهربائي الذي تطوّر أخيراً الى النوع المعروف بالاستنسل . وأدخل تحسينات على الآلة الكاتبة . وتحسينات أخرى في مجال التلغراف ، مثل وضع أجهزة لنقل الرسائل المتعددة في وقت واحد وعلى نفس الشبكة السلكية

ثم لاحظ أديسون أن تلغرافه الأوتوماتيكي يحدث صوتاً موسيقيًّا اثناء تقارب أصوات النقط والشرط ، الأمر الذي حفزه على أن يبحث في امكان اختراع جهاز الفونوغراف في ١٢ من أغسطس عام ١٨٧٧ . وهذا الجهاز الذي تكلف ١٨ دولاراً لم يكن في الأصل إلاّ عبارة عن اسطوانة (سيلندر) تدار بواسطة ذراع . وبعد مراحل تطوّر فيها هذا الاختراع انتهى الأمر بإديسون الى تسجيل اسطوانة للموسيقى ، ومن ثمّ أصبح الفونوغراف من

أكثر المخترعات التي اشتهر بها اديسون . حتى أنّ إحدى الشركات في الولايات المتحدة بلغ عدد ما سجلته ، كما أعلنت ذلك، مليون اسطوانة .

***

المصباح الكهربائي

على أن خير ما يذكر به اديسون اختراعه لأول نوع عملي من المصباح المتوهج الكهربائي إذ لم يكد يبلغ عمره الواحدة بعد الثلاثين حتى كان إديسون قد توطد مركزه باعتباره مخترعاً، وفي ٢١ من اكتوبر عام ١٨٧٩، بعد أن أجرى مئات التجارب على المعادن والمواد وأنفق أكثر من ٤٠ ألف دولار نجح في صنع مصباح تتألق في فراغه حلقة كربونية من الخيوط القطنية نحو ٤٠ ساعة .

وبالرغم من أهمية هذا المصباح فلم يكن إلا جزءاً صغيراً من سلسلة أعمال إديسون الكهربائية الأخرى . فقد اخترع جهازاً يولد ويوزع الحرارة من دينامو هائل ، أخذ يزيد من كفايته حتى بلغت نسبة هذه الكفاية ٩٠ في المائة بعد أن كانت أربعين . وأهم من هذا ، اختراعه لجهاز توزيع التيار الكهربائي .

وبعدئذٍ شرع اديسون يفكر في أن « يصنع للعين ما يصنعه الفونوغراف للأذن ، ومن ثمّ اخترع الكاميرا ذات الصور المتحركة . وظهرت أول صورة متحركة في العالم بمعمله في نيوجرسي .

وإزاء هذا كله ظفر اديسون من الكونجرس الأمريكي في عام ١٨٨٢ بعدالية « التطور والتطبيق في ميدان المخترعات التي أحدثت ثورة في الحضارة خلال القرن الماضي » .

وفي عام ١٨٨٩ قلد وسام الشرف الفرنسي « الاجيون دونير » . وفي سنة ١٨٩٢ منحته جمعية الفنون في بريطانيا العظمى ميدالية البرت . وفي عام ١٩٠٨ منحته جمعيات المهندسين الأمريكية ميدالية جون فريتز للمهندسين . وفي عام ١٩١٤ منح ميدالية راثينو (الألمانية) وانتخب في سنة ١٩٢٧ عضواً في الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم .

ونال درجات جامعية فخرية من الكلية الاتحادية ، وجامعة برنستون وجامعة نيويورك . ولكن لا غرو فتوماس ألفا اديسون كما قيل فيه عن حق « قد فاضت عبقريته بالخير على البشرية جمعاء » .

بحث في السرعة

تدور الأرض حول الشمس بسرعة قدرها ١٠٤٠٠٠ كيلومتراً في الساعة ويتحرك النظام الشمسي داخل الفلك بسرعة قدرها عدة مئات الألوف من الكيلومترات في الساعة الواحدة ومع كل ذلك فاننا لا نشعر بهذه السرعة العظيمة في أثناء حركة أمنا الأرض . غير اننا نشعر بسرعة السيارات والقطر بالرغم من ضآلتها النسبية .

ان في مقدور الانسان أن يقطع سيراً على الأقدام مسافة قدرها ٥ر٤ كيلومترات في الساعة . وفي امكانه أن يقطع نفس هذه المسافة في أثناء السباحة. وفي وسع الراكد المجد أن يقطع مسافة قدرها ١٣ــ١٥ كيلومتراً في الساعة . وأما راكب الدراجة فقد يقطع مسافة قدرها ٦٠ كيلومتراً أو يزيد .

ومن ناحية أخرى فان الحلزون يقطع في الساعة ٠٠٧ر٠ من الكيلومتر في الساعة (٧ أمتار في الساعة) ويقطع الحصان حوالي ١٦ كيلومتر في الساعة ، في حين ان الحمام الزاجل يطير بسرعة تقدر بـ ٦٥ — ١٠٠ كيلومتر في الساعة، ويقطع الكلب السلوقى ٩٠ كيلومتراً في الساعة ، وقد تبلغ سرعة العقاب ١٠٨ كيلومترات في الساعة

وقد توصل الانسان باستخدام الريح أن يقطع في قاربه حوالي ٣٠ كيلو متراً في الساعة

وتطورت سرعة القطار منذ عام ١٨٣٥ تطوراً محسوساً فقد بلغت سرعة بعض القطر الاوربية في عام ١٨٥٠ حوالي ٢٥ كيلو متر في الساعة وازدادت هذه السرعة في عام ١٩٠٠ إذ بلغت ١٠٠ كيلو متراً . وفي عام ١٩٣٣ كان قطار هامبورغ يسير بسرعة قدرها ٢٣٠ كيلو متراً في الساعة .

وبينما كانت سرعة بعض السيارات في عام ١٨٩٠ لا تزيد على الـ ١٠ كيلو مترات في الساعة ، إذ بها تبلغ في سيارات السباق حوالي :

١٩٥	كيلو متراً	في	الساعة	في عام	١٩٠٥
٢٢٨	«	«	«	«	١٩١١
٣٣٣	«	«	«	«	١٩٢٨
٤٨٣	«	«	«	«	١٩٣٥
٥٠٢	«	«	«	«	١٩٣٧
٥٧٥	«	«	«	«	١٩٣٨

هذا ويقطع الترام في الساعة مسافة قدرها ١٨ — ٢٨ كيلو متراً في الساعة، وتقطع البواخر عبر المحيط مسافة قدرها ٣٦ ـ ٥٤ كيلومتر في الساعة والقطر السريعة ١١٠ كيلو مترات في الساعة والقوارب البخارية ١٤٠ كيلو متر في الساعة والسيارات ١٥٨ كيلو متر في الساعة. والدراجات البخارية في أثناء السباق ٢٦٠ كيلو متر في الساعة.

وقد أدى رقي صناعة الطائرات الى تقدم في السرعة منذ اختراعها في عام ١٨٩٦ بصورة فعلية تقدماً يستحق الاعجاب والتقدير، فقد بلغت سرعة الطائرات في أوائل الحرب العالمية الأولى حوالي الـ ١٢٠ كيلو متر في الساعة، وبلغت في أثناء سني تلك الحرب ١٦٠ — ١٨٠ كيلو متر في الساعة. وفي عام ١٩٣٢ كانت تبلغ سرعة بعض الطائرات ٣٦٠ كيلو متراً في الساعة، وبلغت الرقم القياسي ٧٤٧ كيلومتر في الساعة في عام ١٩٣٩ وتبلغ الآن ٩٠٠ كيلو متر في الساعة.

أما الطبيعة فهي تفوقنا سرعة في بعض النواحي التي لا يمكن أن يتصورها العقل. فقد تبلغ:

سرعة الريح العادي	٧ كيلو مترات في الساعة
« أمواج البحر	٥٠ كيلو متر « «
« التيار	٥٠ — ١٠٠ كيلو متر في الساعة
« الريح القاتلة (أوركان)	١٨٠ كيلو متر في الساعة
« الصوت في الهواء	٥١٦٠ « « «

وسرعة نقطة على خط الاستواء ١٦٧٠ كيلومتر في الساعة، وسرعة دوران الأرض حول الشمس ١٠٤د٤٠٠ كيلومتر في الساعة. وسرعة الكهربائية في السلك التليفوني ٤٢ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وسرعة الضوء ١ر٠٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلومتر في الساعة.

صبري يحيى الخياط

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الكيمياء تكشف عن النفط « البترول »

لو قال لك قائل خبير « إني إذا فحصت قبضات من الثرى الذي في عقارك، أمكنني أن أثبت أو أنفي وجود النفط فيه أو خلوه منه » لعراك الدهش.

ولكنك إذا عرفت السبب، بطل العجب. وأساس هذه المعرفة، هو العلم الحديث المسمى جيوكيمستري Geochemistry، أي الكيمياء الجيولوجية التي تهدف الى البحث السديد، عن النفط، فوق سطح الأرض المديد. إلا إنه لم يسمع منذ بضع سنين، شيء يذكر بشأن هذا العلم العتيد، الذي يقضي بتحليل التربة السطحية تحليلاً كيميائياً لمعرفة احتوائها على النفط أو خلوها منه. وهذا العلم من شأنه أن يفضي لا محالة الى إحداث انقلاب كبير في وسائل استكشاف الزيت المعدني (النفط) في جوف الأرض، ثم توفير بضع مئات من ملايين الجنيهات التي ينفقها المنقبون عبثاً، كل سنة، في حفر الآبار العقيمة.

ومدار علم الكيمياء الجيولوجية هو دراسة الجزيئات الهيدروكربونية الخفيفة التي تنضح من جوف الأرض الى سطحها، وذلك من أي نبع خفي للنفط تحت طبقات الثرى. وما فتئت العقبة الكأداء، كون هذا الدليل القاطع على وجود النفط في باطن الغبراء، يبدو عادةً ضئيلاً جداً فلا يتاح تقديره. وثمة حائل آخر، هو أن بعض دقائق النفط والغاز، قد تستهدف في خلال فورتها الى سطح الأرض، لتقلبات كيميائية، إما عن طريق التأكسد، واما بالاستقطاب. وهذا مما يفضي إلى تضارب الآراء في تعيين أية الهيدروكربونات التي تتكشف للمنقبين، تكون ممثلة للعلامات الدالة على وجود منبع النفط.

ولا يزال هذا العلم الحديث يافعاً ، يتطلب تجربة شتّى الوسائل الفنّيــةِ . والطريقة الحالية المألوفة منهــا تقوم بجمع نماذج طفيفــة من التراب غير الملوّث الذي يوجد على بضع أقدام من سطح الأرض، ثم تعريض هذه النماذج بطريقة فنية جديدة من طرق المعامل الـكيميائية تعرف باسم « طريقــة استخراج الغاز بالحرارة المنخفضة » وقوامها تسخين كل نموذج منها حتى يستخلص منه ما يحويه من طفيف الغاز فيجمع . ثم تجري فيه سلسلة من وسائل التبريد . وهذه تفضي الى فرز العناصر المختلفة التي ينطوي عليها الغاز، بعضها عن بعض فيتسنّى قياس كل منها على حدته . وبهذا الفرز يمكن وزن المواد التي توجد في الكميات الطفيفة جدًّا التي لا تزيد على جزء من بليون . وأغرب ما يمتاز به علم الكيمياء الجيولوجية هو نفي وجود النفط مباشرةً تحت التربة التي تشتمل على المواد الهيدروكربونية . ولذلك ينصح خبراء هذا العلم بمبــاشرة الحفر في جانب واحــد من جوانب المنطقة المبتغاة . وهم يتوخون بذلك أن المقدار الـكبير من المادة التي تتصاعد من نبع النفط ، فتطفو على سطح الأرض حاملة الميــاه والمواد الـكيميائية ، تؤلف سدًّا منيعاً لا تستطيع اختراقه جزيئــات الغــاز ، فلا تطفو على سطح الأرض . أما الغاز الذي يرتفع حينئذٍ فلا بدّ له من الافلات من حول أطراف ذلك السدّ المحكم .

وتــتّــخذ عادةً العلامات السطحيــة الخاصة بوجود النفط ، شكل هالة غير كاملة فتبين حدود النبع . ويوجد النفط بالتنقيب في محيط تلك الهالة لا في الهالة نفسها ، غير أنه في بعض الأحوال قد تكشفت للمنقبين على سطح الأرض ، منــاطق هالات متحدة المركز ، تدل على منــابع نفط في أعماق مختلفة . وقد أثبت التنقيب الذي أحــدث فيا بعد صدق هاتيك التكهنات .

ومن أحدث المخترعات في علم الـكيمياء الجيولوجية طريقة المقياس الـكيميــائي . ويقصد بهــا دراسة المادة التي تُنقل الى سطح الأرض في خلال حفر بئر النفط . فيدلّ هــذا التحليل الـكيميائي على العمق الذي بلغتــه المثاقب في ثقب السدّ المنيــع الذي يعلو البئر، ثم انه يتيح التقدير التقريبي لمــا يجب ثقبه من الأرض حتى يعثر الحفــارون على النبع ذاته . ولما كانت طبيعة جزيئات الغاز ، الافلات افلاتاً جانبيًّا من مقرها ، كما تفلت منه رأسيًّا ، اتخذ المنقبون هذه الحقيقة وسيلة لرسم الخريطة التي تبين الموقع الحقيقي للنبــع . وذلك عند ما يقومون بحفر عدد من الآبار النزحة « الخالية » ثم أن طوائف المواد الهيدروكربونيــة التي تبلغ سطح الأرض عن طريق شتى الينابيع ، يقومون بمقابلة بعضها ببعض ليتخذوا منهــا دليلاً صادقاً على السبيل الواجب سلوكها للكشف عن البئر التي أفلتت منها هاتيك الهيدروكربونات

أو اثبات حقيقة خلو منطقتها من النفط . وقد بدأ التوصل بعلم الكيمياء والجيولوجية منذ نحو ١٥ سنة فبذلت المجهودات حينئذٍ في جمع نماذج ضئيلة من الغاز المتفشي في التربة السطحية ، وذلك بوضع أنابيب في الأرض ثم تحليل الغاز الذي يوجد فيها عقب غرزها مغطاة عدة أيام . وكانت هذه الطريقة بطيئة ، غير صالحة للعمل . أما الطريقة الفنية الراقية المتقدم وصفها المستعملة حالياً فقد اخترعت منذ سنة ١٩٣٨ وهي من نتائج مباحث العلماء الدكاترة روزير ومكدموط وبلو وغيرهم .

وما برح هذا العلم يستخدم بخاصة لاثبات اللقايا التي تتكشف من رد فعل الهزات الأرضية ، أكثر مما يستعمل كآلة لاستكشاف المنابع الزيتية . لأن علم الزلازل يمد العالم الجيولوجي بصورة النماذج التي في جوف الأرض وأعماقها ، وذلك بتقدير الزمن الذي تستغرقه موجات الهزات الأرضية التي تتولد من انفجار البارود والديناميت في السطح المزمع احداث رد الفعل فيه ، من الطبقات السفلية ، فيكشف عن الجيوب التي قد يوجد فيها النفط . ومباحث علم الكيمياء الجيولوجية على سطح الأرض ، تقدم دليلاً صحيحاً على وجود النفط وجوداً حقيقيًّا في ذلك الجيب أو خلوه منه . وقد نجحت في الارشاد الى مقر النفط قبل حفر البئر الأولى ، في منطقة جديدة ، كما أفلحت في تحديد الحدود الصحيحة للمناطق الزيتية المعروفة . وهي المناطق التي كانت تتكشف بعد انفاق المبالغ الباهظة في الحفريات ، منتجة كانت أو عقيمة . ولا يخلو هذا العلم في حالته الراهنة من الخطأ . شأنه في ذلك شأن كل فن حديث ، وكذلك علماؤه ليس في وسعهم تحديد الغور الذي يحتمل وجود النفط فيه ، ولا يمكنهم أيضاً التحقق من غزارة النفط وما يدره من الأرباح التجارية أو عدم صلاحيته لذلك . بيد أن في طاقتهم تمييز منابع النفط من منابع الغاز ، كما أن في استطاعتهم التكهن بتقدير أهمية النبع الجديد تقديراً تقريبيًّا

وقدَّر المطلعون ان المكتشفات التي نجمت عن الهزات الأرضية أسفرت عن نتائج باهرة بنسبة ٣٣٪ وذلك في الآبار التي تمَّ حفرها . هذا ويتوقع علماء هذا العلم أنهم سيتاح لهم بالطريقة الجديدة التي وفقوا لها الحصول على نتائج حسنة بنسبة ٥٠٪ أو أكثر في الحفريات الجديدة . ويعتقد الخبراء أنه عند ما تتم التحسينات المنتظرة اللازمة في هذا العلم ، سوف يتيسر تكشف جميع الينابيع النفطية التي ما زالت خافية على المنقبين في جوف الأرض .

وأهم المنتجات التي تستغل من النفط هي الوقود بأنواعه وزيوت تزييت الآلات جميعها . إلاَّ أن النفط هو المادة الأولية التي غدت أساساً لعشرات من الصناعات

الجديدة الأُخَر . ولقد لقيت المشتقات الهيدروكربونية ميادين جديدة شتى لمنافعها ومنها أنواع المطاط الصناعي . وهي من بعض الوجوه ، أرقى من المطاط الطبيعي . والنفط قوام ذلك الكاوتشوك . ومن النفط أيضاً يستخرج كبريت العمود والحامض الكبريتيك والجليسرين وغيرها من المنتجات الثانوية . وبالكيمياء ينتج من الهيدروكربونات مفرقعات وأصباغ وأدوية وطيوب ومركبات عطرية وما شاكلها من المواد . وغازات الأولفين Olefin وهي هيدروكربونات غير مشبعة تستخرج من تقطير النفط تقطيراً اتلافيًّا . وهي وسيلة لإنضاج الفواكه ولتعجيل نموّ النباتات . وقد نجحت هذه الغازات في تعجيل إنضاج الطماطم والليمون الهندي انضاجاً تامًّا ، وفي غير ذلك من الحاصلات الزراعية . وذلك في زمن أقصر كثيراً من المألوف في موسم نموها . ولغازات البيوتن Butene مثل ذلك التأثير الحميد في تعجيل إنضاج ثمار الجوز والخوخ والتفاح والكريز ، هذا إذا غطيت كل شجرة مثمرة منها بخيمة لا يتخللها الغاز ، ثم أطلق عليها قدر طفيف من البيوتن تحت الخيمة مدة ساعة.

هذا وقد تحققت الفائدة التجارية لكثير من المشتقات النفطية التي كانت تُعدُّ من الطرف الكيميائية عند بدء استخراجها . ومنها أوكسيد الاثيلين وهو لا يضر الناس ويستعمل لتبخير التبغ والغلال . ويستعمل الاثيلين ethylene والبروبين propene كمخدرين جيدين . ومع كون أهمية النفط تسمو سنة فأخرى فما برحت طريقة تركيبه من المعضلات التي لم يصل العلم الى حلها ، إذ يعلم يقيناً الكيميائي الخاص بالهيدروكربونات أن النفط مؤلف من الهيدروجين وجزيئات الكربون ، ومع ذلك لا يجرؤ أيًّا كان على تركيبه تركيباً كيميائيًّا من تينك المادتين . ويسرنا أن نذيع على قرائنا أن فريقاً من نوابغ علماء صناعة النفط في أمريكا ، الذين لا يصبون الى الاعلان عن ذواتهم أو إذاعة مباحثهم ، قد عكفوا على حلّ هذه المعضلة ، ولا يبعد أن يبلغوا أمانيهم ذات يوم فيتاح لهم صنع الهيدروكربونات كما يشاءون ، فيصبح انتاج النفط علماً من العلوم الصحيحة التي تكفل للعالم الحصول على احتياجاته المستفيضة من النفط في كل عصر . والفينول phenol الذي يستخرج من الغازات التي تتصاعد من معامل تكرير النفط ، كثيراً ما يفوق أمثاله التي تستخرج من قطران الفحم الحجري . وذلك في قتل الجراثيم والفطر ، وفي منع العفونة وفي ميادين المطهرات . والنفط هو المادة الأساسية لصنع الخيوط الصمغية الجديدة التي تمتاز بمنع تجعد المنسوجات التي تدخل في نسجها . ومنها الفهنيت الذي يصنع من ذلك الشعر الصناعي وقد ثبت نجاحه وطول بقائه .

تجديد القلب بترقيعه من عضلات أخرى

اخترع طبيبان في كلية جامعة نيويورك للطب طريقة فنية توصلا بها إلى نقل عضلات حية من أجسام الكلاب ، واستعمالها بدلاً من أجزاء ميتة من عضلات قلوب الكلاب المصابة بأمراض القلب . وقد أفضى نجاحهما في هذه الجراحة الجديدة الى تفاؤل البشر المصابين بمثل هذه الأمراض .

وفحوى هذا الأسلوب أن تنقل شرائح من عضلات بطون الكلاب وسيقانها ثم تُرقَّع بها قلوبها فتشفي أمراضها وذلك في خلال يومين أو ثلاثة ايام فتأوي عقب برئها الى حجرها في منازل أصحابها .

أول مصنع يستخدم الطاقة الذرية لادارة آلاته

سينشأ خلال هذه السنة في إقليم تنيسي بالولايات المتحدة الأمريكية ، مصنع تسخر فيه الطاقة الذرية تسخيراً مباشراً لنفع البشرية

ويقول العلماء الذين تستخدمهم شركة مونسانتو الكيميائية لاتمام هذا العمل الخطير الشأن إن الوسيلة التي يتوسلون بها الى أمنيتهم ، تقوم بتسخين الغاز بتأثير الذرات الموضوعة في حجرة أخرى مجاورة له ممثلة في قضبان من اليورانيوم عيار ٢٣٥ وحينئذ يسيل الغاز الى حجرة أخرى مركزية حيث يلامس أنابيب مملوءة بالماء فيتولد البخار فينطلق الى تربينة بخارية . وهذه تدير في دورها مولداً لتوليد الطاقة الكهربائية . وعند ما يتم استعمال البخار يُوجَّه الى مكثف حيث يتحول ماء فينقل مرة أخرى بالمضخات الى الجهاز عينه .

سبب زرقة مياه المحيطات

أثبت عالمان أمريكيان هما الدكتور ف . ا . جنكينز أستاذ الطبيعيات في جامعة كاليفورنيا والدكتور باون مدير مرصد جبل ويلسون ، أن الاعتقاد السائد أفكار الناس ، وهو أن زرقة مياه المحيطات تنجم عن انعكاس زرقة الجو على صفحاتها ، هو اعتقاد فاسد . وذلك بما تبين لهما عند ما كانا يستخدمان أشعة الضوء في اكتشاف الغواصات المتسللة في الأعماق ، حيث اتضح لهما أن دقائق الغبار التي تحصى بالملايين التي تحويها مياه المحيط ، تعكس ضوء الشمس ثانياً على سطح المياه . بيد أن النور الذي يصعد الى السطح يتم ترشيحه بمروره في عدة أقدام بين طبقات المياه حيث تقوم المياه بامتصاص اللونين الاحمر والأصفر من الضوء ، وتترك الألوان الخضر والزرق والبنفسجية فيتحد بعضها مع بعض فتؤلف الأزرق والنيلي . وهو اللون المألوف لمياه أعماق المحيط .

استخراج الزيت المعدني من صخور السجيل

تحصل بلاد السويد على كثير من الزيت المعدني الذي تحتاج إليه ، وذلك بطريقة طريفة هي تسخين صخور السجيل[1] الغائرة في أرضها على عمق ٧٥ قدماً إذ تجذب الأبخرة فتتحول بالتقطير منتجات نفطية شتى . ويتوسلون الى ذلك بإحداث فجوات صغيرة في الأرض لا يزيد قطر كل منها على عقدتي أصبع وذلك بغية غرز مسخنات كهربائية في تلك الفجوات الأرضية لتسخين ما يوجد في جوفها من صخور السجيل تسخيناً يبلغ ١٠٠٠ درجة بمقياس فارنهيت . وهي حرارة شديدة كافية لاستخراج النفط من صخور السجيل بخاراً يتصاعد من هاتيك الفجوات حيث تستقبله آلات مبردة فتصيره سائلاً فيسيل في أنابيب إلى مقار التكرير حيث يتم تكريره على ما يرام .

ومما يجدر ذكره في هذا العدد أن بلاد السويد شرعت في تنفيذ هذه الوسيلة الغريبة في ابان الحرب العالمية الثانية إذ كادت تضطرها الظروف القاسية حينئذ الى الاعتماد اعتماداً كلياً على استعمال خشب غاباتها، إما وقوداً وإما مصدراً لتوليد الطاقة الكهربائية

وقد أذاع حديثاً الدكتور جوستاف إيجلوف مهندس النفط الموظف بشركة المنتجات النفطية العامة الأمريكية ، وذلك عقب أوبته من أوربا أن بلاد السويد استطاعت بتلك الطريقة في خلال الحرب الخالية استنباط ألفي برميل من النفط يومياً وذلك الى جانب حصول الشركة القائمة بالمشروع نفسه على نتيجة طيبة أخرى هي انتاج طماطم وخضراوات أخرى فائقة الاحجام من التربة التي تعلو طبقات الصخور المشار إليها التي تسخن على النمط المذكور آنفاً . ثم زعم الدكتور إيجلوف أن التربة نفسها سوف تحتفظ ببعض هاتيك الحرارة ٣٠ سنة تمتاز في خلالها بتحسن خصبها .

بنيسيلين صناعي يشفي من السل

أتيح لفوج من أساتذة الطب في كلية كورنيل الأمريكية تركيب بنيسيلين صناعي ينتظر التذرع به الى مكافحة الأمراض مكافحة حاسمة . وذلك لأنهم يعتقدون بتفوقه على البنيسيلين الطبيعي فيصبح سلاحاً فتاكاً للقضاء على أدواء التدرن الرئوي والانفلونزا وشلل الأطفال ، وغيرها .

عوض جندي

(١) السجيل shale حجارة كالطين اليابس



مكتبة المقتطف

ضبط الأعلام

للعالم المحقق المرحوم احمد تيمور باشا : نشرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية

١٨٠ صفحة من القطع الكبير ، القاهرة ١٩٤٧

كنت في مجمع فؤاد الأول للغة العربية أساهم في أعماله العلميّة ، وعرضت للمجمع مسألة من أهم المسائل اللغوية هي تسجيل اللهجات المصرية والمبادرة بهذا العمل قبل أن يطغى على هذه اللهجات تعليم الفصحى في المدارس والجامعات ، ذلك بما لدرس هذه اللهجات من علاقة وثيقة بتاريخ الأمة المصرية وهجرة القبائل العربية واستيطانها في أنحاء الوادي ، وبما لدرس اللهجات من علاقة بمقابلة اللهجات المصرية بلهجات الجزيرة العربية ، تحقيقاً للعلاقة الواقعة بين قبائل العرب الاسلاء والعرب المستوطنين في وادي النيل .

وشهد هذه المناقشة الأستاذ نلّينو رحمه الله ، فقال انه يعلم ان للمرحوم احمد تيمور باشا بحث في هذا الموضوع اطلع على شيء منه وانه من البحوث الفذة في اللهجات المصرية وعلاقتها بلهجات القبائل المستوطنة ، وأشار على المجمع أن يستأذن في نشر هذا المخطوط وانتهى الأمر عند ذلك .

أما وقد تألفت لجنة لنشر المؤلفات التيمورية ، وظهرت باكورة أعمالها بطبع كتاب «ضبط الأعلام» ، فقد تقدمنا إذن خطوة كبيرة في سبيل الانتفاع بما خلف ذلك الرجل العظيم الذي ضحّى بماله وصحته في سبيل العلم ، وظلّ طوال حياته عاملاً في صمت ، منتجاً في خلوة ، شأن العلماء الذين يذكرهم التاريخ ولم يعرف عنهم أهل زمانهم إلاّ النزر اليسير .

وكتاب «ضبط الأعلام» من الكتب التي يندر أن يوجد لها مثيل في المؤلفات العربية ، فإن نطق هذه الأعلام يكاد يكون على ألسنة الأدباء والقارئين رطانة لا تفهم ولا تمت إلى أصل الاسم بشيء . فهذا المعجم الأدبي التاريخي من المؤلفات التي لا يستغنى عنها أديب أو طالب أدب أو مؤلف يتحرى الدقة في ضبط الأعلام التي تعرض له .

رحم الله تيمور باشا فقد خلف لهذه الأمة العربية في آثاره ما لا يبليه كرّ الجديدان .

١ — أبو ذر الغفاري

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

لجنة النشر للجامعيين — ١٥٢ صفحة من الحجم المتوسط

هذا كتاب من كتب السِّيَر أجاد إخراجه الأديب الشاب الأستاذ عبد الحميد جوده السحار ونال من الذيوع والانتشار ما حدا بالمؤلف إلى طبعه أربع طبعات في أقل من أربع سنين .

أما محور الكتاب فهو أبو ذر الغفاري الصاحب الزاهد الذي ما أصاب مالاً إلاّ بدده في فعل المعروف وما عهد إليه في كنز إلاّ وزعه على بسطاء الحال وأدنياء القوم . ما غلّ يده قط أمام فقير عضّته الحاجة بنابها، وما عرف الترف والثراء في دنياه، ولو شاء لدانَ له الجاه وبدر الذهب .

ومبعث زهد أبي ذر إيمانه بالله وثقته بسابغ رعايته لخلائقه ، ولذلك لا ينفتأ يوزع الخيرات كلما ترامت إليه ، غير ضنين بها ولا مؤثر نفسه على سواه ، فضلاً عن دأبه في دعوة رفاقه وأترابه ومواطنيه الى الاحتذاء به في بسط اليد والحنوّ على المعوزين .

جاءه من يقول له : « انك امرؤ ما تبقى لك ولد » فأجابه إجابة الواثق : « الحمد لله الذي يأخذهم من دار الفناء ويدخرهم في دار البقاء » .

هذه لمحات كالأطياف من حياة أبي ذر الغفاري الذي عنّ للأستاذ السحار أن يلقّبه « بالاشتراكي الزاهد » وينسب إليه الدعوة إلى نشر الاشتراكية في صدر الاسلام والترويج لهذا المذهب الاجتماعي قبل أن يعرفه اقتصاديو القرن التاسع عشر ويجعلوا له صفة التقديس، وللمبشر به صفة التأليه .

ومهّد السحار للسيرة بمقدمة عن الاشتراكية في العصر الحديث والاشتراكية في الاسلام وقابل بين الاثنتين مؤكداً ان الثانية لم تأمر بإلغاء الملكية واستخدام الناس جميعاً في أعمالٍ لحساب الحكومة بأجورٍ متساوية وإنما قضت بتقريب الشقّة بين الناس بغير مدعاة إلى مصادرة الأملاك أو إلى معاملة الأفراد على قاعدة واحدة لا يدخل في حسابها الحكيم والجاهل والصحيح والمعتلّ .

٢ — الامام علي بن أبي طالب

للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود

الجزء الثاني — لجنة النشر للجامعيين — ٣٠٧ صفحات

في العام الماضي أخرج الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود الجزء الاول من كتاب « الامام علي بن أبي طالب » فإذا به سفرٌ ضخم ينطوي على مجهود رائع لشابٍ لم يتح لي أن أقرأ له أو عنه من قبل . أسلوب راوية ممتاز ، وطريقة تحليل جميلة وتقصٍّ تاريخي — إن لم يسعني الحكم على مدى دقته — ففي وسعي الحكم على مدى شموله ووفرته .

واليوم يطالعنا الأستاذ عبد المقصود بالجزء الثاني لذلك السفر ، عامرٌ بصفحات التاريخ وصفحات الحياة في إطارٍ بيانيّ ينمّ عن تمكن واقتدار ، وإطارٍ فني يفصح عن ولع المؤلف بصاحب السيرة واستخلاصه مواطن العبرة والشهامة من تاريخ حياة ابن أبي طالب .

بيد أن مما يأخذ بانتباه القارىء أن الأستاذ عبد المقصود ، وإذ كان قد استطرد واسترسل في سيرة علي بن أبي طالب ، غير أن هذا التوسع أفضى الى أن يشغل عثمان القدر المعلّى من السفر الثاني حتى كان يحقّ للمؤلف أن يطلق على الكتاب اسم عثمان لا علي دون أن يغير حرفاً واحداً مما جرى به قلمه .

أما الانطباع العام الذي صانته مخيلتي بعد الفراغ من تلاوة كتاب الأستاذ عبد المقصود، فهو أن المؤلف قفز فجأة من عالم المجهول إلى عالم المعلوم والتبريز ، فلم نعرف عنه أنه تدرّج في معارج الادب فابتدأ صغيراً واطرد نموّه حتى اكتمل ، ولكننا رأيناه ناضجاً دفعة واحدة ، يزاحم الأعلام من كتّاب السّير في مجالهم .

٣ – ديوان الطلائع

للأستاذ أحمد محمد جمال

دار الكتاب العربي بمصر — ١١٢ صفحة متوسطة

يبدو لي أن صاحب هذا الديوان مقتّر .

فهو من شعراء الحجاز المعاصرين ، وهذا الديوان أول نتاج شعري له ينشر في وحدة واحدة ، ولكنه مع ذلك أبى أن يطلع القارىء على جملة ما قرضه من الشعر ، واقتصر على أن يقول في مستهل كل قصيدة إن المنشور منها في الديوان بعض من ٢٥ بيتاً أو ٤٤ بيتاً أو ١٥ بيتاً . وهكذا . ولسنا ندري ما الحكمة من طبع القصائد في الديوان إذا كانت تورد مبتورة هكذا يضيع أكثرها «في بطن الشاعر» أو في أوراقه الخاصة التي لا تمتد اليها يد القارىء المتلهف على معرفة شيء عن أدب الجزيرة ، ذلك الأدب الذي ظلّ مقصيًّا به عن التداول العام حقباً طويلة .

* * *

إن استعداد الأستاذ أحمد محمد جمال ، كما يبدو من نظمه ، لا بأس به ، فما كان يضيره أن يقدّم لنا قصائده كاملة لنحكم لها أو عليها ، بل إن هذا كان من شأنه أن يُعلي قدر أدبه ويزيده جمالاً . وهو — على كل حال — متأثر إلى حدٍّ كبير بشعر شاعر المهجر إيليا أبي ماضي . وقد حاول تقليده في بعض قصائده ، واقتبس فقرات وآراء منه في منظوماته .

وأجمل ما في الديوان — في رأيي — قصيدته التي نعتها « بمرآة الماضي » فهي فريدة في بابها في النظم والنغم . ومن خير ما فيه كذلك تلك الحكم الشعرية التي ترجمها عن الانجليزية ترجمة تكاد تطابق الأصل . وإن كان مما يعاب كثرة الخطأ المطبعي في الأصل الانجليزي المدرج في الديوان .

أما ما عدا ذلك ، فهو شعر يتفاوت جودة وتوسّطاً .

وديع فلسطين

١ — مسرحية الأب

الكاتب السويدي ستراندبرج ترجمة الاستاذ وديع فلسطين

بالرغم من أن أدب كل أمة منذ فجر النهضة الاوربيـة قد مرّ أو يمر بهذه الأدوار — الكلاسيكية والرومانتيكيـة والرمزية والواقعية ... — إلاّ أن الباحث المدقق لا يعـدم خصائص مميزة لأدب كل أمة تميزه الى حدٍّ قريب أو بعيد عن آداب الأمم الأخرى رغم أن أسس النهضة الأدبية في كل أوربا تكاد لا تعدو أدب الاغريق واللاتين .

وخصائص الأدب الاغريقي القـديم انه كان يمثل الصراع بين رغائب البشر على الأرض وقضاء الآلهة في السماء وأدب اللاتين تـكاد تستغرقه مشاعر الحب والهيـام أما أدب أمم الشمال وهم الجرمان وسكان اسكنديناوه فيتميز بالـكلف بالحياة في تفاصيلها الدقيقة وكأنما همته البحث عن السر المختفي وراءها وقد وقف الأدب الانجليزي موقفاً وسطاً بين أدب اللاتين وسكان اسكنديناوه هذا بينما الأدب العربي في الشرق أبان حضـارة العرب في القرون الوسطى كان طابعه الذي يتميز به هو حب الحياة مكتفياً بجمالها الواقعي عن خلق مثـل عُليا للجمال.

والـكاتب السويدي أوجست ستراندبرج يعالج في مسرحيته الفذّة « الأب » التي قام بترجمتها الى العربية الأديب النشيط الأستاذ وديع فلسطين موضوعاً من صميم الحياة الواقعية بل هو يعرض لأبرز صورها وهي الحياة العائلية فيعرضها عرضاً واقعيـاً بحتاً وهو يضع في يدك خيطاً رفيعاً جدًّا من خيوط هذه الحياة المتعددة النواحي ثم يدفعك شيئاً فشيئاً في بساطة متناهية وأنت لا تحس واذا بك في نهاية المسرحية دهِش غاية الدهشة تحاول التخلص من الظلمة المخيفة المحيّرة التي دفعك إليها المؤلف فلا تستطيع ويضاعف من حيرتك وإحساسك بالألم إن هذه المشكلة هي مشكلتك أنت أيضاً إنها تمسك في الصميم بل وكل وليد من بني البشر — انها قصة عائلة أبرز أشخاصها الزوج (ضابط مسن) والزوجة وابنة — أراد والداها إن يكملا صباها المتفتح بالتعليم فاختلفا على شيء بسيط غاية البساطة هو اختيار المدرسة فيأخذ الموقف يتعقد والفتاة في حيرة شـديدة ، وأخيراً تنحاز لجانب أمها . ولو كان مؤلف هذه القصة أديباً من أي أمة أخرى غير اسكنديناوه لجعل هـذا الموقف وحده العقدة التي

تبنى عليها المسرحية ثم تقود الى الخاتمة المحزنة ولكن سترندبرج ككل أدباء الشمال مغرم بالخفايا والأسرار فغاص الى ما هو أعمق وأخطر لقد صممت الأم على أن تنتصر في المعركة بأي ثمن فلتحطم إذن في يد الزوج سلاحه وحقه في السيطرة على مستقبل الفتاة فرمته بأن الفتاة ليست من صلبه.. !! وهنا تميد الأرض تحت أقدام الزوج ويبدو لنا هملت جديد هملت عصري قد يكون في كل بيت ولكنه لا يدري بنفسه إذ لم تكشف له الظروف بعد قناع الخداع ... إننا نقرر أن أدبنا في أشد الحاجة الى أمثال هذه الآفاق الجديدة فهو يسير ويدور في جادة مطروقة فالجديد الطريف نادر وان إبسن ومترلنك وسترندبرج وغيرهم من أدباء الشمال الذين أثروا أبلغ الأثر في الأدب الأوربي الحديث لا يجوز أبداً أن نجهلهم لغتنا العربية وكما وفق المترجم في الاختيار فقد وفق الى حد لا بأس به في الترجمة.

٢ – كتاب روح وريحان

تأليف الأستاذ أحمد أنس الحجاجي

من المسلم به أن الزعماء تخلقهم البيئة مع استعداد خاص في طبيعتهم وأن أثرهم في البيئة أيضاً لا ينكر وكان لا بد لمصر التي تركز فيها كل تراث الحضارة الأسلامية منذ سقوط بغداد والتي وقفت أمام العالم كله تذود عن هذه الحضارة وهذا الدين أبان الحروب الصليبية ، نعم كان لا بدّ لمصر وهي للآن ما خلا المدن الكبرى تعيش حياة لا تختلف كثيراً عن حياة المجتمعات الاسلامية إبان القرون الوسطى أن تظهر فيها شخصية تمثل هذه البيئة وتتمثل البيئة فيها. وكان لا بدّ أيضاً أن يكون عماد هذه الشخصية في حركتها هو الشعور الديني الذي كان ولا يزال أقوى المؤثرات في المجتمعات الاسلامية .

نعم اننا لا ننكر ان المدن المصرية تكاد تكون قطعة من أوربا أو هي تسير في هذا الطريق وان الخطوط المرسومة لمستقبل الأمة المصرية تهدف إلى هذه الغاية ولكن لا تزال كتلة الشعب العظمى بعيدة عن هذا الهدف .

وقد توفرت ظروف سياسية ساعدت على ظهور هذه الشخصية ونفي بها شخصية

الأستاذ حسن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين أكبر جماعة دينية منظمة في الشرق الاسلامي، بل وأكبر جماعة منظمة عرفها تاريخ هذا الشرق — ففي الوقت الذي توزعت فيه قوى الزعماء، وفي الوقت الذي كثر فيه التنابذ في جو السياسة المصرية حتى تعذر تمييز الخبيث من الطيب تلفت الشعب وبتعبير أدق جمهرته العظمى المتدينة فوجدوا رجلاً يضرب على نغمة لا يملكون الاّ الاستجابة لها وهي نغمة الدين ولم يتوان الرجل عن انتهاز الفرصة التي كان يعد نفسه لها وينتظرها فقفز الى صدر الصفوف

ومن يطالع كتاب «روح وريحان» الذي يرسم صورة واضحة لحياة هذا القائد منذ شبابه بل طفولته يجد شخصية تكاد تكون صورة لأولئك القادة الذين ظهروا على التتالي في التاريخ الاسلامي ... فحسن البنا والمخلصون من جماعته لا يختلفون كثيراً عن جماعة الشراة والاباضية تحمساً لمذهبهم ، وحسن البنا والمخلصون من جماعته لا يقلون عن هؤلاء الدعاة الذين هدم بهم أبو مسلم الخراساني دولة وأقام دولة، بل ولم نذهب إلى أمس البعيد وأمامنا مثل حي اليوم وان كان في غير العالم الاسلامي ؟ هل يختلف حسن البنا وجماعته في حماسهم الذي لا يحد وإيمانهم الجارف عن جماعة الصهيونيين ؟ وإننا لنتساءل أما كان واجب العالم الاسلامي أن يوجد هذه الجماعة لو لم توجد لتقف أمام الصهيونية بأطماعها وأحلامها وإيمانها ؟ وهل يفل الإيمان إلاّ الإيمان والحديد إلاّ الحديد ؟ إن سياق حياة هذا الرجل في كتاب « روح وريحان » يعطينا صورة صادقة كل الصدق عنه وهي غاية في البراعة والجمال ، وأن الرجل الذي عاش حياته متحلياً بهذه المبادىء الخلقية الرفيعة التي طُبع عليها ويريد أن يطبع عليها الملايين لا بد وأن يكون شيئاً يحسب له ألف حساب في تاريخ هذا الشرق. واعتقادي أن رسالة الاخوان وحسن البنا بالذات ستبرز للملأ أقوى مقوماتها يوم تصطدم الصهيونية بمقدسات المسلمين اصطداماً مسلحاً في فلسطين التي يعتبرها مؤسس الاخوان جزءاً لا يتجزأ من الوطن الاسلامي الذي لا يتفاضل في نظره جزء فيه عن جزء . وللأستاذ الحجاجي الشكر على ما بذل من جهد وعناء في هذا الكتاب .

محمد فهمي

١ — الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية

للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف — جزآن من القطع الوسط —

طبعا بالمطبعة المخلصية بدير المخلص قرب صيدا (لبنان)

للعالم المؤرخ الكبير الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف آثار وروائع وبحوث طليّة في التاريخ والأدب ، امتلأت بها مجلته « الآثار » وكثير من المجلات العربية في مصر وسوريا ولبنان والمهجر ، وكنت قد علمت منه حين وفد على مصر عند اختياره عضواً بمجمع فؤاد الأول للغة العربية أن من الموضوعات التي توفر على بحثها وأعدّ المدة لإخراج مؤلف كبير عنها — تاريخ الأسر الشرقية . . . والأستاذ المعلوف اذا بحث موضوعاً وهبه من عنايته ومن موفور اطلاعه ومن معلوماته الواسعة ، ومما تهيأ له جمعه من نوادر المخطوطات ما يجعل للموضوع قيمته النفسية .

* * *

وكان من نتيجة الفكرة التي أخذ بها نفسه وعمل على إبرازها أن وضع كتاباً قيّماً في تاريخ الأسرة اليازجية التي اشتهر كثيرٌ من أفرادها في عالم الادب ، وارتفع صيتهم في سمائه وخلدت أسماؤهم .

والكتاب المخطوط الذي وضعه الأستاذ المعلوف عن هذه الأسرة ضخم ، ولكن المؤلف نشر منه فصولاً مختصرة في مجلة « الرسالة المخلصية » ومن ثمَّ أخرج هذا البحث المختصر على حدة في جزئين ، الأول منهما ويقع في ١٢٨ صفحة تناول فيه تاريخ الأسرة اليازجية العربية الأصل الحورانية المنبت وقد هاجرت الى حمص في نحو القرن الخامس عشر للميلاد ونشأ منها كتّاب لولاة حمص فلُقّب جدهم الأصلي باليازجي وهي كلمة تركية معناها « الكاتب » ثم صار هذا علماً للأسرة ، وقد تفرّع من هذه الأسرة فروع كثيرة اختص المؤلف في كتابه بالبحث الفرعَ اللبنانيّ منها . ثم ترجم لمشايخها العلماء أمثال المشايخ عبد الله وناصيف وحبيب وخليل وابراهيم ثم أولاد الشيخ ناصيف وإخوته مع ذكر آثارهم

الأدبية المطبوعة والمخطوطة . ولكل منهم فضل لا ينكر وبخاصة الشيخ ناصيف والشيخ ابراهيم .

وقد تناول المؤلف في الجزء الثاني — ويقع في ١٤٣ صفحة — تاريخ أصهار هذه الأسرة وبناتهم وأسباطهم ... وفي هؤلاء من ارتفع صيته الأدبي كالشيخ سليمان الحداد وولديه نجيب وأمين الحداد .

والكتاب المطبوع — على اختصاره — موسوعة ضمت الكثير من أخبار المترجم لهم وأشعارهم ونوادرهم وما قيل من المراثي فيهم ، وهو مرجع له قيمته في تاريخ الأدب العربي في القرن الماضي ... فالقارىء يتنقل بين ألوان شتى من الطرائف التي لا يضنّ الأستاذ المعلوف بالجهد الكبير في سبيل جمعها وتيسيرها ، وعسى أن يوفق قريباً الى نشر هذا الكتاب بالحجم الذي وضعه المؤلف .

* * *

٢ — جمال الدين الافغاني

آراؤه . كفاحه . أثره في نهضة الشرق — للاستاذ قدري حافظ طوقان —
٣٨ صفحة من القطع الوسط مطبعة بيت المقدس بالقدس

حياة جمال الدين الافغاني وآراؤه لن يفرغ منها الزمان ، ولن يقف البحث فيها عند وضع كتاب أو كتابين أو عشرة ، لأن حياته كانت بعثاً للشرق ، وكانت تعاليمه ضياءً للشرق ، وكان لتلاميذه أثر بارز في نهضة الشرق لأنهم استمدوا من روحه ومن مضائه ومن جرأته ودعوته للاصلاح القوة التي نقلت الشرق من حال إلى حال .

ولقد قرأت الكثير مما كتب عن هذا المصلح الشرقي الكبير ، والمحاضرة التي ألقاها الأستاذ قدري حافظ طوقان في النادي الرياضي الأدبي بنابلس وفي القدس وغزة واللد إحياءً لذكرى الافغاني بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته . ثم طبعها بعد ذلك ، هي على وجازتها من أمتع ما كتب عن الأفغاني وتحليل آرائه وعرضها . والأستاذ طوقان من علمائنا النوابغ عرفه قراء المقتطف منذ سنوات وعرفوا فيه قدرة الباحث العالم مع مقدرة

أدبية وغيرة شرقية تجلت في كتابه « تراث العرب العلمي » الذي أصدره المقتطف منذ سنوات .

وقد تناول الأستاذ طوقان في محاضرته أو في رسالته آراء الأفغاني وكفاحه وأثره في نهضة الشرق فبين كيف كان هذا المصلح يتمنى نبذ الخلافات الدينية ونبذ التعصب الديني وانه كان يؤمن بالحق ولا يقف دون رأيه حائل أو رهبة ، وكان يؤمن بحقوق الشعوب في أن تحكم نفسها بنفسها .

* * *

ولعلّ رده على اللورد ساليسبوري حين عرض عليه عرش السودان إبان ثورة المهدي من أبرز سمات قوة هذه الشخصية ومتانة خلقها وترفعها ومعرفتها للحق والجهر به فقد قال الأفغاني للورد : « تشكيك غريب . وسفه في السياسة ما بعده سفه . اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك : هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا اليه بسلطان ؟ مصر للمصريين والسودان جزء متمم له » . ولعلّ هذا هو منطق الحق الذي تنطق به مصر الآن تجلى على لسان مصلح الشرق منذ ثلثي قرن

وعرض لرأيه في العلم الصحيح والتمدن وما يجب أن يؤديا اليه وأن العلم الصحيح والمدنية الصحيحة هما الوصول بالعالم الى السلام والرخاء لا السعي في سبيل الاستعمار الذي هو التخريب في رأيه من قبيل أسماء الأضداد .

وانتهى الى أن الأفغاني أصبح الآن فكرة باقية ومعنى خالداً . . . فكرة الثورة والنضال ، ومعنى التضحية والكفاح في سبيل الشرق وخلاصه ، وكرامة الشرق وإعلاء كلمته .

وان رسالة الأستاذ طوقان عن الأفغاني لجديرة بالقراءة لأنها جلت لنا حياة المصلح عما يلهم الشباب العمل في سبيل المجموع وتقدمه والتضحية بالذات في سبيل الرأي والمبدأ والغاية العالية .

حسن كامل الصيرفي

١ — من وراء الأفق

ديوان شعر : ١١٠ صفحة من القطع المتوسط ؟ دار المعارف : القاهرة ١٩٤٧

٢ — معرض الأدب والتاريخ الاسلامى

بحوث متفرقة في الادب والتاريخ : ٢٣٤ صفحة من القطع الوسط مطبعة الاعتماد : القاهرة : ١٩٤٧

كلاهما من قلم الاستاذ محمد عبد الغني حسن

صديقنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن من أدباء هـذا الجيل النابهين ، جمع بين ملـكة الشعر وملـكة النثر ، فهو في شعره نسيج مرقق من ديباجة السّابقين ، وفي نثره طابع بذاته من الجزالة والسّهولة . فأنت من شعره في أفق يصلك بالحاضر كما يصلك بالماضي ، ومن نثره في جوٍّ رِيّـق ، لا تخدشك فيه خشونة بعض الأساليب القديمة ، ولا تفاهة بعض الأساليب الحديثة ، فقد جمع بين الدقة في الأداء والدقة في الأداة .

ولست هنا في مجال التقرير والنقد للأثرين الأدبيين ، وإنما أعرض هنا عرضاً لنواحٍ من فن الأستاذ المؤلف تنويهاً بفضله ، على أن نعود مرة أخرى الى نقد الـكتابين نقداً أدبيًّا مستفيضاً بعد الفراغ من درسهما

في ديوان من وراء الأفق « قصيدة وقفت عنـدها طويلاً ، وهي أبيات خوطب به البحر ، ولست أعلم أحبِّي للبحر هو الذي أغرى بي أن أقف عندها هذه الوقفة أم براعة الشاعر في خطابه الى ذلك العالم الأزلي :

وقفت بالبحر أستوحيه أشعاري ... فهل درى البحر أنبائي وأخبـاري ؟
يا واسع الصدر ! أسراري مكتمة ... فهل تصون صباباتي وأسراري
وبي من الشوق ما لو كنت تحمله ... لصرتَ مشتعل الأضلاع بالنـار
لا أنت يا بحر تشفي من لواعجنـا ... ولا نسيمك ، وهو العابر الساريّ .

ووقفة أخرى عند قصيدة « أين أنت »

هذي بواكير الربيع فأشرقي ... في فسحة الأفق البعيد المطبق
قلبي تبرّم بالشتاء فهيِّئي ... لي مقعداً عند الربيع المورق
والقيد أعياني وعض جوانحي ... واعتادني أرق الفؤاد فرفقي
من لي بأجنحة العقاب لعلني ... يوماً أحلّق في الفضاء المطلق
أنا من أضافته الهموم تنفسي ... من كربة السجن الـكئيب الضيق
ما الارض من وطري ولا هي داري ... كيف المقام على الضرام المحرق

ويكاد يخنقني مشوب عبيرها من لي بروح من مقبلك النقي ؟

وتطول بك الوقفات كثيراً في جنبات الديوان .

أما كتاب معرض الأدب فاسم على مسماه ، إذ جمع بين موضوعات تاريخية وأدبية وفنية قلما عرض لها كاتب من قبل . فقصة الأساطيل الاسلامية بحث من أطرف ما قرأت ، ثم الشعر في معارك الحروب ، ورثاء الزوجات في الأدب العربي ، والى جانب هذا فصل عن انجلترة في نظر سائح عربي .

ولهذا الكتاب وجهة قومية عربية واضحة المعالم بينة القسمات محصلها ما قال المؤلف في المقدمة « نحن في المزدحم العالمي اليوم مقبلون على أمور جسام . فمن الخير للعرب أن يستخرجوا مواطن العزة من أمسهم ، ليأخذوا الأهبة ليومهم وغدهم . ومن الخير لورثة العرب حضارة وثقافة أن يستعرضوا ماضيهم في ضوء التحقيق والانصاف ، لا في بهرجة المبالغة والاسراف . فذلك أجدى عليهم وأنفع لهم ، حتى يكونوا من بناة الخير الذين اذا ورثوا المجد القديم صانوه وأتموه ولم يضيعوه ، وإلاّ صحّ فيهم قول القائل .

اذا المجد القديم توارثته بناة السوء أوشك ان يضيما

مجلة «الضاد» الحلبية

تصدر عدداً خاصًّا عن فوزي المعلوف

أصدر صديقنا الأستاذ عبدالله يوركي حلاق رئيس تحرير مجلة « الضاد » التي تصدر في حلب عدداً ممتازاً من مجلتـه في عام ١٩٣٥ عن الشاعر النابغ المرحوم فوزي عيسى المعلوف بمناسبة مرور خمس سنين يومذاك على وفاته . وفي أول العدد كلمة رائعة لأمير شعراء الأسبان فرنسيسكوفيلا سباسا عن فوزي المعلوف قال فيها إنه « كأنبياء التوراة علّق ربابته على غصن صفصافة لتعزف على هوى الريح ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفيـة تهمس بها الألوهة » .

ويلي ذلك ملحمة شعرية للشاعر الفقيد مؤلفة من أربعة عشر نشيداً تنطق بإبداعه وإلهامه وترادفت بعد ذلك كلمات وقصائد لأدباء العروبة تصور مجالي العبقرية في الشاعر وتبين الخلال الحميدة التي تميّـز بها .

وليت الأستاذ عبدالله حلاق يعني بأن ييسّـر للمصريين الحصول على هذا العدد الممتاز من مجلته « الضاد » لأن الشاعر صاحب السيرة من الشعراء الذين يجب أن يكونوا غير مجهولين في ربوع مصر فضلاً عن سائر الأقطار الناطقة بالضاد ، ولا سيما لأن هذا العدد الممتاز فيه عن الشاعر المعلوف ما لا يتسنى للباحثين المصريين معرفته عنه .

فهرس الجزء الاول

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١—٣٥ ملحق

رحلة الى مصر

في عهد محمد علي باشا الكبير

لمحمد رضا

رحلة الى مصر
في عهد محمد علي باشا الكبير

تأليف

الدكتور ورنر هوفميستر

نقلها من الانجليزية الى العربية

محمد رضا

رئيس قسم الفهارس بمكتبة جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

مقدمة

رحل الدكتور ورنر هوفيستر الألماني إلى سيلان والهند في معية برنس أوف پروسيا . وقد أبحر مع الأمير من مدينة تريسته في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٤٤ . ومرّ في طريقه بالاسكندرية ثم سافر الى القاهرة فوصف ما شاهده وصف أجنبي مار بالبلاد . إلاّ أن عين الأجنبي ترى أكثر . وكان ذلك في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير .

وقد حثني أحد الأصدقاء الأعزاء على ترجمة هذا الجزء من الرحلة لما فيه من وصف لذلك العهد الذي مضى عليه أكثر من مئة عام . وأغلبنا لا يعلم الحالة الاجتماعية وقتئذٍ في مصر . فلبيت طلبه على ضيق وقتي . وقد وجدت أن وصف المؤلف ، هو عبارة عن نظرة سطحية إجمالية لكنها مع ذلك تبين حالة مصر في ذلك الزمن وما حدث بها من رقي وتطور عظيم في اكثر النواحي وما لا يزال على حاله إلى الآن بالرغم من انقضاء قرن من الزمان .

أول يونيو سنة ١٩٤٧ — محمد رضا

لما دنت السفينة من شاطىء الاسكندرية ، شاهدنا عدّة بروج أو ما يماثلها . وظهرت مسلة كليوباترة وعمود السواري . وكان الشاطىء ، لسوء الحظ ، منخفضاً ، فلم يكن لجميع هـذه المنـاظر غير أثر طفيف في نفوسنا . ثم أبصرنا منظراً خلفنـاه وراءنا ، منظـر الأسطول المصري الراسي هنا . وقد بلغنا أنه أسطول عجيب ، لكني ألتمس العذر إذا قلت إن منظره كان كئيباً جـدّاً حسب ما بدا لناظري . فكل سفينة كانت تبـدو قديمة ، غير معتنى بها ، قذرة الشكل . وأغلب السفن باهت اللون وقليل منها عليه مسحة الحيـاة . وقد رأينـا صبياناً سمر الوجوه ، على رءوسهم طواقي حمر ويرتدون سراويل بيض . وهم يتسلقون الحبال ويثبون بمهارة فائقة .

رأينا بين القوارب التي اندفعت نحو سفينتنا ، قارب قنصلنا وقد كان مبطناً بنسيج قرمزي اللون ، يُسيّره بالمجاديف اثنا عشر بحاراً سمراً ، حسان الوجوه . في مقدمتهم زنجيّ ، لامع الوجه ، معتـدل القوام . فاسترعى نظرنا بنوع خاص . وعلى رأسه عمامة بيضاء . وكان رداؤه العلوي أبيض وكذا سراويله . أما ملابسه الداخلية ، فكانت قرمزية لامعة . وقد بلغنا أن القنصل مريض ، طريح الفراش في القاهرة ، ولذا أناب عنه مندوبين لاستقبالنا ، أحدهما كاتب شاب ، كان دائم الارتجاف من فرط ما اعتراه من الحيرة والارتباك ، وكان الآخر رجلاً عادي المنظر .

وقد حُملت أمتعتنا بلا نظام ثم غادرنا السفينة واجتزنا الزوارق الصغيرة التي يملكها البحارة الذين يحتشدون نحو السفينة . وما أشد ما سمعناه من الصياح والجلبة بين جمهور من النـاس ، سمر الوجوه ، فطس الأنوف ، غلاظ الشفاه ، يلبسون عمائم ويلتفون بثياب حول وسطهم . وليس عليهم ملابس أخرى غير هذه . ووقف على الشاطىء جيوش من الجمال والحمير في انتظار المسافرين . وهنا حدث شجار بسببنا ، غير أنه ما لبث أن هدأ بفضل ما بذله مرشدونا من جهد . وبدلاً من أن نمتطي الحمير التي تكاد تبلغ مبلغ البغال

في الحجم والقوة ، وجدنا لحسن الحظ مركبة خفيفة ظريفة ، مبطّنة بحرير أبيض فركبناها ميممين المدينة . فكان أول منظر غريب ابتدر عيوننا الأوربية ، جيش من الهجن ثم الأهالي على اختلاف أشكالهم وهم بدو مصر ونوبيون وأحباش سود وعبيد من ساحل أفريقا الغربي ، ذوو أنوف مسطحة ، عريضة وغليظة . فكان منظرهم مما يدعو الى الاستغراب .

ومما لفت أنظارنا ، نساء الفلاحين المبرقعات . وهنّ يرتدينَ قمصاناً زرقاً وسراويل وبراقع من الحرير الاسود ذات ثلاثة أركان . وحول عيونهنّ دوائر سوداء ، مصبوغة . واستلفت نظرنا أيضاً ، شرفات المنازل للشعرية ، الدقيقة الصنع . وبعد أن اجتزنا كثيراً من الشوارع المتسعة والضيقة وسط زحام من الناس على إختلاف أشكالهم ، وصلنا ميداناً حاطاً بكثير من المنازل الأوربية النمط تماماً وقد بناها محمد علي وهو يطالب لإيجارها ثمناً غالياً [(١)] :

وقفنا أمام منزل من هذه المنازل — هوتيل أورينتال — وهو مبنى كبير من الحجر مرتفع القامات ، وجميع نوافذه مغلقة : وخلف كل شقة منه ، حجرة بها سريران . وتزين الغرف أريكة جميلة وبيانو وعدة صور باريسية محفورة . ومطبخ فاخر . فكان الفندق بالاختصار شاملاً جميع المزايا المتوفرة في فندق فرنسي أو ألماني حسن . غير أن عيبه الوحيد ، تهافت البعوض الذي يسبب الانزعاج والأرق ليلاً في هذه البلاد لسوء الحظ .

لقد قضينا زمناً طويلاً في أول قدومنا مضطجعين على مقاعد النوافذ نتسلى بمراقبة منظر سير الهجن وهي محملة بالأحجار وتسير دائماً سيراً هادئاً حزيناً بخطوات متئدة على وتيرة واحدة . والأهالي المسلمون يرتدون ملابس شرقية زاهية ، ذات ألوان عديدة . والسياح الانجليز والفرنسيون بل والسيدات أيضاً يمتطون الخيل والحمير وهم يُرون بمجرد أن يلقي الإنسان نظرة حول هذا الميدان الفسيح . ويحمل باعة الفطائر والحلوى والليمون والشربات بضائعهم برشاقة على قمة رؤوسهم . أما السقّاءون فيحملون قربهم المصنوعة من جلود المعز ، وذلك بأن تدبغ بطريقة بديعة ثم يخاط العنق والأرجل . وبعضهم يسير على

---

(١) لا نعلم أن محمد علي باشا بنى في الاسكندرية منازل لايجارها . ولعل المؤلف بلغه ذلك ولم يتحقق من صحته (المترجم)

الأقدام والبعض الآخر يمتطون الجمال ويشقون طريقهم وسط الزحام .

وقد قضينا يومين في مشاهدة مناظر المدينة . ومنذ أول يوم قدمنا فيه، ركبنا الحمير وتجولنا في طريق لم نشاهد فيه شيئاً يستحق الذكر . وقد أعجبنا جداً بمنظر القصر الواقع على شاطىء البحر وبمنظر الجزء المخصص لحريم الباشا . فدخلنا القصر وأخذنا نفاوض الحارس وبعض كبار الاتراك الذين اجتمعوا بعد الغروب لتأدية أعمالهم في ليالي رمضان . وبذلك مهدنا السبيل للحصول على إذن يخول لنا مشاهدة القصر .

أرخى الليل سدوله عندما ركبنا الحمير عائدين الى المدينـة التي كان يسودها الظلام ولم يكن هناك ما يفرج عنا هذه الوحشة الا ما كان يبدو من النور الضعيف المنبعث من القناديل . وكان شكل البلح الذي يأكله الناس هنا غير ناضج بديعاً . وكذا كان منظر البرتقال والليمون الأصفر يغري المارة على أكله ، إلا أن الأوربي قلما يستسيغها لشدة حموضتها ، فوقفنا وترجلنا أمام جامع سمعنا منه ترنيماً عالياً . وهو يحتوي على باحة فسيحة بها عمد عديدة بيض ، بينها قضبان مدلى منها قناديل . وقد وقف المؤمنون يصلون في صفوف مستقيمة ، كل صف منها خلف الآخر . ويقابل المدخل مبـاشرة ، المعبد أو أقدس مكان وهو المحراب الذي يقف أمامه الامام . وكلما قال « الله أكبر » سجد جميع المصلين ولمست وجوههم الأرض . فكان لسجود هؤلاء المعممين[1] سجوداً متعاقباً وقيامهم ثانياً ، تأثير عجيب بهيج في نفوسنا حتى اننا لم نستطع مقاومة رغبتنا طويلاً في مشاهدة هذا المنظر الطريف . فشاهدناه من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية ومن الباب المفتوح. وفي الحال ألقي علينا حجر فسقط في وسطنا بالضبط غير أنه لحسن الحظ أصابني فقط في جنبي بشدة . ولما فوجئنا بذلك ، كان سرورنا عظيماً عند ما أسرعنا وقفزنا فوق سروجنا وسرنا حتى بلغنا مقهى . هنـاك قدمت الينا « شيشات » صغيرة — نرجيلات — وأخذنا ندخن . فلم يكلفني ذلك أي مجهود . ولم يكن طعم القهوة السوداء رديئاً . وقد جلسنا على أريكة خشبية عالية « دكة » فتدلت أرجلنا في الهواء . وعبثاً حاولنا الجلوس كما يجلس الأتراك، فتخلينا عن هـذه المحاولة يائسين . وقد شاهدنا في هذا المقهى أنواعاً رديئة من خيال الظل

---

(١) قد تغير الحال الآن فان أكثر المصلين ترام فى الجوامع مطربشين وأقلهم معممين (المترجم)

مصحوبة بغناء بالدف حسب اللعب عوضاً عن التمثيل المسرحي بين الطبقة الراقية من أهالي الإسكندرية الشرقيين [1].

وفي صباح اليوم التالي (٣ اكتوبر)، أيقظتني وخزات البعوض الملهبة الذي كان قد نفذ من ستائري الرقيقة. إن هذه الحشرات تنزلق من غير أن يراها أحد داخل الستائر اذا كانت هناك فتحة مهما كانت صغيرة أو ثقب لا يلاحظ حتى بالفحص الدقيق كما تفحص الستائر يوميًا. فاذا ما استقرت في مكان ضيق، لسعت لسعاً مؤلماً جداً.

ثم بدأنا سيرنا في أجل أنحاء المدينة بصحبة ترجماننا الرومي. وهو رجل متصف بأقل صفات حسن السلوك وأشد الغباوة!.

زرنا في اليوم التالي مسلة كليوباترا، وهي عبارة عن نصب تذكاري، موحش المنظر مطمورة في الرمل الى نصفها ومحاطة بجدران كبيرة الحجم متهدمة. وتشتمل تربة هذه الجهة من المدينة الى عمق بعيد على بقايا أحجار جيرية من آثار الاسكندرية القديمة. وتبدو هذه الانقاض كأنها محجر، فتؤخذ مواد البناء من هذا المخزن الأرضي الذي لاينضب والذي ينهب باستمرار.

لم أجد في زيارتي لمسلة كليوباترا إلاّ شيئاً قليلاً ذا أهمية، عدا عظاية طولها ١٨ بوصة وعند ما حاولت إمساكها، أخذت تتسلق المسلة. والعظايات كثيرة الوجود هنا بنوع خاص. وقد طالما ذكرتني بقصة فيلون الأبله عندما كنت أراها تزحف بين أكوام الحجارة في خرائب القصور القديمة.

وقد دهشت من جهة أخرى، إذ سرتني رؤية الحدائق الشرقية الحديثة جداً، فيها مظلات مرتفعة ونوافير من المرمر. وقد قصدنا زيارتها راكبين المطايا في ٤ اكتوبر واجتزنا في طريقنا الضاحية، وهي بالقرب من المرفأ الجديد. ويحف بالجانبين أشجار النخل التي رفعت قامتها على الجدران المتهدمة. وكل شجرة من هذه الأشجار، تتألق بالثمار الغزيرة.

---

(١) انقرض خيال الظل تقريباً بعد أن انتشرت المسارح ودور السينما. أما الارائك الخشبية العالية فلا توجد الآن إلا في قليل من المقاهي البلدية كأنها أثر من آثار الماضي البعيد وقد استبدلت بالكراسي العادية (المترجم).

وكنا نسمع من آن لآخر صرير الساقية الحزين التي غالباً ما يكون مركزها في أعلى قمة تحت ظل الأشجار الكثيفة . ومنها تسقى الحديقة باستمرار . والماء النقي العذب أثمن شيء ولا يجلب الى المدينة إلا بواسطة مجرى . أما هذه الآبار العميقة ، فلا ينبع منها غير ماء مشوب بالملوحة لا يستعمل إلا نادراً اذ لا يصلح للشرب أبداً .

ثم ولجنا بيتاً مرتفعاً ، نظيفاً ، يكاد يكون منظره أوروبياً . ومدخله بهو طويل ، مرصوف بنوع من الفسيفساء بحصوات بحرية سود وبيض ، يؤدي الى أول ساحة داخلية يكتنفها نوع من النباتات المائية القصيرة . وجدرانها مكسوة بكثير من أشجار الياسمين والورد الثمين الجميل وبأنواع أخرى من النباتات المعرشة الظريفة ، وهناك ممر طويل مرصوف بقطع من الرخام ومسوّر كذلك بالنباتات المائية وينتهي بكشك أو فسطاط . وهو بناء واسع ، طلق الهواء ، مشيد بخشب مخروط ، شرقي الطراز تماماً بوسطه عدّة نوافير ينبثق منها الماء في أحواض من المرمر الجميل . وكل شجرة من هذه النباتات التي تحيط بهذا السياج ممتلئة أزهاراً . وان أزكاها رائحة ، الياسمين العربي . وعند هذا المكان ، مدخل الحديقة نفسها ، يفصل كل ممر من ممراتها ، أسوار مرتفعة من نبات إكليل الجبل — حصالبان — على الأخص . وأعلاها مؤلف من أشجار الدفل والبرتقال والموز . أما النخل فانه يكوّن قسماً خاصّاً . وهنا قسم آخر للخضروات ، زُرع فيه أنواع عديدة من الليمون والقرع الاستمبوليّ والخيار .

وبما أن ترجماننا قد أصيب بنوبة قشعريرة شديدة ، فقد اضطررنا أن نستأنف سيرنا بلا تابع . فتجولنا في منحدر عال على قمة حصن وصعدناه . ومع أن حارس الحصن الذي كان سيء العدة ، قد أشار الينا من أعلى اشارات إنذار واضحة بأن لا نقترب ، فاننا بلغنا القمة في الحال ومتعنا الطرف برؤية المنظر الساحر لكثير من الجوامع بالأسفل . وهي مشتتة بين حدائق النخل ويحيطها من جهة ، بحيرة مريوط ، الشبيهة بالبحر ، ومن جهة أخرى البحر المتوسط . ثم اننا لم نكد نجلس عند نهاية القنطرة المتداعية ، حتى قدم الينا الجند بحالة غضب لاختراقنا حصنهم . وحاولوا طردنا . وقد اجترأ أحدهم فقط أن يمد يده ، لكنه لم يلمسنا بالفعل بل لمس سائقي الحمير . وبعد أن صاح الحارس صياحاً عالياً وصرخ صراخاً

عنيفاً باللسان العربي الذي يرن في أي وقت كأنه لغة شجار دائم ، انتهى الأمر بهم إلى تركنا حيث كنا (١)

وعند عودتنا ، اتخذنا طريقنا الى الأثر المسمى عمود بمباي مارين بسقاة تصب في حوض قذر تغسل فيه الملابس . وهنا رأينا جمعاً من نساء وصبية قذرات يصحنَ ويتشاجرنَ وهنَّ يرتدينَ ثياباً زرقاً وغاية في الدمامة . واللاتي بلا براقع سوداء منهنَّ ، يمسكنَ دائماً بأفواههنَّ أطراف أرديتهنَّ ويغطينَ بها نصف وجوههنَّ . وأغلبهنَّ يحملنَ أطفالهنَّ على جانبي أكتافهنَّ . وكان أهم عمل يؤديه الرجال الواقفون في الحوض هو حك ملابسهم بشهوة .

يؤدي الطريق إلى عمود بمباي ، الى سهل مجدب ، محرق ، مغطى بالأحجار والرمال . وهناك كثير من المقابر في جهات شتى تتميز بحجارة قليلة غير مصقولة ، مبنية بالملاط وبلا نحت غالباً . أما العمود فقائم بمفرده . والظاهر انه كان تابعاً لمعبد عظيم . لكن ليس لتاجه ولا لأقسامه أي جمال بل انه يدل بالعكس على ذوق فاسد جمع بين النمط الحديث والقديم (٢)

من هنا قفلنا راجعين إلى قصر الباشا . وان الانسان لا يمكن أن يتصوّر مكاناً أجمل منه . انه قائم بالقرب من البحر عند المرفأ القديم يشرف على منظر الأسطول بأكمله . وقد بنيت سلالم القصر وقاعة التشريفات من رخام أبيض جميل . وأرض القاعات المستديرة المتسعة مرصعة ترصيعاً بديعاً بالأخشاب الثمينة ، وعلى حوائط قاعات الاحتفالات الرسمية ، قماش فاخر مزركش بالصور وهناك زهريات جميلة ، احداها مهداة من البابا . وكثير من الصور الملونة والأثاثات والخزانات الباريسية المملوءة بالطيور البرازيلية المحنطة وهذه كلها محفوظة بعناية ونظافة بالغة وهي ترى داخل جدران مسكن محمد علي النفيس . هذا والذوق الفرنسي هنا له شأن في تنظيم الترف الشرقي . ثم غادرنا القصر ونحن في غاية السرور . وهو ككل المباني الشرقية النمط لا يتجاوز ارتفاعه دورين .

بعد تناول الغذاء ، انطلقنا مرة أخرى سائرين على الأقدام في غسق الليل في المدينة

(١) ان عدم تعرض حراس الحصن للسياح وتعرضهم لسائقي الحمير لم يكن جبناً منهم بل لانهم كانوا يعلمون أن السياح أجانب وان السائقين هم الذين دلوهم على هذا المكان (المترجم)

(٢) هو عمود بومبيوس الذي بناه تخليداً لذكرى حصار دقلديانوس للاسكندرية ، وهو قطعة من الجرانيت الوردي ، بني على النمط الكورنثي ويبلغ طوله ٢٨ متراً (المترجم)

التي أنعشها الآن الحرية بعد الغروب في رمضان . وأخذنا نمر آناً بشوارع مظلمة وآناً بمحال السمك أو الأسواق المضـاءة بمصابيح من ورق ، والمكتظة بجميع أنواع المأكولات . وتجوّلنا إلى أن وصلنا مقهًى فخماً تمتعنا فيه بالمنـاظر الشرقية . فهنا ترى المسلم في أحسن أوقات راحتـه ، يدخن غليونه ، والوجوه السمراء مختلطة بالسوداء ، والسوداء بالنحاسية اللون . والأسمال البالية بجانب الملابس الغالية ، والعمائم والطرابيش . وهؤلاء جميعاً في زحام من مختلف الألوان . وفي وسط المقهى ، نافورة ينبثق منها الماء [1] وكانت القهوة والشبك في غاية الحسن والنادل المرح بسترته وسراويله البيضاء ، يقدم لنا المصطكى لنمضغه فيخرجه من جيبه الذي في أعلى قميصه . ثم جاء بعض الموسيقيين واحتلوا مراكزهم في المقهى زيادة في التسلية . وهم مؤلفون من فتىً أعمى مغنٍّ ، ورجل مسنٍّ يعزف بآلة ذات أوتار ممتدة على لوح كالقيثارة (عود) وكان الدّف متمماً لآلات العزف ، وحل مغنٍّ آخر محل الأول لأن غناءهم يستدعي بذل جهـدٍ عظيم بسبب عادة هز الرأس باستمرار وادارة العينين وتقطيب الوجـه بشكل لا يتصور . وأعظم جزء من اللحن بالمفتاح الصغير ، فيستعيده أو يطلبه بالاسم صاحب المقهى قبل الغناء ثم يبدي سروره بالتصفيق بيديه . وقد آلم آذاننا عزف الآلات معاً ولاسيما لأنها كانت شديدة القرب منـا . فتأهبنا للذهاب الى فندقنا لاعداد العـدة للرحيل في اليوم التالي .

في صبيحـة ٥ أكتوبر ، ذهبنا الى سطح السفينة التي كانت ستقلع الى قناة المحمودية بعد أن تزوّدنا بكثير من المؤن وتبعنا ترجماننـا ، وهو رجل أسود ، ذو عينين جميلتين واستقلّ قارباً يجره حبل

كان الريف حولنا قفـراً لا أثر للحيـاة أو الخضرة فيه ممـا ينقبض له نفس السائح ولم يستلفت أنظارنا غير الأكواخ الطينية والساقية والصقور المصرية الـكثيرة وبعض الرجال البائسين ، أنصاف المتوحشين . وتقع القناة بأكلها في طبقـة من الرمل والطين . وليس في معظم أنحاء الرابية التي تكتنفها ، عشب بالـكلية .

---

(١) لم أر الا مقهى واحداً بوسطه نافورة في القاهرة . الا أن هـذه النوافير قد اختفت من المقاهي وقد كانت تكسبها منظراً شرقياً بديعاً وترطب الجو (المترجم)

وقد وصلنا متأخرين في المساء الى المكان الذي تتلاقى فيه القناة بالنيل . وبالقرب منه قرية العطف الحقيرة التي يقطن أهلوها مع دواجنهم في دور كأعشاش الخطاطيف ! وملتقى القناة بمياه المجرى محجوز بأبواب خزان . فوجدنا هناك باخرة فخمة مضاءة بأنوار بديعة راسية أمام منزل مؤلف من دورين . وهناك قدمت الينا القهوة . وعند ما صعدنا سطح السفينة ، حيتنا الموسيقى بصوت عال . فوجدنا كل شيء منظماً أحسن نظام . وكانت مؤخرة السفينة محاطة بالأرائك المخملية الأرجوانية اللون والحجرة المعدة لنا رطبة ، طلقة الهواء فتمتعنا بنوم منعش جداً لا يعدله شيء وذلك إما لتأثير خيالنا أو من جراء هواء النيل المعتدل المفيد . وفي هذه الأثناء كان جميع خدام السفينة يتجددون كل ثلاث أو أربع ساعات هذا والموسيقى تصدح بقوة والطبول تدق على نغمات أدوار بلليني ودونيزتي . لكن لم يفكر أحد في أن آذاننا تتمزق قطعاً في سبيل تسليتنا . وأخيراً أفهمناهم جلياً أننا لسنا من هواة الموسيقى . وفي صبيحة يوم ٦ أكتوبر ، تناولنا فطوراً خفيفاً جداً . اذ كان زادنا قد نفد سريعاً ولذلك استولت علينا الدهشة عند ما حان وقت الغذاء ورأينا طاهي الباخرة يضع أمامنا صحوناً عديدة من المآكل العربية الشهية وأغلبها مؤلف من أرز أو دقيق ، لذيذ الطعم جداً . وكثير منها لا يلائم ذوقنا لكثرة دهنها ولأنها مصنوعة من دقيق الحنطة والحقيقة إنه لا الطعام ولا الموسيقى المصرية الصاخبة والطبل تعوّض ما قد أصابنا من السآمة من مشاهدة منظر شواطىء النيل .

إن اتساع الماء ولونه المضطرب والأحمر والأصفر ، يملأ السهل المنخفض الأجدب الذي ليس فيه أثر للخضرة التي يتوقع أن يراها الانسان بعد الفيضان مباشرة . ولا يوجد على حافة النهر الخارجية ، غير قليل من الأعشاب الجافة التي تتسابق النوق لرعي كل ذرة منها بغاية السرعة وكذا ترعاها قطعان الجاموس العديدة التي تقف بخراطيمها في الماء العكر .

هنالك ترى في جهات متعددة من خمسين إلى مئة نخلة . يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو تسعين قدماً وشكلها بديع وهي مزينة بمحصول وافر من عناقيد جميلة محملة بالبلح الأحمر والأصفر . وعند مرورنا تحت تلك الأشجار النامية بالقرب من جانب الماء ، شاهدنا في الظلام تحت قمة الأوراق الكبيرة على ارتفاع عظيم رجلاً منهمكاً في جمع البلح داخل حصيرة ثم أخذ

يلفها ويحملها إلى ذلك المكان المرتفع . وكان الأهالي المجتمعون في ذلك الوقت يرقبون عمله .

والعادة أن يكون لكل مجموعة من أشجار النخل ، قرية صغيرة على مقربة منها . إلاَّ أنه في الغالب يصعب على الانسان اكتشافها لأن ذلك يحتاج إلى عين اعتادت رؤية هذه المواقع .

ان المادة التي تبنى بها الأكواخ، هي من التربة التي تحت الأقدام . فيأخذ القرويون قطعاً منها ويجففونها في الشمس على شكل قوالب طوب خشن أو على شكل طين جامد غالباً . وبهذه القطع يشيدون مباني مستديرة أو مربعة أو مخروطية كما يريدون ، لا يتجاوز ارتفاعها غالباً أربعة أقدام . وتقوم الطاقة في البناء مقام الباب والنافذة معاً . وتشبه القرية ، إذا شاهدها الانسان من أي مكان قريب ، مجموعة من أعشاش الخطاطيف ، بنيت بالقرب من بعضها . وإن شناعة داخل هذه التلال الصغيرة ، لتتضح من القذارة الدائمة العالقة بهذه المخلوقات البائسة الحقيرة الداكنة . وان كانوا في الظاهر يسهلون ترقية نظافتهم بالاقلال ما أمكن من خزانة ملابسهم ! وما أتعس وأفظع رؤية الرجال البائسين والحبال الخشنة المربوطة بانحراف حول صدورهم وهم يجرون القوارب عكس تيار النهر . وأجسامهم مسلوخة سلخاً مريعاً ومغطاة بالقروح كأفظع خيول مركبات النقل عندنا . أما النساء فتدثرات بثياب طويلة زرقاء قاتمة وهنَّ يتخذنَ أحد أطرافها لتغطية الرأس . ولا حاجة الى نصف النقاب الأسود حتى في أحوال الدمامة الشديدة

ان النقاب (البرقع) عبارة عن قطعة طويلة من الحرير الأسود ، ذات ثلاثة أركان توثق بأزرار نحاسية إلى قمة غطاء الرأس بحيث يعلق تحت العينين . ومنظر الثوب بأسره ، غاية في الشناعة .

وترى هنا وهناك بحيرة كبيرة من مخلفات الفيضان بجانبها مجموعة من أشجار السنط والجميز . وتحت ظلالها جاموس يجر الساقية لري حقول القمح والذرة الشامية . في حين يسقي الفيضان المرتفع أشجار النخل .

الساقية آلة بسيطة تتركب من عجلة كبيرة ، معلق على محيطها الخارجي قواديس من فخار تحمل الماء الى الخارج من أخدود صغير بالقرب من العجلة وتصبه في حوض من خشب

أو في قناة . ويسمع صرير هذه المجلات في جميع أنحاء مصر ويصاحبه غناء سائقي الثيران وهو أشد منه حزناً لأن العربي لا يؤدي أي عمل من غير أن يقرنه بالغناء . ولهذا الفن شأن وضيع جداً في الزراعة . إنهم يغنون كل شيء من الأنف أو بالحري يضغطون النغمات ثم يخرجونها بكيفية غريبة جداً . لأن معظم توقيعاتهم بالمفاتيح الموسيقية الصغيرة ، ليس لها إلاّ نغمات قليلة . وأخص فنهم ، هو إخراج نغمات بدوية متتابعة لا يستطيع تقليدها الموسيقيون في أوربا حتى بعد جهد جهيد . وانّ لهم صوتاً غريباً . وهو في الغالب غير سار . غير أنه يثير الاستغراب والدهشة .

وقد كنت أشاهد من آن لآخر ، وان كان ذلك في النادر ، على طول شواطىء النهر ، حقلاً مسطحاً . مغطىً بعشب طويل كالحلفاء . إلاّ أن الخضرة ليست عامة على السطح المستوي .

كان فرع النيل يتلألأ هنا وهناك على بعد أو كان مجراه موسوماً بشراع أبيض صغير بشكل رباعي عادة ، ومربوطاً بسارية مائلة من القمة .

وقد وعدنا ربان السفينة أن يصل الى القاهرة قبل الساعة الثالثة ، غير أن التيار كان قوياً جداً بسبب هبوط الفيضان . فحال ذلك دون تقدمنا سريعاً . وعلى ذلك مرت الساعة تلو الساعة . وفي حوالي الغروب ، ظهرت الاهرامات أخيراً ، وهي قائمة كأشباح هائلة في الأفق الأحمر . فاسترعت كل نظرة من نظراتنا إلى أن توارت في الغسق المعتم . ثم غشينا الظلام الحالك ، فلم نرَ أي ضوء ولا سفينة ولا أي شيء نستدل به على اقترابنا من العاصمة التي يبلغ عدد سكانها نحو مائتي ألف نسمة .

وقد عيل صبرنا ولم يكن من السهل تهدئة ثائرة ما اعترانا من القلق بالرغم من أن الموسيقيين السمر بسترهم وسراويلهم البيضاء كانوا يبذلون كل جهد لتحطيم آذاننا وحصر التفاتنا . وبعد انتهاء العزف ، التجأنا الى مأوانا البالي . فكان صدى صوت الموسيقى وخرير الماء ، لا يزالان يرددان نغماتنا الوطنية . ثم ساد سكون عميق في جميع أنحاء سطح السفينة . وانسلّ الفلاحون السمر من كل فج إذ فتنهم سحر الموسيقى الطريفة عندهم .

ظهرت أخيراً القاهرة أمامنا ، وعلى الأقل كانت الأنوار تتلألأ على الشاطىء . وقد

حدث أن دارت سفينتنا دورة خطيرة ثم اصطدمت بمركب شراعي ، محمل بالحجارة . فسقط كثير من الرجال في النهر وارتفعت أصوات الشجار المخيفة وصيحات الموت . ولم يقتصر الأمر على تبادل الألفاظ ، بل تبادلوا اللكم . وظهر على الشاطىء قوم يحملون أوعية من الحديد كالبراميل ، مربوطة الى شواخص وممتلئة خشباً مشتعلاً وقشاً أو نشارة لتكون بمثابة مصابيح متأججة. ولم نر شيئاً من المركبات الموعودة . وكانت الحمير مع ذلك واقفةعلى أهبة الاستعداد والرجال السمر ، الهمج كقطاع الطرق يلوحون بعصيهم و يصيحون صيحات مزعجة . وكل واحد منهم يتحرك على دابته . فركبنا بعد أن أعددنا المعدات الضرورية الخاصة بأمتعتنا . ثم خلفنا خدمنا وترجماننا للبقاء معها وحراستها . وكانت هذه الحيطة ضرورية نظراً الى حالة البلدة . المختلة النظام والشوارع الضيقة والسرقات المتعددة في منتصف الليل . ثم اننا أسرعنا وامتطينا حميرنا وحملنا معنا من الأمتعة ما تمس إليه الحاجة فقط وأطلقنا العنان للحمير . وهكذا اندفع موكبنا نحو المدينة . وكان في المقدمة دليلان ، بيد كل منهما مشعل ككلاب الصيد التي تقتفي الأثر . هذا وقد أخذنا نمر بأزقة ضيقة مظلمة وطرق مسدودة غالباً بالقاذورات المختلفة الأنواع والأحجام .

وقد حدثت كارثة صغيرة ، وهي أن أحد الراكبين كان معه صندوق ثقيل ، داخله نقود، فوقع على الأرض غير أنه لحسن الحظ نجا من الأذى . هذا هو الحادث الوحيد الذي وقع بنا . وأن السرور الذي سرى في نفوسنا من منظر دخولنا ليلاً ، استغرق نحو نصف ساعة من بدء ركوبنا . وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام باب كبير ، هو باب هوتيل أورينتال . وهذا الفندق ، مسكن جميل الموقع جداً ، كثير الشبه بالمنازل الانجليزية . فلما فتح الباب ، بحثنا في ذلك المبنى المتسع كله عن ندول أو خدم فلم نجد أحداً . إلا أن وقاحة سائقي الحمير لم تقف عند حد حتى بمعونة عصينا . وأخيراً بعد أن بذلنا جهوداً كثيرة ، أفلحنا في إيقاظ رجل زنجي كان غارقاً في النوم . فاذا به يعرف قليلاً من اللغة الايطالية . وفي الحال حل مما كلنا بسوطه الطويل من جلد فرس النهر (كرباج) فانهال به ضرباً ذات اليمين وذات الشمال على النائمين المتمددين على الأرض في كل جانب بلا أي غطاء . أما من جهة غرفنا ، فقد اعترضتنا في بادىء الأمر صعوبة عظيمة في اقناع الناس بما يلائمنا . ثم استولينا

على الشقق اللازمة . ومع ذلك كانت السرر التي استلقينا عليها متعبين ، حسنة جداً . وكانت الستائر متماسكة وبلا ثقوب بحيث حالت دون تطرق البعوض الى داخلها . هذا ولم ندرك مزايا الحجرات الا أخيراً في اليوم التالي. وكان صاحب الفندق رجلاً فرنسيـًّا صاحب أملاك في الاسكندرية . فقـدم لنا اعتذارات كثيرة وأدخلنا بهواً فاخراً وحجرة أكل مؤثثـة بالأرائك التركية . وكانت الحوائط مزينة بالنقوش الانجليزية والفرنسية الجميلة ويوجد في البهو بيانو لا أهمية له .

في اليوم التالي، أشرقت الشمس ففتحت الدرف الفينيقية . ما أبهج هذا المنظر الساحر! إن على يسارنا صفـًّا طويلاً من المنازل الشرقية ، ذات الشرفات المصنوعة من الخشب الخروط الثمين (المشربية) بدلاً من النوافذ ويتخلل المنازل أشجار الميموزا والنخل وقد جاوز ارتفاعها جدران الحدائق . وينتهي صف المنازل الطويل والقصور بمنارة طويلة بديعة . وتوجد في الصدر عدة مبان كهذه مدهونة بالدهان الأحمر والأبيض البهيج. وبالوسط أشجار النخل المخططة تخطيطاً طريفاً في الأفق الأزرق ويجاورها الى يميننا هرما الجيزة الهائلان وهما يزيدان جلال التلال التي يعوزها جمال المنظر . وتقع الصحراء الى يميننا على الأفق حيث يسهل تمييزها بجوها إذ يطفو عليهـا بخار كثيف ذو لون رمادي ضارب الى الصفرة . والأرض التي أمامنا جميلة لأنها تشتمل على أشجار اللبخ المكسوة بخضرة الربيع اليانعة ، تتخللها حقول الذرة المترعرعة . وفي وسط الصورة بركة صغيرة محاطة بأشجار اللبخ . وبالقرب من هذه البركة أعظم الطرق المؤدية الى المدينة ، وهو طريق يخترق ميداناً واسعاً يسمى « الأزبكية » تطل عليه نوافذ فندقنا . هنالك شاهدت حمـيراً محملة بالفواكه وفي أثرها ، صغار السائقين السمر الوجوه ، يسيرون نحو المدينة ، تتبعها سلسلة من الهجن بخطوات بطيئـة . وكل هجين مربوط بحبل الى الذي أمامـه . والنساء يسرنَ بملابسهنَّ وسراويلهنَّ الزرقاء ، على رءوسهنَّ أوعية كبيرة وأخرى أصغر منها على أكفهنَّ المرتفعة وعلى أكتافهنَّ من الجانبين أطفال عرايا غالباً ، ويمشي الأقباط البيض بعمائمهم السود والنوبيون السود بشمائلهم البيضاء الطويلة . والأعراب النحفاء الجسم ، الذابلون القذرون والاتراك والأرمن السمان ، الضباع ، النظاف ، جميع هؤلاء يسيرون نحو المدينـة . ان

الانسان لينعش نظره بالقرب من أمام نوافذنا بأوراق أشجار اللبخ والجميز الوافرة . ومن المحال وصف السرور الذي نشعر به مرة أخرى لرؤية الأشجار الخضراء التي أسفنا لحرماننا منها منذ غادرنا النمسا . فههنا الظل وهنا الماء . هنا الفرُش النظيفة والفطور الشهي . وبعد أن تناولنا الفطور ، لم يقف بنا حب الاستطلاع عند حد ، فوثبنا على ظهور الحمير التي كانت واقفة على أهبة الاستعداد تحت نوافذنا . وفي الحال انطلقنا من غير أن نضيع وقتاً ، ميممين شطر مدينة الخلفاء . حيث يجد السائح عالماً جديداً بالمرة مما يدهش له نظره فلا يدري أين يلقي عينيه أولاً . هل يبصر المساكن البهيجة المتعددة الألوان ، المزينة بالنقوش المنحوتة ؟ أو الجوامع البديعة المتخربة أو الحوانيت لتجار الأغنياء أو حتى الجماهير المحتشدة من جميع أمم الشرق ؟ لقد كان من المتعذر علينا اجتياز الزحام الشديد بالقرب منا ، لأن عرض الشارع في العادة من أربع خطوات الى ست لاغير . وقد استطاع ترجماننا المسلح بسوطه الهائل ، المصنوع من جلد فرس النهر ، أن يفسح لنا الطريق بلا مراعاة أي كلفة ، فأخذ يضرب جميع السائرين المتلكئين ضرباً قوياً . وفي الحال أزال كل عقبة تعترض سبيلنا ، حتى أن الجمال المثقلة بالأحمال اضطرت أن تذعن لهذه المعاملة (١) . وعلى ذلك تقدمنا تقدماً سريعاً ما أمكن . وفي العادة كان يرافقنا انكشاري أو اثنان (يسمون قواسين) وهؤلاء غالباً ما تكون مرافقتهم مصدراً للمضايقة .وهم وان كان مظهرهم جميلاً إلا أنه ليس لوجودهم أقل فائدة . إذ لا يحلم أحد أن اللصوص يسطون عليه . وان ما يرويه السائحون من البيانات بهذا الشأن ، مبالغ فيه كثيراً .

ومنذ اللحظة الأولى التي يخترق فيها الأوربي شوارع القاهرة ، لا يستطيع أن يكف عن التفكير في انه متى دخل نطاق القاهرة سيُهان ويفتقر ويصاب بالوهن من جراء المجاعة والطاعون . فلا يستميله غير بقايا المجد الغابر . غير أن هذا المجد كان عظيماً ومحاطاً بالبنيان بأكمله وبكيان المدينة نفسها بدرجة أن الهمجية الطويلة العهد لم يكن في مقدورها القضاء عليه

---

(١) لا يستطيع ترجمان أو أي انسان الآن أن يضرب المارة أو يتعدى عليهم ليفسح الطريق مهما كان مسلحاً ومهما كان الطريق مزدحما . لان الجمهور الآن ليس هو الجمهور في ذلك الزمان . هذا وقد اتسعت الشوارع اتساعاً عظيماً حتى بلغ عرض بعضها ٤٠ متراً أو أكثر (المترجم)

أينما وجه الانسان نظره ، كان الخشب المخروط المتقن الذي صنعت منه المشربيات ، الطلقة الهواء وأبواب القصور المتداعية المتخذة من البرنز الجميل والزخارف المنحوتة المنبثة داخل الجوامع القديمة ، كان كل ذلك شاهداً على الذوق السليم والمهارة الفنية في عصر الخلفاء

ومن حسن الحظ أنه قلما تسقط قطرة من المطر بين هذه الخرائب . اذ لولا ذلك ، لكان من المحال أن تبقى تلك الآثار الكثيرة من الفنون الجميلة ، محفوظة من القرن الحادي عشر بل من القرن العاشر ، لأنه منذ ذلك العهد المجيد لم يصلح شيء منها بل بالعكس كان كل شيء عاملاً على الحط من جمال الآثار القديمة حتى أصبحت أكواماً من قطع محطمة اتخذت مواد لتشييد كثير من المباني الحديثة[١] :

أتذكر أننا في أول يوم قدمنا فيه القاهرة (٨ اكتوبر) توجهنا إلى القلعة للتمتع بمشاهدة منظر المدينة العام . فهناك تمتد العاصمة الى السهل المتسع السفلي الذي يكسوه اللون الرمادي القاتم . وان منظر الضواحي التي بنيت منازلها من الطين وحده في غاية الكآبة . ويليها أيضاً أكوام القمامة والأنقاض المنتثرة . وقد دعت الضرورة إلى شق الطرق خلالها . وترى في هذه الضواحي بعض الجوامع والمآذن العتيقة ، ظاهرة بشكل محزن ، شبيه بالموت . وهي أمتن من كل ما حولها . والآن ويا للاسف ! لا يقيم تحتها غير الكلاب ولا يعلوها غير اليمام والغربان .

لما أجلنا النظر حول محيط هذه الانقاض الكثيرة ، استطعنا أن نكون فكرة عن اتساع حجم المدينة القديمة . التي كان عدد سكانها فيما مضى ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة . فأصبحوا لا يتجاوزون ٢٠٠٫٠٠٠ [٢]

يوجد أسفل القلعة مباشرة ، وهي التي ترتكز على أساس صلب من حجر الجير ، عدد من المباني الطويلة والوضيعة ، الرمادية اللون ، ذات سطوح مستوية ، مغطاة بروث الجمال بدلاً من الأسفلت وليس لحيطانها نوافذ . ومنظرها كعلب الورق المقوى . وارتفاعها

---

(١) أنشئت بعد ذلك العهد دار الآثار العربية وتألفت لجنة حفظ الآثار التي قامت باصلاح وترميم المباني الاثرية وعملت على المحافظة على بهائها وسالف مجدها (المترجم)

(٢) يبلغ عدد سكان القاهرة الآن نحو ٢٫١٠٠٫٠٠٠ (المترجم)

من ثمانية أقدام الى عشرة . يشغل كل منهـا سطحاً مساحته عشرون قدماً مربعاً . وهذه المباني هي ثكنات مؤقتة يقطنها الجنود مع زوجاتهم وأطفالهم في زحام شديد !

ان اللون الرمادي هو اللون السائد في المدينة بأجمعها . وترى هنا وهناك مآذن آية من آيات الفن المعماري ملونة باللون الأحمر والأبيض تسر الناظرين . أو ترى قبة جامع قديم تضيء على طول الصخر الزخرفي المنحوت . ثم ألقينا نظرة طويلة ، بكل سرور على الاهرامات البادية الاشراق في ضوء الشمس بين السديم الذهبي المشرق على الصحراء . ويوجد بينها وبين المدينة خط بهيج من الخضرة ، تلك أشجار يانعة ، وافرة الأوراق . وحقول متناثرة من القمح أو الذرة . ثم شاهدنا عن بعد مصدر جميع هذه البركات — النيل الذي يتألق كبحيرة عظيمة ، وسط الأشجار . وإلى يسارنا ، أجمة صغيرة من أشجار النخل ، تكوّن حافتها تخوم الصحراء . وإلى يميننا تمتد جبال المقطم الـكلسية كالجدار الأبيض المستقيم .

ان محيط القاهرة الجديدة ، لا يزال عظيماً جدّاً بالنسبة الى عدد السكان . فهي تبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف مساحة برلين تقريباً . ويدخل في نطاق هذه المساحة طبعاً أكوام الخرائب الـكبيرة . وكذا الطرق في بعض الانحاء التي تـكاد تـكون خالية من السكان والتي يشمل أعظم جزء منها منازل متهدمة .

بعد أن نزلنا من أعلى قمة في القلعة ، بدأنا بزيارة الجامع الذي أمر بتشييده الباشا (محمد علي باشا) ولم يتم بناؤه . وهو بناء فخم ، فسيح جدّاً إلا أنه مزيج من النمط المغربي والنمط الحديث[١] ويرجع جماله بنوع خاص الى عمده المتخذة من الرخام الشرقي النفيس وقد أقيم منها خمسون عموداً . وان محاريب الجامع وأفاريزه الصفراء وحواشيه التي من الفسيفساء هي من أغلى أنواع الحجارة في مصر . ومن الغريب أن الباشا الذي يعنى بشأن كثـير من المباني ، لم يفكر في إصلاح أحد الجوامع القديمة ذات الجمال المنقطع النظير [٢]

---

(١) بنى جامع محمد علي باشا على نمط جوامع القسطنطينية (المترجم)

(٢) كان لمحمد علي باشا عذر في ترك تلك الجوامع الاثرية المتهدمة على حالها لان موارد مصر في عهده لم تكن تخول له الانفاق على اصلاحها . وقد أصلح ورمم عدد عظيم منها فيما بعد بفضل توفر المال وجهود لجنة حفظ الآثار (المترجم)

ثم إننا حاولنا ان نحصل على إذن لمشاهدة جزء من داخل قصر الباشا على الأقل . فحصل ضابط قديم على ترخيص لنا بالدخول مع ان الترخيص كان قد رفض من قبل . وقد استولت علينا الدهشة وشعرنا بالخيبة عندما دخلنا حجرات الحاشية التي تحيط بالحديقة ، إذ وجدنا أنفسنا في حجرة الانتظار فاذا هي مفروشة بحصير وجدرانهـا مطلية بالجير الرمادي الخطوط الحمراء . ثم إن غرف الاستقبال نفسها . لا تفضلها ، فهي مؤثثة بالأرائك المتسخة والممزقة وتستند الى حوائط ينم شكلها عن انها كانت بيضاء فيما مضى . وبالساحة الأمامية ، فصيلة من جنود الرديف المصريين . ففتش فريقنـا الأجنبي المحب للاستطلاع ، أسلحتهم ومعداتهم تفتيشاً دقيقاً . والجنـدي المصري ليس قبيح المنظر . وقد يتبـادر للذهن عند رؤيته انه يعامل معاملة حسنة إذا لم نكن نعلم أن الآباء هنا غالباً ما يفقأون عين أحد أبنائهم أو يقطعون الأصبع السبابة لليد اليسرى لئلاً يكون فريسة لقسوة معاملة الباشا الذين يعملون في الخدمة العسكرية (١) .

يرتدي الجنود المشاة سترا فضفاضـة زرقاء وصديريات بيضاء ومناطق حمراء وأطقمة بيضاء تبلغ الـكعب وأخفافاً حمراً على أقدامهم العـارية . وغطاء الرأس طاقيـة حمراء تشبه غطاء الرأس عند اليونان . ويسمى في مصر بالطربوش .

يوجد بأسفل القلعـة ، بئر غريبة جداً ، هي البئر الوحيـدة في جميع أنحاء مصر لأن الأهالي على العموم يشربون ماء النيل . ويقال إنها بئر عميقة ، تعرف ببئر يوسف . لا يتجاوز عمقها عن ٣٠٠ قدم . محفـورة في صخـرة من حجر الجير . ويوجد حول البئر نفسهـا سلالم ملتفة مبنيـة بناءً بديعاً . وللجدار الداخلي ، نوافذ تمد ذلك العمق الساحق ببصيص من النور .

وبالقرب من سفح القلعـة ، بناء جانبي صغير لاصق بهـا ، هو معرض الوحوش الذي أنشأه محمد علي باشا وبه بعض الأسد والضبـاع ، مربوطة إلى الحوائط : بسلاسل قوية هائلة بالقرب من أوكارها القذرة . غير ان الحيوان الذي يستحق الذكر ، هو النمر .

---

(١) لا يرجع السبب في ذلك الى سوء المعاملة كما تصور المؤلف بل الى قلة المرتب وحرمان أسرة الجندي من الانتفاع بعمله مدة طويلة (المترجم)

وقد زرنا عند عودتنا سوقا . وان جميع طرق الأسواق متشابهة من حيث أن اتساعها لا يزيد عن أربع أو خمس خطوات . وهي غير مرصوفة ومغطاة بسقيفة تمتد من جانبي أدوار المنازل العليا . ويبدو منظرها مظلماً .

والتجار يبيعون البضائع الحريرية . وقليل منها مصنوع في مصر . فأغلبها يرد من القسطنطينية . وهناك بعض الخياطين يبيعون ملابس جاهزة . وترى كثيراً من الدلالين يحملون بأيديهم أسلحة فضية مموّهة بالذهب ، والشيلان والغلايين والشبك . انهم يجلسون القرفصاء وسط الزحام وأولادهم القذرون الصغار يمصون البرتقال الحلو و الرمان . وان ملابس هؤلاء الأطفال في العادة عبارة عن قمصان من القطن الأزرق ، ذات أكمام واسعة ، مربوطة بحبل أحمر من الصوف ، ملقى الى العنق ومتقاطع من الخلف . وقلما يلبس الأولاد العمائم . فهم يكتفون غالباً بالطرابيش . أما التجار الذين يبيعون أنواع الحرير والأقمام (وتسمى المباسم) فهم أتراك في الغالب نظاف ، يرتدون ملابس تركية جميلة . ويرتدي العربي الغني (يريد المصري) قميصاً أبيض وسراويل بيضاء ويتمنطق بحزام عريض من الحرير . أما سائر ملابسه فمؤلفة من سترة من نسيج الحرير أو القطن ، ذات كمين مفتوحين أو جلباب واسع يصل الى الكعبين ، وخفين أصفرين يليين جلده ، وعليهما خفان أحمران .

ترى نساء الفلاحين هنا في جموع من أطفالهنّ العرايا الذين يعلوهم الهوام يبعنَ نوعاً من الكعك المفرطح أو العجين ، نصف المخبوز أو العيش الأبيض والخيار والبرتقال الحلو . وملابسهنّ نوع من الرداء الأزرق الطويل ، ينتهي بغطاء يستر الرأس . والبرقع الأسود مشدود الى قصبة الأنف ومربوط بمشبك من نحاس مؤلف من ثلاثة أزرار صغيرة منظومة في سلك في طرف هذا الرداء الطويل المتدلي على الجبهة . ومع ذلك فكثيرات منهنّ حتى الفتيات قد أبطلنَ استعمال هذا البرقع المتعب الكريه . لذلك يستبدلنه بامساك طرف الرداء الطويل بين أسنانهنّ ويرمقنَ الأجنبي خلسةً . وقد انتشرت بينهنّ عادة تزجيج العيون بالكحل الأزرق القاتم وصبغ الأظافر بالحناء الحمراء حتى بين أحط الطبقات . وقد أكسبتهنّ عادة حمل الأثقال على رءوسهنّ باستمرار ، رشاقة وتموجاً في المشي . فهنّ بهذا يمنعنَ أكمامهنّ الواسعة الطويلة من التدلي على أيديهنّ بما ألفنه من رفعها على رءوسهنّ حتى صارت هيئتهنّ غريبة وجميع

حركاتهنّ متوازنة ولا يلبسنَ أحزمة أبداً . لهذا تجد أخفهنّ ذات شكل مميز ومظهر ممتلىء وهنّ مع حرصهنّ على اخفاء وجوههنّ لا يرتبنَ في التكشف ، لأننا نرى إتساعاً في فتحة الرداء من العنق . والسراويل جزء ضروري ، لكنهنّ حفاة لا يستعملنَ الأحذية اذ أنها خاصة بنساء الطبقة الراقية اللاتي يظهرنَ في الشوارع عادةً ممتطيات الحمير ووراءهنّ الخدم . وملابسهنّ بيضاً ، غالباً بدلاً من الملابس الزرقاء ، وعلى رءوسهنّ برانس صغيرة من حرير أسود تتدلى على الاكتاف والظهور ، تباين بقية الملابس مباينة شديدة . ويجلسنَ على سروج الرجال من الجانبين بحيث يكون الركاب عالياً جداً فيعتلينه بغاية الصعوبة . ومن مظاهر الترف العظيم ، الخيول المطهمة ، وغطاء سروجها مصنوعة من قطيفة أرجوانية اللون مطرّزة بالذهب تطريزاً ثميناً ومثبت عليها رقائق من ذهب يتدلى منها كثير من الأهداب المزركشة . انّ جميع الذين لهم أي اعتبار ، هم الأتراك وأغلبهم ينتمون الى الجيش ويرتدون ملابس تركية النمط ، عدا العمائم فانها قلما ترى بشكلها الأصلي الغالي . وهم يلبسون سراويل تستر الركبة ونوعاً من الكلزا أو غطاء الساق وسترة مزركشة ذات لون أزرق أو أحمر في الغالب ومنطقة حريرية عريضة فيها عدّة غدّارات وسيف قصير داخل غمد فضي . هذا ولبس الطربوش عام الشيوع . ومن المناظر المألوفة بين الجمهور المرح المختلط ، المختلف الأزياء ، القبطي بوجهه الأصفر وملامحه الدالة على الملق . أما ملابسه وعمامته ، فسوداء . والحاخامون يلبسون عمائم سوداء أكبر (١) وكذا مفسرو القرآن ، أما الأشراف ، فيلبسون عمائم خضراء كبيرة ، غير أني لم أرهم بالفعل إلاّ في المساجد .

في ثاني يوم من قدومنا القاهرة (٩ اكتوبر) ، ذهبنا نتنزه إلى ما يسمى مقابر الخلفاء ، فسرنا الى أقرب باب لتلال المقطم لزيارة أول مكان ، جامع قايتباي ، المشيد في القرن الخامس عشر [(١)] وهو بناء كبير ، نصفه متهدم ، يشبه المعبد ، وتعلوه قبة ومنارة لطيفة ، مستدقة الرأس . وقد سقط طلاء سقف الجامع ومحي الطلاء الجميل . أما الرسوم العربية التي تغطي جانب الحوائط وتحيط بالنوافذ ، فغير ظاهرة إلاّ في بعض الجهات مصادفة . وأما قضبان النوافذ الشعرية المصنوعة من البرنز الصب ، فلا تزال باقية بحالة

---

(١) بني جامع قايتباي سنة ١٤٧٠ م (المترجم)

جيدة ، وكذا زخارف الأبواب البرنزية . وليس هذا مما يدعو الى الدهشة بالنسبة الى جفاف الجو . ومع ذلك فقد طرأ تغيير عظيم على حجارة الأرض . فلم يبق منها غير آثار قليلة من الفسيفساء في الأفاريز وهي من رخام أصفر وأبيض . أما مقبرة قايتباي نفسها فهي تحت القبة فيها قطعة قديمة من حجر الصوان تمثل آثار قدم محمد (صلى الله عليه وسلم) وضريح السلطان ، داخل شبكة من الخشب المخروط . وقد كان فيما مضى مموّهاً بالذهب ، وثقوبها ضيقة جداً بحيث لا يسهل رؤية المصحف الموضوع على القبر . ولا تتجلى عظمه نقوش القبة المنحوتة إلاّ بأجزاء منعزلة في جهات مختلفة . ومع هذا يمكن أن يقال أن البناء بوجه عام يستطاع إصلاحه بغاية السهولة.

ثم أننا ركبنا واجتزنا ساحة قفراء من الخرائب ، وهي عبارة عن تلال يبلغ ارتفاعها من ثلاثين الى خمسين قدماً مكونة من قطع من جرار وأنقاض مبان قديمة العهد ، منثورة أمامنا ، يتضح منها إتساع مدينة الخلفاء . وقد وصلنا سريعاً الى المدافن وبعضها محاط بالجدران . وتدل الجوامع القديمة والقباب على مقابر الخلفاء الموجودة في كل مكان . وكثير منها مغطى بالرسوم الجميلة المنحوتة في حجر الكلس نحتاً بديعاً كأن نسيجاً مطرّزاً تطريزاً دقيقاً قد ألقي عليها . فدخلنا أفخم هذه الجوامع الأثرية أعني جامع البرقوق الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الرابع عشر (١) وهناك يخيم السكون بدرجة عظيمة لبعد الجامع عن المدينة . فلا تسمع الأصوات الحية إلاّ من الأطفال الصغار عند الأسوار وهم من الأسر الفقيرة الذين يقطنون في الفجوات الجانبية المجاورة .

في الجامع ساحة مكشوفة في منتصفها نافورة تظلها الأشجار وحولها أروقة مقنطرة ، تحملها عمد رفيعة مزينة برسوم عربية متنوعة . وقد صارت الشبّاك الخشبية رمادية اللون لطول عهدها . غير أن آثارها تدل على أنها كانت فيما مضى مموّهة بالذهب ، مما أثار إعجابنا بجمالها . وهذا الجامع لاقبة له . وإننا اذا أدرجنا الجوامع المتهدمة في الاحصاء ، بلغ عددها مائتين على الأقل . وسقيفة المدخل تعلوها قبة مرتفعة ، هي في العادة أنفس جزء فيه وتشمل قبر بانيه ويشمل الجامع الأصلي ، ساحات فسيحة مكشوفة ، محاطة بعمد فاخرة .

(١) تم انشاء جامع السلطان برقوق سنة ١٤١٠ م (المترجم)

وفي الوسط ، فضاء واسع مربع الشكل مرصوف بالرخام ، يحيط به جدران أو عمد عالية مزينة . والعقد العالي الوحيد ، هو قبة السماء المطلقة . وتقام الصلاة في هذه الساحة الداخلية وتحت العمد . ما أجمل هذه البقعة لعبادة الله ! إنها في الحقيقة لأشد مهابة وجلالاً من كثير من الكنائس القوطية حيث تؤدى العبادة في ظلام حالك . فهنا تبدو قبة السماء الرائعة نفسها بزرقتها الدائمة الطاهرة كأنها قبة هائلة مستقرة على تلك الجدران المرتفعة المبنية من الحجر المنحوت وفي وسط ذلك المربع المكشوف السالف الذكر ، نافورة مشيدة من رخام ويحاط بالحوض بعض أشجار النخل . هذا الحوض يشرب منه المصلون ويتوضأون . والحصر المصنوعة من سعف النخل مفروشة تحت صف الأعمدة . وهي في الغالب ستة صفوف أو سبعة صفوف من الرخام النفيس . وعلى هذا الجانب من البناء المتجه نحو مكة ، يوجد المحراب داخل الحائط وهو بناء نفيس كقدس الأقداس . وكل مسلم يخلع نعليه عند دخول المسجد . ولما كنا لا نستطيع خلع نعالنا بالرغم من رغبتنا في اتباع هذه العادة ، فقد كان ذلك مثاراً للاستغراب ، لا سيما في المساجد التي يكثر التردد اليها . وقد نجونا غير مرة من التعدي علينا بفضل همة القوّاس .

كان جامع المؤيد أقرب جامع لفندقنا على الجهة المقابلة للشارع المغطى [1] . إن مدخله عظيم يشبه كهفاً هائلاً مطعماً ذات مئات من الكوات الصغيرة في السقيفة الفخمة التي يبلغ ارتفاعها ستين قدماً .

وهناك ثريا ضخمة من برنز على شكل سفينة معلقة من القبة العظيمة بسلسلتين . أما السلسلة الثالثة فمكسورة واليمام معشش فيها . والقبة مغطاة في الأصل بخشب مخروط دقيق لا تزال بعض قطعه باقية . وتدل آثارها على أنها كانت مموّهة بالذهب . أما الساحة المكشوفة ونافورتها التي في الوسط ، فانهما في غاية الجمال . وقد رصفت الأرض بالرخام . ولم تطؤها أقدام الناس بأحذيتهم الخشنة فبقيت حافظة لمعانها حتى لقد اضطررنا الى لبس الاخفاف على أحذيتنا الأوربية .

إن جامع طولون متهدم الآن . وهو بناء كبير وقد خلف في نفوسنا أثراً عظيماً .

(١) شارع الخيمية والسروجية وهو مسقوف الى (الآن المترجم)

وأعمدته التي تحيط بالساحة الفسيحة المكشوفة بالوسط يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً . ترتكز على عقود مدببة جميلة التناسب . وقد تهدمت الأجزاء الحديثة البناء في عدة جهات ، فظهر البناء الأصلي الفاخر بجلاء ولا تزال بعض الأجزاء الخشبية المموّهة بالذهب التي تكسو الجدران حافظة لشكلها مع أن الجامع مبني في القرن التاسع . ويوجد قليل من الألواح محفورة في الجدران ، ذات نقوش كوفية بالقرب من المدخل الأصلي .

ثم اننا ألفينا في طريقنا جامعاً ثالثاً ، هو الجامع المعروف بالأزهر الذي يفخر بقدميته وداخل سياجه ، ساحة من الأرض في غاية السعة ، بها أبنية منفصلة : بيت الفقراء ومأوى الحجاج ومكتبة وكلية شهيرة لتلقي العلم والقاء المحاضرات بواسطة الأساتذة ، وحجر للاستحمام ، وفيها يؤدي الحلاّق عمله . كل هذه الأقسام متصلة بذلك البناء العظيم ذي الأعمدة الكثيرة . وكان بالداخل جمهور من المؤمنين ، بعضهم جالس بانحناء على الأرض يتلو القرآن وقد أخذ يهز الجزء العلوي من جسمه الى أعلى وإلى أسفل وهو يقرأ والبعض الآخر يشيعنا بالهسهسة والطقطقة ويشير الى أقدامنا كي نخلع أحذيتنا الكريهة . وفي هذه الأثناء ، دافع عنا قواسنا من الاعتداء باستعمال السوط في كل جهة . وكان خدام الجامع بملابسهم السوداء الطويلة وقمصانهم الصفراء الداخلية يصوّبون بعض الضربات لحمايتنا .

في اليوم الرابع (١١ اكتوبر) زرنا أعظم جامع وهو جامع السلطان حسن القائم في مكان فسيح . وكان في ذلك الوقت أحد الحواة يقوم بألعاب مدهشة تخلب عقول المتفرجين الكثيرين من مختلف الأعمار والطبقات ، الملتفين حوله . وكان أهم عمل شاهدناه من أعمال الشعوذة وخفة اليد ، هو ضرب أحد النظارة بسوط مخيف ضرباً شديداً حول رأسه العاري . وكان هذا الرجل المهرّج ، طويل القامة ، هزيل الجسم ، أسمر اللون ، وهذه لعبة خطرة . وكان هذا الرجل العاري الرأس يلوي نفسه بمهارة ليفادي كل ضربة ليّنا ملائماً بحيث أن السوط لم يمسه. هذا والمتفرجون يبدون سرورهم وإعجابهم بالاهتزاز ذات اليمين وذات الشمال ويجلسون في المقاهي أو على الأقل في أماكن بيع القهوة التي تشمل صناديق صغيرة كبيوت الدجاج ، مصنوعة من سعف النخل المجدول حيث يجلس فيها الزُوّار لشرب القهوة من فناجين صغيرة ويدخنون الغلايين . ثم يوجد هناك أيضاً

« الشربات »[1] موضوعاً على إحدى هذه المنصات ، أي الشراب من أي نوع ، كشراب التوت أو المشمش أو البرقوق ، ممزوجاً بالماء . ولا شيء يضارع عندهم شراب البنفسج من بين هذه الأشربة . أما أنا فلا أميل الى الشراب الجنزاري اللون لأني أرتاب فيه .

يشغل الجامع العظيم جانباً كاملاً من الساحة . وهو كأغلب الجوامع ، ملون بخطوط حمراء وبيضاء (لا أثر لهذه الخطوط الآن) غير ان لون الجدران هذا لا يناسب مطلقاً جمال زخارف النوافذ . فلا بد أن ذلك قد نشأ في عهد انحطاط الفنون الجميلة في هذه الأيام الأخيرة لذلك صارت الجدران عديمة الصلة بالبناء الأصلي . وبروج البناء من البرنز الصب منتشر على النتوآت والزخارف الصغيرة التي لا تحصى للشكل الملتف غير المنتظم الذي يسهل تتبعه .

والسقيفة الداخليـة أيضاً بأقواسها المرتفعة والأبواب عند المدخل ، مزينة بكثير من الفجوات الصغيرة الدقيقة . الصنع ، المشابهة لرواشح المغاور الرائعة (ستالـكتيت) التي لا يمل الانسان فحصها أبداً . ان ارتفاع الجدران سبعون قدماً الى السقف . وهي كذلك مملوءة من هذه الرواشح المدلاة من هذه الفجوات مع أن صفـاً منها يؤلف كرنيشاً تحتها ويؤدي المدخل الأصلي الى ضريح السلطان حسن وهو قبة عظيمة شاهقة . وأعلاها مزين بتلك النقوش المنحوتة الغريبة التي لا يسعني إلا أن أسميها بالفجوات المغطاة بالرواشح ، وعليهـا آثار كثيرة من التذهيب . والنوافذ نصف المكسورة هي من أبدع أنواع النقوش العربية ومملوءة بأنواع الزجاج اللامع ، المختلف الألوان غير أنها مرتفعة جداً فلا ينفذ منها إلا أشعة ضئيلة إلى الأسفل . والأرض مرصوفة بالموزيكو البديع الملوّن من البرفيرى وحجر الدّم والرخام . وفي الوسط ، مقابل شرق الجدار الجانبي للبناء ، حجر الضريح . وهو حجر كبير بسيط مختنف وراء شبّاك حديدي مزين بأنواع النقوش ، بعضها من حديد وبعضها من خشب تبدو عليه آثار التذهيب القديم . وعلى حجر الضريح ، القرآن العظيم مخطوط بحروف حمراء وحروف ذهبيـة ، قيل أنه مكتوب بخط ابن الحسن . وجميع ذلك موضوع في نفس البقعة عند أول بناء الجامع منذ خمسمائة عام تقريباً . وقد انقضى جيل بعد جيل على تشييد ذلك الجامع العجيب الذي أنفقت عليه مبالغ طائلة إلا انه لم يأت أحد

---

(١) كلمة تركية بمعنى شراب شائعة الاستعمال في مصر من العهد التركي (المترجم)

يتقن الفن ويملك من المال ما يستطيع به اصلاح ذلك البناء من التلف على مرّ الأيام . غير أن المهابة الدينية حفظته من أن يصاب بضرر أو أن تمس يد الانتقام هذه المزارات الأثرية . ثم ان اعتدال المناخ كان من العوامل التي حفظت النقوش على الحجر والحديد ، ولو كان هذا الجامع في جوٍ أقل لطفاً كما هو الحال عندنا ، لحوّلته التقلبات الجوية الى ركام من الأنقاض والخرائب .

وكم من مرة كنت أتخيّل « ألف ليلة وليلة » عند ما كنت أخطو في هذه القاعات المرتفعة العجيبة ، المهيبة ببساطتها ، الساكنة والهادئة في عظمتها التي مع مضي الأجيال العديدة لم تطأها قدم . وكثيراً ما كنت أتذكر قسراً « أبا الحسن ، صانع الحبال وعلي بابا الكفيف البصر » . وكنت أرى عند ما أسير في الشوارع ، الصناع المجدين جالسين في حوانيتهم الصغيرة وهي عبارة عن مصاطب مجوّفة داخل الجدران ، تتجه فتحاتها نحو الشوارع فتؤلف باباً ونافذة في آن واحد . والجزء الأمامي من كل جانب ، مصنوع من الخشب ، يجلس عليه المار لينجز عملاً أو ليتفكه بما يحب من الأحاديث . ثم ترى في الغالب المالك قاعداً القرفصاء . مستريحاً بسترته الحريرية النظيفة ، وعمامته البيضاء . أو تراه بمطرقته فتسمع صوتها في الهواء أو يدخن بنرجيلته كدأب كل تاجر في السوق .

في نفس اليوم الذي ألقينا فيه نظرة عامة على جميع المساجد العظيمة تقريباً ، تشرفنا بالمثول بين يدي الباشا . ففي الساعة السابعة مساء ، قدمت مركبة فخمة تتلألأ بالذهب لتقلنا الى القصر . وجرى أمامنا عبدان وأحاط بالمركبة فرسان بملابس عسكرية وسارت سريعاً مجتازة شوارع المدينة الملتوية الضيقة .

لما وصلنا القصر ، بادرنا بالنزول في الحال ورافقنا رئيس التشريفات الى الدرج . فدخلنا بهواً كبيراً إلاّ انه ليس فخماً إذ لا يحتوي إلاّ على أرائك حمراء . وفي احدى أنحاء الحجرة شمعدانان ارتفاعهما ستة أقدام وبينهما شمعة ، أضيئت عند دخول الامير . وكان مترجم الباشا الذي يدعى خسرو بك رجلاً قصيراً ، بديناً ، ذا عينين مستديرتين نافذتين . فقدّمنا إلى الباشا ، فوثبنا بلا صعوبة على مقاعد عالية وكانت مهامزنا عائقاً مكدراً . وقدّم قائد القوات للأمير أولاً ، غليوناً طويلاً . وصعاً بالأحجار الكريمة الثمينة . ثم قدّم لكل

منا غليوناً مثله (وصولاني) فضية عليها طاس الشبك . فدخنت بكل وقار وكنت في الوقت نفسه أجهد كل أعصابي كي أتابع ترجمة الحديث فلم يكن ذلك أمراً هيناً إذ كان مركزي في الجلوس بعيداً . ثم قُدّمت الينا القهوة في فناجين صغيرة . والقهوة كانت حالكة السواد وساخنة جدًّا والعادة تقضي بضرورة شرب الفنجان دفعة واحدة [1] فلم أستطع ذلك بل أعطيت الفنجان للضابط الذي كان في الانتظار بعد أن تناولت جرعة واحدة فقط . فتناول الفنجان وغطاه بيديه كما لو كان يحاول أن يمسك حشرة فيها [2]

في يوم ١٣ اكتوبر ، تسلقنا أهرامات الجيزة . وبهذه المناسبة أقول ان جبهة وضيعة كهذه ، واقعة على مسافة بعيدة من الاهرامات ، لا ينبغي أن تسمى باسمها . وقد زوّدنا الباشا بالخيول القوية الكريمة ، فعدونا الى أن وصلنا النيل ثم تقدمنا الى الجيزة حيث بدأنا بزيارة أفران التفريخ . هنالك غرفتان منخفضتان مبنيتان بالطين ، ترتفعان إلى جدران المساكن . والفتحات على ارتفاع قدم واحد من الأرض ويبلغ ارتفاع قطرها قدمين وهناك ست منها على كل جانب من السكن ، ممتلئة تراباً ورماداً على ارتفاع نصف قدم تقريباً وبأسفلها أفران لتسخين البيض من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بيضة مصرورة ويزحف رجل يوميًّا فيقلبها بكل عناية . ودرجة حرارة الغرفة العادية ٥ — ٣١ ترمومتراً (١٠٣ فهرنهيت) . وبعد مضي أحد عشر يوماً يفقس البيض لكن لا يفرخ إلاّ ثلث البيض أو أقل من الثلث . وتجري عملية التفريخ في خلال ثلاثة أشهر أو أربعة على الأكثر من السنة ابتداء من شهر يناير إلى ابريل . وهذا راجع على الأرجح إلى صعوبة الحصول على غذاء للفراريج [3]

كان طريقنا من الجيزة بين أشجار النخل البهيجة وكان محصولها قد جني توًّا . ثم ان مساكن الفلاحين العادية تحت أشجار النخل وهم لا يتخذون لانفسهم الأكواخ المبنية بالطين إلاّ عند الضرورة والشدة ويتجوّل أطفالهم حول المستنقعات وبقايا الفيضان طول النهار وهم يحرثون الأرض التي تحت النخل بمحراث في غاية البساطة ، ومع ذلك فإن الحقول حسنة

---

(١) لا نعلم عادة كهذه في شرب القهوة في مصر (المترجم)

(٢) لم يصف المؤلف محمد علي باشا في هذه المقابلة ولا ما دار بينه وبين الامير من حديث وانا نشعر بهذا الفراغ (المترجم)

(٣) لا وجود لهذه الافران في الجيزة الآن (المترجم)

الزراعة كما يبدو لنا . لقد كان الجزء الأعظم من السهل لا يزال مغموراً بالماء ولذلك لم نستطع الاقتراب من الاهرامات إلاّ بعد أن درنا دورة عظيمة على طول جسر ضيق . وأخيراً بلغنا الصحراء ، حيث اجتزنا السهل على ظهور الخيول التي أرسلها لنا الباشا . فعدونا بأقصى سرعة نحو الاهرامات . وأغلب سكان القرى المجاورة من البدو ، فاندفعوا لاستقبالنا وهم يصيحون صيحات عالية. ورأيت من بينهم زنجيًّا من أهالي غربي أفريقا ، غليظ الشفتين أفطس الأنف . فاختار كل منا رجالاً أدلاء منهم أو هم الذين اختاروهم . وعلى ذلك تقدمنا نحو الاهرامات

وشاهدنا أولاً أبا الهول الفخم الظريف . ومما يوصف له ، ان رمل الصحراء الجيري يهدد على الدوام بدفنه . وان الصخرة الكلسية التي نُحت منها ، رقيقة وسهلة التفتت حتى أن أنفه قد تلاشى وتآكل صدره وكثرت فيه الثقوب .

ان الهرم الذي بدأنا بزيارته هو الهرم الأكبر لخوفو ، وعلى جداره الداخلي بالقرب من أعلى مدخل حجرة الملك ، الكتابة الهيروغليفية التي حفرها الأستاذ ليبسس . ونزلنا الممر الأول الذي يبلغ طول مدخله عُشر ارتفاع الهرم . وهنا ينتهي انتظام الدرج الخارجي الحجري . أما الحجارة فوق الفتحة ، فهي ضخمة أو هي كتل على شكل إسفين ، كل واحدة منها تقابل الأخرى . وقد نزلنا ومعنا عشرون شمعة ويساعد كل منا رجل . وتجشمنا مشقة في طرد بقية الجماعة . لم يتم ذلك الاّ بعد جلبة وضجيج، ومع هذا حاول رجل أسود زائد عن الحاجة أن يندس وسطنا . وكان نزولنا الممر المنحدر بالانزلاق لا بالمشي ولذا اضطررنا أنّ نحني أنفسنا . وقد ساعدنا الأدلاء بقدر طاقتهم وحرصوا كل الحرص على منعنا من السقوط حتى وصلنا الى حجرة الملك ، وهي حجرة فسيحة مظلمة لا ينفذ منها أي شعاع من النور . ومكونة من كتل من حجر الجرانيت وليس فيها غير تابوت من الجرانيت بلا صقل . ثم توجد حجرة أخرى تسمى حجرة الملكة ، بلغناها بالمشقة نفسها . وليس بها الاّ الوطاويط . فزحف أحد خدامنا الى أحد الممرات الهوائية التي لا تتجاوز أكثر من قدم مربع ، لكي يمسك بعضها . فساعده الحظ إذ أمسك قليلاً منها . الوطواط ذو ذنب طويل وأذنين تلتقيان فوق الأنف . وقد كان ارتقاؤنا عند عودتنا وتسلقنا الممر الخارجي

الضيق ، أشد صعوبة من نزولنا . وقد سررنا كثيراً لما تم لنا ذلك حيث لاح لنا ضوء النهار مرة أخرى . وبعد أن استرحنا هنيهة ، صعدنا سريعاً على جزء متهدم في الهرم الى القمة وهي ساحة متسعة ، مساحتها ثلاثون قدماً مربعاً . غير أننا وجدنا الحرارة بالغة أشدها . فاكتفينا ونحن على القمة بافراغ قارورة من الشمبانيا وشربناها في صحة ملكنا.

وقد تطوع أحد مرشدينا بالقيام بعمل باهر لا بنزول الهرم الأكبر الذي تسلقناه في أكثر من ربع ساعة ، بل بتسلق الهرم الثاني الذي لا يزال مغطًّى من قرب قمته بغلاف بحيث لا يستطيع أي أوربي أن يصعده . وقبل انقضاء خمس دقائق ، سمعنا صوته وهو ينادينا من قمة الهرم الثاني . ثم بعد عدة دقائق ، كان معنا على قمة الهرم الأول من غير أن يلهث . يبلغ ارتفاع هذين الهرمين نحو ٤٥٠ قدماً تقريباً . أما ارتفاع الهرم الثالث الذي يقع على مسافة قليلة منهما ، فهو أقل بكثير . وبعد أن مكثنا مدة على القمة ، نزلنا الى السهل مجتازين وجه ذلك العمل العظيم . هذا الأثر الذي بقي طول هذه القرون الماضية سرًّا غامضاً . وكانت خيولنا واقفة في انتظارنا . فعزمنا أن نسلك طريقاً آخر . وما لبثنا أن وقفنا أمام أخدود حفر للري من النيل الذي يعبر الطريق . فخطونا ووصلنا لحسن الحظ سالمين الى الجهة المقابلة . مع أن الماء بلغ حتى سروجنا . وكانت الخيل تجفل من الكلاب التي كانت تسبح بالقرب منا . ثم واصلنا سيرنا مبتلين تماماً . وقد شاهدنا كثيراً من أسراب الطيور وأنواعاً شتى من طيور الصيد ، عدا زُمج الماء وأبي قردان والحداء ، مما حفزنا على الاقبال على مسرات الرياضة . ومع هذا لم نصد الا بومة بيضاء . ثم عبرنا خرائب قنطرة جميلة من عهد ملوك العرب القدماء . وعند المساء ألفينا أنفسنا عند الجيزة بعد أن اجتزنا حقول الذرة الناضرة الخضراء ، وبعدئذٍ وصلنا القاهرة

في يوم ١٥ اكتوبر ، في أشد حرارة الشمس الخانقة ، رحلنا الى سقارة ، فعبرنا النيل عند مصر القديمة . ومن ثمّ سرنا على الشاطئ الغربي للنهر لمسافة خمسة فراسخ ، مارين بأشجار النخيل . وشاهدنا في كل مكان الأهالي المسرورين الشباع وان كانوا في غاية القذارة . وكان بعضهم يشتغل باعداد النيلة وهم يغنون أثناء الغَلي في أوعية من الفخار وأخيراً وصلنا « ميت رهينة » بجوار منفيس القديمة التي تمتاز عن سائر السهل بكثرة أكوام

الخرائب . وهي أشبه بالجبل في تكوينها من أجزاء المباني القديمة . هنالك لا ترى عموداً ولا قطعة من الرخام إلا أشجار النخيل . وقد نصب بعض البدو المتجولين خيامهم قريباً من تلك الجهة المقدمة . فدعونا للدخول ومشاركتهم في شرب القهوة . وبعد أن لبثنا معهم برهة ، سرنا على طول الجسر كما كنا إلى أن وصلنا الى خاتمة المطاف في مدة ساعتين ، وغطسنا في آخر بركة من الفيضان ، فانتعشنا وشحذنا شهوتنا للافطار الذي تناولناه على قاعدة أكبر الاهرامات ، وهو سهل الصعود ومبني على نسق هرم خوفو ، غير أنه أقل ارتفاعاً منه (وان كان يبلغ نحو ثلاثمائة قدم) وأشد نخراً .

وبعد أن اجتزنا روابي الانقاض العالية المتجمعة من الاهرامات العديدة والتي لا يزال جزء منها محاطاً بالجدران التي يسهل تتبعها بحيث انها ترى كأنها ساحات كنائس بالضبط نزلنا الى الحجرات الأرضية للمقابر القديمة . وكان مدخل واحدة من التي زرناها بين كتل الصخر مسدوداً برمل يعوقه . وبعد أن هبطنا عشرين قدماً ، دخلنا كهفاً مظلماً ، في ساحته الخلفية بهو جميل متسع ، مقام على أعمدة . وجميع حوائطه مزينة بلوحات هيروغليفية بديعة محفورة في الحجر الجيري الصلب . وعلى السقوف آثار نقوش ملونة لا تزال حافظة لروعتها وبهائها . إلا أن محبي الفن دمروها وسطوا عليها . وفي إحدى الفجوات العميقة بئر ، فتدلى إليها الكونت (ـ ٥) بحبل . لكنه بعد أن بلغ ٤٠ قدماً ، عند نهاية الحبل ، لم يستطع أن يبصر القاع .

تقع مقابر موميات الحيوانات (عجول ابيس والثيران والخراف والأفاعي الخ) في الجهة المجاورة ، بالقرب من قرية أبي صير ، لكننا لم نهتدِ اليها إلا بعد بحث شاق . ثم كان لا بدّ لنا من حبل طويل للنزول به الى الدهليز الممتلىء إلى النصف . فتدليت ، ولما صعدت الى أعلى ولم أكن قد رأيت غير شيء قليل أو لم أرَ شيئاً ، زلقت يداي وانفلت الحبل الذي كنت أحاول الصعود به ، فسقطت الى القاع العميق بعد أن أشرفت على بلوغ القمة . وأخيراً حاولت الصعود بيديّ المسلوختين سلخاً فظيعاً . ثم ركبت حماراً بكل مشقة حتى وصلت النيل . ومن حسن الحظ أن وصلنا الى المنزل بطريقه ولولا ذلك لما استطعت إمساك اللجام أبداً .

وفي منتصف الليل ، وجدنا أنفسنا واقفين أمام أبواب القاهرة . وقد حدث حادث

سعيد ، لولاه لما تمكنا من دخول المدينة مع أننا كنا نجهل كلمة السر .

بعد ذلك ، رحلنا الى عين شمس ، التي هي أون القديمة ، مدينة الفلاسفة . بالقرب من المطرية الحديثة ، فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر ، غير سطح مرتفع ، به مسلة منعزلة وخرائب كثيرة . وقد كانت عودتنا سارّة حيث سرنا تحت ظلال أشجار اللبخ بجانب أخدود من الماء ، متفرع من النيل . كانت الحقول ملأى بأشجار البامية والنيلة . وعند حدود قرية صغيرة محاطة بحقول شجر الخروع ، دخلنا حديقة بوسطها « مشتل » يبرز منها فوق الأرض رأس مسلة هائلة ، عششت على كتاباتها الهيروغليفية الزنابير . هذا وتحيط بكتلة الجرانيت ، أشجار المشمش والخوخ . ومن ذا الذي يعلم منظر المسلة داخل عمق يتراوح بين خمسين أوستين قدماً تحت سطح الأرض الحالي وما هي الحروف المكتوبة عليها ؟

قد تعرفت إثناء إقامتي في القاهرة بعدة شخصيات ، من أعظمهم ، طبيب الباشا وهو (كلوت بك) قد تعرّفت به منذ أن زرناه لأول مرة . وليس في منزله شيء ممتاز غير النعام والغزلان التي تجري في ساحته التي شاهدنا فيها أيضاً أسداً صغيراً أرسله إليه الأستاذ لبسيوس [1] من برلين تشتمل مجموعة الآثار المصرية التي عند كلوت بك على كثير من النفائس . إنه رجل حر الفكر وله آراء كثيرة مستقلة بصفته طبيباً وهو يجيد التعبير عن نفسه ويشرف كرسي التدريس لو أنه كان متعمقاً في العلم كطلاقة لسانه في الكلام [2] وقد نال شرفاً عظيماً بسبب العمليات التي أجراها في قرح الجذام المنتشرة في الوجه القبلي وهي ليست نادرة في القاهرة . ثم انه صنّف رسالة في طريقة اجراء العملية ، كتب مقدمتها الدكتور برنر وهو طبيب له تجارب عظيمة . وكان من بين مرضاه الذين عهد إليه بمعالجته الدكتور شليدهوس وقد شاهدته يجري عمليات ناجحة في اعوجاج القدم في نفس اليوم

(١) هو كارل ريتشارد لبسيوس (١٨١٠ — ١٨٨٤) عالم ألماني متضلع في علم الآثار المصرية وفقه اللغة . كان رئيساً لبعثة فردريك غليوم الرابع الى مصر (١٨٤٢ — ١٨٤٥) واكتشف وادي النيل في السودان (المترجم)

(٢) هو أنطون بارتلمي كلوت ويعرف بكلوت بك ولد بمدينة جرينوبل بفرنسا في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣ ومات بمدينة مرسيليا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٨ بالغاً من العمر ٧٥ عاماً وكان طبيباً للمرحوم محمد علي باشا الكبير . وهو الذي أسس مستشفى ومدرسة للطب بأبي زعبل (المترجم) .

الذي تحدد لتناولنا الطعام عند الباشا . أسرعت وعدت الى الفندق في حوالي الساعة الثانية والنصف لكني شاهدت ما أذهلني إذ وجدت مركبة الباشا التي أرسلت لنا قد غادرت المدخل . فياللأسف لكم كنت أريد أن أحظى برؤية الباشا في الوليمة اذ كان من المحال أن تتاح لي فرصة أخرى لأن رحيلنا من مصر كان قد أزف .

في ١٧ اكتوبر سافر الكونت ج — الى السويس لاعداد الترتيبات اللازمة مع قبطان الباخرة « هندوستان » لرحلتنا . فرافقناه عند ما سار الى باب القاهرة في ساعة متأخرة من الليل ثم فارقناه عند مضرب خيام فرسان الحرس في الصحراء وتجولنا جولة سريعة في ضواحي العاصمة بقصد تكوين فكرة عامة عنها ولزيارة حديقة الباشا بشبرا وقد استغرقت هذه الجولة الأيام الباقية لنا في القاهرة .

في مساء ١٩ اكتوبر بعد أن عدنا من رحلتنا اليومية عند ما كنا نتناول الشاي في شرفة الفندق ، سمعنا عويلاً مؤلماً ، ممزوجاً بالانات والسباب باللغة الفرنسية تحت نوافذنا مباشرة وشاهدنا رجلاً بملابس بيض وبلا حذاء ، يجري هنا وهناك أمام الساقية مشيراً اشارات عنيفة وهو في حالة قنوط مخيف ، فاذا به صاحب الفندق ، مسيو كولومب وقد التف الناس حوله يسألونه الخبر فحضر بعض الجير ان العقلاء بأيديهم المصابيح لانارة أعماق الحفر المخيفة وعجلات الساقية القديمة . وكان عمق سطح الماء عشرة أقدام تحت مستوى الأرض . وتحت ذلك أيضاً طين وماء لزج على عمق ١٥ قدماً بحيث اذا دنا أي انسان من حافة الحفرة ، سقط فيها ومات ثم لا يقدر أحد ان ينقذه

كان نزول هذه الحفرة في غاية الخطورة إذ لا بد من انقضاء زمن طويل حتى يجرؤ أي انسان على النزول . وبعد مضي نصف ساعة في محاولات كثيرة فاشلة ، تمكن بعض الحاضرين من النزول لاستخراج جثة شاب ، هو الأخ الأصغر لمسيو كولومب ، صاحب الفندق . وحالما عثروا عليه وأخرجوه ، وضعوه على الفراش . فحللنا ثيابه فاذا به شيء من الحرارة . وكان الدكتور شليدهوس موجوداً معنا لحسن الحظ فساعدنا في محاولة إعادة حرارته . ثم حضر أيضاً كلوت بك بعد ان أرسلت من يستدعيه مرتين . وأخذنا نعالج الشاب طول الليل وجلسنا الى جانب سرير الميت إلى الساعة الثانية صباحاً دون أن ننقطع عن تدليكه وتدفئته

وأخيراً أيقنا أن كل مجهود إنساني لاعادة حياته كان محالاً وأن معاونتنا كانت متأخرة . فأنشبت المنية فيه أظفارها . فيا لشدة هول تلك الليلة ! وفي الليلة التالية نفسها، شيعت الجنازة ببساطة أمام باب اخوان كولومب

قد كانت أمتعتنا أرسلت قبلنا إلى السويس في يوم ١٨ اكتوبر . وكنا قد تمكنا بفضل بعض الموظفين من الحصول على أماكن لرحلتنا في السفينة بالرغم من أن القبطان قد رفض في بادىء الأمر أن يقبل ركاباً يزيدون عن العدد المطلوب وقد بلغنا ونحن في الاسكندرية أن كل سرير قد حجز قبل ابحار السفينة من لندن فتوقعنا الانتظار في بمباي شهراً الى أن تبحر إلى جزيرة سيلان في يوم ٢٠ اكتوبر

ولما أسدل الظلام أستاره حول الأزبكية ، شاهدنا هجن الباشا واقفة أمام الفندق فكان أحدها مسرجاً بسرج بديع ويمتاز برشاقته وهو الذي أعد لركوب الأمير . أما سائر الهجن فكانت ضخمة، فأسرعنا وركبنا ميممين الصحراء . إلا أن بطء سير الهجن كان غير متحمل ومملاً . حتى إننا تعبنا في آخر الربع الساعة الأولى من استمرار الاهتزاز الى الامام والخلف على سروج مربوطة بقيود أو سيور وكانت الركائب عالية جداً وأقدامنا مرتفعة الى الوراء حتى تمنى كل واحد منا أن تنتهي الرحلة بأسرع ما يمكن . وقد كان التعب في الحقيقة شديداً لانني لم أكن قد نمت من الليلة الماضية المرعبة ولم أذق للراحة طعماً . فكنت أنام رغماً عن الاهتزاز العنيف الذي أشبهه بلعبة قذف الثعاب في الحرام . فكان نوماً متعباً وكنت مع ذلك ، لشدة أسفي ، أستيقظ في كل مرة عند صياح السائق الذي كان يخشى سقوطي من هذا الارتفاع . بهذه الطريقة سرنا اثنتي عشرة ساعة . وأخيراً لمحنا عند أول بزوغ النهار بيتاً حسن البناء وسط الصحراء ، وكان رقم ٤ وهي احدى المحطات أو الفنادق التي بنتها شركة النقل لاستراحة المسافرين الذين يعبرون برزخ السويس بمركباتهم وقد أعدت لكل مسافر على شرط أن يدفع جنيهاً انجليزياً . أما سائر النفقات فكانت غالية نسبياً . وبما إننا كنا في غاية التعب فقد بادرنا الى هذه الاستراحة وتناولنا فطوراً عظيماً واسترحنا في أسرة جميلة عدة ساعات

وحالما فترت حرارة النهار ، ركبنا مرة أخرى دوابنا الثقيلة لمواصلة سيرنا ولم نلبث أن غشينا الليل . ثم لما لاح القمر من بين السحاب ، خضعنا لسلطان النوم وخشينا أن نتفرق . وكانت الصحراء يابسة وقاحلة . وتوجد مرتفعات بعد رقم ٤ تجري من الغرب الى الشرق . ويقال أن بها أشجاراً كثيرة معدة للصيد . إلاّ أن النباتات الوحيدة التي شاهدتها هي الشيح الشديد الرائحة وأنواعاً شتى من الغاسول ورأيت أشكالاً غريبة طافية أمامي وأنا جالس على سرجي، لكني لم أر ابن آوى أو الضبع أو اليربوع حتى على مسافة بعيدة في ضوء القمر .

أخيراً وصلنا ونحن في غاية التعب الى المحطة رقم ٦ في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٢ اكتوبر . وهنا طُلب مناجنيه ونصف ثمناً للقهوة والبيض .

وبعد أن قضينا عدة ساعات مؤلمة على ظهور الهجن ، طلع علينا النهار ولاح لنا نحو الشمال في ضوء الشمس القرمزي ، شكل سلسلة جبال وظهر البحر الأحمر أمام عيوننا . ثم حيتنا الطيور المألوفة في ألمانيا فشاهدنا الكروان وأبا فصادة في أغلب أنحاء الصحراء وكنا قبل ذلك تمتعنا بمشاهدة صديقنا القديم العزيز ، البجع في أسراب كبيرة بين أشجار النخل بسقارة .

وقد استجمعنا ما بقي لنا من قوة الاّ أن همتنا كانت قد خمدت سريعاً من شدة حرارة الشمس الساطعة التي جعلت اهتزازنا على الهجن في غاية المشقة وآلمتنا أقدامنا المتوترة حتى شعرنا بأن كل مفصل قد تصلب . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف بعد الظهر شاهدنا السويس وهي بلدة صغيرة قذرة ، خرائب تعلوها خرائب ، تلاقي العين في كل جهة . هذا والسائح يبحث فيها عن محل يناسبه ليقيم فيه ولكن بلا جدوى .

أما ما يسمى بالفنادق هناك ، فهي أسماء بلا مسميات لأنها لا تصلح الاّ أن تكون أعشاشاً للدجاج . مع ذلك لما جاءت الساعة التي طالما انتظرناها كان سرورنا بالغاً عندما بركت جمالنا وهي تئن أمام أحد هذه الفنادق الحقيرة !

ثم ما كدنا نجتمع حول مائدة الفطور حتى دخل علينا قبطان الباخرة هندوستان ليقدم لنا حجراً في الباخرة كلكتا وأحسن وسائل الراحة . لقد كانت هذه أخباراً سارة لانا كنا قد يئسنا من الحصول على جواز لجزيرة سيلان مباشرة بعد ما بذلنا من جهود

فاشلة . وقد أنجزنا كل شيء في الحال وأرسلت أمتعتنا الى الباخرة بمباي ووضعت توًّا على ظهر الباخرة هندوستان .

وتحدد يوم ٢٥ اكتوبر لرحيلنا . وفي فترة الانتظار تجوّلنا في الجبال المجاورة، جبال عتاقة وهي تقع غربي السويس على بعد ثلاث مراحل من السهل وترتفع قليلاً عن سطح البحر وهي مغطاة بأحجار الكلس ولونها أسمر قاتم .

الى هنا تنتهي رحلة الدكتور هوفميستر في مصر وتبدأ رحلته هو وأمير روسيا الى سيلان فالهند .؟



وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات

وفي فلسطين } القدس الشريف باب الساهرة

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي



المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يوليو ١٩٤٧ — ٢٦ شعبان ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يوليو سنة ١٩٤٧ — ٢٦ شعبان سنة ١٣٦٦

الله

وفكرة الألوهية أو الربوبية (١)

١ — تمهيد

ما من شيء في دنيا الفكر ينبغي أن تحدد معانيه تحديداً دقيقاً ، اذا أردنا أن نأمن العثار ونطوي مراحل الجدل ، كتحديد المعنى الذي ندركه من كلمة « الله » ، والمعنى الذي ندركه من كلمة « الألوهية أو الربوبية » .

لا شك في أنّ المعنى المدرك من قولك « الله » والمعنى المدرك من قولك « ألوهية أو ربوبية » فيهما تضايُفٌ شديد الآصرة ، إذ أن تسليمك بأحدهما يجرك الى التسليم بالآخر . ولكن ينبغي لنا أن نتواضع على تفرقة بينهما في الاستعمال . وأود لو أننا ندرك إذا قلنا « الله » أنه موضوع مردّه الى الدين ، وأن ندرك من القول « بالألوهية أو الربوبية » انه موضوع مردّه الى الفلسفة أو التأمل .

أريد بذلك أن أقول إن كلامنا اذا انصرف الى « الله » لزمنا أن نتقيد بكل ما جاء به

(١) تأملات فى هذه المشكلة العقلية إثر قراءات فى كتاب « الله » تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد. وفي هذا الكتاب بعض مصطلحات لا نوافق المؤلف عليها ، وقد أشرنا اليها في كلة في باب المكتبة. المقتطف.

دين مَّـا من وصف أو تقييد لمعناه أو صفاته ، فندرك من الله في التوراة مثلاً ما لا ندرك منه في الأناجيل، وندرك منه في الإسلام معنىً مخالفاً للمعنى الذي صوّر في التوراة والانجيل معاً ، ذلك بحسب الخصائص التي لـكل دين . ذلك بأن الصورة التي تضفى على « الله » في كل دين هي صورة حقّة لطبيعة ذلك الدّين . أما اذا انصرف الـكلام الى فـكرة الألوهية والربوبيـة » ، فهنالك نخرج الى الباحات الواسعة والآفاق القصية التي يسبح فيها الفـكر غير مقيَّد بالحدود التي تحددها الأديان . فباعتبـاري مسلماً عليَّ أن أسلم بأن الله « ليس كمثله شيء» وأقف . وباعتباري باحثاً عليَّ أن أبحث أول شيء في « هل الله ليس كمثله شيء » أو انه « كمثل جميع الأشياء » . لأدلف من ثمّ الى مجال المنطق الذي هو مجال الشك:

٢ — الاعتقاد والشك

لقد اختصر المسلمون الطريق اذ قالوا بأنَّ « الله » ليس كمثله شيء . نعم قد نقع في جميع الديانات العظام على معانٍ وأقوال تحاول التعبير عما عبَّر عنـه المسلمون بهذه الـكلمات الثلاث . أراد أصحاب الأديان بذلك أن يردوا « الله » الى فـكرة غاية في التجريد، بل أرادوا بذلك أن يعجزوا العقل ويسدوا عليه المسالك حتى يتنكب طريق البحث في الله .

وإنما أراد أصحاب الأديان بذلك أن يحتفظوا بوحدة الاعتقاد إن يزلزله الشك . تلك الوحدة التي أقاموها على نظرية أن الانسان معتقد بالطبع : « أيّـا كان موضوع الاعتقاد ، كأنما يوجد الاستعداد للعقيدة أولاً ثم توجد العقيدة على اختلاف نصيبها من الرشد أو الضلال » . حتى لقد قيل « إنَّ في الطبع الإنساني جوعاً الى الاعتقـاد كجوع المعدة الى الطعام » .

ذلك اتجاه أصحاب الدين . وهم في ذلك يقفون موقف الدفاع عن الأساس الذي يقوم عليه الدين : كقولهم مثلاً كان الله ولا شيء معه ، وإنه ليس كمثله شيء ، رادين ذلك الى أن في الطبع البشري جوعاً الى الاعتقاد . أما موضوع هـذا الاعتقاد أي العقيدة ، فهو هذا الذي يقولون . واذن يكون تصوير العقيدة هو بسلطة من الدين . فأنت ذات معتقد، ولـكن ليس لك أن تناقش موضوع الاعتقاد أي العقيدة . فإما أن تكون عقيدتك قائمة على ذلك ، وإمَّـا أن تكون لا شيء .

ولكن القائلين بهذا القول قد غفلوا أو هم تغافلوا عمداً عن أن الطبع البشري لا ينطوي على صفة الاعتقاد لا غير ، بل ينطوي أيضاً على صفة الشك . بل أرادوا أن لا يقولوا إن في الطبع الانساني جوعاً الى الشك كجوع المعدة الى الطعام .

كلا بل أقول إن جوع الانسان للشك أشد من جوعه للاعتقاد . وذلك طوعاً لتركيب قواه العقلية . فالانسان الأول عندما اعتقد بأن لهذا ، الكون سبب ، لم يأت اعتقاده إلا من طريق الشك في أنه ليس له سبب ، وإذن يكون له سبب ، كقولك مثلاً :

أشك في أن الكون ليس له سبب = اعتقاد : للكون سبب

أو قولك :

أشك في أن للكون سبباً = اعتقاد : ليس للكون سبب .

فاعتقاد الانسان بأن للكون سبباً يعود اليه، نشأ أولاً من شك في أنه ليس له سبب. وإذن يقوم في روعه أو عقله أو اعتقاده ، أو ما شئت فسَمِّ ، إن للكون سبباً ، هو الله أو العلة الأولى أو العقل الاول ، أو ما شئت فسَمِّ .

وإذن يكون نفي الشك من مجال الفكر البشري ، وهو بديئة الاعتقاد ، مؤامرة فكريَّة على العقل وعلى الفلسفة . ولهذا أعتقد أن الصواب أن يقال :

« إن الاستعداد للشك يوجد أوَّلاً ، ثم يُـقفّـي عليه الاعتقاد ، وعكس ذلك غير صحيح » .

٣ ــ الوعي الكوني وقانون الارادات والأسباب

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسك في مقام معلل
أثبت رباً تبتغي حلا به للمشكلات، فكان أكبر مشكل

الزهاوي

قال الأستاذ العقاد (ص ٣٤)

« ما هي صفة الوجود ؟ وبعبارة أخرى ، ما هو ألزم لوازم الوجود ؟ إننا لا نعرف الشيء الموجود تعريفاً سائغاً إذا قلنا إنه الشيء الذي ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة . لأننا ــ بهذا التعريف ــ نعلق الموجود على موجود آخر هو الذي يدركه بحسه أو بعقله

أو ببصيرته . فلا يكون الشيء موجوداً إلاَّ إذا كان له محسُّون ومدركون . إلاَّ إننا نعطي الوجود ألزم لوازمه إذا قلنا إنه « غير المعدوم » ... فيكفي أن ينتفي العدم ليتحقق الوجود. وكل ما ليس بمعدوم ، فهو لا محالة موجود » . اه

ويظهر جليًّا من سياق هذه العبارات أنَّ بها كثيراً من الرتق بين مفهومين منفصلين كل الانفصال فكريًّا ، وإن تلازما بعض الشيء لغويًّا . بدأ الأستاذ المؤلف بالتساؤل عن ما هي صفة « الوجود ؟ » وما هو ألزم لوازمه ؟ ثم ساق الكلام عن « الموجود » ولا شك أن « الوجود » شيء غير « الموجود » . فالوجود معنىً هو الى الاطلاق ، والموجود معنىً هو الى التحديد . ولهذا لم يستطع أن يتخلّص من اللازمة التي أراد أن يتجنّبها . فالحكم على شيء بالوجود هو تماماً كالحكم عليه بالعدم . ذلك بأن الحكم في الحالتين يدعو الى وجود جواهر محسَّة . فالحكم بالوجود يرجع الى إحساس بشيء . والحكم بالعدم يرجع الى إحساس بعدم الوجود . وكلاهما يرجع إلى ادراك الحسّ ، أولهما إيجاباً ، والآخر سلباً . فالحكم بالوجود احساس إيجابي . والحكم بالعدم احساس سلبي . وكلاهما احساس يقضي بوجود من يحسّون ومن يدركون .

كذلك قوله — « إننا نعطي الوجود ألزم لوازمه إذا قلنا إنه « غير المعدوم » : فذلك قول غير مستقيم ذهناً . لأن « الوجود » يقابله « العدم » ، ولا يقابله المعدوم . إن هذا يقابله الموجود ، وهذه مقابلة بين شيء له معنى مطلق هو « الوجود » وشيء له معنى محدود هو « المعدوم » .

***

سبق فتكلم المؤلف هنا على « الموجود » ثم انصرف الى « الوجود » . والموجود لا بدَّ من أن ترجع معرفته إلى ادراك الحسّ . أما الوجود فمعنى معقول أو مفهوم يستخلص من الاحساس بالموجودات . ولو لا الاحساس بالموجودات لتعذَّر أن ندرك معنى « الوجود » . لأن لكل « موجود » محدود وجوداً مطلقاً . وإدراك معنى الوجود ينعدم إذا لم تكن هنالك موجودات محسوسة . كالزمن . فأن معناه ينعدم إذا انتفت الحركة .

« كما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، ليست سوى صور مكبرة من نظريات العقل الانساني ، تسبك عادة على نماذج تستمد من تجاريبنا الذاتية » كروزيار

يقول الأستاذ العقاد : ص ٤٩

« وهذا الذي سميناه « بالوعي الكوني » هو الذي يحس بوطأة الكون فيترجمها على قدر حظه من التصور والتصوير ، فيقع الخطأ في الكثير من التعبير وفي محاولة التعبير ، ولا يمتنع من أجل ذلك أن تتلقى الكون بوعي لا شك في بواعثه وغاياته وان أحاطت بتعبيراته شكوك وراء شكوك . وربما كان هذا « الوعي الكوني » فرضاً صادقاً أو راجحاً ثم ينتهي به الأمر عند ذلك ، لو لم تكن ظاهرة التدين التي تترجم عنه ملازمة لبني آدم في جميع الأماكن ومن أقدم الأزمان ، ولو لم ينبغ في الناس أفراد من ذوي العبقرية علوّهم روعة المجهول » اه .

فكأني بالأستاذ ، على قدر ما استطعت أن أفهم من هذه العبارات ، يريد أن يقول ان هذا « الوعي الكوني » الذي لم يعرّفه تعريفاً يحدده ضبطاً ، هو فرض ضروري ، صادق أو راجح ، وان ضرورته تترجم عنها ظاهرة التدين . فالتدين الذي هو تفريع على « الوعي الكوني » عند الأستاذ العقاد ، أصبح بذلك أصلاً يثبت الأصل الذي يعود اليه ، أي ان الفرع قد اتخذ دليلاً على صحة الأصل .

على أن الفيلسوف « أوغست كونت » قد عبّر عن هذا المعنى من غير احتياج الى اللجوء إلى ترجيحات بغير مرجحات . قال :ـ

« إن الاعتقاد في إرادات او ذوات عاقلة ، لم يكن الا تصور باطل يخفي وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية . أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدنية الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لا بد من أن تعود الى سبب طبيعي ، وانه من المستطاع تعليلها تعليلاً مبناه العلم الطبيعي ، فلم يبق ثمت من فراغ يسده الاعتقاد بوجود الله ، ولم يبق من سبب يسوقنا الى الايمان به »

وما هذا غير تفسير للقاعدة التي وضعها هذا الفيلسوف قاعدة ان الانسان اذا عجز عن

تعليل الظاهرات ومعرفة أسبابها الطبيعية ، عزاها الى قوًى شبيهة بقواه البشرية .

فالوطأة التي يحس بها الوعي الكوني عند الأستاذ العقاد ، هي في الواقع جهل الانسان وعجزه عن تعليل الظاهرات عند « كونت » ، والتدين عند الاستاذ العقاد هو الارادات التي تعزى اليها أسباب الظاهرات عند « كونت » . وكلما كان الانسان أضرب في الجهل بالأسباب، اشتدت وطأة الوعي الكوني على قول العقاد ، وزاد عدد الارادات التي تعلل بها الظاهرات عند « كونت » .

٤ — تخلُّف الارادات وتقدم الاسباب

كانت الآلهة تمشي على الأرض وتكلم الناس وتتصل بهم اتصال الأشخاص الفانين . وكان لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة إلآهٌ خاص موكل بها ، هو عند الأولين السبب الذي تعود اليه الظاهرة.

ظواهر وحالات حار فيها الفكر وعجز عن بلوغ الأسباب التي تعود اليها الظاهرات ، فنسبها الانسان الى ارادات مثل ارادته ، لا الى قوانين طبيعية وسنن كونية

لقد كفَّ الناس عن القول بأن الصواعق نتيجة غضب إلآهيّ عندما عرفوا حقيقة الكهربائية الجوِّيَّة . وعند ما استكشف « فرنكلين » مانعة الصواعق ، نسب الظاهرة الى سبب طبيعي لا إلى إرادة تشبه إرادته .

ورجع الناس عن القول بأن الجنون والهلاس عائدان الى أعمال السحر والشعوذة وأنصار الشيطان ، عندما دلَّهم الطب على أسبابهما العصبية .

وإذا لم أكن قد أخطأت الفهم يكون « الوعي الكوني » هو عبارة عن حالة نفسية ، لاعقلية ، تقوم اذا استقوى الجهل بالأسباب الطبيعية على تعليل الأسباب. ولقد أخذ الاعتقاد في وجود ارادات مختلفة موكول إليها القيام على تصريف ظاهرات الطبيعة ، يتخلف شيئاً بعد شيء . فكل سبب طبيعي لظاهرة يمكن أن يصل إليه العقل أو التجربة ، كان من شأنه أن يمحو إرادة من الارادات التي اتخذها الانسان بديلاً من السبب الطبيعي .

ولا شك في أن الاعتقاد بالله اذا ارتكز على ضرورة العثور على بيان مما بعد الطبيعة يفصح عن حقيقة الظاهرات الطبيعية ، التي لا يمكن تعليلها بغير استدرار وحي ما وراء

الطبيعة ، يصبح اعتقاداً غامضاً محوطاً بالريبة عنـد العقليين والطبيعيين معاً ، بل ان هذا الاعتقاد يمسي عرضة للزوال أمام أضعف البراهين الطبيعية .

غير أننـا قد نستبين وجهاً من الضعف في هذا التدليل ، وهو كما لا ينبغي أن ننسى ، قائم على نظرية « أوغست كونت » . وموضع الضعف فيه ينحصر في الاعتقاد بأنه لا يوجد في الـكون من شيء يحتاج الى تعليل أكثر من وصل الحلقات المتفرقة في سلسلة الظاهرات الطبيعية التي يتألف منهـا الـكون المادي في مجموعة بعضها ببعض . في حين أن السلسلة في مجموعها ، باعتبارها كلاً متواصل الأسباب ، غير متفرق الوحدات ، لم يعرف سببها الأول .

قد تقول . أنه ليس يكفي أن تعلل لنا الأسباب الطبيعية كيف ينشأ الانسان من أبويه وكيف نشأت القرون الأولى من قبـله ، بل الواجب ، لـكي يصبح التدليل الطبيعي قائماً وثابتاً ، أن يكشف الطبيعيون عن علة الوجود الانساني أصلاً في هذه الحياة الدنيا !!

هنا نخرج من نطاق العلم الى نطاق الفلسفة . وفلسفة « كونت » فلسفة طبيعية أولاً وقبل كل شيء . ولـكن ما دمنا في مجال الـكلام عن الألوهية ، وجب أن نتدرج في البحث لنرى إلى أين يؤدّي ؟ وإذن نقول :

لا يكفي أن يعرف الطبيعيّـون كيف أنشأت سنن التطور الأحجار والأشجار والأزهار والحيوان والانسان ، بل يجب ، لـكي يصلوا الى دليل ينقع الغلّـة في أصل الوجود ، أن يعللوا ، بالبرهان الطبيعي ، لمـاذا خُصِّت الجواهر الفردة التي تتألف منها هـذه الأشياء أصلاً ، بخاصيتي الجذب والدفع ، ولم تخصّ بصفة أخرى ؟

وهنا نخرج من نطاق العلم الى نطاق الفلسفة !! وإن شئت فقل التأمّـل .

لنضرب مثلاً نتخذه من آلة الراديو عند المتمدنين ، والساعة عند بعض المتأخرين.[1] ولا مندوحة للعقل الانساني في مدارجه الأولى ، من أن ينسب كل حلقـة من حلقات هذه الظاهرة الى أرادة خفية غير معروفة ، ما دام اتصال الحلقات المختلفة في نظام الراديو أو الساعة ، لم يستطع الوصول الى معرفته اوعلته ، حتى يسكن العقل الى تعليل الظاهرة التي

(١) ذكر لي صديق أنه قرأ لي كتاباً عنوانه « الفصل في الساعة ، أسحر هي أم صناعة » لاحد النجديين ، غفر الله له .

تقع تحت اختبـاره . ولـكن اذا ارتفعت العقلية الانسانية الى الحد الذي تستطيع عنده تعليل الاتصال بين الأجزاء المختلفة بأسباب طبيعية ، لم يبق هنالك من حاجة لتدخل قوة مفروضة غير مرئية ولا معروفة ، لتعليـل الظاهرة في تواصل حلقاتها ، ولم يتسع المجال للاعتقاد بها . غير أننـا مع عدم احتياجنا الى الركون للقول بارادة غير مرئية لتعليل كل حلقة من حلقات الظاهرة الطبيعية ، فاننا مع هذا نساق الى الاعتقاد بوجود إرادة عاقلة مدبرة حكيمة ، يرجع اليها وجود الآلة في مجموعها .

أما إزاء الراديو والساعة فنحن في نطاق العلم بمعرفة الارادة التي وصلت بين أجزائها. أما ازاء الـكون فنحن في نطاق الفلسفة ، لأن العلم لم يزل في صباه ، وفي أوائل مدارجه. إن العقل إزاء العلة الأولى ، هو في نطاق التأمل .

في حالة من الحالات ، كانت المعرفة الانسانية بوجوه الاتصال بين الظاهرات المختلفة ضئيلة الى حد مست الحاجة عنده الى فرض مجموع من مختلف الآلهة وانصاف الآلهة يرجع اليهم السبب في وجود كل حلقة من حلقات الظاهرة منفصلة عن المجموع . ولما ضربت الانسانية في سبيل العلم الطبيعي ، قلت الآلهة عندها ، ولم يبق منها غير نزر يسير معللاً بها بعض الظاهرات التي كانت أسبابها الأولى لا تزال رهن التحقيق العلمي ، ومضت الانسانية بعد ذلك ممعنة في الـكشف عن كثير من حقائق الـكون ، حتى استقر اعتقادها في النهاية على إلاهٍ واحد ، اقتصرت ارادته على التدخل في بعض الظـاهرات دون بعض ، وبطرق موسومة بطابع العلم والحـكمة .

فالانسان إذن إزاء العلة الأصلية في وجود الـكون ، كما كان من قبل إزاء الظاهرات الفردية المختلفة ، في موقف لم يتحلل منه . هو ينسب العلة الأصلية الى ارادة مثل ارادته ، كما كان ينسب أسباب الظاهرات المختلفة ، يوم أن جهل أصولها ، الى ارادات مختلفة .

زادت نسبة المعرفة بالاسباب الطبيعية ، وقلت الارادات ، وما زالت تقل وتتضاءل حتى انحصرت في ارادة واحدة ، لم يستطع العقل الا أن يسلم بأن لها قدرة ، وان القدرة لا تتعلق إلاّ بالممكنات .

يقول الفلاسفة الطبيعيون إن الظاهرات الطبيعية المختلفة يمكن تعليلها بأسباب طبيعية

أو هي قابلة لأن يكشف عن أصلها بالعلم الطبيعي . وبتقدم العلم أمكن أن توضع الارادة —التي تشبه ارادة الانسان — والتي هي علة الكون الأصلية ، وراء عالم الظواهر . بعدت الارادة عن التدخل المباشر في حدوث وجوه الاتصال بين الظاهرات الجزئية ، وأصبحت بمقتضى نظام العقل البشري مرجع الكليات . مرجع القصد وعلة الكون في مجموعه .

وهنا نخرج من نطاق العلم الى نطاق الفلسفة .

قبل أن يستكشف قانون جاذبية الثقل اعتقد « كبلر » أن حفظ السيارات في أفلاكها راجع إلى أرواح موكلة بها . أي انه نسب السبب الطبيعي الى ارادة مثل ارادته ، عند ما أعوزه السبب الذي تعود اليه الحركة . فلما عرفت جاذبية الثقل سكن العقل البشري اليها ، ولم يحاول مرة أخرى تعليل حركة الاجرام . ولكن ألا يحتاج العقل البشري الى البحث عن سبب ترجع اليه جاذبية الثقل وأثرها في نظام الكون ؟

ما دام العقل عاجزاً عن معرفة السبب الذي ترجع اليه جاذبية الثقل ، فانه يرد ذلك حتماً الى ارادة مثل ارادته . وهنا يخرج العقل من نطاق العلم الى نطاق الفلسفة . الى نطاق التأمل. الى نطاق « الوعي الكوني » .

ان الحلقات المتتابعة التي يتكوّن منها سلسلة الظاهرات الكونية ، إذ كان من المستطاع تعليلها بالأسباب الطبيعية ، فان السلسلة كمجموع ووحدة غير محللة ولا مجزأة قد ظلت وربما تظل ، محتاجة الى تعليل وسبب تعود اليه . ولما كانت الأسباب الطبيعية قد عجزت عن تعليل ذلك ، وثب العقل الى ارادة مثل ارادة الانسان نسب اليها السبب وأضفى عليها صفة العلة الأولى . الى ارادة حرة عاقلة متصفة بالحكمة . الى الله .

يقول العلم : أما وقد استكشف الانسان من السنن الطبيعية ما استطاع به أن يعلل كثيراً من الظاهرات التي كانت تنسب دائماً الى ما بعد الطبيعة والغيب ، أي الى ارادة خفية تشابه ارادته ، فلم لا يؤمل أن يكشف المستقبل عن علة الكون ؟

وتقول الفلسفة : ان كل ما استكشفه الانسان من الأشياء التي تؤلف علمه ومعرفته ، ليست سوى سنن ترجع اليها الظاهرات ، لا علل أصلية . فلا بدّ إذن من أن نعود بعلة

الكون إلى الاهٍ عاقل حكيم له ارادة مثل ارادتنا ، ما دمنا لانستطيع، وليس في مستطاعنا، ان نعرف للكون علة أخرى .

ومن هنا لا تخرج الفكرة في الألوهية عن إنها « فرض ضروري » يلجأ إليه العقل البشري ، ما دام عاجزاً عن أن يجد للكون علة أصلية أخرى .

أما العالم المادي فليس لنا أن نتدبر فيه لأبعد من القول بأن ظروفه وظاهراته ، لا يمكن أن تحدث بتأثير القوة الخالقة في كل طرف من أطرافه تأثيراً مباشراً ، بل ان حدوثها موكول الى السنن العامة التي تعهد اليها القوة الخالقة العظيمة تدبير حالات العالم

هيويل

إذا تأملنا من كلمات الفيلسوف الايقومي العظيم « هيويل » ، استطعنا ان نترجمها بلغة «أوغست كونت » في عبارات أخرى .

كانت الارادات الخالقة ارادات كثيرة ، وكانت كثرتها راجعة الى الجهل بالأسباب الطبيعية التي تعود اليها الظاهرات. فلما عرفت الأسباب تناقصت الارادات، وأخذت تتناقص حتى أصبحت ارادة واحدة تحرك السنن الأصلية التي تعود اليها الأسباب الجزئية ، فأصبح تدبير حالات العالم بالواسطة لا بالاصالة . ومن هذه السبيل ، سبيل الاعتقاد بأن الارادة الخالقة ، إنما هي ارادة مثل ارادتنا ومقيسة عليها ، قياساً مع الفارق ، برزت في بحوث الالوهية حقيقة التشبيه : Anthropomorphism وهي الفكرة الفلسفية القائلة بتزويد الله بما يماثل الخصائص الانسانية .

تقول الفلسفة : ان الاعتقاد بأن الخالق مكون حسب نماذجنا العقلية ، أو إنه صورة من صور الفكر الانساني ، أو انه ارادة مكبرة تشبه ارادتنا المصغرة ، اقول فيه من الباطل بقدر ما في القول بأن الأرض مركز النظام الشمسيّ ، وان الانسان محور الخلق . أي فيه من الباطل بقدر ما في البدهيات من البيان والظهور .

ويقول العقل : بالرغم مما في هذا القول من قوة، فان محاولة الاعتقاد بأن علة الكون من الممكن إدراكها بما يبعد عن إدراك ذواتنا ، أمرٌ بعيد بحكم الطبيعة ، بل قول هراء لا ظلّ له من الحقيقة .

وحاول كثير من ذوي المعرفة أن يصلوا إلى ادراك الذات المدبرة لهذا الكون بطريقة

غير هذه الطريقة فأعْـيَـوا ، ولو إنهم غالباً ما حدسوا انهم وصلوا إلى الحق . ذلك في حين أنهم لم يصلوا لغير ظواهر لا تغني عن الحق شيئاً .

لقد اتبعوا في ذلك طريقين :

الأوّل : إنهم أدركوا العلة الأولى من طريق المشابهات المستمدة من الخصائص الانسانية وقد حوّطوا تلك الخصائص بصفات يبعد أن تكون بشيء من بني الانسان .

الثانية : انَّـهم جعلوها مدركاً مجرّداً مقيساً بقسم من الطبيعـة البشرية ذي منحط ، غير محدود .

أمّـا « اسبينوزا » فقـد ظنّ انه أبعد الفلاسفة عن الاعتقاد بأن العلة الأولى مكونة على نموذج عقله ، ومضى في فلسفته متخيّـلاً إنه قد اجتاز كل عقبة بأن جعلها عبارة عن « امتداد وفكر » .

هنا تساءل دكتور « مارتينو » : من أين له فكرة الامتداد إلاّ من النظر في حالات جسمه الطبيعية ، ومن أين أتى له ان الله فكر إلاّ من خصائص عقله . ذلك بأن الامتداد والفكر ليسا سوى شيئين هما أخص ما تتصف به الأجسام والعقول .

وكذلك القول بأن العلة الاولى أو الله « وعي » كما يقول الأستاذ العقاد في كتابه . فان ذلك من أخص التشبيه . فلو لم يكن الانسـان واعياً ، إذن لما أدرك أن هنالك شيئاً فائيـّـا أو علة أولى هي بذاتها « وعي » واذا جهل الانسان السبب الطبيعي أو العلة ، نسب الأشياء الى ارادة مثل ارادته . فسبحان العقل .

خذ بعـد ذلك « هربرت سبنسر » فانه على الرغم من مناوأته للقائلين « بالتشبيه » وعجزه عن انكار الخالق وعلة العلل ، أخذ يدير وجهه يمنـة ويسرة ليقع على شيء يعلل به الـكون ، بحيث يكون بعيـداً عن كل شك وريبة ، فقال بأن « قوة خفية » مجهولة تدبر الكون .

على أن نظرة تأمل في فكرة « سـبنسر » تدلك على أنه لم يتقدم خطوة واحدة على غيره من الفلاسفة الطبيعيين ، فكما أن الخالق عند « اسبينوزا » لم يكن الا شبحاً إنسانيـّـا تمثله في المـكان — امتـداد وفكر — كذلك كان الخالق عند « سبنسر » تمثّـل صرف

الفكرة غير معينة هي فكرة القوة ، وهي فكرة مستمدة من أحط الخصائص الانسانية، خاصة إدراك الحس .

من هنا ينبغي لنا أن نَعيَ أنه في جميع المباحث التي تتعلق بالنظر في أصل الأشياء ، لا يجب مطلقاً أن نتساءل عما إذا كنا نصور « العلة الكونية » على نسق مستمد من ذاتيتنا . لأنّ تصوير العلة على نموذج الذاتية البشرية أمرٌ لا يمكن أن تنصرف عنه ذات فانية . بل الواجب أن نتساءل دائماً عما اذا كنا نصورها على نموذج مستمد من نظرة سطحية ، أم نصورها على نموذج مرجعه الوسعة في النظر ، والألفة التامة الموافقة لنظام العقل الإنساني .

فاذا كنا لا نستطيع أن ندرك من علة الكون غير نموذج يرجع تصويره الى تجاريبنا الذاتية ، فمن الظاهر أن اعتقادنا في وجود ارادة عاقلة ، أي علة خالقة ، أو عدم اعتقادنا ، يرجع الى ما ندرك من فكرة السببية . وما دام فهمنا للسببية عائداً الى ما ندرك منها بحسب تجاريبنا العلمية ، أي انها تنحصر في القياس على السوابق الطبيعية الظاهرة أجلى ظهور ، فمن الواضح اننا لا نرضى في عقليتنا فكرة التسلسل السببي الاّ بالاعتقاد في أن الأشياء لا بد أن تكون قد نشأ بعضها من بعض متدرجة في سلسلة منظومة خلال « الزمان » ، وهذا يلزمنا الاعتقاد حتماً بوجود ارادة عاقلة مخبوءة وراء عالم الظواهر الطبيعية ، أثرت في الماضي ، وهي تؤثر في الحاضر ، وستظل تؤثر في المستقبل .

واذا اعتقدنا أن السببية الحقيقية تشمل في مدلولها عنصر الارادة ، فمن الظاهر اننا اذا أردنا أن نحتفظ بألفة العقل ، تلك الألفة التي لا يمكن أن نستهدي بغيرها في البحث وراء الحقيقة ، فمن المحتوم علينا أن نعتقد في ارادة عاقلة حرة نتخذها علة للأشياء ، أو بعبارة أخرى ، أن نعتقد في خالق . وعلى هذا يلزمنا القول بأنه كما يكون رأينا في السببية يكون معتقدنا الديني .

فالقول بالألوهية على ما نرى سلسلة طبيعية : ارادات مثل الارادات الانسانية يعلل بها وجود الأشياء ، تتضاءل شيئاً بعد شيء فتصبح ارادة واحدة مع التقدم في الكشف عن الأسباب الطبيعية التي تعود اليها الظاهرات ، وتدرج في السببية ينتهي الى الرغبة في الحصول على سبب غائي يعود اليه وجود الكون في مجموعه . وإذن يكون القول بالألوهية ضرورة

طبيعية للاحتفاظ بألفة العقل . أمّا أن يكون الاحتفاظ بهذه الألفة العقلية سبيل الاصابة أو سبيل الخطأ ، فذلك أمرٌ خارج عن حاجات العقل البشري ، بل هو عندي أمرٌ ثانوي صرف في بحوث الفلسفة . إنما حاجة العقل في أن يحتفظ هو بألفته . والقول بالألوهية هو سبيل هذه الألفة ، ما دام العلم الانساني على ما هو عليه الآن .

أما أن نصف «الله» بأنه امتداد أو فكر أو قوة خفيــة أو وعي ، فذلك كله تحكٌ ، وتصوير لا يرضي العلم في شيء ، ولا يقنع الفلسفة الطبيعية ، وان أرضى نواحي بعينها من الغرور الانساني .

٥ — القدم والحدوث والخلق

لم يكتفِ العقل البشري بأن يفرض ارادة أشبه بالارادة البشرية يتخذها علة نهائية يعلل بها الكون في كليته ، كما علل بالأسباب الطبيعية الكون في جزئيته .

أدرك الحس الانساني الحركة . وبالحركة قاس الزمان . ولكن هل للزمان أوّل ؟

قياساً على الجزئيــات التي هي مادة التفكير والعلم ، قضى العقل بأنّ الزمان لا بد له من أوّل ، فقال بأن السكون أصل أضيفت اليه الحركة بفعل العقل الأوّل . ولكن المحرِّك لا بد من أن تكون له صفة زائدة أو مخالفة لصفة المحرَّك . فاذا كان للثاني أول ، فلا بد إذن أن يكون الآخر بلا أول ، أي أزليّ ، وإلا اشترك الاثنان في صفة الحدوث . ومن هنــا جاء القول بالقدم والحدوث .

على أن العقل اذا نزع الى البحث في هذه المفهومات ، فانما ينزع إلى ذلك مبتغياً الوصول إلى ما يحفظ عليه ألفته . شأنه في ذلك شأنه في البحث عن العلة النهائية التي تعود إليها كلية الأشياء .

فاذا اقتنع العقل بأن هنالك علة أصلية لوجود الأشياء ، إذن وجب أن تكون العلة غير المعلول ، وصفاتها غير صفاته ، فاذا كان المعلول حادثاً وجب أن تكون العلة قديمة فاذا تشاركا في صفة الحدوث أو في صفة القدم انفرطت ألفة العقل ، إذ يكون الموجِد هو نفس المُوجَد وفي ذلك استحالة عقلية .

على أن العقل أزاء هذا المشكل لم يكن موفقاً توفيقه في فرض العلة النهائيــة ، لأن ذلك

الفرض يلزمنا به تسلسل السببيّة . أما القدم والحدوث فتسلسل السببية فيه يلزمنا القول بأن العلة والمعلول كلاهما قديم ، ويلزمنا أن ننفي عنهما صفة الحدوث . وهنا وقف العقل مفككّ الألفة حائراً .

يقول العقل : إذا اكتملت العلة ، لم يتخلف عنها المعلول . والله علة كاملة ، فكيف يتخلف عنها معلولها ؟ فاذا كان الله قديماً وجب أن يكون معلوله قديماً . أما اذا فرضنا أن المعلول (الكون المادي بكل ما فيه) حادث ، إذن لزمنا الفرض بأن العلة كانت ناقصة ، قبل أن يوجد المعلول. فلما اكتملت وجد المعلول ونقص العلة لا يجوز الاّ على الحوادث .

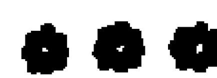
يقول العقل : اذا كان الخلق معناه ايجاد شيء لم يكن موجوداً أصلاً ، فكيف نوفق بين هذا وبين المبدأ الطبيعي القائل بأن المادة لا تتلاشى ولا تتجدد ؟ وان مجمل الأشياء ثابت لا يزيد ولا ينقص ؟ وانه لا يمكن خلق شيء من لا شيء ، ولا محو شيء الى لا شيء . واذن فالكون قديم ، حكماً عقليًّا قاطعاً .

يقول العقل : إن الحدوث لا يتناول غير الصورة ، أما الجواهر فلا تتغير . فاذا كان الخلق معناه توالي صور لم تلابس الجواهر من قبل ، فذلك ليس بخلق مطلق بمعنى إيجاد شيء من لا شيء ، بل هو مجرد تكييف بسيط في الأعراض . أو بعبارة أخرى هو توليف جديد لجواهر قديمة ، ولا يفيد حدوثاً من العدم الصرف ، بل هو مثبت لقدم هذه الجواهر .

قال سلطان النقل : ان الله قادر على كل شيء . ومعنى هذا انه لا يسأل عما يفعل . ذلك ليأخذ النقل بيد العقل تخلّصاً من معضلة القدم والحدوث .

قال العقل : ان صفة القدم شاملة . فالله قديم بكل صفاته . ومن صفاته العلم ، وإذن يكون علمه قديماً . وقد سبق في علمه القديم ان المادة لا تنعدم ولا تتجدّد ، وان خلق شيء من لا شيء مضاد لطبيعة الأشياء . فكيف يمكن التوفيق بين القول بقدم الله وقدم الكون ؟

قال العقل : بوحدة الوجود . فالله هو الكون والكون هو الله . أما اذا كان الله (وهو أيضاً الكون) علة كاملة ، فمعلولاتها الصور التي تتوالى على المادة ، وهي ولا شك حادثة . معلولاتها الكيوف التي تتكيف بها المادة التي هي قديمة . ذلك عندي ، وعلى قدر فهمي ، يحفظ عليّ ألفة عقلي . وكفى .



اذا كان القول بوحدة الوجود يمكن أن يطمئنّ اليه العقل باعتباره تعليلاً يحفظ ألفة

العقل من حيث القول بالقدم والحدوث ، ومن حيث أنه يجعل الحدوث من نصيب الصورة ، والقدم من نصيب الجوهر ، وان العالم جوهر واحد قديم لا أول ولا آخر له ، فهو كذلك يخرجنا من كثير من المعضلات التي تترتب على القول بالقدر وحرية الإرادة ، والقول بالخير والشر ، وفي نسبة أحدهما الى الله ، وعدم القدرة على نسبة الآخر إليه . لأن الله ما دام خيراً محققاً ، فكيف دخل الشر هذا العالم ؟

يقول أبيقور :

« إما أن يريد الله أن يمنع الشر ، ولكنه لا يستطيع أن يفعل . وإما أنه يقدر أن يمنعه ولا يريد أن يفعل ؟ وإمّا أنه لا يريد أن يمنع الشر ولا يقدر على منعه ، وإمّا أنه يريد ويستطيع أن يفعل ، فاذا كانت له الارادة وليس له القدرة ، فهو عاجز . فاذا كان قادراً ولكن لا يريد ، فذلك نقص لا يمكن أن ينسب إليه . فاذا لم تكن له القدرة ولا الارادة ، فهو عاجز عن منع الشر ، فليس إذن إلاهاً . فاذا كانت له القدرة والإرادة فمن أين إذن أتى الشر ؟ .

ومنذ أبيقور عجز المفكرون عن الإجابة على هذا السؤال . ولكن عجزهم قد أتى من ناحية التزامهم القول بالقدم لله والحدوث للكون ، وما ترتب على ذلك من فروض كثيرة فروض القدر وتقييد الإرادة والجبر والحرية وما الى ذلك

أما وقد أثبت علم التطور أن الانسان نتيجة مترتبة على النواميس القديمة الأزلية ، وان حدوثه ليس أكثر من توليف جديد حدث في جواهر المادة ، وانه جزء من عالم الحياة التي لا يخرج حكم نشوئها عن ذلك ، وان عالم الانسان وحده هو الذي ينطوي على معنى الخير والشر قياساً على حاجات حياته العقلية ، ترتب على ذلك ان الشر والخير معنيان قاصران على عالم الانسان ، وانهما اعتباريان لا أكثر ولا أقل .

إذا تخلصنا بذلك الاتجاه القويم من معضلات تبدد ألفة العقل ، انبغى لنا اذا أردنا أن نفكر في الألوهية ، أن لا نخرج عن الحيز الذي قيدتنا به طبيعة العقل ، حيث ان للعقل ألفة في جوانبها تنطوي فكرة الألوهية .

أمّا ان نعيّن الله فنقول إنه امتداد أو فكر أو قوة أو وعي أو ما أجرى ذلك المجرى ، فجاع ذلك تَمَحُّلٌ لتأييد نزعات انسانية هي من أعمل الأشياء على تفكيك ألفة العقل .

اسماعيل مظهر

السمكة

بنت الغدير لها خبا ... يء في حناياه خبيئه
« لا البدر » يظهرها للمـــتمس ، ولا الشمس المضيئه
ولها مطايا من عبا ... بِ الماء تمشي بالمشيئه
من كل مُسرعةٍ إذا دعت الضرورةُ ، أو بطيئه
ولها مع العُزي الذي هي فيه ، أجواءٌ دفيئه
ولهـا لجاجٌ لا تضيـــق ، وبيئةٌ ليست وبيئه
ولها مطاعمُ من نتا ... ج الماء جيدةٌ مريئه
لـكنهـا اتجهت لِطُعـــم البر وارتقبت مجيئه
استبـــدلت بالطيّبـــات الدون فارتكبت خطيئه
جَرُأت عليـه وفيـه تهلــكةٌ ، وكم أنثى جريئه
قـل يا غديرُ لبنتـك الــحمقاء قولتكَ البريئه
ليس المسيء هـو الذي (يشويك)، بل أنتِ المسيئه

شاعر البراري

أسرع الطائرات العصرية

في أعلى الطبقات الجوية

في غداة يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ استخدمت الجمعية الوطنية الجغرافية الأمريكية بلون الطبقة فوق الطخرورية [1] المسمى اكسبلورر الثاني « المستكشف » الخاص بسلاح الجو الأمريكي ، إذ أطلقته فبلغ ارتفاع ٧٢٣٩٥ قدماً فوق سطح البحر . ويكاد هذا العلو يعادل ١٤ ميلاً فوق أرض أقليم دا كوتا الجنوبي .

وكان يقوده الكابتن البرت و. استيفينز ، فبلغ يومئذ أوجاً لم يبلغه من قبله أي طيار في العالم .

ومما ينبغي ذكره بشأن الطبقة الطخرورية troposphere إنهـا يبلغ ارتفاعها نحو سبعة أميال فوق سطح البحر ، حيث يوجد الغبار والسحاب . وذلك من شأنهما ، عكس نور الشمس وانتشاره في الجو هنالك حيث يبدو لناظره صافياً . ولكننا اذا سمونا الى الطبقة التي فوق الطخرورية stratosphere حيث لا يوجد غبار ولا سحاب ، فلا نشاهد انتشار الضياء بل نرى السماء تكفهر رويداً رويداً . حتى إذا حلقنا الى مدى ١٤ ميلاً ، أبصرنا الجو داجياً خالياً إلاّ من الكواكب .

ونحن نكتب هذه السطور وأمامنا في المراجع العلمية الانكليزية رسوم رائعة توضح تلك الظواهر قاطبة أوفى إيضاح .

وأذيع من موروك ليك بولاية كليفورنيا ، أنه رصد مبلغ خمسين ألف دولار = ١٢ ألف جنيه ، مكافأة للطيار الذي سيقود لأول مرة ، الطائرة الصاروخية التي من طراز « XS—1 » ليبلغ بها سرعة الصوت ، ولم يحدد موعد للطيران كما لم يعلن اسم الطيار . غير أن شركة « بيل » التي أتمت صنع هذه الطائرة ، ذكرت أن الموعد لن يكون بعيداً .

﴿ قاعدة الطائرة ﴾ ويتم إعداد الطائرة في موروك ليك . وهي القاعدة التي تجري فيها وزارة الحربية الأمريكية تجاربها بولاية كليفورنيا . والمعتقد أن الطائرة ستحملها قاذفة

(١) الطخرور وجمعها الطخارير — قطع مستدقة من السحاب . وتسمى أيضاً الطخارير — الخفيف المتفرق من السحاب . ولما كانت الطبقة النائية الجوية المقصود بلوغها هي المسماة ستراتوسفير وهي بحسب ما ورد في المراجع العلمية الانكليزية خالية من السحب ، فيجب اذن ترجمة هذه الكلمة « بالطبقة فوق الطخرورية ، وما تحتها بالطبقة الطخرورية .

قنابل كبوى . ثم تطلق من عقالهـا في الجو ، في الوقت الذي تكون فيه القاذفة منطلقة بأقصى سرعتها . والمفهوم أن سرعة هـذه الطائرة تبلغ سرعة الصوت أي إنها تقطع ٧٥٠ ميلاً في الساعة = ١٢٠٠ كيلو متر في الساعة .

ويتنبأ البعض بأن في وسعها بلوغ سرعة ١٥٠٠ ميل في الساعة = ٢٤٠٠ كيلومتر في الساعة

ونظراً لما يكتنف هـذه التجربة من أخطار ، فقد رصد مبلغ ٥٠٠٠٠ دولار تعطى للطيار الذي يضطلع بها .

﴿ كيف جهزت الطائرة ﴾ وللطائرة جهاز حديث يقذف مقعد الطيار خارج الطائرة في حالة الخطر حتى يتسنى للطيار استخدام المظلة « الباراشوت » بعـد ذلك . ثم إن المقعد مزوَّد بآلات التبريد لـكي يقاوم درجة الحرارة الناتجـة من ارتفاع السرعة والتي قد تبلغ ٤٠٠ درجة . وفضلاً عن هذا فسيرتدي الطيار ثياباً خاصة بالضغط حتى يتسنى له استنشاق الأوكسيجين النقي . ثم نشرت الجرائد الانكليزية في ٣٠ ابريل ١٩٤٧ وصف مبلغ اهتمام علماء انكلترا بهذا الموضوع الخطير الشأن واليك نصه : —

إن الصاروخ الذي سيبز سرعة الصوت ، وهو الوسيلة التي بها تأمل بريطانيا العظمى أن تشق طريقها في (الحاجز الصوتي) والمقصود به محاولة بلوغ سرعة الصوت ثم التفوق عليها — ينتظر تجربته قريباً في الجو البريطاني . وقد أذاع هذا النبأ في لندن السير « بن لوكسبيزر » كبير علماء وزارة التموين الانكليزية ، وهو الذي أقرَّ رحلة الصاروخ ولذلك ستقوم طائرة من طراز موسكيتو ، من سلاح الطيران الملـكي الانكليزي ، بحمل ذلك الصاروخ والتحليق به الى علو ١١٠٠٠ متر حيث تطلقه في الطبقات العليا من الجو وحينئذٍ يتولى توجيهه قائد أوتوماتيكي فيهبط به الى ارتفاع ١٠٥٠٠ متر حيث يخلصه من أمه الطائرة . وعند ذلك يقوم محرك جديد قوي يدور بوقود سائل ، فيدفع الصاروخ دفعاً شديداً حتى يخترق الحد الصوتي ، متفوقاً على سرعة الصوت . ومن ثمة تقوم الآلات التي يحويها الصاروخ بامداد الراصدين على سطح الأرض بالمعلومات الضرورية لهم . والمأمول أنه سيفضي الى تـكشف حقائق ما زالت خفية في الطيران . وذلك عندما يبلغ سرعة الصوت. وحالما يستنفد الصاروخ وقوده بأجمعه يهوى الى اليمّ . وستجرب هذه التجربة حول جزائر سيليّ في القنال الانكليزي ، حيث ستظل الطائرة التي ستعدُّ لذلك الغرض محلقة في الميدان نفسه لتدرأ عن السفن أي ضرر يحتمل استهدافها له ، حيث تحول دون اقتراب السفن من منطقة الخطر ، ولـكي تستطيع الطائرة تصوير الصاروخ في حال طيرانه تصويراً فوتوغرافيـاً. وسيكون طول هذا الصاروخ ثلاثة أمتار ونصف متر ، وطول جناحه متران ونصف متر .

أما مجموع ثقله فسيكون زهاء ٤٠٠ كيلوجرام . على حين يبلغ قطر جسمه ٤٥ سنتيمتراً فقط . وسيغص بالآلات ويكتظ بالعوائق اكتظاظاً لا يدع فيه موضعاً لقدم

وقد أفضى السير بن يوم ٢٩ ابريل الماضي بقوله « إن الصاروخ المشار إليه سيتميز بمحركه الذي تم اختراعه طبقاً للمعلومات التي اقتبست من علماء المانيا . ولو إن تلك المعلومات قد تم تكييفها تكييفاً كان من شأنه ، اختراع طراز جديد . ثم أكد أن الشهور الثمانية عشر التي قضاها في المباحث الخاصة بهذا الصاروخ قد تكشفت له في غضونها معلومات جديدة عدة . ومع ذلك فإنه ما زال يعتقد أن الأنموذج الحالي ، من الصواريخ ليس هو آخرها فلا ينبغي إذن حسبانه النتيجة الختامية لتجاربه » .

ثم صرح قائلاً « لقد صنعنا من هذا الصاروخ ستة نماذج يشبه بعضها بعضاً . بيد أن النماذج القادمة ستكون من طرز مختلفة التركيب في الأجنحة وغيرها . وإني لا أشك في طول الزمن الذي سوف يستغرقه هذا المشروع ولذلك سنواصل تجاربنا أو نظفر بما نطمح إليه من المعلومات جميعها . ولست أدري الآن كم نموذجاً سيقتضينا هذا المشروع . وقد يتفاوت عددها بين ٥٠ نموذجاً و١٠٠ نموذج . ثم ختم حديثه بقوله « إن الصاروخ الذي سيبز سرعة الصوت ليس سلاحاً أو قذيفة حربية وإنما هو جهاز اختباري محض . ولنسمه « مختبراً طياراً للمباحث العلمية » يزودنا بالمعلومات التي نحن في أمس حاجة إليها ، لتجلو لنا الغوامض التي ما برحنا نجهلها » .

﴿ وصف الطائرة X-1 ﴾ تبلغ سرعة هذه الطائرة العجيبة ثلاثة أمثال ما تقطعه أسرع الطائرات العصرية المقاتلة . وهي من الطراز المساير للريح لدرجة عظيمة ، ومن النوع الصاروخي الملائم تقريباً للضغط الجوي . وقد صنعت على شكل صالح للغرض المقصود منها فجناحها رقيق جداً ومغشى بغشاء من صفائح الاليومينيم ممتزجاً بغيره من المعادن ، مخروطاً من لوح صلب . وهذا من شأنه تسهيل جعل ثخانة قاعدة الجناح نصف عقدة أصبع . ثم يأخذ في الاستدقاق حتى يضؤل عند رأسه الى ما يزيد قليلاً على ثمن عقدة الأصبع . ويؤلف محركها الصاروخي من أربع وحدات ، يوقد فيها وقود (هو مزيج من الكحول والاوكسيجين) .

ومن الميسور السيطرة على تلك القوة الدافعة سيطرة اختيارية طبقاً لما يحتاج اليه سائقها ففي وسعه استخدام قوة دفع من عيار ١٥٠٠ رطل أو ٣٠٠٠ رطل أو ٤٥٠٠ أو ٦٠٠٠ رطل . وطول هذه الطائرة ٣١ قدماً وارتفاعها من الأرض الى رأس ذنبها عشر أقدام وعشر عقد . ولها جناح صغير نسبياً طوله ٢٨ قدماً وثقل وسقها ٤٨٩٢ رطلاً . منها ٥٢٦ رطلاً

هي زنة الآلات المزمع استخدامها في المباحث الخاصة بالطيران السريع . وزنة وقودمحركها الصاروخي ٨١٧٧ رطلاً أي ما يفوق ثقل الطائرة فارغة مرة ونصف مرة . وستناط الطائرة (مقلة قائدها) بقلعة طائرة من طراز بوينج رقم ٢٩ فتطير بها الى الارتفاع المقصود حيث تخلي سبيلهـا في الجو ، فتشرع في الصعود الى القبـة الزرقاء . وذلك ابتغاء توفير وقودها الثمين . وكان لاختراع هذا الوقود واقعة حال في الحرب الخالية فآثرنا تبيانها فيما يلي تنويراً لأذهان طلاب الحقائق التاريخية والمخترعات العصرية : —

﴿ الماء الاوكسيجيني بدل الوقود ﴾ كان من الأسرار الحربية الألمانيـة التي تكشفت حديثاً لضابط من البحرية الأمريكية ، تسخير علماء الألمان للمادة الـكيميائية المعروفة باسم بيروكسيد الأوكسيجين « وهو الماء الأوكسجيني » لتسيير القنابل الصاروخيـة والطائرات الحربية والغواصات الألمانيـة . وذلك في الحرب السابقة . وممـا لا جدال فيه أن أولئك الأعداء لم يكونوا يستعملون المحلول الخفيف لتلك المادة المألوفة لدى ربات البيوت ، وهي التي يستعملنها لصبغ شعورهن باللون الذهبي ، بل كانوا يستعملون في مصالحهم ، محلولاتهـا القوية المركزة بنسبة تتفاوت بين ٨٠و٨٥ ٪ أو أكثر منها . إذ كانوا يجعلونهـا وقوداً أساسيًّـا مفرداً أو مصدراً للاوكسيجين في أكثر الاحايين ، لاحراق أنواع الوقود الأخرى كالزيت المعدني أو الكحول . وعند ما يتخذ الماء الأوكسجيني وقوداً أساسيًّـا ، ينفصل الأوكسيجين والهيدروجين المؤلفان لتلك المادة بعضهما عن بعض فينجم حينئذٍ عن هـذا الانفصال ، بخار مائي محمّـص وأوكسيجين حرّ . وهذان يولدان الطاقة المحركة المبتغاة ، وان أضاعا الأوكسيجين النفيس نفسه .

وكان الألمان في تلك الحرب الضروس يستعملون الهيدروجين المركز . وذلك في ٣٦ سلاحاً مختلفاً ، كما ثبت من البحث الذي قام به الضـابط الأمريكي البحري « لوجان ماكيّ » الذي كشف عن هذا السرّ الخفي . وقد قرر أيضاً أن الألمان كانوا يجربون الطريقة نفسها في نحو ٤٠ سلاحاً أخَـر . ومما لا شك فيه أن هـذا الوقود ، كان باهظ النفقات . ولـكن سهولة استعماله ، والوثوق بنفعه ، كانا مبررين لاحتمال فداحة ثمنه . وكانت الطائرات التي تزود بالماء الأوكسيجيني ليولد الأوكسيجين لأجل الاحتراق ، تقوم بعملها خير قيام . إذ كان في وسعها التحليق في الجو الى علو ٣٠٫٠٠٠ قدم في دقيقتين . كما إن الطوربيدات التي كانت تسير بقوة الماء الأوكسيجيني كانت تفوق أقرانها بل تمتاز عليها بكونها لا تترك آثاراً عند انطلاقها تنمّ عليها . أما الغواصات الألمانية التي كانت تتخذ الماء الأوكسيجيني طاقة لتسييرها فقد كانت غواصات حقيقيـة تستطيع المكث في الاعماق فترات مديدة ، حيث كانت سرعتها تبلغ

٢٥ ميلاً بحريًا في الساعة. ومن ثمة كانت نفقات تسييرها فيما يختص بالوقود تزيد ألف مرة على أخواتها التي تحرق الزيت المعدني. وكان المستعمل منها للقتال خمساً، على حين كان عدد قليل منها خاصًا بالتدريب. وهذه لم تستعمل في الحرب قط. وذلك لندرة الماء الأوكسيجيني حينئذٍ.

﴿ السيطرة على الاجواء ﴾ من الخطأ أن نعتقد أن الانسان قد بلغ في السيطرة على الاجواء ما بلغه من الفوز على الغبراء. فشتان بين ذينك الهدفين لأن الخلق قد سخروا الأرض ودرسوا أطوارها وعاشوا في أشد أرجائها حرًّا وقرًّا. بل توغلوا في أقصى أصقاعها فغدا في وسعنا أن نقول إنهم يستطيعون الرحيل إلى أقاصي المسكونة. ولكن يستحيل علينا الزعم أن امرءًا بلغ السماكين فعلاً لأن هذا فوق قدرة البشر. ويعلم الورى، علم اليقين أن الجوّ الذي ألفناه، والهواءَ الذي اعتدنا استنشاقه، تعلوه طبقة أخرى، ذات هواء خفيف تسمى الطبقة فوق الطخرورية ولكن كثير من قرائنا لا يعرفون حق المعرفة أحوال تلك الطبقة المجهولة. بل هم لا يدركون تمام الادراك مبلغ تأثيرها في المخلوقات البشرية. كما إنهم لا يعرفون أشد آفاقها حرارة أو برودة. لأنها منطقة من الهواء لما يتم تكشفها التكامل لمرتاديها فهي إذن تعد من المناطق الخفية التي لم يقوَ العلماءُ على فتحها.

فالطيار الذي يحلق فيها بطائرته أو بمنطاده، يجاوز الجو الذي فيه نعيش، بغية التوغل في تلك الطبقة المجهولة حيث يتفاقم تفشي الجزيئات الهوائية الصغيرة تفشياً أشد منه في الطبقة السفلى. وحينئذٍ يتعذر على المرء الحصول على الأوكسيجين الضروري لتنفسه ليبقى حيًّا.

وأول ما يعوز الطيار الذي يشرع في كشف النقاب عن تلك المنطقة، واذ كانت أمنيته التحليق بضعة أميال فحسب، مقدار إضافي من الأوكسيجين يموّن به نفسه. وذلك في أوعية من الصلب. كما إنه يجب عليه أن يلبس خوذة للطير ان تحتوي على قناع غازي يتوصل بأنبوب دقيق الى أسطوانات الأوكسيجين. ثم إن افتقاره الى الاوكسيجين ليس هو العقبة الكأداء الوحيدة التي تعترض سبيله. بل ثمة حوائل أُخَرَ. ومنها رطوبة الجو. لأن الطيار كلما سما ارتفاعه، انحطت درجة الحرارة في طريقه انحطاطاً تدريجيًّا حتى تهبط الى برودة لا يقوى على احتمالها. وما من شك أن أي امرىء لا يستطيع البقاءَ طويلاً في تلك الحالة، إلاّ اذا وقّى نفسه من ضررها. وذلك بارتداءِ حلة تدفئها الطاقة الكهربائية. كما أنه يجب عليه صون عينيه بمنظارين ضخمين وقايةً لهما من التقلبات الجوية. وهذان أيضاً لا بدّ من تدفئتهما على ذلك النحو. واذا تذرّع الطيار بهاتيك الوسائل جميعها فلا يصبح موقناً بقدرته على مناوأة البرد الذي يستهدف له هنالك. ولا عجب فالبنزين العادي يتجمد عند

تعرضه لدرجات الحرارة المنخفضة . ولذلك كان لا مندوحة عن اختراع صنف خاص منه ليتيح للطائرات التحليق تحليقاً عالياً جدًّا ، ولا يتجمد عند بلوغ الطائرة جليد الطبقة فوق الطخرورية الجوية اللطيفة الهواء ، وكذلك يلحق التجمد ، الشحم الذي تشحم به آلات الطائرات وأدواتها . ولما كانت أطراف أجنحة الطائرة ودفتها تتحرك بأسلاك متينة تُلَفُّ على « بكرات » صغيرة ، وكانت هذه البكرات يجب تشحيمها دائماً تشحيماً جيداً لأنه متى تجمد شحمها استحال على الطيار تحريك تلك الأسلاك ، فيغدو عاجزاً عن كبح جماح طائرته فيلقى حتفه . وكم من مرة كاد يصرع الطيارون نتيجة لمثل ذلك الطارىء المشؤوم فمن مصلحة الطيار الذي يطمح الى كشف تلك الطبقة الجوية الشاهقة (التي فوق الطخرورية) ارتداء حلة مدفأة وقفازين مدفأين ومنظارين مدفأين أيضاً . كما يجب عليه أن يستنشق الأوكسجين عن طريق منخريه ويزفره من فيه . وذلك عن طريق فوهة أنبوب دقيق من المطاط ، ينقل الغازات الفاسدة الى الهواء الطلق . وأي طيار يحاول السمو بطائرته الى ارتفاع سبعة أميال فوق سطح الأرض لامناص له من التعرض للخطر الذي يجعله من الموت قاب قوسين . وذلك نتيجة اختلال قناع الأوكسجين الذي يستنشقه . ولو ظل الأوكسجين جارياً فيه ، فلا بدَّ من شعور الطيار حينئذٍ بالاختناق اختناقاً يستفحل رويداً رويداً . وذلك من تراكم الجليد في فوهة الأنبوب المطاطي . ثم ان البخار المائي الذي يخرجه الطيار من رئتيه ينقلب جليداً بتأثير شدة الرطوبة . وغني عن البيان أن الطيار يعكف عندئذٍ على كشط الجليد عن أنبوب المطاط ليتسنى له النجاة من الموت .

﴿ الرحلة العتيدة الى الكواكب ﴾ سيقوم في فصل الصيف الحالي ، إن شاء الله ، قائد أمريكي جوي من أشهر قادة الطائرات الحربية العالمية الثانية ، بطائرة حديثة من الطراز الصاروخي البديع فيحلق بها قدماً في الطبقة فوق الطخرورية الجوية الضئيلة الكثافة . فتعدُّ هذه الرحلة الجريئة ، الأولى من نوعها . إبتغاء اختراق تلك الطبقة الهوائية النائية التي يحسبها العلماء سدًّا جويًّا منيعاً يحول دون بلوغ علم الطيران أوج نجاحه المنشود . بل إن هذه التجربة سوف تصير أعظم حادث في تاريخ الطيران منذ قام به الانسان . وذلك من عهد طيران الاخوان رايط [1] من « كيتي هوك » وهذا هو اعتقاد العلماء الذين نوافق ......

(١) هما أورفيل رايط وأخوه . وهو طيار أمريكي ولد سنة ١٨٧١ ونجح في عمله عقب تجارب شتى مارسها في الطيران . فطار في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ من كيتي هوك في اقليم كارولينا الشمالية . وذلك لاول مرة في طائرة أثقل من الهواء . ثم استطاع هو وأخوه يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٨ الطيران في طائرتهما بعد تحسينها حيث لبثا في الجو ٧٥ دقيقة فسجلا حادثاً تاريخياً لم يسبق له نظير .

منهم اللجنة الأمريكية الاستشارية في علم الطبيعيات الجوية .

ونقصد بذلك الطيار المظفار ، تشالمرز جودلين Chalmers Goodlin الملقب عند أقرانه بلقب (سليك) وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره . تعلم الطيران في السادسة عشرة من سنه ، واشترك في الحرب السابقة حيث قاد الطائرات الحربية المسماة سبيتفاير . وذلك في جو انكلترا حيث قضى عامين مع سلاح الطيران الملكي البريطاني . وطائرته هي « XS—1 » من الطراز ذي الجناح الشبيه بالسكين ، الذي يمتاز بقصره وثخانته ومتانته . وهي أول طائرة اخترعت وصنعت للطيران بسرعة تبز الصوت . وسيأخذ جودلين على عاتقه الطيران بسرعة الف ميل في الساعة على أقل تقدير . أي أبعد مما يقطعه الصوت وأسرع نحو ٥٠٠ ميل مما بلغه أي طيار في الساعة في أي زمان . فاذا ما تحققت أمانيه هذه ، صار جديراً بوضعه في مصاف الطيارين الخالدي الذكر ، وظفر بمكافأة مالية ، هي شيك بخمسين ألف دولار (كما أسلفنا القول) .

بيد أن هناك عقبة كأداء هي من أغرب ما صادفه الانسان في الأجواء السحيقة . وهذه تحول دون بلوغ جودلين ما يصبو إليه من الثروة والشهرة العظيمتين ، عند حصوله على الـ ٥٠،٠٠٠ دولار المشار إليها . ونقصد بالعقبة « سرعة الصوت » وهي ٧٦٥ ميلاً في الساعة عند سطح البحر . ذلك لأن الحائل الصوتي يغدو في هذه الآونة سداً منيعاً يعوق الطيار عن بلوغ ما يبغيه من السرعة . ويؤلف ذلك الحائل ، كما أسلفنا ، من كون كل جسم متحرك يولد صوتاً فينتقل هـذا الصوت ، عن طريق الموجات الرعدية التي تتحرك في الهواء بسرعة ٧٦٥ ميلاً في الساعة عنـد سطح البحر . ولـكن تلك الموجات تخفف حركتها الى ٦٦٢ ميلاً في الساعة في ارتفاع ٧٠،٠٠٠ قدم . والأمواج الصوتية لا تحدث أي ازعاج يمكن شعور الانسان به ، ما دامت متحركة حركة أسرع من الجسم الذي يولدها. أما في المنطقة التي يفوق فيهـا الطيار سرعة أمواج الصوت فيتولد من جزيئات الهواء اضطراب مروع حيث تحتشـد بعضها مع بعض ، بين الأمواج الصوتية والجسم المتحرك ، فتنشىء حاجزاً منيعاً يعوق الطيران .

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن القواعد المعروفة في علم الغازات وضغطها وحركتها، تنقلب في تلك المنطقة رأساً على عقب ، حيث يجيش الهواء ويتهيج ويصطخب كأنه بحر تكتسحه العاصفة . وحينئذ لا يستطيع قائد الطائرة كبح جماحها إذ تتفلت مفاتيحها من جراء تلك القوة الغاشمة التي تطغى على الطائرة فتحرفها عن طريقها ثم تعطلها بثورتها الجنونية .

ثم إن تلك المنطقة الجوية الرهيبة التي لا يسمع فيها الصوت تشغل المسافة بين ٦١٢ و٩٠٠

ميل التي تقطعها الطائرة في ساعة واحدة . وتظل المنطقة نفسها ساكنة خفية في الجو حتى يتحداها طيَّار فتثور ماجلاً بكل شدة . وما من طيار جرؤ حتى الآن على مجاوزة حاشية الطبقة الجوية المشار إليها وبقي حيًّا ليوافينا بالخبر اليقين. ولسنا نعرف أحداً من الطيارين الشجعان البارعين ، وهم كثيرون والحمد لله ، قُيِّض له ارتياد تلك الطبقة ليكشف لنا عما تحويه من الخفايا الا المرحوم المأسوف عليه جيوفري دي ها فيلند الطيار البريطاني المشهور الذي عمد الى القيام بتلك الرحلة الخطيرة على سبيل الاختبار . وذلك في طائرته النفاثة التي اخترع لها جناحاً كجناح طائر الخطاف . فطار بها صعداً بسرعة ٦٥٠ ميلاً في الساعة فتمزقت شر ممزق وهوت به صريعاً .

ولم يتمكن أي مخلوق من معرفة ما يجري يقيناً في منطقة الصوت غير المسموع حتى العلماء أنفسهم . وهم الذين يملكون الانفاق الصناعية التي يجربون فيها التجارب الخاصة بالرياح فعجزوا وما فتئوا عاجزين عن سبر الثغرة الواقعة بين ٩٦ ./. و ١٢٠ ./. من سرعة الصوت . اذ أنه في درجة ٩٦ ./. من سرعته تفسد أقوى الانفاق الهوائية الصناعية . وذلك بتأثير الأمواج الرعدية التي تبلغ من الشدة درجة تتاح فيها رؤيتها بالعيون المجرّدة . أما في درجة ١٢٠ ./. من سرعة الصوت في الانفاق الصناعية الريحية فتأخذ تلك الانفاق في تأدية وظائفها مرة أخرى وذلك باستعمال غاز النيون حيث أمكن العلماء تمثيل حالة الطيران في ارتفاع ٤٥٠٠ ميل في الساعة. فأثبتوا أنه متى استطاعت الطائرة اجتياز طبقة الصوت غير المسموع بلغت مجال السكون حيث تطير بسهولة بسرعة أعلى من الصوت في سكون تلك المنطقة طيراناً سوف يعود بمنافع حربية وتجارية عظيمة في مستقبل الأزمان .

* * *

وكان الغرض من صنع هذه الطائرة الموسومة بسمة « XS–1 » جعلها مختبراً طياراً للمباحث العلمية . ولذلك لم تسلح بالمدافع ولم تجهز بأي سلاح ولا بأية معدات حربية . وانما تحتوي على مقعد صغير للطيار ، فضلاً عن اكتظاظها بالآلات الخاصة بتسجيل السرعة وغيرها . وفيها مستودع يسع ٨٠٠٠ رطل انكليزي من الوقود المؤلف من الهيدروجين الممزوج بالاوكسيجين والكيروسين (كما وصفناه آنفاً) وهذا الى جانب بطارية مؤلفة من أربعة محركات صاروخية تولد جميعها قوة ١٨٠٠٠ حصان فيمكنها قطع ٧٥٠ ميلا في الساعة

عوض عبد بشرى

خطأ قانون كبلر الثاني

هل هو خطأ ؟

قضية فلكية رياضية معروضة للتمحيص

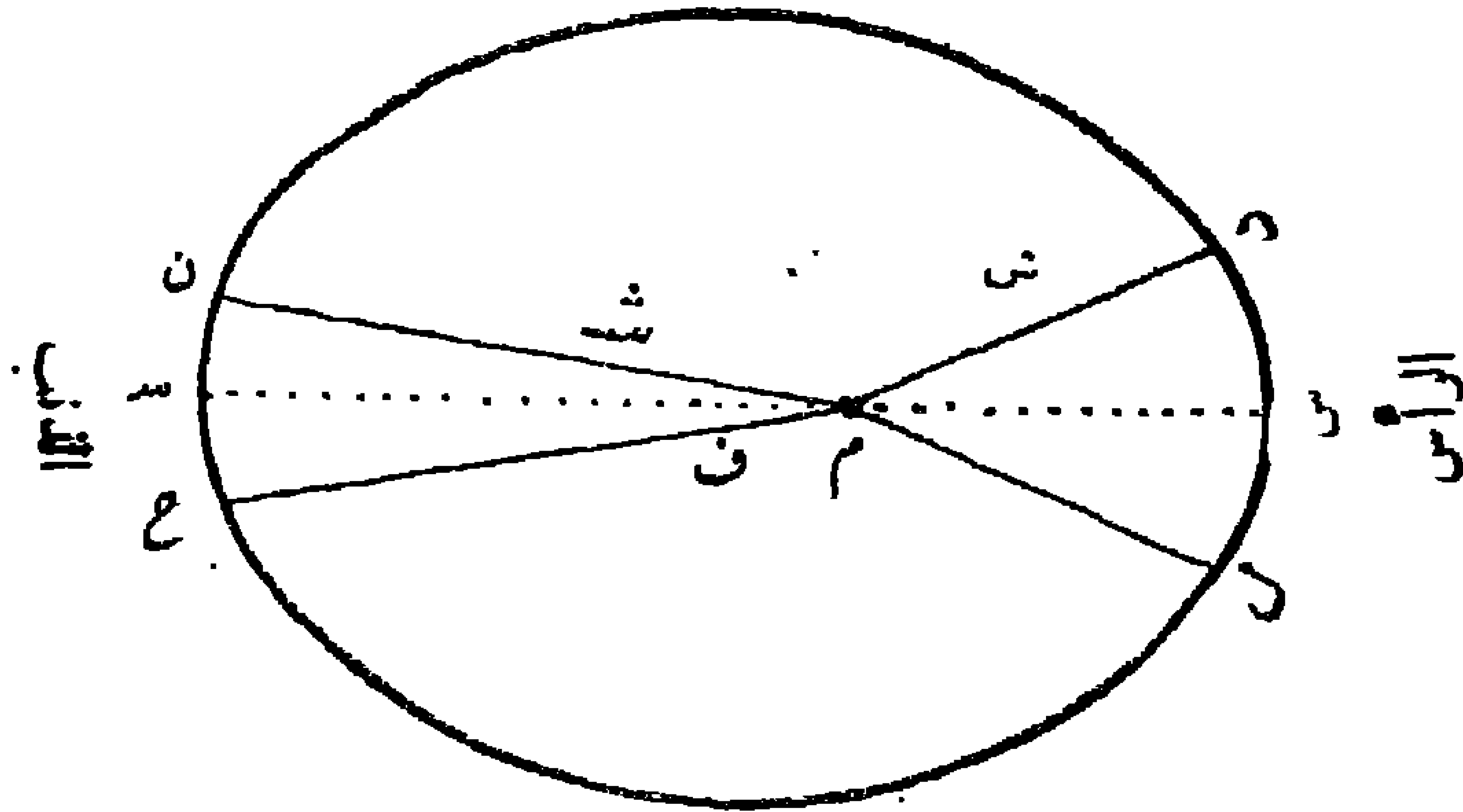
كان كبلر أحد الثلاثة الأولين الذين شرعوا يشتغلون بالفلك على هدى .

١ً — كوبرنيكس ، قال وبرهن أن الشمس مركز الكواكب السيارة وهذا ما يسمى النظام الشمسي .

٢ً — طيخو براهي الراصد ، ضبط مواقع الكواكب السيّارة وسرعتها .

٣ً — كبلر ، استنتج من أرصاد طيخو براهي ثلاثة قوانين للنظام الشمسي ، وهي : —

القانون الأول : إن الكواكب السيارة تسير في دوائر اهليلجية أي متطاولة بيضية الشكل ، والشمس في أحد محترقيها Focus كما ترى في هذا الشكل . والسيار عطارد أكثر اهليلجية من سائر السيارات .



والقانون الثاني : إن خط بُعْدِ السيار عن مركز الشمس المسمى « الشعاع المتّجه » Radius Vector يمسح في اثناء سير السَّيار في أوقات متساوية مساحات متساوية أي أن مساحة م د ل في الشكل تساوي مساحة م ن ح . لأن أفلاك السيارات غير تامة الاستدارة كما تقدم القول ، ولأن السيار متى كان أقرب الى المركز كان أسرع منه متى كان أبعد بحسب قانون السرعة الآتي بيانه :

مسيره من د الى ل أسرع منه من ح الى ن

(القانون الثالث لا يهمنا هنا . وهو أن مربع المدَّة التي يقضيها أي سيار لاتمام دورته من حول الشمس مناسبة لمكعب بُعْده عن الشمس) .

فلنمتحن هذا القانون الثاني في السيَّار عطارد لانه أكثر إهليلجية من سائر السيارات ، فإن خط اتجاهه عند « نقطة الرأس » أقصر من خط اتجاهه عند « نقطة الذنب » ، أي أن الشعاع ش أقصر من الشعاع ﺸ كنسبة ٢ الى ٣ تقريباً لأن مقدار الشذوذ عن المركز Eccentricity من ف — م ٢٠٦ ، بحسب الاصطلاح الفلكي .

نمتحن هذا القانون في عطارد بناء على المعلومات الرقمية الموجودة في كتاب الفلك الموثوق به لثلاثة أساتذة فلكيين أميركيين ، رصل ودوجان وستيورت . وسائر كتب الفلك الحديثة مقررة هذه الأرقام كما يلي : —

	طول خط البعد عن المحترق	السرعة بالثانية
عند نقطة الرأس س	٢٨،٥٥ مليون ميل	٣٦ ميلا
عند نقطة الذنب ﺳ	٤٣،٣٥	٢٤
في نقطة الوسط (المعدل الأوسط)	٣٥،٩٥	٣٠

وهو معلوم أن مساحة أي قِطاع في الدائرة Sector هي نصف حاصل القوس مضروبة بالشعاع (أي بِبُعْد القوس عن المركز م أي المُحترَق) واذا كانت القوس د ل هي مسافة ما يعبره السَّيارُ في ثانيـة (أو في يوم أو ما تشاء) فلنعبِّر عنها بحرف س (أي سرعة السيار في الثانية عند الرأس) .

وكذلك ن ح نعبِّر عنها بحرف ﺳ أي سرعة السيار في الثانية عند الذنب .

فالمساحتان إذن .

$$\text{د م ل} = \frac{\text{س ش}}{٢} = \frac{٣٦ \times ٢٨،٥٥}{٢} = ٥١٣ \text{ مليون ميل مربع}$$

$$\text{ن م ح} = \frac{\text{ﺳ ﺸ}}{٢} = \frac{٢٤ \times ٤٣،٣٥}{٢} = ٥٢٠ \quad \text{»} \quad \text{»} \quad \text{»}$$

ترى مما تقدم ان المساحتين اللتين يمسحهما « الشعاع المتجه » في ثانية غير متساويتين خلافاً لقانون كبلر .

زد على هذا أن المعلومات الرقمية التي نقلناها آنفاً عن السرعة ليست صحيحة أيضاً . واذا نقحناها حسب قانون « السرعة الخطية » Linear Velocity (الذي سنشرحه فيما بعد) وجدنا الفرق بين المساحتين أعظم .

هكذا : —

الارقام الصحيحة { السرعة عند نقطة الرأس ٣٣،٤ ميل الثانية
« « « الذنب ٢٧ « «

وبناء على هذه الأرقام

د ل م = $\frac{٢٨،٥٥ \times ٣٣،٤}{٢}$ = ٤٧٦ مليون ميل مربع

ن م ح = $\frac{٤٣،٣٥ \times ٢٧}{٢}$ = ٥٨٤ « «

فانظر ما أعظم الفرق بين هذين الرقمين وبينهما وبين ذينك في العملية السابقة. وبناء عليه لا يكون قانون كبلر صوابا .

قانون السرعة الخطية .

بقي للقارىء ان يسأل : كيف علمنا « السرعة الخطية » Linear Velocity أو القوسية الحقيقيـة التي ادعيناها آنفاً . فعلينا ان نفرد هـذه النبذة التالية لاستخراج قانون هـذه « السرعة الخطّية » .

لا يخفى ان سرعة السيّار في فلكه أينما كان تتوقف على فعل الجاذبية فيه . وهـذا الفعل يختلف باختلاف بُعْد السيّار عن مركز الشمس بحسب سنة «مربع البعد» . ولمقدار السرعة قانون محتوم يتوقف على قانون الجاذبية نفسه . وقد استخرجناه كما يلي :—

ناموس التسارع Acceleration

معلوم في كتب الطبيعـة ان ناموس التسارع (ناموس الانحناء حول المركز) بقوة الجذب هو $\frac{س^٢}{ش}$ باعتبار ان س رمز السرعة و ش الشعاع Radius نصف القطر وهو البُعْد عن المركز . ولا محل هنا لشرح عملية هذا القانون (تجدها في الملحق الرياضي من كتابنا فلسفة التفاحة أو جاذبيـة نيوتن الذي صـدر ملحقاً للمقتطف في شهر يوليو سنة ١٩٤٦) وتجدها في جميع كتب الطبيعة . ومن هذا الناموس مع ناموس الجاذبية نستخرج ناموس سرعة الـكواكب السيارة الذي نحن بصدده هكذا : —

اذا رمزنا عن فعل جاذبية الشمس للارض بحرف ف وعن فعلها لأي سيار آخر بحرفي فف . وعن بعد الأرض عن الشمس بحرف ش وعن بعد أي سيّار آخر بحرف ع أمكننا أن نستخرج قانون سرعة السيارات هكذا (بناء على قانون التسارع Acceleration المشار اليه آنفاً) :

أولاً : — $\frac{\text{ف}}{\text{فَ}} = \frac{\frac{\text{س}^{2}}{\text{ش}}}{\frac{\text{سـ}^{2}}{\text{شـ}}}$ معادلة (١)

ثانياً مفهوم ان قانون الجاذبية هو $\frac{\text{ف}}{\text{فَ}} = \frac{\text{شـ}^{2}}{\text{ش}^{2}}$ أي مربع البُعد بالقلب — معادلة (٢)

عادل بين المعادلتين (١) و (٢) هكذا ،

$\frac{\text{شـ}^{2}}{\text{ش}^{2}} = \frac{\frac{\text{س}}{\text{ش}}}{\frac{\text{سـ}^{2}}{\text{شـ}}}$ . . وإذا بسطت هذه المعادلة كان لك : —

$\text{س}^{2} \times \text{ش} = \text{سـ}^{2} \times \text{شـ}$ معادلة (٣) حاصل ثابت

(او $\text{س}^{2} : \text{شـ} = \text{سـ}^{2} : \text{ش}$)

يعني اذا ضربت مربع سرعة كل سيار بخط بُعده عن الشمس (شعاعه) كان لك عددٌ واحد لا يتغير في الجميع وهو ٣٤٤٫٥ ميل

اذن فقانون « السرعة الخطية » كما يستخرج من معادلة (٣) هو

$\text{س}^{2} = \frac{\text{سـ}^{2} \times \text{شـ}}{\text{ش}}$ معادلة (٤) وكذلك منه

$\text{سـ}^{2} = \frac{\text{س}^{2} \times \text{ش}}{\text{شـ}}$ معادلة (٤ ب)

السرعات في مختلف النقط

بناءً على هذا القانون نستخرج السرعات في النقط المختلفة من الفلك الاهليليجي . في عطارد (مثلاً) نستخرج سرعة عطارد الوسطى أولاً ، أي المعدل الأوسط بناءً على أن متوسط البعد (أي البعد الأوسط عن الشمس) ٣٥٫٩٥ ميل . فيكون بعد عطارد الاوسط عن الشمس ٠٫٣٨٧ بالمقياس الفلكي

المقياس الفلكي هو مسافة بُعد الأرض عن الشمس وهو المقياس الذي تقاس به أبعاد جميع السيارات ويعبر عنه برقم ١ (واحد اي وَحدة) ولما كان بُعد الأرض عن الشمس بالأميال ٩٢٫٩ مليون ميل فيكون بُعد عطارد بالمقياس الفلكي

$\frac{٣٥٫٩٥}{٩٢٫٩} = ٠٠٫٣٨٧$ كما ذكرنا آنفاً

وبناء على المعادلة (٤ ب) تكون سرعة عطارد الوسطى بالثانية (بحساب المقياس الفلكي) وبالنسبة الى سرعة الأرض التي هي ٥ر١٨ ميل بالثانية

$$\text{ـس} = \sqrt{\frac{(\text{١٨،٥})^{٢} \times \text{١}}{\text{٠،٣٨٧}}} = \text{٢٩،٧٤ ميل بالثانية}$$

ثانياً — اما وقد استخرجنا نسبته الوسطى فصار علينا ان نستخرج سرعته عند نقطتي الرأس والذنب هكذا : —

$$\text{سرعته عند نقطة الرأس} \quad \frac{\text{٣٥،٩٠ (شعاعه الاوسط)} \times (\text{٢٩،٧٤})^{٢}\ \text{متوسط سرعته}}{\text{٢٨،٠٠ (شعاعه الاقرب)}}$$

أي سرعته = ٣٣،٤ ميل بالثانية عند نقطة الرأس

$$\text{سرعته عند نقطة الذنب} = \frac{\text{٣٥،٩٠} \times (\text{٢٩،٧٤})^{٢}}{\text{٤٣،٣٥ شعاعه الاطول}} = \text{٢٧ ميلاً بالثانية}$$

هذه هي السرعات الصحيحة وعليها نعتمد في استخراج المساحتين كما تقدم (لاحظ ان السرعات الحقيقية تختلف عما هي في الكتب)

السرعة المساحية

— مما تقدم صار يمكننا ان نستخرج قانون السرعة المساحية Areal Velocity بالمناسبة بين المساحتين .أي ما يمسحه كل شعاع في ثانيـة (أو في أي مدة نشاء) هكذا نرمز عن مساحة القطاع sector د م ل عند الرأس بحرف م وعن الثانية (أو أية مدة) بحرف ث

$$\text{م} = \frac{\text{س ث ش}}{\text{٢}}$$ على اعتبار أن طول القوس يساوي السرعة مضروبة بالوقت

وكذلك نرمز عن مساحة القطاع ن م ح عند الذنب بحرف ح اذن $\text{ح} = \frac{\text{ـس ث ـش}}{\text{٢}}$

ناسب بين هاتين المعادلتين فتسقط منهما $\frac{\text{ث}}{\text{٢}}$ المشتركة بينهما يبقى لك

$$\frac{\text{م}}{\text{ح}} = \frac{\text{س ش}}{\text{ـس ـش}}$$ معادلة (٥) ومنها لك

$$\text{ح} = \frac{\text{ـس ـش}}{\text{س ش}} \times \text{م}$$ معادلة (٥ ب)

ترى بكل وضوح أن المعادلتين غير متساويتين. أي أن مساحة قطاع الذنب (ذ م ح) أكبر من مساحة قطاع الرأس (د م ل) بقيمة $\frac{\text{ش}}{\text{س ش}}$

وبالتحقيق بالأرقام بحسب المعادلة نفسها

$$\text{ح} = \frac{٣٣٬٤٤ \times ٢٨٬٥٥}{٢٧ \times ٤٣٬٣٥} \times \text{م} = \frac{٤٧٦}{٥٨٤} \times \text{م} = ١\frac{٤}{٥}$$

أي ان المساحة عند الذنب تساوي المساحة عند الرأس مرةً واربعة اخماس المرة تقريباً وإذن فقانون كبلر غير صحيح .

السرعة المساحية العامة

مساحة افلاك السيارات

يمكننا ان نستفيد من هذا البحث شيئاً آخر غير تخطئة قانون كبلر

كلٌّ من السيارات تمسح فلكها في مدة معينة . فهل ترى مساحاتها متساوية في مدات متساوية ؟

مثلاً هل يمسح شعاع فلك زحل في سنة واحدة مساحة تساوي مساحة فلك الأرض (التي تمسحها الأرض بسنة) ؟ فلنرَ

نسترعي ذهن القارىء قليلاً للملاحظة التالية : —

كلما انتقل السيار في فلكه الاهليليجي خطوةً كان كأنه ينتقل من دائرة تامة وهمية الى دائرة وهمية أخرى . فاذكان يبتعد عن نقطة الرأس كأن ينتقل الى دائرة أوسع فأوسع الى أن يبلغ الى نقطة الذنب . فكأنه يرسم دوائر (أو أقواس دوائر) متعددة بعضها ضمن بعض . وهذا هو السر في أن سرعته تختلف باختلاف بعده عن مركز الشمس حسب قانون السرعة الذي مر ذكره في معادلة (٤) . وهذا هو سر اختلاف السيارات بالسرعة .

بناءً على ما تقدم يطبق قانون السرعة المساحية على جميع السيارات بنسبة بعضها الى بعض أو بالأحرى بنسبتها الى مساحة فلك الأرض التي تعد المقياس المساحي العام للجميع ، كما أن (شعاع فلكها) يعد مقياساً فلكياً واحداً لجميع ابعاد السيارات كما تقدم القول .

مثال ذلك : — نأخذ زحل ونناصب مساحة فلكه بمساحة فلك الأرض لكي نرى ماذا يكون بحسب المعادلة (٥)

سرعة زحل = ٦ أميال بالثانية .
شعاعه (بعده عن الشمس) . = ٩،٥٣ (بالمقياس الفلكي . أي كذا مرات كبُعد الأرض عن الشمس) .
المساحة التي يمسحها في عام = مح (رمز للمساحة) ؟
سرعة الأرض = ١٨،٥ ميل في ثانية
شعاعها (خط بعدها عن الشمس) = ١ (المقياس الفلكي)
مساحة فلكها = مض (وَحْدة) واحدة هي المقياس المساحي بحسب المعادلة (٥)

$$\text{مح} = \frac{\text{س} \times \text{ش}}{\text{س} \times \text{ش}} \times \text{مض} = \frac{٦ \times ٩،٥٣}{١٨،٥ \times ١} \text{ مض} = ٣،٠٨ \text{ مض}$$

يعني أن شعاع فلك زحل يمسح في سنة ٣ مرات وكسوراً كمساحة فلك الأرض .
لامتحان ذلك بطريقة أخرى هندسية حسابية : —
يتم زحل مسيره في مداره (دائرة فلكهِ) في ٢٩،٤٦ سنة .
أي أنه يسير في سنة واحدة $\frac{١}{٢٩،٤٦}$ من دائرة فلكه
بحسب قانون كبلر يجب ان تكون مساحة فلك زحل ٢٩ مرة مساحة فلك الأرض . ومما تقدم رأيت أنها ٣،٠٨ × ٢٩،٤٦ = ٩٠،٧٣٦ مرة
مساحة أية دائرة بحسب هندسة السطوح هي $\frac{\text{د ش}}{٢}$ باعتبار ان د هي طول محيط الدائرة وش (الشعاع) نصف قطرها . ولكن د = ب ش. و (ب باي n) في اصطلاح الرياضيين هي الناتج من قسمة محيط الدائرة على شعاعها

أي أن ب = $\frac{\text{د}}{\text{ش}}$ اذن د = ب ش : واذن

مساحة الدائرة = $\frac{\text{ش ب ش}}{٢} = \frac{\text{ب ش}^٢}{٢}$.

واذن مساحة فلك الأرض في سنة : = مض = $\frac{\text{ش}^٢ \text{ ب}}{٢}$

مساحة فلك زحل : = مح × ٢٩،٤٦ سنة = $\frac{\text{ش}^٢ \text{ ب}}{٢}$

نناسب بين المعادلتين ونبسطهما بإسقاط $\frac{\text{ب}}{٢}$ من الجانبين فلنا

$$\frac{\text{مح} \times ٢٩٫٤٦}{\text{مض} \times ١} = \frac{\text{ش}^{٢}}{\text{ش}_{٢}^{٢}} \qquad \text{أو}$$

$$\text{مح} = \frac{\text{ش}^{٢}}{\text{ش}_{٢} \times ٢٩٫٤٦} \times \text{مض}$$

بالأرقام: ــ $\text{مح} = \frac{(٩٫٥٣)^{٢}}{١^{٢} \times ٢٩٫٤٦} \times \text{مض} = ٣٫٠٨ \text{ مض في سنة}$

أي ان مساحة فلك زحل تساوي ٣ مرات و٨ بالمئة من مساحة فلك الأرض في سنة. نفس النتيجة السابقة

معادلة مختصرة

ضع في معادلة (٥) قيمة هـ التي في معادلة (٤ ب)

$$\text{مح} = \frac{\text{هـ} \times \text{ش}}{\text{س} \times \text{ش}} \times \text{مض} = \frac{\sqrt{\frac{\text{س}^{٢} \times \text{ش}^{٢}}{\text{ش}}}}{\text{س} \times \text{ش}} \times \text{مض}$$

ربّع المعادلة ثم أبسط وجرّر فيكون لك

$\text{مح} = \sqrt{\frac{\text{ش}}{\text{ش}}} \times \text{مض}$. وحيث أن ش تساوي واحداً لأنها وحدة المقياس فيكفي أن تكون المعادلة هكذا

$$\text{مح} = \sqrt{\text{ش}} \times \text{مض} \qquad \text{معادلة (٦)}$$

بالأرقام : $\text{مح في سنة} = \sqrt{٩٫٥٤} \times \text{مض} = ٣٫٠٨ \text{ مض}$

معادلة أخرى أبسط

أبدل في معادلة (٥) الواردة أعلاه قيمة هـ التي في معادلة (٤ . ج)

$$\text{مح في سنة} = \frac{\frac{١}{٢} \times \frac{\text{س}^{٢} \times \text{ش}}{٢}}{\text{س} \times \text{ش}} \times \text{مض} \text{ ــ اذن } \text{مح} = \frac{\text{س}}{٦} \qquad \text{معادلة (٧)}$$

بالارقام ــ $\text{مح في سنة} = \frac{١٨٫٥}{٦} = ٣٫٠٩ \text{ مض}$ نفس النتيجة

يمكنك أن تمتحن المعادلات ٥و٦ و٧ في جميع السيارات بالقياس إلى الأرض فتجدها جميعها صادقة

وأخيراً لا يبقى عندك شك بأن قانون كبلر خطأ ، ولعلَّ فاضـلاً من القراء يكتشف في هذا البيان خطأ فيؤيد قانون كبلر . وأكون له من الشاكرين

جميع الأرقام المذكورة أعلاه وفي الجدول أدناه تقريبية . وقد أخذنا الأبعاد الوسطى للسيارات وغضضنا النظر عن العوامل الفلكية التي تحدث اخلالاً aberration زهيداً بالقانون الرياضي

جدول أبعاد السيارات عن الشمس

ومرعاتها وسني مداراتها في أفلاكها ومساحات أفلاكها

على اعتبار أن بعد الارض عن سطح الشمس هو المقياس الفلكي وبعدها الحقيقي عن سطح الشمس نحو ٩٢ مليون ميل وعن مركزها نحو ٩٢،٨٧٠،٠٠٠ ومساحة فلك الارض مقياس مساحي فلكي واحد

اسم السيار	البعد عن الشمس بالمقياس الفلكي	السرعة بالأميال	مدة الدورة بالسنين	ما يمسحه خط البعد في سنة
عطارد	٠،٣٨٧	٢٩،٧٣	٠،٢٤	٠،٦١٥ من مساحة فلك الارض
الزُهرة	٠،٢٧٣	٢١،٧	٠،٦٢	٠،٨٥٣ « « «
الأرض	١ وحدة	١٨،٥	١ سنة	١ وحدة مساحية
المريخ	١،٥٢٣٦	١٥	١،٨٨	١،٢٣٠ وحدة مساحية
المشتري	٥،٢٠٢٨	٨،١	١١،٨٦	٢،٢٨٤ » »
زحل	٩،٥٣٨٨	٦	٢٩،٤٦	٣،٠٨ » »
اورانوس	١٩،١٩١	٤،٢	٨٤،٧٨	٤،٤ » »
نبتون	٣٠،٠٧	٣،٤	١٦٤،٧٨	٥،٤٤ » »
بلوتو	٣٩،٨	٢،٩	٢٤٢ تقريباً	٦،٣٨ » »

نقولا الحداد

[المقتطف] إطلع أحد أصدقائنا الفلكيين ذوي العلم الثابت على تجربة من هذا المقال فتفضل بالآتي :

« تبين لي أن ليست هناك أخطاء انما كل الذي حدث هو ان السرعة الخطية المأخوذة من مجلد دوجان ليست هي السرعة التي يجب استعمالها ، لأن السرعـة الخطية تتألف من سرعتين :

احداهما متجهة على نصف قطر ، والأخرى عمودية عليه . وهذه السرعة تساوي

$$س^{٢} = ج\,(م + كَ)\left(\frac{٢}{س} - \frac{١}{ا}\right)$$

ج = ثابتة جوس

م = كتلة الشمس

كَ = كتلة الـكوكب

س = نصف القطر الموجه

ا = نصف المحور الأكبر في قطاع المدار

والسرعة التي تدخل في المساحة النصف قطرية هي السرعة العمودية على نصف قطر وليست السرعة الخطية .

أضف الى ذلك . ان هذه السرعة الخطية ليست السرعة الناتجة من دوران جسم في شكل دائرة ، وإنما هي السرعة النـاتجة من دوران جسم في شكل اهليلجي تحتل الشمس إحدى بؤرتيه . وقيمتها هي كما تبين آنفاً للقطع الناقص .

* * *

وما قول حضرة الفلـكي في نسبة مساحات أفلاك السيارات الى مساحة فلك الأرض .

ن . ح

مواليد اللبنانيين

في الأدب البرازيلي

لعلّ قرّاء المقتطف يسرّهم أن يعرفوا بعض النواحي من حياة النازحين إلى هذا القطر النائي وكيف يعيشون في المحيط الغريب عنهم في ميوله ومشاربه وأخلاقه وعاداته . لهذا أقوم بتحبير هذا المقال لا لارسم حياتهم التجارية — وهي شبيهة كل الشبه بحياة إخوانهم في مصر وفي كلّ محيطٍ نزلوه — بل لأرسمَ ناحية أهمّ وهي امتزاج أبنائهم في أدبِ الشعب الذي أمسوا منه وهو الشعبُ البرازيلي الذي له أدبه الراقي وتفكيره المتزن .

ولكنّني قبل أن أقوم بهذه المهمّة الشاقة أريد القول أن الأدب البرازيلي الذي له اليوم احترامهُ في العالم وخصوصاً في أميركا الجنوبية كأدب اجتماعي وإنساني وهو وليدُ الأدب الفرنسي الرفيع . فانّ ڤولتير وروسو ورينان وهوجو وأناطول فرانس وغيرهم من أعلام الفكر العالمي يحتلون من نفوس أدباء البرازيل ذات المنزلة التي يحتلونها من أدباء فرنسا نفسها وأدباء الشرق الأدنى على الأخص . وإنّ من يقرأ مؤلفات جوليو ريبيرو وبيلاك وكاسترو ألفِس وغيرهم يشعر حالاً بتأثير التفكير الفرنسي في الأدب البرازيلي . وعندي أنّ الضوء الذي كاد يخبو في فرنسا لتضعضع أبنائها وتوغلهم في المجون ما برح مشعّاً في نفوس أكثر أدباء البرازيل وبينهم الروائي الكبير والشاعر الوصّاف والكاتب العبقري النابغة .

ومن شواهد تأثير الثقافة الفرنسية في البرازيل إختمار الفكرة الفلسفية التي نشر لواءها المصلح الاجتماعي « أوغست كونت » فقد لقيت فكرته القيمة تربة صالحة في هذه البلاد . ومن أثرها البليغ أن أصحاب الرأي خلعوا الملكية مقيمين مكانها جمهورية متساهلة لها نظامها العادل وقانونها الانساني الحرّ .

هذا في الحقل الاجتماعي السياسي . أمّا في الحقل الأدبي فإننا نشعر بذلك التأثير في أشعار أولاڤو بيلاك أمير شعراء البرازيل . وفي روايات جوزي دي ألنكار . كبير روائي أميركا على الاطلاق .

وأنا لا أقصد في كلامي هـذا أن أقول إن هذين الأديبين كانا منتحلين أو نسخة طبق الأصل لمن تقدّمهما من أعلام لغة راسين كما هي الحال في بعض كتّـاب العربيّـة . كلاّ ما هذا الذي أقصد اليه . بل أريد القول أنهما خضعا للمدرسة الفرنسـية . فبيلاكْ شاعر رمزي خيالي . وقصيدته « وشوشة مع النجوم » هي من أروع ما أنتجته مخيلات الشـعراء على مدار العصور لما في أبياتها من رعشة لذيذة ساحرة ولما يحوِّمُ على ألفاظها من طنين مسكر كطنين الفراشة .

وإني ناقلٌ في ما يلي قصيدة لهذا الشاعر وهي عن الفينيقيين !!

الفينيقيون

ايها الشعب الطمّـاح الجريء الفتيّ !
من تلك البقعة الجدباء .
والأرض الرملية الوعثاء .
ما بين لبنـان وشاطىء سوريّـة — عن أيِّ طريق يفتش نظرُكَ الحادُّ الملظّى وقد أعشته الحمّـى؟ .

صور تبرزُ من زرقة الشاطىء البحريِّ متلألئةً وتسبحُ بيضاء في النور . وفي المياه المنشقّـة تتصادم المجاذيف على حين بغتة ويتموّجُ في الفضاء خشيش أشرعة الـكتّـان .

حيرام بصولجانه الأسود المتوهج بالحجارة الـكريمة يُحصي السفن المشدودة من خشب الأرز والممتلئة من أحمال الذهب والصفّـير والعقيق ومختلف السلع .

هبّـوا الى عرض المحيط !

وليباركْ ملخار سَفرَ الذين برحوا صيدا وجبيل وصور لـكي يوسعوا التجارة وينشروا العمران !!

* * *

أكتفي بما تقدّم لأعود الى مواليد اللبنانيّـين متحدّثاً عن المنزلة السامية التي يشغلونها اليوم في الأدب البرازيلي على ما له من المقام الرفيع في الآداب العالميّـة كما أظهرت في مستهلّ هذه العجالة فأشير في أول الأمر الى الشاعر « جميل المنصور حدّاد » صاحب المؤلّـفات القيّـمة في دولة البيان وعضو المجمع الأدبي في مدينة سان باولو

ومن مؤلفاته « صلوات سوداء » وهو ديوان شعري منحهُ المجمع العـلمي البرازيلي جائزة الشعر لما يتموّج في صفحاته من بيان متين الدعائم وقوّة غريبة على قرض الشعر . ومن ابداعه في هذا الديوان الشعري الرائع تصويرهُ للروح البشريّـة في حالات بؤسها وشقائها .

ولذلك دعاهُ « سلوات سوداء » لما يبطنهُ من وحشة وكآبة لعلَّه ورثهما عن أجداده اللبنانيّين الذين قال عنهم لامرتين ورينان انهم احتكروا العاطفة دون باقي الشعوب فهي تفرح مع أزهار الربيع وتئنُّ مع الجداول في فصل الخريف الحزين !

ويشغل ذات المكانة التي يشغلها جميل المنصور حدّاد ، شاعر وكاتب آخر يدعى «سلمون جورج » صاحب عدَّة مؤلفات حازت رضى كبار النقَّاد واعجابهم وهو عضو المجمع العلمي أيضاً . ومن مؤلفاته الشعريَّة ديوان « عربيّات » نحى فيه منحى كبار الشعراء المعاصرين . ومما يمتاز به هذا الشاعر انه خطيب فصيح اللسان وناثر بليغ يحملك نثره المشرّب بالعاطفة والمحلّى بالشعور والاحساس على حب الحياة بما فيها من أشواك دامية فأنت تُحبُّه ناقماً ساخطاً ، وتُحبُّه مداعباً مغازلاً . وأصدر أخيراً كتاباً نثريًّا بعنوان « جمال الموت » فجاء رافلاً ببيانٍ عذب كبيان فايكس فارس صاحب تلك الديباجة الساحرة التي لا يجهلها أحد من قرّاء الأدب العربي .

* * *

واني غير ناسٍ الكاتب الروائي والنقَّاد الراسخ القدم في دولة الأدب «ماريو نعمة» الذي تشوقك منه عاطفته المضطرمة المتخبّطة في ديجورة موحشة كئيبة . ولكم قرأت لهذا الأديب العبقري من فصول أدبيَّة مندّاة بقطرات قلب الفنان المفتون بالجمال فكان يغشاني لدى قراءتها ما يشبه الضباب العابق بالعطور مُطلاًّ منها على آفاق متموّجة بألوان الفجر والمغيب . وعلى الرغم من أنه لم يمسحْ عن وجهه وجبينه أحلام الشباب فقد زفَّ الى المجتمع البرازيلي عدداً من المؤلفات أحلّها أعلامُ الأدب في أجل منزلة من التقدير لما يطفو عليها من أمواج عاطفيّة تشعُّ بالاحساس والتصوُّر والالهام .

وهناك كتّابٌ وشعراء آخرون أخصُّ منهم بالذكر آميل فرحات وداود نصر وآميل كارلوس وساسيل غنّام فهم أصحاب مؤلفات هامّة تُرجم بعضها الى الفرنسية والانكليزية والاسبانية إذ صوّروا فيها حياة العمال وما يعانونه من شظف وتضوّر . ولعلَّ أبعدهم مدى وأرسخهم قدماً الروائي والنقَّاد المشهور — نعيم أبو عمره .

عرفتُ هذا الأديب من أعوام فعرفتُ فيه كاتباً خصباً فيّاضاً تنساقُ له الصور والمعاني انسياقَ المياه في منحدر الوادي . وقد طبعه الشرق — عن طريق الوراثة — بطابع يُعرف به وحده اليوم

ويمثلُ في رواياته وقصصه مذهبَ الاحتفاظ بالشباب الأزلي والتمتع بالحياة في شتى

ألوانها ومظاهرها . فهو من هذه الناحية يماثل « عمر الخيّام » الشاعر الفارسي الذي دعا الى تقديس الحياة والتقلّب في أحضانها .

ومن مؤلفاته كتاب في النقد تناول فيه أعلام الفكر الانساني مترسّماً مذاهبهم وطرق تفكيرهم وقد لقي هذا الكتاب استحساناً شاملاً من الاندية الفنية في البلاد . وقد أخرجت له المطابع أخيراً روايةً دلت على اقتداره في العالم الروائي ومنها « رواية في استانبول » وهي من ابتكاره معتمداً بوضعها على خياله وحسب !

تدور روايتهُ هذه على يقظة تركيا وقيامها بتلك الدعوة التجديدية بين أمم الشرق الاسلامي قاطبةً . وقد بزّ بيير لوتي وكلود فارير صديقيْ الشرق بوصفه للبوسفور وأحياء العاصمة التركية الاسطورية . فالحدائق الغارقة في الأحلام ، ومياه الخليج المفضضة بشعاع القمر ، والقصور المائجة في غمرة من نور الحسن والجمال . . فمطلع الفجر ، ومغيب الشمس ، ومجيء الربيع ، وذهاب الصيف . . ان كلّ هذه المشاهد تمهد لها رسوماً عاطفيةً رقيقة في روايته التي أهداها الى النفوس المتعطّشة الى الحب والسعادة من أبناء الشرق .

ويُدهشكَ من هذا الروائي المطبوع — عدا أسلوبه المعطّر ولغته الشيّقة — مقدرته العجيبة على ابتكار قصصه ورواياته . فان أشخاصه لا تمت بصلة الى المحيط الذي يعيش فيه كما يفعل أعلام الرواية المعاصرون إذ يبنون الموضوع متأثرين بالبيئة والجوّ على ما يحوطهما من حوادث وعبر ويشملهما من ظلمات وأشعة . بل يخرج أشخاصه من صميم نفسه الفنية بالصور والألوان خالعاً عليها من ظلال الحياة وأنوارها غلائل شفافة . وهذه القدرة على خلق أشخاص تتذوق في كل جارحة من جوارحها وفي كل حاسة من حواسها حلاوة الأمل ومرارة الألم لم تتفق الا للقليلين من جبابرة الفن الروائي ناهيك بخيال وثاب يحمل تحت أجنحته الذهبية احساس الشاعر وعبقرية الحفار الذي يجبل من تذكاراته وأحلامه تماثيل للحياة !

ولا أنسى في هذا المجال أن أشير الى أديب لغوي مدقق يجيد اللغة العربية ككبار فحولها وأعلامها هو الأستاذ فؤاد عمر واضع أهم كتاب في شوارد اللغة البرتغالية وصلتها باللغات الشرقية وعلى الأخص بالعربية . وقد وصف كبار اللغويين في البلاد كتاب الأستاذ فؤاد عمر بأنه فتح مبين في هذه الأبحاث الغامضة التي لا يستوعبها الا أصحاب المواهب النيرة . ومما يمتاز به هذا العالم الخبير بأصول اللغات حبه للبنان ومعرفته الواسعة لتاريخه وآدابه معرفة صحيحة اعتقد أن رجال التاريخ واللغة كاليازجي والبستاني والشدياق

والشرتوني يحسدونه عليها. وكتابه هذا حفز وزارة التعليم الى انشاء كرسي للعربية في أهم جامعة في البلاد. وقد دُعيَ في أول الأمر الى تولي هذا المنصب الرفيع فاعتذر مكرساً مواهبه للتأليف. لكنه عاد أخيراً الى إشغال منصبه في الجامعة نظراً لاخفاق المعتمد الاول وقصر باعه في هذه العلوم الدقيقة.

ويعني اليوم الأستاذ فؤاد نمر بوضع قاموس عربي جامع للأوضاع الحديثة التي عجزت المجامع العلمية في الشرق العربي وعلى الأخص في مصر عن اختيار ألفاظ موافقة لها. وعندي أن هذا العالم البصير سيوفق الى خدمة اللغة وتسهيل تلك المعميات نظراً لتضلعه من عدة لغات تضلعاً وثيق العرى. فقد درس هذه اللغات درساً علميّاً صحيحاً على أكبر العلماء في جامعة « السوربون » الفرنسية وعلى مشاهير المستشرقين في المانيا. وهو يرى أن أغلب الذين اشتغلوا بوضع القواميس العربية لم يأتوا بالشيء الجديد بل زادوا على اللغة مصيبة جديدة كانت بغنى عن احتمالها. وعندي ان هذا النقص في تأليف الموسوعات اللغوية عائد الى عجز المؤلفين وقصر باعهم في معرفة أصول اللغات. ولو لزم السكوت اولئك المتطفلون لكانوا أحسنوا الى نفوسهم والى هذه اللغة المسكينة التي يوسعونها تهشيماً، ويعيثون بها خراباً.

***

وبعد. فهذه لمحة موجزة عن بعض مواليد اللبنانيين في البرازيل ممن اعتنقوا مذهب الأدب محلقين مع نسور الالهام في سمائه.

وفي اعتقادي انه لن يطول الزمن حتى تتفتق عبقريات هؤلاء الأدباء عن بيان عالمي النزعة فيتحفون الانسانية بأدب جديد كانت شواطىء البحر المتوسط مهداً له في الماضي البعيد. واذا قات تلك الجماعات المتسكعة الهاجعة في رقادها الأبدي أن تنشد بعد الأجيال المتعاقبة أغاني الخلود، فلن يفوت أبناءها واذ ارتدوا ثياباً غير ثيابها أن ينشروا على الدنيا انجيل الحق والأمل والمحبة!!

يوسف البعيني

البرازيل « من العصبة الاندلسية »

الشخصية والحرية

حقّاً ان الإنسان لغز في هذه الدنيا بل قد يكون أعظم لغز فيها ! إنه لغز لا لأنه حيوان . ولا لأنه كائن اجتماعيّ ولا لأنه جزء من الطبيعة والمجتمع ، بل هو لغز لأنه شخص وبعبارة أدق لأن له شخصية. وليست الدنيا بحذافيرها شيئاً مذكوراً بجانب الشخصية الانسانية

يعيش الإنسان مجاهداً . مهموماً مفكراً ، يريد أن يعلم ، من هو ؟ ومن أين أتى ؟ وإلى أين يذهب ؟ إن في مقدور الإنسان أن يعرف نفسه من جهة تساميه وإنحطاطه ، إما بنوره أو بإلهامه أو بظلمته أو بإحساسه الباطني . إن في مقدوره ذلك لأنه كائن مزدوج ومتناقض ، شبيهٌ بالله وشبيهٌ بالحيوان . فهو سام وسافل ، حُر ومستعبد ، صالح للرقي والإنحطاط ، قادرٌ على الحب المفرط والتضحية وبذل النفس ، كما إنه قادر على منتهى القسوة والغلظة والأنانية التي لا حد لها .

الإنسان ، من حيث إنه كائن منحط ، يعمل وفقاً للمنافع الاقتصادية والبواعث الشهوية والهواجس النفسية ، غير إنه يألم لسقوطه ويؤنبه ضميره إذا اقترف الآثام ويرغب فيما هو خير

إن الشخصية الباطنة في الإنسان تنم عن طبيعة أرقى واستعداد أرقى .

الشخصية لا مثيل لها في العالم ولا يوزن بها شيء ولا يوضع شيء في مستواها .

الشخصية هي العالم الأصغر . وهي ليست جزءاً منه . وهذا ما جعله لغزاً . وشخصية الإنسان الفـرْد لا يشترك فيها أحد . فكلٌ له شخصية متغايرة .

الشخصية ليست جزءاً من العالم ، بل العالم جزء منها . وهي ليست مادة ، فان ذلك رأي الماديين الذين لا يعترفون بالروح . وهي ليست شيئاً كـكل شيء في الدنيا ولا كجزء منها كما يذهب الى ذلك علماء النفس والاجتماع . إذ لو كانت كذلك ، لما كانت لغزاً أو سرّاً من الأسرار

الشخصية ، جوهرٌ لا نهاية له ينطوي فيه سر الوجود . هي دائمة في تغير وهي الوحدة .

الشخصية ليست في حالة جمود بل تتطور وتخصب . وهي الانسان المثالي وليست كائناً حيّاً فحسب بل هي كائن حر أيضاً . إنها انتصار الروح على الطبيعة .

ان شكل الانسان الذي ندركه بحواسنا لا يتوقف على المادة بل ان معناه الانتصار على المادة

الشخصية خالدة والموت لا يضع حدًّا لوجود الشخصية الباطني وهي التي تحب وتبغض.

الانسان يبحث في قرارة نفسه عن الحرية دائماً ويصبو إليها. وبذلك يسهل وقوعه في العبودية. فهو لذلك ملك وعبد. وسيّد ومسود. بيد ان العبودية خارجة عن الانسان. لكن الحرية متأصلة في قرارة نفسه. فهو لذلك كائن حرّ وحيّ، يقاوم الاستعباد بطبيعته، فقد خلقه الله حرًّا. واذا استعبد الإنسان غيره، فانه إنما يستعبد نفسه. إذ المسيطر على الناس عبد للدنيا، عبد للجماعات التي يتسلط عليها، إذ لولاهم لما تحققت رغبته ولما نفذت مشيئته. فالمسيطر المستبد في حاجة الى من يسيطر عليه وصاحب الحاجة عبد.

الإنسان ظالم إلى حدٍّ ما، ظالم في الحكومة، ظالم في أسرته، ظالم في حانوته، ظالم في وظيفته. إن له ميلاً لأن يظلم من حوله. وهو ظالم في حقده وفي حبه. وما الغيرة إلاّ مظهر من مظاهر الظلم بشكل سامٍ.

إنه ظالم لنفسه بالعقائد الكاذبة والأفكار الخاطئة وبالخوف والأنانية التي هي أفظع أنواع الظلم. يظلم نفسه بشعوره بالضعف ونزوعه الشديد الى القوة والسيادة. وهو برغبته في الاستعباد، لا يستعبد غيره فحسب، بل يستعبد نفسه أيضاً. وإن أول رذيلة هي تسلط الإنسان على الإنسان والحط من مستوى قدره. أما الحر فلا يرغب في التسلط على أحد. وأفظع من ذلك كله تسلط عبد صار سيّداً.

ليس للمستبد وجود بغير الجمهور. إلاّ أنّ التطلع للقوّة يناقض عظمة الانسان وشرفه وحريته. وقد حُرم الانسان حريته وصار عبداً لا بالقوّة الجسمانية بل بوسائل أخرى كثيرة كالتهديد والبيئة. والاستعباد قتل. وقد يصير الإنسان عبداً للرأي العام والعادات والواجبات التي يفرضها عليه المجتمع.

وقد يجد الإنسان نفسه مهدداً بالموت جوعاً فيفقد حريته. والمال يمنح صاحبه الاستقلال وفقده يوجده في عوز. والصدق مرتبط بالحرية دائماً. أما العبودية فإنكار للصدق والخوف منه. وأن محبة الصدق انتصار للحرية. والعبودية خضوع وإذلال. وكما أن الإنسان الحر لا يخضع لأحدٍ ولا ينحني لأحدٍ، فهو كذلك لا يحب أن يكون سيداً متحكماً

الإنسان ليس عبداً للطبيعة والاجتماع فحسب، بل هو عبدٌ للمدنية التي ابتدعها تخلصاً من القوى الطبيعية فاخترع الآلات ووضعها بينه وبين الطبيعة وأخذ يدخل عليها التحسينات، فضعفت قوّته الجسمانية وحلّت الآلات محلها وتعاون مع أخيه لمقاومة الطبيعة وتنظيم المجتمع غير أنه شرع يظلم غيره لهذه الغاية فنجم عن ذلك علاقة السيد بالعبد.

وقد تطوّرت المدنية بظلم الجماعات وتسخيرها. كذلك ثار تولستوي وروسو على المدنية

لأنها مدنية كاذبة ، مؤسسة على الاستعباد .

إن المدنيـة ليست الهدف الأخير لوجود الإنسانية وهي تعد بتحريره . ولا نزاع في أنها تعمل على تحريره ولكنها تجر معها الاستعباد حتى صار الانسان عبداً لها .

الانسان عبد لمعبودات شتى ابتدعها وهي جميعاً ليست في قرارة نفسه بل خارجها . فالقوّة الخارجة المحيطة به هي التي تستعبده فهو عبد للشهوة الجنسية ، بيد أنه يخجل عند ذكرها . هذا ولم تتقدم المباحث الجنسية إلاّ حديثاً . كذلك هو عبد للحب . وهناك فرق بين الحب الجنسي والحب الروحاني . فالأول يفضي إلى العبودية ويسبّب الشقاء ويجر المصائب . وللعبودية الجنسية ارتباط بالمال . وتميل المرأة عادةً إلى العبودية والى استعباد غيرها في آن واحد . فالإنسان في حالة عبودية لكنه لا يفطن غالباً الى أنه عبد وانه يحب العبودية أحياناً إلاّ أنه يصبو الى الحرية من أعماق نفسه . وليست الحرية شيئاً سهلاً بل هي صعبة . ومن السهل أن يظل الإنسان عبداً .

إنّ محبة الحرية والسعي إليها والمكافحة في سبيل الحصول عليها ، دليلٌ على الرقيّ والتقدم . وأن في الانسان عنصراً روحيًّا يأبى العبودية وأنّ تحريره ليس مطلب الطبيعة أو العقل أو الاجتماع كما قد يظن غالباً بل هو مطلب الروح وليس الإنسان روحيًّا فحسب بل هو حيوانٌ أيضاً ومظهر للعالم الماديّ بيد أنه مع هذا روح . كذلك الروح حرية .

إنّ التحرُّر الروحي انتصار على القوة الأجنبيـة عن الإنسان غير أنه يصير عبداً من غير أن يفطن الى ذلك . ومن هذا يتبين تعقد الطبيعة الإنسانية . وقد يتخلص الإنسان من نوع من العبودية ويقع في نوع آخر منها . والمسألة المهمة في موضوعنا هو الخلاص نهائيًّا من العبودية . فالدنيا شرٌّ لا لأن المادة فيها بل لأنها ليست حرّة ولأنها مستعبدة . وانتصار الروح على العبودية هو انتصار على الخوف من الحياة ومن الموت . إذ الخوف عبودية وهو يفضي الى الكذب . ويظن الانسان أنه يحمي نفسه بالكذب . وكما أنه يخاف أن يموت فكذلك يخاف أن يموت غيره . وهو يرتكب جريمة القتل بسبب الخوف . كذلك الحال في الحروب .

واذا كانت المدنية الحاضرة قد استعبدت الإنسان الى أقصى حد بسبب تسلط القوي على الضعيف والاستعمار والجشع وما جرّته الحروب من محن وخراب فهل يأتي زمن يتخلص الإنسان فيه من تلك العبودية وتفوز الروح بالحرية ؟

محمد رضا

فــراق ...

سائرانْ — تحت سكين القدَرْ

صامتانِ — غـير دمعٍ ينهمر

***

من رآى روحين في كفَّـــين كالضـوء خُـفـوقا ؟

من رآى قلبَيْن في قيدين بالذبح هُـريقا ؟

من رآى ؟ .. هول هذا المنظر الدامي .. مُـطيقا !

***

مثـل قربانٍ على الهيكل يا ربّاه كنّـا

ننـظر الأعين ترمانا ... يميناً ما نظرنا

في يد الأقـدار سكينٌ قد استُـلَّ علينـا

أهنـا يا مُـنيتي حقّـا الى التوديع جئنا ؟

إنها للّحظة الـكبرى .. فماذا لو جُـنِـنّـا ...

***

وهوَتْ بين ذراعيَّ كذعورٍ مُـســاقِ

وضَمَمْتُ الصدرَ للصدر فأنَّتْ في احتراقِ
وطوَتْ كفًّا على كفِّي كمَنْ يخشى انطلاقي
كشَّر الدهر إلينا عن تهاويل الفراق
فحجبنا العين بالدمع ... وغبنا في العناق . .

***

فُزّع القلبان إمَّا صرخةٌ دوَّتْ دَويَّا
صمَّت الآذان منا فترنَّحنا مليَّا
مدَّه الدهرُ ذراعاً ضُمِّنت كفًّا عتيًّا
نزع الروح من الجثمان فانقضَّ هويًّا

***

ها هما الصبان قد باتا . . جريحاً وذبيحا
فوق انقاض الأماني لا ترى الا طريحا
وهناك في حمى الليل . . تلمَّسْ ذا الضريحا
إنه للثُكل والدمع على النأي أتيحا ...

القاهرة

محمد فهمي

باب المراسلة والمناظرة

ملاحظات في أبيات

كنت قد نقدت قصيدة « برلمان الطبيعة » في مقتطف ابريل سنة ١٩٤٧ من جهة إثبات همزة الوصل بعد (ال) أداة التعريف وأبنت بأن الاثبات أحسن من كسر اللام الساكنة لأنّ اللفظ يثقل على اللسان فيكون البيت بطبيعة الحال غير فصيح فهو يقارب جزء بيت المتنبي المعاب عليه فصاحة وهو (ولم يحلل الأمر الذي هو حالل) إذ أن فك الادغام في حالة الجزم جائز نحويًّا وإذن فلم يبق للعيب غير الثقَل . وهنا لا بدّ وأن أشير الى وقوع غفلة أخرى في القصيدة وفي أروع بيت من أبياتها — حسب اعتقادي — وهو البيت الثاني وهذا نصه .

فأحجم فاقد العبرات عنه وأقدم من له دمعٌ فنابا

لاهكّ أن السحاب غير عاقل وأن (من) اسم الموصول يجب أن يستعمل للعاقل كما هو معروف في القواعد النحوية وأنّ (ما) تستعمل لغير العاقل فإذن يجب أن تستبدل (من بما) فيكون العجز (وأقدم ما له دمعٌ فنابا) وأروع من هذا لو وضعنا (كل ذي) أي (وأقدم كلُّ ذي دمع فنابا) .

ولكن بعد هذا قرأت قصيدة — في المقتطف الأغر وفي عدد إبريل — بعنوان غروب شمس للشاعر القدير حسن كامل الصير في وجاء فيها البيتان التاليان — وهما من الوافر كقصيدتهما — مكسوري لام (ال التعريف) درجاً لهمزة الوصل واستقامة للوزن الشعري وإني أرى أن الأصح هو القطع أو سبك البيتين بحيث تكون همزة الوصل بين كلمتين كيما تدرج كما هو متعارف عليه . وإني إذ أقول هذا استند في قولي على الأسباب التالية بعد درج البيتين بنصهما وهو :

وتسلبنا الأعزّ وليس عرض بمانع كفها عن الاغتصاب
طواه الموت مخترماً عجولاً كما يطوى الحديث بالاقتضاب

الأسباب

١ — توالي المتحركات يحدث كما أبنت ثقلاً في لفظ الكلمة سواء أكان في النظم أو النثر وهو غير مقبول عند أهل الفصاحة . أفلا نرى الثقل في جملة (لم يكمل الانتخاب) بكسر اللامين على التوالي .

٢ — ان اداة التعريف (أل) تكون جزءاً من الكلمة فهي تضيف الى الكلمة معاني جديدة فهي اما عهدية أو جنسية والعهدية اما أن تكون ذكرية نحو (فيها مصباحٌ المصباحُ في زجاجة) أو ذهنية نحو (إذ هما في الغار) أو حضورية وهي الواقعة بعد اسم الاشارة نحو جاء هذا الرجلُ أو بعد أي مثل يا أيها الرجل أو إذا الفجائية نحو (خرجت فاذا الأسد) والجنسية اما لاستغراق الأفراد نحو (وخلق الانسان ضعيفاً) وهي التي تخلفها (كل) واما لاستغراق خصائص الأفراد وهي التي تخلفها كل مجازاً نحو (أنت الرجل) أي الجامع لأوصاف الرجال واما لبيان الجنس نحو (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وتكون زائدة لازمة وغير لازمة فاللازمة كالتي في الأسماء الموصولة والتي في الأعلام عند وضعها كالنصر والحرث والنعمان وهي لا تفيد تعريفاً — وغير اللازمة وهي الداخلة اضطراراً على العلم كقول الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً شديداً باعباء الخلافة كاهله

وكالداخلة على الحال والتميز نحو ادخلوا الأول فالأول أي مرتبين ونحو(وطبت النفسَ يا قيس عن عمرو) وهي لا تفيد تعريفاً ولا شيء أدل على أنها من صلب الكلمة اننا عند ما نعرب المحلي بها لا نفردها عنه كبقية الحروف والأدوات .

٣ — لما عرفنا أن اداة التعريف جزء من الكلمة . ويقول النحاة أنه لا يوجد في العربية حرفان ساكنان في كلمة واحدة الا عند الوقف نحو هذا (كتاب) أو في حرف لين بعده حرف مدغم نحو خاصة ومادة ودابة وحاسة فاذن على ما نكسر (اللام) في كلمة (الاستقلال) او (الاغتصاب)

٤ — مما يؤيد ثبوت همزة الوصل بعد أداة التعريف هو وجود الحركات بتفصيل في القرآن الكريم . فقد جاءت (الإنشراح) بسكون اللام وَاثبات الهمزة مكسورة في طبع برومين سنة ١٣٥٨ ه وكذلك تجد (سورة الإنشقاق) ثابتة رسم الهمزة ومجروراتها في طبع المطبعة المرتضوية في النجف لسنة ١٣٥٢ه وما طبع عليها حديثاً . وكذلك سورة (الإنفطار) في

طبع مصلحة المساحة بالجيزة سنة ١٣٤٢ هـ وكذلك في المصحف الشريف طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٣٢ هـ يثبت فيها رسم الهمزة المكسورة ولا شك أن هذه المصاحف مذيلة بتواقيع علماء معلومين أمثال حفني ناصف والاسكندري وغيرهم ممن أشرف على التحركات ووضعها في محلها منها .

٥ — اذن لم يبق للدرج الا طريقة واحدة وهي حذف الهمزة واعطاء حركتها للحرف الذي قبلها وهذه ليست بقاعدة اذ انها تنطبق على الكلمات التي تدور على اللسان بكثرة مثل خذ . ومر . وسل . وهذه الطريقة تستوي فيها همزة القطع والوصل اذ جاء في الكامل المبرد في الجزء الثاني ان الهمزة قد تخفف فيقال (منَ بُوك) أي من أبوك ومراة تخفف فيقال (مَرَةٌ) فالملاحظ ان الهمزة الأصلية وهمزة القطع خففتا واعطيت حركتهما لما قبلهما وهذه القاعدة لو يساو عليها لما بقي فرق بين همزة القطع والوصل والهمزات الأخر. وختاماً ان همزة الوصل يجب أن تثبت بعد أداة التعريف في النظم والنثر وإذا ما احتجنا الى اعدامها لوزن الشعر يجب أن نقطعها لا أن نتخلص من ضرورة بضرورة غير مرعية حسب سنن الاقدمين .

البصرة — العراق سمير الشعر

توضيح

طالعنا في باب المراسلة والمناظرة من مقتطف ابريل سنة ١٩٤٧ تنبيهين للأستاذ رشيد السعد — هما ، شهد الله ، في حاجة إلى تنبيه أو توجيه —

أما أولها فهو استدراكه على بيت وارد بقصيدة « برلمان الطبيعة » ودفعه علة وهمية بارتكابه علة حقيقية لا داعي لها ، ولا طائل تحتها — فقد ورد بيت الشاعر هكذا .

لقد رشحت يا أفق السحابا وقد أجرت رياحك الانتخابا

وأراد له الناقد أن يكون هكذا :

لقد رشحت يا أفق السحابا وقد أجرت رياحك إنتخابا

فلم يفلح فيما أفلح فيه الشاعر ، وإن عزز رأيه ببرهان سقيم ، من قول « أبي العتاهية وابن الحطيم » — والله تعالى في كتابه يقول « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » وصدق الله العظيم ، وليس بعد كلام الله برهان .

وأما ثانيهما — فخفيف خفيف ، يحمل في ثناياه ، أثر التصحيف ، وهأنذا أوجه إليك الرأي السديد — يا رشيد — وتحياتي إليك .

صفط جدام — تلا محمد الصادق عمار
شاعر الوادي

النظائر وكيمياء النواة

رئيس تحرير المقتطف

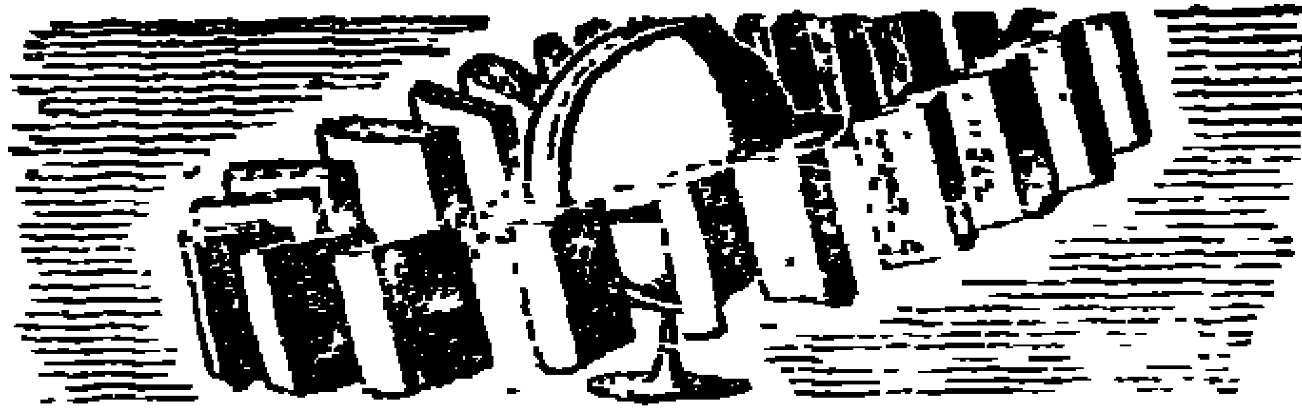
قرأت في مجلة المقتطف الغراء عدد مارس ، مقالاً يستلفت الانتباه لأحد العلماء ، عنوانه « النظائر وكيمياء النواة » . فأرجو أن تسمحوا لي بهذه الكلمة تعليقاً عليه .

لا شبهة عندي بأن صاحب مثل هذا البحث هو أحد كبار الأساتذة ، ولا شكَّ عندي أيضاً بأن ذلك البحث النفيس الذي عالجه من خير ما كُتب بل خير ما كتب في بابه في المجلات الشرقية ، لأنه دقيق للغاية وخطير للغاية . وأرجو من علمائنا ألاَّ يمروا به مرّ الكرام عند تصفحهم إيَّاه لأنه مادّة جد خصبة للتحقيق والتمحيص . ويقيني أنه إذا كان الأستاذ الشرايحة على حق في ما ذهب إليه وارتآه ، فهو فتح جديد في الفكر العلمي العربي وتباشير ثورة في علم الكيمياء يجب أن تستدعي اهتمام المسؤولين .

لا أنكر بأن البحث قوي وفريد مما يدل على طول باع كاتبه ورسوخ قدمه في علوم الطبيعة وأعتقد بأن حضرة الأستاذ لم يُسبق الى تلك الفكرة البكر ، إذ لا نعلم أن أحداً من علمائنا تصدّى لهذا الموضوع العريض — كما لا نعلم أن مجلة سبقت سيدة مجلات الشرق — المقتطف — الى نشر مثل تلك الجرأة العلمية الفريدة ، التي اذا صحت فانها تدل دلالة واضحة على استعداد العربي للسير في طليعة ركب الحضارة العلمية الحديثة .

أنا لا أعرف حضرة الأستاذ الكبير ولكن يتراءى لي من نتاجه أنه من المخضرمين ذوي الناب الأزرق في هذه البحوث . ولهذا فانني أطالب بشدة كبار علمائنا وأساتذتنا أن يناظروه ويناقشوه نقاشاً علميًّا صارماً ، ويجلوا لنا حقيقة أقواله ويفندوها ويدلونا على ما يصح منها وما لا يصح إذا كانت هناك حقائق بعيدة الغور والادراك علينا . أو يعلنوا بصراحة العلماء وشجاعتهم بأن هذا الباحث العربي ولا سلاح بيده سوى فكر وثَّاب وذهن وقَّاد قد استطاع أن يكشف لنا عن أمور هامة في فهمنا لكيمياء النواة ، وإنه من الملهمين السباقين الى القول بأن قوانين الكيمياء الحديثة بل علم الكيمياء بأجمعه أصبح مزعزع الأسس وإنه بحاجة ماسَّة الى تنظيم جديد شامل .

حمدي الطويل



مكتبة المقتطف

الله

كتاب في نشأة العقيدة الالهية

بقلم : عباس محمود العقاد : ٢٩٧ صفحة من القطع الكبير : دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٤٧

في مفتتح هذا العدد من المقتطف بحث في تأملات ونقود دارت حول هذا الكتاب . وقد نوّهنا هناك بأننا سنعود في باب المكتبة الى نقد بعض مصطلحات استعملت فيه ولا نوافق عليها . واليك بعضها :

١ — ملكة الاستيحاء (ص ٨) Animism : وحقيقتها « الفكرة الروحانية » فان مقالة أرسطوطاليس في الروح اسمها عند العارفين de anima ومنها جرى الكتّاب على اتخاذ هذا الاصطلاح رأساً للكلام في الفكرة أو المذهب الروحاني : جاء في المعجم الانسيكلوبيذي (ص ٢٠٥ ج ١)

Animism : From L. anima = the principle of animal life. The doctrine that the phenomena of life in animals is caused by the presence of a soul or spirit ; and that the functions of plants are carried out by the principle of life, and not by any chemical or material causes. (Webster).

٢ — التعدد (ص ٢١) — Polytheism وهو الاشراك أو الشرك وهو اصطلاح قديم جار على الألسنة وتضمنته المؤلفات العربية من أقدم عصور البحث الفلسفي فيها . واستعمل القرآن كلمة « شركاء » و « يشركون » .

٣ — التمييز والترجيح (ص ٢١) : Henotheism وهو الإفراد ، وهو اصطلاح وضعه (ماكس مولر) لطور من أطوار المعتقد الديني ينفرد كل معبود فيه بذاته فيعبد ويعلى

اليه منفصلاً عن بقية الآلهة . جاء في المعجم الانسكلوبيذي (١٦٧ ج ٤) .

Henotheism : Comp. Relig. The name introduced by Max Muller for a phase of religious belief when each divinity seems to stand alone, and to be adored and prayed to , to the exclusion of the rest.

٤ — الوحدانية (ص ٢١) Monotheism وهي التوحيد ؟ لأن التوحيد اسم لحالة الاعتقاد بالله واحد . أما الوحدانية فمن صفاته .

٥ — بسيشي (ص ٢٧) : Psyche وهي بسيكي اذا تحرينا النطق باللغات الحديثة وبسوخي اذا تحرينا النطق باللغة اليونانية . وفي الأصل اسم فتاة فريدة الجمال ذكرتها اسطورة يونانية وتناقلها الشعراء والكتاب . ثم عاد الكاتب فرسم هذه الكلمة سيكي (ص ١٣١) .

٦ — كتاب المبادىء (ص ٧٠) The Beginning وهو كتاب « البدء » لأن المبادىء Principles

٧ — ناتاهس (ص ١١٤) وهو نناخوس بحسب النطق اليوناني . وفي نفس الصفحة كلمة « فريجية » وهي فروغية نصًّا .

٨ — الشيميون (ص١١٤) وهم الخيخيميون.

٩ — فيثاعورث (ص ١٢٣) وهو فيثاغورس ، واكسينوفان : وهو إكزينوفانس .

١٠ — كرونوس Kronos وكرونوس Chronos (ص ١٣١) ، والثاني إخرونوس لا غير ذلك .

١١ — كليانتس (ص ١٣٢) Cleanthes وهو إقليانثس : Cleanthes

١٢ — شريسبس (ص ١٣٣) Chrysippus وهو خروسبّوس لا غيره .

١٣ — الثنائية (ص ١٩٨) Dialectic وهي الجدلية .

الى جانب هذا نجد في الكتاب مصطلحات كثيرة توخى فيها المؤلف الدقة كل الدقة والكتاب في مجموعه جيد البحث حسن التبويب ، وهو فوق ذلك عمل فرد في المؤلفات الحديثة. ا . م .

١ — أصراعٌ أم تعاونٌ في فلسطين ؟

عدد خاص من مجلة الضاد في ٥٢ صفحة من قطع المقتطف

مجلة « الضاد » التي تصدر في حلب منذ سبعة عشر عاماً معرض من معارض الفكر تجلو لقرائها في كل شهر الطريف من ألوان الأدب والفن والعلوم . يشرف على تحريرها أديب ضليع وشاعر مبدع ، هو الأستاذ عبدالله يوركي حلاق صاحب ديوان « خيوط الغمام » الذي صدر منذ أعوام ، وليس لنا في وصف شعره إلاَّ أن نستعير بيتاً من ديوانه هو :

أشعاره ! الله في أشعــاره خطّت على صفحــاته بدماء

وهو من خــلال آثاره ومن النزعة التي تبدو في مجلته عربيٌّ متفانٍ في عروبتــه يدين بوحدة العروبة غير ناظرٍ الى اختلاف في العقيدة والمذهب . وهو القائل :

يا إلهي أنت ينبوع النــدى فاسْقِ أهل الأرض ماءَ الرحمةِ
دينــك القدسيُّ قد علّمني أن أرى الناس جميعاً إخوتي
إنَّ للاسلام عنــدي مثلما للنصارى من حقوق الحرمة

لذلك ليس عجيباً أن تدفعه حميّته الوطنية وعروبته إلى أن يساهم في قضية العرب الكبرى أمام اطماع الصهيونيين ومن يدفعونهم في الوطن العربي المفدّى « فلسطين » فيخصص عدداً من مجلته الناهضة لهذا الموضوع الحيوي .

وقد اختــار لهذا العدد رسالة من أنفس ما كتب في هذا الموضوع الخطير وضعها بالانجليزية الدكتور جابر شبلي أستاذ الرياضيات في كلية بنسلفانيا وهو من اللبنانيين الذين تجنسوا بالجنسية الأمريكية أراد بوضعه خدمة العروبة التي ينتسب اليها بالميلاد .

ونقلها الى العربية لمجلة الضاد أديب من أبرز أدباء العربية ومن أرقهم أسلوباً وأنصعهم عبارة ولــكنه آثر كتمان اسمه وان نمَّ عليــه قلمه . وقد ساعده أسلوبه القوي ووطنيتــه الحارة ومعلوماته في هذا الموضوع على جلاء تلك القضية . وإنها لخدمة جليلة لقضية العرب ان يشترك ذلك الثالوث في بسط هــذا الموضوع — ذلك الثالوث هو : المؤلف الذي دفعته قومية أجداده والمترجم الذي دفعته وطنيته الى نقل هذه الرسالة الى لغة أمته وصاحب الضاد الذي حملته عروبته على تخصيص عدد من مجلته لهذه الرسالة وابرازها في هذا الثوب القشيب .

وقد بين المؤلف في مطلع رسالته حقيقة الموضوع وهي ان « فلسطين هي الجسر الوحيد

بين العشرين مليوناً من العرب في آسيا الغربية ، وبين الاربعين مليوناً من العرب فيأفريقيا الشرقية وتحويلها الى دولة يهودية يفرّق العالم العربيّ ويحول دون اتحاده » .

ثم تناول حقيقة الموقف وكيف « عاش العرب واليهود في فلسطين وسائر الأقطار العربية جنباً الى جنب مدة ثلاثة عشر قرناً بود وصفاء ، ولو ان الزعماء اليهود عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حاولوا كسب صداقة العرب والوصول الى تفاهم معهم أو تقدموا للتعاون مع الشعب العربي في بناء فلسطين وسائر الأقطار العربية الأخرى التي نجم تأخرها عن سوء الادارة التركية ، لرحب العرب باليهود الراغبين في دخول فلسطين كأصدقاء ومواطنين مماثلين لهم في الحقوق ، ولما كانت هناك مشكلة فلسطينية » . ثم تكلم عن أهداف الصهيونية والصلات التاريخية فدحض ادعاء الصهيونيين بصلاتهم بفلسطين وكيف انهم دخلوها وخلفوها ثلاث مرات على أقل تقدير في حين أن العرب عاشوا فيها باستمرار ما يزيد عن أربعة آلاف سنة . وتساءل لماذا يجدر أن يراعى الشعور الديني لاثنى عشر مليوناً من اليهود ولا يراعى شعور ٣٠٠ مليون من المسلمين ، وتناول مسألة فلسطين كلجأ فأوضح ان الميل المربع الواحد في فلسطين يشغله ١٧٠ نسمة يقابله ١٢ نسمة في الأرغون و ٤٤ في الولايات المتحدة . وناقش ادعاءات الصهيونية انها أفادت العرب من وجهات الزراعة والصناعة فبين كيف كانت حالة الزراعة من الرقي على يد العرب .

وبعد أن تناول بالشرح فضل العرب على الأمم المتحدة شرح الحل لقضية فلسطين وانتهى أخيراً الى تبيان ما يجب على الولايات المتحدة اتخاذه في علاج هذه القضية وحلها الحل الذي يرضي أصحاب الحق في هذا الوطن العربي .

ان الرسالة التي وضعها الدكتور جابر شبلي وترجمها الأديب العربي الصادق العروبة ونشرتها مجلة الضاد جديرة بأن يقرأها كل عربي وجديرة بأن تلقى من عناية الجامعة العربية وترجمتها الى جميع اللغات ونشرها على العالم أجمع ، لعلها توقظ الضمير في هذا العالم الذي يصمّ أسماعه عن دعوة الحق .

٢ — مكتوب على الجبين

الطبعة الثانية ١٣٢ صفحة من القطع المتوسط — مطبعة دار الهلال

في سنة ١٩٤١ أصدر القاصُّ الكبير الأستاذ محمود تيمور بك مجموعة « مكتوب على الجبين » ضمت أربع عشرة قصة من أبدع آثاره ، فلقيت من تقدير الأدباء وعناية الباحثين في تاريخ القصة العربية ما هي جديرة به ، وقد ظهرت في هذه المجموعة النزعة الرمزية

الممتزجة بالنزعة التخيلية في أدب تيمور . ولا نكون مغالين اذ قلنا أن قصتي «كان في غابر الزمان» و «خميلة الحب» وهما من قصص هذه المجموعة لما يفخر به الأدب العربي الحديث إذ ترتفعان الى مصاف أرفع القصص العالمي من حيث قوّة الفكرة وقوّة الأداء. وقد أحسن المؤلف إذ أعاد طبع هذه المجموعة ليتيسر لقرائه العديدين فرصة الاطلاع عليها .

حسن كامل الصيرفي

قصص للاطفال

تصدرها المكتبة العصرية و يافا — حيفا (فلسطين)

تعمل المكتبة العصرية لصاحبها الأستاذ حنا صليب على تزويد مكتبة الطفل بالجديد الطريف من ألوان القصص المهذب الشائق ، وهي خدمة جليلة تؤديها الى الناشئة لأن مكتبة الطفل في حاجة دائمة الى الاكثار مما يقدم لها إذ هي المرحلة التي يتكوّن فيها خيال الطفل فيتعود على التخيل والتصور والاقتداء الى جانب تحبيب القراءة اليه وتشويقه الى الاطلاع والاستزادة .

وقد عهدت هذه المكتبة الى الأستاذ محمود زايد بهذه المهمة فوضع كتابين الأول هو كتاب «يوليسيز التائه» فاتجه الى الأدب اليوناني وأخرج منه نموذجاً مختصراً من الأوديسة للشاعر اليوناني هوميروس . وقد بدأ الأستاذ زايد كتابه بذكر الحرب الطروادية بصورة مطولة ليعطي الطفل قصة متماسكة شائقة . وتقع هذه القصة في ٨٦ صفحة من القطع الوسط .

أما الكتاب الثاني — وهو القصص التاريخية — فقد عرض فيه صوراً لبطولة ثلاثة شخصيات من أبطال العرب في الأندلس ، أولهم طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وثانيهم عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) ، وثالثهم المنصور محمد بن أبي عامر الذي وصل من حرفة الورّاقين الى اعتلاء عرش الملك في الأندلس . وتقع هذه القصص التاريخية في ٥٦ صفحة من القطع الوسط .

والاختيار في الكتابين موفّق ، والعرض لطيف مشوّق ، وقد كان من الخير لو عني بتفسير الكثير من الألفاظ لأن المؤلف قد توخى في كتابته أسلوباً يرتفع في بعض جوانبه عن مستوى الأطفال ، ولا يضير ذلك اذا كان مصحوباً بالتفسير حتى تقوى أساليب الأطفال من نعومة أظفارهم .

١ – ابن الانسان

لاميل لودفيغ : ترجمة الاستاذ عادل زعيتر

أشق ما يعانيه الباحث ، هو التنقيب ، وراء حياة ، يريد الكشف عن جوهرها ، واستخلاصها من تلك الأخلاط والعناصر ، التي تفاعلت معها ، وأثرت في اتجاهاتها ، وتزيد متاعب الباحث كلما استسرت عن نظره المعالم التي تهديه ، وتشابهت السبل أمامه التي توصله ، ومن تلك الشخصيات التي منيت بهذا الغموض ، شخصية السيد المسيح — وهي شخصية لها روعتها ، وجلالها ، وأثرها ، وحسبك من شخصية يغمرها الظلام منذ بزوغ فجرها ، ويظل يزحف على مطالعها ثلاثين عاماً ، استطاع أن يلف خلالها هذه الحقبة ، بدياجيره الحالكة ، التي لا تدع بصيصاً من النور ، يضيء بعض جوانبها ، بل هو ظلام كثيف إذا أخرج الانسان في وسطه يده لم يكد يراها ، وكان هذا مبعث تلك الألوان التي نسجت حول هذه الحياة مما جعلها في أذهان الكثيرين ، أقرب الى شخصيات الأساطير ، حتى تصدى لها الكاتب العبقري العظيم — اميل لودفيغ — ودرسها دراسة عميقة ، قوية ، ناضجة ، وقدم لنا الصورة . كما يجب أن تقدم ، وتعرف ، فهو لم يعمد الى التأريخ ، ولم يزج بنفسه . وسط هذه الأمواج المتلاطمة . من الروايات ولم يتعد الى أكثر مما ينفعه في ايضاح الصورة ، ويعطيها اللون المناسب ، فهو لا يلم بعلم اللاهوت . الذي وضع بعد يسوع بزمن طويل ، الا قليلاً ، ولا يعده الا انساناً — لا مخلصاً — ولم يقص من أنبائه الا ما هو محمود مما أضيف اليه بعد زمن لا يعرفه يسوع — ولا يجد القارىء — في الكتاب ما نقضه العلم . وقد أباح المؤلف لنفسه عند ما كانت تعوزه نصوص الاناجيل أن يتم ذلك بما يتصوره من نظرات وأوضاع وأوجه تعبير ، ووصل بين الفكر ، والكلام ، وبيان للاسباب ، وتسلسل للمشاعر ، حتى تتسق الصورة ، التي يريد استخراجها ، وهو لم يعرض في هذا الكتاب مذهباً ، معروفاً ، بل أوضح فيه باطن ذلك النبي الذي فاق جميع معاصريه ، وان لم يكن لديه من السلاح ما يغلبهم به ، ولم يبال بما نسب اليه من عمل لاحق ، لأن ذلك من فعل الآخرين ، لا من فعله ، بل قد حاول أن يوضح فيه تاريخ قلبه ، أو إن شئت فقل شعوره ، ومقاصده ، وعوامل قيادته للناس ، وميوله ، وأحلامه ، وتبدد أوهامه ، وما

قام في نفسه من صراع بين الاقدام ، والاحجام ، وبين اليأس ، والبأس ، وبين الدعوة والسعادة . ولما كانت هذه هي أهداف المؤلف — لم يكن جازماً فيما شرح ، وفسر ، فكان ما تراه من البساطة وعدم التصنع ، وملاءمة روح الزمن الحاضر في هذا الإطار أبدع الأستاذ الكبير صورة يسوع — وما أحوج الشرق — وهو مهبط الروح — الى أمثال هذه الدراسات بحياة أنبيائه ، ورسله وقد قام الأستاذ — عادل زعيتر — بتقديم هذه الترجمة عن الفرنسية والانجليزية ، والتركية ، وقد حاول جهده في أن يقدم النص كما هو فجاءت عبارته قوية ، سلسة ، واضحة تشف كثيراً عن روح المؤلف ، وتبرز خصائص ذهنه ، ولعل مما كان يغض من شأن — المكتبة العربية — أن يظل مكان هذا الكتاب فيها شاغراً ، ولا يملك الناقد — في هذا الموقف إلا أن يحمد المترجم جهوده الخصبة ، المتواصلة ، وخطواته السديدة ، المباركة ، في النهوض بنقل هذه الغرر الفكرية الى لغتنا العربية .

٢ — قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام

للدكتور توفيق الطويل — صفحاته ١٩٤ صفحة من القطع الكبير — نشرته دار الفكر العربي بمصر

جهد ، مشكور ، خصب ، ذلك الذي بذله الدكتور توفيق الطويل في جمع هذه الصور المتفرقة ، المبعثرة في مختلف الأنحاء المستسرة في بطون الكتب ، والحقيقة أن قصة الإضطهاد الديني من الجوانب الغامضة التي تتطلب الدراسات التي تكشفها ، فلباب العقائد ليس هو الإضطغان ، والتنكيل ، والإيغال في الدماء ، بل هو في تعهد هذه العواطف الإنسانية النبيلة . بالري ، والعناية حتى تورق فتستظل الإنسانية بظلالها ، وتثمر فتتمتع بلذيذ ثمرها أخوة ، وعطفاً ، ولينا ، فهذه الصور العالقة بالذهن من أن الإيمان يجر الى التعصب الذميم ، صور زائفة ، ففي وسع الشخصية الإنسانية أن تجمع بين أقوى الايمان وأعمقه ، وبين العطف والاخوة وسعة الصدر بأجلى معانيها ، بل الإيمان الصحيح غير المشوب في النفس السليمة لا يكون إلا على هذه الصورة الكريمة الحبيبة غير أن هذه المثل السامية قل أن تأخذ مكانها في النفوس على هذا السمت الوقور ، الهادىء بل كثيراً ما تعصف بها العواصف التي تهب عليها من جانب البيئة أو التربية ، أو ارتكاسات الطبيعة في الناس فتحول بينها

وبين بلوغ قصدها في نبالة ، ونزاهة . وتخرج بها عن الجادة ، فتنشأ هذه الألوان القاتمة من الإضطهاد والتعذيب ، التي تلوث التاريخ الديني ، وقد قص الدكتور — هذا الإضطهاد الذي قام بإسم الدين في هـذا الأسلوب القصصي الطريف في صور سريعة تنم عن أسطع مظاهره ، ومعالمه فكشف عن الاضطهاد الدامي الذي أنزله الرومان بالمسيحية وشهدائها في مراحل تاريخها الأولى . وتتبعـه حين إنتقلت دفتـه من يد الرومان الى يد الكنيسة الكاثوليكيـة وأخذت تكوي بناره خصومهـا ثم سايره في الصراع الذي نشب بين هذه الكنيسة ، وخصومها من البروتستانت وغيرهم ممن عدوا في زمرة المارقين ، وصحبه حين آل أمره الى المصلحين من هؤلاء البروتستانت فنكلوا بخصومهم في غير رفق ، ولا رحمة وتعقبه في مقاومته لرواد الفكر الحديث حين نبت مبدأ التسامح في رؤسهم ، واستبد هواه بقلوبهم فأغرام بالاستشهاد مع أتباعهم في سبيل الحرية الدينية ، راضين مختارين ، وعقب على هذا بفصل في الاضطهاد الديني في الإسلام ، وأبان فيه عن موقف الدين الاسلامي من التسامح ، وحرية الاعتقاد ، ثم انتهى من هـذا كله الى بيان وجه العظة في موضوع هذا الكتاب ، فكانت قصة شائقة ، ممتعة ، عرضت لنا مناظر هذا الصراع عرضاً ، أميناً قويّـا ، وما أحرى هذه الابحاث الجافة العسيرة تعرض بأسلوب القصة حتى يسهل هضمها ، والإقبال عليها ، واستخلاص عبرها .

محمد عبد الحليم أبو زيد

١ — أبو العلاء ناقد المجتمع

للدكتور زكي المحاسني — ١٦٤ صفحة من الحجم الكبير — دار الفكر العربي

دراسات كثيرة كتبت عن شيخ المعرّة وعن فلسفته في الحياة ، ولكن معظم هذه الدراسات — إن لم يكن كلها — محورها التعميم لا التخصيص ، فهي قد تتناول كتاباً من كتبه بالتفسير والتعليق والتعقيب أو قد تعالج شطراً من فلسفته في الحياة ، أو قد تتحدث عن أبي العلاء ذاته بوصفه علماً خفاقاً في تاريخ اللغة العربية وبنداً مرموقاً من بنود الضاد .

والجديد في كتاب « أبو العـلاء ناقد المجتمع » الذي وضعه الأستاذ الدكتور زكي المحاسني الأديب السوري ، هو أن هـذا المبحث أفرد برمته لاستجلاء قواعد فن النقد

وصنوفه في تآليف المعري ، ذلك الجسور الذي ما كان يهاب في معظم نقده أحداً فتنثال من فيه عبارات القذع والاقذع ويجاهر برأيه وإن خالفته المسكونة بأمرها ، وينقد ذوي الجاه وذوي الألقاب ، ويجرد حملة شعواء عشواء على المرأة مردّها — كما يقول الدكتور المحاسني في رسالته — الى كيد امرأة عرفها في ريّق عمره ، وينقد المجتمع لأنه يستبيح لنفسه ذبح حيوان أعجمي يطعم به بنو البشر ، ويحمله عطفه على الأحياء على أن يسرّح كفّه لبرغوث يمتص دمه رأفة به ورحمة . ويستصوب المعري حياة الزهد والتقشف والمسغبة وهذا رأي لا يستغرب منه وهو الفقير المضروب بالعمى ، ويحمل على رجال الدين المتباهين بأرديتهم ولحاهم ويكيل لهم أقذع الهجو غير مستثنٍ من ذلك أصحاب العمائم الملوّنة .

وإذا كان المعري قد استباح لنفسه أن ينال من المجتمع ومن أفراده وأن يصوّر مطاعنه ومثالبه في شيء من المبالغة والإفراط ، فلا غرو بعد ذلك أن يتعرض لأدباء يردّون له الصاع صاعين حتى قيل عنه أنه « معرّة المعرّة » وإنه «حمار لايفقه شيئاً » بل قيل عنه أنه « معتوه مجنون . . وليته لمّا ادّعى العقل خرس » !! .

والعجيب في حياة المعري — ولعله أعجب مافيها — تجريحه المرأة بكل ما أوتي من فظاظة وعنف وهذا أمر مستغرب من أبي العلاء لسببين : أولهما أنه كان يبطن ويبدي رحمة وحنوًّا على الحيوان والعجماوات فما كان بالكثير عليه أن يعد المرأة واحدة من جنسها ويرفق بها كما رفق بالثور والبرغوث ! . وثانيهما أن المعري تحدّر من صلب امرأة وكان يعتزّ بها ويدين لها بالحب والولاء فما كان يصح لرجل هذا همّه أن ينحدر الى المنحدر المنخفض ويهجو المرأة — التي وسموها بأنها مخلوق ضعيف — هذا الهجاء المرير الطافح بالسمّ والحقد.

بل إننا لنعجب ، ويعجب معنا الدكتور المحاسني ، كيف أن رجلا كأبي العلاء المعري سبق عصره في كثير من آرائه ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يسمو بفكرته عن المرأة ويدفع عنها كل ضيم واعتداء .

وهناك حقيقة ينبغي أن تسجّل للمحاسني بالثناء والمديح وهي أنه استطاع بوضعه المعري على مشرحة العلم الحديث أن يثبت أن المعرّي كان متمتعاً بجميع قواه الجنسية ، وأن بغضه للمرأة لم يكن منبعه قصور ذاتي عن إرضائها . ورأيه هذا مؤيد ببراهين كثيرة من شعر المعرّي وهي تدحض ما عزاه إليه بعض البحّاث من أنه كان يفتقر الى الحافز الجنسي .

ومن أطرف ما جاء به الدكتور المحاسني في كتابه مقابلته بين نظرية أبي العلاء عن تزايد عدد السكان ونظرية العالم الانجليزي روبرت مالتوس الذي أنهأ قلقاً وثورة في العالم حين جاهر برأيه الجديد وهو أن البشرية تنمو نموًّا يتجاوز في مداه نموّ موارد

الطبيعة وان العالم مهدد في المستقبل البعيد بمجاعة لا تنقذه منها إلاّ الحروب والأوبئة .
وقد كتب الدكتور الحاصني للمعري أصبقية الجاهرة بالمعتقد على تباعد السنين بين المفكرين .

ولما نقد الحاصني المعري كان لا يستهدي إلاَّ أحكام العقل والمنطق وان كان أعرب في مقدمته عن إعجابه به وبفلسفته . وبحثه هذا مرجع فريد للذين يريدون أن يعرفوا الدوافع والعوامل التي عنها صدر نقد المعري للمجتمع وهي دوافع قد تسوقه الى المجاملة والمهادنة وقد تلهب فيه الاندفاع الى التشهير والتنديد .

٢ — خرافات ايسوب

للاستاذين مصطفى السقا وسعيد جودة السحار — ٢٧٠ صفحة من الحجم الكبير — لجنة النشر للجامعيين

ما من قصة وردت على ألسنة الطير والبهائم واستعان بها مؤلفو كتب الأطفال الاّ ومصدرها خرافات إيسوب . وقد اتجه معظم أولئك الكتاب الى تلك الخرافات يقتبسون منها ويترجمون عنها دون أن يشيروا الى مصدرها بحرف فكانت النتيجة أن أضحت قصص إيسوب مشاعاً في جميع أنحاء العالم ومؤلفها مجهولاً الاّ للقلة القليلة .

وتتميز تلك الحكايات بأبطال من الحيوانات أو الجماد أو بعض أعضاء جسم الانسان تتحادث أو تتصرف تصرفاً تستمد منه حكمة معينة يسهل ادراكها على الصبي ويستعين بها البالغون على تجسيم رأي يريدون إبانته وجلاءه .

وعنَّ للأستاذين مصطفى السقا وسعيد جودة السحار أن يترجما النسخة الكاملة الانجليزية لهذه الحكايات الى اللغة العربية ترجمة جمعت بين سهولة الأداء وبلاغته ؛ حتى ليحق للقارىء أن يقول إن هذا الكتاب موضوع لا مترجم لأنه تجرد عن كل صفة أجنبية .

ولم يقصر المترجمان جهدهما على مهمة الترجمة ، بل رأيا أن يردفا كل حكاية من حكايات ايسوب بحكمة أو قولة بليغة مستمدة من الأدب العربي القديم والحديث بحيث تنطبع العبارة في ذهن القارىء ولا تبرحه ، ويطرد نمو محصوله من الأمثال .

وخرافات إيسوب — يعسوب الحكمة بحق كما قال المترجمان — لأنها تضم أكثر من ثلاث مئة حكاية تنتهي كل واحدة منها بعبرة بليغة ، ولا تكاد تعثر في هذه الحكايات جميعاً على عبرتين متشابهتين متطابقتين تماماً ، لأن لكل واحدة منها ذاتيةً واستقلالاً خاصّين .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

الزيت في الشرق الاوسط

عقد الدكتور باربر [1] رئيس تحرير جريدة « ذي بتروليم تيمس » The Petroleum Times الواسعة النفوذ فصلاً ضافياً نشر في بريطانيا عن البترول ومستقبله في الشرق الأوسط . وفيما يلي إجمال للآراء التي أوردها

استهل الدكتور باربر بحثه بتأييده للرأي الذي ذهب إليه الدكتور افريت دي جلوييه [2] الرئيس الاميركي للجنة الاميركية للبترول في الشرق الأوسط وأبان ان السنوات العشر الأخيرة تميزت بنمو مطرد ضخم في « الاحتياطي المؤكد » [3] للزيت في الشرق الأوسط وهو نمو أفضى إلى القول إن انتاج العالم من الزيت يتحول محور ارتكازه من منطقة الخليج الكاريبي إلى منطقة الشرق الأوسط .

وليجلو الدكتور باربر هذا الرأي مضى يبسط مايعنيه بقوله « الاحتياطي المؤكد» فقال : حين تكشف منابع للزيت ويقرر مدى سعة منطقة الانتاج وتعرف كثافة صخور مستودع البترول وحالتها المساميّة (نسبة إلى المسام) يصبح من المتيسر تقدير جملة مقادير النفط المختزنة في المسارب تحت الأرض وهذا التقدير في ذاته تقدير تقريبي يتوقف مدى صحته على عدد آبار الزيت وتوزيعها — وهي الآبار التي تتغلغل إلى مخازن النفط — وعلى درجة التجانس في الحالة المساميّة للصخور في الخزان . فمن المستصوب إذن أن يكون مدى تعويلنا على مثل هذه التقديرات متفاوتاً تفاوتاً كبيراً في البلدان المتباينة بل متفاوتاً حتى في الآبار المتباينة لبلد واحد .

أضف إلى ذلك أنه لا يستنبط من النفط الذي يكتشف توفّره تحت الأرض سوى جزء منه لأسباب اقتصادية . ويتفاوت مقدار هذا الجزء القابل للاستنباط تفاوتاً يتوقف على نوع الخزان وعلى الخصائص الطبيعية للنفط وعلى حجم الغاز المذاب في النفط وعلى الصلة بين النفط والماء في الخزان وهو يتوقف كذلك على ملاءمة وسائل الانتاج — وهي ما يشير إليه الاختصاصيون بقولهم « ضبط الخزان » — التي تطبق عند استنباط الزيت . ولعلّ مما يحمل على تقدير

Proved reserves (٣) Dr. Everette de Gloyer (٢) Dr. C. T. Barber (١)

شأن هذا العامل ، الحقيقة الماثلة وهي انه قدّر من عشرين عاماً خلت ان نحو عشرين في المئة من النفط السائل تحت أرض الولايات المتحدة قابل للاستنباط اقتصاديًّا غير أن تحسين وسائل الانتاج أصبح عظيماً حتى انه قدّر الآن ان هذه الينابيع عينها تحتوي على زيت يمكن استنباط ٤٠ في المئة منه

وتسبب هذه العوامل في أن يصبح هناك تفاوت كبير بين تقديرات الاحتياطي المؤكد في بلدين مثلاً ، بل كثيراً ما يكون هذا التفاوت جليًّا في ينابيع البلد الواحد .

ولا يسعنا أن نؤكد تأكيداً كبيراً أن تقديرات الاحتياطي المؤكد هذه — ولا ينبغي أن تتضمن إلاّ النفط الذي يمكن استنباطه اقتصاديًّا — ليست سوى خير تقديرات يظفر بها الاختصاصيون كأفراد بناءً على المعلومات التي في متناول أيديهم

ودلّت التقديرات في الماضي على شيء من التشاؤم . أما التقديرات الحالية التي ثبت أنها تكاد تصل الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من عشر سنوات فردها لا إلى المكتشفات الجديدة التي كشفت في هذه الآونة فحسب بل مردها الى ذلك والى اعادة تقدير الاحتياطي القابل للاستنباط في الينابيع التي كانت تعرف من عشر سنوات .

وانتقل الدكتور باربر الى تحليل تقديرات الفترة السابقة للحرب من الاحتياطي المؤكد وقابلها بالأرقام الحديثة التي أصبحت في المتناول . ويمكن استخلاص النتائج الآتية من الجدول الذي أعده الدكتور باربر :

ارتفع تقدير الاحتياطي المؤكد في الولايات المتحدة من ٠٠٠ر٥٧٥ر١٠ برميل أميركي في عام ١٩٣٦ الى ٠٠٠ر٥٠٠ر٢١ برميل أميركي في عام ١٩٤٤ بينما نزلت نسبة الاحتياطي الأميركي بالنسبة للاحتياطي في العالم في هذه الفترة من ١ر٤٨ في المئة الى ٩ر٣٣ في المئة .

وسبب ذلك هو أن الاحتياطي المؤكد للشرق الأوسط قدر في عام ١٩٣٦ بنحو ٠٠٠ر٦٢٥ر٤ برميل أميركي وعدّل هذا الرقم في عام ١٩٤٤ إلى ٠٠٠ر٨٠٠ر٢٦ برميل أي بزيادة تكاد تبلغ خمسة أضعاف . وتغيرت تبعاً لذلك نسبة احتياطي الشرق الأوسط من احتياطي العالم فأصبحت ٣ر٤٢ في المئة في عام ١٩٤٤ بعد ما كانت ١ر٢١ في المئة في عام ١٩٣٦ .

واستطرد الدكتور باربر بعد ذلك فتحدث عن كشف ينابيع جديدة لاستنباط النفط في عام ١٩٣٧ في الضبان في المملكة العربية السعودية ، وكشف ينابيع للنفط الأبيض في جاش ساران في إيران . وعرض لتقدم أعمال كشف الينابيع في الشرق الأوسط حتى عام ١٩٤١ وخلص من ذلك إلى قوله إن أعمال الكشف عطلت في عام ١٩٤١ في معظم أنحاء الشرق الأوسط حتى

نهاية الحرب. ولعلّ أهم ينابيع كشفت منذ ذلك الحين هي ينابيع القطيف في المملكة العربية السعودية.

غير أن منطقة الشرق الأوسط مشرفة الآن على عصر تجري فيه أعمال كشف واسعة النطاق في ايران والعراق والمملكة العربية السعودية علاوة على سوريا وفلسطين وشرق الأردن وغرب الجزيرة العربية وسواها من المناطق. وبينما زاد الاحتياطي المؤكد من النفط في الشرق الأوسط في السنوات العشر الأخيرة بنحو خمسة أضعاف ما كان عليه، لم يسفر استغلال ٣٥ ألف بئر في الولايات المتحدة في الفترة عينها إلاّ عن ارتفاع التقدير الى ضعفين اثنين لا غير. وتنطبق هذه النسبة على سائر أنحاء العالم المنتج للبترول.

ونشر الدكتور باربر مقالاً ثانياً عن البترول في الشرق الأوسط قال فيه انه في الفترة التي زادت فيها النسبة السنوية المستخرج من احتياطي البترول في الشرق الأوسط وأصبح الاحتياطي يعادل ٤٢ في المئة من الاحتياطي في العالم، أنتجت المنطقة في (عام ١٩٤٦) ٩ في المئة لا غير من الانتاج العالمي. ويقابل ذلك أن الولايات المتحدة — وعلك ٤٢ في المئة من الاحتياطي المؤكد في العالم — كانت مسؤولة عن انتاج اثنين وستين في المئة من الانتاج العالمي.

وهناك مفارقة واضحة أخرى بين انتاج الشرق الأوسط وانتاج نصف الكرة الغربي وقد جلا أخيراً السرّ وليم فريزر Sir William Fraser، رئيس مجلس إدارة الشركة الانجليزية الإيرانية للزيت (أنجلو إيرانيان أويل) هذه المفارقة حين قال في خطاب له في المؤتمر الدولي للموارد المعدنية في نيويورك:

« إنه بالقياس إلى نسبة الانتاج الحالية تعدّ منطقة هافت كيل Hafet Kel في إيران أكبر منتجة للنفط في العالم. فقد قيل لي أنه بينما تنتج ٢٤ ألف بئر للزيت في شرق تكساس في أميركا ١٧ مليون طن في العام تنتج منطقة هافت كيل في إيران من ٢٤ بئراً فقط ٩ ملايين من الأطنان في العام ».

واستطرد الدكتور باربر يتحدث بعد ذلك عن تقدم العمل في مدّ أنابيب البترول في الشرق الأوسط فقال:

« ان نفقات نقل البترول بالأنابيب تقدر بنحو ثلث نفقات نقله بالمركبات المجهزة بالمستودعات. ولا يصل من البترول بوساطة الأنابيب إلى البحر المتوسط في الوقت الحالي سوى نحو ٣٠ مليون برميل في العام من منطقة كيركوك في العراق. والطاقة الحالية للأنابيب الممتدة من كيركوك إلى ميناء حيفا في شرق البحر المتوسط هي ٩٠ ألف برميل في اليوم. غير ان العمل مستمر الآن في مدّ أنابيب جديدة وسيصبح في طاقتها في عام ١٩٥٠ نقل ٣٠٠ ألف برميل في اليوم تفرغ مئة مليون برميل في السنة في شرق البحر المتوسط ليشحن إلى الخارج بسفن النقل ».

ويبحث الآن مشروعان لمد أنابيب للبترول يتسنى لكل منهما نقل مئة مليون برميل في العام. والمشروع الاول يهدف الى ربط ينابيع الزيت في المملكة العربية السعودية بشرق البحر المتوسط بينما ينتظر أن يصل المشروع الثاني شمال الخليج الفارسي بساحل دولتي المشرق.

ولا يتيسر إعداد أي من هذين المشروعين اعداداً يهيئه للعمل قبل عام ١٩٥٠ ويحتمل أن لا يتم المشروع الثاني قبل مضي بضع سنين على ذلك الموعد. غير أن المتوقع انه الى أن يحين عام ١٩٥٠ يمكن نقل ٣٠٠ مليون برميل من النفط بوساطة أنابيب البترول من الشرق الأوسط الى البحر المتوسط يقابل ذلك أن الاستهلاك السنوي الاوربي بلغ في عام ١٩٣٨ نحو ٣٤٠ مليون برميل فهناك اذن احتمال كبير بأن يستطيع الشرق الأوسط في غضون السنوات العشر القادمة مدّ القارة الأوربية بثلاثة أرباع ما تحتاج إليه من النفط بدلاً من نسبة تقل عن الربع كان يمدها بها في عام ١٩٣٨.

وأشار الدكتور باربر الى أسواق الشرق الأقصى فقال إن من رأيه أن بترول الشرق الأوسط المنقول بوساطة المركبات ذات المستودعات يستطيع أن يزاحم الانتاج الاميركي والكاريبي في منطقة الشرق الأقصى وأن يزيد نسبة تصريفه في تلك الأسواق.

ومن رأي الكاتب فيما يتعلق بمستقبل التجارة في العالم ان الشرق الأوسط لن يصبح عاملاً مهيمناً في تجارة النفط الدولية إلاّ في حوالي عام ١٩٥٠ حين يبدو أن الشرق الأوسط أصبح متجهاً إلى أن يصبح المورد الرئيسي للبترول لقارة أوربا. وقد يصبح توزيع النفط في العالم آنذاك وفقاً للنظام الآتي:

أميركا — مستوردة للبترول يساعدها انتاج منطقة البحر الكاريبي على سدّ عجزها وعلى مدّ بقية دول نصف الكرة الغربي بما تحتاج إليه.

روسيا — تبقى مستقلة استقلالاً ذاتياً ببترولها.

الشرق الأوسط — يصبح المورد الرئيسي لبقية انحاء العالم.

وإذا تبيّن أن هذا الاستنتاج صحيح فمن المحتمل أن يشترك الشرق الأوسط مع منطقة البحر الكاريبي في إصدار البترول الى دول العالم بالتساوي.

غير انه الى أن يحين العمل بالأنابيب التي تمد من الشرق الأوسط الى البحر المتوسط والى أن تتسع قدرة معامل التكرير في منطقة البحر المتوسط وفي أوربا لتستطيع تكرير ٩٠٠ ألف برميل في اليوم، ستصبح أميركا ومنطقة البحر الكاريبي العامل المهيمن في تجارة النفط في العالم. وفي هذه الأحوال ينتظر أن تتحكم أسعار النفط في الخليج الفارسي في أسواق العالم لمدة عشر سنوات أخرى على الأقل.

بعثات مصرية ترتاد الصحراء (١)

وقال الاستاذ أحمد أبو حسين بك المراقب العام لمصلحة المناجم والمحاجر في مصر ان المصلحة قررت ايفاد ست بعثات الى صحاري مصر للكشف عن مناجمها وكنوزها على أن تكون أربع منها مختصة بالفحص الجيولوجي واثنتان مختصتان بالفحص المعدني .

وسترتاد البعثات المناطق الممتدة من قنا الى القصير وطريق ادفو ومرسى علم على البحر الأحمر ومساحتها نحو ١٥ الف كيلو متر مربع . ورصد لهذه البعثات مبلغ ٢٧ الف جنيه

وقال الأستاذ أبو حسين بك ان البحث مستمر في منطقة سيناء لاستنباط ينابيع جديدة للبترول والأمل معقود على كشف ينابيع غنية بالزيت . وستستعين المصلحة بخريجي كلية الهندسة من قسمي البترول والتعدين وتشجعهم بالمال على السفر الى الصحارى ابتغاء الانتفاع بخبرتهم في زيادة الثروة القومية للبلاد .

شركة زيت تطلب زيادة رأس مالها

وما دمنا بصدد الحديث عن النشاط البترولي في الشرق الأوسط نذكر هنا أن وكالة روتر التلغرافية أذاعت برقية بتاريخ ٨ يوليو الحالي من لندن جاء فيها أن حملة أسهم شركة الزيت الانجليزية المصرية المعروفة باسم « الانجلو اجبشيان أويل فيلدز » أبلغوا في التقرير السنوي الذي أعده السر روبرت كوهين رئيس مجلس ادارة الشركة ان الشركة في حاجة الى أموال جديدة تضاف الى رأس مالها وان مشروعاتها المالية ستعرض على حملة الأسهم في الوقت الملائم .

وقال السر روبرت ان ينابيع الزيت العظيمة في الشرق الأوسط يزداد مقامها هاماً ولا سيما لأن موارد كبيرة من الزيت وفيرة الآن في البلدان المجاورة للعراق وإيران والمملكة العربية السعودية والأراضي المتاخمة للخليج الفارسي .

ويزيد انتاج المناطق المجاورة لمصر زيادة كبيرة على إنتاج مصر نفسها والآبار في تلك المناطق أغنى منها في مصر .

وختم السر روبرت بيانه قائلاً : إنه بينما لا يسعى أحد إلى التقليل من مقام صناعة الزيت المصرية وشأنها في اقتصاد البلاد ، ينبغي أن لا نغفل أن هناك مقادير كبيرة من الزيت الخام القليلة النفقة على قاب قوسين أو أدنى من مصر

وديع فلسطين

(١) راجع جريدة المقطم عدد يوم ١٩ يونيو ١٩٤٧

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

ملحق

في التصوير الايطالي في عهد النهضة

تأليف هيبوليت ترجمة إلياس يعقوب

فلسفة الفن

في التصوير الايطالي في عهد النهضة

تأليف

هيبوليت تين (١٨٢٨ — ١٨٩٣)

ترجمة

الياس يعقوب

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٤٧

الفصل الاول

طابع التصوير الايطالي

« النهضة » هي تلك الحقبة المجيدة التي يتفق الناس على اعتبارها أروع ما بلغه الابداع الايطالي . وهي تشمل ، علاوة على الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، الثلاثين أو الأربعين سنة الأولى من القرن السادس عشر . في هذا النطاق الضيق ازدهر الفنانون الكاملون أمثال ليونارد دفنشي (Léonard de Vinci) ، ورافائيل (Raphaël) ، وميكلانج (Michel-Ange) واندريا دل سارتو (Andrea del Sarto) وفرا بارتولومو (Fra Bartolomeo) وجيورجيون (Giorgione) وتيسيان (Titien) وسيباستيان دل بيومبو (Sébastien del Piombo) وكوريج (le Corrège) . وهذه الفسحة واضحة الحدود ، اذ تقدمتها وجدت فناً ناقصاً ، خالياً من الاتقان يتصف بالجفاف والتعدد ، يتجلى في آثار محاولين أمثال أنطونيو پولايولو (Antonio Pollaiolo) وفرا فيليبو ليپي (Fra Filippo Lippi) ودومينيكو غيرلانداجو (Domenico Ghirlandajo) ، وجان بلين (Jean Bellin) وان تجاوزتها وجدت فناً مبتذلاً وتلاميذ يعمدون الى المبالغة أو مجددين بدون كفاءة أمثال يوليوس رومان (Jules Romain) ، وروسو (le Rosso) ، وپريماتيس (Primatice) ومدرسة كاراش (Carrache) . فقبلاً نبت الفن وأخيراً ذبل . أما الازهرار فهو بين البداية والنهاية ، ودام نحو خمسين سنة . فاذا صادفنا في الزمن المتقدم مصوراً قارب فنه التمام كمازاكسيو ، يجوز لنا أن نعتبره مفكراً على فنه سيما العبقرية . أو مبتكراً منفرداً ينفذ بصره بغتة الى ما وراء عصره ، أو سباقاً مغموراً ليس له لاحق ، حتى أن قبره خلا من كل كتابة ، وعاش فقيراً مؤثراً العزلة ، ولم تدرك عظمته المبكرة الا بعد مرور نصف قرن . وفي الزمن التالي لا نعثر على مدرسة مزدهرة وقوية الا في البندقية ، المدينة الوحيدة التي لم تمن بالانحطاط الا بعد المدن الأخرى . والتي ظلت طويلاً مستقلة ، متسمحة ، مجيدة

بعد أن انحطت النفوس وزاغت العقول بتأثير الفتح والضغط والفساد التام .

يمكننا أن نشبه هذا العصر الذي اتصف بالابداع الرائع ، وبلغ غاية الاتقان ، بالمنطقة الكائنة في سفح جبل حيث تغرس الكرمة : ففي القسم العلوي منها لا يجود العنب لأن الهواء شديد البرودة ، وفي القسم السفلي لا يجود أيضاً لأن التربة كثيرة الرطوبة . هذه هي العلة وهذه هي السنة . فاذا وجد شذوذ ، وهذا نادر ، يمكننا تعليله . قد يجوز أن نصادف في الحقل السفلي غرسة منفردة ، تسري فيها ماوية ممتازة ، تُنتج رغم البيئة ، بعض العناقيد اللذيذة . لكن هذه الغرسة تنفرد في شذوذها ولن تتكاثر وتحسب في عداد الخوارق التي تلقيها فوضى القوى الفاعلة المتراكمة في مجرى القوانين الثابتة . وليس ببعيد أن نجد في الحقل العلوي زاوية نما فيها الكرم نمواً باهراً بسبب توفر ظرف خاص وطبيعة التربة وملجأ في السفح ، والنشوء على مقربة من ينبوع . في كل هذه الأسباب مجتمعة تمنح الغرسة أغذية أو حماية قد لا تجدها في مكان آخر . إن القانون العام يظل سليماً ويمكننا أن نستنتج أنه يوجد نوع من التربة ودرجة من الحرارة يتوقف عليهما نجاح الكرمة . وكذلك ، فان القانون الذي يهيمن على نتاج التصوير الكامل يبقى صحيحاً . وفي إمكاننا أن نبحث عن الحالة الذهنية والعادات التي انبثق عنها هذا التصوير .

في البدء ، يجب أن نعرف هذا التصوير ذاته . لأننا إذا نعتناه بالكامل أو التقليدي (الكلاسيكي) . درجاً على اللفظ المألوف ، لا نشير إلى طابعه ، بل إننا نسلكه في فئته . وإذا كان له فئته ، فله أيضاً طابعه ، وأعني بذلك بيئته الخاصة التي لا يتعدّى نطاقها ، ان هذا التصوير يزدري ويهمل المناظر ، ألا تجد أن للاشياء الجامدة مصورين يعتنون بها إلاّ في الملاندر . أما المصور الايطالي فلا يتخذ الاّ الانسان موضوعاً لفنه ، وليست الأشجار والبرية والمعامل في نظره إلاّ لواحق . ويزعم فازاري(Vasari) أن ميكلانج ، سيد المدرسة قاطبة بدون منازع ، يصرح قائلاً أنه يجب أن تترك هذه المواضيع لذوي المواهب الدنيا ليتسلوا بها ولتكون لهم عوضاً . لأن الجسم الإنساني هو غرض الفن الحقيقي . ولما انحط التصوير العظيم في زمن المتأخرين من البنادقة وخاصة في عهد مدرسة « كارّاش » ، طفق المصورون يلتفتون الى الطبيعة . ومع ذلك فانهم لا يتخذونها إلاّ زخرفاً ، فيصورون (ڤيلا) وفق طراز هندسي ، وحديقة أرميد ، ومسرحاً تتمثل فيه خصائص الريف والأبهة والجمع بأسلوب رفيع ومنسق ، بين التخنث الأسطوري ومجون الأسياد . ففي هذه المناظر تظهر الأشجار غير واضحة ولا تنتسب الى جنس معين : وتنتظم الجبال لتسر الأنظار ، وتتجمع الهياكل والخرائب والقصور في صفوف أبدعها الخيال : وتفقد الطبيعة استقلالها

الخلق وعلائقها الخاصة لتتقيد بالإنسان وتزيد أفراحه وتزيد في سعة مساكنه .

ومن جهة أخرى نرى مصوري عصر النهضة يتركون للفلمنكيين تقليد الحياة الواقعية والشخص العصري في ثوبه العادي يمارس شؤون حياته اليومية بين أثاثه الحقيقي ، وفي النزهة والشارع ، وجالساً الى المائدة ، وفي دار البلدية والحانة . وبالجملة فان الصورة تبرزه لنا كما اعتدنا أن نراه بأعيننا ، شريفاً كان أم نصفاً (برجوازياً) أو فلاحاً مع كافة الخصائص العديدة والبارزة التي تتصل بطبعه وحرفته وحالته . إنهم يقصون هذه التفاصيل لأنها تحسب مبتذلة . وكلما سما الفن ، نراهم يهجرون شيئاً فشيئاً المطابقة الحرفية والمماثلة الواقعية . وعند انبلاج العصر العظيم بدؤوا يتخلون عن إقحام صور حقيقية في اللوحات .

ومن يتدبر النقش على الجدران الذي ينسب الى المصورين المتقدمين ، من فيليبو ليبي إلى بولا يولو ، وأندريا ده كاستانيو ، وجان بلين، حتى ما زاكسيو نفسه، ير أنهم كانوا يحشرون فيه كثيراً من الصور المعاصرة ، وأن الخطوة الكبرى التي تفصل بين الفن المكتمل والفن المبتدىء ، تتجلى في ابتكار الأشكال التامة التي تتبينها عين الروح وتعجز عن إدراكها عيننا الرأس . وينبغي أيضاً أن نزيد في تحديد فن التصوير الكلاسيكي . اذا استطعنا أن نميز بين الروح والجسم في الشخص الخيالي الذي يستهدفه هذا الفن ، تيسر لنا أن نلاحظ أنه لم يول الروح المقام الأول . ذلك أنه ليس صوفياً ولا روحانياً ولا فجوعاً (دراماتيك) ، ولا ينتوي أن يمثل لفظ العالم النفسي والرفيع ، والنفوس المفتونة والبريئة ، والمعتقدات اللاهوتية أو الكنسية وغيرها ، من الموضوعات التي ظلت أنشودة الفن الناقص في العهد المتقدم منذ جيوتو (Giotto) وسيمون ممي (S. Memmi) حتى انجليكو (B. Angelico)

ثم ما لبث أن هجر العصر المسيحي والرهباني كي يلتجىء الى العصر العلماني والوثني . ولا ينتوي أبداً أن يقتطع ويثبت على النقش مشهداً عنيفاً أو أليماً من شأنه أن يغري بالشفقة أو يبعث الرهبة كما صنع دلاكروا (Delacroix) في « ميتة أسقف لياج » ، ودكان (Decamps) في « الميتة » أو في « معركة سينبر » ، وآري شيفر (Ary Scheffer) في « الباكي » ، ولا يرمي أبداً الى التعبير عن المشاعر العميقة المتطرفة المعقدة كما فعل دلاكروا في « هملت » أو في « تاس » . وسوف لا يتوخى إحداث التأثرات المتنوعة أو القوية إلاّ في العصر التالي عندما يصبح الانحطاط ظاهراً ، كما يبدو في الجدليات الفاتنات الحالمات ، والمريمات المفكرات الحساسات ، والاستشهاد الفاجع الصاخب ، إن الفن المؤثر الذي يهدف إلى التأثير وتشويش الشعور المتهيج المريض ، يناقض توازنه . على إن الحياة الخلقية لا تصرفه عن التفكير في الحياة

الطبيعية . وعلة ذلك أنه لا يتمثل الإنسان كائناً سامياً خانته أعضاؤه ولعل ليونارد دا ڤنشي هو المصور الوحيد السباق في إبداع كافة الأفكار والطرف الحديثة . هو ذو عبقرية جامعة ومصفاة ، وباحث متوحد ونهم ، تتخطى تكهناته حدود عصره حتى تكاد تبلغ أحياناً عصرنا الحاضر . ويرى الفنانون الآخرون ، وكثيراً ما يشاركهم دڤنشي في هذا الرأي ، أن الشكل غاية لا وسيلة ، وليس منوطاً بالسيماء والملامح والحركات والحالة والعمل . فجاء إنتاجهم فنيًّا ، وليس أدبيًّا أو شعريًّا . ويقول سلّيني (Cellini) : « إن الغرض الهام من فن الرسم هو أن يحسن رسم رجل وامرأة عاريين » . وفي الحقيقة ، إنهم يبدؤون جميعهم تقريباً بالصياغة والنحت » . وأن أيديهم لمست بروز العضلات ، وسايرت انحناء الخطوط . وشعرت بتداخل العظام . إنهم يتوخون قبل كل شيء أن يبرزوا للعيان الجسم الانساني الطبيعي ، أعني بذلك الجسم السليم ، النشيط القوي ، الحائز على جميع خصائص المصارعين والحيوانية وعدا ذلك ، فإنهم يهدفون الى الجسم البشري البالغ الكمال ، الذي يقرب من النموذج الأغريقي ، المتزن والمنسجم في كافة أجزائه ، فقد اختبر وأثبت في وضعيّة موفقة جدًّا ، وزُين وأحيط بأجسام أخرى أحسن جمعها وتمّ انسجامها فأضحى الأثر الفني كله يوحي الى الذهن فكرة عالم جسماني شبيه بالأولمب القديم ، أعني عالماً عليه مسحة الألوهية أو البطولة وبلغ التفوق والكمال . هذا هو الابداع الخاص الذي امتاز به هؤلاء الفنانون . وهناك آخرون تفوّقوا في التعبير تارةً عن حياة الطبيعة ، وطوراً عن حقيقة الحياة الواقعية ، ومرة عن المآسي وأعماق النفس ، وأخرى عن عظة أخلاقية أو اكتشاف تاريخي أو نظرة فلسفية . ويوجد في آثار انجليكو والبرت دورير (Albert Dürer) ، ورمبراند (Rembrand) ودلاكروا ، وديكان ، كثير من النماذج الصالحة أو أصول فن التربية والتعليم ، أو علم النفس ، وكثير من الوداعة الذاتية والمنزلية ، والأحلام الحادة والبعدطبيعية المتصفة بالعظمة أو الأهواء الداخلية . ويعتبرون أنفسهم إنهم خلقوا عرقاً فريداً يمتاز بأجسامه الكبيرة النبيلة التي تحيا عزيزة شريفة ، وتنبىء عن جيل بشري أشهم وأقوى وأهدأ وأنشط ، حالفه التوفيق أكثر مما حالفنا . ومن هذه السلالة وسابقتها ، وليدة النحاتين الأغريق ، انبثقت في البلدان الأخرى ، كاسبانيا وفرنسا والفلاندر ، الصور المثالية التي شاء فيها الانسان أن يعلم الطبيعة : كيف كان ينبغي عليها أن تصنعه ، وكيف لم تصنعه على غرارها .

الفصل الثاني

الشرط الأولي

لقد عرفنا النتاج ، وبقي علينا ، عملاً بأسلوبنا ، أن نعرف البيئة التي نشأ فيها .

لندرس أولاً العرق البشري الذي أنتج هذا الفن . ان هؤلاء الناس نهجوا هذا النهج في فنون الرسم بسبب غرائز قومية ثابتة . فالخيال الايطالي تقليدي (كلاسيكي) ، أعني بذلك أنه لاتيني ، يماثل خيال الأغريق والرومان القدماء . وشاهدنا على ذلك ، ليست الآثار التي ظهرت في عصر النهضة فقط ، من نحت وبنيان وتصوير ، بل هندسة بنائه في القرون الوسطى وموسيقاه العصرية . ففي القرون الوسطى انتشرت الهندسة القوطية في سائر أنحاء أوربا ، لكنها تأخرت في دخول ايطاليا ، ولم ينفذ منها إلاّ مقتبسات ناقصة . وإذا قدر لنا أن نصادف فيها كنيستين مبنيتين تماماً على الطراز القوطي ، إحداهما في ميلانو والأخرى في دير اسيز (Assise) ، فلأنهما من نتاج مهندسين غرباء عنها . حتى ان الايطاليين ظلوا يبنون وفق الطراز القديم في زمن الغزاة الجرمان ، وعندما بلغ الحماس المسيحي أشده ، وعندما لقحوا الطراز القديم بعناصر التجدد ، ظلوا يتذوقون الأشكال المتينة والجدران الضخمة والاعتدال في الزخرف والنور الطبيعي الصافي ، وان أبنيتهم وما امتازت به من قوة ومزج وهدوء وأناقة ، تناقض التعقد الأهيب ، والصياغة المتنفخة ، والسمو الكئيب . والنور الباهت أو المشوه ، تلك التي تتجلى في الكاتدرائيات الكائنة عبر الجبال . هكذا كانت موسيقاهم الغنائية ، ولما تزل واضحة النسق ، يلذ وقعها في الأذن حتى في التعبير عن المشاعر الحزينة ، فتعارض بتناسبها ووضوحها وإيقاعها وعبقريتها المسرحية البليغة الوضاءة الصافية ، الموسيقى الألمانية الآلية ، الجزيلة العظمة ، المطلقة العنان ، الشديدة الغموض أحياناً . والتي تصلح كثيراً للتعبير عن أدق الخواطر وأعمق العواطف ، وغير ذلك مما يعتري النفس الرصينة التي تستشف اللانهاية وما وراء المحسوس في أثناء استشرافها المجهول وقلقها في دورانها . ولو كنا تفحصنا نهج الايطاليين خاصة والشعوب اللاتينية عامة في الأدب والمناقب والدين ، ولو كنا تبصرنا في

آدابهم وعاداتهم ورأيهم في الحياة ، لرأينا خيالاً مماثلاً لهذا الخيال ينبثق من مآثر هذه الحالات . والعلاقة التي تميزه هي القريحة والذوق في التنسيق ، وبالتالي حسن الترتيب والشكل المنسجم الصحيح . هو أقل دماثة ونفاذاً من الخيال الجرماني ، ويتعلق بالظاهر أكثر مما يتعلق بالباطن ، ويؤثر الزخرفة الخارجية على الحياة الداخلية ، هو أكثر وثنية وأقل تديناً ، وأكثر فناً وأقل فلسفة ، وأوضح حدوداً وأجمل . يفهم الانسان أكثر مما يفهم الطبيعة ، ويدرك كنه الانسان باعتباره كائناً اجتماعياً أكثر مما لو كان في طور الهمجية. ويشق عليه أن يحذو حذو الخيال الجرماني فيسف ليقلد ويمثل الهمجية والفظاظة والغرابة والمفاجأة والفوضى وفوران القوى الغريزية ، وخصائص الفرد العديدة المنكمشة ، والمخلوقات الدنيا أو التي لا شكل لها ، والحياة الصماء والغامضة الحالّة في كل مراتب الكائن الحي ، وليس مرآة عاملة جامعة لأن تعاطفه محدود . لكنه يتفوّق في الحقل الذي اختص به ، أعني الشكل . وبالمقارنة يظهر ذهن الشعوب الأخرى فظاً وجافاً . وقد انفرد وحده بالاهتداء والأبانة عن الاتساق الطبيعي الكائن بين الأفكار والصور . ولقد تجلى هذا الخيال ، على أتم وجه ، فيما أنتجه شعبان عظيمان : أحدهما الشعب الفرنسي ، وهو أوفر حظاً من صفات الشعوب الشمالية ، وأقل خيالاً ، وأكثر إيناساً ، وينسب إليه تنسيق الأفكار الصريحة أعني أسلوب التفكير وفن المحادثة . والآخر الشعب الايطالي ، وهو أوفر نصيباً من صفات أهل الجنوب ، وأكثر فناً وأقدر على التصور وأبرع في تنسيق الأشكال الحسية ، أعني الموسيقى وفنون الرسم . ان هذه القريحة الفطرية ، التي ظهرت بوادرها فيه منذ نشأته ، وصاحبته في كل أدوار تاريخه ، واتسمت بها أفكاره وعمله ، قد أنتجت آثاراً في غاية الكمال لما صادفت ظروفاً ملائمة في أواخر القرن الخامس عشر . وفي الحقيقة ، ان ايطاليا أنجبت وقتئذٍ دفعة واحدة ، أو أوشكت ، ليس خمسة أو ستة من كبار المصورين ذوي العبقرية النادرة ، المتفوقين على كل من تقدمهم ، أمثال ليوناردو دفنشي وميكلانج ، ورافائيل ، وجيورجيون ، وتيسيان ، وڤيرونيز ، وكورّيج ، بل أنجبت طائفة أخرى من المصورين الذين سما فهم واكتمل ، أمثال اندريا دل سارتو بونتورمو ، والبرئينلّي ، وروسو ، وجول رومان ، وبونيفازيو ، ولوينيان ... ومائة آخرين أقل شهرة تساموا في الذوق السليم ، وتمكنوا من ناصية أسلوب أولئك ، يؤلفون جيشاً ليس هؤلاء الا القادة فيه . وثمت عدد مساوٍ تقريباً من النحاتين والمهندسين البارزين . بعضهم جاء متقدماً ، والكثرة الساحقة معاصرة . ومن حول هذه الجماعات من الفنانين ، التي بلغت شأواً بعيداً في التنوع والخصب ، تألب الكثيرون من العارفين ، والظهراء والسراة ، وجمهور عظيم يسير في الموكب ، ليس مقتصراً على الشرفاء

والمتأدبين، بل يتكوَّن من الطبقة البورجوازية والصناع وبسطاء الرهبان وأفراد الشعب . فأضحى الذوق الرفيع في هـذا العصر ظاهرة طبيعية، سليقية وعامة، حتى باتت المدينة بأسرها، بما تحلت به من تعاطف وذكاء، تساعد في الآثار الفنية التي كان يمهرها الفنانون بتوقيعهم . ولا يجب أن يتبادر الى الذهن، أن الفن في عصر النهضـة هو وليد المصادفة العمياء، لأننا لسنا في صدد قوة سحرية قذفت على مسرح الوجود . بعض العقول التي أتقن صنعها، وفوجاً غريباً من ذوي العبقريات الفنية . ولا يمكننا إلاَّ أن نقر أن سبب هذا الأزدهار الفني هو استعداد عام في النفوس وقابلية مدهشة منبثة في كافة طبقات الأمة وقد دام الفن ما دامت هـذه القابلية . ويلاحظ أنها تفتحت ثم زالت في أزمنة محدودة، وكذلك الفن فأنه ازدهر ثم انتهى في نفس الأزمنـة . إن اتجهت في نموها صوب هذا الاتجاه. نحا الفن نحوها في نمائه. إنها بمثابة الجسم وهو بمثابة الظل : يولد بولادتها، وينمو بنموها، وينحط بانحطاطها ويقصد قصدها . هي تأتي به وتجتذبه وتنوعه تبعاً لتنوعها، فهو يترسم خطاها في كافة أجزائه وفي جميع صيرورته هي العـلة الضرورية لوجوده . إذاً يتحتم علينا أن ندرسها مفصلاً كي نقف على حقيقتها ونفسره .

الفصل الثالث

الشروط الثانوية

إنَّ هناك شروطاً ثلاثة يجب توفرها كي يستطيع الانسان أن يتذوَّق وينتج التصوير الرفيع . يجب عليه أولاً أن يكون مثقفاً . إذ أن الفلاحين البؤساء الجهلة، الذين يقضون صحابة يومهم مكبين على العـمل في حقولهم، والقادة في الحروب الذين ولعوا بالصيد واشـتهروا بالنهم والشرب، لا عمل لهم إلاّ السير في المواكب والتفكير بالحروب، لا يستطيعون أن يدركوا أناقة الأشكال وتناسق الألوان لانغماسهم العظيم في الحيـاة الحيوانية . فالصورة زينة، سواء كانت في كنيسة أو قصر، ولـكي ننظر إليها نظرة الفاهمين المغتبطين، ينبغي أن نتعفف قليلاً من المشاغل الفظة، وأن لا يكون كل تفكيرنا منحصراً في الأكل والشرب، وأن نكون قد جزنا عهد البربرية البدائيـة وما يصاحبها من طغيان وجفوة، وأن نتوق الى الاستمتاع بالملذات الشريفة الدقيقة، بعد رياضة عضلاتنا، واطلاق العنان لغرائزنا الحربية، وإشباع حاجاتنا الجسدية . كان الفرد فيما مضى فظّـاً، فأصبح يهوى

التأمل . كان يستهلك ويخرب فأضحى يجمّل ويتذوق . كان يعيش ، فصار يزخرف حياته . هذا هو الانقلاب الخطير الذي حصل في إيطاليا في القرن الخامس عشر . ففيه جاز الانسان العادات الاقطاعية وبلغ الفكر الحديث . وقد حصل هذا الجواز في إيطاليا قبل غيرها من البلدان قاطبةً . ويعزى هـذا الأمر الى أسباب كثيرة . منها أن الناس في هذه البلاد ذوو ذكاء مفرط وسرعة خاطر عظيمة . فكأن المدنية ، بالنسبة إليهم ، ظاهرة فطرية ، إذ أنهم يكادون يبلغونها بدون عون . حتى أننا نقع في صفوف الفلاحين الذين عدموا كل أسباب التثقف ، على ذكاء حاد طليق. لنقارن بينهم وبين الأشخاص الذين يمتون إلى ذات الطبقة في شمالي فرنسا وفي المانيا وانجلترا . اذا جرت المقارنة يصبح التحايز تبايناً صريحاً . فنُدُل الفندق في إيطاليا والقروي يجيدون الحديث والفهم والتفكير ، فيدلون بآرائهم ويعرفون الناس ويبحثون في السياسة ويقلبون الأفكار على وجوهها بيسر، كما يتصرفون في الكلام . فأحياناً يعبرون بوضوح ، ودائماً بسهولة ، وغالباً ما يجيدون التعبير . لا سيا وقد حُبُوا شعوراً طبيعيًّا مرهفاً لتذوق الجمال . وما من بلاد يشاهد فيها أفراد الشعب يقفون أمام كنيسة أو صورة ويصرخون متعجبين : « يا ألله ! ما أجمله » ! O Dio, com' è bello ! وللغة الايطاليـة ، في محاولتها التعبير عن هذا الحماس الذي يهجم على القلب ويسطو على الحواس ، نبرة ورنين وتفخيم يدعو الى الاعجاب ، بينما نرى أمثال هـذه الكلمات في اللغة الفرنسية جافة عاجزة عن احداث الأثر نفسه .

ان هذا الشعب الذي يتوقد ذكاءً ، كانت الغلبة بجانبه لأنه سلم من الجرمنة ، فلم يسحق ويستحيل كما جرى للبلدان الأوربية الأخرى من جراء الغزوات التي قامت بها الشعوب الشمالية . فالبرابرة لم يستقروا في بلاده إلاّ زمناً يسيراً ولم يَعْدُ تأثيرهم القهور . فنرى القوط الغربيون والفرنجة والقوط الشرقيّون يغادرون البلاد أو سرعان ما طردوا منها . واذا كان قدر للومبارديين أن يمكثوا فيهـا فلأن الثقافة اللاتينيـة ما عتمت أن طبعتهم بطابعها . ويقول أحد الرواة القدماء : في القرن الثاني عشر استولت الدهشة على الجماعات الألمانية التابعة لفريدريك بربروس لما رأوا أن هؤلاء اللومبارديين قد استحالوا لاتيناً وكانوا يأملون أن يجدوهم لا يزالون محافظين على خصائص عرقهم . « فتخلوا عن خشونة الوحشية» «البربرية واكتسبوا من تأثير الهواء والتربة شيئاً من الرقة واللطف الرومانيين ، واتقنوا» «التأنق في الكلام والآداب الاجتماعية التي تؤثر عن العادات القديمة ونهجوا نهج » «الرومان القدماء في تأسيس مدنهم وإدارة شؤونهم العامة » .

وظلّ الناس في ايطاليا يتكلمون اللاتينية حتى القرن الثالث عشر . فالقديس أنطونيوس من پادوا يعظ باللاتينية ، والشعب الذي بدأ يرطن باللغة الايطالية الوليدة ، كان يفهم دائماً اللغة الأدبية . لأن القشرة الجرمانية التي امتدت حتى عمت الأمة ، كانت رقيقة ، وما عتمت ان ثقبت فوراً بسبب بعث الحضارة اللاتينية . ولم تتعرف ايطاليا الى الملاحم والقصائد التي أصبحت منتشرة في كل أوربا في عصر الفرسان والاقطاعيين ، إلاّ عن طريق التراجم . وقد قلت فيما مضى إن فن البناء القوطي قد تأخر دخوله إلى ايطاليا وبشكل غير تام . ولما استأنف الايطاليون البنـاء في القرن الحادي عشر عمدوا الى اقتباس أشكال الهندسة اللاتينيـة أو امتلاكها . وبتأثير المؤسسات والعادات واللغة والفنون ، وفي أحلك وأشد ليالي القرون الوسطى ، نشهد انعتاق أو انبعاث الحضارة القديمة على تلك الأرض التي وطئها البرابرة ، ثم ما لبثوا ان ذابوا كما يذوب الثلج . لذلك ، إذا شئتم أن تقارنوا بين ايطاليا في القرن الخامس عشر وبين غيرها من الأمم الأوروبيـة ، فستجدونها أكثر غنىً وعلماً وتهذيباً ، وأكثر أهليـة لتجميل حياتها ، أعني إنها أكثر استعداداً لتتذوق وتنتج الآثار الفنية .

لم تكد انجلترا ، في هذه الفترة ، تخرج من حرب المائة سنة ، حتى خاضت تلك الحرب الفظيعة المسماة « بحرب الوردتين » . فكان النـاس يقتتلون برباطة جأش ، وبعـد المعركة يبحثون عن الأطفال العزل ويذبحونهم ، ولم تكن حتى عام ١٥٥٠ إلاّ بلاداً يقطنها المزارعون والصيادون والفلاحون والجنود . وكان عدد المداخن في مدينة داخليـة من مدن المملـكة لا يتجاوز الاثنتين أو الثـلاث . وكانت بيوت الاشراف الذين يقيمون في الريف أكواخاً مغطاة بالقش ومطينة بأغلظ أنواع التراب ولا ينيرها إلاّ الضوء النافذ من خلال الأغصان المتشابكة . وكانت الطبقات المتوسطة تفترش حصراً من قش وتتوسط حطبة كبيرة مستديرة . فكأن الوسائد الوثيرة كانت وقفاً على النفساء . ولم تكن آنيتهم قصديرية بل خشبية .

أما في المانيا فقد نشبت حرب شديدة مجتاحة قام بها « الهوسيّون » Hussites ، وانتزعت السلطة من يد الامبراطور ، وكان الاشراف جهلة سفهاء ، وقد اعتاد الناس اللجوء إلى القوة كلما دعا داع ليقتصوا بأنفسهم . ومن مطالعة المذكرات التي خلفها « هانس ده شوفينخن » Hans de Schovtinichen وأحاديث لوثيروس نستطيع أن نتبين المدى الذي بلغه الأشراف والمتأدبون في العربدة والفظاظة .

وكانت فرنسا يومذاك في أسوأ عهد من عهود تاريخها ، فالبلاد محتلة يعبث فيها الانجليز وكانت الذئاب على عهـد شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) تتسلل في ضواحي باريس . وبعد أن طرد الانجليز ، هبت العصابات المسلحة والجنود الهاربون يقتاتون من خيرات الفلاح

ويبتزون أمواله وينهبون كلما عنّ لهم ، وان خرافة « اللحْيَة الزرقاء » تتواتر عن أحد السادة السفاحين « جيل ده رتز » — Gilles de Retz — ١٤٠٤ — ١٤٤٠ .

وظلت النخبة المختارة من أبناء الأمة والاشراف في حالة بداوة وتوحش حتى آخر ذلك العصر ، مما حدا بالسفراء البنادقة الى القول ان سيقان السادة الفرنسيين مقوسة ومعوجة لأنهم يقضون معظم أيام حياتهم على ظهور الخيل . ويصف رابليه Rabelais في منتصف القرن السادس عشر الفظاظة القذرة والبهيمية الملازمة للأخلاق القوطية . وكتب الكونت « بالدازار كاستيليون » Baldasare Casti lione حوالي عام ١٥٢٥ يقول : « ان الفرنسيين يرون ان لا فضيلة إلاّ في السلاح ، ولا يقيمون وزناً لما تبقّى ، ولا يقتصرون على عدم تقدير الآداب ، بل انهم يمقتونها ، ويرون ان المتأدبين هم أحقر الناس ويعتقدون انه ما من عار يعادل العار الذي يصيب الانسان أيّاً كان ، إذا ما قيل له انك كاتب » .

وبالجملة نرى ان النظام الاقطاعي يسود كل اوربا ، وان الناس كالحيوانات الضارية والقوية ، لا يحلمون إلاّ بالأكل والشرب والحرب . أما ايطاليا فقد كانت على نقيض ذلك إذ توشك أن تكون بلاداً عصرية . ان السلام قد توطدت دعائمه بفضل زعامة آل مديتشي ، وان أفراداً من الطبقة البورجوازية كانت تمارس الحكم بأساليب تبعث الاطمئنان . وكان هؤلاء يحذون حذو سادتهم من آل مديتشي ، فيزاولون الصناعة والتجارة وينشئون المصارف ويكسبون أموالاً طائلة ، يتصرفون فيها تصرف القوم المفكرين . ولم تكن هموم الحرب لتنغص عليهم عيشهم ، كما كانت الحال سابقاً وينوء بهم حملها العنيف المشؤوم . وعلة ذلك انهم كانوا يعوّلون في الحرب على سواعد جماعة من المرتزقة تأصلت فيهم النزعة التجارية وامتازوا بالفهم ، فسرعان ما تتحول الحرب على يدهم إلى ما يشبه المواكب ، ولا يتقاتلون إلاّ سهواً . وتذكر أسماء معارك كثيرة لم يقتل فيها الاّ ثلاثة جنود وأحياناً جندي واحد ، لأن الدبلوماسية تغني عن القوة وتنوب عنها . يقول ماكيافيلّي : « يعتقد الملوك الايطاليون » « ان على الأمير أن يحسن تدبيج رسالة أنيقة ، ويتمكن في المراسلات من انشاء جواب » « قارس ، ويظهر في أحاديثه سرعة الخاطر والرقة ويجعلها خديعة ، ويتزين بالحجارة الكريمة » « والذهب ، ويكتنف الرونق طعامه ومنامه ، ويحيط نفسه بكل أنواع الملاذ » . فلا بدع اذا أصبح القوم متأدبين ، كثيري الاطلاع ، ومن هواة الأحاديث العلمية ولأول مرة ، منذ سقوط الحضارة القديمة ، نرى جماعة من الناس يولون الملاذ الروحية المقام الأول . وقد اشتهر في هذا العصر جماعة النشوريين humanists العاملين بشغف على إحياء روائع الآداب القديمة من أغريقية ولاتينية . فطفقوا ينقبون في مكتبات أوربا عن المخطوطات ليكتشفوها

وينشروها . ولم يكتفوا بإدراك معانيها ومدارستها ، بل أخذوا يستوحونهـا . وأصبحوا قدماء روحاً وقلباً يعبرون عن أفـكارهم بلغة لاتينية فصيحة لا تقل فصاحة عن لغة معاصري شيشرون وفرجيل . فما لبث الانشاء أن أصبح طليّـا والفـكر ناضجاً وعند ما ينتقل القارىء من قراءة الأبيات المتعبة ورسائل بترارك المفعمة غروراً وادعاءً ، الى قراءة المثاني الأنيقة التي نظمها بوليسيان Politi n أو قراءة نثر فالاً Valla الفصيح ، يشعر بلذة توشك أن تكون لذة جسدية . وتشرع الأصابع والأذن ، من غير وعي ، تقطع الصياغة السهلة التي امتازت بها المقاطع الشعرية ، والبسط الرحيب الذي تتصف به العبارات الخطابية . وفي آن واحـد سمت لغة الـكتابة وفصحت ، وانتقل العلم من أروقة الأديرة الى القصور فتحوّل من أداة للجدل الى وسيلة للسرور .

ولا يتبادر الى الذهن أن هؤلاء العلماء كانوا يكوّنون فئة صغيرة مجهولة ، منزوية في المـكتبات ، بعيدة عن عطف الناس ورعاتهم . بل كان الأمر على نقيض ذلك : فان لفظة نحوري humanist يلقب بها أحدهم ، كانت كافية في ذلك العصر لتدعو الأمراء كي يشملوه بعطفهم ويغدقوا عليه الهبات . فنرى الدوق لودوفيك سفورزا Ludovic Sfarz من ميلان ينتدب الى جامعـة ميرولا Merula وديمـتريوس شالـكونديل Démétrius Chalcondyle ويستوزر العالم « سيكـو سيمونتا » Ceceo Simonetta . وأصبح كل من ليونارد آرتيان ، وبوغجيو ، وماكيافيلّـي ، نواميس (سكرتير) الجمهورية الفلورنسية ، واتخذ ملك نابولي انطونيو بيكادلي A. Beccadelli ناموساً له . ويعد البابا نيقولا الخامس أكبر نصير عرفه المتأدبون الايطاليون . وقد أرسل أحد هؤلاء المتأدبين مخطوطة لملك نابولي ، فشكره الملك على هديته وعدها منة عظيمة . وأنشأ كوزيمو دي مديسي Cosimo de Médicis مجمعاً فلسفيـّا ، وأحيا لوران الموائد الأفلاطونية . أما صديقه لانديني Landino فقد ألف محاورات تدور بين أشخاص انفردوا مرة في دير الـكامالدول Camaldules ليتبردوا ، فقضوا عدة نهارات يتجادلون ليعلموا أي الحياتين أسمى : الحياة العملية أم الحياة التأملية . وأقام ابن لوران مناظرة تدور حول الصداقة الحقيقية وعين للفائز اكليلاً مصنوعاً من الفضة . وأصبح كبار التجار وعظماء الدولة يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين والعلماء ليتباحثوا معهم في غرفة مزدانة بالتماثيل النصفية الثمينة ، تحوي المخطوطات التي عثر عليها المنقبون والتي تضم بين دفتيها الروائع القديمة .

وتجري الأحاديث بألفاظ مختارة وعبارات مزخرفة دون أن يحسب حساباً للمصطلح الاجتماعي أو الطبقة . وبسائق من هذه الرغبة السمحة الشريفة التي وصعت من أفق العلم

وجلته ، تحوّلت الخصومات المحدودة المطبوعة بطابع القرون الوسطى الى فرح تنعم به العقول المفكرة .

وليس بمستغرب أن تستيقظ اللغة العامية التي هجرت منذ أيام بترارك Pétrarque وتساهم في نتاج لون أدبي جديد . فلورانزى مديتشي ، الصراف الرئيسي والقاضي الأول في المدينة يعد في طليعة الشعراء الايطاليين الجدد . ونشأ الى جانبه بولسي Pulci وبواردو Boiardo وبرني Berni وظهر فيما بعد بمبو Bembo وماكيافيلّي Machiavel وأريوست l'Arioste وهؤلاء جميعاً نماذج قاطعة للاسلوب المتمم والشعر الرصين والعبث المضحك والغبطة الرقيقة والهجو الماض والتفكير العميق . والى جانبهم ، ودونهم منزلة،ظهر عدد من القصاص والرواة المتهكمين والخلعاء استطاعوا أن يكسبوا عطف الأمراء ويفوزوا بالحظوة لدى الرأي العام ، ومرد ذلك الى خفة روحهم وتفننهم ونكتهم . فأصبحت القطعة الشعرية أداة للمديح أو الهجو تتلقفها جميع الأيدي ، ويحرص الفنانون على اقتنائها مقايضة . ويروي سلّيني نفسه أن عشرين إعلاناً علقت في اليوم الذي ظهر فيه تمثاله « برسه » Persée . ولم تكن تخلو مأدبة أنيقة ولا حفلة عظيمة من الشعر ، وفي أحد الأيام أجاز البابا ليون العاشر شاعراً يسمى « تيبالديو » Tebaldeo بمبلغ ٥٠٠ دوقة لأبيات راقت له لما تنطوي عليه من سخرية . وفي روما أولع الناس أيما ولع بشاعر آخر « برناردو أكولتي Bernardo Accolti فكان التجار يغلقون حوانيتهم ويتوافدون ليسمعوه يقرأ على الجماهير في قاعة تنيرها المشاعل ، ويشاهد الأساقفة يحيط بهم الحرس السويسري . فكانت أبياته البارعة تلتمع بالأفكار الممحصة وملحه الأدبية المماثلة للنواقل التي يوشي بها المغنون الايطاليون أنغامهم المجوعة ، تستسيغها الجماهير فينفجر التصفيق من كل صوب .

إنني قد تكلمت عن ثقافة فكرية جديدة اتصفت باللطافة والرقة ، ظهرت في إيطاليا في الزمن الذي ظهر فيه الفن الجديد . وكنت أود أن أزيدكم علماً بهذه الثقافة ولا يتأتى لنا ذلك بواسطة عبارات مقتضبة . بل برسم صورة تامة في مناسبة غير هذه المناسبة .

بين يدينا كتاب يعود الى ذلك العصر ، نجد فيه وصفاً للسيد والسيدة الكاملين ، أعني الشخصين اللذين كان المعاصرون وقتئذٍ يعتبرونهما أفضل النماذج . وحول هذه الصور الخيالية تزدحم الصور الحقيقية . أمام عينينا بهو ، يرجع الى العام ١٥٠٠ ، بضيفانه ومحادثاته وزخرفه وحفلاته الراقصة وموسيقاه ومناقشاته وألفاظه المليحة . وبالحقيقة أنه أكثر حشمة وروحانية وأغنى بمظاهر البطولة من أبهاء روما أو فلورنسا ، ويمتاز باظهار

أنبل وأنقى فئة من الأشخاص المثقفين المتفوقين ، وقد اتخذوا أوضاعاً تتجلى فيها العظمة . ومن يشأ الاطلاع عليه فليتصفح il Cartegiano المنسوب الى الكونت كاستيليون (١٤٧٨ — ١٥٢٩) .

كان الكونت كاستيليون يعمل في خدمة دوق أوربان ، وقد عمل أيضاً في خدمة خلفه. وكتب هذا الكتاب اذكاراً للأحاديث التي وعاها في بيت سيده الأول . أما الثاني فقد كان معلولاً وكسيحاً من جراء الرثية « داء المفاصل » ، فكانت البطانة القليلة تجتمع مساء كل يوم عند زوجته ، الدوقة اليزابث ؟ وهي امرأة تؤثر عنها الفضيلة والذكاء . فيلتف حولها وحول صديقتها مدام إميليا بيا Emilia Pia كل أصناف الرجال المبرزين الذين كانوا يفدون من جميع انحاء ايطاليا . وقد عرج عليها البابا يوليوس الثاني في احدى سفراته وقضى عندها بعض الوقت . وكان المكان الذي تعقد فيه الاجتماعات والظروف المناسبة للحديث تليق بأمثال هؤلاء الرجال . كانوا يجتمعون في قصر فخم بناه والد الدوق ، ويقول الكثيرون إنه أجمل ما في إيطاليا من القصور . فالغرف كانت مزدانة بالأواني الفضية ، والطنافس الموشاة بالذهب المزخرفة بالحرير ، والتماثيل والجذوع القديمة المصنوعة من الرخام والفضة . ورسوم « بيرو دِلاّ فرانسسكا . Piero della Francesca وجيوفاني سانتي Gioovannj Santi والد رفائيل . ويرى الناظر طائفة من الكتب اللاتينية والاغريقية والعبرية . جمعت من سائر انحاء أوربا ، ومغشاة . تقديراً لقيمتها، بالذهب والفضة . أما الحاشية فقد بلغت مبلغاً عظيماً من الظرف حتى عزّ أن يوجد لها نظير في إيطاليا . فكانت الأيام تنقضي في الحفلات والرقص والمبارزة والأحاديث . يقول كاستيليون : « ان المحادثات الحلوة واللذات الشريفة . جعلت من هذا البيت الموطن الحقيقي للسرور » . وقد جرت العادة أن يلهوا بعد العشاء والرقص بحل جميع أنواع الأحاجي . وتعقب هذه السلوى محادثات ودية كثيراً وبالوقت نفسه رصينة ولذيذة تساهم فيها الدوقة . وقد انعدمت في هذه الاجتماعات قوانين الطقوس فيجلس أحدهم حيثما يشاء وكيفما يشاء ، الى جانب سيدة ، ولم تكن المحادثة على شيء من التنظيم أو الضبط ، مما يفسح المجال للاستنباط والابداع . وفي مساء أحد الأيام ، بناءً على طلب احدى السيدات ، ارتجل « برناردو أكولتي » قصيدة بديعة يمدح بها الدوقة . ولما فرغ من إلقائه ، أمرت الدوقة كلاً من مدام مرغاريتا ومدام فريجوزا أن ترقصا . فتناولت الواحدة يد الأخرى وأعدَّ الموسيقي المغرب « بارلتا » Barletta آلته ثم بدأتا الرقص على نغم الموسيقى . بدأ الرقص وئيداً ثم ما عتم أن أصبح حيّاً نشيطاً . وحوالي نهاية اليوم

الرابع لاحظوا أن الشمس أوشكت أن تشرق ، ذلك لأنهم قضوا الليل كله في محادثات طلية :

« فتحت نوافذ القصر المطلة على قمة جبـل « كاتاري » Catari الشامخة ورأوا فجراً جميلاً ورديـا بدأ يبزغ من جهة المشرق . اختفت النجوم كلها من السماء ولم يعد يرى فيها إلا رسولة الزهرة ، الوديعة ، التي تقيم على تخم « الليل والنهار . ويخيل أن نسيماً حلواً ينبثق عنها ويفعم الفضاء بطراوته المؤثرة ويبدأ يوقظ أجواق الطيور المحبوبة في الغابات الثرّارة التي تكسو التلال المجاورة » .

ونستطيع الآن ، استناداً الى هـذه القطعة ، أن نحكم على نصيب الانشاء من اللذّة والاناقة والزخرفة . ويعد بمبو ، وهو أحد المتحادثين ، أغزر الناثرين الايطاليين مادة ، وأكثرهم تهذيباً للأسلوب وتفخيماً . وتتنوّع في هـذه الاجتماعات ألوان الأنس واللطافة فتزف للسيدات ألفاظ التقريظ ثناءً على جمالهنّ وكياستهنّ وفضيلتهنّ ، ويثني على السادة لشجاعتهم وتفكيرهم وعلمهم . ومن مزيتهم أنهم يتبادلون الاحترام ويحرصون على ملاطفة بعضهم بعضاً . وهذه الظاهرة هي سنّـة السلوك الحسن مع الناس والجاذب اللذيذ الذي يسود جوّ المجلس الظريف . ولا يفهم من ذلك أن ناموس الأدب ينافي السرور : فكثيراً ما كانت تتخلل المحادثات مناوشات ناشئة عن الألفة ، ونوادر ، وحكايات قصيرة وقارصة وطيبة ، ومداعبات وعبارات ظريفة وحَرْد لا يلبث أن يزول . وجرت في أحد الأيام محاولة لتعريف الظرف الصحيح ، فانبرت سيدة وروت القصة التاليـة حسب المثل القائل : والضد يظهر حسنه الضد : « زارها مؤخراً سيد ينهج في حياته على الطراز القديم ، وعدا ذلك فهو جندي ، وقد أصدأت الحياة الريفية الفظة طباعه . فأخذ يحصي لها ما قتل من الأعداء ويظهر ان الحماس بلغ به أشده ، فانتقل من الكلام والرواية الى الحركة ، وأراد أن يشرح لهـا كيف كانوا يستعملون السيف في حالتي الطعن والضرب . وقد اعترفت ، والابتسامة تعلو ثغرها ، إن القلق بدأ يساورها ، واتجهت ببصرها صوب البـاب ، وهي لا تنفك تتساءل في كل برهة إذا كان ينتهي الأمر بقتلها . قس على ذلك طائفة مماثلة من التعبيرات التي تظهر في كل آونة أهمية المحاورة ورصانتها . ويلاحظ ان الفرسان كانوا مطلعين على الأدبين الاغريقي واللاتيني ، ويعرفون التاريخ ، ويلمون بشؤون الفلسفة والفلسفة المدرسية . فاذا ما تناول الحديث غير هذه الأمور تتوسط السيدات ، فيعنفنهم قليلاً ويدعونهم للعودة الى البحث في مسائل أكثر مساساً بحياة الناس ، ولا يرغبنَ كثيراً أن يسمعنَ أثناء المحادثة ذكر أرسطو وأفلاطون وشراحهما العبوسين ، ويمقتن بحث النظريات المتعلقة بالحار والبارد . والعرض والجوهر . وسرعان ما يعود المتحدثون إلى سياق الكلام الجميـل المتعلق بالشؤون الدنيوية ويكفرون عن حديثهم

في العلم وما وراء الطبيعة، بخطاب ظريفة ولذيذة . ومهما كان الموضوع صعباً والنقاش حامياً . فإنهم يحرصون دائماً على التعبير بأسلوب أنيق متقن . إنهم يدققون كثيراً في دلالة العبارات ، ويفرطون في تدقيق معاني مفردات اللغة ، كما سوف يصبح المحدثون المتأنقون الذين يضمهم قصر « رامبويه » أولئك الذين عاصروا ڤوجلا vaugelas ووضعوا أسس أدبنا الكلاسيكي . لكن أسلوب الايطاليين الفكري أكثر شاعرية ولغتهم أكثر موسيقية. وبسبب وفرة الايقاع فيها ورنين أواخرها ، يستطيع الايطالي أن يخلع على الأشياء المألوفة الجمال والانسجام ، ويحيط بعض الأشياء الجميلة بإطار من الزخرفة الرقيقة التي تغري باللذات. وإليك قطعة يصوّر فيها الكاتب آثار الشيخوخة السيئة . فالاسلوب ، لا يختلف عن السماء الايطالية ، يسكب نوراً مذهباً حتى على الخرائب ، ويحوّل مشهداً محزناً إلى صورة فنية رائعة :

« في هذا العهد تذبل وتسقط في قلبنا أزهار الفرح الغضة ، كما تسقط أوراق الأشجار»
« في الخريف . وعوضاً من الخواطر الرائقة والصافية ، يتوارد علينا الحزن ، بلون السحابة »
« الدكناء ، مصحوباً بألف بلية . ولا ينحط الجسم فقط ، بل ان الفكر يعتل أيضاً ، ولا »
« يستبقي من ملاذه الغابرة سوى ذكرى لازبة، وخيال ذلك العهد الحبيب النضر. فاذا عدنا »
« الى ذلك الماضي بالفكر ، يخيل إلينا أن السماء والأرض وكل الأشياء تحتفي بنا وتضحك »
« حولنا . ويزهر في أعماق نفسنا ربيع السرور اللطيف، كما يزهر في بستان جميل وبهيج »
« ولهذا السبب ، عندما تجنح شمسنا إلى المغيب ، في الفصل البارد من عمرنا ، وتحرمنا »
« الاستمتاع بلذاتنا ، يجمل بنا أن نفقد الأذكار بفقدها ، وأن نلوذ بحيلة تعلمنا السلوان »

وأيّاً كان موضوع الحديث ، فانه لا يجرد الحديث من روائه . فبناء لرغبة الدوقة ، ينهض كل فرد لشرح بعض المزايا التي تتضافر على جعل الفارس تامّاً والسيدة مكتملة ، ويُبحث نوع التربية التي تعمل على تهذيب النفس وتقوية الجسم لا للمساهمة في أعمال المجتمع المدنية فقط ، بل للظرف الذي تتطلبه الحياة الاجتماعية . لاحظوا كل ما كان يجب توفره وتنسّقه في الرجل الذي تمّ تهذيبه ، من رقة وذوق صائب وتنوع في المعارف . ويخيل إلينا أننا بلغنا درجة عظيمة في التمدن ، ومع ان ثلاثمائة عام قد تقضت على ذلك العصر ، انصرفنا خلالها لاقتباس أساليب التهذيب وفنون الثقافة ، لا نزال نجد في تلك الحضارة أمثالاً يقتدى بها ودروساً ينتفع منها .

« وينبغي أن يكون رجل البلاط عندنا متثقفاً في الآداب ثقافة تتجاوز الحد الوسط »

« وعلى الأقل فيما يسمى علم البيان ، وأن يعرف الى جانب اللغة اللاتينية ، الاغريقية أيضاً »
« وذلك لوفرة التنوع في التآليف القيمة التي كتبت بهذه اللغة ... ، وأن يكون مطلعاً »
« على ما أنتجه الشعراء والخطباء والمؤرخون ، وأن يروّض نفسه على الكتابة شعراً ونثراً »
« وخصوصاً بلغتنا العامية . فضلاً عن السرور الذي يشعر به في أعماق نفسه ، فلا يستبعد »
« أن تجمعه المصادفات السعيدة بالسيدات اللواتي يحببن عادة هذه الألوان الطريفة . ولا »
« يسرني الفارس إذا لم يكن موسيقيّاً ويحسن استعمال عدة آلات . لأن الموسيقى لا »
« تقتصر مهمتها على الانشراح وتسكين الهموم ، بل كثيراً ما تتخذ وسيلة لتسر السيدات »
« لأن قلوبهنّ الرقيقة والحنونة سرعان ما تتأثر وتنتشي من الايقاع وعذوبته » .

لا يقصد بذلك أن يصبح المرء موسيقيّاً مفلقاً وأن يصطنع الظهور للتدليل على قريحة فريدة في نوعها . فالقرائح لا شأن لها إذا لم يفد منها الجمهور ، ولا يجب أن يكون رائدنا الغرور في تحصيلها ، بل لكي تدنينا من قلوب الناس ولا يجب أن نروّض القرائح لننال الثناء من أفواه الناس بل لنبعث السرور في نفوسهم . لذلك يتحتم علينا أن لا نظل غرباء عن فن من الفنون اللذيذة .

« وهناك شيء أقدر أهميته العظمى وينبغي على الفارس أن لا ينبذه ظهريّاً : هو موهبة الرسم والعلم بأسرار فن التصوير » . وهذه البراعة زينة الحياة المثلى المهذبة التي ينبغي أن يعيرها الذهن التفاتاً ويتعلق بها كما يتعلق بكل ما هو أنيق دون أن يبلغ حد الافراط . لأن الموهبة الفنية الحقيقية التي تناط بها جميع الفنون هي الذوق الصائب « وشيء من إصالة »
« الرأي والفطنة ، والاختيار الرصين ، ومعرفة القليل والكثير عن الأمور وما إذا كان »
« انجازها قد تمّ في الوقت الملائم أو في غير أوانه . فمثلاً ، عندما يكال المديح لهذا الفارس »
« ينبغي أن لا يوافق علانية عليه وإن كان المديح في موضعه ، بل أن يدفعه بحشمة ، »
« مظهراً دائماً ومتمسكاً حقيقة بحرفته الرئيسة ، ألا وهي تقلد السلاح وان لا يرغب في »
« المواهب الأخرى إلاّ اذا زانت تلك الحرفة . واذا شاء أن يرقص على مرأى من أشخاص »
« كثيرين ، وفي مكان يغص بالناس ، أعتقد أنه يتحتم عليه أن يحتفظ بشيء من العظمة »
« تلطف حدتهما الحركات التي تنم عن لطف وكياسة . ومتى دعي الى ضرب المعازف ، »
« فليتظاهر أنه لا يروم غير اللهو وأنه مضطر الى تلبية الرغبة ، وهب كأنه ينهض للأمر »
« على الوجه الأتم ، ويملك زمامه فأرغب اليه أن يكتم ما اقتبس من علم وما كابد من نصب »
« حتى بلغ هذه الدرجة من المعرفة . وليتظاهر أنه لا يعلق أهمية عظمى على هذا الضرب »
« من الأعمال ، مع انه يجيدها ، كي يجعل الآخرين يكنون له تقديراً عظيماً » .

ولا يجدر به أن ينفعل من حذق لا يتأتى إلاّ لأبناء بجدتها ، وينبغي أن يحمل الناس على احترامه ، وان لا يتمادى في ارسال النفس على سجيتها وان يظهر تحفظاً في سلوكه وتحكماً في زمام أموره ، وان يبدو ساكن الطائر كأنه إسباني الأصل . ولتكن ثيابه نظيفة ومتأنقاً في ارتدائها ، وليكن ذوقه في ذلك دليلاً على الرجولة لا على التخنث ، وليختر اللون الأسود ، لأنه يعد عنوان الخلق الوقور الرصين . وكذلك ينبغي أن لا يستخفه الطرب أو تبطره حدة ذكائه ، وان لا يهيج هائجه أو يصاب بالأثرة . ليتحاش الفظاظة والكلمات النابية التي تندى لها الجباه وتحمر لها خدود السيدات خفراً . وليكن مهذباً ، حسن الطواعية ، لين العريكة مع الناس ، ويحسن الحديث الفكه ورواية الأقاصيص السارة بأسلوب لا ينافي الحشمة . وان أفضل وصية يمكن تزويده بها هي أن يسوس أموره بحكمة بغية أن يقع من نفس السيدة موقعاً حسناً . ومن هذا الالتفات الحاذق ، نرى أن صورة الرجل تمت بصلة إلى صورة السيدة وان الألوان الدقيقة التي عوِّل عليها في رسم الصورة الأولى ، تصبح ألطف وأنعم متى ساهمت في رسم الصورة الثانية .

«كما انه يندر وجود بلاط في الدنيا ، مهما كان عظيماً ، يتوفر فيه الجمال والسناء »
« والبهجة دون أن تغشاه النساء ، كذلك لا يوجد فارس على الاطلاق يتحلى باللطف والظرف »
« والجراءة وينهض لأمر جلل اذا لم يستمتع بمعاشرة النساء وحبهن وعطفهن . وتظل الصورة »
« التي نتخيلها للفارس ناقصة جداً اذا خلت من عنصر النساء اللائي يستطعن أن يمنحنها شيئاً »
« من الظرف الذي يضفينه على الحياة في البلاط فيجعلها جميلة مكتملة ».

«وعلى السيدة التي تحيا في البلاط ، أن تكون على شيء من البشاشة المستحبة كي »
« تستطيع أن تتحدث بلطافة ، إلى أي كان من الناس ، أحاديث لذيذة وشريفة ومناسبة »
« للمكان والزمان وتلائم سامعها ، وان تكون على نصيب من المجون الموسوم بالهدوء »
« والحياء والحشمة التي تصبغ كل أعمالها بصبغة الرزانة والحكمة . وفيما عدا ذلك ينبغي »
« أن تكون على شيء من حدة الذهن تجعلها تظهر انها بعيدة عن كل غباوة وفظاظة ، »
« وأن تجمع الى ذكائها لوناً من ألوان الدماثة لا تجعلها في نظر الناس عفيفة ورشيدة »
« ووديعة فقط ، بل مستحبة وأريبة ونبيهة وناعمة . لذلك ينبغي أن تختلف الى الأوساط »
«المسيرة التي تتوفر فيها المتناقضات ، وتسترسل الى مدى معين على شريطة أن لا تتجاوزه » .

« واذا كانت هذه السيدة ترغب في كسب الصيت الحسن ، كأن يقال عنها انها شريفة »
« وفاضلة ، فلا يجب أن تتطرف في الظهور بمظهر التقية الورعة ، وأن تبدي الاشمئزاز والوهل »
« من المعاشرات والمحادثات التي تسترخي فيها قليلاً قيود الآداب ، بل من الأفضل أن »

« تميّزها كي يتبادر الى أذهان الناس عند ذلك أنها تتردد في اخفاء سر مصون يتعلق »
« بها وتخشى أن يتصل علمه بأحد . لأن الأساليب التي تتصف بالفظاظة والجفوة ممقوتة »
« دائماً . ولا ينبغي عليها ، اذا ما شاءت أن تكون محبوبة وحرة ، أن تتفوّه بألفاظ »
« بذيئة قبيحة ، وتظهر دالة تعدو حدود الاعتدال والوقار وتنم عن فساد سيرة ، فتحمل »
« الناس على القيل والقال واتهامها بما قد تكون بريئة منه . ولكن إذا قدر لها أن توجد »
« في مكان تدور فيه أحاديث عليها طابع القحة والفساد ، فيجب أن تتظاهر »
« بشيء من الحياء والخجل » . ويمكنها ، إذا كانت ذات حيلة ومهارة أن تغير وجهة الحديث كأن تجعله يدور من حول مواضيع أكثر أدباً ونبلاً . وان الأمر ليس فوق طاقتها ، لأن تربيتها لا تهبط كثيراً عن مستوى تربية الرجل ، إذ عليها أن تطلع على الآداب والموسيقى والرقص وتتقن الرقص والحديث الممتع ...

* * *

وتجمع السيدات اللواتي يحضرنَ المحادثة بين القدوة والمبدأ ، ويسطع ذوقهنَّ وعقلهنَّ إلى مدى محدود ، ويصفقنَ عند ما يشهدنَ حماس « بمبو » ويصغينَ إلى نظرياته الأفلاطونية النبيلة في الحب الشامل الصافي . وكثير من النساء الايطاليات قد جمعنَ في ذلك العصر بين المواهب الرفيعة والثقافة العالية . ومن يرَ الصور التي ظهرت في ذلك العصر ، والموجودة حالياً في متحف اللوفر ، والتي تمثل البنادقة الشاحبين المفكرين يرتدون الثياب السود ، وصورة « الشاب » من ريشة فرنشيا Francia (١٤٥٠ — ١٥١٨) ، يتعانق فيه الاحتدام والسكون ، وصورة جان ده نابل » Jean de Naples الناعمة ، ذات العنق الطويل اللدن كعنق الاوزة ، و « الشاب في التمثيل » لبرونزينو Bronzino ، من يرَ كل هذه الوجوه الذكية الهادئة ، وكل هذه الأزياء التي تجمع بين الأبهة والفخامة والجفوة ، يمكنه أن يكوّن فكرة عن النعومة الفاتنة ، والمواهب الغزيرة ، والثقافة المكتملة التي تركزت في هذا المجتمع الذي سبق عصرنا بثلاثة قرون ، وكان يعني بشؤون الفكر ، ويتذوق الأناقة ويمارس اللطافة ، على نحو ما نفعل نحن اليوم ، بل ربما تفوّق علينا في هذا المضمار .

الفصل الرابع

الشروط الثانوية

يقودنا هذا الكلام لنميز طابعاً آخر لهذه الحضارة وشرطاً آخر لنشوء التصوير الرفيع. كانت الثقافة الفكرية فيما خلا من الأزمنة تتصف بالنباهة دون أن يحظى التصوير ببهاء مماثل. ففي عصرنا، مثلاً، قد كدس الناس، فيما عدا المعارف التي خلقها القرن السادس عشر محصول ثلاثمائة عام من الاختبارات والاكتشافات جعلتهم أكثر علماً وأغزر أفكاراً من كل زمان مضى. ومع ذلك، فاننا لا نستطيع القول أن فنون الرسم في أوربا الحديثة تنتج روائع فنية تضارع الطرق الفنية التي ظهرت في ايطاليا في عصر النهضة. ولكي ندرس الآثار الفنية العظيمة في عام ١٥٠٠، لا يجب أن نقف عند حد ملاحظة الذكاء الحاد والثقافة المكتملة التي كان يملكها معاصرو رفائيل. بل ينبغي أن نشرح ونعرّف هذا النوع من الذكاء وهذا اللون الثقافي، وأن نقارن بين ايطاليا والقارة الأوربية أولاً، وبينها وبين أوربا الحالية التي نعيش فيها اليوم.

لنتوجه بادىء ذي بدء الى المانيا التي تعد حقيقة في طليعة البلدان الأوربية علماً. فهناك وعلى الأخص في ألمانيا الشمالية، يحسن الجميع القراءة. وزيادة على ذلك، يقضي الشبان في الجامعات من خمس الى ست سنوات. وليس هذا التعليم مقتصراً على الشبان الأغنياء أو الميسورين، بل متاحاً للجميع على وجه التقريب من الطبقة المتوسطة، ولأفراد قلائل من الطبقة الدنيا، يقاسون في سبيل ذلك مشقات كثيرة وشظفاً عظيماً. وينظر الى العلم في تلك البلاد بعين الاكبار والاجلال، فيولد أحياناً التكلف والغرور وغالباً الغطرسة. وأضحى كثير من الشبان يستعملون النظارات لا لتساعدهم على النظر، لأن عيونهم سليمة، بل لكي يضفوا على أنفسهم مظاهر العلماء. وان ما يشغل رأساً ألمانيّاً وهو في سن العشرين، ليست الرغبة في الظهور في نادٍ أو مقهى، كما هي الحال في فرنسا، بل الارادة التي تدفعه لتحصيل نظرات شاملة عن الانسانية والعالم والفوقيطبيعة والطبيعة وعن أشياء أخرى كثيرة. وبكلمة

موجودة ، انه يهتم بتحصيل فلسفة كاملة . وما من بلاد كألمانيا يتوفر فيها ذوق عظيم جداً ، واهتمام مألوف ، وذكاء طبيعي لتفهم النظريات المجردة العالية . هذه البلاد هي وطن البعديطبيعية والمذاهب الفلسفية . لكن هذا الفيض في التأملات الرفيعة ألحقت أذى بفنون الرسم . فالمصورون الالمان يبذلون قصارى جهدهم ليعبروا على خاماتهم أو في نقشهم على الجدران عن خواطر إنسانية أو دينية ، وان الشكل واللون يتناطان بالفكرة السائدة . ولهذا جاء فنهم رمزيّا . وتشاهد على الجدران دروس في الفلسفة والتاريخ . ومن يذهب الى ميونخ يشاهد ان كبار الفنانين فلاسفة ضلوا السبيل في تيه التصوير ، يحسنون مخاطبة العقل لا النظر ، وكان الأولى بهم أن يستعيضوا عن الريشة بالقلم :

لننتقل الآن إلى انجلترا . فنرى الرجل في الطبقة الوسطى يعمل وهو فتى في مخزن أو مكتب حيث يقضي عشر ساعات يوميًا ، ولا ينقطع عن العمل حتى بعد عودته إلى بيته ، انه يبذل كل قواه العقلية والجسدية ليكسب ما يستطيع من المال . ثم يتزوج وينسل أولاداً كثيرين فيضاعف عندئذٍ جهده ويزداد نصبه . والمنافسة في تلك البلاد عنيفة والأقاليم قاسٍ والحاجات كثيرة . ولا يتبادر الى الذهن ان الغني أو النبيل أو السيد الجليل ينعم في بحبوحة من الفراغ وخلو البال لا يتاحان للاول ، وعلة ذلك أن الطبقة الرفيعة مشغولة ومعلقة بواجبات عظيمة . فالسياسة تسترعي انتباه جميع الناس ، والذهن يقتات بما تولده اجتماعات الجماهير ، واللجان ، والنوادي ، والصحف كالتايمس Times التي تقدم لقارئها صباح كل يوم كتاباً تامًا ، وأرقاماً ، واحصائيات ، وكتلة ثقيلة من أنباء الحوادث تبعث التخمة ، فلا تؤكل ولا تهضم ، وفوق كل ذلك ، قضايا دينية خطيرة وتشييد مؤسسات ، والقيام ببعض المشاريع ، وشغل البال الذي لا يني ينقب عن الوسائل التي تؤدي الى تحسين الحالة العامة والخاصة ، وهناك أمور تتعلق بالمال والنفوذ والجاه والوجدان ، وتفكير يتعلق بشؤون مادية أو خلقية . ولذلك نرى التصوير والفنون الأخرى الحسية تنزوي في مكان قصي أو تسقط من تلقاء نفسها الى مكانة أدنى : اذ ليس لدى القوم فضلة من الوقت للإهتمام والاستمتاع بها . ولا يلتفت الذهن إلاّ الى شؤون تفوقها أهمية وضرورة ، وهم لا يبدون اهتماماً بها إلاّ بسائق من المجاملة والذوق العصري الطاغي ، وليست في اعتبارهم الاّ طرفة بسيطة ، وموضوع دراسة في رأي بعض الهواة . ومع كل ما ذكرنا ، فانه لا يندر وجود أشخاص أخذوا على عاتقهم حماية الفنون : فيتبرعون بالمال لتأسيس متاحف وشراء رسوم مبتكرة وإنشاء مدارس ، كما انهم على استعداد لبذل أموالهم في أي أمر آخر : كأن يبذلوا الأموال لنشر الانجيل ووقاية اللقطاء وشفاء المصابين بالسوداء . ولا يعزب عن بال هؤلاء

ما ينجم عن تبديد هـذه الأموال من فوائد عمومية واجتماعية : فيعتقدون أن الموسيقى تلطف وتلين الجمهور ، وتقلل السكر يوم الأحد ، وأن فنون الرسم تنشيء فوجاً من العمال الذين لا يستغنى عنهم في صنع الأقمشـة والحلي ، ولهذا ينعدم الذوق في كل ما نرى ، لأن الاحساس بالأشكال الجميلة و الألوان الجميلة وهو ثمرة التربية ،يكون بمثابة برتقالة نبتت في تربة حارة وكلفت مبالغ باهظة ، فطعمها على الغالب زنخ أو حامض . وليس المصورون المعاصرون سوى عمال ذوي موهبة مدققة ، متقنة ، ضيقة . ويتجلى التنطع وعدم الطلاوة فيما يرسمون من حزمة قش أو ثنيـة ثوب أو نبتة سرخس . فالجهد الدائم والانتباه المتصل الذي سخر جسم الانسـان وتفكيره قد أحدث تشويشاً في مشاعرهم ، وتصوراتهم ، وأصبحوا لا يأبهون لانسجام الألوان ، فيصبون على القماش آنية مملوءة بالأخضر البيغاوي . ويصنعون أشجاراً من التوتيـا ، أو الحديد المصفح ، ويصورون الأجسام باللون الأحمر القاني ، وباستثناء مدارسة السحـن والبراعة في معرفة الطابع الخلقي ، فان تصويرهم منغص ، وتمثل معارضهم القومية للأجانب مجموعة من الألوان المغيظة، المتنافرة ، العنيفة .

وانّا لن نصدم من يقول أن هؤلاء وأولئك ألمان وانجليز ، تؤثر عنهم الرصانة ، وينتسبون الى الطائفة البروتستانتية ، تعمقوا في دراساتهم أو انغمسوا في شؤونهم المادية ، وان الناس في باريس ذوو ذوق وينشدون اللذة . وبالحقيقة أن مدينة باريس في الوقت الحاضر هي المدينة الأولى بين مدن العالم التي اشتهر أهلها بحب الحديث ، والقراءة ، ونقد الفنون ، وتمييز خفايا الجمال الدقيقة ، حيث يتاح للغرباء الذين يؤمونها أن يتذوقوا الحياة المستحبة المتنوعة البهجة . ومع ذلك فإن فن التصوير الفرنسي ، ان كان يفوق سواه في البـلاد الأجنبية ، فهو لا يعادل التصوير الايطالي في عهد النهضة ، وذلك باعتراف الفرنسيين أنفسهم . وعلى كل حال ، فانه يختلف عنـه ، والآثار الفنية تنبيء عن ذهنية أخرى ، وتنم عن عقول مختلفة كل الاختلاف . في التصوير الفرنسي يتوفر عنصر الشعر أو التاريخ أو الفاجعة أكثر مما يتوفر عنصر الفن ، وهو دون التصوير الايطالي في درجة الاحساس بجمال الجسم العاري وبروعة الحياة البسيطة المجردة ، فقد كدّ وسعى كي يمثل المشاهد الحقيقية ، والزي الحقيقي الخاص ببلدان بعيدة وأزمنة سالفة ، وانفعالات النفس الموجوعة، ومظاهر الطبيعة المؤثرة. وهكذا أصبح التصوير نداً للأدب : فانه نقب واستغل نفس الحقل ، واستجاب للرغبة الجشعة في المعرفة ، والروح الآثارية،والحاجة للانفعالات القوية ، والحس المرهف المريض واستعمال ليلائم أذواق أهل الحضارة ، الذين أنهكهم العمل ، وحدّت الحياة الخاملة من نشاطهم،وأفعمت رؤوسهم أفكاراً معقدة ، واشتدت شهوتهم الى الترف، والاحساسات الخاملة ،

وهدوء الحقول . وقد حـدث تحوّل عظيم في خلال القرنين الخامس عشر والتاسع عشر: فان حشو الرأس بالمعلومات ، والبلبلة التي اعترت ذهن الانسان ، أحدثا ارتباكاً تجاوز الحد . ففي باريس وفرنسا نلحظ جهداً عظيماً يعود إلى سببين : أولاً أصبحت المعيشة باهظة الثمن اذ أن طائفـة من ألوان الرفاهية باتت ضرورية . فالشخص ، وإن كان قنوعاً وعزَباً ، يحتاج الى سجاجيد وسجف وكراسٍ ، ومتى يتزوّج يصبح في حاجة الى رفوف مزينة ، ومسكن جميل مؤثث بأثاث غالٍ ، ومجموعة لا تحد من الأشياء التافهة ، ولا سبيل للحصول عليها إلاّ بالمال الذي لا يكسب إلاّ بعد الـكد والعناء ، إذ لا يمكن أن تسرق من قارعة الطرق ، أو تصادر على نحو ما كان يجري في القرن الخامس عشر . وهكذا ينفق الانسـان معظم أيام حياته في جهود شاقة . وعدا ذلك ، فان كل فرد يبغي الوصول الى هدفه . وبمـا أننا نعيش في بلاد تخضع للنظم الديموقراطية ، حيث تحرز المناصب بالمسابقـة ، وتنال بالثبات ، وتكتسب بالمهارة ، فيأمل كل فرد منا أن يصبح يوماً ما وزيراً أو صاحب ملايين . وهـذه المنافسة تجعلنا نضاعف أعمالنا وهمومنا وتزيد في ارتباكنا .

ومن جهة ثانية ، إننا نعيش في مدينة يبلغ عدد سكانها ٠٠٠ر٦٠٠ر١ نسمة وهو عدد كبير وزائد عن الحد . وقد رسخ في أذهان الناس أن الأمل بالنجاح عظيم في باريس ، فأخذ يؤمها الناس يحدوهم الفكر والطمع والنشاط . فأصبحت عاصمة البلاد ملتقى عامًّا لجميع الرجال المتفوقين وذوي الاختصاص ، فتشيع بينهم اختراعاتهم وبحوثهم ، ويغري بعضهم بعضاً ، وتنتابهم حمى تتولد من المطالعات والمسرح والمحادثات المتنوعة . والدماغ في باريس بعيد عن السلامة والانتظام : هو ملتهب ومعنًّى ومهتاج ، وثمراته من تصوير وأدب ، تتأثر من هذه الحال . فحيناً تصيب خيراً وغالباً ما تمنى بشر .

أما في ايطاليا فلم تكن الحالة كما ذكرنا . فلا تقع العين على مليون من الناس يعيشون متكتلين في بقعة ضرب نطاق حولها . بل كانوا يعيشون في مدن عديدة يتراوح عدد سكانها بين الخمسين والمائة أو المائتي ألف نسمة . ولم يكن لهم عهد بهذه المطامع المتزاحمة ، والرغبات الجشعة الثائرة ، وحشد الجهود ، والافراط في النشاط البشري . وكانت المدينة تضم صفوة من الناس ، لا جمهوراً من السوقة كما هي الحال عندنا . وعدا ذلك ، فقد كانت الرغبة في الرفاهية متوسطة ، والاجسام تتحمل الخشونة والشظف ، فـكان الناس يسافرون على ظهور الدواب ويعيشون بسرور في الهواء الطلق . وتعد القصور الـكبيرة التى بنيت في ذلك العصر فخمة ، لـكنني لا أدري اذا كان أحد أفراد الطبقة المتوسطة في العصر الحاضر يرضاها مسكناً له ، لأن الحياة فيها عسيرة ، ويتعذر على قاطنها أن يقي نفسه البرد . وتعد المقاعد

المنحوتة المزدانة برؤوس أسود أو آلهة ترقص ، روائع فنية ، لـكننا نجدها اليوم صلبة وخشنة ، لأن داراً حقيرة في عصرنا هذا ، أو غرفة بواب يقوم على حراسة بيت أحد الأغنياء ، مجهزة بوسائل التدفئة ، هي أكثر رغداً من قصر ليون العاشر ويولبوس الثاني. وعلة ذلك انهم لم يكونوا بحاجة الى كل هذه الضروب التافهة من الرفاهية التي لا ندري كيف يمكننا التخلص منها اليوم . كان جل همهم ينحصر في حيازة الجميل لا العيش الرغد ، ويحلمون بإحكام بناء العواميد وإتقان الصور ، لا في الحصول على دواوين وأوان صنعت على النسق الصيني . وبما ان الطبقات كانت موصدة في وجه الشعب ولا يلجها الا من يحرز مجداً عسكريّـا أو يفوز بعطف الأمير ، وبعض قطاع الطرق الذين طارت شهرتهم في الآفاق ، وخمسة أو ستة سفاحين متفوقين ، وبعض الندامى الطفيليين ، فلم يكن يشاهد في المجتمع يومذاك هذا التنافس الحاد العنيف ، وهذا الاضطراب في الحياة الذي يماثل حركة النمل في قريته ، وهذا العناد الدائم المتواصل الذي يتصف به كل منا بغية أن يتجاوز الآخرين .

يستنتج من كل ما ذكر أن العقل الانساني كان وقتئذٍ أكثر اتزاناً مما هو الآن في اوربا المعاصرة ، ومدينة باريس الحالية التي نقطنها ، وعلى الأقل كان أكثر ملاءمة للتصوير . ذلك لأن فنون الرسم تتطلب، كي تزدهر، تربة موافقة ، ليست بوراً ولا تعددت حراثتها . كانت التربة الأوربية في العهد الاقطاعي متكتلة وصلبة ، أما اليوم فانها قد أضحت متفتتة . فقبلاً لم تجل فيها المدنية محراثها كثيراً ، أما اليوم فانها قد أكثرت الأثلام حتى أصبحت لا تحصى . ولـكي يستطيع مصور كرافائيل أو تيسيان أن يثبت بيده على الخامة الأشكال الرفيعة البسيطة ، يجب أن تتجلى هذه الاشكال طبيعيـًا في ذهن من يحيط بهم من الناس ، ولكي تتجلى طبيعيـًا في أذهان الناس ، ينبغي أن لا تعدو الأفكار على التصورات فتخفيها وتشوهها .

دعوني أقف هنيهة عند هـذه الـكلمة لأنها رئيسة . من خواص الثقافة المتطرفة أن تستهدف القضاء رويداً رويداً على الصور لصالح الأفكار . فبتأثير التربية المستمر ، والمحادثة والتفكير والعلم ، يتشوه الوحي البدائي ويتفكك ويتلاشى لتحل محله أفكار مجردة ، وكلمات صنفت تصنيفاً جيداً ، وضرب من الجبر . وأصبح مألوفاً لدى الفكر من الآن فصاعداً ، أن ينتهج طريقة التعقل البحت . واذا حاول العودة الى التصور ، فلا يتسنى ذلك له إلاّ بمشقة وعناء ، وقفزة عنيفة محمومة ، ولون من ألوان الهـلس hallucination المشوش الخطر ، تلك هي بعينها حال فكرنا في الوقت الحاضر فلا يستدل منها اننا مصورون جبلـة . وقد أفعوعم مخنا بأفكار مختلطة ، متلونة ، متعددة ، متشابكة ، وصبت فيه مدنية بلادنا

والمدنيات الأجنبية والقديمة والحديثة فيضها وفضلاتها . ألفظ مثلاً كلمة « شجرة » على مسمع من رجل عصري ، فيتبادر الى ذهنه أن المقصود ليس كلباً ولا خروفاً ولا أثاثاً ، ويختزن هذه الاشارة في رأسه في مكان مرسوم واضح . وقد تواطأنا في العصر الحاضر أن ندعو هذه الظاهرة فهماً . ثم أن مطالعاتنا وعلومنا قد عمرت ذهننا بالإشارات المجردة ، وعاداتنا في التنسيق تقودنا منطقيًّا وقياساً من إشارة الى أخرى . وليس لنا الا أن نستشف الأشكال الملونة جزءًا فجزء وهي التي لا تمكث في داخلنا ، بل ترتسم بغموض على الخامة الداخلية ثم لا تلبث أن تتلاشى . واذا توصلنا الى حفظ هذه الأشكال ومعرفتها بدقة ، فالفضل يعود الى الارادة ، وبعد مرانة طويلة وتربية مضادة أخضعتنا تربيتنا العادية . وهذا الجهد الجبار يودي الى العذاب والحمى . فكبار الملونين في أيامنا ، من أدباء ومصورين ، ليسوا إلا أصحاب خيالات وأوهام ، أصابهم الاعياء ، واعترتهم البلبلة والتشوش . أمثال : هيني ، وهوغو ، وشلي ، وكيتس ، واليزابث ، وبراونتغ ، وادغاربو ، وسوينبرن ، وبالزأرة ، ولاكروا وغيرهم . ولم يخل عصرنا من الكثيرين الذين مهروا بجبلة فنية ، لكنهم جميعاً على وجه التقريب قاسوا كثيراً من بيئتهم ونمط تربيتهم . ويغدو جيته الشخص الوحيد الذي احتفظ بتوازنه ، ومرد ذلك الى حكمته ، وحياته المنظمة ، وسيطرته الدائمة على ميوله . اما فنانو عصر النهضة فكانوا ذوي بصيرة . فكلمة شجرة ذاتها ، التي ذكرناها آنفاً ، لا تكاد تمس أذهاناً سليمة ومجردة حتى تتمثلها فوراً بكاملها تتمثل هذه المجموعة المستديرة المتحركة التي تكونها الأوراق النضرة ، والزوايا السود التي ترسمها أغصانها على القبة الزرقاء ، وساقها الخشنة المخددة بعروق غليظة ، وأصولها المتوطدة ، في التربة ، رغم أنف الرياح والعواصف ، وهكذا فان ذهنهم بدلاً من أن يتضاءل حتى يستحيل رقماً وإشارة ، يقدم لهم مشهداً حيًّا ومكتملاً ، لا يقاسون عناء في تصوره ، ولا يبذلون أي جهد للعودة إليه فيختارون الجوهري منه ولن يعنوا بالأجزاء عناية تبلغ حد السفساف المؤلم . فيستمتعون بصورهم الجميلة كأنها فلذة نابضة من صميم حياتهم وبدون أن ينتزعوها انتزاعاً ويقذفوها في الهواء باضطراب وتشنج . هم يباشرون التصوير بسائق من الفطرة والاختيار ، مثلهم مثل الحصان الذي يركض أو الطير الذي يطير ، فتصبح الأشكال الملونة لسان الذهن الطبيعي . وعندما يتأمل النظارة هذه الأشكال على خامة أو على جدار ، لا يلبثون أن يتعرفوا إليها ، ذلك لأنهم رأوها في نفوسهم ، ولا ينظرون إليها ، كما اعتادوا أن ينظروا شيئاً غريباً ، أبرزه على المسرح بأساليب مصطنعة ، تضافر التدريب وجهد الارادة ونهج فني انبثق عن احدى الهيئات الفنية . إنها مألوفة لديهم ، حتى انهم كثيراً ما يدخلونها في حياتهم

الخاصة وحفلاتهم العامة ، ويحتاطون بها ، وينشئون منها صوراً حية إلى جانب الصور المنقوشة .

ولنراقب الآن الثوب : ما أعظم الفرق بين ثيابنا ، من سراويل وردنجوت وكسائنا الأسود المحزن ، وأقبيتهم الفضفاضية المزخرفة ودراريعهم المدبجة ، وأطواقهم ذات التخاريم وخناجرهم ، وسيوفهم الفولاذية المرصعة والموشاة بالنقوش ، وثيابهم المطرزة المحلاة بالذهب وبجوهراتهم ، وقلانسهم التي يزينها الريش . ان الأبهة في جميع هذه المظاهر ، كانت تتألق على ثياب الأشراف ، بينما لا يستعملها أحد اليوم إلا النساء . ولنلاحظ أيضاً الحفلات الفاتنة الجديرة بالتصوير التي كانت تقام في كافة المدن والمساخر ومواكب الفرسان ، التي كان يسر بها الشعب والأمراء . ففي عام ١٤٧١ جاء دوق ميلانو لزيارة فلورنسا ، يصحبه خمسمائة فارس مدججين بالسلاح ، وخمسمائة من الرجالة ، وخمسين وصيفاً جاؤوا على أقدامهم يرتدون الحرير والمخمل ، وألفين من الاشراف والخدم ، وخمسمائة زوج من الكلاب وعدد لا يحصى من البزاة . وقد بلغت نفقات هذه الرحلة نحواً من مائتي ألف دوقة ذهباً (نحو ٢٠٠٠٠٠٠ فرنك) . وقد أقام أحد الكرادلة حفلة تكريماً لدوقة « فيرارا » بلغت نفقاتها ٢٠٠٠٠ دوقة . وعلى أثرها قام برحلة في ايطاليا بموكب عظيم فخم ، فظنه الناس البابا أخاه ، وتخيل لوران ومديتشي مهرجاناً يمثل انتصار كاميل . فتوافد عدد كبير من الكرادلة كي يشهدوها . وطلب لوران من البابا فيلاً ، فأرسل اليه عوضاً عن الفيل نمرين وفهداً وبعث يقول انه يأسف لأن مقامه السامي يحول دون مجيئه لحضور هذا الاحتفال العظيم . — ودخلت الدوقة « لوكريس بورجيا » مدينة روما تصحبها مئتي سيدة ، ارتدين أفخم الملبوس ، وامتطين الخيول ، ويصحب كل سيدة شريف . ان جلالة المنظر والثياب وظهور السادة والأمراء كل هذه الأمور توحي الى الناظرين فكرة عرض رائع لممثلين حقيقيين . ومنذ أن نقرأ الروايات التاريخية والمذكرات نستنتج أن الطليان يريدون أن يجعلوا الحياة عيداً جميلاً وكل ما عدا ذلك من الشؤون غرور في عرفهم . إنهم لا يتوخون إلا اللذة ، اللذة النبيلة العظيمة ، سواء أتت عن طريق الفكر أو الحواس أو النظر . ومن المؤكد انه ليس لديهم عمل ما يمارسونه : انهم يجهلون مشاكلنا السياسية والانسانية ، ولا توجد المجالس النيابية في بلادهم ولا الأحزاب ولا الصحف الكبيرة . فالرجال البارزون أو الأقوياء لا يحيط بهم جمهور يهوي الجدل والاحتجاج ، ولا رأي عام يجب استشارته ، ولا مناقشات جافة عقيمة يضطرون لدعمها ، ولا احصاءات ليقوموا بها ، ولا مباحثات خلقية أو اجتماعية ليتأهبوا لها . فايطاليا يحكمها عدد من الطغاة اغتصبوا الحكم بالقوة ويحافظون عليه بالقوة . وفي أوقات فراغهم يستقدمون البناة للعمارة والرسامين للتصوير . ويندمج الأغنياء والأشراف على

منزالهم ، فيحلمون بالمهو ويتسررون الجرلات ، ويقتنون التماثيل والصور ، والثياب الجميلة ، ويلحقون أمناء بالأمير لـكي يتسقطوا الأخبار ويحذروا وشايات الناس والفتك .

ولا تظنن ان الأفـكار الدينية تقلقهم أو تثقل عليهم أو يهمهم أمرها .

فان أصدقاء لوران دمديتشي أو اسكندر السادس لا يحلمون مطلقاً بتكوين البعثات ، ووضع الخطط لهداية الوثنيين ، ولا يفكرون في التبرعات التي تنفق في سبيل تعليم وتهذيب الشعب . لأن الناس في ايطاليا لم يكونوا على شيء من الحمية ، ولم يكن أضعف من الحمية في نفوسهم . ولما جاء « لوثيروس Luther الى روما ، وهو مفعم الروح بالتردد والايمان ، ازداد تشككه وصرّح فور عودته : « بأن الايطاليين أكفر الخلق ، يسخرون من الديانة الحقيقية ، ويهزؤون بنا ، نحن المسيحيين، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الـكتاب المقدس . . وكلما عنّ لهم أن يذهبوا الى الـكنيسة ، يرددون هذه العبارة : « لنذهب ممتثلين للضلال الشعبي » — ويقولون أيضاً : « لو اضطررنا إلى الاعتقاد التام بكلمة الله ، لأصبحنا أشقى الناس ولم يعد في استطاعتنا أن نجد برهة ننفقها في الاستمتاع . ينبغي أن يكون الانسان طلق المحيا ، وان لا يعتقد بكل ما قيل » . حقيقةً أن الشعب وثني بجبلته ، والأشخاص الذين أحسنت تربيتهم أصبحوا كفرة بتأثير التربية . ويقول لوثيروس ممتعضاً : « ان الايطاليين بين أمرين : أما أنهم شهوانيون ، أو ذوو اعتقادات باطلة . فالشعب يخشى القديسَين « أنطونيوس وسباستيان أكثر مما يخشى المسيح ، خوفاً من الجراح التي يسببانها له . »
« ولهذا السبب ، إذا أُريد ردع الايطاليين عن التبويل في مكان ما ، ترسم هناك صورة »
« القديس انطونيوس ممتقلاً رمحه الناري . انهم يحيون حياة مشحونة بالخرافات دون »
«أن يعرفوا كلمة الله ، ولا يعتقدون بقيام الموتى ولا بالحياة الخالدة ولا يأبهون الا للجراح»
الزمينة » وان عدداً كبيراً من الفلاسفـة ينكرون سراً وجهراً ، أو ما يقرب من الجهر ، الالهـام وخلود النفس ، وينفرون جميعاً من التصوف المسيحي ومبدأ اذلال الجسد . وشنّ الشعراء هجوماً عنيفاً على الرهبان لا عهد لهم به ، وصوبوا الى العقائد تلميحات لا يزعها وازع . ونظم «بولسي» قصيدة ساخرة مضحكة توّج كل مقطع منها بنشيد أحد الشمامنيز وعبارة من نصوص القداس . ولـكي يبرهن عن حلولية الروح في الجسم ، لم يجد بدّاً من مقارنتها بالمربيات التي يحشى بها الخبز الأبيض . وما عسى أن يكون مصيرها في العالم الآخر؟ « يعتقد بعض العوام انهم سيجدون هناك عصافير وطيوراً أخرى ، وأسرّة فاخرة ، ولهذا السبب نراهم يقتفون أعقاب الرهبان . لـكن يا صديقي العزيز ، عندما نهبط وادي الظلام ، سوف لا نسمع من « ينشد هللويا » .

إزاء هذه البهيمية وهذا الالحاد، طفق وعاظ ذلك العصر مثل «برونو وسافوناورولا» Bruno-Savonarola يرعدون بكل قواهم. وكان سافوناورولا نفسه يقول لأهالي فلورنسا الذين ذهب ليهديهم هداية تدوم ثلاث أو أربع سنوات: إن حياتكم مماثلة لحياة الخنازير إذ تنقضي كلها في الفراش والمتنزهات واللهو والموبقات والفجور» لنحذف من هذا القول ما يجب أن يطرح، لأن الواعظ أو المهذب كثيراً ما يلجأ الى المبالغة والتهويل لكي يحدث تأثيراً. على أننا مهما حذفنا، سوف يبقى دائماً شيء يستحق الذكر. ويستنتج من قراءة سيرة الأشراف في ذلك العصر، ومن الملاهي الماجنة المختارة التي انغمس فيها حكام ميلانو وفيرارا والبهيمية الرقيقة والاباحية الصريحة عند آل مديتشي في فلورنسا، أن الناس لم يألوا جهداً في البحث عن مختلف اللذات. فآل مديتشي كانوا صيارفة، ثم ما عتموا أن أصبحوا، بفضل قليل من القوة وكثير من الدهاء، قضاة المدينة وسادتها الحقيقيين، وجمعوا حولهم عصبة من الشعراء والمصورين والنحاتين والعلماء فزينت قصورهم برسوم تمثل الصيد والحب في العهود الوثنية، وكانوا يؤثرون الصور العارية من ريشة دلـّو Dello وبولايولو Pollaiolo ويرهفون محاسن ومزايا الوثنية بشيء من الشهوة البهيمية. ولهذا السبب كانوا يتجاوزون عن سيئات مصوريهم ويغضون الطرف عن شذوذهم. ولما اختطف فرافيليبو ليبي راهبة جعل أهلها يشكون، أما آل مديتشي فقد أخذوا يضحكون. ويروي فليبو، الذي كان يعمل عندهم، إنه كان شديد الولع بحظياته وكان يتخذ من شراشف سريره حبلاً ويتدلى من النافذة كلما أغلقوا عليه لينجز عملاً. وأخيراً قال أحدهم: «ليترك له الباب مفتوحاً. إن الرجال الموهوبين جوهر سماوي وليسوا دواباً. لا يجب أن يسجنوا ولا أن يضيق عليهم.

وكانت الحالة في روما أسوأ، وسوف لا أقول شيئاً عن ملاهي اسكندر السادس (بورجيا). ومن شاء الاطلاع عليها فليقرأها في مفكرة كاهن معبده الخاص، لأنه ما من لغة تستطيع أن تصف الرقص الصاخب المتهتك. أما ليون العاشر فكان رجلاً حسن الذوق يستهويه جمال اللغة اللاتينية ويطرب للهجاء المبتكر. لكنه كان لا يتعفف مطلقاً عن اللذة المخالفة للحشمة والمتعة الجسدية الصريحة. وكان يلتف حوله زمرة من الشعراء والمغنين والطفيليين يحيون حياة حظها من الفضيلة قليل، وأشعارهم على جانب عظيم من الصراحة. وطلب الكردينال «بيبينا» Bibiena أن يمثل أمامه كوميديا بعنوان «كالاندرا» لا يجرؤ أحد أن يمثلها في الوقت الحاضر على مسرح من المسارح. وخطر له يوماً أن يعبث فقدم الى ندمائه طعاماً صنع على شكل قرود وغربان، واتخذ مهرجاً له راهباً صعلوكاً شرهاً يدعى

« ماريانو » يزدرد دفعة واحدة حمامة مسلوقة أو مشوية ، ويقال انه يستطيع أن يبتلع عشرين فروجاً وأربعين بيضة » . وكان يفرح باللذات الفظة الجافية والتصورات الجامحة المضحكة ، وككل إنسان كان غزير المادية الحيوانيـة شديد الحميا . وكان من هواة الصيد يخرج لاصطياد الوعل والخنزير في الغابات ، محتذياً جزمة يزينها مهماز . ولا تمت الحفلات التي يقيمها الى الدين بنسب أكثر مما تمت إليه عاداته . وقد وصف شاهد عيان،هو ناموس دوق فيرارا ، أحد أيامه . ومن التباين بين ملاذّه وملاذنا ، يتبين لنا أن سلطان اللياقة والمجاملة قد عظم ، وأن الخيال المرهف قد أخضع للعقل الصرف ، وان مسافة شاسعة تفصل بيننا وبين تلك الأزمان التي كانت تتجاذبها المسيحية والوثنية ، ووسمتها الشهوة بطابعها ، لـكنها رغم ذلك كله جديرة بالتصوير ، لأن الغلبة لم تتم للروح على الجسد .

« ذهبت الى الـكوميديا مساء الأحد ، فأدخلني صاحب السيادة الكردينال رانجوني »
« الغرفة التي يوجد فيهـا الحبر الأعظم وكرادلته الفتيان الجزيلو الاحترام . وكان قداسته »
« يسير ذهاباً واياباً ، يأذن بالدخول لفلان وفلان من الناس الذين تروق له صفاتهم . ولما »
« بلغ الحضور العدد الذي عينـه ، انتقلوا الى المـكان الخاص بالـكوميديا . وقف الأب »
« الأقدس قرب الباب يسمح بالدخول لمن يقع منه موقعاً حسناً ويهب البركة دون أن يحدث »
« ضوضاء أبداً . ويشاهد الداخل المسرح وقد جعل في جهة ، وفي الجهـة المقابلة رحبة »
« يرقى اليها درجة درجة، أقيم فوقها مقعد للحبر الأعظم . وبعد أن دخل عامة الناس ، جلس »
« على كرسيه الذي يعلو خمس درجات عن الأرض يحيط به الكرادلة والسفراء حسب رتبهم »
« وبعد أن استقبل الجمهور بالمزامير ، وكان عدده لا يقل عن ألفي نسمة ، أنزل الستار وقد »
« رسم على جانبيه صورة « ماريانو » مع كثير من الشياطين الذين يمرحون معه . وظهر في »
« وسط الستار منشور بابوي كتب عليه : « اليكم مباذل الأخ ماريانو » ثم صدحت الموسيقى »
« فتناول البابا نظارتيه وبدأ يتأمل المسرح ، وهو من صنع رافائيل ، الذي كان يبدو جميلاً »
« جدًّا . وكان قداسته ينظر معجباً إلى صورة السماء التي مثلت بمنتهى الجودة . وكانت »
« الشمعدانات مكوّنة من أحرف ، وعلى كل حرف ترتكز خمسة مشاعل تعني ليون العاشر »
« الحبر الأعظم » . ثم ظهر على المسرح سفير البابا وألقى بياناً قويًّا انتقد فيـه عنوان »
« الـكوميديا ، وما زال كذلك حتى أخذ البابا يضحك ويشاركه في ذلك النظارة . وقد »
« اتصل بي أن الفرنسيين اغتاظوا من موضوع الرواية . ثم مثلت الكوميديا فأجاد الممثلون »
« وتخللت الفصول أنغام المزامير والصور والمزاهر والعيـدان والأرغن الصغير بأصواته »
« المتنوعة ، وهو تذكار سعيد قدمه للبابا صاحب السيادة الطائر الصيت . وفي الوقت نفسه »

« كان يتصاعد غناء وصوت ناي أحدث سروراً عظيماً . وفي رأيي ان فرقة الغناء لم تصب »
« نجاحاً أعظم مما أصابت المعازف . وفي فترة الاستراحة الأخيرة مثلت « المغربية »
« la Mauresque التي ترمز الى أسطورة جورجون ، وقد كان النجاح حليفها ، لكن شتان »
« بين هذا التمثيل والتمثيل المكتمل الذي جرى في قصر سيادتك . وعند انتهاء « الحفلة ، »
« التي ختمت كما وصفت ، بدأ الحاضرون ينصرفون ، فاشتد زحام « الجمهور ، وحاولت »
« الخروج على عجل ، فدفعتني المقادير في شق مقعد صغير وكسرت ساقي . وقد أصابت أحدهم »
« صدمة عنيفة من اسباني ، ولما كان الاول يسدد اللكمات للثاني ، أتيحت لي فرصة للنجاة »
« حقيقة ان ساقي أصيبت بأذًى عظيم ، لكنني وجدت عزاء بالبركة العظيمة التي منحنيها »
« الاب الأقدس . وبالبشاشة التي تفضل وتلقاني بها » .

« وفي اليوم السابق لهذه الحفلة الساهرة جرى سباق خيول ، فشوهدت قطعة من الخيول اسبانية الأصل يرأسها صاحب السيادة كورنر ، ويرتدي الفرسان الزي المغربي المتنوع ، وتتبعها زمرة أخرى بالزي الاسباني ، يلبس أفرادها الأطلس الاسكندراني ، المبطن بالحرير الملون ، والبرنس . وقد منح البابا كل فارس ٤٥ دوقة مكافأة لهم . وحقيقة كانت الحاشية موضع اعجاب الجميع ، فكان أفرادها يتقلدون الاسلحة وينفخون في الأبواق التي لا يختلف لونها عن لون الحرير . وعندما بلغوا الساحة جرت الخيول بهم نحو القصر مثنى مثنى حيث كان البابا يرقبهم من الكوى . وفي ختام العدو يممت الأولى شطر القديس بطرس والثانية وقفت في الجهة المقابلة . وكم كان المنظر جميلاً عندما انقضّ الفريقان على بعضهما يتماصيان . وقد شوهد في الميدان أحصنة جميلة وأفراس لا تزال مهرات . وفي اليوم التالي شهدت صراع الثيران . وفي المساء مثلت كوميديا من وضع أحد الرهبان . وقد بلغني أنها لم تحرز اعجاباً عظيماً ، لذلك عدل البابا عن مشاهدة الرقصة المغربية وأمر أن يلف الراهب بشرشف ويرجح في الفضاء ثم يبطح بعنف على أرض المسرح . وبعدئذٍ أمر بقطع خدمتيه (رباط الساق) واخراج عقبيه . لكن الراهب طفق يعضض سبابته . ثم اركب حصاناً ونال ما لا يحصى من اللطمات على عجزه . وأخبرت أنه لا يزال ملازماً الفراش ، وصحته لا تبعث على الطمأنينة رغم المحاجم الكثيرة التي ألصقت على مؤخره . ويقال ان البابا يبغي أن يلقن الرهبان الآخرين درساً كي لا يفكروا أن يعرضوا برهبانياتهم . وكان اليوم دور السباق بالخاتم أمام باب القصر حيث كان البابا يتفرج من النوافذ . أما الجوائز فقد كانت مسجلة على كؤوس . ثم بدأ بعدئذٍ سباق الجواميس ، كان منظر هذه الحيوانات القبيحة ،

وهي تركض ركضاً ، فكانت تارةً تتقدم وطوراً تتأخر ، ولم تستطع الوصول الى الهدف أو الاقتراب منه الا بعد مرور وقت طويل ، لأنها كانت تخطو خطوة الى الأمام وترجع أربعاً ، وأقسم أن هذا السباق كان فكاهة عظيمة . ثم غادرت المكان قاصداً بعبو ، وقمت بزيارة قداسته فألفيت عنده أحد الأساقفة . وكانت المساخر والشؤون السارة محور الحديث » .

« عن روما » ٨ مارس ١٥١٨ الساعة الرابعة ليلا .
خادم سيادتك العظيمة الشهرة : الفونسو بولوزو .

هذه هي أفراح الكارنافال تجري في بلاط يجب أن يكون موئل الوقار والحشمة في ايطاليا . وعدا ذلك ، فانه يجري سباق للرجال العراة على غرار الألعاب الاغريقية القديمة .

ان شعباً توفر له خيال توجّه بكليته صوب الأشكال الجسدية ، ومدنية تعتبر السرور هدفاً للحياة الانسانية ، وانعتاق تام في المشاكل السياسية ، وجلبة المصانع والاهتمام بالشؤون الخلقية التي تربط العقول بالمنافع المادية والأفكار المجردة : ان شعباً وهب الفطرة الفنية ونال نصيباً عظيماً من الثقافة ، ليس بمستغرب أن يتذوّق ، ويبتكر ويبلغ الكمال بالفن الذي يمثل الأشكال الحسية . ويعتبر عصر النهضة فذّة فريدة تصل القرون الوسطى بالعصر الحاضر ، ووسيطاً بين الثقافة الناقصة والثقافة العظمى ، وسيادة الغرائز المجردة والأفكار الناضجة . في هذا العصر لم يعد الانسان حيواناً وحشيًّا مفترساً لا يحسن إلاّ ترويض أعضائه ، ولم يصبح عقلاً صرفاً يعيش في مكتب أو بهو ، ولا يحسن الاّ ترويض عقله ولسانه . إنه يجمع بين الطبيعتين : في رأسه أحلام شديدة عنيفة متصلة كالهمجي ، وفي صدره رغبات حادة وناعمة كالرجل المتحضر . إنه يشبه الاول في تفكيره القائم على التصورات ويشبه الثاني في حب التنسيق ، هو كالأول في نشدانه اللذة الحسية ، وكالثاني ، إذ ينشد ما وراء اللذة الفجة في نفسه تتعانق الشهوات والصفاء ، إنه يهتم بظواهر الأشياء ، لكنه يرغب أن تكون هذه الظواهر كاملة ، وليس للاشكال الجميلة التي يتأملها في آثار كبار فنانيه إلاّ أن تخلي سبيل الصور المبهمة التي تعمر رأسه ، وتسد الغرائز الصم التي جبل عليها قلبه .

الفصل الخامس

الشروط الثانوية

لماذا اتخذت هذه القريحة الفنية العظيمة الجسم الانساني موضوعاً رئيسيًّا لها؟ وما هي الاختبارات والعادات والميول التي هيأت الناس وأعدتهم للاهتمام بالعضلات؟ لماذا طرفت أعينهم في ميدان الفن الفسيح فلم تقع الا على الوجوه السليمة المتعافية النشيطة التي لم تهتد اليها الأجيال التالية، أو انها لم ترسمها إلا متعمدة تحدوها السنَّة؟

هذا ما بقي علينا أن نعرفه، ولذلك فانني بعد أن فرغت من شرح الحالة الفكرية، سأحاول أن أعرف نوع الطباع.

تنطوي هذه العبارة «الحالة الفكرية» على لون الأفكار التي توجد في رأس بشري وانسجامها وخصائصها. وهي بمثابة الأثاث في الرأس. لكن أثاث الرأس، كأثاث القصر يتبدل ببذل قليل من العناء. فيمكننا، دون أن نمس بناء القصر، أن نستبدل طنافسه وأصونته وتماثيله النحاسية وسجاجيده. وكذلك يمكننا أن نلقح النفس بأفكار جديدة دون أن نمس الهيكل النفسي، كأن نبدل في صيرورة الانسان أو نلقنه ضرباً من التربية. وثمة اختلاف بين كونه جاهلاً أو عالماً، سوقة أو نبيلاً. إذاً يوجد في الانسان عنصر يفوق الأفكار أهمية هو هيكله الذاتي، أعني بذلك طابعه، وبعبارات أخرى جماع غرائزه الطبيعية، وميوله البدائية، وعظمة حسه ومبلغ حماسته، وبالجملة قوة دوافعه الباطنية والتحكم بها. ولكي أتمكن من اجتلاء هذه البنية العميقة الخاصة بالنفوس الايطالية، سأتحدث عن الظروف والعادات والحاجات التي كوّنت هذه البنية. ويقيني انها تصبح أدنى الى الفهم إذا أرخت مما لو عُرِّفت.

أول ما يلاحظ في ايطاليا في ذلك العصر، هو فقدان السلام الموطد الدائم، والعدل الدقيق، والشرطة الحارسة التي نعهدها عندنا. ويتعذر علينا أن نتمثل هذا الافراط في القلق والفوضى والأعمال العنيفة، لأننا انتقلنا منذ زمن طويل جداً الى حالة تناقضها

تماماً . فعندنا عدد من الدرك والشرط نرى أنهم يزعجوننا أكثر مما ينفعوننا . ففي أيامنا هذه عندما يتجمهر خمسة عشر شخصاً في الشارع حول كلب هيضت ساقه ، يتقدم منهم شخص طويل الشاربين ويخاطبهم قائلاً : « أيها السادة : تفرقوا ، لأن التجمهر ممنوع » فيبدو لنا أن السلطة تجاوزت الحد ، فنغتاظ ، ولا يخطر لنا ببال أن نميز أن هؤلاء الرجال ذوو الشاربين يتيحون للفقير والغني أن يغادر بيته عند منتصف الليل ، وهو أعزل ليتنزه في الشوارع الخاوية منفرداً . لنزول الشرط ، فكراً ، ولنتصور عالماً أصبحت فيه هذه القوة (البوليس) عاجزة أو مستهترة ، كما هي الحال في اوستراليا وأمريكا ، في المناطق التي تكثر فيها مناجم الذهب ، حيث يسارع اليها المنقبون عن الذهب جماعات ويحيون بالمصادفة قبل أن ينشئوا دولة منظمة . هنالك اذا ما أحس أحدهم خطراً ، أو أصابته لطمة ، أو وجهت اليه مسبة فسرعان ما يتناول مسدسه ويطلق النار على المنافس أو الخصم الذي لا يقف مكتوفاً بل يتسرع الى الاجابة بالمثل ، وكثيراً ما يساهم الجيران في النزاع . وينبغي أن يظل الانسان حذراً في كل لحظة كي يحمي ملكه أو يصون حياته ، لأن الخطر قريب ، يحدق بالانسان من كل صوب ويبرز بغتة وبصورة وحشية .

هكذا كانت الحال في ايطاليا ، على وجه التقريب ، حوالي عام ١٥٠٠ . ولم يكن لدى الايطاليين ما يماثل هذه الحكومة العظيمة التي اكتملت عندنا منذ أربعة قرون ، وترى أن من أبسط واجباتها المحافظة ، ليس فقط على حياة الانسان ومتاعه ، بل على راحته وطمأنينته . ولم يكن الأمراء الايطاليون سوى طغاة صغار اغتصبوا السلطة كما هو مألوف ، بالفتك ، والسم ، أو بالقسوة ، والغدر . فمن الطبيعي أن يكون ديدنهم المحافظة على هذا السلطان لا السهر على طمأنينة المواطنين . فكان على هؤلاء أن يحافظوا على أرواحهم ، وعدا ذلك ، أن يتقاضوا فيما بينهم . ولم يأت بشيء آدٍ من يعمد الى التخلص بسرعة من دائن معاند ، أو وقح يصادف في الشارع ، أو شخص نتوسم فيه الخطر والضغينة . والشواهد على ذلك كثيرة : فليس على من يود أن يعرف مبلغ تأصل عادة النزاع العائلي والاعتماد على النفس ، إلا أن يطالع المذكرات التي تعنى بشؤون ذلك العصر .

يقول ستيفانو إنفسورا Stefano d'Infessura : « في العشرين من شهر سبتمبر حصل شغب عظيم في مدينة روما وأغلق جميع التجار مخازنهم . وعاد أولئك الذين كانوا يعملون في حقولهم أو كرومهم بسرعة عظيمة ، وتقلد الجميع السلاح ، المواطنون منهم والغرباء . وسبب ذلك ، ان خبراً ، يكاد يكون يقيناً ، انتشر في المدينة ، مؤداه أن البابا « إنوسان الثالث inn ocent III قد مات » .

ان رباط الجمعية الواهي قد انبتَّ ، وعاد الناس الى طور الهمجية . أخذ كل فرد ينتهز الفرصة الملائمة ليفتك بأعدائه ويتخلص منهم . وفي الزمن العـادي ، لم تكن المسالك الى وقوع الحوادث أقل عنفاً واصطباغاً بالدم. فالحروب العائلية بين أسرتي كولونّـا وأورسين كانت تجري حول روما . وكان لدى هؤلاء السـادة رجال مسلحون وفلاحون يدعونهم للمساهمة . فتشرع كل عصابة بنهب أراضي العدو . ولا تكاد تعقد هدنة . حتى يبادر أحد الطرفين الى نقضها ، ويبعث كل زعيم ، وهو على قدم الاستعداد ، يخبر البابا على أن خصمه كان المعتدي .

« وتعـدَّدت حوادث الاغتيال في قلب المدينة ، منها ما يقع ليلاً ومنها ما يحدث في النهار ، حتى أنه كان يندر أن يمر يوم دون أن يقتل فيه أحد ... ففي اليوم الثالث من شهر سبتمبر هاجم أحدهم ، وكان يدعى سالڤادور ، عدوه ، رغم أنهما كانا متهادنين لقاء كفالة تبلغ ٥٠٠ دوقاً ». ومعنى ذلك أن الاثنين وضعا بالاتفاق ٥٠٠ دوقاً رهينة، ومن تحدثه نفسه بنقض العهد يخسر المبلغ . وكانت ضمانة الايمان المثبت بقَسَم أمراً مألوفاً ، ولم تكن هنا وسيلة أجدى لحفظ السـلام زمناً ما . وعثر في سجل النفقات الخاص بسلّـيني النبذة التالية مكتوبة بخط يده . «أعلن أني في هذا اليوم الواقع في ٢٦ من اكتوبر سنة ١٥٥٦ قد خرجت من السجن وعقدت مع عدوي هدنة لمدة سنة ودفع كل منا كفالة مقدارها ٣٠٠ دوقا » لـكن الضمانة المالية تظل ضعيفة واهية ازاء شراسة المزاج ووحشية العادات ، ولهذا لم يقوَ سالڤادور أن يحجم عن مهاجمة عدوه . « ضربه مرتين بالسيف فجرحه ، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه » .

لا مناص هنا من تدخل القضاة ، لأنه بولغ في ازدرائهم . ولا يقف الشعب متفرجاً ، بل ينغمس في الأمر ، كما يحدث على وجه التقريب اليوم في ولاية كاليفورنيا عنـد تطبيق شرعة لينش Lynch . فلما تكاثرت حوادث القتل في الأماكن التي أهلـت حديثاً بالبناء، يتنادى التجار والأشخاص المحترمون وذوو المـكانة في المدينة ، ويلحق بهم كل ذي ارادة حسنة ، ويقصدون السجن ويخرجون من فيه من المجرمين ويقررون شنقهم على أثر جلدة واحدة . وهكذا ، فان البابا أرسل في اليوم الرابع وكيل حاجبه مع حزب المحافظين وكل أفراد الشعب كي يهدموا بيت سلڤادور ، فهـدموه . وفي اليوم الرابع من ذات الشهر ، شُنق جيد وم أخو سالڤادور الآنف الذكر . وسبق ذلك على ما يرجح أنهم لم يتمكنوا من القبض على سلڤادور نفسـه . ففي وسط هـذه الفوضى الدامية الصاخبة الشعبية ، أصبح كل فرد مسؤولاً عن ذويه . وهنالك خمسون حادثة مماثلة ، ذلك لأن الناس في ذلك الزمن قد ألفوا أعمال

العنف ، ولا أعني أفراد الشعب فقط ، بل إن شخصيات من الطبقة العالية أو من ذوي الثقافة العظيمة كان لا بدّ لهم ، على مايظهر ، أن يتحكموا في أهوائهم ويملكوا أنفسهم عندما تلح الشهوة. ويروي جيشا ردان أن حاكم ميلان نائباً عن ملك فرنسا ذبح بيده يوماً بعض « الجوادرين في وسط السوق لأنهم اعترضوا بوقاحة استأثرت بها هذه الفئة من الناس » « على جباية الخراج الذي لم يعفوا منه » .

وقد اعتدنا في عصرنا الحاضر أن نرى في الفنانين مواطنين هادئين يغشون المجتمعات ويحسنون لبس الرداء الأسود والربطة البيضاء في الحفلات الساهرة . أما في المذكرات التي خلفها لنا « سليني » فانهم رجال فتاك ، يسرعون الى القتل كالجنود الآفاقين . ففي أحد الأيام عزم تلاميذ رافائيل على قتل روسو لأنه كان رجلاً سليطاً وطعن في رافائيل بالقول . ولما أنبئ روسو بذلك قرّ رأيه على مغادرة روما ، ولم يكن له عن السفر معدى بعد ما بلغه انهم يتوعدونه بالقتل لأن العلة التافهة تودي بحياة إنسان . ويقول سليني عن « ڤازاري » أنه اعتاد أن يترك أظافره تنمو. وبينما كان يرقد يوماً إلى جانب تلميذه « مانو » سحج له فخذه بأظافره ظناً منه أنه يحك جسمه . فهبّ « مانو » مذعوراً وصمم على قتل « ڤازاري » . ان السبب كان طفيفاً ، لكن الانسان كان ذلك العصر شديد الحمية ، اعتاد الضرب ، فسرعان ما تحمرّ عيناه ويهجم . وكما أن الثور ينطح أولاً بقرنيه ، كذلك الرجل يطعن أولاً بخنجره وتتصف الحوادث التي تقع يومياً في روما أو في الضواحي بالقسوة . ولا يختلف أسلوب العقوبات عن الأساليب التي كانت تستعملها دول المشرق المطلقة . ولا يحصى عدد الذين قتلهم سيزار بورجيا ، هذا الشاب الجميل اللطيف ، ابن البابا، وقد اشتهر بالظرف والدهاء في السياسة ، وهو من هواة الحفلات والمحادثات الرقيقة ذو قامة دقيقة يتدثر بدراعة من المخمل الأسود له يدان بلغتا الكمال ، وهو ذو نظر هادىء يمهد في السيد العظيم . لكنه يعرف كيف يحمل الناس على احترامه ، إذ إنه يلوذ بسيفه أو بمديته كلما حزبته الأمور .

وروى حاجب البابا فقال : « في الأحد الثاني ، عيّب دوق ڤالنتينوا (ابن البابا) رجل « مقنع في بورغو (كورسكا) . ولما علم الدوق بالأمر قبض على الرجل ، وأمر فقطعت يده ، » « ومقدمة لسانه ، ثم علقت بخنصر اليد المقطوعة » . وهو ينوي ولا شك أن يجعله مثلاً للآخرين وفي أحد الأيام « علّق خدامه شيخين وثماني عجائز بأذرعهم وأشعلوا النار تحت أقدامهم كي يرشدوهم الى الكنز ، لكن هؤلاء استنكروا الألم أو تجاهلوه ، فماتوا هذه الميتة الشنيعة » .

وفي يوم آخر استحضر الى دار القصر أشخاصاً حكم عليهم ، ثم ظهر في الناس ، يرتدي

أجمل ما عنده من الثياب ورماهم بالنشاب على مرأى من جمهور مختـار من الناس . » وقتل رجلاً لاذ برداء البابا . وكان أسيراً عنده ، فتطاير الدم رذاذاً وأصاب وجه البابا ». وكثيراً ما تذابح أفراد هذه العائلة . ففي أحد الايام جرد سيفه وهاجم صهره وجرحه . عندئذٍ أسرع البابا لنجدة الجريح . لـكن الدوق التفت. وقال : « سينجز وقت العشاء ما لم ينجز عند الغـداء » وفي السابع عشر من شهر أغسطس دخل غرفة الشاب أبان نهوضه من النوم وأخرج زوجته وأخته ، ثم نادى ثلاثة سفاكين « وأمرهم أن يخنقوا الشاب المذكور » . وعلاوة على ذلك ، فانه قتل أخاه وطرح جسمه في التيبر . وبعد أن بحثوا عنه كثيراً دون أن يقفوا على أثر ، تبين لهم أن صياداً كان قرب الشاطىء أثناء ارتكاب الجريمة . ولمـا سئل : لماذا لم يخبر حاكم المدينة بالأمر ، أجاب : انه لم يظن ان هناك ما يوجب ذلك ، لأنه شاهد خلال حياته أكثر من مائة جثة تطرح في نفس المكان وفي ليالٍ مختلفـة دون أن يهتم بها أحد » .

مما لا شك فيه أن أسرة « بورجيـا » تمتاز ، على ما يظهر ، بميل وموهبـة فريدين يتجليان في السم والسفك . على أننا لا نعدم في الدويلات الايطالية عدداً من الشخصيات ، أمراء وأميرات ، هم من أشباه آل بورجيا . فأمير « فانزا » Faenza أوغر صدر زوجته بسبب سلوكه ، فأكمنت أربعة سفاكين تحت سريره ، ولما عاد في إحدى الليالي هجموا عليه فدافع عن نفسه بعزم . عندئذ هبت زوجه من فراشها وتناولت مدية مربوطة بأحد قوائم السرير ودنت من بعلهـا وطعنتـه في ظهره . أزاء هذا الحادث حرمتهـا الـكنيسة فجـاء أبوها الى لوران دمديتشي ، وله عند البابا أواخ وأسبـاب رعى ، وطلب وساطتـه لديه كي تحل من التأديب الـكنائسي متعللاً بأسباب من جملتها انه ينوي أن « يتدارك لها زوجاً آخر » . وذبح في ميلانو الدوق جاليزو بيد ثلاثة شبان اعتادوا قراءة فلوطرخس Plutarque فقتل أحدهم اثناء الفعلة وطرحت جثته للخنانيص ، وصرح الآخران ، قبل أن يعدما ، انهما ركبا الذنب بحجة « أن الدوق لم يكن فاسقاً فقط . أفسد النساء ، بل كان يفضحهن » . ولم يكن يذبح الرجال فقط ، بل كان « يقسط عليهم العذاب الى أن يموتوا » . وفي روما نجا البابا من الذبح بيد كرادلتـه . لـكنهم عادوا ورشوا جراحـه فسممه وهو يعالج ناسوره . فقتـل الـكردينال بتروكسي أكبر المحرضين على ذلك . واذا تدبرنا أحوال عائلة « مالا تستا » في « ريميني » ، أو أسرة « إسطه » في « فيرار » وجدنا فيهما عادات مماثلة ومتوارثة في السم وسفك الدماء . واذا نظرنا أخيراً الى مدينـة ، كفلورنسا ، تفضل غيرها بحسن السيرة ، ويحكمها أحد أفراد أسرة مديتشي ، يؤثر عنه الذكاء والـكرم والشرف ، لتبين لنا انها كانت

مسرحاً لحوادث أشد وحشية من كل ما ذكرت . فقد اغتاظ آل باززي لأنهم رأوا آل مديتشي يقبضون على زمام السلطة ، فتواطؤوا مع أسقف البيزا على قتل يوليانوس ولوران دي مديتشي ولم يكن البابا سيكستت الرابع غريباً عن هـذه المؤامرة . واختاروا لهذا الحادث اليوم الذي يقام فيه القداس في « سانتا ريباراتا » Santa Reparata على أن يشرع بالاغتيال حين تقديم الذبيحة . فطعن أحد المتآمرين يوليانوس دمديتشي . فجثم فرانسيسكو ده باززي على الجثة وتطعم بلحمه ودمه وجرح بفخذه لشدة غضبه . ثم قتل شخص آخر تربطه الصداقة بآل مديتشي. أما لوران فقد جرح ، لـكنه كان شجاعاً : وقد تسنى له أن يستل سيفه ويلف جبته حول ذراعه ويجعل منها مجناً، وأحدق به أصدقاؤه فصانوه بسيوفهم وأجسامهم الى أن دخل مخزن الألبسة المقدسة واتخذه ملجأً . أما بقية المتآمرين ، ويبلغ عددهم الثلاثين ، وعلى رأسهم الأسقف ، فقد داهموا قصر الحكومة ليتسلموا زمام السلطة . لـكن الحاكم ، عند تسلمه مهام الوظيفة قد عني بتركيب الأبواب تركيباً غريباً ، فاذا أغلقت لا تفتح من الداخل فرأى المتآمرون . إنهم وقعوا في مصيد . أما الشعب فقد تقلد السلاح وجاء من كل صوب وقبض على الأسقف وشنق بثيابه الـكهنوتية الى جانب فرانسيسكو ده باززي أعظم المحرضين على المؤامرة . أما الأسقف فقد اعترته نوبة غضب شديدة وهو يلفظ أنفاسه في المشنقة ، فتعلق بجسم شريكه وأخذ ينهش لحمه . ثم جيء بما يقارب العشرين شخصاً من أسرة باززي، ومثلهم من أسرة الأسقف وقطعوا ارباً ارباً ، وشنق ستون شخصاً بنوافذ القصر . وكلف اندريا دل كاستانيو Andrea del Castagno (١٣٩٠ — ١٤٥٧) أن يصوّر هذه المشنقة العظيمة التي أورثته فيما بعد لقب اندريا المشنوقين . ويروى عن اندريا نفسه أنه سفاك ، قتل صديقه ليختلس سرّ التصوير الزيتي .

وسوف لا أنتهي إذا رمت أن أتحدث عن كل أخبـار ذلك العصر التي تتسم جميعها بطابع مماثل إلاّ أنني اخترت الحديث التالي، لأن بطل الحادث سيعود قريباً للظهور على المسرح، ولأن المحدث ماكيافيلي : « كان أوليفرتو Olivertto « من فرنو » صغيراً ويتيماً ، فكفله خال له « يدعى » جيوفاني فوغلياني . ولما كان الفتى على نصيب من الذكاء الفطري ، وكان نشيطاً، قوي الجسم ، شجاعاً ، لم يلبث أن بزّ في من قصير جدّاً أقرانه في فرقته. ورأى أن من الهوان عليه أن يظل مختلطاً ، ضائعاً بين الآخرين ، فعزم على احتلال المدينة معتمداً في ذلك على بعض المواطنين في « فرمو » فـكتب الى خاله يقول أنه نزح عن وطنه منذ سنوات عديدة ، وفي نفسه شوق لرؤيته وزيارة المدينة ، ولـكي يلقي نظرة سريعة على ميراثه من والديه . وأضاف يقول أنه لم يتكبد المشاق العظيمة الاّ للحصول على الشرف ، ولـكي يرى أبناء

وطنه وأنه لم يضع وقته سدًى،وأنه ينوي أن يأتي مصحوباً بمائة فارس ، بين أصدقاء وخدم ويرجوه أن يتلطف ويدعو اهالي «فرمو » ليحسنوا استقباله ، وهذا الشرف لا ينحصر في شخصه ، بل يشمل جيوڤاني أيضاً ، الذي تعهد أوليڤرتو طفلاً . لم يهمل جيوڤاني شيئاً من الواجبات المطلوبة منه . فاستقبل بحفاوة من قبل سكان « فرمو » وأسكنه جيوڤاني بيته ... قضى أوليڤرتو بضعة أيام يعد كل ما يراه لازماً لجرمه ، ثم أقام مأدبة عظيمة دعا إليها خاله وكل عيون فرمو . وقبيل الخاتمة ، انتقل بالحديث عمداً إلى شؤون هامة تتعلق بعظمة البابا اسكندر وابنه ودسائسهما . عندئذٍ نهض أوليڤرتو فجأة وقال : ان بحث قضايا مماثلة يتطلب خلوة تامة ، ثم دخل غرفة فتبعه خاله والآخرون . ولم يكد يطمئن بهم المجلس ، حتى برز من أمكنة خفية في هـذه الغرفة ، جنود ذبحوا جيوڤاني ومن معه . وبعد هذه المقتلة امتطى أوليڤرتو جواده وطاف المدينة وحاصر الحاكم الأعظم في دار البلدية ، ودبَّ الرعب في قلوب السكان ، فتطوعوا وأقاموا حكومة جعلوه رئيسها فحكم بالموت على كل حَنِقٍ عضَّ على ناجذيه . ولم تكد تنقضي سـنة حتى أصبح مرهوباً من جميع جيرانه » .

وتتواتر الدسائس على هذا الضرب ، فتملأ منها حياة سيزار بورجيا ، وليس إذعان ولاية الرومان للـكرسي الرسولي الا خيانات متتابعـة وسفك دماء . تلك هي الحالة الاقطاعية على حقيقتها ، حملت كل شخص أن يتفرَّد عن الناس ويعتمد على نفسه ، فيخرج على الغير أو يدافع عن نفسه ، ويسترسل في طمعه وفجوره وذحلـه ، دون أن يخشى توسط الحـكومة ولا زجر الشريعة .

لـكن الفارق العظيم بين ايطاليـا في القرن الخامس عشر وأوربا في القرون الوسطى كائن في الثقافة العظيمة التي كان يتحلى بهـا الايطاليون ، وقد رأينا فيما مضى من البحث الدلائل الـكثيرة على وجود هذه الثقافة اللذيذة . ومن غريب التناقض أن تصبح الأساليب أنيقة ، والأذواق مهذبة ، مرهفة ، وتظل الطباع والقلوب ، وحشية ، فظة . فهؤلاء الأقوام أدباء ، عارفون ، ظرفاء ، مهذبون يغشون المجامع ، وفي الوقت نفسه ذوو سلاح ، سيافة ، قتلة ، يأتون أموراً لا تصـدر إلا عن متوحشـين ، ويظهرون تفهماً تتصف به الأقوام المتمدنة : إنهم ذئاب نجيبة !!

ولنفرض الآن أن ذئباً طفق يفكر في أبناء جنسه ، فمن المحتمل أنه سوف يسن شرعة القاتل . وهـذا ما جرى في إيطاليا : فالفلاسفة صاغوا » قانوناً الحوادث التي شاهدوها وانتهوا الى الاعتقاد أو القول بأن على الانسان ، لـكي يعيش أو ينجح في هذه الدنيا ، أن

يكون فاتكاً . ويعد ما كيافيلـّي أحمق هؤلاء النظريين . وهو رجل عظيم ، شريف ، وطني ، ذو عبقرية متفوقة ، ألف كتاب « الامير » لكي يبرر ، أو على الأقل ، لكي يجيز الغدر وسفك الدماء . أو بالأحرى ، إنه لا يجيز ولا يبرر . فقد تجاوز السخط وترك الوجدان جانباً . هو يحلل ويشرح على نمط العالم ، العارف بأحوال الناس . ويدلي بحجج ويفندها ، ويرسل الى قضاة فلورنسا مذكرات مفيدة وواقعية ، مكتوبة بأسلوب هادئ رصين ، كما يكتب محضر في عملية جراحية موفقة ، ويعنون بيانه هكذا :

« وصف الطريقة التي سار عليها دوق ڤالنتينوا ليقتل ڤيتلّي ، أو ليڤرتو ، السنيور باغولو والدوق جراڤينا أورسيني » :

« أيها السادة الشرفاء : بما أن سياداتكم لم تتلق كل رسائلي التي تشتمل على قسم عظيم خاص بقضية « سينغاليا » ، فاستحسنت أن أكتبها مفصلاً . وأعتقد أن ذلك يسركم نظراً لأهمية الأمر ، وعظيم صيته ، وندرته من كل وجه » .

حرب هؤلاء السادة الدوق ، فوجد نفسه عاجزاً عن مخاصمتهم . فعقد الصلح ووعدهم كثيراً ، ووفاهم شيئاً مما وعد به ، وأجزل العطاء في الكلمات المنمقة ، وأصبح حليفهم ثم اقترح بإيعاز منهم ، عقد مؤتمر لحل قضية عامة . كانت المخاوف تملأ قلوبهم فترددوا كثيراً لكن وعوده كانت مغرية جداً ، وكان يحسن دغدغة آمالهم وأطماعهم ، وبالغ في اظهار اللطف والولاء ، مما حملهم على المجيء ، تصحبهم حقيقة فرق عسكرية ، فأعطوه مقادتهم بحجة التأنق في الضيافة وقادوه إلى قصر في « سينغاليا » كان يقطنه ، فدخلوه راكبين فكان الدوق يستقبلهم ببشاشة . ثم استنزلهم عن خيولهم ونزّلهم غرفة سرية ثم ما عتم ان جعلهم سجناء

« امتطى الدوق فوراً حصانه وأمر بنهب أتباع « أوليڤرتو واورسيني » . ولكن جنوده أسفوا لأنهم نهبوا أتباع أوليڤرتو ، فبدؤوا يعيثون في « سينيغاليا » ، ولو لم يقمع الدوق تطاولهم ويذبح الكثيرين منهم لنهبوها بأسرها »

أصبحت السيادة الشاملة للقوة ، وتلصص الصغار والكبار .

« ولما أقبل الليل وهدأ الهرج ، خطر للدوق أن يأمر بقتل « ڤيتلي و « اوليڤرتو » ، فساقهما الى مكان وأوعز بخنقهما . كان « ڤيتلـّي » يتوسل الى قاتليه كي يتضرعوا الى البابا ليمنحه غفراناً تامًّا عن خطاياه . أما « أوليڤرتو » فكان يبكي ، ويحمّل ڤيتلي مسؤولية الأضرار التي نزلت بالدوق . لكنهم أبقوا على « باغولو » ودوق جرافينا إلى أن بلغ الدوق ان البابا أدخل في حمايته كلاً من الكردينال أورسيني وأسقف فلورنسا وصاحب السيادة جاكوبو ، عندئذٍ أمر بخنقهم ، وكان ذلك في الثامن عشر من يناير » .

ليست هذه إلاّ رواية . لكن ما كيافيلّي في مناسبة أخرى لايقف عند سرد الحوادث بل يستخرج العبر . وقد ألف كتاباً نصفه حقيقي والنصف الآخر خيالي ، حاذياً في ذلك حذو كزينوفون في كتابه « سيروس » . وهذا الكتاب هو « سيرة » المحارب « كاسترو كسيو كاسترا كاني (١٢٨٠ — ١٣٢٨) . وقد شاء ما كيافيلي أن يظهره للايطاليين نموذجاً للأمير الكامل الأوصاف. ويروي عن هذا المحارب انه من اللقطاء ، لكنه ما عتم ان أصبح سيد لوك وپيزا ، وبلغ درجة من القوة حسبت لها فلورنسا أكبر حساب . » وقد أتى أعمالاً كثيرة تصلح أن تتخذ عبراً عظيمة لما فيها من الفضيلة والفلاح . وخلد لنفسه ذكراً حسناً مما جعل أصدقاءه يأسفون عليه أكثر مما أسفوا على أي أمير كان في عصر من العصور » . وسنقتصر الكلام على إحدى الأعمال المجيدة التي قام بها هذا البطل المحبوب الجدير بالثناء الخالد .

« ثارت عليه أسرة پوججيو فأوقف العصاة ستيفانو پوججيو ، وهو رجل شيخ وقور ، ووعدهم بوساطته . فاستحمقوا وألقوا السلاح كما شرعوه حمقاً . ولما عاد كاسترو كسيو ، ذهب ستيفانو لمقابلته ، ولم يشأ أن يتنصل إليه من الجناية ، ظنًّا منه ان كاسترو كسيو مدين له بقمع الفتنة ، بل سعى لانقاذ الباقين من أهل عشيرته . ورجاه أن يغفر للشبيبة نزقها وأن يتحمل ما ولدت صداقة عتيقة ، وتمنّن عليه بما فعلته له هذه العائلة من الصنائع . فأجابه كاسترو كسيو بكياسة عظيمة ، قائلاً له إنه يأمل خيراً ، ولا يسعه إلاّ أن يقر أن فرحه بوقف الشغب أعظم من حنقه عندما أنبىء بإيقاظه . وحث ستيفانو على أن يأتي بهم جميعاً ، قائلاً له ، إنه يقدم الشكر لله للفرصة التي أتيحت له كي يظهر عفوه وكرمه . فأتوا جميعاً ثقةً منهم بوفاء كاسترو كسيو وستيفانو ، فسجن الجميع ، حتى ستيفانو نفسه ، وحكم عليهم بالموت » .

والبطل الآخر الذي يتعشقه ما كيافيلّي هو سيزار بورجيا، أعظم سفاح وأعظم خوّار ظهر في عصره . هو رجل فريد في نوعه ، ينظر الى السلام مثلما كان المورون والأتروكسيون ينظرون الى الحرب ، أي انها فترة تعتبر فيها المداهنة والتلفيق والخداع والكيد حقّاً وواجباً ومفخرة. وكان يستوحي هذه المبادىء في سيرته مع كل الناس ، وأهل بيته وأخاص الناس إليه . وأراد يوماً أن يضع حدًّا للاخبار التي يتناقلها الناس عن قساوته . فألقى القبض على عامله « رومان » ، الذي أدّى له خدمات عظيمة ، وأخضع له البلاد بأسرها ونشر الطمأنينة . وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الناس، تخامرهم السرور والرعب، جثمانه في الساحة العامة وقد قطع قطعتين والى جانبه سكين دامية . وأشاع الدوق انه قتله عقاباً له على قساوته

القطيعة ، مما حمل الناس على نعته بالسيد الصالح ، العادل ، حامي الشعب . وخلص ماكيافيلّي الى هذا القول .

« يعلم كل امرىء ما ينال الأمير من المديح اذا عـهدَ الحرمة وعاش عدلاً لا ماكراً . غير أن التجارب في عصرنا برهنت لنا على أن الامراء الذين أتوا أموراً عظيمة، إنما هم أولئك الذين لم يصونوا العهد إلاّ نادراً ، واستطاعوا بدهائهم ان يتلاعبوا بعقول الناس ، وأخيراً هدموا أولئك الذين يعتمدون على صدقهم . فالسيد الحكيم لا يستطيع أولا يجب عليه أن ينجز وعده اذا أدى ذلك الى ضرره ، او اذا كانت الأسباب التي جرت الى هـذا الوعد قد انتفت . ومع ذلك ، فلم يعدم أمير يوماً حجة يتعلل بها كي يزخرف حنثه . ولـكن من الضروري أن يلون الأعذار التي يتعلل بها، وان يكون ختالاً عظيماً ومداهناً . والناس بله، سرعان ما يستجيبون للضرورة العارضة ، وان الخـدّاع لا يتعذر عليه أن يجد خـدْعة » .

(من يخدعه الناس) :

وواضح ان أمثال هذه العادات وهذه الحكم لها تبعات عظيمة تؤثر في الطباع . فهذا العـدم المطلق في العدل والأمن ، واستباحة الدماء والأرزاق ، وهذه الفريضة التي استنها المرء في الانتقام الصارم ، وانه لا يعيش إلاّ اذا كان مرهوب الجانب ، وهذا اللجوء الدائم الى القوة يصلب النفس ، جميع هذه الأسباب تجعل الانسان يعتاد التطرف والسرعة في الحكم ، ويفرض عليه أن يحسن القتل أو يستقتل في الحال وبما انه يحيا في خطر متواصل وشديد ، فتمتلأ حياته بالهموم العظيمة والميول الحزينـة ، ولا ينصرف ليميز بدقة تنوع عواطفه ، وليس خاصاً، من سجاياه التدبير والنظر والاطمئنان. فالاضطرابات التي تهمه عظيمة وساذجة . وليست القضية انتقاصاً في تقديره ، أو جزءاً من ثروته مهدد بالضياع ، بل حياته كلها وحيـاة خاصته . فيجوز أن يسقط من علٍ الى الحضيض، ويستيقظ على طعنة سكين او مرتبقاً في حبالة جلاد . ان الحياة عاصفة والارادة متحفزة ، والنفوس قوية يتوافر لديهـا كل ما تحتاجه من عبث .

وكان بودي أن أجمع كل هـذه الحوادث وأبرز للوجود شخصاً يضطرب لا وهماً مجرداً . ولدينا مذكرات خلفها أحدهم ، مكتوبة بيده بأسلوب في غاية البساطة ، وهي تفضل مؤلفاً من حيث الفائدة . فانها تظهر للقارىء أساليب المعاصرين في الشعور والتفكير والحياة . ويمكن اعتبار « سلّيني » (١٥٠٠ — ١٥٧١) مثالاً جليـاً للعواطف العنيفة ، والحياة المقتحامة ، والعبقريات الغريزية القوية ، والمواهب الخصيبة الخطرة التي أحدثت النهضة في ايطاليـا وأنتجت الفنون في الوقت الذي كانت تعمل فيه على هدم المجتمع . وأول من يطالعنا منه قوة

النشاط الباطني ، والطبع الشديدالشجاع ،والبديهة الحازمة ، وعادة الفصل السريع والمواقف المتطرفة الحاسمة ، والقدرة العظيمــة علىالعمل وتحمل العذاب . وبالايجاز قوة المزاج البكر الصعبة المراس . ذلك هو الحيوان البهي المحارب الصلب ، التي غذته آداب القرون الوسطى الشرسة ، وزيفه في عصرنا انتشار السلام واستتباب الأمن .



كان « بنفنيتو سليني » في السادسة عشرة من عمره ، وأخوه « جيوفاني » في الرابعة عشرة . وفي أحد الأيام سبّ جيوفاني أحد الفتيان فطلب مبارزته . فخرجا الى ظاهر المدينة وتسايفا ، فجرد جيوفاني خصمه من السلاح وجرحه . وفي تلك الاثناء وصل أهل الجريح فاستاقوه ورموه بالحجارة الى أن جرح الفتى المسكين وسقط . وصل « سليني » ساعتئذٍ فالتقط السيف وانقضّ على المهاجمين وتحاشى الحجارة ما أمكنه ، ولم يبعــد عن أخيــه قيد أنملة . وكان على وشك أن يقتل لو لم ينحز اليه بعض الجنود الذين مروا مصادفة ، فساهموا في انقاذه اعجاباً بشجاعته . عندئذٍ تناول أخاه وحمله على كتفه ونقله الى البيت،واننا لواجدون مائة حادث مماثل تشهد جميعها بقوته وبأسه وانها معجزة أن ينجو من الموت المحقق أكثر من عشرين مرة . ولا يسير إلاّ متقلداً سيفاً أو بندقية أو حاملاً بيده خنجراً ،سواء كان في الشوارع أو الطرق ، ليتقي شر أعدائه أو جنوداً أفاقين ، أو قطاع الطرق أو منافسين متنوعين . انه يتسلح بغيــة الدفاع عن نفسه لـكنه غالباً ما يهــاجم . ويعدّ هربه من قصر « سانت — أنج » الذي سجن فيــه على أثر ارتـكاب جريمــة قتل ، أكثر هذه الحوادث اثارة للدهشــة . اذ انه هبط من علو شاهق متدلياً بحبال اتخذها من شراشف سريره، وفي طريقــه الى الأرض ، صادف خفيراً بهره ذلك العزم الرهيب فتظاهر بأنه لم يره ، فعبر السور الثاني فوق خشبة ، ثم ربط حبله الأخير وتدلى . لـكن هذا الحبــل كان قصيراً ، فسقط وكسرت ساقه دون الركبة . عندئذٍ عصب ساقه وبدأ يزحف ، والدم يقطر منه ، الى أن بلغ باب المدينــة ، فوجده مغلقاً ، فتناول سكينــه وبدأ يحفر الأرض الى ان تمــكن من الانزلاق . ولما أصبح خارج السور هاجمته كلاب فبقر بطن أحــدها . ثم صــادف عتالاً ذهب به الى دار صــديق . لم يبقَ ثمّ مجــال للشك في النجاة ، ويغذي هذا الأمل عهد البابا . لـكنه لم يلبث ان فوجىء وقبض عليــه وزجّ في سجن مظلم نتن ،لا يدخله نور الشمس الاّ ساعتين في اليوم . وجاء الجلاد يوماً فأخذته الشفقة عليه ، فاستبقاه ذلك اليوم . ومنذ ذلك الوقت اقتصر على سجنــه . فـكانت المياه تنضح من محبســه وهرأه القش الذي اتخذه فراشاً ، ولم تندمل جراحــه . وظلّ على هذه

الحال بضعة أشهر الى أن أفرج عنه دون أن تهن قواه ، فكأنما نفسه وجسمه قدّا من الرخام والصوان : أمّا خلقتنا العارية فكأنها من الطباشير والجص .

ولا يقل خصب سليقته عن قوة بنيته ، وما ألين العريكة وأجزل الخير في هذه النفوس البكر السليمة . وقد توفرت له القدوة والمثال في عائلته ، كان أبوه مهندساً في البناء ورساماً ماهراً ، وموسيقيّـا هاوياً ، كثيراً ما يتناول الرباب ويغنّي منفرداً كي يسر . وكان يصنع أراغن خشبية ممتازة ، ومزاهر وربابات وقوانين ، وكان يتقن نحت العاج ، وماهراً جدّا في صناعة الآلات ، وينفخ بالنـاي في وسط مزامر السادة ، ويعرف جزءًا يسيراً من اللاتينية ويقرض الشعر بين الفينة والفينة . ويتصف رجال هذا العصر بالشمول ، فاذا ضربنا صفحاً عن « ليونار دڤنشي » و « لوران دمديتشي» و « ليو باتيستا » و « ألبرتي » والعبقريات الرفيعة ، وجدنا بين رجال المال والأعمال والرهبان والعمال فئة سمت بذوقها وعاداتهـا الى مستوى يجعلها جديرة أن تعالج الأمور وتتذوّق الملذات التي نحسبها في العصر الحاضر وقفاً خاصّـا على الأشخاص الذين أحرزوا ثقافة عظيمة وفطروا على أدق ما عرف من السجايا . وكان سلّيني في عداد هؤلاء . فقد أصبح قاصباً وناتخاً في صور ، ممتازاً ، رغماً عنه ، لأنه كان يمقت هـذه الآلات ولا يعكف عليها إلاّ ابتغاء مرضاة والده . وفيما عدا ذلك فانه أضحى منذ نعومة أظفاره رسّـاماً ممتازاً وصائغاً و نقاشاً على الزجاج والمعادن بالمينا ونحاتاً وسباكاً وفي نفس الوقت ألفى نفسـه مهندساً وصانع أسلحة وآلات ، وبنّاء حصون ، ويبز أرباب المهنة في حشو وتقليب وتسديد الأسلحة . وكان يتولى صنع أسلحته وبارودة ، ويروى عنه أن قذيفته كانت تصيب طائراً يبعد مائتي خطوة . وقد وهب عبقرية اتصفت بالتفوّق في الإختراع والإبداع ، فلم يزاول فنّـا أو صناعة الاّ وتكشفت له أساليب خاصة يكتم سرّها فتثير إعجاب الناس . هذا هو عصر الابداع : كل ما فيه غريزي ، ولا شيء يكتسب بالممارسة. والعقول خصيبة جدّا ما عالجت أمراً إلاّ أحيته وثمّرته .

عندما تبلغ السليقة هذه الدرجة من القوّة ، وتمهر بكثير من الصفات ، وتزخر بالنتاج ، ولما تتفاعل على الكفايات بنشاط وإتقـان ، ويظل النشاط مستمرّا ومتعاظماً ، يصبح لحن النفس العادي فيضاً من الفرح والحميا والغبطة القوية . فنرى « سليني » مثلاً ، بعد نجاته من مجازفات فاجعة رهيبة يخرج للسفر . ويقول عن نفسـه : « انني ما انقطعت عن الغناء والضحك » طول مدة السير . وهـذا الانتعاش السريع الذي يتطرّق الى الروح مألوف في إيطاليا ، وخاصة في مثل هذه السن حيث لا تزال النفوس ساذجة . ويقول أيضاً : « بعد أن شاركتني أختي قليلاً في البكاء على والدها وامها وأختها وزوجهـا وطفلها الصغير الذين

استأثر الله بهم ، فكّرت في إعداد العشاء . ولم تتحدث عن الموت طوال الأمسية ، بل حدّثتنا عن ألف أمر فرح . وليس هناك ما يعدل وجبتنا « بهجة وعظمة » فانه كان يعيش في روما حيث تتواتر المهاجمات في كل لحظة ، وحصار المخازن ، والمخاوف من القتل ، والسم ، والأعشبة ، والمساخر والمهازل المبتكرة ، وألوان الحب الصريح ، الاباحي ، المجرد من كل نعومة ، لا يصونه سر ، وهو يجانس العري الشهير الذي يؤثر عن الفنون الفلورنسية والبندقية كما يتجلى في الرسوم المعاصرة . ولا سبيل الى ذكر شيء عن هذا الحب أو إظهار شيء يتعلق به على مسمع ومرأى من الجمهور لأنه ممعن في العري والتجرد . ومع ذلك ، فإن المجون المنحط أو الفحش المصفى الممحض لا يشين أو يفسد هذا الحب . فالانسان يغرق في الضحك حتى القهقهة ، ويتمادى في السرور المخالف للحشمة ، مثله في ذلك مثل الماء الذي يجري من منحدر . وتتجلى سلامة النفس والحواس البكر الفتية ، والفورة البهيمية الطافحة ، في شهوته ، كما تتجلى في نتاجه وعمله . ومن الطبيعي أن تفضي هذه البنية الخلقية والفيزيائية الى الخيال الحاد الذي أتيت على وصفه فيما مرّ . ولما يكون الانسان مكوّناً على هذه الشاكلة ، لا يلمح الأشياء مجزأة وبواسطة الكلام كما نفعل نحن ، بل إنه يبصرها كتلة وبواسطة التصورات . وأفكاره ليست مبوّبة ومصنفة ومحصورة في معادلات مجرّدة كأفكارنا ، بل تتطاير مكتملة وملونة وحية . نحن نفكر وهو يتصوّر . ولهذا السبب تكثر خيالاته . وهذه الأذهان المفعمة والآهلة بالصور الفنية تظل أبداً في عصوف وغليان . « فسليني » لا يسمو في معتقداته عن الطفل ، وهو متطير كالرعاع . وكان هناك شخص لا ينفك يطعن في سليني وفي عائلته بالقول . وفي أحد الأيام صرخ وهو في ثورة غضبه « اذا كان ما أقول غير صحيح ، فليسقط « بيتي عليّ » وكان أن انهار البيت بعد زمن ، وكسرت ساقه . فلم يتردد « سليني » أن يعتبر هذا الحادث تدبيراً من العناية الإلهية التي شاءت أن تعاقب الشخص على كذبه . ويروي ، برصانة لا تشوبها شائبة ، أنه كان مرة في روما فتعرّف الى ساحر ذهب به في احدى الليالي الى مدرج « كوليزه » Colisée فأخذ يذر مسحوقاً غريباً على فحم متقد ويتمتم بكلمات سحرية ، وبغتة تراءى له أن السور قد عمرته الشياطين . ومن الطبيعي أن يصاب بالهلس في يومه ذاك . وفي السجن تهيج أفكاره ، واذا كان لم يغلب على أمره من تأثير الجراح وفتن الهواء ، فلأنه التفت صوب الله . وجرت محادثات طويلة بينه وبين ملاكه الحارس . وكان يتمنى رؤية الشمس ، سواء في الحلم أو في الحقيقة ، فرأى نفسه يوماً محمولاً أمام شمس بهية ، خرج منها يسوع المسيح فالعذراء وأشار إليه إشارات تحنن ، وشاهد السماء وبلاط الله بأسره .

هذه التصورات مألوفة في ايطاليا . فالإنسان يستحيل بغتـة شيئاً آخر بعد ان يتصبب حيـاة فاجرة عنيفة ، وغالباً عندما يكون لا يزال منغمساً في حمأة الرذائل . « أصيب دوق « فيرّارا » بمرض عضال حبس بوله مدة ثمانياً وأربعين ساعة . فاستعاذ بالله وطلب أن تدفع جميع الرواتب المستحقة الأداء » . وكان « هرقل إست » يذهب ينشد القداس مع فرقته المؤلفـة من موسيقيين فرنسيين ، على اثر انصرافه عن منكر . ومثل عيوناً او قطع أيدياً لمسجونين يبلغ عددهم مائتان وثمانون قبل ان يبيعهم ، ثم ذهب يوم خميس الأسرار يغسل أقدام الفقراء . وكذلك لما علم البابا الكسندر بقتل إبنه ، أخذ يقرع صدره واعترف بذنوبه أمام كرادلته ، فالخيـال بدلاً من ان يغرق في اللذّة ، يتحول شطر المخافة ، وعقلهم ، بطريقة مماثلة ، يتأثر بصور دينية لا تقل خبرة عن التصورات البهيمية التي كانوا يعيشون منغمسين بها. وهذا الهيجان وهذه الحمى التي تنتاب الفكر ، ومن هذا الرواش الباطني الذي يتبع التصورات الشاغلة ، الضـمّـه ، ان توج النفس بأسرها والهيكل الجثماني بأسره ، فيتولد أسلوب من العمل ، خاص برجال هذا العصر ، شديد الحمية ، لا يقهر ولا يميل عن قصده ، يستهدف كل ما هو متطرف ، حاسم ، كالصراع والقتل والدم. وحياة « ملّيني » مليئة بهذه الزوابع والصواعق. ففي أحد الأيام اشتبك في قتال مع ضائفين ينافسانه وبدءا يثلبانه . « وبما أنني لا أعرف لوناً للخوف ، فلم أعر تهديدهما اهتماماً. ولما كنت منصرفاً للكلام ، اغتنم أحد أبناء أعمامهم ، بإيعاز منهم على ما أظن فرصة مرور حمار ، بالقرب منا ، يحمل قرميداً ، ودفعه نحوي دفعـة قوية آلمتني كثيراً ، فالتفت إليه من فوري ، فأبصرته يضحك فلكمته لكمة على صدغه ، أفقدته وعيه وسقط مغمىً عليه . وناديتهم قائلاً : انظروا كيف يعامل الأخساء الجبناء الذين هم على شاكلتكم . ثم تبين لي أنهم يتحفزون ليثبوا عليّ ، لأنهم كانوا كثيري العدد ، فاستفزّني الغضب وانتضيت سكيناً صغيرة وخاطبتهم قائلاً : اذا أراد أحدكم أن يبرح الدكان فليذهب الآخر مسرعاً يبحث عن معرّف لأن الطبيب لن يعود يفيد شيئاً . ألقت هذه الكلمات الرعب في قلوبهم . فلم يجرؤ أحد منهم على الخروج كي يغيث ابن عمه . » . وعلى أثر ذلك دعي للمثول أمام محكمة الثمانية ، وهم قضاة مكلفون بأعبـاء العدل في فلورنسا ، وحكم عليه بغرامة قدرها أربعـة مكاييل من الدقيق . وتحدّث فقال : « سخطت وبدأت أرتعش غضباً حتى أصبحت كالأفعوان واختطت خطة يائسة ... انتظرت الى ان انصرف الثمانية ليتغدوا ، ولما ألفيت نفسي وحيداً ، وتبين لي ان ليس ثمة شرطي يراقبني خرجت من القصر مسرعاً قاصداً حانوتي . فتسلحت بسكين وطرت ميمماً بيت أعدائي . فوجدتهم جالسين الى المائدة ، فلما وقع بصر « غيراردو » الفتى عليّ وهو أس المشاجرة ، هجم عليّ ، فسددت الى صدره طعنة سكين مرقت من دراعتـه وطوقه

وقميصه دون أن تمس جلده ودون أن تحدث له أذى ما . خيل إليّ انني جرحت عدوي جرحاً فظيعاً نظراً للسهولة التي مرق بها سلاحي وأصوات التمزيق التي نشأت من تهلهل الثياب. وكأنه ظن ما ظننت فسقط على الأرض من فرط الذعر. فصرخت قائلاً : أيها الخونة ! سأقتلكم اليوم جميعاً » . ظنّ الاب والأم والأخوات ان ساعة الدينونة قد دقت ، فسجدوا على ركبهم يبتهلون . فلما ظهر لي أنهم لا يجرؤون على الدفاع عن أنفسهم وان « غيراردو » صريع جثة هامدة ، رأيت أن العار لاحق بي اذا مسستهم بسوء فقفزت الى أسفل السلم وأنا لا أزال في سورة الغضب . وفي الشارع صادفت بقية أفراد العائلة الذين لا يقل عددهم عن الاثني عشر شخصاً . كان أحدهم يحمل رفشاً حديديـّا ، والآخر قسطلاً غليظاً من ذات المعدن ، وبعضهم يحملون مطارق أو سنادين ، والآخرون عصياً . فانقضضت عليهم كثور ، وبتأثير الصدمة قلبت أربعة أو خمسة منهم ، وسقطت معهم لكنني ما انفككت أضرب بالسكين ذات اليمين وذات الشمال » .

وكما تتوالى الشرارة والانفجار ، هكذا تتعاقب عنده دائماً الفكرة فالحركة فالضربة . لأن الاضطراب الباطني الذي يبلغ الذروة من العنف ، يتنافى مع التفكير والخوف والشعور بالعدل ، وكل ما من شأنه أن يجعل المرء يلجأ الى التقدير والتعقل اللذين يخلقان عند الرجل المتمدن أو عند ذي المزاج البارد فسحة ، أو ما يشابه الكتلة المترهلة ، بين ابتداء الغضب والفصل النهائي . وكان يوماً في فندق فعام القلق في صاحبه ، وقد يكون على حق في ذلك ، لأنه كان يرغب أن يقبض الثمن قبل أن يقدم الأشياء الضرورية . وفي ذلك يقول سليني : «لم تغمض عيني برهة واحدة ، بل قضيت الليل كله أبحث عن خطة للانتقام. تخطر لي أولاً أن أشعل النار في البيت ، ثم أذبح الخيول الأصيلة التي ربطها صاحب الفندق في اصطبله . وكان كل أمر يبدو لي سهلاً اتيانه ، لكنني لم استسهل الهرب مع رفيقي » فقنع بتمزيق ونتف أربع فرش بسكينه . وهبط مرة مدينة فلورنسا ليصب تمثال « پرسه » فانتابته الحمى وارتفعت درجة الحرارة ، فكان يخيل لمن يراه أنه يعاني سكرة الموت لكثرة ما قاسى من وطأة الحمى وما قضى من الليالي الطويلة يرقب السبك . وفي هذه الأثناء أتى صانع مسرعاً يصرخ قائلاً ان السبك قد فشل . « أرسلت صيحة رهيبة بلغت السماء السابعة ونهضت من الفراش وشرعت ارتدي ثيابي وأنا لا أنفك أمطر خادماتي وغلماني ، الذين أقبلوا لمساعدتي ، وابلاً من الركلات واللطمات » . وحدث له مرة أخرى أن كان مريضاً ، وحرم عليه الطبيب الشرب ، فتمننت الخادمة عليه وناولته قدح ماء . « وقيل لي فيما بعد أن الطبيب المسكين سقط مغمياً عليه لما بلغه النبأ . فتناول عصاً وطفق يضربها بشدة ويقول

«آه ! يا خائنة ! قتلته » . ولم يكن الخدم أقل سرعة من السادة الى الضرب ، وليس الضرب فقط بالعصا ، بل بالسيوف أيضاً . ولما كان «سليني» سجيناً في قصر «سانت — أنج » صادف أحد تلاميذه شخصاً أخذ يسخر منه ويقول ان «سليني» قد مات بدون شك . «هو حي» ! أجاب التلميذ فوراً . « أما أنت فستموت » . وفي الحال صفقه ضربتين بالسيف على رأسه : صرعته الاولى وقطعت الثانية ثلاثة أصابع من يده اليمنى».وهناك ما لا يحصى من الحوادث المماثلة التي جرت له في فرنسا وايطاليا وكل مكان . وفي كل مرة كان يقتل أو يجرح خصمه . وقد يكون هذا الخصم تلميذاً له ، أو محظية ، أو عدوًّا ، أو صاحب فندق ، أو سيداً ، أو قاطع طريق . لنتناول إحدى هذه الاقاصيص ولنتدبر بعناية الظروف البسيطة في الرواية التي تصوّر العواطف . شاع الخبر أن أحد تلاميذه قد قتل . « أطلق أخي المسكين صيحة غضب عظيمة يمكن سماعها لمسافة عشرة أميال . ثم التفت الى « جيوفاني » وسأله قائلاً هل يمكنك ، على الاقل ، أن ترشدني الى الشخص الذي قتله ؟ فأجاب «جيوفاني » بنعم وان القاتل من الذين يحملون سيفاً يقبض باليدين وتزين قلنسوته ريشة زرقاء . فتقدم أخي المسكين من القاتل ، وقد ساعدته هذه العلامة على معرفته ، ووثب في وسط العسس بسرعة وجرأة غريبتين عهدتا فيه دون أن يستطيع أحد وقفه وركل خصمه ركلة بقرت بطنه ومرقت رجله منه ثم دفعه الى الأرض مع قبضة سيفه وهاجم الباقي من العسس بجسارة عظيمة . وكان في قدرته أن يجعلهم يولون الادبار لو لم يطلق عليه قواس عياراً ناريًّا ، دفاعاً عن نفسه ، أصابه فوق ركبته اليمنى ، فسقط وانكفأ العسس انكفاءً سريعاً خوفاً من ظهور بطل آخر رهيب » .

جيء بالشاب المسكين الى بيت سليني وأجريت له عملية فلم تنجح . ويعود سبب فشلها الى جهل الجراحين في ذاك العصر ، فمات متأثراً من جراحه . عندئذٍ اغتاظ « سليني » وثارت أفكاره في رأسه .

« لم يعد لي هم إلاّ أن أرقب ذاك الذي قتل أخي كما ترقب حظية . وقد بدا لي أن الرغبة الملحة في رؤيته حرمتني النوم والطعام وأفضت بي الى مسلك سيء . فتأهبت للخروج من هذا المأزق مهما كلفني الأمر من الدم . فاقتربت منه بلباقة وبيدي سكين كبيرة شبيهة بسكين الصياد . وكنت آمل أن أباغته من القفا وأطيح برأسه لـكنه التفت بسرعة عظيمة فلم أصب إلاّ كتفه اليسرى وكسر العظم . ثم نهض وطرح سيفه وبدأ يركض لمـا أصابه من الألم . فتبعته وأدركته بعد أربع خطوات وأصلت السكين فوق رأسه المطأطأ وشككته بها فغار النصل بين القمحدوة والنقرة وبذلت كل جهدي فلم أقو على إخراجها » .

وعلى أثر ذلك شكوه الى البابا . لـكنه قبل أن يؤم القصر فطن الى صنع بعض الحلي . « لما ظهرت أمام الباب لحظني متوعداً فرعشني . وحالما وقع نظره على المصاغ انبسطت أسارير وجهه » . وارتـكب مرة أخرى جرماً لا يقل فظاعة عن سواه ، فأجاب البابا اصدقاء القتيل « اعلموا ان اشخاصاً تفردوا بفنهم كسليني لا يجب ان يرضخوا للقوانين ، وخصوصاً هو ، لأنني أعلم أنه حـق له ان يفعل ما فعل » .

كل هذا ينبئنا عن مدى تأصل عادة القتل في ايطاليا يومذاك . فزعيم الدولة ، ونائب الله ، يرى من الطبيعي ان يحتقّ الناس ، ويسدل على القاتل ستاراً من اللامبالاة او الغفران او المحاباة ، او العفو .

من الحالة التي تسود فيها هذه العادات وهذه الأفكار تتولد تبعات كثيرة لها اثرها في التصوير . فالناس في ذلك العصر مضطرون قبل كل شيء ان يهتموا بأمر نجهله نحن جهـلاً تامًّـا لأنه لا يقع تحت نظرنا و لا يسترعي انتباهنـا مطلقاً : وأعني بذلك الجسم والعضلات والأوضاع المتنوعة التي يتخذها الانسان أثناء القيـام بحركة ما . لأن الرجل يومذاك مهما سمت منزلته ، عليـه أن يكون جنديًّـا يتصرف بالسيف والخنجر تصرفاً متقناً بغية الدفاع عن نفسه . ومن ثمَّ يطبع في ذهنه ، وبدون أن يعي ، كل الاشكال وكافة أوضـاع الجسم المتحرك او المحارب . ويرى الكونت « بالتازار » ، وهو يصف المجتمع المهذب ، يعدد المرانات التي يجب ان يمهر بها الشخص المربّـب . وسنرى من المقاطع التالية ان الغـاية التي كانت تهدف اليها تربية الاشراف في ذلك الزمان ، وبالتالي الأفكار التي كانت تبث ، لا ترمي الى تنشئة المرء عالماً بأفانين السلاح فقط ، بل ان يشب على غرار مصـارع الثيران والرياضي والفارس المغوار : « أريد أن يكون رجل البلاط عندنا حاذقاً في ركوب الخيل مهما تنوّعت السروج . ولما كان من مزية الايطاليين الخاصة أن يسوسوا الحصان جيداً بواسطة العنان ، ويروّضوا الخيول الشامسة وفق مبادىء خاصة ، ويطاعنوا ، فانني أرغب أن يكون مبرزاً في هذه الأمور بين المتفوقين من الايطاليين أنفسهم . وان يكون من المجلين بين قرنائه الفرنسيين في النزال والسباق بين الحواجز . وأن يكون ممتازاً بين الاسبانيين في مصارعة الثيران ورمي السهـام وطعن الرماح . . . ويحسن به أن يتمرن على القفز والركض ، ويحذق رياضة اخرى نبيلة هي لعب الـكرة . ولا يضيره ابداً ان يتقن الجولان ممتطيـاً صهوة جواده » .

وليست هذه الأقوال مجرد تعاليم يتذاكر بها الناس او أشياء انزوت في بطون الـكتب ، بل كان القوم يعملون بموجبهـا وقد اتسمت بها عادات الأعيـان من المجتمع . « فيوليان

دو مديتشي » الذي فتك به آل بازي ، لم يمدحه مترجمه لموهبته الشعرية وصواب معرفته بالامور فقط ، بل لمهارته أيضاً في الفروسية والمصارعة ورمي الرمح. وكانت يدا قيصر بورجيا هذا السفاح العظيم والسيامي المحنك ، قويتين كذكائه وارادته . فمن يتأمل صورته يره شخصاً ظريفاً ، ومن يقرأ تاريخه يتحقق لديه انه داهية . لكن ترجمته الصحيحة تظهره لنا فتاكاً ، لا ينفك يفخر ببأسه وفتكه بالعرب ، كأكثر الاسبانيين . وهو ليس بالغريب منهم لان عائلته قدمت من اسبانيا . وقد قال أحد معاصريه : « هو في السابعة والعشرين من عمره ، له جسم بارع «الجمال» ، وان أباه البابا يخافه كثيراً . فقد صرع ستة ثيران ضارية «وهو يجول على جواده وبيده حربة ، وفلق رأس أحدها بضربة واحدة » .

لنتأمل أناساً ربوا على هذا النمط وقد مارسوا وتذوقوا جميع أنواع الرياضات البدنية. انهم على استعداد تام لكي يتفهموا تمثيل الجسم ، أي أن يتقنوا التصوير والنحت . فالجذع المنعطف ، والفخذ المنثني ، والذراع التي ترتفع ، والوتر النابي ، وبالجملة كل الحركات وجميع أشكال الجسم البشري توقظ فيهم تصورات باطنية سبق لهم ان رأوها .

* * *

ومن جهة أخرى ، فان فقدان العدل والنظام ، والحياة التي تكثر فيها الشكاسة ، وتتوفر فيها دائماً أفظع انواع المهالك ، كل هذه الاسباب تفعم النفس بالأهواء العنيفة الساذجة العظيمة ، وتجعلها متأهبة لتتذوق الحماسة والسذاجة والعظمة في مختلف الأوضاع والاشكال

ذلك لأن ينبوع الذوق هو التعاطف sympathie ، ولكي يسرنا شيء بليغ يقتضي ان يكون تأثيره مطابقاً لحالتنا الخلقية . وللأسباب نفسها نلاحظ ان الاحساس أصبح نارياً لأنه كبت في الباطن بسبب الضغط المرعب الناتج عن كل ألوان الوعيد التي تكتنف حياة الانسان . وكلما تألم المرء وخاف وكدّ ازدادت رغبته في الترسل وكلما اشتدت على نفسه وطأة الهموم العنيفة او التأملات القاتمة ، يتعاظم شعوره بالسرور في حضرة الجمال المنسجم الرفيع . وكلما اشتد او كبح جماح اهوائه ابتغاء أن يجهد نفسه او يصانع ، يحلو له ان يتمتع عندما يصبح بمنجاة من الأذى أو عندما يرسل نفسه على سجيتها . وان صورة موضوعة في مخدعه تمثل السيدة العذراء في هدوئها ونضرتها ، او تمثال فتى ذي بأس موضوع فوق صوانه ، تستوقفان نظره وتزيدان في لذته لدى انعتاقه من هموم مهمومة وأحلام مزعجة. وان الحديث السهل المتنوع ، الخالي من القيود ، الذي لا ينفك يتجدد وتكثر أفانينه ، لا يقوى على استهوائه . ففي السكون الذي يهرب إليه ، ينشد العزلة ويناجي سراً ، الالوان والأشكال . وان للظروف الحقيقية التي تكتنف حياته المألوفة ، وكثرة الأخطار

التي يتعرض لها ، وصعوبة الاباحة بأسرار القلب ، لا عمل لها إلاّ أنهـا تزيد في إضرام وتصفية الثائرات التي يستنزلها من الفنون .

لنجرب الآن أن نحشد كل هـذه الفعال التي تتعلق بالطبع ، ولنتطلع ، من جهة ، الى رجل من معاصرينا ، غني ، أحسنت تربيته ، ومن جهة ثانية الى سيد عظيم عاش حوالي عام ١٥٠٠ . وكلا الرجلين منتخبان من الطبقة التي نبحث فيها عن قضاة يحسنون الحكم . إن معاصرنا يستيقظ الساعة الثامنة صباحاً ، ثم يرتدي قباءه ويتناول شيئاً من الشوكولاتة ، بعدئذٍ يقصد مكتبته فيقلب أوراقاً لا طائل تحتها اذا كان أحد رجال الاعمال . أو يتصفح بعض الكتب الجديدة ، اذا كان رجلاً اعتاد أن يغشى المجتمعات . وبعد أن يسير قليلاً على سجادة وثيرة ، يفطر في غرفة يدفئها السعار ثم يخرج يتنزه في الشارع هادىء الفكر ، لا يساوره قلق ، ويدخن سيجاره . وقد يحلو له أن يدخل نادياً ليقرأ الصحف أو يتحدث عن الادب أو أنباء البورصة أو السياسة أو القطر الحديدية . ولما يعود الى بيته ، وأن يكن على قدميه وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، يعلم جيداً أنّ الشارع مجهز بزمرة من رجال الشرطة وسوف لا يناله أذى . فيأوي الى فراشه مطمئن البال ، عازماً على أن يستأنف سيرته عندما يصبح الصباح . هذه هي الحياة الحاضرة بجميع أوصافها . ماذا أبصر هذا الرجل مما يختص بالجسم ؟ انه ذهب الى الحمامات الباردة وتأمل هذا المستنقع الذي يستثير السخرية حيث تخوضه كل أنواع الشناعة البشرية . وقد يحدث له ، اذا كان طلعة ، أن يشاهد مصارعين في المعارض ثلاث أو اربع مرات طيلة حياته . اما فيما يختص بالعري فلم يتح له ان يشاهد اوضح مما شاهد من اجسام حلزون الاوبرا . وما هي التجارب التي مرّ بها كي تتولد في نفسه آلام عظيمة ؟ من الجائز انه لا يعرف الاّ الفتن التي يولدها الغرور ، او القلق الذي ينشأ عن المال : كأن يكون اساء التخمين في البورصـة ، او لم يحرز مركزاً يصبو إليه ، اغتصبه اصدقاؤه وقالوا عنه انه مغفل ، أو أن زوجتـه تبذر مالاً كثيراً وابنه ارتكب حماقة . أنه يجهل الأهواء الشديدة التي تعرض للخطر حياته وحياة من يمت اليه بصلة ، أو تودي برأسه الى الجلاد أو تفأس عنقه على خشبة ، او تقذف به في غياهب السجن ، او تقتاده الى العـذاب والموت قتلاً . إنه يحيا حياة هادئة جداً ، تحميه الأنظمة والقوانين ، وتتجاذب شخصه إحساسات عديدة لطيفة لذيذة . ويجهل الحالة الباطنية التي تخامر إنساناً يضطر لقتل غيره كي ينجو بنفسه إلاّ اذا استثنينا المصادفة التي تتيح له مبارزة مصحوبة بالإكرام والتلطف .

لنتفحص حيـاة أولئك السـادة الذين سبق الـكلام عنهم أمثال « اوليڤرتو » ،

و « ألفونس دست » وقيصر بورجيا و« لوران دو مديتشي» ورجال حاشيتهم ، وكل اولئك الذين تلقى في يدهم مقاليد الأمور . فالمهمة الرئيسية التي يفرضها على نفسه الشريف أو الفارس في عصر النهضة هي ان ينهض من فراشه ويتجرد من ثيابه ، ويحذو حذوه أستاذه في شؤون السلاح ويتنـاول باحدى يديه خنجراً وبالاخرى سيفاً كما تمثله النقوش المثبتة على الجدران . ما هي الأعمال التي تستغرق أوقاته وما هو الفرح العظيم الذي ينشده؟ انه يتعشق مواكب الفرسان ، والمساخر ، ودخول المدن ، والأبهة الوثنيـة والنزال والترحاب بالملوك حيث يظهر على صهوة جواده مرتدياً أجمـل ما عنده ، ناشراً طوقه المخرم المدبج الموشى بالذهب ودراعته المخملية ، وهو فخور بجمال هيبته وهيئته الحازمة التي يعول عليهـا وعلى أصحابه في اعلاء شأن ملـكه . وكثيراً ما يرتدي درعاً تحت صدرته عند ما يغادر بيتـه نهاراً . ويتحتم عليه أن يظل بمنجاة من طعنات خنجر او سيف قد تسدد اليه في زاوية شارع ما . ويظل بعيداً عن الطمأنينة حتى ولو كان بين جدران قصره . وان الأركان الحجرية والنوافذ المشتبكة بالقضبان الغليظة والمتانة الحربية التي يتسم بها البنيان تشير لنا ان البيت كالدرع ينبغي ان يحمي صاحبه كل هجوم وان الرجل لما يصبـح في بيته ، وقد ارتج بابه وجلس تجاه صورة وصيفة جميلة أو عذراء او بحضرة « هرقل » ما او ابخالدزاده تدثره مهابة وبرزت عضلاته نامة عن قوة وحزم ، ان هذا الضرب من الرجال أقدر على تفهم جمال هذه الصور وكمالها الجسماني من رجل عصري . ويستشعر ، دون أن يختلف الى أماكن الفنانين ، بل بواسطة تعاطف لا دخل للارادة فيه ، جمـال الغري الذي يوحي البطولة ، وروعة العضلات المفزعة في فن «ميكلانجيلو » ، والصحة والوداعة والنظر الساجي في إحدى عذارى «رافائيل» ، والحيوية الجريئة الطبيعية في أحد تماثيل «دوناتلـو»، والجلسة العوجاء الفتانة في أحد صور « ليونارد دفنشي » واللذة البهيمية الأنيقة والحركة الفائرة والقوة والفرح والجبار التي تتصف بها أشخاص « تنتوره » و «تيسيان» .

الفصل السادس

ان تلك الحالة الذهنية ، الجديرة بالتصوير ، الكائنة بين التفكر البحت والتصور الصرف والسجايا ذوات العزم والشيم المنيفة، جديرة بأن توحي معرفة الأشكال الجسدية الجميلة وتذوقها. تلك هي الظروف الزمنية التي انتجت في ايطاليا ، بالاشتراك مع الاستعداد الفطري السلالي ، المطمة والكمال في تصوير الجسم البشري . ولم يبقَ لنا إلاّ أن نجوس خلال الشوارع أو نغشي الأماكن التي يعمل فيها الفنانون ، فسنتحقق ان التصوير يولد من تلقاء نفسه وليس كما هي الحال عندنا، نتاج مدرسة، وأشغولة النقاد ، وعبث الفضوليين، وحماقة الغواة وغرساً اصطناعيّاً اقتضى نفقات باهظة ، ثم ما لبث أن أصابه الذبول، رغم الدبال الذي يحيط به . وعلة ذلك ان الغرس غريب ويتعذر الاحتفاظ به حيّاً في أرض وهواء كونا لينتجا علوماً وآداباً وصناعات وشرطاً وساسة . فالمدن التي تغشى دورها الرسمية وكنائسها بالصور المنقوشة تنثر حول فن التصوير مئات اللوحات الحية التي تفوق هاتيك الصور بالأبهة وإن كانت سريعة الزوال . وليس عليه إلاّ أن يلخص تلك المشاهد العابرة . والناس في ذلك العصر من هواة التصوير ، ولا يتبادر الى الذهن ان هذا الهوى لايستغرق إلاّ مدة وجيزة من حياتهم ، بل يدوم طيلة عمرهم ، ويتجلى في احتفالاتهم الدينية وأعيادهم القومية واستقبالاتهم العامة ، وفي شؤونهم وأفراحهم .

لنراقبهم عن كثب أثناء العمل : فالنقابات ، والمدن ، والامراء والأساقفة ، ينشدون الجد واللهو في المواكب الأنيقة الفاتنة ، وعرض الجند . وانني سأتكلم عن إحدى هذه التظاهرات ، وأدع القارىء يتخيل هيئة الشوارع ، والساحات التي كانت تزخر بهذه الأبهة مراراً كثيرة خلال العام الواحد : « كان لوران دمديتشي » رئيساً لجمعية « برونكون » . فشاء أن تبز جمعيته بالأبهة جمعية « ديامان » . فعهد بالمهمة الى « جاكوبو ناردي » Jacopo Nardi أحد شرفاء وعلماء فلورنسا الذي أعد له ست عجلات .

« ان العجلة الأولى ، التي يجرها ثوران تغشيهما أوراق الأعشاب ، كانت تمثل عصر زحل ويانوس . وعلى قمة المركبة قد استوى زحل ، وبيده منجله ، ويانوس قابض على مفاتيح معبد السلام . وقد أثبت المصور « بونتورمو » Le Pontormo (١٤٩٣ — ١٥٥٨)

تحت أقدام هـذه الآلهة صورة الجنون المقيد وكثيراً من الأتباع المنوطة بزحل ويواكب المركبة اثنا عشر راعياً ارتدوا جلود القاقم والنمس ، واحتـذوا خفافاً قديمة الزي وحملوا مزاود وتوجوا بأكاليل من الأوراق . ووضع على ظهور الخيول التي امتطاها هؤلاء الرماة بدلاً من السروج ، جلود سباع ونمور وذئاب ذهّبت براثنها . وأحاط بردافهـا أثفار مصنوعة من حبـال مذهبة ، وكانت الرُكُب شبيهة برؤوس الكباش أو الـكلاب أو حيوانات أخرى ، وكانت اللجم ضفائر من فضة وأوراق أشجار . ويسير في إثر كل راعٍ أربعـة من القنّامة يرتدون أكسية دون كسائه جمالاً ، ويحملون بأيديهم مشاعل تماثل أغصان الصنوبر .

«ويجر المركبة الثانية أربعة ثيران تغشيها أقمشة زاهية باهظة الثمن . « ومن قرونها المذهبة تتـدلى أكاليل من الأزهار وسبحات ، وركب في المركبة « نوما پومپيليوس » Numa Pompilius ثاني ملوك الرومان (يقول الـكتاب اللاتيني إنه حكم من عام ٧١٤ الى ٦٧١ ق . م) ، محاطاً بكتب الديانة وبكل الحلل الـكهنوتيـة والأدوات الضرورية للضحايا . يليه ستة من الـكهنة وقد امتطوا بغلات جميلات جداً وتستر رؤوسهم أغطية مزدانة بأوراق اللبلاب موشاة بالذهب والفضـة . ويرتدون أقبية قديمة الزي يزين الذهب أهدابها . يحمل بعضهم حُقّـاً ملئت طيباً ، والآخرون إناء ذهبيـاً أو شيئاً آخر من نفس النوع ، ويسايرهم وزراء ثانويون يحملون شمعدانات قديمة .

«وعلى العجلة الثالثة التي تجرها خيول بارعة الجمال ، والتي تفنن پونتورمو بزخرفتها بالرسوم المختلفة قد جلس « مانليوس توركواتوس Manlius Torquatus الذي أصبح قنصلاً بعد الحرب القرطاجية الأولى ، ويعود الفضل في ازدهار مدينة روما الى سياسته الرشيدة . وكان يتقدم هذه العربة إثنا عشر شيخاً راكبين خيولاً مغطاة بلبد مموّه بالذهب ، يحيط بهم لفيف من القضاة يحملون حزماً وفؤوساً والرموز الأخرى الخاصة بالعدل » .

« وتجر المركبة الرابعة التي استوى فيهـا يوليوس قيصر ، أربع جواميس تزيت بزي الفيلة . وقد صور « پونتورمو » على المركبة أروع مآثر الفاتح . وكان يتبعها إثنا عشر فارساً يحملون أسلحة لمّاعة جلهـا الذهب . وكل منهم يقبض على رمح يرتكز على الفخذ . وكان الأتباع يحملون مشاعل ترمز الى انتصارات » .

« وعلى العربة الخامسة التي تجرها خيول مجنحة على شكل عقبان ، قد استوى قيصر أغسطس . ويصحب الامبراطور إثني عشر شاعراً امتطوا الخيول وتوجوا بالغار وساهمت آثارهم في تخليد ذكراه . ويحمل كل شاعر وشاحاً نقش عليه اسمه .

«وجلس الامبراطور ترايانوس (٩٨—١١٧) في العربة السادسة وقد كلف «بونتورمو» بزخرفتهـا وكانت تجرها ثماني عجال (أنثى العجل) انفق كثيراً على تربيتها . ويتقدم الامبراطور إثنا عشر مشرعاً على ظهور الخيل وقد ارتدوا حللاً طويلة . ثم يليهم نساخ ومسجلون يحملون في يد مشعلاً وفي الآخرى كتباً . وتسير في إثر هـذه العربات الست المركبة التي ترمز الى العصر الذهبي وقد صورها «بونتورمو» وزخرفها «باندينلي» بصور عديدة بارزة . وفي وسطها وضعت كرة ذهبية ضخمة تمددت فوقها جثة مغطاة بسلاح حديدي علاه الصدأ . ومن كشحها برز طفل عار ومذهب ليمثل بعث العصر الذهبي وخاتمة العصر الحديدي . ويعود الفضل في هذا الحدث الخطير الى ارتقاء لاون العاشر سدة البابوية . ويشير غصن الغار اليابس الذي بدات أوراقه تخضوضر الى ذات الفكرة مع أن أشخاصاً كثيرين تكهنوا عنـه أنه يلمح الى لوران دمديتشي . أما الصبي الذي موه جسـمه بالذهب وتحمل كثيراً من المشاق لقاء مبلغ زهيد من المال لم يلبث أن فارق الحياة .» .

مهما كان التعداد جافـاً فهو يظهر لنـا الذوق الفني الذي كان يتحلى به أبنـاء ذلك العصر . ولم يكن ذلك الذوق وقفاً على الأشراف والأغنياء فقط ، بل كان من خصائص جميع الطبقات . وكان لوران يقصد من إقامة هذه المهرجانات الاحتفاظ بنفوذه . وإلى جانب هذه الحفلات كانت توجد المساخر وما يصحبها من الأناشيد التي أضاف إليها لوران زيادات كثيرة وتفنن فيها أيما تفنن . ولم يكن يحجم عن المساهمة في هذه الأفراح ، وكثيراً ما كان ينشد الأبيات التي نظمها ويظهر في طليعة المحتفلين بالمهرجان الفخم . ولا يجب أن ننسى أن «لوران دو مديتشي» كان في ذلك العصر أعظم صيرفي ، وأكرم من تعهد حماية الفنون الجميلة ، والصانع الأول في المدينة ، وفي ذات الوقت كان جميع القضـاة يقرون له بالزعامة . فكان يجمع في شخصه المزايا التي نجـدها اليوم موزعة بين «الدوق دلوين» (١٨٠٢ — ١٨٦٧) le duc de Luynes وروتشيلد ، ومحافظ منطقة السين ، ومديري أكاديمية الفنون الجميلة ، وأكاديمية المخترعات ، وأكاديمية العلوم الخلقية والسياسية ، والمجمع العلمي الفرنسي . ذلك هو الرجل الذي كان يتزعم حفـلات المساخر في الشوارع ، ولم يكن يدور بخلده ان اتيان هذه الأعمال يمس كرامته . وقد أكسبته هذه الحمية شرفاً ، عوضاً من أن تجعله سخـرة ، ذلك لأن الذوق في ذلك العصر كان مرهفاً ، حاراً . وقبيل المغرب كان يخرج من قصره ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل يحملون المشـاعل ويطوفون في شوارع فرنسا حتى الساعة الثالثـة أو الرابعة بعد منتصف الليل ، ترافقهم أجواق موسيقيـة مكونة من عشرة أو اثني عشر أو خمسة عشر مغنياً . وقد طبعت المقطوعات التي تنشد في هذه المساخر في مجلدين ضخمين .

وسوف لا أسرد إلاّ أغنية واحدة نظمها « لوراق » ذاته ، وعنوانها « باخوس وآريان » هي وثنية في جمالها ومغزاها . ذلك لأن ذلك العصر شهد انبعاث الوثنية القديمة بفنونها وتفكيرها .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

« من يشأ أن يكون سعيداً ، فليتمتع فوراً ولا يثق بالغد » .

« هو ذا باخوس وآريان — ما أجملهما ، انهما يتأججان شوقاً الى بعضهما . هما »
« سعيدان دائماً ويعيشان سوية ، لأن الزمن زائل وخداع » .

« هؤلاء الصبايا والأخريات يسرهنّ الانتظار . من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع »
« ولا يثق بالغد » .

« هؤلاء الفتيان الخلعاء الجذلان — عشاق الصبايا قد نصبوا لهن مائة شرك — في »
« المغاور والغابات — وفي فترة الانتظار طفقوا يرقصون ويقفزون لأن باخوس دوأم — »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« يا أيتها العاشقات والعشاق — ليحيي باخوس وليحيي الحب — ليتناول كل منكم »
« آلات الطرب ويرقص ويغنّي — وليتأجج القلب بحلاوة الغرام — وليهادن الشقاء والألم »
« من يشأ أن يكون سعيداً فليتمتع ولا يثق بالغد » .

« ما أجمل الشباب ! إلاّ أنه زائل » .

وكان هناك أناشيد كثيرة غير هذا النشيد : يغني بعضها غزالات الخيوط الذهبية ، وأخرى ينشدها جماعة من الفقراء ، وغيرها خاص بالنساك والنساء والأساكفة والمكارين والباعة وصانعي الحلوى والزيت . وكان مختلف الهيئات النقابية تفد لتساهم في المهرجانات وبامكاننا أن نبعث نفس المشهد فيما لو فرضنا ان كل ما عندنا من مسارح قد اشتركت في مظاهرة تطوّف في الشوارع عدة أيام متتالية . ومع ذلك فانه يظل هناك فارق . وهؤلاء الذين كانوا يقومون بمهرجانات فلورنسا لم يكونوا أشخاصاً دفعت لهم الأجور كي يلبسوا ثوباً مستعاراً ، بل كان الموكب يتألف من السكان أنفسهم . فكانت المدينة بأسرها تهبط الشارع وهي سعيدة أن تتأمل ذاتها وتعجب بأفراحها . فمثلها مثل الفتاة الجميلة التي تبرز للناس بعد أن بذلت قصارى جهدها كي تستكمل أسباب الزينة .

وليس أقوى على انهاض الخصائص الانسانية من اتحاد كهذا الاتحاد في الأفكار والعواطف والأذواق . وقد لوحظ ان ثمة شرطين ضروريين لنتاج الآثار العظيمة : الأول فوران عاطفة غريزية خاصة وشخصية ، يعبر عنها بصدق دون أن يحسب حساباً لرقيب ،

ودون أن توجه أي توجيه . أما الشرط الثاني فهو توفر النفوس المتعاطفة ، وهي بمثابة المدد الخارجي غير المنقطع الذي ينضج من الأفكار الحية التي تحتضن الأفكار الغامضة المبهمة وتغذيها وتنميها وتنوعها وتشجعها . وتصدق هذه الحقيقة في كل مكان على المؤسسات الدينية والمشاريع العسكرية في الآثار الأدبية والمسرات الدنيوية . ان النفس تشبه الجسم المتقد . فلكي يؤثر هذا الجسم يجب أن يشتعل أولاً ومن ثم أن يجد حوله جذوات أخرى مشتعلة . لأن التماس الدائم يضرم هذه الجذوات وتتضاعف حرارتها مئات المرات فتمتد ألسنة اللهيب من كل صوب . تأملوا هذه الشيع القليلة الشديدة البأس من البروتستان الذين هجروا انجلترا ويمموا شطر المغرب ليبعثوا الولايات المتحدة الأميركية . كانت تلك الشيع مؤلفة من رجال تجاسروا على الاعتقاد والاحساس والتفكير العميق على نمط مبتكر يتصف بالشغف . ولكل منهم عقيدته الراسخة الخاصة . ولما قدر لهم أن يجتمعوا وقلوبهم مفعمة بعواطف مماثلة يحدوهم نفس الحماس أصبحوا جديرين على أن يستعمروا مساحات مقفرة ويؤسسوا ولايات متمدنة .

ويصدق القول كذلك على الجند في اواخر القرن الماضي كانت الجيوش الفرنسية بعيدة عن النظام حديثة العهد بالفن الحربي يقودها ضباط لا يقلون جهلاً عن الجند الذين يأتمرون بأمرهم واضطرت ان تجابه جيوشاً أوربية أخرى تدربت على النظام ، وان ما دعم هذه الجيوش ودفعها الى الأمام وجعلها تحرز النصر هي العزة قبل كل شيء وقوة العقيدة الباطنية التي جعلت كل جندي يعتبر نفسه متفوقاً على اولئك الذين يذهب لحاربتهم ، ومكلفاً أن يحمل الحقيقة والعقل والعدل الى قلوب جميع الشعوب مهما كثرت المصاعب . ولا ننسى الاخاء الشريف والثقة المتبادلة واتحاد الميول والأهداف المتوفرة في الجميع ، الجندي البسيط والرئيس والقائد والتي جعلتهم يشعرون انهم مكلفون بأداء نفس الرسالة ، فتقدم كل منهم متطوعاً ، فاهماً الحالة ، مقدراً الخطر والضرورات ، على استعداد أن يصلح الهفوات ، فلم يتألف من مجموعهم إلاّ إرادة واحدة ونفساً واحدة ، ففاقوا بالحمية الناشئة والوئام اللاإرادي الآلات المتقنة التي تضافرت على صنعها ، عبر الزمن ، التقاليد والعرض العسكري والنظام البروسي المتسلسل .

وتصدق هذه الأقوال على الفن والفرح ، كما أنها تصدق على المصالح والأشغال . فرجال الفكر لا يشحذ فكرهم إلاّ عندما يتم احتكاكهم ببعضهم ولكي نحصل على آثار فنية ينبغي أن تنجب الأمة فنانين وتنشىء أماكن يعملون فيها . فأماكن العمل كانت متوفرة ، وأنشأ الفنانون نقابات تؤلف منهم جماعات صغيرة في وسط المجتمع الكبير ، وتوثق بينهم

عرى الاتحاد . وقد عملت المؤالفة على تقريب القلوب والمنافسة على شحذ القرائح . ولم يكن مكان العمل قاعة منسقة للتباهي توحي التكلف ، بل كان دكاناً بسيطاً . وكان التلاميذ صناعاً يقاسمون أساتذتهم أمجادهم ويعايشونهم ، وليسوا غواة يشعرون بزوال الكابوس عنهم حالما يؤدون ما يترتب عليهم من المال . وكان الطفل يتعلم في المدرسة القراءة والكتابة وقليلاً من الاملاء . وفي السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة يختلف الى المصور أو الصائغ أو المهندس أو النحات وكثيراً ما كان الاستاذ يحذق جميع هذه الفنون ، فيدرس التلميذ الفن بكامله لا جزءاً من الفن . وكان يشاطره عمله ، فيصنع الاشيـاء السهلة وسفلة اللوحات والزخارف البسيطة والاشخاص اللاحقين ، ويساهم في الأثر الفني ويهتم به كما لو كان من صنع يديه . وكان يعتبر بمنزلة الولد ، ويقوم بمهمة الخـادم في البيت وينعت بخليفة المعلم ويؤاكله ، ويقضي حاجاته وينام فوقه على سقيفة ، ويتلقى سبابه ولـكزاته وصفعات زوجته . وبهـذا الصدد يروي « رافائلو دي مونتليبو » Rafaello di Montelupo الحادثة التالية :

« قضيت عند « ميشيل باندينلي » من الثانيـة عشرة حتى الرابعـة عشرة ، أعني سنتين ، وكان معظم وقتي ينقضي في تحريك المنفاخ كي يتمكن المعلم من إنجاز أعماله ، وأحياناً كنت أنصرف للرسم . وقد حدث في أحد الايام أن كلفني المعلم أن أحمي ثانية بعض القطع الذهبية التي كانت تصنع للدوق « لورنزو دمديتشي» . فكان يطرق القطع على السندان ، وعندما يكون منصرفاً لطرق إحداها ، أكون معنيـاً باحماء الأخرى . وقد توقف مرة عن العمل ، وبدأ يتحدث مع أحـد أصدقائه دون أن يلاحظ انني انتزعت البـاردة من أمامه ووضعت القطعة الحاميـة . ثم انصرف عن الكلام وتناول القطعة فأحسّ بلذع لفح أصبعيه اللتين تناولها بهما . عندئذٍ بدأ يصرخ ويقفز في الدكان ، وشاء أن يصفعني فأخذت أذائبه وعجز أخيراً أن يقبض عليّ . ولما حانت ساعة تناول الطعام ، مررت قريباً من كوة المحل الذي يوجد فيه ، فأمسكني بشعري وصفق وجهي عدة مرات » .

هذه عادات مألوفة بين العشراء ، سواءً كانوا قفالين أم بنائين ، وهي جافة وصريحة ومبهجة وودية . وكان التلاميذ يصحبون المعلم في أسفاره ، ويقاتلون الى جنبه باليد والسيف اذا ما اعترضه أحد في الطريق ويدافعون عنه ضد كل هجوم وفي المناسبات السيئة ، وقد رأينا كيف ان تلاميـذ « رفائيل » و « سليني » ينتضون الخنجر أو يستلون السيف حفاظاً لشرف البيت .

وكانت هـذه المؤالفة والصحبة الخالصة تسودان علاقات المعلمين ببعضهم . وأطلق على احدى جمعياتهم التي أنشئت في فلورنسا اسم جمعية المرجل ، ولم تكن تعمل سوى اثني عشر

عضواً . ويحق لكل واحد أن يأتي الى مكان الاجتماع بثلاثة أو أربعة أشخاص . فيجلب كل واحد منهم وعاء من صنعه ، وأيهم يشاهد برفقة غيره يكاف دفع الغرامة . ما أعظم الحيا والمادية في هذه الأذهان التي تنعش بعضها بعضاً ، ولنلاحظ كيف ان فنون الرسم كانت تجد مجالاً للظهور حتى في مناسبات الطعام . ففي مساء أحد الايام اختار أحدهم خابية عظيمة بدلاً من طاولة . وأدخل اليها المدعوين ، عندئذٍ برز من مركز الخابية شجرة ذات أغصان تحمل صحوناً وفق عددهم ، بينما كانت جوقة من المغنين ترسل أنغامها من تحت . ويتكوّن الطعام الذي قدم للضيوف من فطيرة عظيمة يظهر فيها « أوليس Ulysse يغلي أباه ليفتيه » والصورتان هما ديوك مسمنة مسلوقة نظمت تنظيماً خاصاً فأنتجت أشكالاً بشرية وزينت بأشياء كثيرة لذيذة المأكل . أما « اندريادل سارتو » فقد جاء بمعبد ذي ثماني واجهات ، مركز فوق أعمدة ، وأرضه مكونة من جفنة هلامية كبيرة مقسمة أقساماً كثيرة تشابه الفسيفساء ، أما الأعمدة التي تتراءى للناظر أنها صنعت من رخام سماقي فقد كوّنت من نقانق ضخمة ، وعملت القواعد ورؤوس العواميد من جبن معصفر يصنع في پالرمو ، والأطناف من معجنات محلاة ، والمنبر من فطيرة محشوّة لوزاً وسكراً . ويظهر في الوسط مقرأ كوّن من لحم بارد ، وعليه الكتاب الخاص بالقداس وقد صنع من الشعيرية ، أما الأحرف ورموز الموسيقى فقد تكوّنت من حبوب الفلفل ، وتحيط به دجاجات برية مفتوح منقارها ، ترمز الى جوقة المرتلين ، ووراء الدجاجات حمامتان كبيرتان وستة حساسين تمثل مرتلين تنوّعت أصواتهم . وقدّم آخر خنوصاً يمثل قروية تغزل وتحرس أنقافها ، وصنع غيره قفالاً من أرزة كبيرة . ولكم أن تتخيلوا القهقهة الصادرة من ينبوع الطبع المرح الغريب .

والى جانب هذه الجمعية نشأت جمعية « المسجة » ملعقة البناء — وكان من تقاليدها أن تتبع الأعشية بفصول تثير الضحك . فيخطر للندماء إن يمثلوا تارةً پروزرپين Pro erpine ملكة جهنم وكيف توصل « پلوتون » Pluton إلى اختطافها ، وطوراً حب الزهرة والمريخ ، وأحياناً فصولاً لما كيافيلي أو أريوست ... ولما كانت المسجة رمزاً للجمعية ، فقد أمر الرئيس يوماً سائر الأعضاء أن يحضروا وقد ارتدوا ثياب البنائين ويجيئوا بكل الأدوات التي يعوّل عليها البنّاء في عمله ، وطلب إليهم أن يبنوا بناء ، ليس من حجر وطين ، بل من لحم وخبز وأقراص وسكر . ان الخيال اذا ما خصب يفيض ويتجلى في هذه القصوف الفاتنة . ويظل الانسان طفلاً بخياله ما دامت روحه نقية ، ويحشر في كل مكان الأشكال الجسدية التي يؤثرها ، وينهض بدور الممثل والمقلد ، ولاينفك يلهو بغتةً ما دام متشبعاً منه .

وفيا عدا هذه الجمعيات التي تحددت أهدافها ، كانت توجد جمعيات كبيرة تضم جميع الفنانين قصد أن توحد جهودهم . وقد رأينا كيف أن أعشيتهم تتخللها البشاشة ، وإظهار السريرة ، والألفة ، والبساطة ، والطبع الحسن المضحك ، ويتبادر الى الذهن ان هذه الخصال من خصائص الطبقة العاملة ، ويتحلون بالنزعة الوطنية المدينية (نسبة الى المدينة) التي تؤثر في العالم . فيتحدثون بكبرياء عن « مدرستهم الشهيرة في فلورنسا » . ويظنون أن ما من مدرسة غيرها تجعل الطالب يتقن فن الرسم . يقول « فازاري » هناك يولد الناس مكتملين في كافة الفنون وخاصة التصوير . إذ أن المرء تستحثه ثلاثة عوامل في هذه المدينة: أما الأول فهو النقد الشديد المدار لأن جو البلاد أنشأ عقولاً تتميز بحريتها ولا تكتفي بالنتاج المتوسط ، ولا يأبهون إلا للحق والجمال دون أن يعيروا صاحب الأثر اهتماماً. والدافع الثاني هو الحاجة الماسة للعمل بغية « كسب القوة » وهذا يعني أن على الفنان أن يصنع دائماً أثراً عليه طابع الابتكار ، وأن يكون ذكياً ونشيطاً في أشغاله . وبالاختصار عليه أن يعرف جيداً كيف يكسب قوته لأن البلاد ليست غنية ولا خصبة كغيرها ، فلا تستطيع أن تكفي سكانها بمبالغ زهيدة . والعامل الثالث ، الذي لا يقل أهمية عن الاثنين السالفي الذكر ، هو شيء من التعطش للمجد والشرف ، ويبدو أن جو البلاد يولد هذا التعطش عظيماً فنجد له أثراً في قلب كل عامل ، ويجعلهم يتمردون على فكرة المساواة بأولئك الذين يعتبرونهم متفوقين وليسوا إلا أناساً مثلهم . ولو لم يكونوا صلحاء وحكماء من طبيعتهم ، لأدى هذا التنافس الحاد والطموح العظيم الى الاغتياب والجدب . ويتفقون على إتقان العمل عندما يعلمون أن ذلك يكسب مدينتهم شرفاً . وأن المنافسة التي تدفع كلاً منهم ليبز خصمه ، محمودة العاقبة . فلما جاء البابا لاون العاشر عام ١٥١٥ كي يزور مسقط رأسه فلورنسا دعت المدينة كل الفنانين كي يستقبلوه بأبهة فبنى في المدينة اثنا عشر قوساً من أقواس النصر إزدانت بالتماثيل والصور . وخلال الأقواس شيدت أبنية فخمة ونصبت مسلات وعواميد وصفت مجموعات فنية مماثلة لتلك التي توجد في روما . « وشاد » « انطونيوسان جالو » على أرض ساحة السيد معبداً ذا ثماني واجهات ، وصنع « باندينلي » عملاقاً ، وبين « باديا » وقصر قاضي القضاة أقيم قوس نصر ، وأقام « روسو » قوساً آخر زينه صور عديدة بارعة التنسيق . لكن الشيء الذي أحرز الاعجاب هو واجهة « سانتا ماريا » المصنوعة من الخشب ، وزينها « أندريا ولاسارتو » بالصور التاريخية الجميلة . وزخرف حواشيها المهندس « سانسو فينو » بحوادث تاريخية كثيرة حسب التصميم الذي وضعه « لوران دمديتشي » والد البابا . وصنع سانسو فينو نفسه حصاناً على غرار الحصان الموجود

في روما وأقامه في ساحة « سانتاماريا الجديدة » وقد بدا جميلاً للغاية . وزينت « البناية التي حل فيها البابا بزخارف لا يوصف تنوعها ، وقد ازدان ذلك الشارع بصور « تاريخية جميلة جداً اشترك فيها فنانون كثيرون ، لكن «با نديني » استقل برسم معظمها » .

نرى مما تقدم أن هذه المجموعة من القرائح قد تكاملت وبلغت مستوى رفيعاً بفضل المشاركة . فالمدينة تعمل لتتجمل . فتراها اليوم بكاملها منهمكة لكي تحتفل بالكارنافال أو لترحب بأمير ، وغداً ، وطيلة أيام السنة ، نرى الأحياء والنقابات والجمعيات والأديرة ، يحدوها الحماس «غنية بالقلب فقيرة بالمال » ، تبذل جهدها لتزخرف كنيستها وديرها ورواقها ومكان اجتماعها وثيابها وأعلامها وعرباتها . يستحيل أن يبلغ الحماس هذا المدى من القوة والشمول ، ويستحيل أن يوجد جو يصلح لنشوء فنون الرسم كهذا الجو ، ويستحيل أن يتوفر لها زمان ومكان كهذا الزمان والمكان ، إذ أن تضافر الظروف أمر فذ : ذلك لأن عرقاً ممهوراً بالخيال المنسق والمصور يبلغ الثقافة العصرية وهو لا يزال محافظاً على عادات عصر الاقطاع ، فيوفق بين الغرائز القوية والأفكار الدقيقة ، ويعبر عن أفكاره بأشكال حسية . ويثب وثباً غريزياً عاطفياً حتى يبلغ المدى الأخير من عبقريته . وهذا الانطلاق الناشيء عن احتكاك الفئات الصغيرة الحرة التي يتكون منها الشعب ، يبتكر النموذج الأسمى ، ولا يستطيع غير الكمال الجسماني أن يعبر عن الوثنية الرفيعة التي بعثت فترة من الزمن .

كل فن يمثل الجسم الانساني يخضع لهذه المجموعة من العوامل التي تعد الشرط الأساسي لنشوء أسمى آيات التصوير . فان انعدم وجود هذه العوامل أو فسدت ، انعدم التصوير أو فسد . ويستحيل الظهور على هذا الفن ما لم تتوفر له تلك الشروط . فقد هزل حالما بدأت تضعف وتهجر . فالتصوير ساير هذه العوامل منذ نشأتها وفي ابان نمائها وانحلالها وتلاشيها وظل رمزياً وصوفياً حتى خاتمة القرن الرابع عشر ، ما دام خاضعاً لسيطرة الأفكار اللاهوتية والمسيحية . ومد عمر المدرسة الرمزية والصوفية حتى أواسط القرن الخامس عشر خلال الفترة التي نشب فيها الصراع بين الذهن المسيحي والذهن الوثني . لكنه عثر في أواسط القرن الخامس عشر على ترجمانه السامي في نفس نقية حالت عزلة الدير بينها وبين أدران الوثنية الجديدة : ووجه التصوير اهتمامه الى الجسم الحقيقي القوي منذ السنوات الأولى في القرن الخامس عشر حاذياً في ذلك حذو النحت ، مستفيداً من دراسة التشريح ، واستكمال المثال مطابقة الشبه واستعمال الزيت ، أضف الى ذلك انقطاع الحروب في تلك الفترة من الزمن ، والسلام الخيم على المدن ، ونشوء الصناعات ونمو الثروة ، وازدياد الرفاهية

وبعث الآداب والأفكار القديمة ، ألوت بالأنظار المتجهة صوب المستقبل الى الحياة الراهنة اواقتلعت جذور الايمان بالنعيم السماوي وطفق الانسان يبحث عن السعادة الأرضية . ثم ما لبث الفن أن اجتاز مرحلة التقليد الصحيح وبلغ الابتكار الجميل على عهد « ليو ناردڤنشي » و « مكيلانجو » و « لوران دمديتشي » لما استكملت الثقافة وأخذت توسع أفق الذهن وتنضج الأفكار ، فأنتجت الأدب القومي الى جانب البعث التقليدي وخلفت الوثنية المكتملة الهلينية التي لم يعرف منها إلاّ النذر اليسير . وقد استمر في البندقية مدة نصف قرن بعد أن خبا ضياؤه في غيرها ، فكأنه في واحة تقيها شر البرابرة ، وفي مدينة مستقلة احتفظت بالتسمح على مرأى من البابا ، واتصفت بالوطنية في وجه اسبانيا ، وتمسكت بالعادات العسكرية تجاه الترك . ثم ما لبث أن تراخى في عهد « كوريج » Corrège ، ومني بالبرودة على يد خلفاء ميكلانجو ، وذلك بسبب الغارات والمجاعات المتراكمة التي خضدت شوكة الارادة الشخصية . ولما طفقت السلطة العلمانية ومجالس التفتيش الديني ، وغرور رجال المجامع العلمية تعمل على ضبط وإضعاف مادية الابتكار الطبيعي ، ولما أخذت العادات تبحث عن مظاهر الحشمة ، والأذهان اتجهت صوب النزعة العاطفية ، ولما أصبح المصور فارساً مهذباً بعد أن كان صانعاً ساذجاً ، ولما حلت الأكاديمية محل الدكان والصناع ، ولما أصبح الفنان سياسياً داهية ، نخوراً بمركزه ، متقيداً بالعرف ، مدافعاً عن التقاليد ، يكيل المديح للأحبار والعظام بعد أن كان حراً جريئاً ، يلهو وينحت مزحاته في أعقبية « المسحة » .

من هذه المطابقة الصادقة والمستمرة يلاحظ أن الفن العظيم والبيئة صنوان ، ولا يظن أنهما اجتمعا عرضاً بل أن البيئة هي التي توجد وتنمي وتنضج وتفسد وتلاشي معها الفن خلال الحوادث التي تنتج عن رجات اجتماعية قوية وعن خوارق شخصية لم تكن في الحسبان أن البيئة تأتي بالفن أو تذهب به ، فهي كالبرودة التي تأتي بالندى أو تمنع سقوطه حسب شدتها أو اعتدالها، وكالنور الذي يغذي أو يهزل أجزاء النبات الخضر تبعاً لسطوعه أو خبوه .

نختتم هذا المبحث ويقيننا أننا اذا شئنا أن نعيد من جديد على مسرح الوجود فناً مماثلاً ، ينبغي أن يعمل تيار القرون على خلق بيئة مماثلة لتلك .

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف شارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات

وفي فلسطين } القدس الشريف باب الساهرة

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

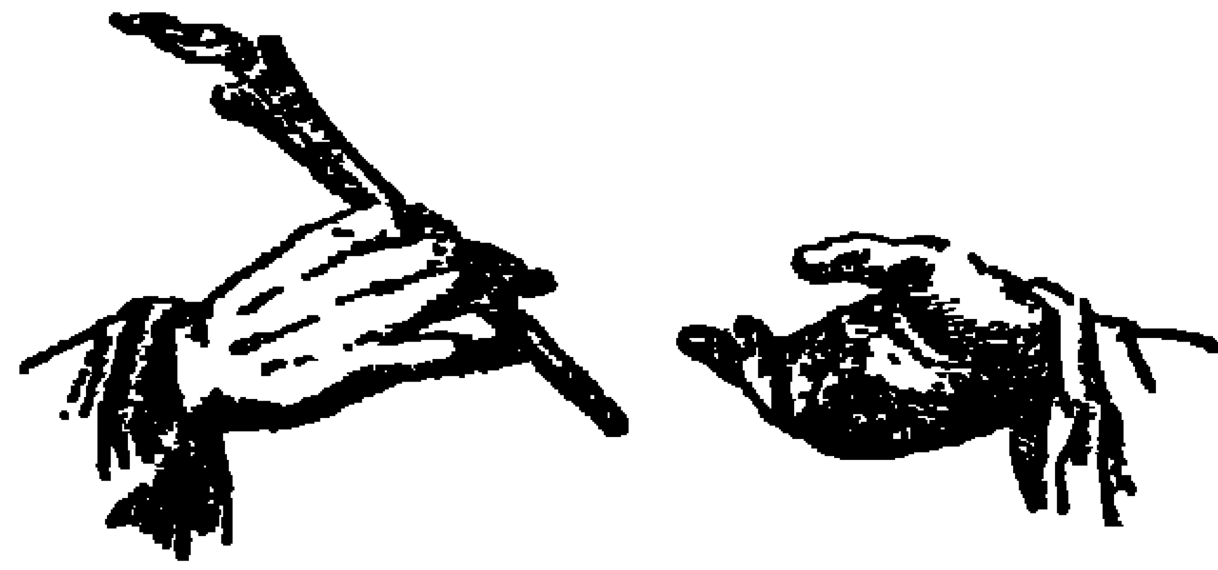
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠ ٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ أغسطس ١٩٤٧ ٢٨ رمضان ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميريكية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ ٢٨ رمضان سنة ١٣٦٦

بين التصحيح والتوضيح

حول نقد كتاب « الله »

نظر الأستاذ عباس محمود العقاد في النقد الذي تناولنا فيه كتابه « الله » في العدد الماضي من المقتطف ،(١) ومضى يناقش فيه مناقشة العالم الذي يحاول ، كما ينبغي أن يحاول العلماء الوصول الى الحق من طريق التساجل المنطقي الصِّرف ، فسلّم معنا بكثير مما خالفناه فيه ، وخالفنا في أشياء مضى يعرضها ويوضحها بما عهدناه فيه دائماً من بيان العبارة وجلاء الفكرة. ونحن إذ نحمد للأستاذ هذا النهج ، نجدنا أكثر حمداً إذ ينتحي أديب مفكر مثله هذا المنحى وينزع هذه النزعة ، كما نود أن يصبح ضمير الناس أكثر يقظة ، فيرى نابهون منهم أن في مجال التأمل الفلسفي شيئاً أو أشياء جديرة بأن تكون موضعاً للاستغراق في الفكر أو الموازنات المنطقية .

والحق أنني أخالف الأستاذ العقاد في كثير مما ذهب اليه في ملاحظاته ورُدُوده ، بل أعتقد أنه قد جانب الصواب في كثير منها ، فلنأخذ من ثمت في النظر في كلٍّ مما عرض له الأستاذ في مقاله (٢) .

١ — الاستحياء

صرف الأستاذ هذا اللفظ ليقابل مصطلح animism في اللغات الأعجمية ، وذهبت الى أن حقيقتها الفكرة الروحانية ولا أزال عند رأيي ، كما استشهدت على ذلك بتعريف معجمي ثبت .

---

(١) عدد يوليه سنة ١٩٤٧ (٢) الرسالة العدد ٧٣٥ الصادر في ٤ من أغسطس سنة ١٩٤٧

يقول : الأستاذ « إن كلمة « أنيميزم » لها معانٍ كثيرة تختلف باختلاف العلوم التي تدخل فيها ، وهي في علم وظائف الأعضاء غيرها فيما وراء الطبيعة وغيرها في علم أصول الانسان » اه .

ولست أعرف حتى الآن ان هذا المصطلح قد جرى بأي معنى في علم الوظائف أو علم وظائف الأعضاء كما يقولون ، ولو ان الأستاذ يدلنا على شاهد واحد يؤيد ما ذهب اليه ، حمدنا له ذلك حمداً كثيراً .

والحق أن هذا اللفظ لا يدخل في استعمال شيء من العلوم البحتة ، وإنما هو كثير الدوران في علوم نظرية أو علوم عملية،وهو فيها جميعاً يدل على الروحانية أو القول بالروح . جاء في المعجم الفلسفي الذي طبع باشراف « داجوبرت رونز » Dagobert D. Runes وهو من أحدث المعاجم ما يلي :

Animism : (Lat. anima=soul) . The doctrine of the reality of souls.

(1) Anthropology (a) the view that souls are attached to all things either as their inner principle of spontaneity or activity, or as their dwellers. (b) The doctrine that Nature is inhabited by various grades of spirits (spiritism).

(2) Biology, Psychology : the view that the ground of life is immaterial soul rather than the material body.

(3) Metaphysics : the theory that Benig is animate, living, ensouled.

(4) Cosmology : the view that the world and the astronomical bodies possess souls. See pp. 12-13.

ومن هذا نرى أنّ المصطلح في علم الإنسان إمّا أن يدل على اعتقاد في أن الأرواح لها علاقة بالأشياء ، وإمّا على أن الطبيعة مأهولة بطبقات متفرقة من الأرواح (وهذا ما بحث فيه تايلور) . وهو في علم الأحياء وعلم النفس يدل على القول بأن أساس الحياة روح غير مادّي فضلاً عن الجسم المادّي . وفي فلسفة الكون يدل على أن العالم والأجرام السماوية لها أرواح . فهو في جميع مدارجه يدل على الرّوحانية ، وفي جميع استعمالاته يدل على الروح أو الفكرة فيها مطبقة على مختلف هذه العلوم .

وكذلك نرى المعنى في معجم بولدوين الفلسفي وفي المعجم الانسيكلوبيدى وفي معجم ستنفوري وهي من أمهات المظانّ العلمية والأدبية ، فاذا لم نأخذ عنها فمن أي شيء نأخذ؟ أما القول بأن مثل هذا المصطلح لا يرجع فيه الى المعجمات ، وإنما يرجع فيها الى معنى المذهب الذي تدل عليه كما يقول الأستاذ العقاد ، فقول لاحقيقة له من جهات عديدة . منها أنه ليس هناك شيء يقال له « معنى المذهب » فالمذاهب لا تقوم على معانٍ وإنما تقوم على نظريات أو فكرات ، والطريق السليم الى تبيانها هي المصطلحات المحصورة المعنى المحدودة

الدلالة . ومنها أن المصطلحات اذا رجع في فهمها إلى ما ينقل مذهب من المذاهب الى فكر كل قارىء أو باحث من غير تقيد بالمعنى المحدود للمصطلحات ، أصبح الأمر فوضى ، بل أصبح عماء ، بل تعذر أن يقوم مذهب عقلي على اساس ثابت . ذلك بأنّ المصطلح المحدود الدلالة هو الأداة الثابتة في تكييف المذاهب ، ولم يخرج عن ذلك مذهب واحد من المذاهب على مدار العصور .

من هنا يقول الأستاذ العقاد — « إن المعنى المقصود في مذهب تيلور أن الهمجيّ كان يؤلّـه الأشياء والظواهر الطبيعية (يقصد الظاهرات الطبيعية) لأنه كان كالطفل الذي يضرب الباب اذا اصطدم به لأنه يحسبه في حكم الاحياء (يقصد أنه من ذوات الأرواح التي تبعث الحياة) . ونحن لا نقول (الأستاذ العقاد) إنّ الطفل يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحية وإنما نقول إنه يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء ، أو لأنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة » . اه

وفي هذه العبارة ناحيتان : الأولى رأي الأستاذ « تيلور » ، والثانية وجهة نظر الأستاذ العقاد . فرأي تيلور على أن الهمجي يضرب الباب لأنه يحسبه حيًّا أي أنّ فيه روحاً : وتلك هي الروحانية بعينها . أمّا رأي الأستاذ العقاد فلا يقول بأن الطفل (ويقصد الهمجي الذي هو كالطفل بحسب منطوق العبارة الأولى) يضرب الباب لأنه يؤمن بالفكرة الروحانية ، بل يضربه لأنه يؤمن بالاستحياء أي أنه يستحيي الأشياء التي ليست لها حياة . وإذن يكون رأي تيلور هو في نطاق «الانيميزم» حقًّا ، أي في نطاق الفكرة الروحانية . أما رأي الأستاذ العقاد فخارج عن ذلك النطاق ولا يدخل في باب الانيميزم ، وبذلك يصبح اطلاق معنى الانيميزم عليه خرق لنطاق المعنى المحدد لهذا المصطلح في العلوم النظرية . وللأستاذ العقاد رأيه ، ولكنه ليس حرًّا في أن يقول إن الانيميزم دالٌّ عليه . واذن فليبحث له عن مصطلح جديد يضعه له ، وقد تكون أقرب كلمة للتعبير عنه في الانجليزية هي : Ensouling

ولا خفاء أن مذهب تيلور وهو مذهب معروف منذ زمان طويل ، يختلف عن المعنى الذي أراده الأستاذ العقاد اختلافاً مبيناً . فالهمجي على مذهب تيلور يعتقد بأن للاشياء أرواحاً تسخرها ، لا انه يستحييها كما يريد الأستاذ العقاد أن يقول . ومن ناحية اللغة نعرف ان الألف والسين والتاء تفيد إضافتها إمّا الطلب وإما الصيرورة . وكل من المعنيين بعيد عما يعني بالروحانية : Animism ، فان الهمجي وفقاً لهذا المذهب لا يطلب من الأشياء أن تصبح حية ، ولا هو ينتظر أن تصير حية . وإنما هو يعتقد أن أرواحاً تلابسها فتسخرها لمشيئتها .

فاذا انتقم منها أو صبَّ عليها غضبه ، فانما يفعل ذلك وهذا المعنى قائم في مخيلته . ولكنه لا يستحييها : أي انه لا يطلب منها أن تحيا ولا ينتظر أن تصير حية .

٢ — تعديد الآلهة

سلّم الأستاذ العقاد معنا بأن لفظة Polytheism ترجمتها الشرك ، ثم عقب على ذلك بقوله : —

« ولكنك لا تقول إن القبائل الهمجية كانت تؤمن بالشرك لأن الايمان بالشرك يقتضي الايمان قبل ذلك بوحدانية الله . ولا معنى لأن تصف انساناً بأنه مشرك ، قبل أن يظهر على الكرة الأرضية دين يدعو الى التوحيد ، أو يدعو الى الاله الواحد الذي يدعو الى غيره أولئك المشركون » . اه .

وفي هذه العبارة جهات من النقد .

أولاً — إن القول بأن الشرك حالة لا توصف بأنها كذلك قبل ظهور دين يقول بالتوحيد ، أمرٌ ينطوي على مغالطة صريحة . فاذا فرضنا أن دين التوحيد لم يظهر في هذا الوجود ولا عرف الناس في هذه الكرة شيئاً يقال له « وحدانية الله » ، أيمنع ذلك لغة أن نسمي الحالة الأولى حالة شرك أو اشراك ؟ وهل نحتاج الى تحديد معنى « التوحيد » و « الوحدانية » ليكون صرفنا كلمة شرك على حالة تكثير الآلهة أمراً مستقيماً مع منطق اللغة ؟

ثانياً — لم يكن هناك دين يقال له الشرك أو الاشراك ، وانما كانت هناك أديان كثيرة لكل دين منها آلهته وطقوسه وعباداته ومقدساته ومحرماته (أي طواطمه وطاباته) ، وانما يجمع هذه الأديان جميعاً حالة واحدة تشملها، هي حالة الشرك أو الاشراك . وعلى هذا ينتفي أيضاً القول بأن هناك إيماناً يقال له « إيمان الشرك » . وإنما الايمان يكون بدين ، حالته المكيفة له هي الشرك . كما نقول ان الاسلام دين حالته المكيفة له هي التوحيد .

ثالثاً — ان ظهور أديان تقول بالتوحيد أمرٌ لم ينقص من حالة الشرك ولم يزد إليها شيئاً . وكل ما في الأمر أنّ « التوحيد » جعل معنى « الشرك » أكثر تحديداً لا غير .

رابعاً — يقول الأستاذ العقاد :

« فلو قال لنا مؤرخ إن الهمج اشركوا قبل أن يؤرخ لنا ديانات التوحيد لكان كلامه هذا خطأً في التاريخ وخطأً في التعبير » اه .

ولست أرى في القول بأنّ الهمج أشركوا بمعنى انهم نشئوا ومضوا مشركين أي خطأ لا في التاريخ ولا في التعبير . ذلك بأنهم أشركوا بالفعل ، بمعنى أنهم أشركوا مع إله كبير

آلهة صغيرة ، أو انهم جعلوا لكل ظاهرة أو حالة إلاهاً . أو بمعنى أنهم أشركوا آلهة كثيرة في تدبير الطبيعة والحياة . أمّا القول بأن إنساناً كان موحداً ثم أشرك ، أو جماعة كانت موحدة ثم أشركت ، فذلك معنى آخر بالمرة ، بعيد عن المعنى الأول بُعد الأرض عن السماء .

وقوله تعالى : « ولأمةٌ مؤمنة خيرٌ من مشركةٍ ولو أعجبتكم » : يقتضي وجهين : الأول أن تكون موحدة ثم أشركت ، والثاني ان تكون مشركة لم تعرف التوحيد . « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

٣ — أسماء وحروف يونانية ولاطينية

يحتاج الكلام في هذه المسألة الرجوع بعض الشيء الى مسألة تاريخية .

ففي دور الانعقاد الرابع ألّف مجمع فؤاد الأول للغة العربية لجنة من بعض حضرات أعضائه لتنظر في شأن كتابة الأعلام اليونانية واللاّطينية بحروف عربية . وقد اشتركت في هذه اللجنة موظفاً ، فأعددت لها البحوث واتخذت على ضوئها القرارات ، بعد ان بحثت اللجنة ذلك الأمر بحثاً دقيقاً مستفيضاً ، وانتهت عند قرارات تسهل على المعرّبين تعريب تلك الأعلام بما يقرب جرسها في اللغة العربية ، من نطقها في تينكما اللغتين .

أما الذي حفز المجمع على أن يفكّر في ذلك ان كل مترجم من اللغات الاوروبية يرسم الأعلام في العربية منطوقة بحسب اللغة التي يترجم منها . فالمترجم من الانجليزية ينقل الأعلام كما ينطق بها الانجليز ، والمترجم من الفرنسية ينقلها كما ينطق بها الفرنسيون وهكذا في حين أن الواجب ان يوحد النطق بهذه الأعلام فترسم في العربية رسماً يقرّب جرسها من النطق بها في لغتها الأصلية .

ولقد قرأت في كتاب مطالعة للمدارس الثانوية أقرته وزارة معارفنا الموقرة ، ويحمل غلافه أسماء خمسة من أعلام أدبائنا ، مقالاً رسم فيه اسم قائد يوناني بأربعة رسوم مختلفة . وكفى بذلك بلبلة لطالب ثانوي لم يشب بعد عن الطوق . لهذا شرعت في وضع معجم في الأعلام القديمة استهديت في وضعه بالقواعد التي أقرّها المجمع وزدت اليها قواعد أخرى ، وربما شرعت في طبعه قريباً . فان العربية في حاجة قصوى إليه .

فاذا كنت قد نبهت الى هنات درج عليها صديقي الأستاذ العقاد ، فذلك سببها ، وهذا منشؤها .

ولقد نسي الأستاذ انه استعمل في كتابه لفظين يرسم أحدهما في الأعجمية الحديثة

Kronos والثاني : Chronos قال في ملاحظاته : «أو كقولنا كرونوس بدلاً من إخرونوس» اهـ.
واذا رجعت الى صلب كتابه رأيت الأمر على عكس ذلك. جاء في ص ١٣١ من الكتاب :

« فلما قال الأقدمون إن أورانوس إلـه السماء خصاه ابنه كرونوس إلـه زحل — كانوا يفهمون من ذلك ان كوكب زحل هو مناط النظام في السيارات ، وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين . ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إلـه زحل وكلمة كرونوس : Chrono أي إلـه الزمان ، كأنهم يقولون إن الزمن قد حدّ من حركات الأفلاك والسيارات » اهـ .

والحقيقة أن اللفظ الأول يجب ان يعرّب « إقرونوس » ، والثاني « إخرونوس » . فذلك يبدأ في اليونانية بحرف « كپّا » ، وهذا يبدأ بحرف « خي ».

واذا رجعت الى معجم لاطيني في الاعلام القديمة لما عثرت فيه على أسماء تبدأ بحرف « K » الحديث لأنه لم يعرف في تلك اللغة ، وانما عرف حرف « C » وكان ينطق « كافاً » فرسم « كرونوس » عند المتثبتين هو Cronos في اللاطينية (Kronos في اليونانية) . كذلك لم أقف فيما بين يديّ من المراجع على إلـه اسمه « إخرونوس » هو إلاه الزمان ، وإنما في اللغة اليونانية أصل هو : chronos ومعناه « زمن » ، دخل في تركيب كثير من الألفاظ المستحدثة مثل chronometer و chronology وغير ذلك . فلو هدانا الأستاذ الى الأصل الذي أخذ منه هذا القول ، شكرنا له ذلك كل الشكر .

أمّا أن يأخذ عليّ الأستاذ اني رسمت اسم « أوغست كونت » بالغين لا بالجيم ، فغالب ظني أنّ رسمي هو الصحيح وان لم يكن في الفرنسية حرف « الغين » . فمن قبل قال جميع الكتاب أوغسطوس قيصر وشهر اوغسطس والقديس أوغسطين ، ولا أتذكر أني رأيت كاتب عربيّا رسمه أوجسطين إلاّ لماماً وعلى خطأ

٤ — الثنائية والجدلية

يقول الأستاذ العقاد :

« ويعيب الأستاذ مظهر ترجمة الديالكتيك Dialectic بالثنائية ، ويفضل ترجمتها بالجدلية . وهو في ذلك على خطأ عظيم من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، لأننا رددنا « ديا : Dia » الى معناها الأصيل وهو التثنية ، ومنها الآن كلمة Deux بالفرنسية Two بالانجليزية » اهـ .

أقول : ولست مخطئاً لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى ، وإن الخطأ كل الخطأ هو في ما يقول به الاستاذ العقاد . فان في اليونانية أصلين : أحدهما dia والآخر duo والأصل الثاني هو الذي أخذ منه deux الفرنسية و Two الانجليزية ، وليس لهذين اللفظين أية علاقة بالأصل الأول dia الذي دخل في تركيب : dialect ; إن لفظ dia معناه في العربية « بين » أمّا لفظ duo فمعناه « اثنان » ، وهذا لم يدخل في تركيب : dialect ، بل ولا تمت إليه بأية صلة . وإليك الشواهد القاطعة .

(1) Two : Century Dictionary p. 6558-Vol. VI.

Lat : duo : old French : doui, dus, deus, deux; new French : deux. Greek : duo.

ومن هذا الأصل duo أخذ لفظ dual أي ثنوي أو ثنائي : وإليك الشاهد :

(2) Dual : Century Dictionary, p. 1780, Vol. II

L. dualis; Greek : duikos : dùo = two

أما لفظ ديالكت dialect فيدخله الأصل dia ومعناه « بين » وهو الذي يخيّل للاستاذ العقاد إن معناه « اثنان » حيث تشابه عليه الاصلان dia و duo : وإليك الشاهد :

(3) Dialect : Century Dictionary, p. 1590, Vol. II

L. dialeetos, dialectus : Greek : dialegein = distinguish, choose between : from Greek : dia = between + legein = choose, speak

Greek : dialectos = discourse, discuss, argue, use a dialect or language.

إذن فلفظ « ديالكت » — dialect لا يدخله أصل يوناني أو لاطيني فيه معنى « الاثنين » ولا « التنوية » ولا « الثنائية » ، بل يدخله أصل فيه معنى « البَينيّة » . فلفظ « ديالكت » مركب من الهجاء ديا « dia » : ومعناه « بين » ، والحرف ليجين legein ومعناه يختار أو يتحدث ، وتخريجه « التّخيّر أو التحادث » فأين معنى الثنائية في ذلك ؟ وإذن يكون تعليل الأستاذ العقاد من الجهة اللغوية لا أصل له ولا يستند إلى أي أصل أعجمي على إطلاق القول ، ولم يبق إلاّ التخريج الفلسفي الذي يقول فيه الأستاذ العقاد ما يلي :

« ولأن مذهب كارل ماركس وهو « الديالكتك » يقوم على ان المادة ثنائية الخصائص تشتمل على الخاصة ونقيضها ، ولا يقوم على أن المادة جدلية أو يجادل بعضها بعضاً في أطوارها المتتابعة » . اهـ .

ونقول بأن الذهاب إلى أنّ مذهب كارل ماركس هو « الديالكتك » أمرٌ لم يقل به

غير الأستاذ العقاد على ما أذكر وبقدر ما يتسع له علمي . على اني أكاد أجزم به . ذلك بأن مذهب ماركس هو « المادية الجدلية » — « ديالكتيك متيريالزم » ، وشتان ما بين المذهبين .

بدأ مذهب الجدل أو المذهب الجدلي بأرسطوطاليس ، وقد فرّق بين التعقل الجدلي Dialectical Reasoning الذي ينشأ بالقياس المنطقي من آراء مسلّم بها عموماً ، والتعقل الاثباتي Demonstrative Reasoring الذي يبدأ بمقدمات أولية صحيحة . ولم يدّع ارسطوطاليس انه أول قائل بالمذهب ، بل ردّه الى زينون الإيلياويّ . وان كان الواقع ان مذهب الجدل بطريق المحاورة قد نشأ مع سقراط وتلميذه أفلاطون . ثم تحيز في فلسفة « كانت » ومن بعد « كانت » في فلسفة « هيجل » ، ومن « هيجل » أخذ ماركس وانجلز ، ومعنى أخذا انهما استندا الى جدليات « هيجل » في وضع مذهب ماديّ ، طبقاه على التاريخ باعتباره من خلق العوامل الاقتصادية . ويطول بنا البحث اذا نحن أردنا أن نبيّن وجه العلاقة بين هيجل وماركس ، فنكتفي بأن نبين المعنى الحقيقي الذي تنطوي عليه « المادية الجدلية » وهي مذهب ماركس . ذلك بأنك اذا قلت الجدلية وحسب ، أخرجت من ذلك المجال ماركس ومذهبه .

يتألف مذهب ماركس من شقين : الأول « الماديّة » والثاني « الجدلية » ، ومن تضايفهما نخرج باسم المذهب كاملاً . فما المقصود بالمعنى من الشقّين ؟

يقصد ماركس « بالمادية » من ناحية وجوديّة صرفة ان المادّة والطبيعة والدنيا المنظورة هي في مجموعها حقيقة واقعة قائمة بذاتها ، ولا تستمد حقيقتها من أية قوة كانت سواء أكانت هذه القوة فوقطبيعيّة أم استشرافية ، كما لا يتوقف وجودها على عقل الانسان ، وانه من المسلم علميًّا أن المادة وجدت قبل نشوء العقل البشري ، سواء أمن ناحية الزمان أم من ناحية المنطق ، بمعنى أن العقل لم يظهر إلاّ بحكم تطوّر مادي ، وإن المادّة ينبغي أن تفسر بمقتضى ذلك . وان المكان والزمان يجب أن ينظر فيهما باعتبارها صورتين تتوقفان على وجود المادّة (١) .

(البقية في باب الاخبار العلمية ص ٢١٥)

---

(1) The Dictionary of Philosophy : Dagobert D. Runes, 1945, p. 79.

ابن جنّي

ابو الفتح عثمان

كان أبوه جنّي روميًّا ويقول بعض العلماء إنّ جني معرب من أحد لفظين روميين فإن كان بكسر النون وبدون تشديد فهو معرب لفظ كِنِي وإن كان بكسرها وتشديدها فهو معرب لفظ جنايس . وكان جني مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي . وإلى هذا أشار أبو الفتح عثمان بقوله :

فإن أُصبِحْ بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أنّي أؤول الى قُروم سادة نُجب
قياصرة اذا نطقوا أرَمَّ الدهرُ ذو الخُطَب
أولاك دعا النبي لهم كفى شرفاً دعاء نبي

وولد أبو الفتح عثمان بن جني في الموصل موطن والده ومولاه سليمان قبل سنة ٣٣٠ ﻫ ومات في بغداد ليلة السبت لليلتين بقيتا من صفر سنة ٣٩٢ ﻫ عن أكثر من اثنتين وستين سنة . وبغداد هو البلد الذي ألقى فيه كشيحه عصا التسيار واختاره مستقرًّا له .

وكان مولده إبّانَ انحلال الدولة العباسية في أواخر العصر العباسيّ الأوّل الذي انتهى بأن استولى بنو بويه سنة ٣٣٤ ﻫ على بغداد وأزالوا سلطان الخلفاء العباسيين المدني إزالة تامّة وصيّروا الخليفة العباسي رئيساً دينيًّا لا أمر له ولا نهي ولم يتركوا له من الأعوان إلاّ كاتباً واحداً يدبر أملاكه ويضبط دخله وخرجه وصارت الوزارة لملوك الدولة البويهية يستوزرون من يشاءون ، وتمّ بذلك انفصال بقية الأقطار الإسلامية من الدولة العباسية وصيرورتها دولاً مستقلة استقلالاً تامًّا لايشوبه اعترافها بسلطان الخلفاء العباسيين الدينيّ أقل شائبة .

وهذه الدول المستقلة من قبل ومن بعد هي الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ — ٤٢٢) والدولة السامانية فيما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩) والدولة الزيارية في جرجان (٣١٦ — ٤٣٤) والدولة الحمدانية بين النهرين وحلب (٣١٧ — ٣٩٤) والدولة البويهيّة في العراق

(١) أرم : سكت

وفارس وغيرها (٣٢٠ — ٤٤٧) والدولة الغزنوية في أفغانستان والهند (٣٥١ — ٥٨٢) والدولة الفاطميّـة في شماليّ إفريقية ومصر (٣٥٧ — ٥٦٧) .

وكان لهذه الدول بعد زوال سلطان الخلفاء العباسيين المدني عنها أعظم شأن في تقدّم العلوم والآداب والفنون بمن نبغ من ملوكها وأمرائها ووزرائها فيها وبما كان من حبهم تقريب العلماء والأدباء ورجال الفنّ وتنافسهم في ذلك ، وبما كان من اقبـال الناس على الدرس والبحث والتدريس وتنافسهم هم كذلك في ذلك ، فاجتمع بهذا وذاك للنهضة العقلية أعظم أركانها وهي تضافر الرعاة والرعية وتعاونهم تعاوناً صادقاً .

فـكأن الفتن والثورات الدينية والسياسية والحربية التي حملت جراثيمها الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى وما زالت تتناسل وتتكاثر وتنمى وتقوى وتفتّ في عضد الدولة حتى زعزعت أركانها وقوّضت بنيانها كانت على شدّة خسارتها وفداحة ويلاتها وسوء مظاهرها عاملاً قويـاً من عوامل النشوء والارتقاء لهؤلاء الدول المستقلة إذ أصبحت كل دولة منها كالدولة العباسـية حضارة وعلماً وصبغةً عربية إسلامية . فلم يكن تجزّؤ الدولة العباسية الى هذه الدول قاضياً على خصائصها ومميزاتها العامة وهي الحضارة العربيـة الاسلامية ولغتها وعلومها وآدابها وفنونها ومظاهر حياتها كما كان تجزؤ الدولة العثمانيـة أخيراً مثلاً الى دول لا تمت إليها بصلة قاضياً على خصائصها ومميزاتها العامة ووحدتها .

وقد نبغ في هؤلاء الدول أعلام في العلم والأدب والفن عاصروا ابن جني منهم أبو بكر الخوارزمي (المتوفي سـنة ٣٨٣ هـ) وأبو اسحاق الصابي (٣٨٤) والصاحب بن عباد (٣٨٥) وبديع الزمان الهمذاني (٣٩٨) وأبو الفضـل بن العميد (٣٦٠) وأبو هلال العسكري (٣٩٥) والأزهري صاحب التهذيب (٣٧٠) وابن فارس صاحب المجمل (٣٩٠) وأبو علي القالي صاحب الأمالي (٣٥٦) والجوهري صاحب الصحاح (٣٩٨) وابن النديم صاحب الفهرست (٣٨٥) وابن خالويه (٣٧٠) والأصبهاني صاحب الأغاني (٣٥٦) والسـيرافي (٣٦٨) والمتنبي (٣٥٤) وأبو فراس الحمداني (٣٥٧) وكشاجم (٣٦٠) والسري الرفّـاء (٣٦٢) والشريف الرضي (٤٠٦) والسلامي (٣٩٣) والوأواء الدمشقي (٣٩٠) وغيرهم .

نشأ أبو الفتح عثمان بن جني في هذا الانقلاب السياسيّ الخطير وفي إبان هـذه النهضة العقليـة العظمى وبين هؤلاء الأفذاذ المبرزين في العـلوم والآداب والفنون وقد رُزق حظـاً عظيماً جدّاً من الذكاء والحذق والبراعة والجدّ في التحصيل والصبر عليـه والدقّـة في البحث والاستقصاء والرغبـة الجامحة فكان لذلك كله أعظم تأثير في تكوينه حتى أصبح

إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف والرئيس الذي انتهت اليه الرياسة فيها .

وكان أكبر العوامل في تكوينه تأثيراً معرفته شيخه أبا عليّ الحسن ابن احمد الفارسيّ امام الأئمة في علم العربية في عصره الذي لم يكن أحدٌ أعلم بالنحو بعد سيبويه منه . وذلك أن الامام أبا علي الفارسيّ سافر الى الموصل بلد ابن جني ودخل مسجده فوجد ابن جني يقرأ النحو وهو شاب وكان يتكلم في مسألة صرفية وهي قلب الواو ألفا في نحو قام وقال فاعترض عليه أبو علي ووجده مقصّراً فقال له تزببت وأنت حصرم : وانصرف ولم يكن ابن جني يعرفه فسأل عنه فقيل له : إنه أبو علي الفارسيّ النحويّ : فطوى كتبه وأوراقه وشمّر عن ساقيه وجدّ في طلبه حتى أدركه ولازمه ملازمة ظله له وتنقّل معه في أسفاره وانفرد به وأخذ عنه العلم واستملاه إيّاه وصنف في زمانه ووقف أبو علي على تصانيفه واستجادها وأقام معه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حيناً وفي بلاط عضد الدولة في فارس حيناً آخر حتى مات أبو علي الفارسي في بغداد سنة ٣٧٧هـ فخلفه أبو الفتح عثمان بن جني فيها وحل محله في التدريس وقد وعى كل علمه وزاده .

ويقول القفطي المصري المتوفي سنة ٦٤٦ هـ في كتابه أنباء الرواة في طبقات اللغويين والنحاة في ترجمة ابن جني : وخدم أبو الفتح عثمان بن جني بيت آل بويه في عهد عضد الدولة وولده صمصام الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة الذي مات في عهده وكان ملازمهم في دورهم .

ولا شك أن بلاط هؤلاء الأمراء ودورهم منتديات يؤمّها أفذاذ العلماء والادباء ورجال الفن والحرب والسياسة من جميع الممالك والأقطار وتتلاقى فيه أفكارهم ومعارفهم وأن لذلك أكبر الأثر في نضج أبي الفتح وتبريزه .

من ذلك أنه كان يلتقي بأبي الطيب المتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وفي بلاط عضد الدولة وولده صمصام الدولة في فارس فتآلفا وتحابا وكانا يتناظران في النحو كثيراً واختلف الرواة فمنهم من يقول انه قرأ ديوانه عليه ومنهم من يقول انه لم يقرأه عليه أنفةً منه واكباراً لنفسه. والصواب أنه قرأه عليه كما يقول ابن خلكان وكما قال هو نفسه في شرحه ديوان المتنبي وإن ابن جني في علمه وحرصه لا يفوته مثل ذلك ولا تأخذه العزة فيقع في مثل هذا التقصير .

قال أبو الفتح كنت قرأت ديوان أبي الطيب عليه فقرأت عليه قوله في كافور القصيدة التي أولها :

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعْجَب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت الى قوله :

ألاَ ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتَّبُ

وبي ما يذودُ الشعر عنّي أقلّه ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

فقلت له يعز عليَّ كيف يكونُ هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة فقال : حذرناه وأنذرناه فما نفع ألست القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطينَّ الناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافور بسوء تدبيره وقلّة تمييزه .

وقال في موضع آخر وهو يردّ على من يعيبون أبا الطيب : على أنني سأذكر ذلك منثوراً في أماكنه بحسب ما يوفق الله جلت عظمته له وأذكر ما شجر بيني وبينه من المباحثة وقت قراءتي ديوانه عليه الى سوى ذلك :

وكان أبو الطيب المتنبي وقد خبر ابن جني أعظم خبرة يقول : إنّ ابن جني رجل لا يعرف قدره كثير من الناس : ويقول : إنّ ابن جني أعلم بشعري مني : وكان اذا سُئِلَ عن مسألة غامضة في شعره أحال السائل على ابن جني من ذلك أنه مدح أبا شجاع مرّة فقال في ولدين له :

فلا ملكا سوى تلك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان

وكانا ابني عدو كاثراه له يائي حروف انيسيان

فسئل في شيراز عن معنى البيت الأخير فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسّره وتفسيره أن لفظ انسان خمسة أحرف اذا كان مكبراً فاذا صُغّر صار سبعة أحرف فازداد عدد حروفه وصغر معناه : فهو يقول لأبي شجاع : إن عدوّك الذي له ابنان يكاثرك بهما كانا زائدين في عدده ناقصين من فضله ونخره لأنهما ساقطان خسيسان فهما كيائي انيسيان تزيدان عدد الحروف وتنقصان من المعنى .

ومنه أنّ سائلاً سأل أبا الطيب عن قوله : باذ هواك صبرت ام لم تصبرا : فقال : كيف أثبتّ الألف في تصبرا مع وجود لم الجازمة ؟ وكان من حقه أن تقول : لم تصبرْ : فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح هنا لأجابك : والجواب أن هذه الألف بدل نون التوكيد الخفيفة كان في الأصل : لم تصبرنْ : ونون التوكيد الخفيفة تبدل عند الوقف ألفاً قال الأعشى : ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا : وكان في الأصل فاعبُدَنْ فلما وقف أتى بالألف بدل النون .

وقد نبغ ابن جني في علم التصريف نبوغاً منقطع النظير لأن السبب في صحبته أبا عليّ الفارسيّ واغترابه عن وطنه ومفارقته أهله مسألة تصريفية حمله ذلك على التبحر والتدقيق فيه فقرأ كتاب التصريف لأبي عثمان المازني وهو أول كتاب ألف في هذا العلم وحده وخير كتاب فيه على أستاذه الامام أبي عليّ الفارسيّ قال أبو الفتح في كتابه سر الصناعة: وهذا ما خرج لي بعد التفتيش والمباحثة مع أبي علي وقت قراءتي كتاب أبي عثمان عليه[1] وقال في كتابه الخصائص: قال أبو علي وقت القراءة عليه كتاب أبي عثمان كذا وكذا[2]: ثم شرح هذا الكتاب شرحاً وافياً يدل على غزارة علمه بالتصريف وبالامة وبراعته فيهما وقد سمي هذا الشرح (المنصف) وبقي هذا العلم شغله الشاغل يسأل فيه فيجيب أجوبة شافية ويطرح مسائله على الناس ويبصرهم بأجوبتها السديدة.

ونبغ ابن جني في اللغة نبوغاً تسامى به على المتقدمين والمتأخرين فقد قال منذ الف سنة بما وصل اليه علماء اللغات حديثاً من أن أسماء الأصوات هي أصول اللغة تشتق منها جميع الأفعال والمصادر والأسماء، وان أسماء الأعيان تشتق منها كما يشتق من أسماء الأصوات. قال في الخصائص:

وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل[3]:

وقال في شرحه تصريف المازني الذي سماه المنصف: ذوات الخمسة وإن لم يكن فيها فعل فان دخول التحقير والتكسير فيها كالعوض من منع الفعلية فيها ألا ترى أنك تقول في تحقير سفرجل وتكسيره سُفَيْرِج وسفارج فجرى هذا مجرى قولك سَفْرَجَ يُسَفْرِجُ سَفْرَجَةً فهو مُسَفْرِجٌ وإن كان هذا لا يقال فانه لو اشتق منه فعل لكانت هذه طريقته[4]:

فالقول الأول صريح كل الصراحة في اشتقاق الأفعال والمصادر وجمع الأسماء من اسماء الأصوات. والقول الثاني يدل على جواز اشتقاق الافعال وما يتفرع منها من مصادر وأسماء من أسماء الأعيان ويُبيّن أنها لا تشتق من أسماء الأعيان الخماسية وأنها لو اشتقت منها لكان طريق اشتقاقها كما ذكر أي بحذف الخامس كالتصغير والتكسير.

---

(١) منقولة عن نسخة من سر الصناعة بالتصوير الشمسي بدار الكتب لغة ٧٣٩ ص ٤٠
(٢) منقولة عن نسخة الخصائص المطبوعة بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٣ م ص ٤٤
(٣) الخصائص ج ١ ص ٤٤ س ١ من تحت
(٤) المنصف ص ٣٤ س ١٨ — من نسخة بمكتبة تيمور ٦٥ صرف

فهو بهذا وذلك يقرر منذ الف سنة تقريباً ما وصل اليه علماء اللغات في هذا العصر من أن أصل اللغة حين نشأتها الأولى أسماء أصوات فلما تقدمت وارتقت واستطاعت أن ترتجل اسماء للأعيان أصبحت اسماء الأعيان هذه أصلاً للاشتقاق

وكان لابن جني عناية فائقة بالقياس كاستاذه الامام أبي علي الفارسي فأما عناية ابن جني به فتتجلى في كل مؤلفاته وأما عناية أستاذه به فقد روى هو عنه قوله : أخطىء في مائة مسألة لغوية ولا أخطىء في واحدة قياسية . وكانا مع ذلك متوسعين في القياس

قال ابن جني في كتابه الخصائص : قال أبو علي وقت القراءة عليه كتاب أبي عثمان : لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بإلحاق اللام اسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولـكان ذلك من كلام العرب وذلك نحو خَرْجَجٌ أكرمُ من دَخْلَلٍ وضَرْبَبَ زيدٌ عمراً ومررت برجل ضَرْبَبٍ وكَرْمَمٍ ونحو ذلك : قلت له : افترتجل اللغة ارتجالاً ؟ : قال : ليس بارتجال لـكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم (١) وقال في الخصائص أيضاً .

ومما يدلك على أن ما قيس من كلام العرب فانه من كلامهم أنك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم أبنية التصريف نحو قولهم في مثال (صمحمح) من الضرب (ضَرَبْرَب) ومن القتل (قتلتل) ومن الأكل (أكلكل) ومن الشرب (شربرب) ومن الخروج (خرجرج) ومن الدخول (دخلخل) وفي مثل سفرجل من جعفر (جعفرر) ومن صقعب (صَقَعْبب) ومن زبرج (زبرجج) ومن ثرثم (ثرثمم) ونحو ذلك فقال لك قائل بأي لغة كان هؤلاء يتكلمون لم تجد بدًّا من أن تقول : بالعربية . وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف (٢) .

كان أستاذه إمام الأئمة يستجيد مؤلفاته كما تقدم وهذه شهادة كبيرة له بالفضل وقد شهد له بذلك أعداؤه من ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم بن سعيد الرفاعي وهو من أئمة العربية الممتازين رأي يوماً بعضهم يتردد على ابن جني في واسط ويتلقى عنه العلم فقال له : قد انعكفت على هذا المجنون (يريد ابن جني) : فقال له : إنه يحكي عن أبي علي النحو كما أنزل قال : صدقت : (٣) وقد كان أبو اسحاق هذا مجفوًّا ممقوتاً لتشيعه .

أما شهادات المنصفين فكثيرة منها ما ورد في كتاب : نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن الانباري .

---

(١) ٣٦٣ خصائص (٢) ٣٦٥ خصائص

(٣) ص ٥٥٦ القسم الخامس من أنباه الرواة للقفطي من نسخة بالتصوير الشمسي بدار الكتب تحت عنوان تاريخ ٢٥٧٩

أمـا أبو الفتح عثمان بن جني النحوي فإنه كان من حـذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف : وقال : ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف فإنه لم يصنف أحدٌ في التصريف ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه .

وما ورد في معجم الأدباء لياقوت قال فيه .

من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف وصنّـف في ذلك كتباً أبرَّ بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن في شيء من علومه أكمل منـه في التصريف ولم يتكلم أحدٌ في التصريف أدقَ كلاماً منه :

وما ورد في دُمْـية القصر وعُـصرة أهل العصر : لأبي الحسن الباخرزي قال :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ليس لأحد من أئمـة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له ولا سيما في علم الاعراب فقد وقع عليها من ثمرة الغراب [1] ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته .

وأعظم من أولئك جميعاً أنه لعلو كعبه في اللغـة والأدب أصبح ثقة وحجّـة فيهما وأكثر أئمتهما في النقل عنه والاحتجاج بأقواله وقد أوتي من ذلك حظـاً عظيماً لا يقل عن حظ أكبر الأئمة كالخليل وسيبويه وغيرهما فالرواية عنـه والاحتجاج بأقواله كالرواية عن هؤلاء الأئمة والإحتجاج بأقوالهم .

وكأن أبا الفتح كان بما أوتي من مواهب وملـكات وما كان من أستاذه الإمام أبي علي الفارسي من غناء قد اقتصر عليه وعلى جهوده فلم يذكر له من الشيوخ غيره . أمـا الذين أخذوا عنه فكثيرون منهم أبو القاسم الثمانيني وأبو احمد عبد السلام بن الحسين البصري وأبو الحسن علي بن عبدالله وأولاد ابن جني نفسه الثلاثة عليّ وعالِ والعلاء وقد ثقفهم أحسن تثقيف وعلمهم الخط الحسن فصـاروا أدباء فضلاء ممـدودين فيمن صح ضبطه وحسن خطه

ويقول بعض المؤلفين أن ابن جني لازم شـيخه أبا علي الفارسي أربعين سنة . وهذا غير معقول لأن ابن جني لم يعش إلاّ اثنتين وستين سنة قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل لأنَّ الروايات متضافرة على أنه لازمه بعـد أن تصدر للتدريس في

---

(١) ثمرة الغراب . يضرب الدرب الامثال بالغراب و أشياء كثيرة فيقولون أبصر من غراب : وأحذر من غراب : و أصفى عيشاً من غراب : وغير ذلك ومما يقولونه : وجد ثمرة الغراب : وذلك إذا تتبع أجود التمر وانتقى أجوده يضرب مثلا لمن ينتقي أجود المعاني .

جامع الموصل ولا يمكن أن يتصدَّر للتدريس في مسجد جامع قبل من العشرين ثم لم يعش بعد شيخه إلا خمس عشرة سنة فان الشيخ مات سنة ٣٧٧ هـ والتلميذ مات سنة ٣٩٢ هـ فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفته شيخه وبعد افتراقهما بوفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له والباقي من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة وهو سبع وعشرون سنة هو الذي يمكن أن يقال إنه لازمه فيه .

وأي شيخ لا ينفد ما عنده في أقل من نصف هـذه المدة وأي طالب يبقى في حاجة الى ملازمة شيخه أكثر من نصف هذه المدة يخيل إليَّ أن حاجة أخرى هي التي أطالت هـذه الملازمة حتى بلغت ما بلغت هي حاجة الأستاذ الى خدمة تلميذه ليستعين بهذه الخدمة على تأدية رسالته وحاجة التلميذ الى العيش الرغيد الذي كان شيخه يتمتع به في بلاط هؤلاء الأمراء

ولابن جني مع بعض الأعراب نوادر طريفة تدل على حذقه وعلمه وعلى بقاء السليقة العربية سليمة الى عهده بعض السلامة وقد روى كثيراً منها في كتبه وأذكر منها مسألتين مما ذكره في الخصائص على سبيل التمثيل قال :

سألت مرّةً أبا عبد الله محمد بن العسّاف العُقَيْلي الجُوثي التميمي الشجري ومعه ابن عم له دونه فصاحة وكان اسمه غُصْناً فقلت لهما : كيف تحقّران حمراء فقالا : حميراء : قلت . فسوداء : قالا : سويداء : وواليت من ذلك أحرفاً وهما يجيئان بالصواب ثم دسست في ذلك علباء : فقال غُصْنٌ : عليباء : وتبعه الشجري فلما همَّ بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال : آه عليبي [1] ورام الضمة في الياء فكانت تلك عادة له [2] وقال :

سألت هـذا الاعرابي مرّةً : كيف تجمع سرحاناً : فقال : سراحين : قلت : فدكاناً : قال : دكاكين : قلت وقرطاناً [3] : قال : قراطين : قلت : فعثمان : قال : عثمانون : قلت . هلاّ قلت عثامين كما قلت : سراحين وقراطين : فأباها البتة وقال : إيش ذا أرأيت انساناً يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبداً : استوحش من تكسير العلم إكثاراً له لا سيما وفيه الألف والنون اللتان بإزائهما فعلان الذي لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان.

(١) العلباء عصب في عنق البعير يخزم به مقبض السيف اعلابته وجمعه علالب ويصغر على علب بكسر ما بعد ياء التصغير وهو الباء لانه أكثر من ثلاثة أحرف وليست الفه للتأنيث كالف حمراء وإنما هي للالحاق واذا كسرت الباء لم تبق حاجة الى الالف الزائدة لمد فتحتها. فتحذف وتقلب الهمزة واصلها الف منقلبة ياء لمناسبة الكسرة قبلها فتصير عليبيء وبعد قلب الهمزة يا تخفف بحذفها فتجتمع ياء وتنوين وكلاهما ساكن فتحذف الياء للاعلال كياء قاض فتصير عليب .

(٢) الخصائص ص ٤٢٥ (٣) القرطان : الشيء اليسير والداهية

ومما يروى من أخبـاره مع غير الأعراب أنـه كان يوماً في زبزب [١] مع الرضيّ والمرتضى العلويين وكان علي بن عيسى الربعـي يمشي حينئذ على شاطىء النهر فلما رآهم قال للعلويين : من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمان جالساً معهما في الزبزب وعلي يمشي على الشط بعيداً منهما : وعليّ هذا من أئمة النحو الممتازين بجودة الفهم والنظر والقياس أخذ عن السيرافي ولازم الفارسيّ شيخ ابن جني عشر سنين حتى قال له شيخه : ما بقي شيء تحتاج اليه ولو سرت من المشرق الى المغرب لم تجد أعرف منك بالنحو : غير أنه كان مبتلى بشيء من الجنون وله حوادث غريبة فليس بكثير أن يقول للشريفين مثل هذا المقال في ابن جني

ومنها أنه زار يوماً أبا اسحاق الصابي في ديوان الانشاء وكان بين يديه كاتب من المعروفين بالنحو واللغـة والأدب في أيام عضد الدولة وابنه صمصام الدولة اسمه أبو الحسين اسماعيل بن محمد القمي وأخذ ابن جني يتحدّث مع ابي اسحاق تارة ومع حفيده — وكان حاضراً إذا اشتغل أبو اسحاق — تارة أخرى وكانت لابن جني عادة في حديثه أن يميل بشفته السفلى ويشير بيده فبقى أبو الحسين القميّ شاخصاً ببصره يتعجّب منه فقال له ابن جني : ما بك يا أبا الحسين تحدّق اليّ النظر وتكثر منّي التعجّب ! : قال شيء ظريف : قال : ما هو ؟ : قال : شبّهتُ مولاي الشيخ وهو يتحدّث ويقول ببوزه [٢] كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودي الى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثـل ما يفعل مولاي الشيخ : فامتعض أبو الفتح وقال : ما هـذا القول يا أبا الحسين — أعزّك الله — ومتى رأيتني أمزحُ فتمزحَ معي أو أمجُنُ فتمجُنَ بي ! : فلما رآه أبو الحسين قد حرد [٣] واستشاط [٣] وغضب قال : المعذرة أيها الشيخ اليك والى الله تعالى عن أن اشبّهك بالقرد وإنما شبّهتُ القردَ بك : فضحك أبو الفتح وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! : وعلم أبو الفتح أنهـا نادرة تشيع فكان يتحدّث بهـا هو دائماً . إن صحت هـذه القصّة دلت على أنّ أبا الحسين هذا كان من المجان المستهترين وقد ذكرتها لما فيها من بيان عادة لابن جني .

وقيل ان ابن جني كان ممتعاً باحدى عينيه فلذلك قال في صديق له :

صدودُك عني ولا ذنب لي ... دليل على نيـة فاسده
فقد وحياتك ممّا بكيتُ ... خشيت على عينيَ الواحـده
ولولا مخافةُ ألاّ أراك ... لما كان في تركهـا فائده

وقيل إنه لم يكن ممتعاً باحدى عينيه وإن هذه الابيات ليست له إنما هي لابي منصور الديلمي

---

(١) الزبزب ضرب من السفن (٢) البوز فم الخنزير (٣) حرد غضب وتألم (٣) استشاط الرجل غضب

وكان ابن جني مع غزارة علمه ومهارته فيه شاعراً جيّد الشعر ناثراً جيّد النثر .
فمن جيد شعره قوله :

غزالٌ غيرُ وحشيّ حكى الوحشيَّ مقلَتَه
رآه الوردُ يجني الورْ دَ فاستكساه حُلّتَه
وشمَّ بأنفه الريحا نَ فاستهداه زهرتَه
وذاقت ريقه الصهبا (١) ءَ فاختلسته (٢) نكهته (٣)

ومنه مرثيته للمتنبي ومنها .

غاض القريض وأذوت نضرة الأدب وصوحت (٤) بعد ري دوحة الأدب
سلبتَ ثوب بهاء كنت تلبسه كما تخطّفُ بالخطّية السلَبُ
ما زلت تصحب في الجلى اذا انشعبت قلباً جميعاً (٥) وعزماً غير منشعب (٦)

ومنه تحبَّبْ أو تدرّع أو تأبى فلا والله لا أزداد حبّا
أخذت ببعض حبك كل قلبي فان رمت المزيد فهات قلبا

ومن جيد نثره خطبة نكاح طويلة منها :
الحمد لله فاطر السماء والأرض ، ومالك الابرام والنقض ، ذي العزة والعلاء ، والعظمة والكبرياء ، مبتدع الخلق على غير مثال ، والمعهود بحقيقته في كل حال ، الذي ملأت حكمته القلوب نوراً ، فاستودع علمَ الأشياء كتاباً مسطوراً : وكل الخطبة على هذا النسق وأمثال هذا الأسلوب البليغ كثيرة جدًّا في مصنفاته العلمية .

ولابن جني مصنفات كثيرة كلها جيد بالغ الحدّ في الجودة . وقد ذكر هو بعضها في إجازة بروايتها فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم : قد أجزت للشيخ أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن نصر — أدام الله عزه — أن يروي عنّي مصنفاتي وكتبي مما صححه وضبطه عليه أبو أحمد عبد السلام ابن الحسين البصري — أيّد الله عزه — عنده منها :

١ — كتابي الموسوم بالخصائص وهو ١٠٠٠ ورقة (وقد طبع الجزء الأول منه في مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة (١٣٣١ هـ) وسنة (١٣١٣ م) . قال الإمام السيوطي في خطبة كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو)ما يأتي :

واعلم أني استمددت في هذا الكتاب كثيراً من كتاب الخصائص لابن جني فانه وضعه

---

(١) الصهباء اسم من أسماء الخمر (٢) اختلسته اختطفته (٣) نكهته رائحته وهي بدل من ضمير اختلسته (٤) صوحت تم جفافها (٥) قلب جميع غير متفرق نزعاً (٦) غير منشعب غير منصدع قوي

في هذا المعنى وسماه « أصول النحو » لكن أكثره خارج عن هذا المعنى وليس مرتباً وفيه الغث والسمين والاستطرادات فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة وأرشقها وأوضحها معزوّاً اليه : ص ٢ الاقتراح .

٢ — كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري رحمه الله وهو ٥٠٠ ورقة ذكره في ص ١٥٦ من الخصائص .

٣ — كتابي سر الصناعة وهو ٦٠٠ ورقة (في دار الكتب منه نسخ منها نسخة برقم ١٦ ش لغة ونسخة برقم ١٢٠ لغة) .

٤ — كتابي في تفسير تصريف أبي عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني وهو ٥٠٠ ورقة (منه نسخة بمكتبة الشنقيطي ٢ ش صرف وأخرى في مكتبة تيمور) .

٥ — كتابي في شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها وهو ٥٠٠ ورقة (ولعله التنبيه في شرح مشكلات أبيات الحماسة وهو في دار الكتب رقم ٤٤ أدب والتنبيه في إعراب الحماسة .

٦ — كتابي في شرح المقصور والممدود عن يعقوب بن إسحاق السكيت وهو ٤٠٠ ورقة

٧ — كتابي تعاقب العربية وأطرق به وهو ٢٠٠ ورقة

٨ — « تفسير ديوان المتنبي الكبير وهو ١٠٠٠ ورقة ونيف .

٩ — « تفسير معاني هذا الديوان وهو ١٥٠ ورقة .

١٠ — « اللمع في العربية .

١١ — « مختصر التصريف على اجماعه (وهو بدار الكتب برقمي ١٨١ و ٢٢٠) صرف ولعله التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن بمصر

١٢ — « مختصر القوافي .

١٣ — كتاب الألفاظ المهموزة

١٤ — كتابي في اسم المفعول المعتل العين من الثلاثي على إغرابه في معناه وهو المقتضب من كلام العرب . (وقد طبع في ليبزج سنة ١٩٠٤ وهو في دار الكتب برقم ٢٢٦ صرف)

١٥ — وما بدأت بعمله من كتاب تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب أيضاً أعان الله على إتمامه

١٦ — وكتاب ما خرج عني من تأييد التذكرة عن الشيخ أبي علي — أدام الله عزه

١٧ — كتاب في المحاسن في العربية وإن كان ما جرى أزال يدي عنه حتى شذّ مني وهو ٦٠٠ ورقة .

١٨ — كتابي النوادر الممتعة في العربية وهو ١٠٠٠ ورقة وقد شذَّ أيضاً عني فان وقعا كلاهما أو شيء منهما فهو لاحق بما أجزت روايته هنا .

١٩ — وكتاب ما أحضرنيه الخاطر من المسائل المنثورة مما أمللته أو حصل في آخر تعاليقي عن نفسي وغير ذلك مما هذه حاله وصورته .

فليرو — أدام الله عزه — ذلك عني أجمع إذا أصبح عنده وآنس بتثقيفه وتسديده وما صحَّ عنده — أيده الله — وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها مباركاً له فيه منفوعاً به باذن الله .

وله غير ما ورد في هذه الاجازة من الكتب ما يأتي :

٢٠ — المحتسب في تعليل شواذ القراءات (وهو كتاب ضخم جيد جداً في دار الكتب منه نسخه برقم ٧٨ قراءات)

٢١ — شرح ديوان المتنبي الصغير (ومنه نسخة في دار الكتب برقم ٢٣ أدب) .

٢٢ — مفردات القراء السبعة (في دار الكتب بعنوان ١٠ م قراءات)

٢٣ — المبهج في تفسير شعراء الحماسة (في دار الكتب برقم ٧٤١٠ و ٧٣٢١ أدب .

٢٤ — المغرب في تفسير قوافي أبي الحسن (ذكره في الخصائص ص ٨٦)

٢٥ — كتاب في الزَّجر ذكر فيه كثيراً من الأفعال المشتقة من أسماء الأصوات التي يصوت بها البهائم — ذكره في صفحتي ٤٣٨ و٤٣٩ من الخصائص المطبوعة.

٢٦ — الفرق — ٢٧ المعاني المحررة — ٢٨ — الفائق — ٢٩ مختار الاراجيز — ٣٠ — شرح الفصيح — ٣١ العافي في القوافي — ٣٢ — المهذب — ٣٣ — التبصرة — ٣٤ — علل التثنية — ٣٥ التلقين في النحو — ٣٦ — المفيد في النحو — ٣٧ — المسائل الخاطريات — ٣٨ — المسائل الواسطية التي أملاها في واسط — ٣٩ — التذكرة الاصبهانية — ٤٠ — تفسير أرجوزة أبي نواس — ٤١ — تفسير العلويات وهي أربع قصائد للشريف الرضي — ٤٢ — رسالة في مدد الأصوات ومقاديرها — ٤٣ — النقض على ابن وكيع في شرح المتنبي وتخطئته — ٤٤ — الوقف والابتداء — ٤٥ — الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام — ٤٦ — التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن الصناعية بالقربية بمصر حوالي سنة ١٩١٣ فيما أظن ولعله السابق ذكره بعنوان (مختصر التصريف على اجماعه)

عبد الله أمين

للشاعر الخالد لامارتين — ترجمة ج . توفيق نهرا — الاسماعيلية

لحن الموت

ارتفعي يا نفسي فوق نفسك
فها هي تجربة إيمانك
فلا تجعلي الزنديق يقول في محنتك الأخيرة « إنها ترتعد مثلنا »
فها هي الساعة التي تحاكم الحياة وتعلن الخلود !

* * *

نعم إنك ستموتين
ولسوف يُطبق التراب تابوته القاسي على رمّتك
وعندئذٍ لن تشعري بثقل الوحل الذي كان يدنّسك
لأن الاحساس بوطأة هذا الوحل القذر كان معناه الحياة !

* * *

ماذا كانت حياتك . . . . ؟
منفَى ضجر وعذاب
وضحية الأمل
كانت ترنيمة إيمان طويلةً تُتلى كل يوم
وحين كان المعتوه يعب من كأسه المترعة
كنت تسكبين قدحك على قدميك مضحّية
وتصرخين قائلة « إنني ظمأى . . . ولكن للخلود »
لا تحزني فستشربين من النبع الخالد
الذي تسيل منه الأحقاب والدهور
ذلك المحيط بلا عمق وبلا شاطيء
المملوء دائماً . . الزاخر ابداً

* * *

سوف ترين الجحافل السماوية
وهي تمهد ذلك الفضاء اللانهائي
كغبار تحركه نفحة إلاهية

اما الشموس الحلوة
التي كانت جفونك تتنبأ بنورها البعيد
فستتفتّح امام عينيك
وستحييك كل واحدة منها وهي مارة بك
بالإسم العظيم الذي تهزجه السموات كلها : . .

* * *

في هذا المحيط النقي من الحياة
الزاخر بالسعادة والحب
سيدفعك الموت
ثم يذهب بك مدّه
وانت ما زلت مظللة . . . الى الفجر السرمدي
حيث الكوكب الساطع ابداً

* * *

ألا ترين في الظلام فلول الشرر المتموّج ؟
أوَلا تسمعين اصطفاق أجنحة الروح التي سوف تنتهلك ؟
بعد هنيهة ستسبحين من غيمة الى أخرى
وستحسّين نفسك مكسوةً بشعاع مقامك الإلهـي
كويجة تتبخر منبثةً وهي منجذبة نحو الفجر
عن دفء اليوم الذي سيولد وضيائه . . .

* * *

ساعة أخرى من الألم
ووداع آخر لاعج
ثم تهجعين آملة لتستيقظي في الآلهة
كالبحّار المعتمد على نجمه
يطوي شراعه وقد أحسّ اليابسة دون ان يراها
فينام وهو يحلم بالضفاف
ثم يستيقظ فيجد نفسه على
شطآن أكثر صفاءً مما كان يصبو . . .

أنيوشا

لانطون تشيكوف

في حجرة هبط إيجارها إلى الحدّ الأدنى في بناء أعدّ لإيجار غرفة مؤثثة، كان ستيان كولتشكوف، وهو طالب طب في السنة الثالثة يذرع أرض الحجرة رواحاً وجيئة ليستذكر دروسه في علم التشريح في حماس. وقد جفّ فه وتندّى جبينه بالعرق لجهده المتواصل في استظهار الدروس.

وعند نافذة غشاها الجليد، جلست أنيوشا، الفتاة التي تعايشه، على مقعد، نحيلة الجسم ضامرة، وقد بلغت الحادية والعشرين من عمرها، شاحبة غاض دم وجهها، ولها عينان وسنانتان دعجاوان، جلست منحنية على قميص رجل منشغلة بتطريز بنيقته بخيوط حمر... تجالد الحياة... أعلنت الساعة التي في الممر الثانية، في تراخ، ولما تعد الحجرة الصغيرة أو يصلح من شأنها منذ الصباح. فملابس النوم ملقاة في غير نظام والوسائد والكتب والثياب مبعثرة هنا وهناك، والدلو المعد للقاذورات قد امتلأ بماء الصابون فيه تسبح أعقاب لفائف التبغ، والمجرفة ملقاة على أرض الحجرة — كل هذه الأشياء بدت كأنها قد اختلط بعضها بالبعض الآخر قصداً في اضطراب واحد...

تتركب الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — « ردد كولتشكوف » — حدودها. الجزء العلوي على الجدار الأمامي للقفص الصدري ويمتد حتى يصل الضلع الرابع أو الخامس على السطح الخلفي، والضلع الرابع ... يمتد الى خلف حتى النخاع الشوكي.

شخص كولتشكوف ببصره الى سقف الحجرة وهو يحاول أن يتمثل أمام ناظريه ما قد فرغ من قراءته. ولما لم يعد قادراً على تكوين صورة واضحة له بدأ يتحسس أضلعه العليا من خلال صداريه وقال:

إن هذه الأضلع تشبه مفاتيح المعزف (البيانو) يجب أن يتعرّفها الانسان جيداً بأية

حال من الأحوال وإلاّ اختلط عليه أمرها يجب على الطالب استذكارها على الهيكل العظمي والجسم الحي ... إني أقول يا أنيوشا دعيني أميزها الواحدة عن الأخرى ، طرحت أنيوشا ما تخيطه وخلعت « البلوزة » عنها وقومت من شأن جسمها ، وجلس كولتشكوف إليها وجهاً لوجه مقطب الجبين وبدأ يعد أضلعها .

هِمْ ! ... ليس من المستطاع أن نتحسس الضلع الأول فهو يقع خلف لوح الكتف .. وهذا يجب أن يكون الضلع الثاني ... نعم ... وهذا هو الثالث ... وهذا هو الرابع .

هِمْ ! ... نعم ... لماذا ترتعدين ؟ .

إنَّ أصابعك باردة .

هيّا هيّا ... فلن تقتلك أصابعي . لا تحركي جسمك . وهذا لابدَّ أن يكون الضلع الثالث .. وحينئذٍ ... يكون هذا الرابع ... ! إنَّ جسمك يبدو كثير العظام ومع هذا فإن من العسير العثور على أضلاعك . ذلك الضلع الثاني ... وذلك الثالث ... أوه إنَّ هذا يدعو الى الارتباك ولا يمكنني أن أتبينه جليّاً ... يجب أن أحدّده فأين القلم الرصاص ؟.

أولاً ذلك يمتد في خط مستقيم لا ينحني ولا يلتوي ... حسناً الآن يمكنني أن أفحصك قفي ! فوقفت أنيوشا ورفعت ذقنها الى أعلا وبدأ كولتشكوف يفحصها . ولقد كان منهمكاً في عمله الى حدٍّ لم يلحظ فيه كيف أصبحت شفتا أنيوشا وأصابعها زرقاً من البرد . ارتعشت أنيوشا وخشيت أن يلحظ الطالب هذا فيترك التحديد بالقلم الرصاص على صدرها وفحص جسمها . وحينئذٍ تكون الخاتمة فشله في الامتحان .

لقد أصبح كل شيء الآن واضحاً. هكذا قال كولتشكوف عندما أنجز مهمته . ثم قال اجلسي على هذه الحال ولا تزيلي أثر القلم الرصاص فإني في أثناء ذلك أستوعب أكثر مما أستذكر ، بدأ الطالب ثانية يذرع أرض الحجرة روحة وجيئة ، وهو يكرر ما وعى في نفسه وقد بدت الخطوط السود على صدر أنيوشا وكأنها الوشم وقد جلست مفكرة مهدلة الأوصال ترتعش من البرد وكان من عادتها ألاّ تسرف في الحديث ، فهي دائماً صموت مستغرقة في تفكيرها .

وفي السنوات الست أو السبع التي قضتها متنقلة من غرفة مفروشة الى أخرى ، عرفت

خمسة طلاب من طراز كولتشكوف « والآن وقد أتوا دراستهم جميعاً فقد انطلقوا في رحاب الحياة ، يسمون في مناكبها . وهم كغيرهم ممن هم جديرون بالاحترام ، فدنسوها منذ زمن طويل .

كان أحدهم يقيم في باريس واثنان امتهنا الطب وغدا الرابع فناناً . أما الخامس فقد تراءت الأقوال على أنه أصبح أستاذاً في الجامعة ... وكان كولتشكوف سادسهم ... وسرعان ما يتم هو الآخر دراسته ويضرب في شعاب الأرض . كان مستقبلاً جميلاً ينتظره لا مراء ، وقد يغدو كولتشكوف رجلاً بارزاً . ولكن حاضره لم يكن براقاً . لم يكن لدى كولتشكوف تبغاً ولا شاياً ولم يبق له سوى أربع قطع من السكر ويجب على أنيوشا أن تسرع وتنجز التطريز الذي بيدها وتحمله الى المرأة التي قد أوصت بعمله وتشتري شاياً وتبغاً بربع الروبل الذي ستتقاضاه أجراً عليه .

سأل سائل بالباب هل يمكنني الدخول ؟

ألقت أنيوشا في سرعة شالاً صوفيًّا على كتفيها ودخل فستوف الفنان الحجرة وبدأ حديثه مخاطباً كولتشكوف : لقد جئتك لتسدي إليَّ صنيعاً ، قال كوحش ضار وهو يحملق من تحت غدائر شعره الطويلة المتهدّلة على حاجبيه . إصنع جميلاً وأعرني فتاتك لبضع ساعات ! إني أرسم صورة وكما ترى لا يمكنني الاستمرار فيها دون أنموذج .

نزل كولتشكوف عند إرادته وقال : أوه . بكل سرور . انطلقي معه يا أنيوشا . همهمت انيوشا في هدوء ورقة ! ما الأشياء التي ينبغي أن أقوم بها هنالك ؟ هراء ! إن الرجل يرجوك خدمة للفن وليس من أجل أمر تافه آخر فلماذا لا تمدين له يد المساعدة ؟ ما دام ذلك في استطاعتك ؟

بدأت أنيوشا ترتدي ملابسها .

سأل كولتشكوف « وماذا ترسم ؟ »

إن سيكي « موضوع جميل ولكن لا يمكن الاستمرار فيه بحال إذ يجب عليّ أن أرسم من نماذج مختلفة ، فبالامس كنت أرسم فتاة ساقاها زرقاوان فسألتها لماذا ساقاك زرقاوان ؟

فأجابت « إن جواربي قد صبغت ساقي باللون الأزرق ولا زلت أنت يا كولتشكوف

كيف تكدح . فيالك من فتى حسن الحظ أوتيت الصبر والمثابرة !! »

إن الطب عمل لا يمكن الإنسان الاستمرار فيه دون هذا الكدح .

هم .... اصفح عني يا كولتفكوف إذا قلت لك إنك تعيش كالخنزير وتحيا حياة كريهة

ماذا تعني ؟ لا مهرب لي من هذه الحال — .... فإني أحصل على اثنى عشر روبيل من أبي في الشهر ومن العسير أن يعيش الإنسان عيشة محترمة بمثل هذا المبلغ .

فقال الفنان « نعم ... نعم » وهو يقطب حاجبه متمضاً متقززاً ، « ولكن مع هذا يجب عليك أن تحيا حياة أحسن . فإن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة . أليس من الواجب أن يكون كذلك ؟ والسماوات تعرف ماذا تشبه الحال هنا ! فالفراش الزري والماء القذر والاوساخ .... وعصيدة الأمس لا زالت في الأطباق ... اتفو .

قال الطالب في اضطراب ... « هذا حق ولكن لم يكن لدى أنيوشا الوقت الكافي لترتب شئون الحجرة . فقد كانت مشغولة طوال الوقت .

ولما غادرت أنيوشا والفنان الحجرة إرتمى كولتفكوف على الأريكة وأخذ يستذكر دروسه وهو مستلق في الفراش وفجأة استغرق في نوم عميق . فلما استيقظ من نومه بعد ساعة أسند رأسه براحتيه وغرق في تفكير مظلم عميق ، وتذكر كلمات الفنان بأن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة ، وقد صدمته البيئة التي يعيش فيها . وأحس أنها كريهة تعافها النفس وتدعو للتمرد والعصيان ، ورأى وكأنه يبصر مستقبله بعقله لا بعينيه عندما يقابل مرضاه في غرفة « الكشف » ويتناول الشاي برفقة زوجه وهي سيدة محترمة في غرفة الطعام الرحبة . أما الآن فالدلو المعد للقاذورات حيث تسبح أعقاب لفائف التبغ ، وتبدو كريهة لحد لا يتصوره العقل ومرت أنيوشا أيضاً بخياله وهي فتاة بسيطة شعثاء تستدعي حالها الشفقة .. فعقد العزم على ان يفترق عنها حالاً مهما كلفه هذا من مشقة وثمن .

فلما عادت من منزل الفنان وخلعت معطفها استقام واقفاً وقال لها في لهجة الجد .

أعيريني سمعك يا فتاتي الطيبة ، اجلسي واصغي ، يجب أن نفترق ! فإن الحقيقة أني زهدت في الحياة معك .

كانت أنيوشا قد عادت من عند الفنان محطمة منهوكة القوى فإن وقوفها نموذجاً وقتاً

طويلاً جعل وجهها يبدو رقيقاً بارز العظام فاتر العينين ، وأن ذقنها قد دقت واسترقت فلم تجب على كلمة مما فاه به الطالب ولكن بدأت شفتاها ترتعشان .

وقال الطالب أنت تعرفين أننا سوف نفترق إن عاجلاً أو آجلاً بأية حال من الأحوال أنت فتاة ظريفة المعشر طيبة القلب ولست حمقاء وسوف تفهمين ما أقول .

إرتدت أنيوشا معطفها ثانيـة في صمت ولفت شغل الابرة في الورق وجمعت في حزمة الإبر والخيوط ووجدت قصاصـة الورق وبها قطع السكر الأربع في النافذة فوضعتها على النضد بجوار الكتب .

وقالت في رقة « أشكرك ، هـذا هو .... وأدارت وجههـا لتخفي دموعاً ترقرقت في ما قيها .

فسألها كولتشكوف : لماذا تبكين ؟

ثم تجوّل في الحجرة في اضطراب وحيرة وقال :

أنك فتاة غريبة الأطوار حقـا .... لماذا هـذا وأنت تعرفين أننا لا بدّ وأن نفترق فلا يمكن أن نبقى معاً إلى الأبد .

جمعت كل ما تعلق بها واستدارت لتودع كولتشكوف فأحسّ بالأسف والأسى لفراقها .

وتفكر الأمر مسائلاً نفسه « هل أدعها تبقى أسبوعاً آخر ؟ فلا غضاضة عليّ من بقائها وسوف آمرها بالرحيل في غضون أسبوع » فتضايق من ضعفه فصاح بها في خشونة وجفاء .

عودي لماذا تقفين هنالك ؟ إذا كنت مزمعة الرحيل فهيا وإذا كنت راغبة عنه فاخلعي عنك معطفك وأمكثي ! إذ يمكنك المكث !

نضت أنيوشا عنها معطفها خلسة وفي صمت ثم تمخطت خفيـة أيضاً وتنهدت وعادت دون حركة إلى مكانها الذي لا يتغير على مقعدها بجوار النافذة .

جذب الطالب إليه الكتاب المقرر وبدأ يقطع أرض الحجرة ثانيـة من ركن إلى ركن وردد قائلاً : تتركب الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — الجزء العلوي على الجـدار الأمامي للقفص الصدري ، ويصل حتى الضلع الرابع أو الخامس ....

وفي الممر صاح شخص بأعلى صوته : اعد السنوور ياجريجوري !

سليم الاسيوطى

الألم الخالد

دنا الليل واجتاحت فؤادي المشاعرُ وهزني الشوق القديم المساور
تراجعني الذكرى وجفنيَ مسهدٌ وتعرض لي الأحلام والطرف ساهر !
دعا في الصبا داعي الهوى فأجابه فؤادٌ غريرٌ مرهف الحسِّ حائرُ
ولست لما يجتاح نفسي بمنكرٍ وكيف يداوَى الحبُّ والحب قاهر !
تفجر قلبي أدمعاً ففضحتُه وكم يفضح الدمع الهوى ويجاهر !
سموتُ بروحي للعلا ، فسما بها غرامٌ نقي الأصل والفرع طاهر
ولولا الهوى لم يَذرف الورد دمعةً ولا مالت الأغصان أو ناح طائر
ولو لا الهوى ما أرسل الريح شجوه ورجعَ شادٍ أو ترنم شاعر !
لي الله ! ماذا أنت (يادهر) صانعٌ بقلبي ! وماذا خبأت لي المقادر !
أراني غريقاً في خضمٍّ شطوطه على أبعد الآفاق والموج ثائرُ
أرى مهجةً حيرى ونفساً حزينة وقلباً كسيراً حطمته الأعاصر
أهيم على وجهي النهار بطوله وتنتابني الأشجان والليل ماكر
رأى الدهر أني مطلق النفس حرُّها فقيدها بالحب والحب آسر !
شقيت بحبي دون أن أبلغ المنى أما لعذابي فيه يا رب آخر ؟ !
ويا ليتني أقضي فأبلغ راحةً وكأس الردى حتماً على الناس دائر
فكم من حياة أسعد الموتُ أهلها وكم من هموم بددتها المقابرُ
وأعلم أني بعد موتيَ في غدٍ لأهل الهوى ذكرٌ وان عزَّ ذاكر !

كلية العلوم
عفيفي محمود عفيفي

نظرة في شعر المنشئين

والعلماء

تنبيه على وهم وسوء حكم

جاء في الأقوال العربيـة المأثورة : « من أكثر من شيء عرف به » وهي نظرية أيد الاختبار صحتها وينبغي أن تتلوها هذه « ومن عُـرف بشيء فقد جانباً كبـيراً من حقه في شيء آخر يحسنه » وكلتا النظريتين تنطبقان انطباقاً عجيباً على المنشئين والعلماء في لغتنا العربية قديماً وحديثاً .

مما لا شك فيـه ان المنشئين الذين يقضون معظم أوقاتهم ويبذلون معظم جهودهم في تدبيج مقالات وخطب ومحاضرات ومباحث ومواعظ قلما يتفرغون لغير هـذا الميدان من السعي والعمل. وفي جملة الميادين التي يغفلونها ميدان الشعر، وان العلمـاء الذين يقفون هممهم وثمرات أذهانهم على التصنيف والتأليف والتحقيق والتدقيق والتدريس والارشاد قلمـا يلتفتون الى الشعر لقلة ما يبقى لديهم من فضلة وقت وفضلة جلـد على مزاولته . ولـكن ليس معنى ذلك — خلافاً لما يتوهمه العامة وفريق كبير من الخـاصة — انه ليس من شاعر مطبوع ملهم بين هؤلاء المنشئين وهؤلاء العلماء. فهو استنتاج مخطىء ملؤه المبالغة والشطط. فكثيراً ما يوجد بين هؤلاء الفضلاء من رجال القلم أولو شاعرية صحيحة مدهشة كما قد يوجد بينهم أصحاب مواهب سامية في سياسة أو ادارة أو صناعة أو تجارة أو نحو ذلك ولـكن ناحية الانشاء والتحقيق العلمي عنـدهم طغت على غيرها من النواحي فأصبح يظن الغافل الذي يتعجل الحـكم ويرضى به معتبطاً مطحيـاً ان سائر تلك النواحي معدومة فيهم . واما المنصف المتأمل فلا يجهل أن تلك النواحي عنـدهم ذات حيوية وكيان محسوس وان حجبتها ناحيتهم الواسع نطاقها في الانشاء والعالمية .

قد يكون هذا المنشىء أو هذا العالم شاعراً مجيداً في أوائل نشأته الادبية . ثم تخصص بالانشاء أو بتحقيقات علمية في ما لا يبعد عن الشعر والانشاء ولديه بذلك قواعد العربيـة وأحكامها وفنون بيانها وما يكتنف هذه الألوان من تعليـلات وتخريجات . فهل من المعقول أن يفقده طوره الجديد في صناعة العلم مزيته الأولى الأصليـة في الشعر ؟ هيهات هيهات .

ولكن من المعقول المنتظر حدوثه ان يزداد شعره متانةً ورونقاً وتتسع آفاقه في ذهنه بفضل ما أفضى اليه اجتهاده من غزارة عرفان وسداد رأي . ان شعره بانصراف قدمه الى ميدان جديد قد قلّ كثيراً في كميته ولكنه زاد قليلاً أو كثيراً في قيمته.

ان غرور المرء بنفسه قد يجد له سبيلاً الى كل فرد وكل جماعة على تفاوت في درجاته وتفاوت الطوارىء والعوامل من مكان وزمان وبيئة . ولكن حظ هذا الغرور من نفوس العلماء ونفوس المنشئين الفطناء، هو حظ ضئيل ضعيف الخطر بالنسبة الى حظه من نفوس غيرهم من البشر . لأن العلماء والمنشئين من حذقهم ونضوج مداركهم عاصماً لهم من الغرور والانخداع في أكثر أحوالهم ولا أقول فيها كلها . فان العصمة المطلقة هي لله وحده عز وجل . وبناءً على ذلك نرى في تاريخ أدبنا العربي ان جماعة من أولي العلم وأئمة الانشاء المنثور لم يتطلعوا الى الشعر ولم يفكروا في نظمه لأنهم لم يأنسوا من أنفسهم مقدرة عليه واضطلاعاً بجيده فعدلوا عنه ضنًّا بمقامهم ومكانتهم ولو غلبهم فيه الغرور لزاولوه وأتوا به متوسطاً وان انحط عن درجة التوسط كان على كل حال أقل رداءة وتفاهة من شعر جمهور عظيم مولعين بوصال الشعر وهو غير مولع بوصالهم ولا بان يلمح لهم وجهاً ... ومن الاعلام الأفاضل الذين تنكبوا طريق الشعر لشعورهم بابتعاد غرائزهم عنه الجاحظ وابن المقفع وسيبويه والكسائي والسيرافي والأشعري والقاضي الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والفارابي وإبن رشد وابو الفداء وأبو حنيفة ومالك بن أنس وابن حنبل وجمال الدين الافغاني وطاهر الجزائري والشيخ محمد عبده ويعقوب صروف وفارس نمر وجرجي زيدان واسماعيل عاصم وكثيرون غيرهم يتعذر احصاؤهم .

وهؤلاء أعلام من جهابذة القول أحسوا بأن لهم من الشاعرية نصيباً ولكنه نصيب صغير لا يلائم مكانتهم العلمية فنظموا منه شيئاً يسيراً على سبيل التجريب . ثم أمسكوا عنه . ومن هذه الفئة الخليل بن احمد الفراهيدي واضع علم العروض وعبد الملك الأصمعي العلامة الراوية المشهور .

* * *

وقد يتفق ان فاضلاً من أرباب الاقلام تتوق نفسه الى قول الشعر وهو يحس من نفسه ان ملكته فيه ضعيفة وانه عاجز عن نظم ساطع ناجع ولكنه يشتهي أن يشبع منه نهمته فينظم منه الشيء اليسير لأجل نفسه وارضاء نفسه فلا ينشره ولا يذيعه بين الناس ولكنه ينشده في خلواته متعللاً به وراضياً عنه غير نافر منه لأنه خير ترجمان لوجدانه على طريقة تروقه فيتذوقها وتشفي حزازة من صدره وان أنكره العلم والفن ، هذه الطريقة

وأمثال هذا الفاضل يعذرون ولا يقام عليهم النكير في ما يفعلون . وما أشبه الواحد منهم برجل يحب الغناء وهو ليس بذي صوت رخيم ولا يعرف من أصول الغناء وشروطه شيئاً يستحق الذكر. ولكنه يريد أن يطرب نفسه بنفسه ويتحسس مقدار ما لحنجرته من قوة وفن فلا يكاد يصل الى مكان مقفر أو فلاة واسعة تضمه على انفراد حتى يرفع عقيرته ويتغنى وينشد ويرتل رائماً متمتعاً بنوع يختص به من الطرب كيفما شاء وبقدر ما يشاء .

* * *

ولنعد الآن الى ما كنا فيه من حكم الناس غلطاً على ضعف شاعرية فلان أو فلان من الناس وهما من ذوي النصيب العظيم في الشعر. ولكن الناس نسوا منهما هذه المزية أو تناسوها لأن الرجلين أصبحا محشورين في زمرة العلماء والمنشئين . جاءني يوماً صديق له فطنة ونظرات دقيقة وليس هو من الأدباء ولكنه يتذوق الأدب ويرفع قدره وقدر أصحابه . قال لي ذلك الصديق :

— لا شك انك تعرف فلاناً .

— كل المعرفة ، ما شأنك معه؟ .

— اخبرني عن رأيك فيه .

— انه من الممتازين من رجال القلم في منثوره ومنظومه وخطابته ومؤلفاته النفيسة .

— اذن أنت على رأيي في انه شاعر فضلاً عن مقدرته العلمية وكتاباته الناصعة .

— نعم . لا شك عندي في انه شاعر لا من طبقة عالية وكفى ، بل من الطبقة العليا ومن أسهل الأمور اثبات رأيي بالاطلاع على ما شئت من نماذج شعره .

— ولكن حوالينا من ينكرون تفوقه في الشعر ويكتفون بالاعتراف له بمكانة عالمية في اللغة وأصولها وآدابها ونوادرها وشواردها .

فتبسم محدثي وقال : — وأزيدك علماً أن الناس لم يكونوا يحكمون له إلاّ بقوة الشاعرية وحدها وهو في أوائل نشأته ثم لما ظهرت مقدرته في كتابات مختلفة قال فيه بعضهم إنه كاتباً خير منه شاعراً. وقال آخرون إنه كاتب لا شاعر . ثم لما انصرف الرجل الى التصنيف والتحقيقات اللغوية والأدبية قالوا إنه أستاذ أو انه عالم وسلخوا عنه الشاعرية وكادوا يسلخون عنه أيضاً ما عهدوه فيه مراراً من مقدرة كتابية في الأخلاق والاجتماع والوطنية والادارة .

— هذا هو الواقع بعينه . فما الذي يدعوهم إلى هذه الأحكام المجحفة .

— الدواعي كثيرة تختلف باختلاف الأحوال. فهي الحسد عند هذا . والجهل عند ذاك .

ورعونة الطبع في سرعة عند ذلك ، وتقليد اللاحقين للسابقين في آرائهم عند فريق كبير .

— اليس من علاج لهذا الجور وهذا الخطأ ؟

— إن الحسني النية من هؤلاء المخطئين الجائرة أحكامهم، هم الذين لا يدفعهم حسد ولا كبرياء ولا عناد يسهل علاجهم وشفاؤهم لأول وهلة بحسن تنبيههم وباطلاعهم على انتقاد غيرهم لهم . وأمّا السيئو النية فداؤهم يرافقهم الى قبورهم .

***

وصلنا الآن الى ما يجدر بنا إيراده من نماذج الشعر الجيد لجماعة من المنشئين والعلماء تأييداً لما نحن في صدده من أن رجال هذا السلك فيهم شعراء مطبوعون كما ان فيهم من لم يحسنوا قول الشعر ، ولم يخطر لهم على بال . وقد أجلنا النظر فاستصوبنا أن نكتفي بذكر طائفة من هؤلاء الأعلام ورواية نتف من شعرهم مرتبة أسماؤهم ترتيباً تاريخيًّا .

***

(الشافعي) هو أحد الأئمة الأربعة المقدمين عند أهل السنة على سواهم أبو حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وابن حنبل. واسم الشافعي متمماً هو ابو عبد الله محمد بن ادريس العربي العدناني القرشي عرف بالشافعي نسبة الى جد جده . كان من عجائب الدهر في الذكاء والحفظ وقوة المعارضة . ولد في غزة وتوفي سنة ٢٠٤ هجرية . ومن تلاميذه الامام الرابع احمد بن حنبل . اشتهر الشافعي بالتقوى والنزاهة وعزة النفس . وقد أجاد نظم الشعر وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما حكم على الشعر بعدم النبل لا بحد ذاته بل بالنسبة الى كثيرين من الشعراء الذين لطخوا شعرهم بالاستجداء أو التزلف أو الهجاء المقذع والافتراء . ومن شعره قوله :

عليَّ ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهنَّ أكثرا
وفيهنَّ نفس لو تقاس بفضلها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وقوله في الاشارة الى تأثير الجد أي الحظ :

الجدُّ يدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
فاذا سمعت بأن مجدوداً حوى عوداً فأورق في يديه فصدق
واذا سمعت بأن محروماً أتى ماء ليشربه فغاض فحقق
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

وقوله : خذوا بدمي هذا الغزال فانه رماني بسهمي مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه انني أنا عبـده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

***

(ابن السكيت) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت . وقد لقب أبوه سكيتاً لـكثرة سكوته مع ما له من صلاح وتقوى وسعة علم . وقرأ ابنه عليه في أول أمره . واشتهر يعقوب بن السكيت بمعلوماته اللغوية وغزارة ما يرويه عن العرب والعلماء الذين تقدموه . ولد في دورق وهي بلدة صغيرة من أعمال خوزستان وتوفي سنة ٢٤٤ هجرية ومن شعره قوله :

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واستقرت وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهاً ولا أغنى بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منه غوث يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات اذا تناهت فموصول بها فرج قريب

***

(أبو الفرج الاصبهاني) هو أبو الفرج علي بن الحسين الاموي ولد بأصبهان ونشأ في بغداد وتوفي سنة ٣٥٦ هجرية . وكان من فحول الأدباء والمصنفين وخير مؤلفاته كتاب الأغاني الطائر الصيت وهو مؤلف ضخم يقع في واحد وعشرين جزءاً يروى له شعر حسن منه قوله مادحاً الوزير المهلبي .

ولما انتجعنا لائذين بظله أعان وما عنّى ومنّ وما منّا
وردنا عليه مقترين فراشنا وردنا نداه مجدبين فأذهنا

وكان بين الاصبهاني وبين القاضي أبي سعيد الحسن السيرافي منافسة وخصومة فهجاه الاصبهاني بقوله :

لست صدراً ولا قرأت على صد ر ولا علمك البكيُّ بشافِ
لعن الله كل نحو وشعر وعروض يجيء من سيرافِ

***

(الصابىء) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الحرّاني المعروف بالصابي لأنه كان صابئياً نسبة الى الصابئة الذين يعبدون الأجرام السماوية ويتزجون بها عبادة الحق سبحانه وتعالى . وفي العربية صبأ فلان عن دينه أي هجره وخرج منه فالصابىء معناه أيضاً الخارج عن دينه وهو غير المعنى المقصود باسم صاحب الترجمة . وقد ولد في حران وتوفي سنة ٣٨٤

هجرية . وكان يعد في الرعيل الأول من كبار المنشئين والبلغاء . وله شعر جيد وقد حاز حظوة عظيمة لدى متبوعه الوزير المهلبي. ولما توفي الوزير اعتقل عماله وفي جملتهم الصابىء ثم أطلق سبيله وأعيد الى عمله . وفي أثناء اعتقاله نظم قصيدة يستعطف بها رؤساءه . ومنها قوله :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم أوفت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول در عندكم منضود
ورسائلاً نفذت الى أطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد
أنا بين اخوان لنا قد أوثقوا بسلاسل وجوامع وقيود
وموكلين بنا نذل بعزهم فكأننا لهم عبيد عبيد
والله ما سمع الانام ولا رأوا نقداً توكل قبلها بأسود

* * *

(الصاحب بن عبَّاد) يعد من طبقة الصابىء في البلاغة ومحاسن الانشاء ولد في الطالقان من أعمال قزوين وتوفي سنة ٣٨٥ هجرية . وكان في الدولة السلجوقية وزيراً للسلطان مؤيد الدولة ثم لأخيه السلطان فخر الدولة . وكانت له حضرة عامرة برجال الشعر والعلم لا يقل شأنها عما عهد في مجالس أكابر الملوك والخلفاء. وقد اشتهر بالسخاء واسعاف الضعفاء وأولع بجيد الشعر وجمعه وروايه منتخبات منه . ولم يحرم شاعرية طيبة يستخدمها حيناً بعد حين . ومن شعره قوله :

رقَّ الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ وكأنه قدحٌ ولا خمر

وفي جملة الذين قصدوه أبو بكر الخوارزمي فأكرمه الصاحب ولاطفه وأنعم عليه بصلات سنية ، وبعد افتراقهما هجا الخوارزمي الصاحب وتنقصه فانقلبت مودة الصاحب له الى كراهية واشمئزاز . ولما توفي الخوارزمي قال فيه الصاحب :

سألت بريداً من خراسان آتياً أمات خوارزمكم قال نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الديان من كفر النعم

* * *

(ابن فارس) هو أبو الحسن احمد بن فارس الرازي نسبة شاذة الى الري المسماة في أيامنا الحاضرة طهران وهي عاصمة ايران . توفاه الله سنة ٣٧٧ هجرية قرأ عليه جماعة من

رجال البلاغة بينهم بديع الزمان الهمذاني والصاحب بن عباد . وكان على قلة ماله جواداً متلافاً وعلى أصله الفارسي مولعاً بحب العرب متعصباً لهم على غيرهم وهو معدود من علمائهم المبرزين وكلما أراد النظم كان شعره جيداً رشيقاً . ومنه قوله : وفيه اشارة واضحة الى كرم طبعه واتباعه مذهب التفاؤل وحسن الظن .

وقالوا كيف حالك قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج
اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي وسرور قلبي دفاتر لي ومعشوقي السراج

وأدبنا العربي فيه زوايا، وهاج نورها، مسكي عبيرها، تشتمل على هذه النفثات الطيبة في مبدإ التفاؤل وحسن الظن والحث على الجلد وسعة الصدر . ومنها الابيات التي رويناها آنفاً لابن السكيت ومطلعها:

اذا اشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب

فيجدر بنا ولا سيما ناشئتنا المدرسية ان نتنبه الى هذه الزواية الشعرية وتروي جانباً منها ونتخذها فلسفة عملية في معيشتنا وسيرتنا فتفند همومنا وتقوي عزائمنا .

ومن شعر ابن فارس مخاطباً الكسول المتهاون في طلب العلم موبخاً له متهكماً عليه :

اذا كان يؤذيك حر المصيف وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذك للعلم قل لي متى

وقال في صديق قاطعه ثم عاوده . وهذا القول أيضاً ينم عما ذكرناه من كرم طبعه ، ولا يتأتى نضج العقل إلاّ من وراء كرم الطبع :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أرَ خيراً منه عدت اليه

***

(عبد العزيز) وهذا أيضاً من طبقة الصاحب والصابىء . تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة من سلاطين آل بويه ثم تولى الوزارة مراراً بعد وفاته لدى أولاده واسمه أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف توفي سنة ٤٠٥ هجرية . ومما كتبه نظماً في مراسلاته الى الصاحب ابن عباد قوله :

سقى الله ذاك العهد عهداً من الحيا وتلك السجايا الغر غر السحائب
تذكرت أيامي بقربك والمنى تقابلني بالعز من كل جانب

وقد لحظت عيناي من شخصك العلى ومن فرعك الفينان أعلى المناسب
ففاضت على خدي سوابق عبرةٍ كما أسلمت عقداً أنامل كاعب
سلامٌ على تلك المكارم والعلى تحية خل عن جنابك غائب
يكابد ما لو كان بالسيف ما مضى وبالمزق لم تبلَّل لهاة لشارب
وما أنا بالناسي صنائعك التي كتبنَ عليَّ الرق ضربة لازب

***

(ابن سينا) هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين امام الأطباء في عصره مع تضلع من الادب والفلسفة . أصله من بخارى وقد طاف في كثير من الاقطار وتوفي سنة ٤٢٩ هجرية وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاباه الطبيان « القانون » و « الشفاء » وكلاهما ضخم يقع في عدَّة أجزاء . وقد اختصر الشفاء بكتاب آخر سماه « النجاة » ومن شعره قوله :

اجعل طعامك كل يوم مرةً واحذر طعاماً قبل هضم طعامِ
واحفظ منيَّك ما استطعت فانه ماءُ الحياة يراق في الأرحام

وله قصيدة في وصف النفس مما يتعلق بفلسفة ما وراء المادة . يقول فيها مستعملاً الاستعارات والتلميحات :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزز وتمنعِ
وصلت على كرهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
وأَلفتها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برقٌ تألق في الحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

* * *

(الثعالبي) هو ابن منصور عبد الملك الثعالبي نسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل له ذلك لأنه كان فرَّاء . ولد في نيسابور وتوفي سنة ٤٣٩ هجرية كان في زمانه زعيم علوم العربية وخير مؤلفاته « يتيمة الدهر » في ثلاثة أجزاء ذكر فيها أدباء العربية وسيرهم ونماذج من شعرهم . ومن شعره يمدح الأمير أبا الفضل الميكالي :

لك في المفاخر معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم يجمع
بحران : بحر في البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
وترسل الصابي يزين علوه خط ابن مقلة ذو المحل الأرفع

كالنور أو كالبحر أو كالدر أو ... كالوشي في برد عليه موشّع

* * *

(ابن التلميذ) هو أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن ابراهيم بن التلميذ الطبيب النصراني اشتهر بسعة علمه وسخاء كفه ومكارم أخلاقه فوق خدمته في الطب وكان رئيساً لأطباء بغداد توفي سنة ٥٦١ هجرية . وله شعر قليل وكله جيد ومنه قوله :

العلم للرجل اللبيب زيادة ... ونقيصة للأحمق الطيّاش
مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نوراً ويعشي أعين الخفاش

وقوله في وجوب التواضع ، وكان على رفعة مقامه متواضعاً بغير تكلف :

اذا كنتَ محموداً فإنك مرمد ... عيون الورى فأكحلهمُ بالتواضع

* * *

(ابن جُبير) : هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الرحالة الشهير . ولد في بلنسية من أعمال الأندلس وتوفي سنة ٦١٤ هجرية وله كتاب رحلة مشهور واسمه رحلة ابن جبير . وكان عظيم المروءة والهمة يجد لذة في نفع الناس وقضاء حاجات من يقصدونه وفي ذلك يقول :

يحسب الناس بأني متعَب ... في الشفاعات وتكليف الورى
والذي يتعبهم من ذاك لي ... راحة في غيرها لن أفكرا

ويحكى عنه أنه لما دخل بغداد اقتطع غصناً نضيراً من أحد بساتينها فذوى فقال فيه :

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا ... ما فارق الأصل ذوى

وقال منددا بضعف تدين جماعة يدّعون الفلسفة :

يا وحشة الاسلام من فرقة ... شاغلة أنفسها بالسّفه
قد نبذت دين الهدى خلفها ... وادعت الحكمة والفلسفه

* * *

(أبو بكر بن زهر) : أشهر أبناء زهر وهم من أطباء الأندلس . ولد ونشأ في اشبيلية وامتاز في طبه وعلمه . وكان له حسّاد يشون به عند رؤسائه فلما لم ينالوا منه منالاً قتلوه غدراً بسم دسوه في طعام له . وكانت وفاته سنة ٥٩٦ هجرية . ومن شعره قوله يتشوق الى ولده :

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغيرٌ تخلف قلبي لديه

نأت عنه داري فيا وحشتي   لذاك الشخيص وذاك الوجيه
وقد تعب الشوق ما بيننا   فمنه اليَّ ومني إليه

ونظر يوماً في مرآة وهو في أواخر عمره فرأى آثار الكبرة على وجهه فأنشد : —

اني نظرت الى المرآة اذ جُليت   فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه   وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا   متى ترحل من هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت   قدكان ذاك وهذا بعدذاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخيَّ وقد   صارت سليمى تنادي اليوم ياأبتا

* * *

هؤلاء جماعة من علماء العربية ومنشئيها الذين تثبت لنا منظوماتهم انهم فضلاً عما عرفوا به من ناصع منثورهم ونفائس مباحثهم ومؤلفاتهم لا يحرمون نصيباً حسناً من الشاعرية فبعضهم يحسبون من شعراء الطبقة الأولى وبعضهم الآخر يحسبون من الطبقة الثانيـة . ولو أردنا ان نضم الى هؤلاء الأعلام عشرة أضعافهم عدداً لأمكننا ذلك بغير مشقة عظيمة ولا تفتيش طويل . ولكننا لا نرى وجهاً لهذه الافاضة ونحن الساعة ننشىء مقالة لا نصنف كتاباً .

ومما يجدر بنا الاشارة اليه في هذا المقال ان بعض المدققين من أعيان الأدباء زعموا زعماً لا يخلو من صواب وحسن ذوق في بعض أحواله ومن مبالغة واستبداد حكم في بعضها الآخر . ولا يعسر على المتوسط العلم والفهم ان يميز بين الحالتين . زعموا ان بعض المفردات والمركبات التي هي فصيحة بحد ذاتها لا يليق استعمالها في الشعر حتى سموها ألفاظاً غير شعرية ومعظم هذه الألفاظ ينحصر في عبارات اصطلاحية فنية لعلم أو فن أو صناعة أو سلك سياسي او سلك اداري. والصحيح أن هذه الألفاظ يقبح وقعها اذا استعملها الشاعر مراراً في المنظومة الواحدة أو اذا استعملها ولو مرة واحدة ولكن في غير سياق يمهد السبيل إليها ويجهز المعد لهضمها وتمثيلها فاذا روعي هذا الشرط فلا بأس من التعريج عليها.

ذكروا أن شاعراً روى جليسه قصيدة أمامه فلما سمع مطلعها وهو :

لم أدر حين مررتُ بالأطلال   ما الفرق بين جديدها والبالي

صاح هذا شعر رجل فقيه . فقال له محدثه : نعم فالقصيدة هي نظم فلان فكيف عرفته. قال : كشفته في عبارته · ما الفرق . فهي كثيرة الدوران على ألسنة الفقهاء، وقلما تجري على لسان شاعر .

ولـكن هـذه الدهشة الموحشة يزول موضعها — فقد لم نقل هذا الاستنكار يزول بوصفه — حين يكون البيت قد سبق بجملته الى ناحية فنية فيصلح له لفظ فني ولو لم يكن من الألفاظ الشعرية . ومن ذلك ما قلتـه في مطلع قصيدة لي عنوانها « على مدخل الخمسين من العمر » .

حساب الليالي الجاريات اقتضى منّا · رصيداً وهـذا الشيب ينقله عنّا

فان الحساب الجاري لليالي ورصيد الحساب ونقل الرصيد كل ذلك ألفاظ تجارية لا شأن فيها للشعر ولـكن موقعها في هذا البيت لم يقبح لأنه سبق بجملته إليها فأعدت الأذهان والأذواق لقبوله : والطريق التي سلـكها هنا هي ما يسـميه البيانيون استعارة تمثيلية وما يسميه البديعيون مراعاة نظير .

ومن الألفاظ التي هي غير شعرية ولم نألفها إلا في مباحث الـكتاب لفظة « جدّا » ولفظة « أيضاً » ولـكني رأيت بعض الشعراء استعملوها في سـياق موافق لهما فجاءتا مستعذبتين. قال المقنع الـكندي أحد شعراء الجاهلية :

وإن الذي بيني وبين بني أبي · وبين بني عمي لمختـلف جـدّا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم · وإن هم هَوَوا غيي هويت لهم رشدا

وقال غيره من الشعراء المولدين :

ولما دنت والستر مرخي ودونها · غيارى غدت تغلي صدورهم حقدا
تقدمت أبغي أن أبيع بنظرة · إلى وجهها روحي لقد رخصت جدّا

هذا الذي أتذكره من حسن استعمال « جدّا » ورسوخها في موضعها . والذي اتذكره من حسن استعمال «أيضاً قول بعضهم وأظنه القاضي ناصح الدين الارجاني :

رأتني وقد نال مني النحول · وفاضت دموعي على الخد فيضا
فقالت بعيني هذا السقام · فقلت صدقت وبالخصر أيضا

ومحصل القول ان الحـكم العقلي والشواهد العيانية تؤيدان اجتماع الـكاتبية والشاعرية في قلم واحد لا يعد امراً مستغرباً ولا نادراً فالصناعتان مزجهما عنصر واحد ولهما أغراض متقاربة ووسائل متشابهة فليس الـكاتب حارس غابة مثلاً والشاعر نوتي مركب لـكيلا يتسنى للواحد منهما تأدية العملين معاً .

اللاذقية (سورية) · ادوار مرقص

موج البحر

سلوا وثبات الموج: هل رُوِّع الموج ... فأسرع نحو الشط، أم جاءه يرجو؟
أم استاء من «عُرْيِ الغواني» أمامه ... فأقبل يبدي الاستياء ويحتجُّ؟
أم الحج مكتوب على الموج مثلنا ... وزورته للشط يُقضَى بها الحجُّ؟
أم البحر سجنٌ ملّه الموج فارتمى ... على الشط، وثّاباً يحاول أن ينجو؟
أم «الحوت» قد أفضى بأسرار «يونس» ... فأقبل يفشيها إلى الشاطئ الموج؟
أم الموج – لمّا لم يجد «عرش ربه» ... على الماء – وافى الشطَّ يبكي ويرتجُّ؟
أم الموج ظنَّ الشط صدراً فأمّه ... كفوج من الآمال يتبعه فوج؟
ألا أيهذا الموج ما ذلك الذي ... وثبت له؟ وضِّح: فكلٌّ له نهج
إذا كنت يابن البحر تطلب منفذاً ... إلى البر فاعلمْ أن نهجك معوَجُّ
سلكنا فجاج الأرض قبلك بالمُنى ... فضقنا بفج ثم ضاق بنا فج
وفي الأرض ما فيها، فلا تمتزج بها ... فكم خالص يا موج قد ساءه المزج
وإن كنت ترجو في السموات منزلاً ... يقيك فلا الراجي يُوَقّى، ولا المرجو
سواءٌ على الأيام: مَن هو في الثرى ... ومَن جارُه نجمٌ، ومنزله برج

شاعر البرارى

نظرات في النفس والحياة

لاروشفوكولد — ليوباردي — شوبنهور

— ١ —

ان علم النفس من العلوم الحديثة ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها ومخبآتها أمرٌ قديم عالجه الشعراء والكتّاب في كل قوم ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التي بلغها سيجموندفرود وأمثاله وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص في الصراحة. ولا نظن أن أديباً أو مفكراً أعفى النفس الإنسانية من تطلعه الى غرائب أمورها أو الأمور المألوفة التي هي في منزلة الغرائب لانزوائها في ظلمات النسيان كلما رأت النفس في ذلك النسيان مأرباً لها. ولكن نفعها بتذكيرها علم وفهم. ولعلّ بعض ذوي الفهم والذكانة، يرى في فهم النفس، نزعاتها وخواطرها، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها وربما غالوا في أثر الفهم في العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطائف الفهم في لطافة الحس والنفس ورقتهما. ولكن مما لاريب فيه أنّ جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحاني وهو مصدر شر في ذاته بما يؤدى إليه من بلادة الطبع والامعان في قسوته والاسترسال في حمقه. ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس — على سبيل التفكير والتأمل لا على طريقة القصص في التصوير — لاروشفوكولد النبيل الفرنسي وليو باردي النبيل الإيطالي وشوبنهور الفيلسوف الألماني ولكل منهم نظرات صائبة وكانت في حياة كل منهم عوامل أدت الى التفكير في النفس والصراحة في القول والى الالمام بمكنونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات. فقد سخط الأول على حكومة أمته وضرب بسهم في حرب الفروند وجرح في حصار باريس ونفي الى الريف. فكان عائشاً بين المؤتمرين، وخالط أناساً من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه ولعلّ نفيه الى الريف أعطاه فرصة وفراغاً كي يعيد على فكره ما وعاه من طبائع الناس في حياته العملية وما وصل الى علمه من حيَل رجال القصر الملكي ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم وحبهن وبغضهن وكل ذلك كان مادةً يستمد منها نظراته. أمَّا الثاني وهو

ليوباردي فقد كان معاصراً لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سناً وكان من أسرة نبيلة فقيرة . وقد أنهك نفسه وجنى على صحته بالاسراف في القراءة والاطلاع حتى صار يعد حجة في الأدب على حداثة سنه. وقد سمح له أبوه بعد تمنع شديد وتأبٍ كثير أن يرحل الى المدن الايطالية الكبيرة وأن يعاشر الناس ولم تكن ايطاليا قد وحّدت بعد بل كانت تتحكم في دويلاتها حكومات رجعية تشجع التجسس والدسائس والتلفيق فبدا له ما يبدو للرجل المفرط في الفطانة من طبائع الناس لأنه درس نفوس الناس في كتب الأدب حتى اعتلّ وصار لا يستطيع لاعتلاله أن يجاريهم ، ولا أن يماشيهم لأنه لم يتعوَّد من صغره أن يألف تلك الطبائع كي يهوّن عليه بعض المكروه منها اذ أنه كان كالمحجوز في بيت أبيه. وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التي تغالط فيها .

وامّا شوبنهور فقد رحل أجداده من هولانده الى المانيا وصاروا من أهلها وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجراً مثله وأرسله في رحلة الى فرنسا ثم الى انجلترة. وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين في حياتهم الاجتماعية ومغالاة الانجليز في ذلك الزمن في مراعاة العرف والتقاليد. ولعلَّ هذه المقارنة هيأت للفتى دراسة طبائع النفوس في حالي تبذلها واحتشامها. وقد ورث عن أبيه حدَّة في الطبع كما ورث عن أمه الميل الى دراسة النفوس اذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة . وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها وقد شجعه جوته كبير شعراء وأدباء الالمان كما شجعه فاجنر الموسيقي وغيرهما. وكان غزير الاطلاع لم يكتف بالآداب الأوربية بل درس الفلسفة الشرقية ولا سيما الهندية كما درس عقائد الهنود . وكان لا يحجم عن البحث في دخائل نفسه كما يبحث دخائل نفوس الناس . وفيما يلي بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها .

من نظرات لاروشفوكولد

(١) بعض الناس اذا مات كان احساس الناس بافتقاده أعظم من احساسهم بالحزن عليه ، وبعضهم اذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من احساسهم بافتقاده. ويريد افتقاده للانتفاع به . والحزن على هالك لا يكون على قدر الانتفاع به بل على قدر الائتناس به والراحة في مخالطته. وفي هذا الباب استثناء ولا كالاستثناء . مثل ذلك حزن من لا عائل له غير المفقود ومن انقطعت عنه الاسباب والحيل ووسائل كسب الرزق ، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزناً على أنفسهم لا على المفقود إلاّ اذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أساليبه في الحياة .

(٢) أكثر الناس لهم فضائل خفيــة لا تظهر الا بالتجربة وفي حالات مرتبة لتلك الفضائل فهم مثل الأعشاب الطبيــة التي تظهر فضائل طبها بالتجربة وفي حالات خاصة — وهذا صحيح، ويجوز أن يقال في كل إنسان فإنك قد تعرف إنساناً لاخير فيه ولا فضل له فاذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلج في انكاره لأنه لا يتفق وما تعرف من طباعه التي جبل عليهـا وما ذلك الانكار إلا لأن المفـكر ينسى أن النفس الانسانية مستقر كل فضل وان غاب، وقرارة كل نقص وان رسب، وانما يلبيها من هذا وذاك في أكثر الأحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله .

(٣) قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها كما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الـكثير منها أو كما قد يفخر مـوَاقع الشهوات بقدرته عليها وبما ظفر منها، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذي يدفع الشر بشر أعظم . وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلا الحسود فانه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد فاذا افتخر حمل ما ظهر منه على سبب آخر غير الحسد فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ .

(٤) الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدَّين الذي تدفعه كي تعود فتستدين فتجد من يقرضك. وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضاً واجب الأداء وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر . وهذا من السخر الـكثير الذي تجده في نظرات هذا المفكر . ولك ان ترفض هذا الرأي في حالات. ولـكن ينبغي لك الاعتراف بأنه يصدق في أكثر الناس لأن النفس طبعت على الأثرة وهي تتخلى عن أثرتها اذا تخلت ، لأنها تجد أو تأمل ان تجد مسرة ونفعاً والمسرة نفع أيضاً . ولعله يعني أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل إذ ان بعض الناس قد يعترف بجميل لم يُصْنَع معه رغبة في الحث عليه واستعجاله وتَـصَيُّداً لأوجه الخير من الناس

(٥) بعض فضل أهل الفضــل ممجوج ثقيل كما ان عيوب بعض النـاس ونقائصهم قد تستملح وتستلطف فتغتفر وما ذلك إلا لأن ظاهر المرء مفضّل لدى النـاس على حقيقتـه وأسلوبه في ملاطفتهم ومعاشرتهم مُـقَـدَّم على فضله .

(٦) لولا مخادعة الناس بعضهم بعضاً ما استطاع الناس ان يعاشر بعضهم بعضاً . وهذا صحيـح . ومن أجل ذلك قد يكره النـاس من لا ينخدع لهم ببلاهة أو يدعي الانخداع في أمور كثيرة . هذا إلا اذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة فيرون انه لا فضل له في ذلك الانخداع وإنه خليق بالهزء والاحتقار.

(٧) بعض الناس لا تظهر مهارتهم ولا يظهر فضلهم إلا إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق وإلا إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بأناقة محبوبة تـخـفي ـن

مطالبهم بما هو فوق ذلك . ومن أجل صحة هذا الرأي قد تتعجب لنجاح أناس في الحياة نجاحاً لا يتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون . أما قول النـاس إن الخيبة في الأمر العظيم أعظم من النجاح في الأمر الهين، فقد يكون صحيحاً مشجعاً على محاولة عظائم الأمور ولـكن أكثر الناس يهمهم النجاح في الحياة ولا يستطيعون ان يسيغوا الخيبة .

(٨) قد يفعل الناس الخير. رغبة في التستر وراءه كي يعملوا الشر آمنين. فليس عملهم الخير في هذه الحالات من حبهم للخير . وهذا سخر لاذع ولـكنه حقيقة مشهودة .

(٩) الكسل والـكبر يحملان أكثر النـاس على الميل الى اعتقاد النقص في غيرهم من غير بحث أو دليل — وهناك أسباب أخرى لهذا الميل منها ان النـاس ترى إن ماينقص من قدر غيرهم يزيد في قدرهم . ومنها معرفتهم ان النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها ، وبين الاحتمال والحقيقةوبين الجواز والوقوع خطوة في نظرهم لا تكلفهم تعباً ولا نصباً . ومن الأسباب أيضاً إن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل الى حيوان أو جماد إذا لم يكن انساناً وكانت لهـذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين وقد وصفها سيجموند فرود في كتـاب الطوطم والطابو أو المقدّس والمحرّم .

(١٠) إذا اعترف انسان بخطئه فكثيراً ما يكون ذلك رغبة في إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل اعجاب النـاس لا حبـًّا للصواب واقتناعاً به أو قد تقنعـه المنفعة المرجوة . وإلاَّ بقي على عماه لا يدرك وجه الخطأ ولا يستطيع أن يقنعه دليل منطقي . ومما يسهل هـذه الغفلة عن الخطأ النفسي ان النفس كما قال سيجموند فرود في كتـاب العلل النفسية في الحياة اليومية تستطيع ان تنسى ما ترى نسيانه من أمرها زيناً، فاذا لم يكن سبيل الى ذلك النسـيان ورأت في الاعتراف بالخطأ فضلاً وتفعاً لدى الناس وإعجاباً ، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة .

(١١) بعض العظماء ليس من المُسـتَـطاع الاعجاب بعظمتهم إلاَّ على بعد كالصور الفنية قد لا يستطاع ادراك جمالهـا الفني إلاَّ إذا ابتعدت عنها . وهـذا تشبيه بديع لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلهـا قد تعوق عن إدراك القـدرة الفنية التي بها استطاع الراسم رسمها . ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية. فانك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء فاذا نزلت الى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وما هو أشد على النفس من ذلك . والظاهر ان مؤلفي كتب سـير العظماء والمشهورين في هذا العصر يخالفون هـذا الرأي ويرون انه يسـتعصى إدراك عمل العظيم وتمام فهمه إلاَّ إذا عرض في مباذله أو نقائصه عرضاً تامـًّا . فهم يحاولون الوصول الى أعماق

نفسه ووعيه الباطن . متناسين وصف سيجموند فرود الوعي الباطن ولعلّ في عملهم هذا أيضاً شيئاً من الحسد والانتقام من غير ان يشعروا به كحسد القبائل البدائية التي في كتاب الطوطم والطابو والأقوام الذين كانوا في محفل تقديس ملكهم الجديد يربأون به ان يمسّ بأيديهم لأنه مقدس فكانوا يمسونه بأطراف قضبان . لكن هذا المسّ المقدس كان يتحول من غير ان يفطنوا الى ضرب قد يؤدي بحياة الملك حسداً له على منزلته وما بلغ من جلالة المُلْك . ومن نظرات ليوبادي ما يلي :

(١) المخادع الماهر هو الذي لا يظن ان كل الناس يسهل خداعهم على كل حال بل يعرف ان من النـاس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره . اما المخادع غير اللبق فإنه يستسهل خداع الناس فلا يتخذ أهبته لاتقان الخداع . ومن أجل ذلك كثيراً مايكون المخادع مخدوعاً . وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الابله مضحكاً وخداع الساذج مكشوفاً لجميع الناس الا لصاحبه فهو وحده المخدوع به . على أن للمسألة وجهاً آخر وهو ان نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب ، بل على رغبة الناس في أن ينخدعوا . وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة فالغرور قد يؤدي بصاحبه الى احتقار كفاية المخادع فلا يراه ينهض له بخداع متقن . واعتقاد الصدق وسلامة النية في المخادع قد يعمي عن خداعه . والرغبة في الائتناس بالمخادع قد تسهل له اتقان خداعه . والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر الحاذر منه . ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه وقد يخيب الذكي اللبق في خداع من هو أقل منه فطنة

(٢) كثير من الناس يسيئون اليك ثم يأبون أن تقابل الاساءة بمثلها . وهذا شائع حتى أن بعضهم ينسى اساءته اليك ويرى من اللؤم أن تتذكرها ومن النذالة أن تتألم بسببها ومن الحقد أن لا تقبلها بصدر رحب . فاذا لم تفعل عد المسيء نفسه مساءً اليه وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطاتهم في أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون

(٣) بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف. وذلك لأنهم لم يقابلهم في حياتهم ما يضطرهم الى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم ولكنهم لو أحرجوا وأحوجوا الى ذلك التخلي لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد والأوماء في لؤمهم. فهؤلاء نبلاء النفوس. لأنهم ليسوا في حاجة لأن يكونوا لؤماء وهذا الرأي يذكرنا قول البحتري :

إذا أحرجتَ ذا كرم تخطى اليك ببعض أخلاق اللئام

(٤) عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه وإذا منعته من شيء : « آه . ماما الآن

تحب الخبث والعناد . أو ماما مولعة بالشر » ولو فطن الناس الى أحكامهم التي يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل فاذا مَدَحَنَا انسان واسترضانا وكنا نعده قبل ذلك وغداً، عدنا نقول أنه ليس بوغد الى الحد الذي كنا نظن أو انه عرف الحق فرجع اليه والرجوع الى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة . الى آخر ما يكون من أمثال ذلك

(٥) ان صاحب النقص لا يكون خليقاً بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم في ذلك إلاّ إذا بالغ في تكلف ضده ، كالشيخ الذي يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم . أو كالفقير الذي يحاكي الأغنياء أو كالجاهل الذي يظهر بمظهر العالم المتكلم أو كالريفي الذي يحاول أن يقنع مجالسه انه متقن عادات أهل الحضر وانه منهم حذوك النعل بالنعل . وهذا يصدق أيضاً في تكلف اخفاء العيوب الجثمانية بما لا يخفيها بل يزيدها وضوحاً وينم عنها

(٦) كثير من النـاس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخـير من غير كلفة أو مؤونة . ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لانسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو هيئاً من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المؤونة فيكتفي بشكرهم ويمدحهم لدى الناس وان يذيع انهم من أهل الخير . فاذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول ، تغير لونهم وتلجلجوا في الحديث وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث ، وانما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس الى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها وانما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة . ان ذلك سعى إلى خير وهذا إلى طعام

(٧) من الغريب انه في أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذي يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة فتراهم يضحكون ويقولون فلان رجل طيب — على نياته — وهم يريدون انه أبله — أليس هذا مما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير وسلامة النية أدلة على البله وان عكس ذلك دليل على الفطنة فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لا يشعرون .

(٨) أفراد الناس في الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة في الـكون : كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل في الذرات البعيدة وهذه تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل فاذا بطلت مقاومـة ذرة في مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية الى ذلك المـكان فتسحق الذرة التي بطلت مقاومتها وتحل غيرها مكانها وهكذا الناس في الحياة .

(٩) ان من عاشر الناس واشترك في حوادث حياتهم كثيراً ما يرى فيها ما لو كتب قصة عده القارىء مبالغة من نسج الخيال الجامح وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم، ولذلك قيل ان الحياة قد تكون أغرب من الخيال وقارىء تلك القصة قد يعدها نابية عن أصول الفن الذي يرخص في الخيال المهذب القريب من المعقول ويقول انها تعدت الخيال القريب المعقول وما هي إلاّ قطعة من الحياة. وهذا يدل على ان تناقض اخلاق النفس أكثر في الواقع مما نظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث وهو سمرست موام ان مهارة القصصي في تقليم الحقيقة وتنسيقها ونفي المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفاً يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة ويفسر اجتماعهما ويلطف من حالات النفوس وخفاياتها غير المألوفة. ومن نظرات شوبنهور ما يلي :

(١) كثيراً ما ينطق الانسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها. ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزء والسخر. وهذا صحيح لأن الانسان بطبعه حيوان معجبٌ بنفسه. ولكنه قد يكون مغرماً بالظهور بين الناس — وهذا نوع آخر من الاعجاب بالنفس — فيؤدي به حب الظهور الى أن يجعل نفسه أضحوكة، إذا لم يجد سبيلاً آخر الى الظهور.

(٢) قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر، لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا اهانة فيها ولا إستعلاء إنسان على إنسان. أما الظلم أو الاهانة فانها دليل على ظهور إنسان على إنسان باللسان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتُشْعِر بالمذلة والنقص وتدعو الى التفكير في الانتقام وتزيد حقيقة الاهانة والظلم في الذهن حتى لا تطاق. وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف أضعاف ما في ذلك الظلم أو الاهانة من المضرة. وقد يؤدي انتقامه الى ضياع حياته وهو يردد قول شمشون (عليَّ وعلى أعدائي يا رب) ثم هو قد لا يلتذ الانتقام وان فاز به بل قد يجد له مرارة وحسرة.

(٣) كثيراً ما يكون تجسس إنسان على انسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم. فهو قد يحسد إذ يعتقد ان انساناً نال من أطايب الحياة وملذاتها أو ما يعده المتجسس ملذات وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله في خلواته وجلواته وكثيراً ما تكون الضجة التي يدعي فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

(٤) في بعض الأحايين نود ان يحدث أمر ونود ان لا يحدث وأن لا يكون فتجتمع

في النفس رغبتان متناقضتان في وقت واحد ، فمثلاً اذا كان لا بدّ ان نؤدي اختباراً في أمر من أمور الحياة كي نصير ظافرين مسرورين فان الرغبة في الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا ان نود لو تأخر موعد الاختبار فاذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف. فسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن، وأسف لتأخر ميعاد النجاح والفوز بما نريد. وكثيراً ما يتوهم الناس ان اجتماع الضدين في النفس في وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك وقد فسر سيجموند فرود هذه الأحاسيس الثنائية المزدوجة في كتاب الطوطم والطابو أي المقدّس والمحرّم ، ووصفها عند الأقوام البدائيين .

(٥) لا يستطيع الانسان ان يعرف مقدار ما في نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب إلاّ إذا أتيحت له فرصة لاختبار نفسه. وقد تظهر في بعض النفوس قوًى كانت كامنة وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفية إذا ظهرت وإنما مثل الانسان أمام نفسه مثل الناظر الى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج، فلا يستطيع الرائي ان يدرس عظم أمواجها التي تحاول أن تهشم الصخور وذلك اذا هبت عليها الأعاصير . وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجالدتها ومناهضتها وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدي شجاعة في الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعب حنجرته من وصف شجاعته . فاذا اختبرته الخطوب والمصائب ذلّ وضعف .

(٦) في أكثر لغات العالم اصطلح الناس على ان الصفات الشائعة بينهم صفات احتقار فيقولون هذا أمرٌ شائع وعمومي ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف . ويقولون فلان من العامة ومن الدهماء الى آخر ما هنالك من المترادفات . وهذا الاصطلاح في اللغات دليل واعتراف على ان الفضل غير شائع بينهم، بل يشذ به الآحاد وإنهم إنما يشتركون في النقص .

(٧) بُعْدُ مكان الشيء يصغّر من حجمه ويخفي معايبه . وهذا مثل العدسة التي تصغّر أحجام الأشياء . إمّا العدسة التي تكبّر الاحجام فانها تكبّر ما خفي من العيوب . وماضي الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته . أمّا الزمن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية . لأن الشيء الصغير يبدو كبيراً اذا كان قريباً حتى أنه قد يحجب عن النظر ما هو أكبر منه حجماً وأبعد مكاناً . ومن أجل ذلك تبدو

متاعب الحياة اليومية طاقة عظيمة خطيرة فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة إلى أعظم حدٍّ ودرجة . ولكن اذا حملها الزّمن في تيّاره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وشقت عليه .

(٨) الإنسان يَتَّبِعُ ما دُرِّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه . وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة في شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها . فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً والسطو على المنازل للسرقة ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة. فاذا اتهمت أحدهم بالسرقة شقّ عليه ذلك مع أنه قد يغش المشتري في الثمن أو صنف البضاعة فيكون سارقاً من غير شك . ولكنه لا يعد نفسه سارقاً بل يرى أنه منزه عن السرقة . وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم في أحوال الحياة المختلفة . وشبيهٌ بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور وكذلك الجبن .

(٩) الأمل هو تحول الرغبة في حدوث شيء الى توقع حدوثه حتى لقد يكون التوقع قريباً منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة في الآلاف أو في مئات الآلاف كما في توقع الكسب من أوراق اليانصيب .

(١٠) قد نرى أشجاراً على بعد فنعجب لجمالها فاذا اقتربنا منها وجدناها شيئاً مألوفاً لا كما صوّرت لنا . وهذا مثل سعادة أكثر الناس فانا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها فاذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها او أكثر بهجتها لما في حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات فان السعداء غير معفون من هذه الأمور بل يشاركون الناس فيها .

(١١) من أسباب خطئنا في الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة . فمثلاً نرى الكرم : فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل وننسى أنها قد تجتمع وقد لا تجتمع، ونرى الكذب : فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة وقد لا تجتمع .

ع . ش

حرب البكتريا

«وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم مالا تعلمون».

وهكذا شاء الله ولا رادَّ لمشيئته — فخلق الخليفة آدم ثم رزقه ذرية منها . هابيل وقابيل تخاصم الأخوان وكانا رمزين للخير والشر . فقال الخير « لئن بسطت اليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك اني أخاف الله » بغى الشر على الخير فقتله . « فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه». « فقال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي . فأصبح من النادمين » .

هذه قصتنا في بدء الخليقة لا تزال تمثل على مسرح الحياة المرّة بعد المرّة وسوف يستمر تمثيلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وكلما أنبت الزمان قناة ركب المرء للقناة سنانا

اصلاح وتعمير يتلوه تقتيل وتخريب . وهكذا دواليك . فلا سلام دائم ولا حرب واقفة ذلك لأن هذه التقلبات نتيجة مؤثرات خارجية واستعداد داخلي . ألا ترى كيف تنصبغ الفراشة بلون الزهرة التي تتغذى منها . وكيف تتغير الضفدعة بتغير المحيط التي تعيش فيه فهي في بدئها سمكة في ماء وفي كبرها دابة على يابس . وهكذا الانسان يتقلب بتقلب الأجواء المحيطة به،فكما ان الجو يكون ممطراً أو صحواً والرياح راكدة أو عاصفة كذلك الانسان تارةً في يسر وسلام وتارةً في ضنك وحرب شعواء . وما الحروب الدينية والسياسية والعنصرية والتجارية إلاّ نزاع بين متناقضين لا يلبث أن يتغلب فيها الأصلح مهما ظهرت الرذيلة بمظهر الظافر المنتصر . فالبقاء للأصلح .

اذا تتبعنا تاريخ الحروب منذ أقدم العصور نجد أولاً ان قدماء المصريين بعد ما ابتكروا

الحراب والهراوات والأقواس والسهام ضموا الجهود الفردي فكونوا الفرق المقاتلة وأمروا على كل فرقة قائداً . فعل أجدادنا ذلك قصد تركيز القوة . فإذا سددوها ناحية خاصة كانت أشد تدميراً وأكثر تقتيلاً . ثم أتى الهيكسوس فابتكروا العجلات الحربية ثم استبدل الانسان الجياد فكوّن فرق الفرسان . وهكذا تفنن الانسان في وسائل التقتيل . وقتل الانسان ما أكفره .

ثم اكتشف الانسان البارود والديناميت وصنع القنابل والبنادق والمدافع ثم ابتكر الصواريخ ثم قذائف الطائرات ثم القذائف الطائرة . ثم أخرج القنابل الذرية فالاشعاعية مما جعل الغازات الخانقة أمراً حقيراً . ولا يبعد اذا كتب لهذا الكون ان يرى حرباً عالمية ثالثة ان يبقى على قيد الحياة إلاّ النفر القليل .

وعلّم الله آدم الأسماء كلها . وزوّده بعينين براقتين وعقل سليم . فرأى ان الأهوال السابقة قد لا تكفي للابادة ففكر وقدر فقُتل كيف قدّر ثم عبس وبسر فرأى الطاعون وقد فتك بجيش نابليون عند عكا فكان عليه قضاء مبرماً . ثم شاهد الذباب وهو ينشر التيفود بين الانكليز في حرب البوير حتى فاقت ضحاياه ضحايا أسلحة الحرب مجتمعة . فافتكر في حرب البكتريا لتوجيهها الى المرافق الاقتصادية العامة قصد شل الانتاج الحربي .

والبكتريا كما نعلم كائنات دنيئة لا تراها العين المجردة لكنها أهم وسيلة لقتل الأحياء من انسان وحيوان ونبات . وأغلب حالات الشيخوخة والاصابات العارضة إنما تنتهي بالوفاة نتيجة للاصابة بالبكتريا في شكل مضاعفات . لكن هذه البكتريا لا تعمل عملها كاملاً إلاّ إذا توفرت لها الشروط المطلوبة لكل نوع وإلاّ خمد نشاطها وانعدم تناسلها وقلّ خطرها .

والعصور الوسطى بأوربا حافلة بحوادث اتهم فيها أبرياء بنشر الطاعون الدملي بين الأهالي عمداً بتلويث مياه الشرب بالآبار . وقد أعدم الكثير بعد اعترافهم بجرمهم على الرغم من أنّ الطاعون الدّملي لا يمكن أن ينتقل بطريق مياه الشرب أبداً بل لابد من انتقاله بواسطة برغوث الفار فمن المستحيل إذن أن يكون هناك أساس لهذا الاتهام ولكن لكل عصور محاكم وآراء ...

أمّا في أفريقيا الاستوائيـة فلا يزال بعض الأهالي هنـاك ينسب تفشي الانفلونزا والالتهاب السحائي الوبائي ومرض النوم الى عمل جنائي سحري يتهم به شخصاً بريئاً لاحول له ولا قوة بل ولا صلة له بالموضوع .

وهكذا تساوت أوربا وأفريقيا بل ربما فاقت الأولى الثانية اذ على الرغم من قدم المدنية في الأولى وتقدمها في العلم والاقتصاد وعلى الرغم من وجود المعاهدات والاتفاقات الدولية بعدم استعمال حرب البكتريا بين أهالي تلك القارة نجد منهم من يعمد إليها . فليس سرًّا الآن أن أحد رجال المحور ضبط وهو يحاول الحصول على مزرعة لمكروب الحمى الصفراء الخبيثة قبيل الحرب العالميـة الأخيرة . والغريب أن في خريف سنة ١٩٣٩ اتهم الدكتور جوبلز الانكليز بنقل هـذه الحمى القتّالة من غرب أفريقيا الى الهند بطائرات خاصـة — فرمى أعداءه بالجريمة التي كان يرتكبها ذووه .

ولا يحسبنّ أحد أن حرب البكتريا أمرٌ سهل بل هو صعب غاية الصعوبة بل هو مشكوك في امكان نجاحه ولا يمكن مقارنته بوسائل التقتيل والتدمير التي اكتشفت أخيراً . اللهمّ اذ تمكن الانسان من توجيهها نحو اقتصاديات أعدائه من بني جنسـه فلا يقتصر في استعمالها على البشر بل يتعدى ذلك الى الحيوان المستأنس المفيد كالحيوانات الزراعية وغيرها والى النبات وعلى الأخص الحبوب إلاّ أن ذلك يحتاج لدراسة كبيرة فنحن لا نزال نجهل الكثير من طرق انتشار هذه الأمراض ودرجة فتكها ومقاومة الحيوان والنبات لها كما اننا لا نزال نجهل طرق اكتشاف كثير من هذه الآفات ووسائل التحصين ضدها وعلاجها النوعي الخ ...

ولعل أقرب هذه الآفات الى النجاح هي الآفات الزراعية لسهولة نشرها بالطائرات على مساحات كبيرة يلي ذلك الأمراض المسببة بالمكروبات الدنيئة Virus والتي لا ترى بالمجهر لأن علاجها النوعي لا يزال مجهولاً ولقاح التحصين ضدها أما غير موجود كلية أو موجود بكميات صغيرة لا تكفي لتحصين عدد كبير من السكان . ومن هذه الأمراض الجدري ولكن الحصانة ضده أصبحت الآن متيسرة . أما غيره من الأمراض المماثلة فلا نزال نجهل الكثير عن العشرات منها وأمثال هذه الحمى الصفراوية ، حمى الببغاء ، مرض القدم والفم ، طاعون الدجاج وهكذا .

بعد ذلك تأتي طائفة من الأمراض المعروف سببها مثل الطاعون الرئوي ، الحمى المتوجة، داء التفحم ، تسمم الطعام ، السقاوة وغيرها — وكلها أمراض يمكن أن يحاول الانسان احداثها بشكل وبائي ولـكن ذلك مشكوك في نجاحه كثيراً .

والى جانب ذلك تأتي الحشرات الناقلة للامراض فنقل بعوض الجامبيا مثلاً ونشره فوق منطقة زراعية أو غيرها مما يتواجد فيها مرض الملاريا بشكل خفيف من السهل جـدًّا ان يسبب وباء شديداً يشل الحركة الاقتصادية في ذلك الاقليم . وقد عانا القطر المصري من ذلك الكثير بمديريتي قنـا واسوان وبدرجة متوسطة فى جرجا ، وبذل مجهود الجبابرة للقضاء على هذا البعوض وسبقت البرازيل مصر في ذلك وكلفتها مقاومة هـذه الحشرة ما يفوق تكاليف حرب بأكملها . فنقل هذا البعوض اذا وجه الى قطر قبل اعلان الحرب عليه بمدة كافية من الجائز جدًّا ان يشل حركته الاقتصادية بل ويجعله غير قادر على صد العدوان .

وما يقال عن الملاريا يقال عن الحمى الصفراوية هذه الحمى فتالة للغاية وهي تنتقل بواسطة بعوض خاص يعرف باسم (ايدس اجيبتي) وهـذا البعوض منتشر جـدًّا في القطر المصري وغيره . فاذا ما أدخلت في أحـد هذه الأقطار أعداد وفيرة منـه مصابة بمكروب المرض أحدثت اصابات بالحمى الصفراوية في الانسان ومتى بدأ الوباء سهل انتشاره جدًّا إذ ان وسيلة نشره متوفرة من طبيعة الحال . وهناك يحل الدمار ويحل الخراب .

وأعيد فأكرر انه على الرغم من كل ما قيل فانه من المشكوك فيه جدًّا امكان استعمال البكتريا كسلاح في الحروب ضد الإنسان او حتى في نطاق متوسط لأن نشر هـذه الأوبئة بالطائرات لا يزال مجهولاً عند الكثير كما أن احتمال البكتريا لقوة انفجار القنبلة الحاملة لها لا يزال أمراً في عالم الغيب .

ولا يمكن منع حرب البكتريا بالاتفاقات الدوليـة بل قل انه أصعب مراساً من منع الحرب الذرية ..

والناحية المطمئنة في هذا الوضوع هو جهل الانسان بالعوامل التي تسبب الأوبئة وقت الارادة اذ لم يتمكن الانسان من احداث أي وباء للآن في وقت مخصوص أو بعبارة أخرى لم يتمكن من التحكم في الأوبئة وإحداثها ، قارن ذلك بالقنبلة الذرية واخضاعها لمشيئة صاحبها هذا الى جانب قوتها الهائلة في التقتيل والتدمير مما يفوق كثيراً تأثير الأوبئة المرضية .

الدكتور حسن كمال
مدير رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة

بصرٌ حديد

عجيب أمر العُقاب والنسر والباز ، فهي طيور ترصد عيونها من شاهق حركات فرائسها فتنقض عليها لاقتناصها دون أن تخطئها . ووجه العجب في ذلك أنّ العين البشرية مهما تكن قوّتها وبعد مجالها لا يسعها أن تجاري تلك الطيور في ما فطرتها الطبيعة عليه .

ولقد تبيّن للعلماء أن الكواسر ترى في الواقع حركات الفريسة لا الفريسة نفسها ، وإنه إذا شلّت حركة الفريسة بغتة وتخشّبت ، عزّ على عين الطائر أن ترصدها . وهذا يوحي بأن عين الطائر خُلقت خلقاً يؤهلها لأن ترصد الحركات من ذُرى لا يمتدّ إليها بصرُ كائن حي ، واستدلّ من ذلك على أنّ هناك اختلافاً كبيراً بين تكوين العين البشرية وتكوين عين الطائر الكاسر ، وان هذا التفاوت جليٌّ كذلك إذا قوبل بين عين أي حيوان آخر وعين طائر شديد الشكيمة . ووجه الخلاف أن في عين الطائر نتوءاً كبيراً يطلق عليه اسم « نقطة العمى » Blind Spot من شأنه أن يضفي على العين مزيّة الرؤية البعيدة المدى لحركات الكائنات الحيّة مهما استدقّ حجمها .

ولتعليل هذه الظاهرة وقف الدكتور منر Dr. F. Menner من مدينة هال Halle في مؤتمر المشتغلين بشؤون الحيوان الذي عقد في شهر يوليو من عام ١٩٣٥ في مدينة شتتغارت الألمانية وقال إنه تبين من إتيانه بآلة تصوير واستبدال اللوح الحساس بقطعة معتمة من الزجاج ووضع قرص صغير فيها ليحجب صور المرئيات المتحركة — كصورة عصفور طائر مثلاً — أن من المتيسر رؤية صورة ثانوية للطيور المتحركة ظاهرة على أجزاء أخرى من الزجاج المعتّم . وكانت عملية رصد الحركة بكيفية جعلت صورة الجسم المتحرك لا تبدو إلاّ على حافة مجال الرؤية ثم تنجاب الصورة سريعاً . وأمكن بالاستعانة بحجم كبير من القرص الحاجب — وهو الذي يقوم مقام « نقطة العمى » — أن يصبح اختفاء الحركة إمّا بعيداً عن المركز البصريّ أو دانياً منه . وبذلك تختفي الصورة أمام القرص وتعود الى الظهور على الجانب الآخر منه .

وبتطبيق هذه النظرية على أعين الطيور الكاسرة يمكن القول إنه إذا تحرّك جسمٌ ما

في اتجاه قُطر مجال الرؤية لطائر من الطيور الكاسرة لأصبح للجسم في عين الطائر أربع نقط رصد : واحدة على المحيط Periphery وثانية على جانب نقطة العمى وثالثة على الجانب الآخر منها ورابعة على المحيط مرة أخرى .

علاوة على أن نقطة العمى تبرز في محجر عين الطائر الكاسر بروزاً واضحاً فتلقي طائفة من الظلال على الشبكية مما يجعل الشبكية محاطة بظلال تشبه اطاراً ذا أسنان (مشرشراً) . وينشأ عن هذا أن يزيد عدد أماكن الرصد زيادة كبيرة — وهي أماكن تتلاحق وتتكامل كما تتكامل الصور في الفيلم المتحرك — ويصبح من اليسير على عين الطائر أن ترصد كل حركة صغيرة من أعلى عليين . ولهذا الكشف العلمي شأن كبير من حيث أنه يعلل سبب حدة بصر تلك الطيور فضلاً عن أنه يزيدنا ادراكاً بخصائص الجهاز البصري في الانسان . وهو يبرهن على أن العين البشرية تتمتع بموهبتين هما قدرتها على رؤية الأجسام الثابتة — أي غير المتحركة — وقدرتها على رصد الأجسام المتحركة .

ومن هذا الكشف يتضح بجلاء السبب في أن ادراك الألوان يصبح في الذروة حين يكون اللون — أو الجسم الملون — في مركز مجال الرؤية ، ويصبح على أقله حين يدنو اللون من محيط دائرة المجال . فالقدرة على الرؤية تبلغ عنفوانها في مركز مجال الرؤية ثم تتقلص كلما انحرف الجسم المرئي إلى نهاية المجال . وقد يحسب المرء ان هذا نقص في تركيب العين البشرية ولكن الحكمة منه تتضح الآن جليًّا . ذلك انه كلما قلت المقدرة على مشاهدة الأجسام زادت المقدرة على رؤية حركتها ، وكلما تباعد مجال الادراك بالحواس وتلاشى الى عالم الشك ، نشأت قدرة جديدة على ادراك الحركة .

والعين هي أستاذ الانسان ومرشده حتى في جميع الشؤون التي تبطنها النفس . فنحن نوجه مداركنا لادراك العالم المادي (أي الفيزيقي) مستعينين على ذلك بحواسّنا ووجداننا بيد أن في حياتنا الداخلية أموراً تشبه الى حدٍّ كبير « نقطة العمى » في حاسة البصر . وما تلك النقطة بعيب كما يتبادر الى الذهن ، لأنها في الواقع تفتح أمام البصائر ضرباً جديداً من ضروب الادراك لهذا العالم المليء بالقوى ، وهي قوى تتفاعل وتتصارع وراء دنيا الحقائق المتجليّة للحواس .

ولهذا يصح لنا أن نزعم ان العقاب المحلق في ذرى الفضاء يفتح أمام أذهان البشرية آفاق الفكر والحكمة لأنه وان كان بصرنا مقصراً عن مزاحمة بصر الطائر المنقض ، فلنا من البصائر والفطنة ما يعوّض النقص ويرشدنا في سلوك مسالك الحياة .

ربيع فلسطين

جنون [1] ...

ليست الجاذبية التي كشفها نيوتن في كنهها إلا الحب الذي تغنى به الشعراء فهي التي تجذب الكواكب كوكباً الى كوكب كما يجذب الحب القلوب قلباً الى قلب ... فلولا الحب لما انتظمت الكواكب في السماء ولما كانت حياة .. ومن يدري فربما كان بين الكواكب المتجذبة الى بعضها في الفضاء عواطف كعواطف المحبين ! .. وقد تثور الجاذبية (الحب) بكوكبين فيخرجان عن مداريهما ليعتنقا فيصطدما . وتكون النتيجة اما تلاشي أحدهما أو كليهما معاً . . . وفي هذه القصيدة ثورة حب انتهت بتدمير محبين . .

غرِقَ القلبُ بسحركْ وسُحِرْتِ

فهفا الثغر لثغركْ وهفَوتِ..

عربد الخفّاق في الصدر جنوناً

فسمعتِ

صوته الداوي وقد عاد حنيناً

فدُهِشْتِ

حين نادى باسمكِ العذب انيناً

ثمَّ مِلْتِ

فوق صدري — ثغرك المحموم قد عانق نحري

هائماً حيران في لثمٍ وهصرِ

في جنون الروح تهمين دموعاً

فوق سَحْري — وأنا أهذي كمن بات صريعاً

قد جُننتُ ... وجننتِ !

---

(١) من ديوان أغاريد للشاعر محمد فهمي بمناسبة اعادة طبعه قريباً

غشيةٌ منها أفقنا — لم نُفقْ
بل صحَونا ونظرنا — لم نُطِقْ
في بكانا قد هَوينا — نختنقْ ..

***

تمتمتْ منـــه الشفاهُ
كان باسمي
هاتفاً مـــا دهاهُ
أيُّ نغْــمٍ
راعني سحـــر صداهُ
فصرختُ
يا حبيبي ! . . . وهَـويْـتُ
فـوق صدرٍ . . . ولثمتُ
بل ذُهِلتُ ! . .

***

دارت الأفلاك وانجـــاب القمرْ
وغفا النجم وقد لاح السَّحر
عاشقانا لم يفيقا . . . ما الخبر ؟
إيهٍ فانصتْ . . . قهقهاتٌ تنفجر ؟ !
يا إلهـي ؟ . . أصرعها الحب جُنَّا
كيف جنَّا .. ؟ آه بل جُنَّ القدَرْ .. !

القاهرة
محمد فهمي



صورة جديدة منمنمة[1]

من أسلوب التصوير البغدادي

تاريخها ٦١٤ هـ (١٢١٧ ـ ١٢١٨ م)

تمثل النبي العربي

(في ثلاثة ألواح)



يحلو لي في مبتدأ هذه المحاضرة أن أشكر للصديق الأكرم أحمد بك عاصم ، المدير العام لدار الكتب المصرية ، أريحيته إذ أذن لي ، من سنة مضت ، أن أنقل بآلة التصوير الشمسي الصورة التي تستمتعون بالنظر إليها على الفور .

إنّ الزمن المقدر لي ها هنا قصير جدًّا ، فلست عارضاً عليكم سوى بيان يسير . على أن لي في هذه المنمنمة [2] مبحثاً مستفيضاً يتناول جميع وجوهها من أدب ودين ثم من فنّ وتمثيل . وهذا المبحث صادر في رسالة مقبلة من رسائل المجمع العلمي المصري .

إنه لا يغيب عنكم أن أسلوب التصوير البغدادي المتعارف بلقب « مدرسة بغداد » ، تندرج تحته تلك المنمنمات التي زوّق بها المسلمون المخطوطات العربية في العراق والشام ومصر وغيرها ، أيام الخلافة العباسية في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للمسيح) .

هذا ، وإن أهل العلم بالفن الاسلامي مجمعون مع العالم الانجليزي تُومَس أرْنلْد [4] على أنه من المشكوك فيه أن يكون المسلمون حاولوا تصوير موضوع من الموضوعات الدينية في القرون المتقدمة . وعلى هـذا قال العالم الفرنسي بلوشى [5] : « إن هـذا لو كان جرى لكان يكون تدنيساً . » ومن هنـا أن أقدم المنمنمات الإسلامية التي تمثل الرسول العربي

---

(١) مستخرج من مجلة المجمع العلمي للمصري . الجزء ٢٨ ، الدورة : سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦

(٢) محاضرة القيت بالفرنسية على سبيل التعريف يوم ٢٧ مايو ١٩٤٦ فى جلسة علنيـة منعقدة فى المجمع العلمي المصري بالقاهرة . وهذه ترجمة المحاضرة . .

(٣) اقترح هذه الكلمة بإزاء الكلمة الافرنجيـة Miniature ، وهي التصويرة الدقيقة التي تزين صفحة أو بعض صفحة من كتاب مخطوط . وفي لسان العرب (جـ ١٦ ص ٧٣) وكتاب منمنم : منقش . ونمنم الشيء نمنمه ، أي رقشه وزخرفه فالمنمنمة (بكسر النون الثانيـة) . ترقيش وزخرفة للكتاب . والمنمنم (بكسر النون الثانية) Miniaturiste : صانعها . والنمنمة ; L'art de la miniature صناعتها . والكتاب منمنم (بفتح النونين) à miniatures

(٤) أنظروا كتابه « التصوير في الاسلام » ط أكسفرد ١٩٢٨ ، ص ٩٢ .

(٥) « التصوير الاسلامي » لندن ١٩٢٩ ، ص ٢٢ .

محمد بن عبد الله وقد وصلت إلينا إنما ترقى إلى فاتحة القرن الثامن الهجري ، داخلة في نطاق التصوير الفارسي ، على حسب ما أثبته ارلند [1] .

واليوم أقدم إليكم منمنمة عربيـة من بدء القرن السابع الهجري ، ترجع الى الطريقة البغدادية العربيـة . وهي تعرض حادثاً من حوادث السيرة النبوية . وفيها يبدو الرسول ووجهه غير محجوب بنقاب كالذي يحجبه في طائفة كبيرة من المنمنمات الفارسية اللاحقة .

إن هذه المنمنمة تشغل صفحة كاملة . وقياسها (باطراح الشريطين المزخرفين) ١٨،٨ سنتمتراً طولاً و ١٤ سنتمتراً عرضاً . وهي تقع في وجه الورقة الثانيـة من مخطوط عربي محفوظ في دار الكتب بالقاهرة . والمخطوط رقمه ٥٧٩ أدب وهو الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني .

أمّا تاريخ هـذا الجزء الحادي عشر فهو محدد في الثلاثة الأسطر الأخيرة المرقومة في ظهر آخر ورقة . ومنهـا يتبين أن هذا الجزء كتبه محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ هـ أي ١٢١٧ — ١٢١٨ م . وفي ظهر المنمنمة مباشرةً يبتدىء نص هذا الجزء الحادي عشر بعنوان الفصل الأول . وهو — بعد البسملة — كما ترون : « خبر أساقفة نجران مع النبي صلى الله عليه وسلم » .

وهـذا هو الخبر الذي تمثّـله المنمنمة . وجوهر الخبر ما ورد في نص الأغاني بشأن « الممتحنة » [2] . والممتحنة التي أرادها وفد نجران حادث سابق لحادث « المباهلة » المشهورة : فهذا الرسول (الجالس في وقار وأبهة يعلوه ملـكان متقابلان ناشران فوق رأسه وشاح النصر) ترونه يستقبل أسقف نجران وصاحبها للمجادلة في طبيعة عيسى بن مريم (سورة آل عمران ، الآية ٥٩ وما يليها) . إنّ المنمنمة في حال من الحفظ جيدة على الإجمال ، مع شحوب في الأصباغ الرقيقة . ولـكن مما يورث الأسف أن بعض الـكارهين للتصوير أقبلوا بأيديهم عليها فشوّهوها ، فالأوجه — ولا سيما أوجه الرسول والملـكين — محكوكة ملطخة . ومهما يكن من شيء فإن المنمنمة لم يغير من أوضاعها الأولى أية معالجة متأخرة .

وإني أبادركم بأننا لا نعرف لهذه الصورة الفاخرة ما يحاكيها ويواطئها من قبل ولا من بعد [3] وهذا — حتى الآن — يبطل فرض أنموذج أصلي قد يكون المصورون المنمنمون احتذوه من عهد الى عهد

إن هذه المنمنمة مطوية غير منشورة . ثم إنها مهملة في المسارد والأثبات المستقصية

---

(١) « التصوير في الاسلام » ص ٩٣ وما يليها .

(٢) انظروا ج ١٠ ، ص ١٤٣ وما يليها ، من الاغاني ، ط بلاق .

(٣) ان هذه المنمنمة تباعد الصورة التي تمثل مشهد « المباهلة » في مخطوط « الآثار الباقية » للبيروني ، (انظروا A Survey of Persian Art ج ٥ لوح ١٨٢٥) .

التي صنفها المتخصصون من الباحثين [١] . بل هي غير مذكورة في فهرس « دار الكتب » القديم والحديث على السواء [٢] . وأخطر من هذا أن في « بيان » الجزء الثاني من كتاب الأغاني الذي طبعته دار الكتب سنة ١٩٢٨ (ص ج الى و) تفصيلاً للأجزاء المخطوطة المحفوظة في الدار تحت رقم ٥٧٩ أدب . وهي الجزء الثاني والرابع والحادي عشر والثالث عشر . ففي هذا البيان وصف للمنمنمتين اللتين تزينان أول الجزأين : الثاني والرابع . وأما منمنمة جزئنا الحادي عشر فلا ذكر لها على الاطلاق [٣] .

والظاهر أن من طريق هذا البيان الناقص نشرت المنمنمتان اللتان تزينان الجزأين الثاني والرابع ، في القاهرة [٤] ثم في فينة [٥] ، وأدرج ذكرها في اثنين من المسارد المستقصية [٦]

وقد فكرت في الأمر ، فبدا لي أن بحث الباحثين لم يذهب حتى فحص الأجزاء الثلاثة المخطوطة فحصاً دقيقاً . فلم يكن بد إذن من التنقيب . فأقبلت على المراجعة إقبال محاول ، أحقق ذلك البيان المنشور في الجزء الثاني المطبوع سنة ١٩٢٨ ، لأن دقته كانت موضع شك عندي : فيمَ الجزء الحادي عشر المخطوط لا يتزين أوله بمنمنمة ؟ وهكذا استطعت — والجزء الحادي عشر بين يدي — أن أنجّي من ظلم النسيان وثيقة إنما اكتشافها يعد في عمر التصوير الديني الإسلامي قرناً (من بداية الثامن الى بداية السابع) ويستخرج أثراً فريداً يمثل النبي في زمن التصوير السابق للتصوير الفارسي . وهذا الأثر — فوق ذلك — يقوم مقام شهادة عظيمة الشأن في مسألة كثر فيها النقاش ، وهي تمثيل الأحياء في الإسلام ، أمحرم هو أم مباح ؟ ولهذه المنمنمة فضل أخير إذ تشق أفقاً جديداً لاستطلاع أصول زاخرة لفن ديني يثبت بالرسوم والأصباغ حركات نفس منجذبة على سمو. بشر فارس

---

(١) شتوكين : المخطوطات المزوقة الاسلامية في دار الكتب بالقاهرة في مجلة Gazette des Beaux-Arts سنة ١٩٣٥ ، ج ١ ، ص١٣٨ وما يليها .

هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنمة ... » ليبسج ١٩٣٧ ، ص ١٥ ، رقم ٣٦ ب .

بختيال ، كرتيس ، اتنجهوزن : « تعليقات مضافة الى سرد هلتر ... في مجلة Ars Islamica سنة ١٩٤٠ ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٥٣ ، رقم ٣٦ ب .

(٢) ا) فهرست الكتب العربية الموجودة بالكتبخانة الخديوية ، القاهرة ١٣٠٧ (١٨٨٩) ، ج ٤ ص ٢٠٥ . ب) فهرس دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٧ ، ج ٣ ص ١٩ .

(٣) أما الجزء الثالث عشر فمخروم من أوله (ورد هذا في البيان المذكور وقد حققته) فضاعت منمنمته بذلك.

(٤) أحمد موسى : « في تاريخ تصوير الكتب الاسلامية بمصر » (بالالمانية) ، بلاق ١٩٣١ ، اللوحان ١٦ و ١٧ ، النص ص ٣٨ — ٤٠ .

(٥) هلتر : « مخطوطة جالينوس ... » في مجلة Jahrbuch der kunsthist. Samml. in Wien ج ١١ سنة ١٩٣٧ ، اللوح ٦ (١ و ٢) .

(٦) هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنمة ... » رقم ٣٦ ب . بختيال ... « تعليقات مضافة الى مسرد هلتر ... » رقم ٣٦ ب ».



ذات سحر قاهر (1) ...



الاهداء :

الى سليلة فينوس ...

قدم الربيع . وفاح في الجو أريج زهره وعطره . وأريج الحب أيضاً . كان صباحاً جميلاً وأحسّ هو في نفسه بجمال نفسه يعانقه جمال الكون ... لقد انعقدت في أجواء روحه سحابة من دخان ساحر غير منظور . دخان الجمال والاغراء والفتنة عزلته عن بقية العالم وأخذت تنمو وتنمو حتى غمرته في حناياها . فلم يعُدْ يحس ولا يرى ولا يشعر الا جمالاً في جمال .

زلزل هذا الاحساس الطاغي كيانه الروحي وأحسّ كأنّ شيئاً خفيّاً في أعماقه يسوقه لأمر خطه القدر ، إن شعوراً طاغياً يعربد في عروقه حتى لتصرخ كل جارحة من جوارحه : لا أريد أن أرى إلا كل جميل ، كل فاتن ، كل مغر ... جنّبني الآن أي منظر لا يفتن ! ولكن همس في أعماقه صوتٌ ضعيف : والموعد ؟ موعد الصديق الذي جاء من أقصى الصعيد لأمر ذي بال ؟ . صرخ إحساسه الطاغي محنقاً : قلت لك الجمال . الجمال . ولا شيء الآن غير الجمال... وجد نفسه يسير في شارع فؤاد حيث معرض الجمال الدائم الذي ينعقد كل يوم صباح مساء حيث لا تتخلّف غادة من غادات القاهرة تمتز بفتنة من المفاتن عن الحضور لتعرض جمالها وفتنتها على الصيّاد والرعايا ... الرعايا المساكين الذين ينظرون صامتين ذاهلين أحياناً ومعربدين سُكارى من فرط النشوة في بعض الأحايين !

كم قابله من صديق في طريقه فتخلص منه بشكل غير مهذب ، وكم اعترضه معترض بالمصافحة فأثار حنقه أي ثورة لم يستطع كبحها إلاّ بجهد شديد . ومع ذلك بدت في قطع الحديث فجأة والسير في طريقه بين دهشة الصديق وعجبه . ها هو ذا الآن في شارع فؤاد . فتنفّس الصّعداء من أعماق صدره وأحسّ بسعادة الغريب حين يرى أهله ومحبّيه . ها هو ذا يرى نفسه وسط بحر مائج بالفتنة والاغراء موجاته الضاحكة المتناغية من العذارى والغيد

(1) من كتاب «القاهرة الساهرة» يطلب من لجنة التأليف والترجمة الحديثة ص.ب ١١٣٥ القاهرة

الحسان . . غيدٌ كأنهنّ في عيد ... أخذ يُسائل نفسه ... تُرى هل رأى هارون الرشيد مثل هـذا ؟ وهل سَعِدَ عمر بن أبي ربيعة بمثل هـذه المشاهد ؟ بل بما يقرب من هذه المشاهد ؟ وهل في الوجود أبدع من هذا ؟ وفجأة قفز بفكره الى الجنة ولـكنه لم يستطع تصورها بأبدع مما يرى .

أخذ يلتهم بعينيه كل جميلة . هـذه الفاتنة السمراء بقوامها الشهي وخطواتها الرشيقة المتقززة كظبي نافر . وتلك . . ، يا للعيون السود المشعّة ذات الهُدْب المشرعة كسنان رمح قاتل ! وهذه الغادة المضيئة كالبدر وتلك الصغيرة النديّة كتفاحة تُغري . وذات الشفاه المختومة باللهب ! .. أنظر ... يا للثغر ذي اللؤلؤ الساحر ! . آه لو أرشفه ! . . وفي وسط هذا الغمر الذي لا ينتهي من الجمال وكأنما يفيض من نبع الخلود ، كم ثارت برأسه من أمنيّات واشتعلت بقلبه رغبة ، وأحرقت عروقه خطـره . وكم تمنى لو كانتْ ذراعاه وظهره وحتى مؤخرة رأسه كلها عيوناً فلا تفوته لمحة من هـذه الأسراب التي كأنما راعها في الخلد شيء فاندفعت من الأبواب متلاحقة كأطياف الأحلام السعيدة أو عابرة في اختيال كأنهنّ ربّات ... وها هوذا يحس بلذة غريبة حين يلامس طرفاً من ثوب إحدى الجميلات العابرات أو حين يضطرها الزحام أحياناً للاحتكاك جسداً بجسد . تُرى هل تشعر الجميلة بمثل هذه اللذة حين تلامسه ؟ وتخيل حوّاء تجيبه على سؤاله في ابتسامة ماكرة . أهي لا ؟ أهي نعم ؟ لا يدري . . وظلّ على هذه الحال وقتاً لا يدري مداه وظمأه لا يقف عند حد . ونهمه لا يهدأ بل يزداد وكأنما لا حدّ لهما ولا نهاية بل إنه ليُحس فعلاً أن لا حد لهما ولا نهاية ! وفي هـذه اللحظة خطرت بفكره خاطرة : انني أنا نفسي سأنتهي فكيف يُبدع المنتهي ما لا حد له ولا نهاية ؟ أدهشته هـذه الخاطرة فضحك من نفسه ضحكة عريضة . لقد أثرت فيـه قراءات الفلسفة وها هو يفلسف في موقف لا يحتمل غير المتاع والتلذذ . ولـكنه عاد يقول في نفسه وما موضع الغرابة ؟ ان سقراط لم ينشيء أبدع محاوراته إلاّ عن الجمال وفي منظر الجمال الإنساني بالذات ، وهل كانت أعياد باخوس وديونيزوس وأبولون إلاّ أعياد الجمال والمتاع والتلذذ ؟ وبينما هو في موقفه تداعبه هذه الأحاسيس وتحيطه أمواج الجمال المتدافعة من حوله وعن يمينه وعن شماله وهو يتنقّل في تذوقه لها بين تلذذ الحس ونشوة الروح . غارقاً في استمتاعه وكانما يريد أن تقف حركة الزمن ودوران الكواكب ونَبْض الوجود فلا تبقى إلاّ هـذه اللحظة خالدةً أبدية ... في هـذه اللحظة وعلى حين فجأة ، كما ينبثق ضوء البرق الخاطف في أحشاء الظلام المعتم ، رأى ما أذهله فأغمض عينيه عن كل ما حوله ولم يعد يرى سواها .... تلك التي برزت كالبرق الخاطف

تهق الظلام وهي سائرة بجسدها المضيء ورأسها المرتفع وقوامها المنسرح المنقد، كأنما أفلت من يد المثال لساعته . لقد سُمِّر في مكانه وفقد كل قدرة على الحركة إلاّ أن يكون لها ظلاً . . . فحيثما توجهت فهو لها تبع . لقد أحس بنفسه وقد استحال زهرة . تلك الزهرة التي تعبد الشمس فحيثما تحركت في السماء استقبلتها وجهاً لوجه اولكن العجب قد تملكه . . . إنه ليتذكر أنه رآها قبل الآن في مكان ما . . . هي بعينها . نعم هي . رآها . هناك في قاعة من قاعات متحف اللوفر عارية بجسدها ورأسها الشامخ وشعرها المقصوص . هو بعينه ولونه وطياته بل ورائحته . . .

أفاق قليلاً من أثر الصدمة فرأى كل من حوله ينظر نحوها مأخوذاً بجمالها ولكنها تصرع الرائي بتيار دافق من الجلال والرهبة فلا يجرؤ ان يرفع النظر اليها كرة ثانية فيمضي تمزقه الحسرة . . . لم يبقَ إلاّ هو متمرداً ثائراً على هذا الجبروت . جبروت الجمال ورهبة الآلهة . لاشك إنها ربة من الأرباب هبطت الأرض حديثاً . فهتف في اعماق نفسه وقد صمّم . . . حسناً وهل لنا إلاّ الصراع مع الربات ؟ وانه ليتمنى لو يموت في المعركة أكثر مما يتمنى أن ينتصر !

وانعطفت فجأة الى منعطف يخلو من المارة تتأمل معروضات متجر من المتاجر . فاندفع وقد أحس باحساس يهز كيانه كله . أية قوة وأي سر قد انبثقا في كيانه ؟ انه ليحس في هذه اللحظة ان أعظم قوة في الوجود لا تستطيع أن تحول بينه وبين ما يريد . . . وتقدم :

هو — لا تسرفي في الظن . أنا رجل قد نذرت حياتي وروحي ودمي للجمال وأراك الآن ربة معبد !

هي — (تنظر صامتة وقد علتها الدهشة) .

هو — ان الآلهة تطرد من رحمتها من تشاء ولا راد لمشيئتها، فمشيئتها هي القدر . ولكنها لا ترفض أبداً قرباناً من القرابين .

هي — (بصوت خافت كأنما تناجي نفسها) لغة غريبة !

هو — وإنك لغريبة عن هذا العالم ومن يخاطبك بلغة الأرض فهو كافر !

لم تكن كلماته ألفاظاً بل سيالاً كهربائياً اندفع نحوها من بين شفتيه وقد أحس به حين لمس أطراف روحها فاهتزت في أعماقها هزة خفيفة ، ولكنها عادت وتماسكت

لم يدر ما قال بالضبط ولكنه شعر انه قال كلاماً مقبولاً ، فها هي ذي وقد بدت عليها مظاهر الارتياح والطمأنينة . وفي هذه اللحظة يشاء القدر إلاّ أن يتم اللوحة العجيبة . ربة . وفنان . وعجوز من عجائز أثينا خرجت من المتجر وقد خدعها مظهر الثبات البادي على المتناجيين وظنتهما أليفين من زمن ، ولم تدر أنهما وُلدا منذ لحظة : فتوجهت نحوه تطلب ثقاباً تشعل

به سيجارة . كاد هذا الحادث البسيط يعصف بالموقف كله من أساسه فقد لاحظ هو انها انتهزت فرصة العجوز وحاولت الإفلات ، لاشك انها كانت تحاوله من قبل ، ولكنها لم تستطع لجاءت العجوز لها كنجدة من السماء . وبإلهام خفي كالغريق الذي يستجمع كل قوته في اللحظة الأخيرة ليتشبث بالحياة أسرع فأرسل السيال الكهربائي من بين شفتيه دافقاً حاراً متلاحقاً . فسُمِّرت في مكانها واضطرت أن تقف لتجيب في اضطراب مكتوم على تلك الأسئلة الحاسمة المصوّبة في الصميم . في الوقت الذي كان هو قد أخرج علبة ثقابه وحاول في اضطراب ظاهر أن يشعل للعجوز لفافتها . ولكن عبثاً . وأحست العجوز بالجو المكهرب فانسحبت بسرعة دون أن تنال بغيتها وهكذا أُنقذ الموقف …

تبادلا الحديث بعض الوقت وأحسّ كل منهما بإحساس غريب . ان اجتماعهما قد خلق مجالاً مغناطيسيًّا يموج بقوًى فوق طاقتهما احتمالها ، ولكنها ربطتهما الى الأبد كأنها القدر لا مفر من حكمه . انه هو نفسه يريد الآن أن يهرب إنه لا يحتمل كل هذا الاحساس الذي يسحق روحه . انه يريد أن يخلو الى نفسه ليسألها عن سر ما حدث وماذا دهاها ؟ . ولكنه في نفس الوقت شعر في أعماق قلبه أن هذا الاحساس الطاغي وهذه القوة الساحقة هي سر وجوده بل سر حياته قد تكشّف له اللحظة.وانه بدونها يغدو شيئاً تافهاً… وافترقا على موعد .

عجباً . ها هو يعود مخترقاً شارع فؤاد مسرعاً لا يلوي على شيء . ولا يُلقي نظرة على ما يموج به من المفاتن ، تلك التي كانت منذ قليل تستولى على كل مشاعره وتثير فيه النهم والرغبة والظما الذي لا ينطفئ . كيف تلاشى كل هذا ؟ بل كيف استحال في نظره عدماً . هباءً . بل لا شيء. لكأن يداً خفية قد أسدلت على كل تلك المناظر ستاراً من التفاهة … ها هو يعبر الشارع مسرعاً ملتمساً في طريقه الأزقة والهوادع الخالية من المارة ومن الجميلات بالذات .. ان منظرهنّ أصبح يثير في نفسه الحنق والاحتقار … ها هو يعبر مسرعاً شارع قصر النيل فوقع نظره على حسناء سبق له أن رآها قبل اليوم فسحره جمالها وتمنى لو يراها مرة ثانية . ما بال حسنها الآن يثير في نفسه شعور الاشمئزاز والغثيان؟ وأسرع في طريقه ملتمساً الوحدة . وهناك حيث جلس بعيداً عن الناس واختلى بنفسه أخذ يستعيد صورتها وحديثها ومشيتها أو قل يستمتع بهذا كله فما برح ذهنه قط لحظة من هذا كلّه . . .

أي سحر قاهر في تلك المرأة ؟ أوَتفعل حقًّا امرأة كل هذا ؟ نعم وأكثر من هذا لو تراها ..

القاهرة محمد فهمي

باب المراسلة والمناظرة

أخطاء في نقل كتاب :

المسرحيّة في شعر شوقي

أصدرت المقتطف لحقاً بأعداد ابريل ومايو ويونيو سنة ١٩٤٧ بعنوان المسرحية في شعر شوقي ، ولقد كان المؤلف — محمود حامد شوكت — موفقاً في نقده كل التوفيق كما كان بارعاً في عرض مسرحيات شوقي بأسلوب موجز يغني من يريد أن تتكوّن لديه فكرة عامة عنها دون الدخول في التفاصيل ويذكر من طالعهـا فيصبح وكأنه طالعها من جديد ولـكن لدى مطالعة هـذا اللحق وجدت أن المؤلف أخطأ أو غفل في نقل بعض أبيات شوقي بصورة صحيحة تتناسب مع أسس العروض المعروفة لاسيا وأنّ هـذه الأبيات هي من قصائد ذات بحر واحـد لا من الأبيات التي يرسلها أحد أشخاص الرواية على غير بحر واحد وعلى غير قافيةٍ واحدةٍ أو على قافيةٍ واحدةٍ مع اختلاف البحر وها أني أدرجها أدناه مع عناوين رواياتهـا ومردفة بالتصليح مني دون الرجوع الى أصلهـا في شعر شوقي — رحمه الله — فلعلّ الأستاذ المؤلف يعيد النظر في أصلها ويصلحها حسبه وها هي الأبيات :

(١) — (في مصرع كليوباترة)

في الصفحة ٦٦ جاء هذا البيت وما بعده « من مجزوء الـكامل مع الترفيل

« حيـاتي في يديه والناس يحيون قسرا

وصحيحه : إنّ حياتي في يديه والنـاس يحيون قسرا

(٢) — (في مجنون ليلى)

في الصفحة ٨٠ جاء هذا البيت وما بعده من مجزوء الرجز

« إذهب وإن لم أدرِ رو ح أنت مع شبح »

وصحيحه : أن يكون شطره الثـاني « ح كنت أنت أم شبح » كيا يستقيم مع ما تبقى من الأبيات .

(٣) — (في قبيز).

في الصفحة (٩٣) جاء هذا البيت على هذه الصورة وهو من الخفيف

من أمازيس ما الأميرة ما مصر ؟ أفي الأرض من بقمبيز يهزا

وصحيحه عروضاً :

من أمازيسُ ما الأميـ رة ما مصرُ من بقمبيزَ يهزا

(٤) — في علي بك الكبير (دولة المماليك).

في الصفحة ١٠٤ جاء هذان البيتان وهما من البحر الطويل مضطربي الوزن

ونحن اشبعنا ابن السبيل ولم يكن يسل له فوق الطريق أدام

ونحن حضنا اليتيم نمسح دمعه وآواه منّا محسنون كرام

وصحيحهما (ونحن شبعنا ابنَ السبيل ولم يكن ... الخ) ونحن مسحنا اليتيم دموعه ... الخ) أوَ (ويشبع منا ابن السبيل ولم يكن ..)

وفي الصفحة ١٠٥ جاء هذا البيت غير مستقيم عروضاً وهو من الطويل أيضاً.

« نخانني » من كان عند اشارتي يصول بجاهي أو يعيش بمالي »

وصحيحه وزناً هو أن يكون صدره بهذه الصورة « نخان الذي قد كان رهن (عند) إشارتي) وفي نفس الصفحة نجد هذا البيت خاطىء الوزن على البسيط كما يفسره ما بعده :

« قف ، أنت عبدالمال يا أبتي تلقِ البريء لأجل المال في النار

الصدر من الكامل والعجز من البسيط في هذا البيت ويصح بهذه الصورة :

قف ، إنما أنت عبد المال يا أبتي تلقِ البريء لأجل المـال بالنار

وفي الصفحة (١٠٨) هذا البيت خاطىء الوزن على الخفيف كما قبله اذ أن ضربه يحتوي على (فعولن) وهي لا تأتي الا في مجزوء الخفيف وهذا هو

« ويح قلبي يحبه . كذب القلب وبعداً لحب إلفي بعد » وصحيحه وزناً ،

(ويح قلبي يحبه . كذب القلب وبعـداً لحب إلفيَ بعدي)

وفي نفس الصفحة جاء هذا البيت خاطئاً على الخفيف وهو :

هو مستهتر مشى على حجراتي وتناسى أمانة الزوج عندي

وصحيحه أن تحذف منه (على) كما تقول (مشيت الطريق)

وفي المجموعة الثالثة بنفس الصفحة يجب أن تكون (ربي) بلا ياء فيكون صدر البيت (رب لا تجعل العلاقة الا ً) صحيحاً على الخفيف وفي الصفحة ١٠٩ جاء هذا البيت من الكامل خاطئاً عروضاً وهو :

« لا يا علي ، رويداً في الغضب ، إتئد . ما تلك خطـة حكمة ورشاد

وليستقيم إما أن نجعل رويداً غير منونة أو أن نضيف لها كاف الخطاب (رويدك) مع حذف (في)

(٥) في (عنترة)

في الصفحة ١١٧ جاء هذا البيت من الخفيف خاطئاً وهو :

« حط عفافي وحامِ عن قوس العز ى ورد اللصوص عني »

وصحيحه : (حط عفافي وحام عن قوس عزي — لترد اللصوص عني وتغني

(٦) في (الست هدى)

في الصفحة (١٣٢) نجد هذا البيت مضطرب الوزن على الخفيف أيضاً :

اسمعي زينب اسمعي يا صديقتي لك هـــذا الدبوس

زينب : لي أنا

الست : بعدي

ولتصحيحه يجب أن تحذف كلمتا لك هذا)ويستعاض عنها بكلمة (فهاكِ) . هذا ما وجدته من غفلات النقل في مؤلف المسرحية في شعر شوقي ولعلني قد فاتت عليَّ أشياء أخرى نرجو أن يلتفت اليها المؤلف ويدققها في أصولها لأن ما وصفته مرتجل مني وليس طبق الأصل . ومن هذا لا نتفق مع القائلين بأن العروض لا فائدة منه بل قد وصفه أحدهم بجريمة — الخليل الفراهيدي — وفائدته أنه يثبت رواية الشعر الصحيح وشرط أساسي للشعر المنظوم لأن الشعر « هو الكلام الموزون المقفى » والكلام هو ما تكوّن من عدة كلمات وأفاد معنىً صحيحاً . وعلى كل فلولا العروض لأصبح الشعر فوضى لا نظام له لأن المعاني بسيطة وكثيرة المآخذ وهي كما قال أحد الأدباء رشاش طائر من ألوف الأفواه .

البصرة بشير السعر

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الهيدروفون — مسبار أعماق البحار والمحيطات والدليل الى مواقع الغواصات وغيرها

يستخدم الصدى استخداماً عملياً في جهاز يعرف باسم (هيدروفون) وهو الذي يمكّن السفينة من قياس عمق المياه التي تمخر عبابها وذلك بترجيع الصدى. وتحمل السفينة جهازاً آخر يتيح لموجة الصوت ذات الكثافة العظيمة الانطلاق في غور المياه. ويتم هذا العمل عادةً بتفجير قذيفة صغيرة من قذائف الأعماق.

ويسير الصوت في الماء، الى قعر البحر ومن ثمة يرتد الى سطحه حيث يلتقطه الهيدروفون. وقد اخترع هذا الجهاز خاصة لاكتشاف موجات الصوت التي تنطلق في غور المياه. وفي هذه الحالة تسجل الفترة التي تنقضي، من وقت اطلاق الموجة الصوتية، من السفينة، الى تلقي صداها. وعندئذٍ يمكن معرفة سرعة الصوت في المياه. وبهذه الوسيلة يستطاع بسهولة، تقدير عمق البحر. ولهذا الجهاز نفع عظيم جداً للسفن، إذ يمكنها عن بعدٍ، من اكتشاف الصخور وحطام المراكب وجبال الجليد، التي قد تصادفها في طريقها وقد وصفته في كتابي «الصناعات والصناع» الذي أصدرته في سنة ١٩٢٦ وتطلق موجات الصوت بطريقة أشبه باطلاق شعاعة المصباح الكشاف الى بعدٍ. ويتسنى اكتشاف الصدى عن طريق ذلك الهيدروفون الحسّاس. وهو مؤلف من حلقة معدنية ثقيلة ذات طبلة فولاذية رقيقة. ويتصل بوسط هذه الطبلة غلاف سميك «لا تخترقه المياه» يحتوي على ميكروفون حساس يحس بالموجات الصوتية. وهو يكاد يشبه ميكروفون التليفون ويؤلف من قرصين معدنيين تفصلهما حبيبات من الفحم. وحالما تسقط على تلك الطبلة موجاتِ الصوت، التي تتولد من الصدى، تصل ذبذباتها الى الميكروفون حيث تنتقل الى أداة مستقبلة منصوبة على مقر ربان الباخرة. وعلى هذا النمط يتاح للربان تقدير عمق المياه التي تحت مركبه. ومن البديهي أن موجات الصوت تلطم وجه تلك الطبلة وظهرها. فاذا أريد جعل أحد ذينك الوجهين أصمّ، تلحق به لوحة صلبة تسمى بالمعطّلة. وهذه تمتد من وجه الطبلة الى مسافة قصيرة فتجعل ذلك الجانب من الطبلة غير حساس بموجات الصوت. وهذا من شأنه جعل أحد الوجهين مجيباً دون الآخر

ثم إنه بإدارة الهيدروفون ادارة وئيدة على محوره ، يتيسر تعيين الجهة التي ترد منها الموجات الصوتية تعييناً قلما يلابسه الخطأ . هذا وقد شاع استخدام الهيدروفون في ابان الحرب العالمية الأولى وذلك لاكتشاف وجود الغواصات في أعماق البحار . وتصنع هاتيك الطبلات من الصلب الذي لا يصدأ لأن الصلب العادي معرض للتأكسد « للتأكل بالصدأ » بمياه البحار ، وذلك من التفاعل الكيميائي الذي يتولد من المعادن الذائبة فيها .

قنابل لانقاذ المشرفين على الغرق

اخترعت في خلال الحرب العالمية الثانية وسيلة لانقاذ الملاحين والطيارين الذين يسقطون من سفنهم أو طائراتهم عند اصابتها بأي مكروه في مسافات نائية من البحار، تؤلف من جهاز لالتقاط الصوت من أعماق المياه اخترعه رجال البحرية الأمريكية بمعاونة علماء معهد مباحث المحيطات ، ثم قذيفة تغور في الماء محتوية على المادة الشديدة الانفجار المسماة T. N. T ، يلقيها الطيار أو الملاح الذي تطوح به طائرته أو تقذف به سفينته أو بارجته ، فتطلق وتغور الى عمق يختلف بين ٣٠٠٠ قدم و ٤٠٠٠ قدم حيث تولد أمواجاً صوتية لا تلبث أن تلتقطها الهيدروفونات المنصوبة على شواطىء المحيط . وبهذه الوسيلة تتاح معرفة مقر أولئك الجنود أو الركاب أو الطيارين المعرضين للهلاك . وذلك في نطاق ميل مربع من مياه البحر ، على بعد ألفي ميل من الشاطىء .

وعندما يراد تحديد ذلك الموقع لا بدَّ من التقاط موجات الصوت المرتفعة من اللجج ، وذلك بوساطة ثلاث محطات ساحلية منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً سحيقاً ، مما يستعمل فيها الهيدروفونات، في مثل ذلك العمق . ثم يقوم مدير كل محطة منها بتسجيل الوقت الذي يتلقى فيه الاشارة ، ويراجع الفرق بينه وبين زميليه ويتم هذا طبقاً لخرائط خاصة، فيستطيع مديرو تلك المحطات تحديد موضع الانفجار، وذلك في خلال بضع دقائق، عقب وصول الاشارة الى أبعد محطة.

تايبرايتر تستعمل عن بعد

اخترعت في أمريكا آلات تايبرايتر ، تتاح إدارة مفاتيحها عن بعدٍ . وذلك للمرضى الطريحي الفراش والضعفاء الذين لا يسمح مغادرة فراشهم في مستشفيات المحاربين القدماء . فيمكنهم ادارة المفاتيح المركبة في اللوحة البعيدة عن الآلة ، أيًّا كان الوضع المريح الملائم للكاتب المتبوء سريره . وذلك لأنه كلما يضرب على مفتاح حرف من الحروف المركبة في لوحة الآلة، تسري منه نبضة كهربائية الى الحرف الأصلي الثابت في صابها فينطبع في القرطاس على ما يرام

موقد كهربائي ذو نافذة ومصباح

اخترع في أمريكا فرن من أحدث المواقد له نافذة من زجاج پايركس، تتيح لربة الدار مشاهدة دجاجها، وفطائرها وبسكوتها عند تمام نضجها. وبهذه الوسيلة تستغنى عن فتح بابه لتفحص المواد المقصود طهيها، فتتفادى ضياع حرارة الفرن سدًى، كما تجتنب تسخين المطبخ بلا موجب، إذ تستطيع بتلك الطريقة مشاهدة محتويات ذلك الفرن، واضحة أمامها دون فتحه. ويقوم باضاءته حينئذٍ مصباح كهربائي من عيار ٢٥ و ط.

كيف يمكن التغلب على السل في بدئه

الرئتان من أضعف أعضاء الجسم البشري. ولذلك يموت بالتدرن سنويًا مئات الألوف من الناس، في كثير من آفاق العالم.

ولا دواء لهذا الداء العياء، ولا علاج ناجعاً له حتى اليوم، مما توصل اليه العلماء إلاّ اراحة المصاب به وتغذيته بأطيب الغذاء فيتمكن جسمه بتينك الوسيلتين، من مكافحة ذلك المرض. وهذا أمرٌ جد ميسور، إذا ما تكشفت الاصابة به مبكراً. اذ المعروف أن جرثومة التدرن تغاير أغلب أنواع البكتيريا. وذلك بكونها تظل مستترة في غلاف رقيق من الشحم، فيحول هذا الغطاء دون وصول جميع الأدوية التي اكتشفت لقتلها. ومن ثمة تأخذ في النمو آمنة مطمئنة رويداً رويداً. وفي إبان ذلك تموت الانسجة المحدقة بها، فتتكاثف هذه الانسجة وتتحول شحماً. وحينئذٍ لا يحدث غالباً للمصاب أي ألم أو نزيف ينم على وجودها هناك.

وإنما يستدل على تفشيها في رئتي المسلول بالظل الذي تلقيه تلك الكتلة الشحمية على الفيلم عندما يتم تصوير صدره بأشعة رنتجن[1]

ومما يسرنا تسجيله ههنا أن كلية الطب بجامعة فاروق الأول بالاسكندرية قد اقتنت جهازاً لهذا الغرض يمكن فكه وتركيبه في أقصر وقت، وهو مصنوع من معدن خفيف الوزن. وستحذو حذوها وزارتا الصحة والمعارف.

عوض جبرى

(١) وبعد كتابة هذه النبذة نشرت في ٤٧/٧/١٧ بعض جرائدنا المحلية خبراً بعنوان « جهاز متنقل زهيد النفقات للفحص الجموعى بالاشعة للامراض الصدرية جاء فيه : — حفلت دار فيليبس يوم ١١/ ١٩٤٧/٧ بلفيف من كبار الاطباء والمتخصصين في الامراض الصدرية لمشاهدة جهاز الفحص الجموعي للصدر بأشعة رنتجن لجماعات المستخدمين والعمال بها ليتيسر كشف اصابة الرئة بها في أوائل مراحلها اذ يتبين بها كل تهتك في أنسجة الرئة مما يعتبر نذيراً باصابتها بمرض السل وسواه من أمراض الصدر وذلك على أفلام مصغرة مقاس ٧٠ م فصادفت الاستحسان العام

بين التصحيح والتوضيح

تابع المنشور في صفحة ١٥٢

ويقصد « بالجدلية » التعبير عن تواصل الأشياء تواصلاً حركيًّا ، وشمولية التغيُّر بما تتصف به هذه الشمولية من مظاهر التطرف والغُلُوّ . ذلك بأن كل شيء (على ما يرى ماركس) فيه وجه من الواقع الحقيقي ، إنما يقع تحت سلطان منظومة من التكييف الذاتي ، بحكم أن جملته أو بنيته إنما تتألف من عوامل أو قوى متعارضة ، ومن شأن حركتها الداخلية أن تواصل بين الأشياء . وعلى هذا ينبغي أن يرفض مذهب الآلية إذا هو لم يفسَّر في حدود المادية الجدلية ، كما ينبغي أن ترفض جميع الفوقيطبيعيات المستمدة من « الوجودية المثالية » [1].

وإذن فليس في معنى « الجدلية » فلسفيًّا أو مذهبيًّا « أن المادة جدلية أو يحاول بعضها أن يجادل بعضاً في أطوارها المتتابعة » على حدّ تصوير الأستاذ العقاد الذي لم يقصد به إلاّ أن يغرس في ذهن القارىء مفارقة تخدش تفكيره . وهنالك فرق كبير بين المادة والماديَّة.

ليس في ذلك من ثنائيــة ، ولا من ثنوية . والمذهب كله لا يحتمل معنى التضعيف ، بمعنى واحد ثم اثنين . لا يحتمل ذلك لا من ناحية اللغــة ولا من ناحية الوضع . وليس فيه شيء من ثنائية المادة كما يقول ، بل فيه معنى التعارض بين العوامل أو القوى . وما معنى ثنائية المادة ؟ معناه المدرك بديئة أن المادة تتركب من شيئين أو من قوتين اثنتين، كقولك الانسان « جسم وروح » ، فهذه ثنائية ، وكقولك الوجود « مادة وعقل » فهذه ثنائية .

أما القول بأن المادة ثنائية الخصائص لأنها تشتمل على الخاصة ونقيضها على حد قول الأستاذ ، فلا يدل على ان المادية ثنائية ، وانما يدل على ان « الخصائص » هي التي تتصف بالثنائية . وفرق بين القول بالثنائية منسوبة للمادة ، وبين الثنائية منسوبة الى الخصائص ! وماركس أبعد الناس عن ذلك القول بوجهيه ، لأنه لم يستند الى شيء منه في مذهبه جميعاً وعلى الإطلاق . « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

٥ — الوجود والعدم والموجود والمعدوم

قال الاستاذ العقاد :

« وقال الأستاذ مظهر عن كلمة الوجود ينتقد قولنا « إننا نعطي الوجود ألزم لوازمه إذا قلنا إنه غير المعدوم » فعقب على ذلك قائلاً : ذلك قول غير مستقيم ذهناً لأن الوجود

---

(1) ibid, same page.

يقابله العدم ولا يقابله المعدوم » — نقول نعم ... ولكننا اذا قلنا الهيبية قصدنا بذلك الشبان . واذا قلنا العلم قصدنا بذلك المعلومات ، واذا قلنا الوجود قصدنا بذلك هذه الموجودات » . اهـ

ونقول بأن ذلك قد يقبل في لغة غير لغة العلم وفي غير لغة الفلسفة . لأن هذه اللغة لا تتجوّز في تحديد المعاني الدقيقة لكل لفظ. على أننا لا نقبل هذا المذهب التعبيري في لغة الأدب العام إلاّ بتجوّز ، فكيف بنا نقبله في لغة الفلسفة ، إلاّ أن نكون الى جانب التعسّف أدنى ، بل لا نبالغ اذا قلنا أننا نكون الى الخطإ الصرف أقرب شيء .

أضف الى ذلك ان مقابلة الوجود المعدوم ، خطأ : لأن الوجود من الكليات، والمعدوم من الجزئيات. فكيف يصح مقابلة الكلي بالجزئي في بحث فلسفي، أساسه التفريق بين أدق المعاني ؟

ناقش الأستاذ بعد ذلك في مسألتين : تتعلق أولاهما بمذهب « كونت » وثانيتهما بمذهب التطور . وقد يطول بنا الكلام اذا أردنا أن نظهر أن الأستاذ لم يفرق تفريقاً تامًّا بين مذهب « كونت » في « الارادات والأسباب » وفيما سمّاه كونت « دين الإنسانية » . والأمران على ما بينهما من صلة تركيبية في مذهبه ، لا يحتمل اتصالهما المعنى الذي خرّجه الاستاذ العقاد .

أمّا كلامه في مذهب التطور فظاهر من عباراته التي ساقها انه لم يفرق بين البحث في التطور والبحث في نشوء الحياة. إن الأمرين مختلفان جد الاختلاف .

أما قول الأستاذ — « إن أجهل همجيّ لهو أصدق شعوراً بالعالم من الفيلسوف العصري الذي يحصر مسألة الحياة في هذا الحصر العجيب. لأنه على الأقل يدرك للكون عظمة ورهبة تخفيان على الفيلسوف الذي يظن ان الآزال والآباد كانت في انتظاره حتى يظهر في سنة ١٨٠ أو ١٦٠٠ أو ٢٠٠٠ فيضع الكون كله في تلك العلبة الصغيرة ويغلقه هناك بالمفتاح الأخير » : فنقول فيه مجال للنظر .

فهل نصدق حقيقة أن أجهل همجي هو أصدق شعوراً بالعالم من لابلاس ، وكونت ، وكانت ، وداروين ، وبرجسون ؟ . اما الفيلسوف الذي يستطيع أن يضع العالم في علبة ويغلقها بمفتاح ، فانسان له عقل يزن ويرجح ويحكم ويقيس . فأين منه ذلك الهمجي الذي يعجز لجهله وقصوره أن يحصر عدد أصابعه في اليد الواحدة ؟

وللوقوف بين الماء والرمال لنشاهد الواقع ونصدق الحسّ ونرضي العقل ، خيرٌ في هذه الحياة من التحليق بأجنحة من الوهم ، جل ما فيها من الحقيقة ان لا حقيقة لها .

اسماعيل مظهر



مكتبة المقتطف

١ — في أعقاب الثورة المصرية

للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الاول — ٣٣٥ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

في العام الماضي أصدر مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي كتابه ثورة سنة ١٩١٩ في جزءين تناول فيهما تلك الحقبة من الوعي القومي حتى سنة ١٩٢١ ، وهي حقبة ما زلنا نعيش في ظلال ذكرياتها — مرتبطة ظروفنا الحالية بحوادثها الماضية ، وملقاة أعباؤها على البقية ممن عركوا تلك الحوادث .

ولقد كان في عزم المؤرخ الكبير أن يقف بتأريخه القومي عند هذه الحقبة من تاريخ مصر الحديث ، ولكنه لحسن الحظ عدل عن ذلك وقام بتدوين الحوادث التي أعقبت هذه الثورة والتعليق عليها ، وهذا عمل يجد المؤرخ فيه نفسه محرجاً لأنَّ فريقاً من أبطال حوادثه أحياء ، ولأن هنالك عوامل من الصداقات أو من الظروف تستلزم المجاملات ، وليست المجاملة من طبيعة المؤرخ ، وليس النقد في مثل هذه الحالة بالذي تتقبله النفوس لأنه يمسها .

لذلك لم يكن عجباً أن ينهض الأستاذ الجليل بهذا العمل مدفوعاً بنفس العوامل التي دفعته بها الى تاريخ الحركة القومية ناظراً إليها بعين بعيدة عن الحزبية وبعيدة عن الهوى لأنها قريبة الى الروح الوطنية تستمد إلهامها من الواقع على ضوء الحقيقة المجردة متسامية عن الزلفى وعن الكراهية والبغضاء . ولذلك كان المؤرخ صريحاً فيما كتب ، قويًّا فيما سجل. وهو بين هذا وذاك الوطني النزيه الغاية السامي الهدف .

وقد تناول في الجزء الأول من كتابه الجديد الفترة من تاريخ عودة المغفور له سعد زغلول الى مصر في ابريل سنة ١٩٢١ وبدء محادثاته مع عدلي باشا يكن في صدد اشتراك الوفد في المفاوضات الرسمية التي دعيت إليها مصر لعقد المعاهدة بينها وبين انجلترا —

تلك المفاوضات التي كانت مصدر الانقسام . ثم عرض للموقف السياسي بعد قطع المفاوضات وما كان من الأحداث ومن الرغبة في التآلف حتى تولى الوزارة ثروت باشا بشروط اشترطها واقتنع بها اللورد اللنبي . وتناول ما أعقب ذلك من وضع الدستور وما لازم هذه الظروف من اضطهاد للمعارضة واعتقالات لرجال الوفد ، ثم عرض المؤلف صوراً للحركات الوطنية التي قام بها الوطنيون والوفديون من عرض قضية البلاد في مؤتمر لوزان الى أن أشرف على تاريخ الحركة النيابية بعد وضع الدستور وقيام سعد باشا بتشكيل الوزارة بعد اجراء الانتخابات حتى وصل الى الماضي القريب والقريب جداً من ذاكرتنا جميعاً الى أن انتهى عند وفاة سعد باشا .

وهذا الكتاب على ما فيه من النقد يصح اعتباره توجيهاً خالصاً للسياسة المصرية واسترعاء النظر لتفادي كثير من الأخطاء التي وقعت وكانت سبباً في تأخير القضية المصرية حتى هذا الوقت ، وُضع في حيدة تامة وفي تقدير للجانب التاريخي قبل كل شيء .

٢ — القضايا الكبرى في الاسلام

٤٠٣ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة التوكل بمصر

٣ — لماذا أنا مسلم ؟

١٩٢ صفحة من القطع الوسط — مطبعة مخيمر بمصر

أصدرت مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة فيما أصدرت أخيراً من كتب قيمة كتابين لمؤلف واحد يهدفان الى غرض واحد وإن اختلفت الصور وطريقة العرض في الكتابين .

والمؤلف أستاذ جليل من أساتذة الجامعة الأزهرية هو الباحث المحقق والعالم المتسع الأفق والأديب القوي العبارة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي . عرفته منذ خمسة عشر عاماً من خلال كتاب أصدره عن زعامة الشعر الجاهلي دلّل فيه على رأيه في رفع لواء تلك الزعامة لعديّ بن زيد دون امرىء القيس ثم تتبعت ما كان ينشره على صفحات كثير من المجلات الأدبية من بحوث في الدين والأدب والاجتماع فعرفت فيه تلك المزايا التي أشرت اليها .

فأما كتابه الأول «القضايا الكبرى في الاسلام» فهو كتاب جليل الغاية عرض فيه لتسع وخمسين قضية من القضايا الكبرى التي عبر بها تاريخ الاسلام منذ الرسول الى عصرنا الحاضر مقسّمة حسب كل عصر من أمثال مؤامرة المنافقين على المهاجرين وقذف عائشة وطلاق زينب بنت جحش وهكذا عصراً عصراً حتى بلغ العصر الحديث فتكلم على قضايا زوجية

السيد علي يوسف والغاء خلافة آل عثمان وكتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي وذلك كله سواءٌ أكانت في باب المعاملات أم في باب الجنايات أم في غيرها من أبواب الأحكام في الشريعة الاسلامية لتكون دراسة جديدة تناسب ما جدَّ في عصرنا من الأصول التشريعية ولتكون معرضاً للقضاء الاسلامي في أزهى عصوره حين كان العدل رائده ، وما وصل اليه بعد ذلك حين تغلبت عليه الأهواءُ وزاحمته السياسة . وقد اجتمعت للمؤلف في هذا الكتاب عناصر ثلاثة جعلت للكتاب قيمة رفيعة ، فقد عرض قضاياه بروح القاصّ تخرج به عن نطاق السرد التاريخي الى العرض المشوّق ثم كتبها بأسلوب الأديب فبعث في خلال هذا العرض نفحات من التصوير الفني ، ونظر الى كل ذلك بعين القاضي الدارس لقضاياه المتتبع لأصول التشريع فألقى الضوء على كثير من أسرار تلك القضايا وبسطها للحكم الحق وبذلك أدّى أجلَّ خدمة أدبية دينية .

على ان في عصرنا الحديث قضية كبيرة كان لها من الأثر في الأذهان ما بقي حتى الآن ، تلك قضية كتاب « الاسلام وأصول الحكم » الذي ألفه معالي وزير الأوقاف الحالي الأستاذ علي عبد الرازق حين كان قاضياً لمحكمة المنصورة الشرعية وبرهن فيه على ان الخلافة لم تكن من أصول الاسلام فحوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء التي أصدرت الحكم بإخراجه من زمرة العلماء وأُقيل يومذاك وزير العدل معالي عبدالعزيز فهمي باشا من منصبه لأنه لم يشأ تنفيذ فصل المؤلف من وظيفته بناء على هذا الحكم ... تلك القضية لم يتعرض الأستاذ الصعيدي لها مع أنها من أكبر القضايا الفكرية ، ولعل قضية كتاب في الشعر الجاهلي كانت خطوة متابعة لخطوة كتاب الاسلام وأصول الحكم . ولست أدري السبب في إغفالها مع أنه من الواجب درسها حيث انتهى الأمر بعودة الحقوق التي حرمها المؤلف اليه .

* * *

أما الكتاب الثاني وهو « لماذا أنا مسلم ؟ » فهو عبارة عن مناقشات أدارها المؤلف على لساني قسٍّ من المبشرين وشاب مسلم عرضا فيها لكثير من المسائل التي كانت موضع جدل في الدين الاسلامي واتخذ منها المبشرون تكأةً للتشهير بالاسلام وتضليل شبابه وانتهى منها الى بيان الغايات التي دفعت هؤلاء المبشرين الى خطتهم فأوضح على لسان القسّ تلك الغاية وهي غاية بعيدة عن الدين المسيحي لأنها غايات سياسية يعملون لها تحت ستار الدين .

٤ — أبو الهول يطير

لمحمود تيمور بك — ٣٠٨ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاستقامة بالقاهرة

هذا لون آخر جديد من أدب تيمور وفنه فتح به باباً للباحث في تاريخ الأدب العربي الحديث، وهذا اللون كما هو جديد في أدب كاتبه فهو جديد في فن الرحلات لأنه قريب الى أن يكون قصة في رحلة أو رحلة في قصة.

فهذه خواطر كتبها المؤلف خلال رحلته الى أمريكا التي استغرقت ستة أشهر كانت خيراً وبركة على الأدب، وكانت مفتاحاً لعالم جديد في نفس تيمور لعله لم يكن مطلعاً عليه حتى واتته الظروف فانطلق في أرجاء هذا العالم يكشف ويلقي الضوء حتى جمع هذه الثروة الثمينة في هذا الضرب الجديد من فنه وأخرجها للناس أثراً يتألق جدةً وروعة.

ولقد كان تيمور يعيش خلال الزمن الطويل الذي قضاه في دعم أسس القصة العربية في خلق شخوص وتصوير عوالم تناسب هذه الشخوص حتى طلع على الأدب منذ سنوات بقصته الرائعة « نداء المجهول » يجوب فيها عوالم جديدة ويصوّر فيها مشاهد رائعة في دقة بالغة ثم قويت هذه الظاهرة في فنه واختفت الشخوص التي يخلقها خياله لتحلّ محلها شخصيته فيجعل منها مادة موضوعه ويعرض على القارىء أحاسيسه ومشاعره ونظراته للحياة في غير مواربة أو رياء أو زيف.

لقد انطلق تيمور في كتابه الجديد من القيود التي يفرضها فن القصة عليه من التزام التعبير بما يناسب كل شخصية من شخصيات قصصه فلا يتعدى ذلك، وما يفرض عليه من عدم الخروج عن جوهر القصة وحوادثها. فهو هنا يعبر عن نفسه وأفكاره في حرية ثم ينطلق به التفكير فيخرج عن جوّ موضوعه الى جو نفسه، ومن جو نفسه الى عوالم من التفكير العالي، وتتجلى في ذلك مواهب تيمور في النقد وفي التصوير وفي دقة التعبير وفي اللفتات السريعة الى أبسط الأشياء لتأخذ منها لنفسها أعظم الأشياء لأن الانسانية التي تملأ كيانه تجعله ينظر الى كل شيء حتى الجمادات نظرته الى الأحياء فيكاد ينطقها أو ينطق هو بلسانها، ولعل في لفتته لوداع الطائرة حين هبط في مطار لاجوارديا الدليل على تلك الانسانية الشاملة في حين أن فرحة الهبوط والوصول تنسي المسافر هذا الواجب الذي لم ينسه تيمور، ولعلّ تلك اللفتات التي أوحت اليه ما أوحت في عيادة الطبيب من دلائل النظرة الفاحصة وغير ذلك من الصور والمشاهد التي استوحاها خواطر في الحياة والناس ونقدات للمجتمع ومقارنات بين الروحية والمادية التي لمس الكثير من مظاهرها في أمريكا.

إن رحلة تيمور رحلة للذهن ونزهة للخيال.

٥ — فتح العرب للمغرب

للدكتور حسين مؤنس — نشرته مكتبة الآداب بالجماميز (القاهرة) في ٣٥٧ صفحة من قطع المقتطف — طبع في مطبعة مصر

للمغرب العربي الآن في نفس كل شرقي أنبل شعور ، وله في قلب كل عربي خفقة من خفقات الحب والتقدير ،ولقضيته في سبيل استعادة مجده في ظل الحرية والنور استجابة في النفوس وتعاون في الجهاد . فلقد كان لفتح المغرب على يد العرب وانتشار الاسلام فيه انتشار للحضارة الإسلامية في أوربا ، وعلى يد أبنائه انطوى جزء كبير من القارة الاوروبية تحت جناح العالم العربي .

وإنّ من محاسن الصدف والتوفيق أن يصدر الدكتور حسين مؤنس المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كتاباً عن فتح العرب المغرب في الآونة التي يقف الشرق العربي من أجل قضية هذا الوطن وقفة وطن واحد في ظل دين واحد ولسان واحد .

ولن أكون مبالغاً إن قلت إن هذا الكتاب خير ما كتب في هذا الموضوع ، ومن خير ما أخرجت المطبعة في هذه الآونة دقة بحث ووفرة اطلاع . ولقد كان للمغرب حظ من عناية المؤلف في كتابه القيم الذي أصدره منذ سنوات وهو « كتاب الشرق الاسلامي في العصر الحديث » .

وكما أنّ هذا الكتاب من خيرة ما كتب في موضوعه ، ومن خيرة ما ظفرت به المكتبة العربية فإنّ مؤلفه من خيرة الدارسين للتاريخ الاسلامي فلا عجب اذا استوفى بحثه وأشبعه دراسة وتمحيصاً .

وقد عرض المؤلف في ثمانية أبواب ماقام به العرب في المدة من سنة ٢١ الى سنة ٨٥ هـ من الأعمال العسكرية التي أدّت الى امتداد الفتح الإسلامي في شمال أفريقيا من مصر الى المحيط الأطلسي والتي كانت سبباً في تخطي هذا الفتح حدوده عبر البحر المتوسط الى أوربا على يد أبناء هذا المغرب .

فهو قبل أن يبدأ في عرض مقدمات الفتح يعرض علينا صوراً من مشاهد التاريخ لأفريقيا البيزنطية وما كانت عليه من انقسامات . ثم ينتقل الى عرض مشاهد الغزو الاسلامي فقيام الحملة الأولى بقيادة عبدالله بن سعد بعد أن حسن إسلامه وولي على مصر بعد عزل عمرو بن العاص،فالحملة الثانية التي جرّدها معاوية بن حديج،فحملة عقبة بن نافع الأولى وبناء القيروان ، ثم قيام دينار أبو المهاجر لفتح المغرب الأوسط ، فمحاولة عقبة بن نافع بحملته الثانية فتح المغرب الأقصى الى أن انتهى من عرض مشاهد هذا الفتح حتى تمامه وقد

وقف بالحوادث عند ولاية حسان بن النعمان وأعماله . كل ذلك في تحقيق ومناقشة للروايات وتغليب الحقائق من خلال تمحيصها . ولعلّ الدكتور مؤنس يوالي تأريخ النتائج التي أدّى إليها هـذا الفتح وما أعقبه من حركة انتشار الاسلام واستيلائه على جزءٍ ليس بالقليل من أوربا وبناء حضارة نادرة المثال هناك .

٦ — الريف ومشكلاته

للدكتور ابراهيم حازر — ١١٦ صفحة من قطع المقتطف — نشرته دار السوهاجي للنشر بمصر

مؤلف هذا الكتاب شعلة من النشاط والذكاء فهو طبيب ومحام يدرس الآن في معهد الصحافة وفي كلية العلوم فاجتمعت له من هذه المواهب خصائص عدة تتميز بها بحوثه من دقة البحث والفحص ووصف العلاج الناجع في سهولة ويسر .

وكتابه هـذا دراسة للريف ومشكلاته: دراسة بنيت على أسس من البحث العلمي الذي روعيت فيه حاجة الريف المصري على ضوء القومية المصرية لا على ضوء محاولة تطبيق نظم غربية قد لا تتفق وبيئتنا ، فهو يرى ان وسائل الاصلاح ليست باعتماد الملايين من الجنيهات لإطعام فقراء أو بناء مؤسسات فقد صُرف الكثير في مثل هـذه الوجوه دون جدوى ولكنّ للاصلاح خطوتين : الاولى ان نمحو مسألة تعدّد الاختصاص لانه مؤدٍّ الى الفوضى وذلك بانشاء وزارة للفلاح وان نضع برنامجاً ثابتاً يطابق حالتنا الاجتماعية تراعى فيه خصائص البيئة المصرية وألاّ يتغير هذا البرنامج بتغير الحكومات . أما الخطوة الثانية فهي قائمة على تحقيق أمور ثلاثة هي حسن اختيار العمد وتعيينهم بمرتبات كحكام الأقاليم وتكوين المجالس القروية لانها تهيّئ فرصة الاسترشاد بآراء الفلاحين في طرق الاصلاح لأن الفرد الذي يراد إصلاح حاله أقدر من غيره على تقرير مطالبه ، ثم شقّ المنافذ الموصلة للقرية وتعبيد طرق المواصلات.

هذه هي القواعد الأساسية التي يراها المؤلف لإصلاح الريف ، وهي في جوهرها لا تكلف الدولة الكثير من المال وستكون حافزاً للريفيين على إصلاح مساكنهم ومن ثمّ إصلاح حالهم دون ضغط على الناس بالتبرعات التي لا تجدي ولا ببذل المال الضخم في سبيل نظريات قد لا تصحّ أسساً للإصلاح المنتج . وهي قواعد جديرة بالدرس والعمل على تنفيذها

٧ — المستشرقون البريطانيون

للدكتور ا . ج . أربري وتعريب الدكتور محمد الدسوقي النويهي — ٤٨ صفحة من القطع الكبير محلاة بالصور — طبع في انكلترا

لا شكّ في أن للمستشرقين البريطانيين أيادي بيض في درس الأدب العربي ، ولعل كتاب الأستاذ نيكلسون من خيرة ما كتب عن تاريخ هـذا الأدب . والأستاذ نيكلسون وغيره من المعاصرين يعيدون الى أذهاننا صوراً بعيدة من الحركة الاستشراقية في بريطانيا يرجع أصولها الى بضعة قرون . ومن الجدير بنا أن نلمّ بهذا الجانب من الدراسات .

ولقد قام المستشرق البريطاني المعاصر الدكتور ا . ج . أربري بوضع دراسة ممتعة في هذا الموضوع ، وللدكتور أربري إحاطةٌ شاملة بالأثر الذي خلفته الدراسات القديمة للأدب العربي في الأدب الانجليزي ، كما أن له إحاطة بالتيارات الأدبية العربية الحديثة . ولعلّ مقالاته التي كان ينشرها في مجلة « الأدب والفن » التي ظهرت في الأعوام الأخيرة . وأسعفنا على توقف صدورها خير شاهدٍ على بصر الأستاذ أربري ومقدرته . وهذه الدراسة في اعتقادنا مقدمةٌ يجب أن يتوسع فيها المؤلف لتتفق مع عنوانها فيتناول فيها بإسهاب تاريخ الحركة الاستشراقية في بريطانيا مع سردٍ لجميع رجال الاستشراق هناك وتاريخهم وأعمالهم لتكون مرجعاً من المراجع التي لا يستغنى عنهـا حيث قصر الكلام على شخصيات قلائل . ولعله فاعلٌ ذلك في القريب العاجل فإن له من تلك الاحاطة الشاملة خير عون .

* * *

وبهذه المناسبة أذكر أن دار المعارف بمصر قد أصدرت الطبعة الثانية من كتاب « المستشرقون » للأستاذ نجيب العقيقي عن الاستشراق خلال ألف عام الى الآن . وهو كتاب كانت المكتبة العربية في حاجة اليه والى الكثير من أمثاله تدرس فيها جميع أوجه النشاط الاستشراقي في العالم .

* * *

كما لا يسعني إلاّ أن أنوّه هنا بجهود عالمٍ باحث مقتدر هو الأستاذ يوسف أسعد داغر أمين دار الكتب اللبنانية في بيروت ، وهو من أبرز المشتغلين بهذه الناحية والمتخصصين فيها ومن الذين أدّوا فيها للأدب العربي أجلّ الخدمات ، فقد علمت انه أعدّ معجماً لأعلام الاستشراق في العالم في مختلف العصور يضمّ عدداً ضخماً من هؤلاء الأعلام . والأستاذ داغر من أقدر من يستطيعون القيام بمثل هذه الأعباء ، وأملنا أن يوفق الى إخراج هذا المعجم قريباً فيسدّ به فراغاً في المكتبة العربية . فانه لجدير بنا أن نعرف الكثير ممن خدموا أدبنا العربي من أبناء الغرب .

حسن كامل الصيرفي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

لحق

جلال مظهر

أميرة بابل

ترجمة عن فولتير

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الفصل الاول

التنافس الملكي لنيل يد فورموزانتا

كان ملك بابل ، بيلوس العجوز ، يظن أنه أعظم إنسان على وجه البسيطة . ذلك ما قاله رجال حاشيته ، وما أثبته علماء التاريخ . ونحن نعلم أنّ قصره وحديقته مقامان على بعد فراسخ قليلة من بابل ، تمتد بين الفرات ودجلة اللذين يرويان تلك الشواطىء الساحرة . أما واجهة القصر فتبلغ ثلاثة آلاف قدم بيد أنها تكاد تنطح السحاب وكذلك أفريزه فقد سُوِّر بأعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً ، تقوم من فوقها تماثيل فخمة لكل الملوك وعظماء رجال الدولة ويتألف هذا الافريز من صفين من الآجر تغشاهما طبقة كثيفة من الرصاص تخترق الأرض بعمق اثني عشر قدماً . وغرست الأرض فكانت حرجة عظيمة من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون والنخيل والكاكاو والقرفة ومجموعة من شجر المنثور ، حجبت أشعة الشمس أن تنفذ الى مماشيها وممراتها .

تتدفق مياه الفرات وتنساب من مئات من الخلجان ترفع إليها المياه بمضخات ، محدثة في الحديقة مجارٍ طولها ستة آلاف قدم فضلاً عن مئة ألف نافورة قلما يدرك ارتفاعها . ومن ثمت تعود كل تلك المياه الى الفرات . ولم تكن حدائق سميراميس التي بهرت آسيا من بعد ذلك بأجيال ، غير تقليد واهن لتلك الأعاجيب القديمة . ذلك بأنه في زمن سميراميس كان كل شيء قد بدأ يفسد بين الرجال والنساء .

أمّا أعجب ما كان في بابل وطغى على كل ما سواه ، فإبنة وحيدة للملك تدعى فورموزانتا كانت صورها وتماثيلها المثال الذي نحت براكسيتيلس على غراره في العصور التالية تمثالي أفروديت وزُهَرة مديتشي .

يا للسماء ! أي بعد بين الأصل والتقليد .

وكان الملك بيلوس يفخر بابنته أكثر مما يفخر بملكه . كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وأصبح من الضروري أن يحظى بها زوج يستحقها . ولكن أين يوجد ؟

هناك نبوءة قديمة بأن فورمازانتا لن تكون إلاّ من نصيب من يستطيع أن يطوي قوس النمروذ . وأمّا النمروذ هذا، فكان قناصاً ذا قوة وعنفوان ببركة الآلهة وقد خلف قوساً

من الأبنوس صنع في « دربنت » طوله سبعة عشر قدماً بابلونيّـا . كان أشد صلابة من حديد القوقاز ، ولم يستطع كائن بشري أن يثني هذا القوس العجيب من بعده .

وقيل أيضاً بأن الساعد الذي يستطيع أن يثني هـذا القوس قد يقتل أسداً ضارياً مخيفاً ينطلق عليـه في ملاعب بابل . ولم يكن هذا كل شيء ، فإنّ ثاني القوس وقاهر الأسد ، لا بدّ متغلب على كل منافسـيه ، بله أنه يكون حكيماً ، مبصراً ، متوقد الذهن ، فاضلاً . يثير دهشة كبيرة في أنحاء الـكون .

لم يتقدم غير ثلاثة ملوك كان لديهم من الشجاعة ما كفى لأن يدعي كل منهم أنه كفء لفورموزانتا : فرعون مصر ، وشـاه الهنـد ، وخان الاسقوثيين الأكـبر . فحدد الملك بيلوس يوم المنازلة ومكانهـا في أحد أطراف الحديقة حيث الاتساع العظيم الذي تكتنفه مياه دجلة والفرات عند تلاقيهما . وأعدّ حول الدرج مسرح من الأبنوس مستدير الشكل يتسع لخمسة آلاف مشاهد ، ووضع عرش الملك في واجهة المسرح بحيث يظهر ومعـه فورموزانتا يحف بهما جميع رجال البلاط . وذات اليمين وذات الشمال ، بين العرش والمسرح ، أقيمت عروش أخرى ومقاعد للملوك الثلاثة ، ولـكل الملوك الآخرين الذين رغبوا في شهود تلك الحفلة الفخيمة .

كان فرعون مصر أول من وصل ممتطياً عجل أبيس وفي يده قيثـارة إيزيس ، ومن ورائه ألفا كاهن مدثرون بلباس من الـكتان الأبيض أنصع من الجليد ، ثم ألفا خصي فألفا ساحر ، فألفا محارب .

وسرعان ما وصل ملك الهند في عربة يجرها إثنى عشر فيلاً ، ومن ورائه حاشية أكبر عدداً وأبهى منظراً من حاشية فرعون مصر .

وكان ملك الأسقوثيين آخر من وصل منهم ، وقد امتطى نمراً أليفاً مهيباً يطاول بقامته أي فرس فارسي أصيل . ولم يكن له من شيء اللهمّ إلاّ فرسانه المختارين ، وقد طمست هيبته وجلالته على مظهر منافسـيه ، وظهر ذراعاه البيضاوان العاريتان في قوّة وصلابة ، وكأنهما قادرتين على أن تحنيا قوس النمروذ .

تقدّم ثلاثتهم وانحنوا في جلال أمام الملك وإبنته فرموزانتا .

أهدى ملك مصر الأميرة تمساحين من أرهق تماسيح النيـل ، وبفروسين ، وحمارين وحشيين وفأرين مصريين وجثتين محنطتين وكتاب هرميس العظيم ، معلناً بأن تلك الأشياء أندر ما في العالم .

أما ملك الهند فقدّم إليها مئة فيـل يحمل كل منهم قلعة من الخشب مطلوّة بالذهب

الخالص ، ووضع عند قدميها كتاب الئيدا منسوخاً بيد إ كما كا نفسه .

وكان ملك اسقوثيا أميّاً، فاكتفى بأن يهديها مئة من جياد الحرب الاصيلة ، أضفي على كل منها كسوة جميلة من فراء الثعالب السود .

ولقد بدت الأميرة أمام محبيها مغضية من نظرها، واستلقت مسترخية في مقعدها بدلال، اعتبر في ذلك الزمن منتهى التواضع والأدب .

أمر الملك بيلوس الملوك أن يجلسوا في العروش التي أعدّت لهم، ثم قال لو كان لي ثلاث بنات لجعلت ستة من الانفس سعداء في هذا اليوم . ثم أمر المتنافسين أن يضربوا قرعة فيما بينهم ، أيهم يكون أول من يحاول أن يلوي قوس النمروذ . فوضعوا أسماءهم المنقوشة في خوذة من الذهب ، فظهر اسم ملك مصر أولاً ، ثم من بعده إسم ملك الهند ، فلما رأى ملك اسقوثيا القوس ومنافسيه ، لم يبد شيئاً من الأسف أنه ثالثهم .

وفي خلال ذلك قدم عشرون الفاً من الخدم ومثلهم من الوصيفات الجميلات . وخالطوا بغير نظام صفوف المشاهدين يوزعون الحلوى والمرطبات . وقد ثبت في روع جميع الناس بأن الآلهة لم تنصّب أولئك الملوك اللهمّ إلاّ لاقامة الولائم والحفلات في كل يوم على أن تكون مختلفة المناظر منوعة الاساليب ، وأن الحياة أقصر من أن تنصرف الى غرض آخر، وأن المنازعات القضائيـة والدسائس والحروب ومشاحنات اللاهوتيين التي تستغرق حيـاة الانسان ، إنما هي أشياء ممقوتة غير معقولة ، وأن الانسان قد خلق للذة والسعادة ، وانه إذا لم يكن قد خلق لهذا ولم يصور على هذه الحقيقة، لما مضى يبحث عن اللذائذ بشهوة غير منقطعة، وأن جوهر الحيـاة الانسانية ان تنصرف الى ملذاتنا وأن كل ما عدا ذلك غباء وجهل . أمّا هذه الفضيلة الرقيقة فلم تجادل فيها حقيقة من الحقائق .

وإذ كانوا يعدون الأسباب التي توجه مصير فورموزانتا ، ظهر في طرف الحلقة شاب أجنبي يمتطي خرتيتاً ومعه وصيفه يمتطي خرتيتاً آخر وعلى يده يجثم طائر كبير . وقد داخلت الدهشة قلوب الحراس إذ آنسوا في هذا الزائر شخصاً تنبعث منه ريح القدسية . فقـد كان له وجه أدونيس على جسم هيرقل . فحاجباه السوداوان وجدائله الجميلة كان ينبعث منها جمال لا عهد لبابل به ، حتى لقد أثار اعجاب الحضور ، فهبّ المسرح بأكمله لمشاهدة ذلك الزائر الأجنبي ونظر اليه نساء البلاط بأجمعهن نظرات كلها دهشة واعجاب، حتى أن فورموزانتا التي ظلت حتى ذلك الوقت مغضية من نظرها ، رفعت عينيهـا وعلت وجهها حمرة الخجل ، وبهت الملوك الثلاثة وعلا وجوههم الاصفرار . ولما قرن الحضور هذا الأجنبي بفورموزانتا صاحوا قائلين . « ما من شاب آخر في العالم قد بلغ جماله مبلغ جمال الاميرة » .

سأله الحجاب مأخوذين بالعجب عما اذا كان ملكاً ؟ فرَدَّ بأنه لم ينل ذلك الشرف وانه من بلد أجنبي حضر مدفوعاً بالفضول ليرى هل هناك ملك هو كفء لفورموزانتا. ثم توجه خفيا بيلوس وابنته والملوك الثلاثة ثم الحضور وذلك بكل احترام وتبجيل . واقتيد الى الصف الأول من المسرح فاستقر في مقعده يعلوه شيء من حمرة الخجل ، ورقد الخرتيتان عند قدميه وجثم الطائر فوق كتفه وجلس وصيفه الى جواره ومعه حقيبة صغيرة .

بدأت المنافسة وأخرج قوس النمروذ من جرابه الذهبي ، وتقدم مشرف الاحتفالات العام ومن أمامه عشرين يقرعون الدفوف ، ومن خلفه خمسين وصيفاً وسلم القوس لفرعون مصر . فأمر كهنته ان يباركوه ثم سنده على رأس عجل آبيس من غير أن يشك في أنه سيحظى بأول نصر . فنزل الى ساحة الميدان ثم حاول مستجمعاً كل قواه ومضى يتلوى محدثاً حركات كانت سبباً في إثارة الضحك من الجميع ، وشاركتهم في ذلك فورموزانتا . فإنها لم تقو على حجب ابتسامة ارتسمت على ثغرها .

وإذ ذاك تقدم نحوه رئيس حجابه قائلاً . « دع جلالتك هذا الشرف الخسيس الذي قوامه قوة الأعصاب والعضلات ، فانك سوف تنتصر في كل شيء ما عدا هذا ، فسوف تقهر الأسد حيث أنك تملك بركة إيزيس . إن أميرة بابل سوف تكون لمن هو أحكم المتنازعين. وأنت تحل الطلاسم . انها ستتزوج أفضلهم ، وأنت كذلك . فقد تعلمت على أيدي كهنة مصريين ، وأكرمكم سيصبح زوجها . وقد أهديتها أرهق تماسيح وأجمل فأرين من فئران الدلتا. وتملك كذلك عجل أبيس وكتب هرميس، أندر أشياء في الوجود . فلا أمل لأحد في أن ينازعك فورموزانتا .

فقال ملك مصر « أنت على حق » ثم عاد الى عرشه .

أعطي القوس بعد ذلك الى ملك الهند الذي ظلت يداه مخمشتان من أثر الجهد أربعة عشر يوماً، ولكنه تعزّى عن ذلك بأن ملك إسقوثيا سوف لا يكون أسعد منه حظًّا .

ثم أخذ ملك الاسقوثيين القوس بدوره ، وقرن القوة بالمهارة ، فظهر أن القوس بدأ يلتوي بين يديه ، فلواه قليلاً ولكنه عجز أن يحنيه وقد أعجب المشاهدون بطلعته، فمالوا إليه وودوا لو أنه ينتصر ولكنهم حزنوا لاخفاقه ، إذ قام في روعهم أن الأميرة الفاتنة سوف لا تتزوج .

نزل الى الميدان ذلك الشاب المجهول وقدم نفسه الى ملك اسقوثيا قائلاً « لا ينبغي أن تندهش جلالتك لعدم تمام نجاحك ، فان هذه الأقواس الابنوسية تصنع في بلادي ولها طريقة خاصة تستعمل بها ، ولذا تكون قدرتك على ثنيه قليلاً أعظم من قدرتي لو أني

قوسه تماماً. ثم أخذ سهماً وثبته في الوتر ، وطوى قوس النمروذ ورمى بالسهم خلف الأبواب

صفقت ملايين الأيدي للأعجوبة ، ودوت بابل بهتاف الاستحسان ، وأجمع النساء على أنه حظ سعيد أن يجمع شاب بين جمال الصورة وقوة البدن ، ومن ثمت أخرج من جيبه قرصاً صغيراً من العاج وكتب فيه بقلم من الذهب وثبته في القوس وقدمه الى الأميرة بكثير من الكياسة أخذت بلب الحاضرين ، ثم عاد الى مكانه بين وصيفه وطائره . ولقد ذهلت بابل والملوك الثلاثة ، في حين لم يظهر على الشاب الاجنبي أي علامة من علامات الاهتمام لما قد حدث .

زادت دهشة فورموزنتا عند ما قرأت على القرص العاجي المثبت في القوس هذه الأسطر المكتوبة بالكلدانية الفصحى :

« إن قوس النمروذ هذا ، هو قوس الحرب ، أما قوس الحب فقوس السعادة ، فأيهما تملكين ؟ بفضلك أصبح هذا الاله القاهر سيد الأرض . ان ثلاثة ملوك أقوياء ، بل ثلاثة متنافسين يقدم كل منهم متطلعاً لارضائك ، ولست أدري أيهم يفضله قلبك ؟ ولكني أعلم أن من تفضلين سيغار منه الكون »

لم ترَ الأميرة أي شيء من الغضاضة في تلك القصيدة الغزلية ، ولكنها كانت موضع النقد من بعض رجال البلاط القدماء ، والذين قالوا بأنه لو وجد بيلوس وفورموزانتا في الأعصر القديمة لشبه هو بالشمس ورقبته بالبرج ، وشبهت هي بالقمر وصدرها بكيل كامل من القمح . وزادوا الى ذلك بأن الأجنبي فاقد التصور وأنه قد خرج على قواعد الشعر الجيد . ولكن السيدات حكمنَ بأن القصيدة في منتهى الفَرَاهة ، وعجبنَ من رجل يجمع بين استخدام القوس بهذا العنفوان وذلك القدر البالغ من الحصافة .

وقالت وصيفة شرف الأميرة : « سيدتي ، أي قدر من الذكاء والفطنة قد بدّدت في هذا المكان . وما الفائدة التي سوف يجنيها هذا الشاب من ذكائه ومهارته في معالجة قوس النمروذ .

أجابت فرموزانتا « ليثير بنفسه الاعجاب » .

صاحت الوصيفة « آه . قصيدة غزلية أخرى ، ثم يصبح محبوباً » .

وبعد أن استشار الملك بيلوس عقلاء مملكته ، أعلن بأن هؤلاء الملوك الثلاثة ولو أنهم أخفقوا في معالجة قوس النمروذ ، فإن ابنته برغم ذلك لا بدّ من أن تتزوج ، وإنها سوف تكون من نصيب ذاك الذي يقهر الأسد العظيم الذي كان قد أعدّه خصيصاً لذلك واحتفظ به في حريته .

رأى ملك مصر الذي بُذل في سبيل تعليمه كل ما استكنّ في مصر من الحكمة أنه

من المضحك أن يعرّض ملكاً نفسه لشراسة وحش في سبيل أن يتزوج ، وذلك برغم أنه يعتقد أن لنيل فرموزانتا قيمة لا تقدر . على أنه كان يعتقد أن الأسد لو أنشب فيه أنيابه ، فانه لن يستطيع أن يتزوّج هذه البابلية الحسناء . وبرأيه أخذ ملك الهند وانتهى أمرهما بأن ملك بابل يتخذهما هزواً وأنه أصبح واجباً عليهما أن يستدعيا الجند لتأديبه ، لاسيما وأن لديهم من الاتباع من يعتقدون أنه من الشرف الأكبر أن يموتوا في سبيل أسيادهم ، وذلك من غير أن تسقط شعرة واحدة من رأسيهما المقدستين . وبعد ذلك يكون من الهين عليهما أن يخلعا ملك بابل عن عرشه ثم يضربا قرعة : أيهما ينال فورموزانتا الفاتنة .

وبعد أن عقدا ذلك الاتفاق أرسل كل منهما رسولاً الى قومه في طلب ثلاثمئة ألف مقاتل حتى يستطيعا نيل فورموزانتا .

ومع هذا ، نزل ملك إسقوثيا بمفرده إلى الميدان ، يحمل سيفه ، ولم يكن في الحقيقة مدفوعاً بحب فورموزانتا وإنما كان حب العظمة والمجد اللذان دفعاه على القدوم الى بابل . وقد كان مصمماً على أن يُظهر أنه إذا كان كل من فرعون مصر وخان الهند شديدي التبصر حتى أنهما لا ينازلان الأسود ، فان عنده من الشجاعة ما يحمله على ألاّ يرفض النزال ، وأنه سوف يصلح ماخدش من شرف ديادعس . وقد أبت عليه شجاعته الخارقة أن يقبل استمداد العون من غيره ، فتقدم بمفرده محصناً بخوذة موشاة بالذهب ، ومظللة بذيول ثلاثة جياد ناصعة البياض كالجليد .

أطلق عليه أسد من أضخم وأشرس الأسود التي تعيش في جبال الانتيلبانية ، ولاح للحضور أن مخالبه المخوفة قادرة على تمزيق الملوك الثلاثة إرباً في لحظة وان بلعومه يكفي لازدرادهم جملة . اندفع البطلان الفخوران في عجلة التهور وسورة الغضب كل منهما في اتجاه الآخر . فأنشب الاسقوثي الشجاع سيفه في فم الأسد المفغور فارتطم حد السيف باحدى أسنان الأسد القوية السميكة التي لايخترقها من شيء ، فكسر . وكاد سيد الغاب ، وقد هاجه جرحه وصيره أكثر شراسة وضراوة ، أن يغرس مخالبه في جنبي الملك .

كانت الكارثة التي حلت بالملك الشجاع سبباً دعى الغاب الأجنبي أن ينزل الى ساحة القتال في سرعة البرق الخاطف ويجز رأس الأسد في مهارة فائقة أشبه بالمهارة التي رأيناها في فرساننا ، وهم يجزون رؤوس الدمى السود في المناورات الحربية.

ثم أخرج صندوقاً وقدمه الى ملك إسقوثيا قائلاً : ستجد جلالتك في هذا الصندوق شيئاً من حقيقة النسجل الأصيلة التي تنمو في بلادي وهي تلئم جروحك الملكية في لحظة . ان المصادفة فقط هي التي فاتت انتصارك على الأسد ، فبسالتك وجرأتك ليستا مما لا تثير الدهش

إستقوى على الملك شعور الاعتراف بالجميل أكثر مما إستقوى عليه شعور الحقد، فعانق منقذه بعطف وحنان، وشكره ثم عاد الى مقعده ليضع النَّجْل على جراحه.

أمر الأجنبي وصيفه أن يغسل رأس الأسد من نافورة عند أسفل الدرج، فلما زالت آثار الدماء، أخرج من جيبه آلة حديدية صغيرة وأفرغ مكان الأسنان الاربعين ووضع مكانها أربعين جوهرة متساوية الحجوم. ثم عاد السيد الى مكانه بتواضعه المعروف وأعطى رأس الأسد الى الطائر الجميل وقال: احمل هذه الهدية الصغيرة وضعها عند قدمي فورموزانتا.

جنح الطائر في طريقه وهو يحمل ثمرة النصر المرعب في إحدى مخلبيه وقدمه الى الأميرة، ثم أحنى رقبته في تواضع ظاهر وربض بين قدميها. بهرت الجواهر أعين الذين شاهدوها، فمثلها كان غير معروف حتى في بابل العظيمة، فالزمرد، والياقوت الأصفر والأزرق، والأحجار الجرانيتية الياقوتية اللون كانت لا تزال حتى ذلك الوقت أعظم ما يتزين به. ولقد داخل بيلوس ورجال بلاطه دهشة عظيمة، كما أثار الطائر الذي قدم الهدية في نفوسهم دهشة أعظم. فقد كان في حجم النسر، ولكن لم تكن عيناه كعيني النسر مخيفة جبارة، بل كانت ناعمة حنوناً، وكان منقاره وردي اللون يشبه بعض الشيء فم فورموزنتا، وتماوج في رقبته ألوان قوس قزح، ولكن ببهاء أعظم وروعة أكبر. وقد غشى ريشه لون الذهب متدرجاً في الف من الظلال المتباينة، وكأن قدميه كانتا خليط من الفضة والأرجوان. وأما ذيول تلك الطيور التي كانت في يوم ما تجر عربة يونوس، فلم يكن جمالها ليقرن بجمال ذيل ذلك الطائر الفريد الذي يعز نظيره

استأثر الطائر والجواهر بما انبعث في قلوب أهل الحاشية من الاستعجاب والدهشة والفضول. جثم الطائر على أحد الأعمدة بين الملك والأميرة، فربتت الأميرة عليه وأمرت بيدها على ريشه ثم قبلته، فقابل رعايتها بمزيج من السرور والاحترام الظاهر، فلما ضمته رد تحيتها ناظراً اليها بعينين تفيضان حبًّا وحناناً، فأعطته بسكويتاً وفستقاً فتلقاها بمخلبيه الفضيين وحملها الى منقاره بدلال يعجز عنه الوصف.

وبعد أن اختبر بيلوس الجواهر بانتباه وفطنة، انتهى الى انه ما من أحد قدم لابنته مثل تلك الهدية الفاخرة، وانه يجب أن تمد هدايا أعظم وأفخر لذلك الشاب الأجنبي، من تلك التي أعدت لثلاثة الملوك الآخرين وقال «ليس من شك في أن هذا الشاب الصغير ابن ملك الصين أو ابن ملك تلك الرقعة من الأرض التي سمعت عنها وتسمى أوربا، أو أفريقية، تلك التي يقال انها بالقرب من المملكة المصرية».

وسرعان ما أرسل رئيس خدمه ليتحسس ذلك الأجنبي : أهو امبراطور أم ابن أحد من ذوي الامبراطوريات السالفة . وكيف لا وهو يملك ذلك الكنز المدهش وقدحضر وحده بخادم وحقيبة !

وبينما رئيس الخدم يتجه نحو الدرج إذا بوصيف آخر يصل ممتطياً خرتيتاً مبمماً نحو الاجنبي ويقول إن والدك « أورمار » قد اقترب من نهاية الحياة ولقد حضرت لأنبئك بذلك .

رفع الفتى عينيه إلى السماء فانحدرت منهما دموع فيَّاضة وقال « لنرحل » .

وبعد أن قدم رئيس الخدم التحية لقاهر الأسد ومهدي الأربعين جوهرة وصاحب الطائر الجميل ، سأل وصيفه . « من أي مملكة والد هذا البطل الملكي؟ » .

فقال الوصيف « إنّ والده راعي غنم كبير السن محبوب من كل مواطنيه » .

وفي أثناء الحديث قال الفتى لرسول الملك وقد ركب الخرتيت :

« سيدي : تعطف واجعلني أسجد عند قدمي الملك بيلوس وابنته ، إذ يجب أن أضرع إليهما عساها تضفي على ذلك الطائر عناية خاصة ، ذلك بأنه كالأميرة نادر الوجود» . ولما انتهى من كلماته اندفع بخرتيته كالبرق الخاطف يتبعه وصيفاه واختفوا عن الأنظار في لحظة .

لم تتمكن فورموزانتا أن تنهنه من بكائها ، وظهر على الطائر تأثر بالغ عند ما أدار نظره بوله الى حيث كان يجلس سيده وبدا على نظراته حنوّ بالغ كأنما هو قد صمم على تكريس حياته لخدمة الأميرة،عند ما أنسها تربت في عطف بيدها الجميلة على منقاره .

على أنّ أعظم ما أثار دهشة الملك بيلوس،علمه بأن هـذا الشاب الخارق ابن راعٍ . فلم يصدق ما سمع وأرسل من خلفه رسلاً سرعان ما عادوا ليخبروه بأن الخراتيت الثلاثة التي ركبها أولئك الفتيان يعسر اللحاق بها . ذلك بأن سرعتهم كان يجب أن تصل الى مئة ميل في اليوم الواحد .

أخذ كلٌّ يفكر في تلك الخاطرة العجيبة ، وراحوا يحدسون ويضربون في الظنون . أيمكن لابن راع أن يهدي أربعين جوهرة كبيرة ؟ وكيف تأتى له أن يركب الخرتيت ؟ إنّ ذلك قد ملأهم دهشاً وعجباً ، في حين أن فورموزانتا وقد أخذت تدلل طائرها ، غمرها شعور عظيم بالخشية والاعجاب .

الفصل الثاني

كان لفورموزانتا إبنة عم تدعى الديا ، لا تقل عنها جمالاً وفتنة ، فكانت وسيمة الطلعة بهيَّة المحيَّا ، وقد قالت لها ذات يوم :

« يا إبنة العم ، إني لا أبالي أن يكون نصف الإلاه هذا ابن راعٍ أو سواه ، ولكني أظنه قد أتمَّ كل الشروط المفروضة لزواجك . لوى قوس النمروذ ، وقهر الأسد . ثمّ ان له نصيباً كبيراً من الذكاء والفطنة ، فقد ارتجل لك قصيدة غزلية رائعة ، كما أظن أنك لاتنكرين أنه أكثر الرجال كرماً بعد أن أهداك أربعين جوهرة كبيرة ، وله الطائر الذي هو أكثر الأشياء غرابة على وجه الأرض . وأن فضيلته لا يمكن أن تدانيها فضيلة،مذ رحل توًّا حال علمه بمرض أبيه ، بالرغم من أنه كان يجب أن يبقى ليمتع نفسه بصحبتك . وقد تحققت النبوءة في كل تفاصيلها ما عدا الوقت الذي ينتصر فيه على منافسيه . غير أنه فعل أكثر من هذا اذ أنقذ حياة منافسه الوحيد الذي يخشاه . في حين أنه عندما يكون التنافس موجهاً الى الاستعلاء على الاثنين الآخرين ، اعتقد أنك لاتشكين في أنه سينتصر عليهما بسهولة » .

فقالت فورموزانتا « إن كل ما تقولين هو حقٌّ ، ولكن أمن الممكن أن يكون أعظم الرجال وربما أحبهم جميعاً ابن راعٍ ؟ »

قالت وصيفة الشرف التي شاركتهما الحديث بأن لقب الراعي كثيراً ما يخلع على الملوك فيدعون رعاة،لأنهم يتصلون برعاياهم اتصالاً وثيقاً ، وأنَّ تلك الكلمة صدرت بغير شك من الوصيف عن طريق المزاح المبغوض . فإن هذا البطل الشاب لم يتهيأ بكامل عدته عند حضوره الا ّ ليظهر أن حذقه الشخصي وحده أعظم وأفخر من استعراضات الملوك الفخيمة . فلم تبد الأميرة بعد ذلك أي رأي،بل عمدت الى الطائر في حنان تقبّله آلاف القبل .

وأعدّت مع ذلك وليمة عظيمة للملوك الثلاثة ولباقي الأمراء الذين حضروا تلك الحفلة، وكانت الأميرة وإبنة عمها تحييان ضيوفهما ، ووزع الملك من الهدايا الفخيمة ما يناسب عظمة بابل . وبينما كانت الموائد تعد للحضور ، جمع بيلوس مجلس استشارته للتباحث في أمر زواج

فورموزانتا الجميلة . ومضى يعبر المجلس عن رأيه متخذاً سمة سياسي من كبار السياسيين ، فقال :

« تقدمت بي السنون ، ولست أعرف الآن الطريق الأفضل لاتباعه إزاء ابنتي ، أو لمن من العرسان أقدمها ، فمن يستحقها ليس إلا واعياً حقيراً ، وملكا مصر والهند بهما جبن ، وأفضل الثلاثة عندي هو ملك الاسقوثيين ، إلا أنه لم يتم أي شرط من الشروط اللازمة ، وسوف نستشير النبوءة مرة ثانية ، وأتباحث معكم في نفس الوقت ، وسننتهي بعظيم السرور الى ما ترشدنا إليه النبوءة . ذلك لأن الملك لا يجب أن يتبع شيئاً غير ما تمليه الآلهة الخالدة » .

وتوجه إلى المعبد فأجابته النبوءة في كلمات قليلة كالعادة « ان ابنتك سوف لا تتزوج إلا بعد أن تطوف كرة الأرض » ، فعاد بيلوس وقد تملكته الدهشة وردد هذه الكلمات على مسمع من مجلس استشارته .

على أن احترام النبوءات العظيم الذي كان متغلغلاً في نفوس الوزراء ، جعلهم يوافقون بالاجماع ، أو على الأقل تظاهروا بالموافقة ، لا لسبب اللهم إلا أنهم أساس الدين وعمدانه ، وان العقل يجب أن يلغى أمام إرادتهم ، فمن طريقهم سلط الملوك على شعوبهم . وبغير النبوءات لا يبقى من فضيلة أو راحة في الأرض .

وفي النهاية وبعد تأدية أعظم مظاهر الاحترام لهم ، انتهوا الى أن هذه النبوءة سفيهة ولا ينبغي ان تطاع ، فليس هناك من حماقة أشد من أن تهيم الى مكان مجهول ، إمرأة صغيرة وعلى الأخص ابنة ملك بابل العظيم ، وان هذه هي الوسيلة المحققة لمنعها من الزواج ، وإلا أنشأت لنفسها علاقات خفية مخجلة . وعلى الجملة فإن هذه النبوءة معدومة النهى .

قال أصغر الوزراء سناً ، ويدعى أوناداس ، فقد كان أحسن تفكيراً من الآخرين ، بأن النبوءة بغير شك لا تقصد إلا هجرة دينية ، وتطوع ان يكون رائد الأميرة . فوافق المجلس على فكرته ولكنهم رغبوا جميعاً في أن يكونوا رفقاءها . وبعد ذلك صمم الملك على أن ترحل الأميرة في الطريق المؤدي الى بلاد العرب ، ثلاثمئة فرسخ ، حتى تنتهي الى المعبد الذي اشتهر قديسه بتهيئة الفتيات الصغيرات للزواج السعيد ، يرافقها في الرحلة رئيس ثمامسة المجلس . وبعد ذلك قاموا لتناول العشاء .

الفصل الثالث

حفل ملكي لتكريم الضيوف الملكيين

وتكلم الطائر بفصاحة مع فورموزانتا

في وسط الحدائق و بين خليجين من خلجانها ، أقيم بهو إهليلجي الشكل قطره ثلاثمئة قدم ولون سقفه أزرق لازوردي ، رصع بنجوم من الذهب ، وضعت بحيث تمثل كل الصور السماوية والسيارات وكل منها في مكانه الصحيح . وكان هذا السقف يدور دورة القبة السماوية بآلات بلغت من الخفاء مبلغ تلك القوة التي تدير القبة السماوية . ويضيء الحديقة وبهو الطعام مئة الف شعلة في داخل اسطوانات من البلور الفاخر . وأقيم مقصف مدرج فيه عشرين ألف آنية خزفية وصحن ذهبي . وفي مواجهته وعلى درج آخر ، جلس عدد كبير من الموسيقاريين ، كما أعدّ درجان آخران يبذّانه زينة وفخامة ، أحدهما مليء بفواكه الفصول الأربعة ، والآخر حوى مشارب بلّورية تتلألأ فيها أنواع الخمر المنتقاة

أخذ الضيوف أماكنهم حول مناضد قسمت الى حنيات متناهية رصعت بالأحجار الكريمة فكانت تشبه الثمار أو الزهور . وجلست فورموزانتا الفاتنة بين ملكي مصر والهند ، كما جلست ألديا الوديعة إلى جانب ملك اسقوثيا . وجلس حوالي ثلاثون أميراً الى جانب كل منهم فتاة من أجمل فتيات الحاشية . واتخذ ملك بابل مكانه في الوسط مواجهاً ابنته وقد ساوره خيالان ، حزنه لعدم تمكنه تزويجها ، والآخر سروره لأنها ما زالت معه . وقد استأذنت فورموزانتا أن تضع الطائر الى جانبها على المائدة ، فسمح لها الملك بذلك :

واستمرت الموسيقى تعزف طول وقت الطعام . فسنحت بذلك لكل أمير فرصة ان يحدث صاحبته . وقد جمع ذلك الاحتفال بين أسباب السرور وأسباب العظمة ، وفي أثناء الطعام تقدم أحد الخدم بلحم متبل وضعه أمام فورموزانتا ، فأبدت رغبة في أن يرسل ذلك الصنف الى جلالة والدها لأنه من مفضلاته ، فسرعان ما أمسك به الطائر وحمله بطريقة خارقة وقدمه للملك . ولما لم يكن أحد قد شاهد شيئاً أعجب من ذلك ، دَلّله الملك وربت عليه كما تفعل الاميرة ، ثم طار عائداً إليها ناشراً في أثناء طيرانه ذيلاً جميلاً آخاذاً كما مد

جناحيه الكبيرين بما فيهما من مختلف الألوان الزاهيـة ، وبهر الكل ريشه الذهبي، حتى لم تبقَ عين إلا وقعت عليه ، ووقف الموسيقاريون بلا حركة ، وامتنع على آلاتهم أن ترسل بالألحان المؤتلفة، ولم يشتغل أحد لا بالأكل ولا بالكلام ولم يعد يسمع غير همس شامل معبر عن الدهشة والاستغراب ، ومضت أميرة بابل تقبله طول وقت الطعام غير مبالية ان كان في العالم ملوك . فعاود الغيظ والكراهية ملكي مصر والهند وملأ قلبيهما الحقد مضاعفاً ، وصمما على ارسال ثلاثمئة الف مقاتل لطلب الثأر.

أمـّا ملك أسقوثيا فقد شغل بمداعبـة الأميرة ألديا وقد حمله كبر نفسه ان يزدري بغير حقد انصراف الأميرة فورموزانتا عنه، فأبدى نحوها من الاستهانة أكثر مما أبدى من الاحتقار: وقال لصاحبته: «اني أسلم بأنها جد رشيقة ، ولكنها تظهر لي كأنما هي إحدى النساء اللواتي يتهن اعجاباً بجمالهن ، ويتصورنَ بأن الرجال قد يملكهم شعور الامتنان والشكر اذا تنازلنَ فظهرنَ في المجتمع . واني لأفضل امرأة لينة الجانب رقيقة الاحساس وأتغاضى عن قبح وجهها ،على هذا التمثال البديع . ولكِ يا سيدتي من الجمال ما لها ، وأنتِ على الأقل تتلطفين بالحديث مع الاجانب ، وأقول لك باخلاص كرجل اسقوثي أني أفضلك على ابنة عمك».

لم يكن الاسقوثي مصيباً في نظرته لفورموزنتـا ، فانها لم تـكن ذات أنفـة وكبرياء كما يظهر عليها ، ولـكن تلقت الأميرة ألديا تلك الـكلمات بشيء من الاستحسان . وأغلب الظن انهما تركا المائدة وكلٌ منهما راضٍ عن كلام الآخر ، مليء بالثقة نحوه . وبعد العشاء تريض الضيوف في خمائل الحديقة ، فلم يفشل ملك اسقوثيا والأميرة ألديا في العثور على مكان منفرد . ولما كانت ألديا سليمة النية فقد عبرت عن ذات نفسها للأمير قائلة :

«اني لا أكره ابنة عمي ، ولو انها تفوقني فتنة وجمالاً ، وقدر لها أن تـكون على عرش بابل. وهذا العرش في الحقيقة يجب أن يؤول اليّ شرعاً ، ذلك اذا كان في الـكون حق . لأني انحدر من الفرع الأقدم لعائلة النمروذ وفورموزانتا تنتمي للفرع الأحدث ، فقد نزع جدها جدي عن العرش وقتله».

فسأل ملك إسقوثيا ، أهذه هي حقوق الوراثة في بيت بابلونيا المالك ؟ وما اسم جدها هذا؟

«إنه كان يدعى ألديا كما أدعى، وكما كان يدعى والدي ، الذي نفي مع أمي، الى أحد أطرف الأمبراطورية ، وبعد ان ماتا ولم يعد ببلوس يخشى من شيء ، رغب في أن أربّبَ مع ابنته، ولـكنه صمم ألاّ أتزوج أبداً .

قال الملك : «سوف أنتقم لك ولوالديك ولجدك ، وسأكون المسئول عن زواجك ،

وحيث اني سأتناول غداً طعام الغداء مع بيلوس،فانتظري بعد غد في الفجر ، فسوف أرحل بكِ ، ثم أعود على رأس ثلاثمئة الف مقاتل وأعيد اليكِ حقوقكِ » . فوافقت ألديا على ذلك وافترقا بعد ان تعاهدا بشرفهما ألا يخونا العهد .

أما فورموزانتا العزيزة ، فأمرت قبل أن تهجع الى فراشها بشجيرة برتقال في غلاف من الفضة ،وأن توضع إلىجانب فراشهاليجثم عليها الطائر . وبعد أن اسدلت ستائر مخدعها مضى وقت غير قصير وهي تحاول عبثاً أن تنام . فقد كان قلبها خفاقاً وخيالاتها ثائرة ، فالبطل الأجنبي ما زال ماثلا في وهمها وكأنها تراه يقذف السهم بقوس النمروذ . توهمته وهو يقطع رأس الأسد ، ثم رددت قصيدته ، وأخيراً مثل لها وقد امتطى الخرتيت هاقاً طريقه في وسط الجموع . فلم تمالك نفسها وفاضت منها العبرات واكتنفتها الأشجان والهموم تأثراً من تلك الخيالات فصاحت : « هلا أراه بعد اليوم ؟ أسوف يعود ؟ »

رد الطائر من أعلا الشجيرة « نعم سوف يعود ، أيمكن ان يراكِ احد، ثم لا يرغب في أن يراكِ مرة ثانية » .

«يا للسماء ! يا للقوى الأبدية ! ان طائري يتكلم الكلدانية الفصحى» ثم رفعت الستائر وانحنت على فراشها وقالت .

« هل انت آله هبطالى الأرض ، أم أنت أوروماسدس الأكبر يختفي في ذلك الاهاب الريشي الجميل ؟ ان كنت هو ، فأعد إليّ ذلك الشاب الخلاب ! »

رد الطائر «لست إلا حيواناً مجنحاً ، ولكني ولدت في زمان كانت لا تزال تتكلم فيه الحيوانات ، حيث كانت الطيور والحيات والحمير والخيل والغرافين تتفاهم بلا كلفة مع الانسان. وماكنت لأتكلم امام الناس لئلا يقول نساء الشرف في بلاطك إني ساحر،ولن أبوح عن نفسي لغيرك » .

حسرت فورموزانتا عن الكلام أمام هذه الأعاجيب ساكرة بالدهشة مليئة بالرغبة في إلقاء مئة سؤال جملة، وفي النهاية سألته عن عمره فقال « سبعة وعشرون ألفاً وتسعمئة سنة وستة أشهر ، فإن عمري يبدأ مع انقلاب الاعتدالين الصغير الذي حدث منذ ثمانية وعشرين ألف سنة من سنيكم ، وهناك انقلابات أبعد زمناً من ذلك ، و بذا فهنالك كائنات أقدم مني . وتعلمت الكلدانية خلال احدى رحلاتي منذ اثنتي وعشرين ألف سنة وقد تذوقت هذه اللغة . وأما اخواني الحيوانات الأخرى فقد أمسكوا عن الكلام في أقليمكم هذا » .

« ولماذا ياطائري القدمي » ؟

« وا أسفاه ! ذلك لأن الناس قد عوّدوا أنفسهم على أكل لحومنا بدلاً من مخالطتنا

وتهذيب أنفسهم معنا . يا للهمج ! ألا يكفي لإقناعهم بأننا اخوانهم أن لنا نفس الأعضاء ، ونفس العواطف ونفس المطالب والرغبات ولنا فوق ذلك ما يسمونه النفس كما لهم ، فلا يجب أن يطبخ ويؤكل إلا الفاسد الشرير . فإننا الى حدّ بعيد اخوانكم ، لأنّ الكائن الأعظم القادر على كل شيء ، الحي السرمدي ، قد عقد عهداً مع الانسان ، وبكل وضوح أدخلنا في نفس المعاهدة وقد نهاكم عن تعذيب أنفسكم على لحومنا كما نهانا عن مص دمائكم » .

« إنّ خرافات لقمان ، التي ترجمت الى لغات كثيرة ، ستظل الشهادة الأبدية الخالدة على المعاملة التي جريتم عليها معنا منذ زمان بعيد ، وتبدأ كل تلك الخرافات بعبارة ، « عندما كانت تتكلم الحيوانات » .

« وإنه لحقّ أن كانت هناك أسر منكم لا تزال تحتفظ بالتحدث الى الكلاب . ولكن رفضت الكلاب أن تجيب عليهم منذ أن أجبروهم بالسياط ، على الخروج معهم للصيد وإشراكهم في جريمة قتل اخواننا القدماء ، الأيائل والظباء والأرانب ، والحجال ، كما لا يزال لديكم قطعاً شعرية تكلمت فيها الخيل ، وفي كل يوم يحدثهم الحوذية ، ولكن بطريقة همجية وبعبارات مهينة . ولذلك كرهتكم الخيل كرهاً شديداً بعد أن كانت تظهر لكم كثيراً من المودّة والعطف » .

« إنّ أكل الرجال هم مواطني الأجنبي الذي تعجبين به ، وهي المملكة الوحيدة التي ظلّ فيها نوعكم يبدي الاحترام والكرامة لنوعنا ويتحدثون إلينا ، وفوق ذلك فهي المملكة الوحيدة في العالم التي يقيم فيها الرجال العدول » .

قالت فورموزانتا « وأين تقع مملكة عزيزي المتنكر ؟ ما اسم امبراطوريته ؟ لأني لن أصدق بعد ذلك إنه ابن راعٍ ، كما لا أصدق أبداً إنك خفاش ! » .

ردّ الطائر قائلاً « إنه عند بلاد الكنجيين الذين يسكنون الشاطىء الشرقي لنهر الكنج أناس عقلاء وفضلاء يمتنعين على أعدائهم . وصديقي يدعى « أمازان » وليس بملك ولست أعرف عما اذا كان يقبل أن يذل نفسه فيصير ملكاً . إنه يحب مواطنيه حبًّا كبيراً ، وهو راعٍ مثلهم ، ولكن لا تظنّي أنّ هؤلاء الرعاة يشابهون رعاتكم ، الذين يلبسون الخرق البالية ويرعون أغناماً أجمل منهم أردية ، وفوق ذلك يئنون تحت حمل الفقر والعوز ، وأخيراً يدفعون الى السلبة والنهّاب نصف أجورهم السنوية الدنيئة التي يتقاضونها من أسيادهم . وأما الرعاة الكنجيون فقد ولدوا متساوين ، ويملكون قطعاناً لا حصر لها تنتشر في حقولهم الفسيحة ، ترعى على الخضرة الغزيرة ، ولا يقتل شيء من هذه القطعان أبداً ولا تؤكل ، لأن ذلك جريمة مخيفة في تلك المملكة . فإنهم لا يقتلون أو يأكلون أي مخلوق يتنفس ،

وإن صوف تلك الأغنام أفضل وأكثر جودة من الحرير وفيه تنحصر أعظم متاجر الشرق. وتنتج أرضهم فوق ذلك كل ما يمكن أن يكون موضعاً لإشباع رغبة آدمي. فتلك الجواهر التي كان لأمازان كل الشرف أن يقدمها إليك، هي من منجم له. والخرتيت الذي شاهدته ممتطياً إياه، هو الحيوان الذي يركبه الكنجيون عادة. فإنه أكثر الحيوانات زهواً وأشدها تخويفاً. وفي نفس الوقت أودع حيوان يزين وجه الأرض. فثمة خرتيت وعليها مئة فارس كنجي كافية لتشتيت جيوش لا حصر لها، فقد أقدم ملك من الهند منذ قرنين مضيا لغزو تلك الأمة وكان ذلك جنون منه. فقد تقدم يتبعه عشرة آلاف فيل، ومليون محارب وقد كانت الخراتيت تخرق أجسام الفيلة بقرونها، كأنها الخرز الذي أشاهده مرشقاً في «البروشات» الذهبية الموضوعة فوق خوانك. وأما فرسانهم فكانوا يخرون تحت رماح الكنجيين كأنما هم نبات الأرز يحصده رجال الشرق. وأسر الملك مع ستة آلاف رجل، وأجبر على أن يستحم في مياه الكنج المفيدة للصحة، واتباع نظام المملكة الذي لا يبيح لبشري أن يأكل غير الخضروات التي جعلتها الطبيعة بسخاء غذاء لكل مخلوق يتنفس. أما أولئك الذين يتغذون باللحوم ويدمنون الخمور، فقد استحرت دماؤهم، وتمتمت عقولهم في مئات من المناحي المختلفة، وأصبحت نهمتهم منصبة على اهراق دماء اخوانهم واتخاذ كثير من السهول الخصبة مدافن تحوط كنائسهم.

أما علاج ذلك الملك من مرضه فقد استغرق ستة أشهر كاملة، وبعد أن فحصه الاطباء ووجدوا نبضه عادياً، أعلنوا ذلك للجمعية الكنجية، ومن ثمت تبع المجلس نصيحة الخراتيت. وبكل انسانية أرسلوا ملك الهند الى بلاده ومعه رجال بلاطه البلهاء وفرسانه الضعفاء العاجزين، وقد جعلهم هذا الدرس القاسي أكثر تعقلاً. ومنذ ذلك الحين والهنديون يحملون كل احترام وتبجيل للكنجيين، كما يحترم جهلاء الرجال الذين يرغبون في التفقه، الفلاسفة الذين لا يطاولونهم.

قالت الأميرة «أوافقك يا طائري العزيز، ولكن، أيتبع الكنجيون ديناً؟ ألهم دين خاص.؟»

قال الطائر «بكل تأكيد، فنحن نجتمع لنبذل الشكر الى الله في الأيام التي يكتمل فيها القمر. الرجال في معبد كبير صنع من خشب الأرز، والنساء في آخر، لكيلا تختلط صلواتهم، وتجتمع الطيور في خميلة، وذوات الأربع في سهل، ونشكر الله على كل الخيرات التي منحنا اياها، وعندنا على الأخص ببغاوات تعظ بقدرة فائقة».

«هذه هي صورة من بلد عزيزي أمازان، فهنالك أقيم، وصداقتي له كبيرة كذلك الحب الذي ألهمك إياه. فان وثقت بي فسننطلق معاً لنزوره».

قالت الأميرة: «انها الدعوة في الحقيقة رقيقة منك يا طائري العزيز» وهكذا كان رد الأميرة وقد وضحت على فمها ابتسامة رقيقة، وهي تحترق رغبة في تلك الرحلة، من غير أن تجرأ على التصريح بذلك.

قال الطائر «اني أخدم صديقي، ولا يعدل سعادتي بحبك الا سروري العظيم بمساعدتي اياك».

خيل لفورموزانتا من فرط سرورها أنها ارتفعت عن الأرض، فان كل ما رأت في ذلك اليوم وكل ما ستري وكل ما سمعت وخاصة ما شعرت به في قلبها قد أنعشها انتعاش أولئك المسلمين السعداء عندما يشعرون بأنهم قد تحللوا من كل صلاتهم الأرضية، فيخيل اليهم انهم قد بلغوا السماء السابعة وهم في أحضان حوريس، تحوط بهم العظمة السماوية والرحمة الالهية.

الفصل الرابع

ملك مصر يقتل الطائر ، وتفر ألديا مع ملك اسقوثيا

أمضت فورموزانتا الليل تتحدث عن أمازان ، وأخذت تدعوه براعيها، ولم تعد تدعه بأي اسم آخر . ومنذ ذاك الوقت أصبح اسم الراعي والحبيب : لفظين تستعملهما جميع الأمم مترادفين بغير تمييز .

سألت فورموزانتا الطائر عما اذا كان لأمازان أية خليلة ؟ فلما أجابها الطائر بالنفي ، شعرت بأنها في ذروة السعادة والهناء . وسألته تارةً أخرى كيف يمضي حياته ؟ فعلمت ، وقد غمرها الانشراح ، بأنه ينفق كل وقته في عمل الخير ، وفي خدمة الفنون ، وكشف أسرار الطبيعة ، وتهذيب نفسه . وتارةً أخرى أرادت أن تعرف إن كانت طبيعة نفس حبيبها من نفس طبيعة طائرها ؟ ولكن كيف يحدث هذا وقد عاش الطائر نيفاً وعشرين ألف سنة ، في حين أن حبيبها لم يعدُ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره . ومن ثمّ ألقت على الطائر مئات الأسئلة المشابهة لهذا ، فكان يجيب عليها بقدر من الحكمة أثار فضولها . وأخيراً غلب النعاس أجفانها وأسلمها الى خيالات الأحلام الجميلة التي توحي بها الآلهة ، والتي في بعض الأحيان تفوق الحقيقة ذاتها ، ويندر أن تفسرها الفلسفة الكلدانية برمتها .

تأخرت فورموزانتا في الاستيقاظ ، وكانت الشمس قد علت في كبد السماء عند مادخل والدها الملك غرفتها . فقابل الطائر جلالته بأدب زائد ، ومشى أمامه ، وخفق بجناحيه ، ومدّ عنقه ثم جثم على شجيرة البرتقال . أما فورموزانتا فجعلتها الأحلام أكثر فتنة وجمالاً فجلس الملك على فراشها وانحنى عليها حتى اقتربت لحيته الكبيرة من محياها وضمها في حنان ، ثم حدثها قائلاً :

« يا بنيتي العزيزة ، انك لم تتمكني بالأمس من العثور على زوج يوافق رغباتي ، ومع ذلك يجب ان تتزوجي . ان في ذلك سعادة أمبراطوريتي . وقد استشرت النبوءة التي تعلمين انها لا تخطيء ابداً ، وانها توجه كل اعمالي ، فوجدت رغبتها في ان تجوبي العالم ، وعلى ذلك يجب أن تبدئي هذه الرحلة .

عجباً ! الى الكنجيين بدون شك ! ولكنها أحست بحماقتها لما تفوهت بهذه الكلمات لعاجلة ، وحينئذٍ رد عليها الملك،وكان يجهل الجغرافيا جهلاً تامًّا، عما تعني بالكنجيين ؟ ولكنها استطاعت بسهولة ان تغير مجرى الحديث . وبعد ذلك أخبرها الملك بأنها يجب ان ترحل في هجرتها وانه عين كل الأشخاص الذين سيرافقونها وهم رئيس مستشاري الدولة ، ورئيس الحجاب ، ووصيفة شرف ، وصيدلي والطائر ، وجميع الخدم اللازمين .

كانت فورموزانتا الى حين وصول أمازان والملوك الثلاثة ، تعيش في قصر أبيها عيشة لا طعم لها . فإنها لم تغادره مرة واحدة وفقاً لتقاليد السلوك المتبعة مع من كنّ في مثل منزلتها . ولذلك سرت كثيراً لخروجها في هجرة بعيدة ، ومضت تحدث نفسها : من ذا الذي يدري ؟ لعل الآلهة توحي لأمازان بنفس الرغبة في الذهاب الى نفس المعبد ، فيسعدني الحظ برؤيته مرّة ثانية ؟ ثم شكرت والدها بكل غبطة قائلة بأنها كانت دائماً تحمل في نفسها حبًّا دفيناً للقديس الذي سوف تزوره .

أقام الملك بيلوس في ذلك اليوم حفلة غداء فاخرة للرجال من ضيوفه ، وقد كانوا صحبة غير متجانسة ، منهم الملوك ، والأمراء ، والوزراء ورؤساء الدين ، وفي قلب كل منهم غيرة متقدة نحو صاحبه . ومضوا يزنون كل كلمة تخرج من أفواههم ، فلا يرسلونها إلاّ بعد أن يزنوها جيداً ويتفحصوها ، حتى لقد ملكت كل منهم خشية مفرطة من صاحبه أولاً ، ثم من نفسه ثانياً . وكان جو المائدة مظلماً كئيباً رغم أنهم أسرفوا في احتساء الخمر . أمّا الأميرتان فقد بقيتا في حجرتيهما ، تفكر كل منهما ، وتتأمل رحلتها العظيمة ، وتناولتا الغداء في حرمهما الصغير . وبعد الغداء خرجت فورموزانتا تتجوّل في الحديقة بصحبة طائرها الذي كان يتنقل بين الشجيرات ناشراً ذيله الجميل وريشه القدسي ليدخل في نفسها السرور .

أمر ملك مصر ، وقد لعبت برأسه الخمر وإن لم يثمل ، أحد وصفائه أن يحضر له قوساً وسهماً . وكان الملك في الحقيقة أقل الرُّماة حذقاً ومهارة في مملكته . فإنه عندما يقذف بسهم يكون الهدف آمن الأهداف . ولكن في تلك اللحظة كان الطائر الجميل مندفعاً في الجو بسرعة تضارع سرعة السهم ، فلم يستطع أن يتفاداه ، ووقع بين يدي الأميرة يتخبط في دمه ، وعاد المصري الى مكانه مرسلاً ضحكة ملؤها السفه والحماقة . وأمّا فورموزانتا فصدعت حجب السماء بأنّاتها ، وانحدرت منها الشئون فياضة ، ومزّقت شعرها وضربت صدرها ، وعندئذٍ قال لها الطائر المحتضر في صوت خافت هزيل : « أحرقيني ، ولا تتواني عن حمل حطامي الى شرقي مدينة عدن القديمة ، وعرّضي رمادي للشمس فوق عمود صغير

من القرفة والقرنفل » . وما إن قال ذلك حتى أسلم الروح .

أغمي على فورموزانتا وقتاً غير قليـل ، ولم تفق إلاّ لتنفجر عيناها بالدّمع وقلبها بالأنـات . أمّـا أبوها الذي شاركها حزنها واستنزل اللعنات على فرعون مصر ، فلم يشك في أنّ هذه الحوادث إنما هي نذير بحوادث أعظم . وسرعان ما ذهب يستشير النبوءة ، فأجابت « من كل شيء أثر : حياة وموت ، أمانة وخيانة ، خسارة وربح ، سعود ونكبات » . ولم يفهم الملك ولا أعضاء مجلسه أي معنى لهذه الاجابة ، ولـكنه اكتفى في النهاية بأنه قد أتم واجبات العبادة .

كانت فورموزانتا خلال هذا الوقت قد تبللت بالدموع وأتمت مراسم الجنازة للطائر كما رسمها ، وصمّـمت أن تحمل بقاياه الى بلاد العرب مخاطرة بحياتها من أجله ، فجمعت تلك البقايا في آنية صغيرة من الذهب مطعمة بالياقوت الاحمر والجواهر ، بعـد أن نزعتها من فم الأسد القتيل .

أواه ! لو أنها تحرق ملك مصر البغيض حيًّا بدلاً من أن تقوم بهذا الواجب المحزن ! هذه كانت رغبتها لـكنها تعزّت عن ذلك فقتلت تماسيحه ، وبفروسيه ، وحماريه الوحشيين ، وفأريه ، وألقت بجثتيه المحنطتين في الفرات ، ولو أنها تملك عجلة آبيس لما توانت في ان تفرط عليه.

أثارت هذه الاهانة غضب ملك مصر ، فأرسل في الحال يطلب رجاله الثلاثمئة ألف ، ولما رأى ملك الهند أنّ حليفه قد رحل ، أرسل هو أيضاً في نفس اليوم لرجاله ، وفي نفسه أن يضم الثلاثمئة ألف هندي الى الجيش المصري . وفرّ ملك اسقوتيا في الليل مختطفاً ألديا وهو أشد ما يكون رغبة في أن يحارب في سبيلها على رأس ثلاثمئة ألف إسقوتي ، ويعيد حقوقها في وراثة عرش بابل، حيث أنها تنحدر من الفرع الأكبر لعائلة النمروذ .

ورحلت فورموزانتا الفاتنة بقافلة المجرة في الثالثة من الصباح، وهي تمني نفسها بالذهاب الى بلاد العرب لتتم آخر إرادة لطائرها العزيز مؤمنـة أنّ عدل الآلهة سوف يعيد إليها عزيزها أمازان ، وقد أضحت الحياة بدونه عبئاً لا يحتمل .

عند ما استيقظ ملك بابل ووجد أن الجميع قد رحلوا صاح :

« هكذا انتهت الاحتفـالات العظيمة ! فأي فراغ مؤلم قد خلفوا عندما مضوا على عجل مسرعين » . وما لبث أن انتابه غضب ملـكي السمات، لما علم أن الأميرة ألديا قد اختطفت فأمر أن يحضر إليه وزراؤه في الحال، وأن يجتمع مجلس مشورته ، وبينما هم يتأهبون لذلك لم ينس إستشارة النبوءة ، غير أنه لم يفز منها إلاّ بكلمات أصبحت من الشهرة بحيث عمّت

جميع انحاء العالم منذ ذاك الوقت ، فقد قالت « عند ما يهمل الأهلون تهيئة بناتهن للزواج ، فإنهن يزوجن أنفسهن » .

وصدرت في الحال الأوامر بتوجيه ثلاثمئة ألف مقاتل الى ملك إسقوثيا . وعندئذ أشعلت نار حرب مهولة كان سببها تلك المسرات التي أقيمت في أعظم حفل عرف على وجه الأرض . وأصبحت آسيا المركز الذي تخترقه أربعة جيوش عداد كل منها ثلاثمئة ألف رجل . وجلي أن حرب طروادة التي أدهشت العالم بعد ذلك بعدة عصور ، لم تكن إلا لعب أطفال اذا هي قرنت بهذه الحرب . ولكن ينبغي أن نعي أن عراك الطرواديين لم يكن له من سبب إلا امرأة هرمة خسيسة الأخلاق ، حاولت أن تختطف مرتين ، في حين ان حربنا هذه ثلاثية الأسباب : فتاتان ، وطائر .

توجه ملك الهند للقاء جيشه في طريق متسع كامل النسق عند كشمير ، ويؤدي رأساً إلى بابل . وفر ملك إسقوثيا مع ألديا عبر الطريق الجميل الذي يسلم إلى جبل إيموس . امّا هذه الطريق الجميلة فقد تلاشت في طيات الزمن الماضي بسبب سوء ادارة الحكومات . واتجه ملك مصر نحو الغرب على ساحل البحر المتوسط الصغير الذي كان يسميه العبرانيين الجهلاء في ذلك الوقت بالبحر الأعظم .

وتبعت فورموزانتا الطريق المؤدي الى البصرة ، وكانت تكتنفه أشجار النخيل الباسقات فتمده بظل دائم ، وثمر خلال كل الفصول . وكان المعبد الذي ستؤدي واجبات العبادة فيه في البصرة نفسها . وكان القديس الذي أقيم له هذا المعبد ، على نفس صورة القديس الذي عبد بعد ذلك في لمساقوس ، وقد أصاب نجاحاً كبيراً في تهيئة الأزواج للفتيات الصغيرات . والواقع انه القديس الاقدس في آسيا كلها .

وفي الحقيقة لم يكن لفورموزانتا أية رغبة في الذهاب لقديس البصرة ، بل انحصرت كل رغبتها في أن تحظى بعزيزها الراعي الكنجي ، وبالحري حبيبها أمازان . فاقترحت أن تبحر من البصرة ثم تلقي برحلها في أرض الحجاز لتنفذ ما أوصى به طائرها الميت .

لم تكد فورموزانتا تدخل الى فندق جميل حيث أعدّ لها أتباعها كل أسباب الراحة ، حتى علمت بأن ملك مصر قد سبقها اليه . فانه لما علم من عسسه بالطريق الذي تبعته ، بدّل طريقه في الحال تتبعه حاشيته العظيمة ، حتى وصل الى الفندق ، فترجل عن جواده وأقام حراساً على جميع الأبواب ، ثم توجه الى غرفة فورموزانتا حيث بادرها قائلاً .

« أيتها الآنسة ، إنك المرأة التي أجد في طلبها ، لكنك لم تلقِ اليّ بالاً عند ما كنت في بابل . إنه من العدل أن تعاقب الهوائيات ذوات الكبر والتشامخ . هل لكِ أن تتلطفي

وتتناولي معي عشاء اليوم ، على أن يكون تصرفي معك معادلاً رضائي عن تصرفك ؟ »

أدركت فورموزانتا أنها الجانب الأضعف ، ورأت أنه من الحكمة ورجاحة العقل أن يتصرف الانسان بحسب الظرف الذي يحيط به ، فصممت على التخلص من ملك مصر بحيلة بريئة ، ونظرت إليه من طرف عينيها تلك النظرة التي عرفت فيما بعد ذلك من العصور « بغمز العين » ومضت تحدثه برقة ، وأدب وتواضع ، ودلال ، وجملة أخرى من ضروب الفتنة تكفي لأن تخلب أعقل العقلاء ، وتخدع أنبه الناس .

« أعترف يا سيدي أني اغضضت دائماً من نظري عندما شرفت أبي الملك بزيارتك ، فكنت أشعر ببعض عواطف تختلج في نفسي وخشيت أن تنم عنها سذاجتي ، وكنت أرتجف خوفاً من أن يلحظ أبي ومنافساك ، تفضيلي إياك ، وإنك لجدير به . أمّا الآن فأستطيع أن أعلن عن عواطفي ، فأقسم لك بالعجل آبيس الذي لا أحترم من شيء في العالم أكثر منه بعدك ، بأن اقتراحك فتنني . وقد تشرفت بمؤاكلتك بصحبة والدي ، وسوف يزيد شرفي بأن أواكلك على انفراد مرة ثانية ، على أن يشاركنا في الشراب رئيس حجابك ، فقد تبين لي في بابل أنه محدثٌ فاره . ولدي قدر جيد من خمر شيراس المشهور . وستصيبان منها . إني لأنظر اليك نظرتي لأعظم الملوك ، وأحب الرجال » .

غيرت هذه المناقشة من رأي ملك مصر ، فقبل مشاطرة رئيس حجابه له في الشراب ، ثم مضت الأميرة تقول بأن لها رجاءً آخر هو أن يسمح لها بالتحدث الى صيدليها الخاص ، معقبة بأن النساء دائماً تنتابهن بعض الأوجاع الخفيفة التي تتطلب العناية ، كأبخرة في الرأس مثلاً ، أو اضطرابات في القلب أو مغص في الامعاء وما شابه ذلك من الأمور التي تستدعي الرعاية والمساعدة . وأني لأشعر أني في حاجة الى الصيدلي وآمل ألاّ ترفض لي طلباً ، إن دلّ على شيء ، فإنما يقوم شهادة على ثقة منك بسيطة بشخصي » .

أجاب الملك « إني أعرف الحياة جيداً ، ولا أرفض لك مثل هذا الطلب العادل ، فسآذن للصيدلي أن يقدم لك خدماته حتى يحين وقت العشاء ، ولقد يخيل إليّ أن الرحلة قد أنهكتكِ بعض الشيء ، وانكِ تحتاجين الى إحدى وصيفاتك ، فاستدعي أحبهن الى قلبك . واني بعد هذا كله رهن أوامرك وطوع مشتهياتك » ثم انصرف .

حضر اليها الصيدلي ووصيفة تدعى « إرلا » وكانت الأميرة تثق بها ثقة عمياء فأمرتها باحضار ست زجاجات من خمر شيراس مع العشاء ، وأن تسقي كل الحراس الذين أمرهم ملك مصر أن يقبضوا على ضباطها من ذلك الخمر . ثم أمرت الصيدلي أن يضيف الى الزجاجات عقّاراً مخدراً كان يحتفظ به ولا يفارقه ، ومن شأنه ان يسلم بمن يتعاطى منه شيئاً الى

نوم عميق أربعة وعشرين ساعة . فأطاعها الصيدلي بثقة تامة . ومن ثمت عاد الملك بعد نصف ساعة ومعه رئيس حجابه .وكان حديث العشاء مرحاً ، فشرب ست الزجاجات كاملة ، معترفين بأنه لا يوجد في مصر مثل هذا الخمر . كذلك لم تفشل الوصيفة في القيام بمهمتها ، ولم تتناول الاميرة قطرة واحدة قائلة أن طبيبها أمرها باتباع نظام خاص . ثم لا بسهم نوم عميق .

كان رئيس الحجاب يلبس لحية مستعارة من أجمل اللحى التي تليق برجل في مثل منزلته ، فانتزعتها فورموزانتا بمهارة فائقة ، وحاكتها في شريط من القماش ولبستها ، وارتدت لباس الكاهن ، وزينت نفسها بكل أوسمة الشرف التي له .وأخذت إرلا ثوب حافظ الأثواب الكنسية للاله إيزيس ، وبعد ان تحلت فورموزانتا بابريقه وجواهره ، غادرتا الفندق بين صفوف من العسكر يغطون في نوم أعمق من نوم أسيادهم ، وقد أعد لها خادمها عند الباب جوادين ، غير انها لم تتمكن ان تصحب معها ايّ من ضباط حاشيتها حذر ان يمنعهم حارس الباب الأكبر.

مرت فورموزانتا وإرلا بين صفوف من الجند مختلفة الرتب ، وقد ظنوا ان الأميرة الكاهن الأعظم ، فكانوا ينادونها بقولهم « ياأبي المحترم » ويسألون الغفران . وبعد اربعة وعشرين ساعة وصلتا الى البصرة قبل ان يستيقظ الملك ، وخلعتا ما تنكرتا به من الثياب ، خشية ان يبعث لباسهما بعض الشك في الناس .

ومضتا تستعدان للسفر بسفينة كاملة العدة شطر بواغيز هرمز عند شواطيء عدن الجميلة في الحجاز . وكان لحدائق عدن شهرة فائقة اذ كانت في ذلك الوقت موطناً لأعاظم بني البشر ، وقد نسقت على غرار الحقول الألوزية ، وحدائق هسپريدس ، والجزر السعيدة . وقد تخيل الناس ان في تلك الأقاليم الدفيئة لا يوجد هناء اعظم من الظلال الوارفة والنهيرات الهامسة ، وان يعيش الانسان دائماً في السماء مع الخالق الأول ، وان يتجول في جنّة الفردوس ، مثلهم كمثل اولئك الذين يثرثرون من غير ان يفهم بعضهم بعضاً ، أولئك الذين ليس لهم آراء معينة او تعبيرات واضحة .

عندما بلغت الأميرة ارض عدن ، صرفت كل همها الى اقامة المراسم الجنائزية التي طلبها طائرها العزيز ، ثم جمعت بيديها الجميلتين بعضاً من القرفة والقرنفل ، ولشد ما كانت دهشتها إذ رأت عند ما نثرت حطام الطائر من فوق هذه المحرقة الجنائزية ، انه اشتعل من تلقاء نفسه وبسرعة عظيمة .لم يظهر في مكان الحطام شيئاً اللهمّ الاّ بيضة كبيرة خرج منها الطائر الجميل أكثر بهاء وروعة من ذي قبل ، فكانت تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتها ، إذ لم يكن من شيء أعز عليها من طائرها ، الا مرمى رغباتها ، ذاك الذي كان دائماً فوت آمالها .

قالت الأميرة « أرى بوضوح أنك بذاتك العنقاء التي طالما سمعت عنهـا ، واني لأكاد أقضي فرحاً ودهشة ، بيد أني لا أعتقد في بعثك ، لـكن من حسن حظي ان اقتنع بذلك.

قالت العنقاء « البعث في الحقيقة أحد الأشياء البسيطة في الوجود ، فانه ليس بشيء أكثر من ان نولد مرتين ، وكل شيء في الـكون أثر من آثار البعث ، فاليساريع تنبعث فراشات ، والبذرة في الأرض تتولد منها الشجرة ، وكل الحيوانات التي تدفن في التراب تستحيل زروعاً وحشائش تربب بها حيوانات أخرى ، فتتحول بسرعة عظيمة جزءاً من جوهرها . إن كل الذرات التي تؤلف الأجسام تنقلب موجودات مختلفة ، وفي الحق انني الـكائن الوحيد الذي تفضل « ارمزد » وبعثني في صورتي الأولى .

أجابت فورموزانتا وقد شملها منذ اللحظة الأولى التي شهدت فيها أمازان والعنقاء ، جو من الدهشة والعجب : «أستطيع بكل سهولة أن ادرك ان الخالق الأول قادر على أن يخرج من بقاياك عنقاء على تمام الشبه بك ، أما أن تعود ذات الشخص ، وبنفسك الأولى ، فذلك ما لاأستطيع أن افهمه بجلاء. خبرني ما الذي حل بنفسك بعد أن جعلت بقاياك في جيبي بعد موتك»

قال « تأملي لحظـة واحدة ، أليس من الهين على ارمزد العظيم أن يستمر في التأثير على ذرة واحدة من جثماني ، ويعيد الي الحياة ؟ فقد سلبني من قبل ذلك الحاسة والفكر والذاكرة ثم وهبني اياها مرة أخرى . وسواء أوضع سره في ذرة من النار الأولية كامنة في جثماني أو في مجموع أعضائي، فتلك مسألة في الحقيقة ليست ذات بال . إن الانسان كالعنقاوات لا يعرف مستقبل الحياة ، ولـكن السر الذي وهبني إياه الخـالق الأول هو لا عادتي اليك . عجباً ! وأن أعيش تلك الثاني وعشرون الف سنة التي يجب أن أحياها قبل بعثي المقبل بصحبتك وبصحبة عزيزي أمازان » .

قالت الأميرة « تذكر يا عنقائي العزيز ما خبرتني به في بابل ولن انساه ، والذي يبعث في نفسي الأمل في ان ارى من أحب مرة أخرى . ولا بد لنا من ان نزور الـكنجيين معاً ، فمن الضروري ان اعود إلى بابل ومعي امازان » .

قال « هذا ما صممت عليه ، وليس لدينا لحظـة نضيعها عبثاً . ويجب ان نبحث عن امازان من اقرب الطرق ، وذلك بطريق الجو . فان لي غرفينيز من اصدقائي ، على بعد مئة وخمسين الف فرسخ من هنا ، وسأكتب اليهما رسالة يحملها بريد الحمام ، وسوف يصلان قبل المساء . ولدينا من الوقت ما يتسع لصنع هودج بأدراج يمكن ان تحفظي فيها كفايتك من الطعام . وسوف تتميز ووصيفتك براحة تامة فيه . ان هذين الغرفينيز من اضخم أنواع جنسهما ويستطيع كل منهما ان يحمل احد عمودي الهودج في مخلبه ، ولا شك في ان الوقت ثمين جداً » .

وفي الحال ذهبت فورموزانتا مع الطائر الى منجد من معارفه ليصنع لهم هودجاً ، فأتم عمله في اربع ساعات ، واحتفظوا في ادراجه ببعض ارغفة صغيرة وفطائر افضل مما في بابل من مثلهما ، ونزر من الليمون الكبير والتفاح والكاكاو والفستق ، وخمراً عدنية فضلها على خمر شيراس ، كتفضيل هذه على خمر سورينام .

وصل الغرفينان عدناً في الوقت المحدد ، وكان الهودج مريحاً خفيفاً ، على صلابته ومتانة بنائه . فأخذ كل من فورموزانتا وايرلا مكانهما فيه وحمله الغرفينان في مخالبهما وكأنهما يحملان ريشة ، واتخذا ميممتهما نحو الكنج في سرعة سهم يشق الهواء . وكان العنقاء يطير خلفه ، مرة ويجثم على حافته اخرى ، ولم يتوقف الغرفينان غير مرة واحدة ليتزودا بالماء وليتناول المسافرتان بعض المرطبات .

وصل الركب بعد لأي الى مملكة الكنجيين ، فخفق قلب الأميرة بالحب والأمل والسرور واهبط العنقاء الهودج امام بيت أمازان ، فعلموا انه رحل منذ ثلاث ساعات ولا يدري احد أي الاقطار اراد .

لم تكن هناك من كلمات حتى في لغة الكنجيين تعبر عن مدى خيبة امل فورموزانتا صاح العنقاء « يا حسرتاه ! هذا ما كنت اخشى ، ان ثلاث الساعات التي امضيتها في الفندق على طريق البصرة مع فرعون مصر الشقي ، ربما كانت ثمناً لسعادتك بقية الحياة . واني اخشى تماماً ان نفتقد امازان بلا امل في العثور عليه » .

سأل العنقاء هل يمكن ان يقابل ام امازان ، فأجابه الخدم ان زوجها قد مات منذ يومين ولا يمكنها ان تكلم احداً . واذ كان للعنقاء بعض النفوذ ، أدخل الأميرة الى قاعة استقبال فاخرة ، يغشى جدرانها خشب البرتقال المطعم بالعاج .

قام رعاة أمازان من الرجال والنساء في أكسية بيض طويلة مذهبة الأطراف ، يقدمون لها مئات من طيب المأكل في آنية مسطحة من الخزف ، بريئة من الأقذار والعفن ، كالأرز والساغو والشعرية والمكرونة ، والعجة والبيض ، واللبن والقشدة والجبن ، وصنوف أخرى مختلفة ، مع خضروات وفواكه لذيذة الطعم فريدة في نكهتها ، ليس لها من نظير في الأقاليم الاخرى ، كما قاموا بتقديم سوائل مرطبة تفضل أفخر أنواع الخمر .

وبينما كانت فورموزانتا تستلقي على فراش من الورد ، وتتناول من الطيبات التي قدمت إليها ، إذ بأربعة من الطواويس تتناغى مرحة مهللة ، طفقت تروح عليها بأجنحتها الزاهية . وأخذ مئتا طير ومئة راعٍ وراعية يرتل كل منهم أنشودة مختلفة عن الأنشودة التي يرتلها الآخر ، وانطلق مع أغنيات الرعاة جمع من الشراشير والبلابل والزقيقات يرسلن بتنغيماتهن

العالية . حينئذٍ اعترفت الأميرة ، أنه لو كان هناك من عظمة تزعظمة بابل لتضاءلت أمام جلال الطبيعة في بلاد الكنجيين ، وبينما كانت هذه الموسيقى المحبَّبة الجميلة ترسل أنغامها الشجية كانت الدموع تنهمر من عيني الأميرة ، فقالت للآنسة إرلا :

« إنَّ هؤلاء الرعاة والراعيات والبلابل والزقيقات، لمتحابون جميعاً . أمَّا أنا فمحرومة من البطل الكنجي الذي إليه تتجه كل عواطفي وأفكاري . وبينما كانت تلك المقارنات تتخايل أمامها كانت دموعها المنهمرة تتخطى ما قام في نفسها من ضروب العجب والانذهال».

ثم تقدمت العنقاء الى أم أمازان قائلةً : « لا يمكنك ياسيدتي أن تحجبي رؤية أميرة بابل فإنك تعلمين ...

قالت « نعم . أعلم كل شيء ، وحتى مخاطرتها في الفندق وهي في الطريق الى البصرة . إنَّ طائراً أسود قص لي هذا الصباح كل ما حدث ، فكان له من سيء الوقع ما أجنَّ ولدي وجعله يغادر منزل والديه » .

قال « ألم تعلمي أنَّ الأميرة أعادتني الى الحياة » .

أجابت « لا ياطفلي العزيز ، إنَّ الطائر الأسود أخبرني بموتك الذي لا يتعزى عنه . فقد تأثرت كثيراً لتلك الخسارة ، ولموت زوجي ، ولترك ولدي منزله في هذه العجلة . فأمرت أن يغلق بابي في وجه الجميع . هذا ما أخرني عن إدخال الأميرة ، وقد شرفتني بزيارتها . على انَّ لديَّ من الأمور الهامة ما أود أن أحيط الأميرة علماً به وأود لو شهدتَ الحديث .

وذهبت لترى الأميرة في غرفة أخرى . وكانت تتعثر في خطاها ، فقد بلغت من العمر قرابة ثلاثمئة سنة ، لكن لا يزال للجمال عليها طابع له روعة ، تدلنا على أنها عندما كانت في الأربعين أو الخمسين بعد المئتين ، لابدَّ وأنها كانت ذات حسن عظيم . وقابلت فورموزانتا في احترام عظيم يشوبه جو من التلهف والحزن أثار في نفس الأميرة كثيراً من الطرب والانشراح .

عزَّتها فورموزانتا في فقد زوجها فقالت الارمل : وا أسفاه ! إنَّ هنالك أسباباً لحزنك على فقده أكثر مما تتصورين .

ردَّت فورموزانتا « إني متأثرة بدون شك فإنه والد ... » ومنعتها عبراتها عن تتمة الكلام . ثم استطردت قائلة « قمت لأجله بهذه الرحلة ، التي نجوت من أخطارها بأعاجيب ، وبسببه تركت أبي وأعظم بلاط على وجه الأرض ، وعافني ملك مصر الذى أمقته . ثم بعد أن افلت من عبوديته ، واخترقت الجو بحثاً عن الرجل الوحيد الذي احبه ، لم اكد اصل

حتى فرّ مني » ! ثم انحدرت على خديها دموع حزينة،وسكتت .

قالت أم امازان « عندما امرك ملك مصر وانت في الطريق الى البصرة ، وتناولت معه العشاء ، ثم ملأت له كأساً طافحة من خمر شيراس ، ألم تلحظي طيراً اسود بالغرفة » .

قالت الأميرة « نعم . أتذكر الآن انه كان بالغرفة طير اسود لكني لم اعره أدنى انتباه. ولقد أتذكر الآن انه عند ما همّ ملك مصر بأن يقبلني طار من النافذة مرسلاً صيحة عالية، ثم اختفى » .

«وا أسفاه ! هذا ياسيدتي سبب شقائنا ، فقد أرسل ابني هذا الطائر الأسود ليوافيه بأخبارك وبصحتك وبكل ما يحدث في بابل ، ثم اقترح أن يذهب إليك سريعاً ويلقي بنفسه عند قدميك ويكرّس بقية حياته لخدمتك . إنك لا تعلمين مقدار حبه لك وحدبه عليك . فإن كل الكنجيين محبون مخلصون ، لكن ولدي أكثرهم عاطفة وأشدهم اخلاصاً . فلما وجدك الطائر الأسود مرحين في الفندق مع ملك مصر والكاهن اللئيم ، ثم شاهدك تعانقين هذا الملك الذي قتل العنقاء والذي يحمل له ولدي كرهاً دفيناً ، طار عنكما وقد ملكه مقت عظيم من جراء خطئك الجسيم ، وعاد اليوم فأخبرنا بكل شيء» .

«يا للسماء ! إنه لموقف حرج . ففي نفس الوقت الذي كان فيه ولدي يندب فقد والده والعنقاء الحكيم ، أخبرته بأنه ابن عمك عصباً» .

«يا لله ! إبن عمي ! أيمكن هذا ياسيدتي ؟ كيف يكون ذلك ؟ ألهذا القدر سعيدة أنا بقرابته ، وشقية بخصامه ؟

قالت الكنجية « إن ولدي ابن عمك ، وسوف أقنعك بذلك ، إلاّ أنه لن ينسى الألم الذي أثاره في نفسه معانقتك ملك مصر » .

صاحت فورموزانتا الفاتنة « أقسم به ياعمتي العزيزة ، وبكل القوى الأرمزدية ، أن تلك المعانقة كانت بريئة تماماً من الإثم . وهذا برهان قوي لاثبات حبي لولدك ، فلأجله خالفت والدي وبسببه رحلت من الفرات الى الكنج ، ووقعت بين يدي فرعون مصر الخسيس ولم أتمكن من الافلات منه إلاّ بالخديعة ، ثم إني لأدعو بقايا العنقاء التي كانت في جيبي للشهادة ، . لكن كيف يكون ولدك وقد ولد على شواطىء الكنج ابن عم لي ، وقد حكمت عائلتي على شواطىء الفرات قروناً عديدة ؟ »

قالت الكنجية المبجلة « إنك تعلمين ان عمك الأكبر ألديا كان ملكاً لبابل وأن والد بيلوس انتزع منه العرش . وتعلمين أن ألديا هذا كان له ولد يدعى ألديا كذلك ، فلما طارده والدك ، فرّ الى مملكتنا واتخذ اسماً مستعاراً، وتزوج مني فأنجبت له الأمير الصغير ألديا

امازان ، أكثر الناس جمالاً وشجاعة وكرماً ، ولكنه الآن أكثرهم تعاسة وشقاءً . ذهب الى حفل بابل مأخوذاً بجمالك الفتان . فشغف بك منذ رآك ، وحزن الآن لاعتقاده بأنك خنته ، وربما لا أراه بعد ذلك » . ثم أفضت إليها بجميع أنساب عائلة ألديا . لكن فورموزانتا لم تبد أي اهتمام بذلك .

قالت فورموزانتا « عجباً ياسيدتي ! ألنا أن نبحث عن الغرض الذي يحرك رغبتنا ؟ إن قلبي يصدقك تماماً . ولكن أين ألديا أمازان ؟ أين قريبي ؟ أين مليكي أين حياتي ؟ اي الطرق اتّبع ؟ فسأجد في اثره ، وسأبحث عنه في كل كرة خلقها الاله الازلي ، والتي يكون امازان اذا هبطها أزين ما فيها . سأذهب الى سهيل والدّرع والدّبران . سأذهب وأفضي له بحبي واقنعه ببراءتي » .

ثم إن العنقاء برأ الأميرة من الجريمة التي نسبها اليها الطائر الأسود ، إلاّ انه من الضروري ألاّ يظل امازان مخدوعاً وينبغي ان يعثر به . فأوفدت الطيور في كل فج ، ورحلت الخراتيت الى كل صقع ، ثم وصلت الأنباء اخيراً بأن امازان في طريقه الى الصين .

قالت الأميرة : « حسن ، إذن لنرحل الى الصين ، فسأبحث عنه متحدية كل صعوبة وكل خطر ، فالرحلة ليست طويلة وآمل أن اعيد اليك ولدك في اربع عشرة يوماً على الأكثر » .

وعندئذٍ انحدرت الدموع من عيني الأميرة وأم امازان ، ثم تعانقتا في حنان صدر من اعماق قلبيهما ، وسرعان ما امر العنقاء بعربة يجرها ستة خراتيت ، وجهزت ام امازان ألفي جواد بفرسانها من الكنجيين ، واهدت الأميرة آلافاً من الجواهر النادرة . امّا العنقاء فقد ساءه الحادث المنكر الذي تسبب فيه الطائر الأسود بحمقه ، فأمر جميع الطيور السود ان تغادر البلاد . ومذ ذاك لم ير واحد منها على شطئان نهر الكنج .

الفصل الخامس

طواف فورموزانتا في الصين واسقوثيا

بحثاً عن أمازان

حملت الخراتيت فورموزانتا وإيرلا والعنقاء الى كمبالو عاصمة الصين في أقل من ستة أيام ، وكانت تلك المدينة أضخم من عاصمة بابل وتختلف في ظاهرها عنها كل الاختلاف ، وأصبح من المحتمل أن تبعث تلك المناظر المختلفة والأحوال الغريبة بعض السلوى في نفس فورموزانتا لو لم يستول أمازان على انتباهها جملة.

لما علم أمبراطور الصين أن أميرة بابل على أبواب المدينة ، أرسل في الحال أربعة آلاف مأمور صيني في أثواب الاحتفالات لاستقبالها ، فانحنوا خشعاً لديها وتقدموا اليها برسالة كتبت بأحرف من الذهب على نسيج من الحرير الارجواني . وحينئذٍ قالت فورموزانتا أنها لو ملكت أربعة آلاف لسان لما تأخرت في أن تفكر كل منهم ، أما وان ليس لها غير لسان واحد ، فإنها تأمل أن يكتفوا بأن تفكرهم إجمالاً . ثم وجهوها الى حيث كان الأمبراطور باحترام عظيم .

كان الأمبراطور أحكم وأعدل ملوك العالم وأكثرهم حبًّا للخير ، فهو أول من فلح حقلاً صغيراً ، زرعه بيديه الأمبراطوريتين ليجعل من الزراعة عملاً شريفاً عند رعيته . وبما يجعل أن قوانين كل البلاد الأخرى قد قصرت العقوبات على الجرائم فحسب ، أما هو فأول من نص في قوانينه على ثواب للفضيلة والخير . وبادر فنفى عصابة من البنزيين هبطت من أطراف الغرب آملة أن تفلح في أن تجبر الصينيين على أن يمكروا كما يفكرون ، فحظوا بالثروة والتشاريف تحت ستار الدعوى بالعمل على تلقين الحقائق ، وقد برر طردهم بتلك الكلمات التي سجلت في السجلات التاريخية للامبراطورية :

« يمكنكم أن تفعلوا هنا كل ما فعلتموه من أضرار خارج بلادي . حضرتم لتلقنوا مذاهب الاضطهاد لأكثر الأمم تسمحاً على وجه الأرض . ولذا أردكم ثانية حتى لا اضطر أن أعاقبكم ، ولسوف تساقون الى حدود مملكتي بعظيم الاحترام ، مزودين بكل

الحاجيات التي تلزمكم حتى تصلوا الى حدود نصف الكرة التي هبطتم منها . فأرحلوا بسلام إن استطعتم ان تكونوا رسل سلام ، ولا تعودوا » .

سمعت اميرة بابل تلك الكلمات ورأت ذلك الحزم ، فغمرها الانشراح ، وتأكدت تماماً من حسن استقبالها في البلاط حيث أنها كانت بعيدة كل البعد عن أي مذهب من مذاهب التعصب . وتفضل أمبراطور الصين حينما تناول معها طعام الغداء وجهاً لوجه، أن يتحاشى الرسميات الثقيلة . ولما قُدِّمت له العنقاء دللها بلطف وأجلسها على مقعده . وتوسلت اليه الأميرة أن يبحث عن أمازان في مدينة كبالو ، وأفضت اليه خلال ذلك بغامراتها غير مخفية تلك العاطفة الجارفة التي تحرق قلبها شوقاً نحو هذا البطل الشاب .

قال امبراطور الصين «انه شرَّف حاشيتي بزيارته ، ففتنت بهذا الأمازان اللطيف. والحق انه في أشد حالات الكرب والضيق ، ولكن رقة حاشيته وكرم خلقه ، ولا شك ، أشد تأثيراً من كربه وضيقه . ليس من رجالي المخلصين من هو اعظم منه قدرة ، ولا من رجال الدين عندي من يفوقه معرفة ، ولا من رجالي العسكريين من يبزه في المهارة الحربية او البطولة . فلو اصابني سوء الحظ وخذلني التيان والهانكتي ورغبت في ان اكون غازياً ، لما طمعت في شيء طمعي في أن يكون امازان على رأس جيوشي . ولن يداخلني ادنى شك في اني سأفتح الكون كله . ولشد ما آسف اذ كان الحزن في بعض الأحيان سبباً لفشله» .

قالت فورموزانتا بكثير من الانفعال والحزن مازجهما ريح من التأنيب واللوم «عجباً ! لِمَ لَمْ تدعه ليتناول طعام الغداء معي ؟ لشد ما صدمتني . أتوسل اليك ان ترسل في طلبه حالاً» .

اجاب امبراطور الصين « انه رحل في الصباح الباكر، ولم اعرف وجهته » .

إلتفتت فورموزانتا للعنقاء وقالت : « هل رأيت في حياتك من آنسة هي أتعس مني ؟ ثم استطردت حديثها مع الامبراطور قائلة : « كيف سمح لنفسه ان يغادر بلاطكم العظيم فجأة ، هذا البلاط الذي اعتقد ان الانسان يجب ان يمضي فيه حياته » .

قال الامبراطور : « اسمعي حقيقة الأمر : أحبته إحدى فتيات العائلة الجميلات حباً جنونياً ورغبت في مقابلته ظهر اليوم ، إلا أنه رحل في الفجر تاركاً لها هذه القصاصة التي كان ثمنها فيضان جارف من الدمع » .

« أيتها الآنسة المغولية الحسناء ، إنك لتستحقين قلباً لم يقدم من قبل على مذبح آخر . إني أقسمت للآلهة الخالدين ألا أحب أحداً غير فورموزانتا ، أميرة بابل ، وأعلمها كيف يقهر الانسان رغبات قلبه بالتنقل والرحلات . ومن سوء الحظ أنها استسلمت لفرعون مصر

الخسيس ! إني لأتعس الرجال ! فقدت أبي ، والعنقاء ، وضاع أملي في حب فورموزانتا ، فتركت أمي في كرب وغم وضيق ، وهجرت منزلي ووطني ، ذلك بأني لم أحتمل البقاء لحظة واحدة في المكان الذي بلغ سمعي فيه أن فورموزانتا تحب سواي ثم أقسمت لأجوبن العالم ، وأكونن مخلصاً . فاذا انا حنثت بوعدي ، فقد تحتقرينني ، وقد تعاقبني الآلهة ، فاختاري ياسيدتي حبيباً آخر وكوني مخلصة مثلي » .

صاحت فورموزانتا الجميلة « يا للعجب ! اعطني هذا الكتاب العجيب . ان فيه بعض العزاء ، ثم إني لسعيدة برغم سوء حظي . أمن أجلي يتبرأ أمازان من قرب أميرة الصين ! ليس في العالم من هو أشد منه ثباتاً وعزماً . إنه زودني بأثمن مثل أعلى . والعنقاء تعلم أني لست في حاجة اليه . كم هو قاس أن يحرم انسان من حبيبه ، تلقاء معانقة منحت بعفاف حقيقي . لكن خبرني الى أين ذهب ؟ تلطف واعلمني . لسوف أرحل في الحال » .

أخبرها الامبراطور أن حبيبها أخذ طريقه إلى اسقوثيا ، على ما وصل اليه من التقارير . فجهزت الحراقيت في لحظة ، واستمرت فورموزانتا في رحلتها مع العنقاء ووصيفتها إرلا وحاشيتها ، بعد أن حباها الامبراطور بكثير من العطف .

عندما وصلت اسقوثيا بان لها إلى أي حدٍّ تتباين الحكومات ويختلف الأفراد ، وأنهم سيظلون على اختلافهم وتباينهم ، حتى تمحو العقول الكريمة ، التي حملت مشاعل النور ، شيئاً بعد شيء ، تلك السحابة السوداء التي كست الأرض أجيالاً كثيرة والى أن تنبت في الأقاليم الهمجية نفوس عظيمة يكون لها من الاحتمال والقوة ما يكفي لقلب البهائم أناسي .

ليس في اسقوثيا مدناً ، ومن ثمت ليس فيها فنون رفيعة ، لا يرى هناك من شيء غير الحقول الشاسعة الفسيحة حيث تعيش القبائل في الخيام والصوامع ، فكان لتلك المناظر من الوقع ما أفعم نفس الأميرة اشمئزازاً وروعاً . فلما سألت في أية خيمة أو صومعة ، يقطن الملك ، علمت أنه رحل منذ ثمانية أيام على رأس ثلاثمئة الف فارس ليهاجم عم الأميرة ألديا الفاتنة التي فرت معه .

صاحت فورموزانتا « ماذا ! أفرَّ مع ابنة عمي ، ما كنت لأتصور مثل ذلك . ثم ماذا ! أأصبحت ابنة عمي ملكة ، وكانت تسعد السعادة كلها في توددها الي ، ولم أتزوج بعد ؟ » ثم توجهت لساعتها شطر صومعة الملك تدفعها رغبة خاصة .

أضفت مقابلتهما في مثل هذه الأقطار البعيدة ، والحوادث التي افضت بها كل منهما للأخرى على هذه الأحاديث نوعاً من الجدة ، جعلتهما تنسيان أنهما كانتا على بغض ، وحل في نفسيهما محل العطف الحقيقي ضرب من الوهم المادي ، فتحاضنتا والعبرات في ماقيهما .

ثم بدت منهما ظواهر دلت على اخلاص وتعاطف، قلما يكون لهما من مثيل بين جدران القصور .

تذكرت ألديا العنقاء والوصيفة إرلا ، وأهدت فورموزانتا من جلود « زبايز » الثمينة. فأهدتها فورموزانتا تلقاء ذلك بعض الجواهر . أمّا الحرب بين الملكين فكانت موضوع الحديث بين الناس . وقد رثينا لمصير الجنود الذين اجبروا على خوض غمارها ، وذهابهم ضحية لشهوات الأميرين ، ذلك في حين ان شخصين كريمين قد يفصلان ما بينهما من شحناء في اقل من ساعة ، من غير أن تسقط رأس واحدة . ولكن مدار الحديث كان عن ذلك الأجنبي الذي قهر الاسود ، وأهدى أثمن الجواهر في الكون ، وكتب القصائد الغزلية ، ثم ارتد أتعس الرجال وأشقاهم ، لأنه آمن وصدق بما نقله اليه طائر أسود .

قالت ألديا « إنه أخي العزيز » .

صاحت فورموزانتا إنه حبيبي ، ولا أشك في إنك رأيته، ألا يزال هنا ؟ إنه لن يغادرك يا ابنـة العم فجأة كما غادر ملك الصين ، اذ انه يعلم انه اخوك » .

« أرأيته يا الله ! « نعم: أمضى اربعة أيام كاملة معي . عجباً يا ابنة العم ! ما أشد لومي على أخي لان قولاً مزيفاً قلب عقله رأساً على عقب . انه يطوف العالم هائماً بغير غاية . تخيلي عظيم ذهوله فقد رفض مقابلة أجمل وأفتن امرأة في اسقوثيا، ثم رحل بعد أن ترك لها كتاباً أدخل في نفسها اليأس وتوجه لزيارة السمريين .

صاحت فورموزانتا مهللة « أشكرك يا إلهي ، رفض آخر في سبيلي ! إن حظي لمن السعادة بحيث يكون دائماً فوق آمالي ، كذلك سوء حظي فقد فاق كل أوهامي ومخاوفي . أعطني هذا الكتاب الساحر ، فسوف أرحل في أثره وكلي ثقة به . وداعاً يا إبنة العم . أما زال بين السمريين وسأطير وألحق به » .

اعتقدت ألديا أن إبنة عمها لا تزال في اضطراب أشد من اضطراب أخيها . ولما كانت قد وعت بنفسها نتائج ذلك الوباء المعدي ، وانها بذاتها قد تركت مباهج بابل وعظمتها من أجل ملك اسقوثيـا ، وأن النساء دائماً يفضضنَ عن هذه الحماقات التي هي من أثر الحب ، أحست بكرب فورموزانتا وغمها ، فتمنت لها رحلة سعيدة ، ووعدتها بأن تدافع عنها لدى أخيها إذا أسعدها الحظ برؤيته مرّة ثانية .

الفصل السادس

فورموزانتا تتابع رحلتها

غادرت أميرة بابل والعنقاء إسقوثيا ، وسرعان ما وصلا امبراطورية السمريين ، وتدعى الآن روسيا . وهي في الواقع دولة يقل عدد سكانها عن إسقوثيا ، إلاّ أن رقعتها تفوق هذه اتساعاً وامتداداً .

دخلت الأميرة مدينة عظيمة بعد سفر أيام قلائل ، تلك المدينة التي عمل دائماً على ترقيتها وتفخيمها فيما بعد ذلك أسرتها المالكة . ووقع في ذلك الحين أن كانت الامبراطورة تتجوّل في ممتلكاتها عند الحدود الأوربية الاسيوية ، تتفقد أحوال رعيتها بنفسها ، وتعالج منازعاتهم ومشاحناتهم فتسويها بحكمتها وعدل أحكامها .

حينما علم حاكم المدينة الأعلى بقدوم السيدة البابلية والعنقاء ، لم يتوان لحظة واحدة في أن يقوم لها بكل ما كان في مراسم دولته من وسائل التشريف والتكريم ، متأكداً أنّ الامبراطورة ، وهي أكثر أباطرة العالم كرماً وأدباً ، ستنشرح وتبتهج عندما تعلم ، أنه استقبل بالعظمة والإكبار سيّدة شريفة مبجّلة ، ما كانت لتستقبل بأقل من ذلك ، لو أن الإمبراطورة نفسها كانت في المدينة .

أضيفت الأميرة في القصر وأقيمت لها واجبات الضيافة بكثير من الأبهة والبهاء ، وكان الحاكم السمري وهو فيلسوف طبيعي عظيم ، ينتهز الفرص التي تأوي فيها الأميرة للراحة ، ليحادث العنقاء ويسلي نفسه بمناقشته . أخبره العنقاء أنه زار بلاد السمريين خلال إحدى رحلاته . ثم قال : كيف تحدث هذه التغييرات في مثل هذا الوقت القصير ؟ فلما كنت هنا منذ ثلاثمئة سنة ، لم ألحظ غير الطبيعة الجامدة بكل ما سيها . امّا الآن فأدرك أنّ هنا فنّاً وصناعة ورقة وعظمة .

قال السمّري : « بدأ هذا الانقلاب الضخم رجل واحد ، والآن توجهه الى طريق الكمال امرأة واحدة ، هي سيدة تعظم في تشريعاتها إيزيس المصرية ، أو سيريس اليونانية . وكان معظم المشترعين للأسف وسوء الحظ من ضعيفي الإدراك خاملي العقول ، فكانوا يجنحون الى الاستبداد ، فيصبح فهمهم وإدراكهم للممالك التي يحكمونها متعذراً عسيراً .

فقد كان ينظر كل منهم الى جنسه على أنهم البشر المختارون على وجه الأرض ، وأن واجبهم أن يناصبوا الآخرين العداء . كوّنوا معاهد ، وأدخلوا عادات،وأسسوا معتقدات استأثروا بها لأنفسهم . إن المصريين الذين بلغت شهرتهم ذلك القدر البالغ من العظمة بتلك الأكوام المتراصة من الأحجار المدعوة الاهرام ، قد حقروا أنفسهم بخرافاتهم الدينيـة الهمجية ، فاحتقروا كل الأمم الاخرى على أنهم أنجاس ملوّثون . ورفضوا أي نوع من الاحتكاك بهم او معاشرتهم ، وليس من المصريين ، غير أولئك المتصلين بالبلاط والذين هم يعلون بأخلاقهم عن حماقات الدهماء مَنْ يقبل ان يأكل في صحن استعمله اجنبي . وكذلك كان كهنتهم قساة سخفاء وافعالهم مناقضة للعقل . إذ أنه من الأفضل والحالة هذه ألاّ توجد قوانين بالمرة ، وان نتبع تلك الإحساسات التي ثبتتها في قلوبنا الطبيعية من خير وشر ، على أن تخضع الرعية لمثل هذه النظامات الجائرة».

«أما امبراطورتنا فاتخذت نظاماً يخالف ذلك النظام تماماً ، واعتبرت انه لزام على كل ممتلكاتها التي تتوجد مع جميع الأصقاع الواقعة بين المدارين ، وعلى أن يكون اتباع هذه القواعد مع جميع الذين يقطنون تلك الأصقاع ، لزام وفرض . وكان أول قانون، بل القانون الجوهري من قوانينها ، هو التسمح الشامل مع جميع الأديان وانزال العقاب الصارم جزاء أي خطأ يرتكب . وأدركت بعبقريتها النفاذة أنه مهما اختلفت أساليب العبادة الدينية فالفضيلة واحدة في كل مكان . وبهذا المبدأ وحّدت بين شعوبها وبين جميع أمم الأرض ، ولن يمضي وقت طويل حتى يعتبر السمريين أن الاسكندناويين والصينيين اخوانهم في البشرية . ولم تكتف بهذا بل صممت أن تنشىء هذا التسمح العظيم الذي هو أشد رباط الصلات الاجتماعية ، مع من يجاورها من الأمم ، فأضفى عليها لهذا لقب « أم الشعب » ولو انها استمرت على هذا ، إذن لأضفى عليها لقب المنعمة على الجنس البشري »

« كان الرجال قبل هذا الزمان إذا آنسوا في أنفسهم قوة وجبروتاً ، هبطوا بفيالقهم وجيوشهم على الممالك الأخرى ، يخربونها وينهبون ما فيها ويشربون من دماء الأطفال الذين هم في الواقع منحدرون وراثة من آبائهم وأجدادهم ومما يؤسف له شديد الأسف ان هؤلاء القتلة كانوا يلقبون أبطالاً ، كما تعتبر سرقاتهم من الأعمال العظيمة الباهرة . لكن انتهجت امبراطورتنا الى العظمة وسيلة تخالف تلك الوسائل تماماً ، فأرسلت بجيوشها ليكونوا رسل السلام ، لا لتحول بين الرجال وبين التخريب والهدم ، بل لتجبرهم على أن يحب كل منهم صاحبه وان يكون عوناً له . وكان شعارها دائماً نشر لواء الأمن والاطمئنان العام».

فتن العنقاء بكل ما سمع من هذا الرجل النبيل ، فقال إنه بالرغم من أنه عاش في هذه

الدنيا صبرة وعشرين ألف سنة وستة أشهر ، لم يرَ لهذا مثيلاً . ثم استنبأ بعد ذلك عن صديقه أمازان واستفسر عن اخباره ، فروى عنه السمريين أخباراً تشابه تلك التي جمعتها الأميرة من الصينيين والاسقوثيين ، فقد كانت خطة أمازان الدائمة أن يفر من أي بلاط يزوره في اللحظة التي يبدو على أية سيدة أنها شاهدته ورغبت في أن تأتلف به . فأخبر العنقاء فورموزانتا في الحال بهذا المثال الحي من اخلاص أمازان ، وهو اخلاص زاد من دهشته ، إذ انه لم يتصور أن أميرته جمعت به أصلاً .

توجه أمازان الى اسكندناوه ، حيث مرّ من مناظر لا زالت تثير في نفسه الدهشة والعجب . شاهد في تلك المملكة ، الحرية والملكية تعيشان جنباً الى جنب ، وتلك حال لا يخالها تماثل ما عليه الممالك الأخرى ، فهناك يشارك فلاحو الأرض ، النبلاء وكبار الأعيان في التشريع . لكن مما زاد في دهشته أنه رأى في مكان آخر ما يفوق هذا عجباً وبُعداً عن كل مألوف : أمير تلحظ فيه الشباب الفذ والعدل والاستقامة ، وقد اكتسب سلطته الملكية بتقربه الى شعبه والتوثيق لذلك بكل طريق مستطاع .

ثم إنه شاهد خلال رحلته فيلسوفاً على عرش سرماتيا ، كان الأجدر به أن يسمى ملك الفوضى ، لانه كان يرأس مئة ألف من صغار الملوك . كان صوت أحدهم يكفي بأن يلغي ما صمم عليه الجميع . إن الصعوبة التي لاقاها إيلوس في أن يلزم الرياح العاتية حدودها الطبيعية ، لم تكن لتقرن بالصعوبة التي يلاقيها هذا الملك في التوفيق بين نفوس رعيته المشوشة المتنافرة . وكان ايلوس هذا ربان سفينة ماهر محاطة بأعاصير أبدية ، إلاّ إنها لم تغرق ، لانه كان ربّاناً ماهراً .

إخترق أمازان تلك الممالك المتباينة المختلفة تمام الاختلاف عن بلاده ، إلاّ أنه أعرض عن كل ما أظهر النساء نحوه من الحب والتودد ، بالرغم من القلق الدائم الذي كان يساور نفسه من معانقة فورموزانتا لملك مصر ، مصمماً أن يضع لها مثالاً رائعاً للاخلاص الفريد .

أمّا الأميرة فكانت تتبعه دائماً عن قرب ، ونادراً ما تخلفت عن تأثره يوماً واحداً أو يومين ، ذلك من غير أن يكل أحدُهما أو يفقد الآخر دقيقة واحدة في اقتفاء أثر صاحبه .

جاب أمازان قارة المانيا الفسيحة ، حيث لحظ هناك وقد ملك عليه العجب كل شعوره وإحساساته ، ذلك التقدم الذي أنتجه العقل والفلسفة في الغرب ، حتى أنّ أمراءها كانوا فطنين أذكياء حتى لقد أصبحوا قادة الفكر والحرية . ولم يعتمدوا في تعليمهم على أناس يرغبون في أن يخدعوهم ، أو هم بأنفسهم مخدوعين ، وبهذه الوسيلة شبوا على معرفة الآداب البشرية واحتقار الخرافات .

فقـد أبعدوا عن دولهم تلك المادة التي لا معنى لها ، والتي أنهكت وأفقرت البلاد الجنوبية ، والتي كان من مقتضاها أن يدفن في سجون كبيرة مظلمة ، عدد من الانفس لانهاية له من كلا الجنسين ، وقد فصلوا عن بعضهم البعض فصلاً أبديًّا ، وأقسموا على أن لا يتواصلوا بصورة ما . وساعد هذا الجنون على تخريب الأرض وتحويلها بلقعاً يباباً بطريقة تقصر عنها أشدّ الحروب وأعتاها .

وعلى العكس من تلك النظامات الهمجية ، المنافية لقوانين الطبيعة ونفع المجتمع أصبح امراء الغرب هم المحسنون على ابناء جلدتهم فأبطلوا شروراً مضرة ، هدّامة منبوذة ، وعلى الجملة أقدم الرجال في تلك الأصقاع الفسيحة على تحكيم عقولهم ، بينما لا تزال العقيـدة الراسخة بين الناس في كل مكان آخر ، انهم لن يحكموا إلاّ بالقياس على جهلهم .

الفصل السابع

زيارة أمازان للبلد الأبيض

وصل أمازان بإتاقيا بعد جولته في ألمانيا ، ولقد خفف كثيراً من هواجسه الدائمة ما لحظه من شبه واهن بين أهلها ، ومواطنيه الكنجيين السعداء . لحظ هناك الأمن والحرية والمساواة مع التسمح الديني . أمّا نساؤها فمن اللواتي لا يبالين الحب ، فلم تبد له أيهن شيئاً من العواطف ، ذلك الشيء الذي لم يصادفه من قبل ، بيد أن الحقيقة ، أنه لو أظهر ميلاً للتعرف بهن لما تمنعن على الرغم أنه لم يكن ليشعر نحوهن بأدنى ميل . فإن أفكاره كانت بعيدة عن غزو قلوبهن ، وكادت تلحق به فورموزانتا في هذه الأمة البليدة الجامدة ، لو لم يرحل قبل وصولها بلحظات .

سمع أمازان البتاقيين يمدحون جزيرة ما تدعى البلد الأبيض ، فدفعه حب الاستطلاع أن يبحر وخراتيته على سفينة اليها ، فساقتهم الى هنالك ريح شرقية لطيفة في ساعات قليلة ، وقد فاقت هذه البلاد شهرة مدنية صور والاطلنطيس .

تبعته فورموزانتا الفاتنة الى ضفاف الفولجا والفستولا والإلب والويزر كما لو كانت تقتفي الأثر ، ولم تتأخر عن لحاقه يوماً أو يومين ، حتى وصلت سريعاً الى مصب الرين حيث يلتقي بمائه في المحيط الألماني .

وهناك علمت أن حبيبها قد أبحر تواً الى البلد الأبيض ، فتذكرت أنها رأت السفينة التي أبحر بها فلم تمالك نفسها وأرسلت صيحات الفرح التي أثارت كثيراً من دهشة النساء البتاقيات ، غير متصورات أن يكون شاب صغير مبعثاً لمثل هذا الطرب العظيم . كذلك شاهدن العنقاء ، لكن بقليل من الانتباه ، حتى قدرن ثمن ريشه بأنه لا يبلغ من القيمة مبلغ ريش بطهم وطيورهم المائية الأخرى .

واستأجرت اميرة بابل سفينتين تنقلانها وكل حاشيتها الى تلك الجزيرة السعيدة التي سوف تحوي بعد قليل ، موضع رغباتها الوحيد ، وجوهر حياتها وإله حبها .

هبت ريح عاتية من الغرب في اللحظة التي رسى فيها امازان الخاص على ساحل البلد الأبيض الذي يكتنفه البحر ، كما عاقت سفن الأميرة البابليــة في اللحظة التي تأهبت فيهـا للابحار ،

فاستولى عليها حزن عميق ، فتوجهت الى غرفتها وعزمت على البقاء هناك حتى تهدأ الرياح ، إلا انها استمرت على عنفها ثمانية ايام متوالية . وقد استخدمت الأميرة خلالها وصيفتها إرلا في قراءة قصص خرافية لتسليتها ، وهذه القصص لم يكتبها البتافيون في الواقع، لكنهم لما انهم ذوي صلة تجارية بالعالم ، فقد تاجروا كذلك في العقل كما يتاجرون في سلع البلاد الأخرى، واشترت الأميرة من بائع الكتب « مارك ميشيل راي » كل الروايات التي كتبها الاوزونيّون والولشيون والتي قضت الحكمة بأن يحظر بيعها لتلك الأمم حرصاً على إغناء جيرانهم البتافيين وتوقعت الأميرة ان تجد في هذه الروايات شيئاً من الشبه بمخاطراتها ، فيخفف ذلك بعض همومها وأشجانها . فكانت وصيفة الشرف تقرأ والعنقاء ينتقد ويبدي ملاحظاته ، ولما لم تجد الأميرة أقل شبه بين ما جاء في رواية « فتاة الريف السعيدة » او رواية «سوفا» او رواية « تانسية » وبين مغامراتها ، كانت تستوقف القارىء في كل لحظة مستفسرة عن حال الريح .

الفصل الثامن

أمازان يغادر البلد الأبيض

ركب أمازان عربته يجرها خراتيته الست ميمماً شطر عاصمة البلد الأبيض وقد اتجهت كل افكاره خلال ذلك الى عزيزته الاميرة ، بيد انه لحظ على مسافة قريبة عربة قد إنطمرت في حفرة صغيرة ، وراح الخدم يطلبون النجدة من كل مكان بينما جلس صاحب العربة في مقعده يدخن غليونه بهدوء عظيم من غير ان يظهر عليه اي ملل او ضجر ، وكان اسمه لورد « وَتْ ـ ذِنْ » في اللغة التي ترجمت منها هذه المذكرات وترجمته « ثم ماذا » .

فزع امازان لمساعدته ، فأعاد العربة بمفرده الى وضعها الصحيح ، ذلك بأن قوته مقيسة بقوة بقية الرجال ، كانت فائقة فذة . لم يلق لورد « وَتْ ـ ذِنْ » اليه بالاً ، غير انه قال « رجل قوي الأصلاب وحق الرب » وعندئذٍ حضر بعض الجيران فلما لم يجدوا داعٍ لحضورهم طغى عليهم انفعال شديد فأخذوا يسبون الأجنبي ودعوه بالكلب الغريب ، وتحدوه المبارزة والملاكمة .

أمسك أمازان في كل يد بأربعة منهم ودفعهم عنه عشرون خطوة ، فلما رأى الآخرون ذلك ، رفعوا قبعاتهم وانحنوا أمامه باحترام عظيم ، وطلبوا منه أن يقبل تكريمهم له بنخب يشربه معهم . فكلفهم ذلك الاحتفاء مبلغاً من المال لم يدر بخلدهم مثله . وحينذاك نظر اليه لورد « وت ـ ذن » بعين الاعتبار والاجلال ودعاه لتناول الغداء معه في منزله الريفي الذي يبعد نحواً من ثلاثة أميال ، فلما قبلت دعوته ، ركب مع أمازان عربته تاركاً العربة المحطمة

وبعد ربع ساعة نظر لورد « وَتْ ـ ذنْ » الى أمازان وقال « كيف حالك (وهي عبارة في الواقع لا تنقل للذهن أي معنى) لديك ستة خراتيت بديعة » . ثم استمر يدخن غليونه.

أخبره الرحالة بأن خراتيته كانوا دائماً في خدمته ، وقد أحضرهم من بلاد الكنجيين ، وبذلك اختلق سبباً ليطلعه على حقيقة أمره مع اميرة بابل ، وقبلتها المشئومة لفرعون مصر فلم يحر الآخر أي جواب ، غير مبال إن كان هناك في العالم مثل هؤلاء ، كملك مصر وأميرة بابل.

صمت اللورد ربع ساعة أخرى ثم سأل صاحبه مرة ثانية « كيف حالك » وهل عند الكنجيين أي نوع من الهواء الجيد ؟

رد أمازاق بأدبه المعتاد قائلاً إنهم لا يأكلون إخوانهم على شطآن الـكنج . ثم شرح له ذلك المذهب الذي سمي بعد ذلك بقرون كثيرة بالفلسفة الفيثاغورية ، وأما اللورد فأخذه النوم في تلك الأثناء ولم يستيقظ إلاّ وهو في منزله.

وكان متزوجاً من فتاة صغيرة جميلة ، أضفت الطبيعة عليها نفساً فيها من الحيوية ودقة الاحساس ، بقدر ماكان في زوجها من القبح والبغضاء . وقد حضر في ذلك اليوم لتناول الغداء معها بعض الأسياد الذين تلحظ فيهم اخلاقاً وطباعاً متباينة ، ذلك بأن تلك البلاد ظلت في حكم الأجانب دائماً،فأدخلت الأسر التي وفدت مع الأمراء الغزاة عاداتها وتقاليدها المختلفة ، فـكان في هذه الجماعة فئة لهم مشارب مستحبة ، واخرى فائقة العبقرية ، وقلائل استحمقوا في الدرس .

ولم يكن لسيدة المنزل شيئاً من ذلك التكلف الثقيل والتواضع المصطنع الذي كان وصمة في جبين نساء البلاد ، فانها لم تكن لتختفي بنظرة احتقار او صمت متكلف ، ضعف خيالها وافـكارها ، او بتلك الحيرة الوضيعة عندما تفتقد المرأة شيئاً تتحدث فيه . فلم تكن هناك من إمرأة مثلها تستميل السمع بحديثها .

قابلت أمازان بكياسة وادب كانا وفق طبيعتها تماماً ، فجمال هذا الأجنبي ، والموازنة الاختيارية التي لم تستطع الاقلاع عنها بينه وبين زوجها القبيح ، لم تزد من سعادتها او قناعتها ورضاها شيئاً .

وعند الطعام ، أجلست السيدة أمازان الى جانبها واخذت تقدم اليه صنوفاً من « المميار » فأخبرها بأن الـكنجيين لا يغتذون مطلقاً بشيء تلقى من الآلهـة هبة الحيـاة السماوية . وكانت حوادث حياته الأولى واحوال الـكنجيين وتقدم الفنون والدين موضوع المحادثة العلمية المستطاب طوال وقت الطعام الذي استمر حتى المساء ، حيث كان لورد « وتـــذن » لا يفعل شيئاً الهمّ إلاّ جذب الزجاجة اليه وطلب الهواء .

بعد الغداء ، والسيدة تصب لهم الشاي ، وما زالت تشبع عينيهـا بالنظر الى الأجنبي ، طرق حديثاً طويلاً مع أحد اعضـاء البرلمان ، وكلٌ يعلم انه حتى في ذلك الحين كان هناك برلمان يدعى « ويـتـناجـنـوت » او جمعيـة العقلاء ، واستفهم امازان عن المعـاهد والقوانين والعادات والآداب وقوات الجند والفنون التي طفرت بالبـلاد الى ذلك القدر البالغ من العظمة ، فردّ عليه عضو البرلمان قائلاً .

« إننا ظللنا عراة لوقت طويل برغم ان إقليمنا ليس حاراً . كذلك استعبدنا اناس

حضروا من بلاد « زحل » القديمة التي يرويها التيبر ،الا ان الأذى الذي ألحقه بعضنا ببعض ، فاق كثيراً كل ما قاسيناه من غزاتنا الاولين .

إنّ عصور التهتك والرذيلة عقّبت عليها عصور من الهمجية والاضطراب . إن في بلادنا من الاضطراب والقلق ما يفوق اضطراب ذلك المحيط الذي يكتنفنا، فقد ضرجتها وخضبتها بالدماء خلافاتنا الحزبية ، وسقط كثير من الرؤوس المتوجة بطريقة قاسية ، كما قضى اكثر من مئة امير من اصحاب الدم الملكي حياتهم على المقصلة ، بينما كانت تنتزع قلوب اشياعهم من صدورهم وتلقى في وجوههم ، وعلى الجملة فإنه من اختصاص الجلاّد ان يكتب تاريخ جزيرتنا نظراً لأن هذه الشخصية هي التي فصلت في كل قضايانا الهامة .

ومن اجل ان تكمل تلك الأهوال ، لم يمض غير قليل حتى ظهر رجالٌ يلبسون ستوراً سوداً . وآخرون يلبسون قمصاناً بيضاً فوق ارديتهم ، فاستبدوا واعتدوا ، غير متسمحين ، ونجحوا في إشراك الأمة في جنونهم، ومن ثمّ انقسمت بلادنا حزبين : القتلة والمقتولين ، والسفاحين والمسفوحة دماؤهم ، والنهاب والعبيد . كل ذلك باسم الله وفي سبيل الوصول الى الله .

من ذا الذي كان يتصور ان تنبت من خلال تلك الهوة الفظيعة وعماء الانقسام والنزاع والقسوة ، والجهل والتعصب ، حكومة يحق ان يقال الآن إنها أبرع الحكومات في العالم وأكملهنّ . ذلك ما حدث . فعلى هذه الامة الحربية التجارية الذكية المستنيرة ، يقوم امير ذو ثراء وشرف قادر كل القدرة على الخير ، عاجز كل العجز عن الشر ، ذلك بأن النبلاء من ناحية وممثلي الشعب من أخرى ، يشاركونه التشريع .

وقد رأينا انه بحكم قَدَرٍ مُقَدّرٍ من الاحداث ، والحروب الأهلية والاستبداد والشقاء ، قد خربت البلاد عند ما جنح ملوكنا الى التفرد بالسلطة الاختيارية الاستبدادية ، بقدر ما ساد بيننا الأمن والثراء والسعادة الكلية عند ما اكتفى الأمير بسلطة محدودة . واختل النظام عند ما كنا نتشاحن ونتناقش في الاشياء والأسرار الخفية ، لكن تلك الفوضى قد انتهت عندما عاد الينا جزء من الصواب جعلنا نحتقر هذه الاشياء . والآن تنشر اساطيلنا الظافرة أعلامنا على جميع البحار ، وأمّنت القوانين أرواحنا وأموالنا ، فلا يمكن لقاضٍ ما ان يفسرها بطريقة استبدادية ، ولا يجوز له ان يتخذ قراراً بدون الأسباب الداعية له ، وقد نعاقب قاضياً كما لو انه كان قاتلاً ، اذا هو حكم على شخص بالاعدام من غير إعلان القرائن والملابسات التي تثبت إدانته والقانون الذي أصدر حكمه بمقتضاه .

كنا في الواقع على الدوام منقسمين حزبين ، يكتب كل منهما ضد الآخر ويدس له ،

إلاّ أنهما يتحدان إذا دعت الضرورة الى التسلح دفاعاً عن الوطن او الحرية ، ولن يسمح أيهما بأي تعدٍّ على أمانة القوانين المقدسة . فهما في تكارهما أشبه بالمحبين الغيورين اللذين يعشقان نفس المرأة وفي نفس كل منهما الحسد والبغض نحو الآخر .

ومن منابع عبقريتنا السامية التي بها أوضحنا ودعمنا حقوق الانسان الطبيعية ، ذهبنا بالعلوم الى ذروة العُلا التي يمكن ان يبلغ اليها الانسان . فالمصريون الذين تظاهروا بنبوغهم في الميكانيكا ، والهنديون الذين يعتقدون بأنهم من عظام الفلاسفة ، والبابليون الذين يفتخرون بأنهم رصدوا النجوم على تمادي ثلاثين الفاً واربعمائة سنة ، والاغريقيون الذين كتبوا كثيراً وقالوا قليلاً ، كل اولئك لا يعرفون في الحقيقـة شيئاً إذا قُـرنوا بأضعف علمائنا الذين درسوا اكتشافات اساتذتنا . وقد استبنّـا من أسرار الطبيعة في خلال مئة سنة ، ما لم يستطع النوع البشري الحصول على مثله في مئة عصر .

هذا بلاغ كامل عن حالتنا الحاضرة ، فلم أخف عنك لا الحسن ولا الذميم ، لا معراتنا ولا أمجادنا ، ولم أبالغ في شيء .

شعر أمازان من هذا الحديث برغبة ملحة في ان يتفقَّـه في تلك العلوم السامية التي تكلم عنها صديقه . ولولا هيامه بأميرة بابل ، وواجبه نحو أمه التي هجرها ، وحبه لوطنه ، تلك الاشياء التي تملكت كل قلبه السقيم ، لأصبح سروره عظيماً لو انه مكث بقية حياته في البلد الابيض . ولـكن قبلة ملك مصر المشئومة لأميرته لم تكن لتزايل في عقله فراغاً يؤهل به لدرس العـلوم العويصة المبهمة : قال « أعترف بأني قطعت على نفسي عهـداً وثيقاً بأن أجوب العالم ، وأهرب من نفسي » .

تكلم أمازان بأسلوب لطيف ، وكان صوته ساحراً فتاناً ، كما كان كل سلوكه نبيـلاً يستميل الانتباه ، حتى ان سيدة المنزل لم تتمكن من مقاومة رغبتها في ان تسعد منه بحديث خاص بدورها . فأرسلت إليه رسالة غرام صغيرة تعبر بأجمل المعاني عن رغبتهـا تلك ، فكان لأمازان من الشجاعة ما مكّنه من مقاومة اغراء الجنس اللطيف مرة أخرى ، واتباعاً لعادته ، كتب للسيدة رداً كله الاحترام ، مبيناً عن قدسية قسمه ، والعهد الوثيق الذي أخذه على نفسه ليُعلّم اميرة بابل كيف تقهر عواطفها كما يقهر هو عواطفه . وبعد ذلك جهز خراتيته ورحل الى باتافيا تاركاً الجماعة في اندهال وتعجب من أمره ، والسيدة في دهشة عميقة . ومن فرط اضطرابها سقط منها خطاب أمازان ، فقرأه لورد « وَتْ ذِنْ » في الصباح .

قال هازاً اكتفيه : « ما أثقل وأسخف ما في هذا » ثم بادر بالخروج لصيد الثعلب مستصحباً جماعة من جيرانه السكاري .

كان أمازان قد ابحر ومعه رسماً جغرافياً أهداه اليه الرجل المثقف الذي تحدث اليه في منزل لورد «وت ـ ذن» وتملكته دهشة عظيمة لما رأى أكبر جزء من الأرض مرسوماً على قطعة صغيرة من الورق .

حملقت عيناه وجالت خيالاته في هذا الرسم الصغير ، فرأى الرين ، والدانوب والب التيرول وتعينها بأسمائها المختلفة ، وكل البلاد التي كان عليه أن يجتازها ، وبالأخص حدق في رسم بلاد الكنجيين وبابل التي رأى فيها عزيزته الأميرة ، كما حدق في البصرة ، التي قبلت الأميرة فيها ملك مصر تلك القبلة الشنعاء ، فبكى وانحدر الدمع من عينيه لتلك الذكرى التعيسة ، وقد سلم بما قال رجال البلد الأبيض ، أولئك الذين أهدوه العالم مصغراً ، بعد ان حقق فعلاً أن سكان التاميز كانوا أفضل الف مرة من أولاء الذين يقطنون ضفاف النيل او الفرات او الكنج .

الفصل التاسع

مغامرة تعيسة في بلاد الغال

ظل أمازان على اخلاصه المتين لأميرة بابل طوال رحلته ، وخلال كل المقاطعات التي جابها ، ولو أنه كان دائم الحقد على فرعون مصر . وصل هذا المثل الحي على ثبات العزم الى عاصمة بلاد الغال ، وكانت المدينة كغيرها تخضع دواليك للهمجية والحمق والجهل والبؤس ، وكان أول اسم أطلق عليها هو « قذر ووحل » ثم صرف عليها بعد ذلك اسم إيزيس لأن عبادة إيزيس كانت قد وصلت الى هناك . وتألف أول مجلس شيوخ لها من جماعة من البحارة وقد مكثت أمداً طويلاً رازحة تحت العبودية خاضعة لفتك أبطال الجبال السبعة . وبعد ذلك بعصور استوطن رقعتها الصغيرة أبطال من اللصوص هبطوا عليها من أقاصي ضفاف الرين . وأما الزمن الذي من شأنه أن يغير كل شيء ، فقد استحدث منها مدينة نصفها جميل بهي والآخر مضحك همجي بعض الشيء — وكذلك كان طابع قاطنيها — . وكان يقطن تلك المدينة ما يربو على مئة الف نسمة على الأقل ، انصرفوا جميعاً الى اللهو والتشاحن ، على أن هؤلاء المتعطلين هم الذين كانوا يحكمون أذواقهم في الفنون التي يبتدعها غيرهم كما أنهم كانوا يجهلون كل ما يحدث في البلاط على الرغم من أنهم لا يبعدون عنه أكثر من أربعة أميال كانت عندهم بمثابة ستة آلاف ميل على الأقل . فقد كان للحفلات السارة والتفاهات والمرح ، الاعتبار

الفرد في حياتهم، حتى لقد أصبحوا يحكون كالأطفال الذين تسخطوا عليهم بالدمى حتى يمتنع بكاؤهم . ولو أنهم تأملوا في الفظائع التي خربت بلادهم منذ قرنين مضيا أو ذكروا تلك العصور المرعبة التي قتل فيها نصف الأمة النصف الآخر استجابة لحماقات الجدل والسفسطة، قالوا في بساطة إن هذا لم يكن عملاً محكماً : ومن ثمت اندفعوا تواً مجددين ألمباتهم وضحكاتهم مرددين الأنغام .

وبقدر ما كان المتعطلون متأدبين دمثين لطفاء، لوحظت فروق كبيرة هائلة بينهم وبين أولئك الذين شغلتهم الأعمال .

كان من بين رجال الأعمال، أو كما دمغهم البعض، عصبة من الجامدين ذوي المزاج السوداوي، أخلاقهم مزيج من السخافة واللؤم، ويكفي مرآهم أن يشيع البؤس والشقاء، ولو أنهم أولوا شيئاً من السلطان، إذن لقلبوا العالم رأساً على عقب . إلا أن أمة المتعطلين استطاعت بالغناء وبالرقص أن تجبرهم على الانزواء في كهوفهم المظلمة كانسوق الطيور المغردة تلك الخفافيش الناعقة الى جحورها وخرائبها .

كان حفظة التقاليد الهمجية القديمة، تلك التي صرخت منها الطبيعة فزعة مروعة، فئة من أصحاب الأملاك، لم يأتوا بشيء اللهم إلا مأثوراتهم التي أكلها الدود . فانهم اذا ما استكشفوا عادة حمقاء أو مكروهة، اتخذوا منها قانوناً مقدساً . ومن هذا العرف الخبيث الذي حدّ من جرأتهم على التفكير بأنفسهم، عمدوا الى استجماع معرفتهم من حطام تلك الأيام التي لم يكن يفكر فيها من أحد، فكان ذلك سبباً في أن تعيش بقايا من خلائق ممضة في عاصمة اللهو والسرور . ومن ثمت لم يكن هنالك أي تناسب بين الجرائم والعقوبات . فكان ينزل بالمتهم ما يوازي الف ميتة، لحمله على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها .

وكان الشباب يعاقب على الطيش وتجاوز المألوف، بنفس القسوة التي يعاقب بها القاتل العادي أو قاتل الأب . فاحتج المتعطلون بشدة على هذه القيود، غير أنهم في اليوم التالي لم يفكروا في ذلك مطلقاً، بل أخذوا يفكرون باخلاص في ألهيات جديدة .

شهد هؤلاء الناس جيلاً بأكمله يتوارى، بلغت فيه الفنون درجة من الكمال فاقت كثيراً أكبر الآمال المتوثبة النارية المزاج . وقد عاد الاجانب الى هناك كما كان الأمر ببابل، ليفتتنوا بالآثار الهندسية العظيمة وأعاجيب فلاحة البساتين، والجهود العظيم الذي بذل في النحت والرسم، كما فتنتهم قطع موسيقية كانت تصل الى القلب من غير أن تخدش الآذان .

ولو أننا تحدثنا عن الشعر الحقيقي، ذلك الشعر المؤتلف الطبيعي، الذي يخاطب القلب تماماً كما يخاطب العقل، أمكن أن نقول بأنه لم يكن معروفاً لدى هذه الأمة قبل هذا العصر

السعيد. وقد كشفت أنواع جديدة من البـلاغة عن مفاتن عظيمة هائلة وذخرت المسارح على الأخص بالتحف التي لم تدانها أمة أخرى ، وعلى الجملة انتشر الذوق السليم في كل مهنة حتى لقد ظهر بين الدروديين كتّاب عظام .

إنّ كثيراً من أشجار الغار التي فرّعت وامتدت الى السماء ، سرعان ما ذوت في أرض مُجهدة. فلم يبق منها غيرَ عدد قليل ، حال لون أوراقها وتولى خضرتها الاصفرار . على أن هذا الفساد أو الانحلال الذي انتابها ، لم يكن له من سبب الهمّ إلاّ سهولة استنباتها ، والجهل الذي حال دون إنتاج الطيبات وامتلاء المبرّزين واكتظاظهم بما أقعدهم ، والجنوح الى مالا يغني من جوع . كما أنّ الخيلاء والغرور قد حميا من الفنون ما أعاد عصور الهمجيّة . وكانت هذه الخيـلاء ، التي اضطهدت الرجال ذوي العبقرية والمزايا الحقيقية ، سبباً في أن يخرجوا من أوطانهم مشردين . إنّ الشفافير المؤذية ، قد طردت النحل المنتج .

قلما بقي من الفنون الطيبة أثر ، وقلما عاش شيء من العبقرية الصحيحة . أمّا الترهات العقلية فحصرت في التفكـر فيما هو صواب أم خطأ مقيساً ذلك كله على تصورات عصر بائد . وفسد الأمر ، حتى تطاول الطـلاء الذي يطلي لوحة الاعلان فمضى ينقد أعمال كبار المصورين، والمأفون الذي يقف لينشف المداد السائل أمام رئيس يوقع في أوراقه، تتاج أعاظم الكتّـاب .

إنّ الجهل وفسـاد الذوق لهما أيضاً طـلاّؤهما . فالشيء الواحد يتكرّر في مئة مجلّد تحت عناوين مختلفة . وأصبح كل عمل أدبي إمّا قاموساً وإمّا نشرة .

ولقد اعتادت صحيفة « درودية » أن تنشر مرتين في كل أسبوع وقائع أمة غير معروفة مستها الشـياطين ، وتتكلم في معجزات سماوية وقعت في أكواخ يسكنها شحاذون من الرجال والنسـاء . وظهر من منبوذي الدّروديين من اشتمل بالسواد ، وفيهم استعداد لأن يموتوا غيظاً أو جوعاً ، ومضوا يعبرون عن آلامهم في مئات من المـكتوبات المختلفـة ، شاكين من أنهم لم يصبحوا بعـد قادرين على مخادعة النوع البشري ، لأن هذا الامتياز قد أضفي على بعض من الماعـز جللت بأثواب رمادية . كما ان بعض كبرائهم قد استخدموا في تحبير قذوف امتازت بالنيل من الأعراض

كان أمازان على تمام الجهل بهذا ، ولو أنه أخبر به، لما نظر إليه إلاّ بقليل من الانتباه ، حيث لم يشـغل كل أفكاره غير أميرة بابل ، وملك مصر وذلك العهد الوثيق الذي لا يمكن أن تنتهك له حرمة . وهو أن يحتقر كل ما يتقرّب إليه به النساء من أنواع التدلل والاغواء، في أي مملكة يسوقه إليها اليأس .

كان الرعاع الجهلاء ، وقد فاق فضولهم كل حدود الطبيعة والعقل، يحتشدون لوقت طويل

حول خرائبه. « أمّـا النساء البيبات فكنّ يدفعنَ أبواب مخدعه عنوةً ليتأملن شخصه » .

أبدى أمازان بعض الرغبـة في أن يزور البلاط ، لـكن أخبره بعض المتعطلين الذين كانوا يذهبون الى هنالك من وقت لآخر، بأن هذه العادة أصبحت خارجة تماماً على آداب السلوك ، وأنّ الأحوال قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وأنّ جميع الملاهي انحصرت في المدينة . ثم دعوه لتناول العشاء مع سيدة طبـَّقـَت فطنتها ومواهبها آفاق الأقاليم الأجنبية، وقد زارت هذه السيدة كل البلاد التي جابها أمازان . وأمّـا هذه السيدة فسرّت أمازان سروراً عظيماً كما اغتبط بالحفاوة التي لاقاها في منزلها حيث شهد حرية مكفولة بالوقار وسروراً بلا جلبة ، وسكوناً بلا غضاضة، وفراهة بلا زهو . وفي اليوم التالي تناول غداءه مع جماعة أقل بهجة، غير أنها كانت أكثر تعطشاً للهو ، وكلما زاد رضاه عن مضيفيه زوّدهم رضاء به . فوجد أن نفسه قد انحلت كالنباتات العطرية ، التي تذوب شيئاً فشيئاً عنـد درجة حرارة معتدلة ، فتنبعث منها الروائح الزكية .

وذهب معهم أمازان بعد الغداء الى احدى أماكن اللهو العامة ، وكان فتّـاناً ساحراً يخلب الألباب، إلاّ أنه كان متهماً رغم ذلك من الدروديين . ذلك بأنه كان يحجب عنهم معظم مستمعيهم ، وكان ذلك مثاراً لحقدهم وبغضهم . وأما العرض فكان مزيجاً من أشعار مستحبة الى أغاز جذّابة مشجية، الى رقصات باهرة تعبر عن خلجات النفس وتكشف عن مفاتنها وإلى غير ذلك مما يخلب العينين خداعاً . ولم يكن هذا النوع من اللهو الذي كان يحوي كثيراً من المنـاظر والأشكال معروفاً إلاّ باسم أجنبي فكان يدعى بالاوبرا ، وهو إسم دلّ أوّلاً في لغة العمل على معاني العناية والاكباب والانتاج والجهد والبذل . سحر هذا العرض أمازان وفتنه كما اجتذبتـه فتاة مغنية بصوتها وما كان يبدو عليها من دلال . فقدم له رفاقه تلك الفتاة العبقرية ، فأهداها ملء قبضته من نفيس الجوهر ، فـكان من شدّة افتتانهـا وعظيم شكرها أن أبت أن تفارقه بقية يومها ، فتناول معها ومع رفاقها طعام العشاء وكان مستطاباً مستحبًّا ، فسلبته الخمر يقظته فثمل . . . . . فما أوهن الطبع البشري !

وصلت أميرة بابل في تلك الأثناء ، ومعها إيرلا والعنقاء والمثني فارس كنعجي ممتطين خرائبهم ، ومكثوا وقتاً غير قصير خارج أبواب المدينة قبل ان تفتح لهم ، وما إن وطأت أقدامهم أرض المدينة حتى سألت الأميرة ، هلاّ يزال أذكى وأجمل وأشجع وأوفى الرجال بالمدينة ؟ فانتهى الحرّاس على الفور إلى أنها انما تعني أمازان، فأرشدوها الى فندقه .

كم كان خفقان قلبهـا عظيماً ! ذلك الخفقان الذي هو دليل الحب . وغمر نفسها فرح يجل عنـه الوصف ، لأنها سوف ترى مرّة أخرى في حبيبها مثال الثبات على العزم ، ولن

يمنعها مانع من أن تدخل عليـه حجرته ، فرأت الستائر مرفوعة وشاهدت أمازان الفاتن نائماً وقد أنهكته الحمّى .

تلقاء ذلك عبرت فورموزانتا عن حزنها وخيبتها بصراخ عظيم دوت به أرجاء الفندق وأغمي عليهـا بين يدي إيرلا . وحالما استعادت يقظتهـا خرجت من تلك الغرفة الممقوتة يغمرها حزن عميق جَلَّلهُ الغضب .

صرخت الأميرة الفاتنـة وقد غمرها سيل من الدمع : إيه أيتها السماء العـادلة ! عجباً يا أورمزد الجبار ! لمن ويمرغانني تلك الخيانة ؟ أهكذا تمكن من أن يصد أميرات كثيرات ثم يهجرني لرفقة بعض اللاهين من أهل الغال ! لن أصبر على هذه الاهانة .

ثم قالت : لن أراه بعـد اليوم ما دام ينبض لي عرق ، ولنرحل هذه اللحظة ولتجهز الخراتيت :

ناشدها العنقاء أن تبقى على الأقل حتى يستيقظ أمازان عسى أن يكلمه .

قالت الأميرة : أنه لا يستحق ذلك ، إنك لتثير غضبي وتتحداني بقسوة ، فربما ظن أني التي أرغب في لومه واني اسعى الى التفاهم معه ، فإن كنت حقيقة تكن لي حبًّـا ، فلا تضف هذا الضيم إلى ما لحقني من إهانة .

ما كان للعنقاء أن يعصاها ، وهو يدين لها قبل كل شيء بحياته ، وحينئذ رحلت الأميرة بحاشيتها

قالت إيرلا : الى أين أنت ذاهبة ؟

أجابت الأميرة : لا أدري ، فسنتبع أول طريق يصادفنـا ما دمت سأفر من أمازان الى الأبد . ثم إني لراضية .

أما العنقاء وكان أحكم من فورموزانتا لأنه كان متجرداً من أية شهوة ، فأخذ يطيب نفسها وهم في الطريق وذلك بأسلوب محبب جذاب قائلاً إنه من القسوة أن يعاقب إنسان بسبب خطأ ارتكبه غيره ، وأن أمازان ولا شك قدم لها دلائل تكفي لاثبات اخلاصه ووفائه ، ولهذا فمن الواجب عليها أن تغفر له لحظة واحدة نسي نفسه فيها وهو مع جمعية طاقة . كما أنه أدخل في روعها أن هذا هو الوقت الوحيد الذي يحتاج فيه الى عناية أورمزد ، وأن تتزود منه بالحب الدائم والفضيلة للمستقبل ليس إلاّ . وان الرغبة في التكفير عن خطئه بهذه الوسيلة سوف تجعله يتشامخ بنفسه ، وان هذا هو الطريق الوحيد الذي تزيد به من سعادتها ، وأن كثيراً من عظام الأميرات قد غضضنَ الطرف عن مثل هذه الأغلاط ، وأنه بعد كل هذا لا يوجد من سبب لذلك الحزن . وكان العنقاء ذا قدرة فائقة في فن الاغراء ، حتى أنه جعلها أميل الى الهدوء والاستسلام ، فبدأت تشعر بحزن عميق على تسرعها في الرحيل وخيل اليها

أن خراتيتها تجد في السير وتسرع ، لـكنها لم تجرأ على العودة . وكان ما هجر من التضارب بين رغبتها في الصفح ورغبتها في اظهار غضبها، وبين حبيبها وارضاء كبريائها، عظيماً ، ومع ذلك تابعت خراتيتها السير واخترقت العالم وفقاً لنبوءة والدها .

أخبر أمازان عند ما استيقظ بوصول الاميرة ، ثم رحلتها ثانية هي والعنقاء ، كما أخبر بالغضب والاضطراب الذي بدا عليها ، والقسم بأنها لن تصفح عنه أبد الدهر .

قال أمازان : « اذن، ليس من سبيل إلا أن أتبعها ، وأقتل نفسي عند قدميها » .

احتج رفاقه المرحين اللاهين على هذا القرار الخطير ، وقالوا بأنه يستحسن أن يبقى معهم فليس من شيء يضارع حياتهم السعيدة التي يقضونها بين رحاب الفنون والمسرات الدمثة اللطيفة، معقبين على ذلك بأن كثيراً من الأجانب، وحتى من الملوك، من يفضلون هذه الراحة الفاتنة المستحبة للنفس على بلادهم وعروشهم . ثم ان عربته علاوة على ذلك بها عطب ويجري العمل بأخرى على أحدث طراز، وان أفضل حائك في المدينة قد جهز له اثني عشر كسوة تطابق آخر ما ابتدع من أساليب التهندم ، وأن أكثر النساء دلالاً وجمالاً وأعظمهن اعتباراً في الهيئة الاجتماعية واللائي تشهد منازلهن أفتن المناظر التمثيلية ، قد عينت كل منهن يوماً تقيم له فيه حفلاً يجمع بين المتعة والمسرة واللهو . وأما فتاة الاوبرا فكانت في تلك الأثناء تشرب « الشكولاتة » ضاحكة منشدة مرنية نحو أمازان الجميل بعجب وافتتان، حتى لقد خيل اليه بأنها ليست بأحلم من إوزة حمقاء .

إن الاخلاص والولاء والحمية وأيضاً العظمة والشجاعة، كانت أخص عناصر أخلاق هذا الأمير العظيم ، وقد روى لاصدقائه مجمل سياحاته وتعاساته التي ألمت به ، وأعلمهم بأنه من أبناء عمومة تلك الأميرة وأفضى اليهم بسر القبلة التي جادت بها على ملك مصر ، فقالوا بأنها خزعبلات صغيرة غالباً ما يتغاضى عنها بين الاقارب ، والا مرت حياة الانسان في صعوبة مستمرة .

غير أنه لا يمكن لشيء أن يزعزع ما صمم عليه من ملاحقة فورموزانتا . لكن لما كانت عربته على غير استعداد ، فانه أجبر على البقاء هنالك ثلاثة أيام بين المتعالين الذين ظلوا عاكفين على ملذاتهم . وأخيراً استأذن منهم ، مودعاً معانقاً ، مهدياً اليهم بعضاً من جواهره عظيمة القيمة ، موصياً اياهم بالسعي دائماً وراء تفاهاتهم المستمرة وسرورهم الدائم ، اذا كان ذلك يزيد من سعادتهم وحبورهم . ثم قال « إن الألمان هم رؤوس أوربا المفكرة ، وان رجال البلاد البيض نهضوا ليكونوا رجالاً بمعنى تلك الكلمة، وأما من في بلاد الغال فأطفال ، وأنا أحب أن ألهو مع الأطفال » .

الفصل العاشر

أمازان وفورموزانتا يتفاهمان

لم يجد المرشدون أدنى صعوبة في اتباع الطريق الذي سلكته الأميرة ، فلم يكن مثار حديث الناس غيرها وغير طائرها الكبير ، ذلك بأن الأهلين قد غمرهم اعجاب شامل بها . كذلك ما زالت شواطىء اللوار والدردوج والجارون والجيروند تدوي بضجيج عظيم من الاستحسان .

لما بلغ أمازان سفح جبال البرنيس أجبره درودييو المملكة وحكامها أن يرقص بالدف، رضي أم أبى . وعند ما اجتاز جبال البرنيس لم يجد شيئاً غير المرح واللهو والسرور ، فلو سمع هنا أو هناك فلاح يغني فالنغم مقبض كئيب ، وكان المواطنون يتخايلون في مشيتهم ويتهادون بوقار كبير ويتحلون ببعض الخرز وفي مناطقهم خناجر . وكان الناس يلبسون السواد ويبدو عليهم الحزن . واذا سأل خادم من خدام أمازان أحد العابرين سؤالاً لما أجيب إلاّ بالاشارات ، واذا دخلوا فندقاً أخبرهم صاحبه بكل اختصار بأنه لا يوجد بالنزل شيء ، ولكن طلبتهم يمكن أن يعثروا عليها على بعد أميال قليلة .

واذا سئل هؤلاء المتعبدون بالصمت : هل شاهدوا أميرة بابل الفريدة الفاتنة وهل قد مرت بهم ، أجابوا باختصار أقل من المعتاد قائلين :

« نعم ، رأيناها ، إلاّ أنها ليست على هذا القدر من الجمال ، فليس من جميلات إلاّ وهن سمر ملوّحات ، وهي تكشف عن صدر كأنه رخام ناصع البياض ، وهذا أبعث الأشياء على الامتعاض ، وقلما يعرف في إقليمنا » .

تقدم أمازان نحو المقاطعة التي يرويها نهر بتيس ، وهذه المملكة هي التي اكتشفها الصوريون منذ اثني عشرة الف سنة تقريباً ، وذلك في الزمن الذي اكتشفوا فيه جزيرة أطلنطا الكبيرة التي غمرتها المياه بعد ذلك بقرون عديدة . زرع الصوريون بتيكا التي لم يفلحها أهلها مطلقاً ، وذلك للفكرة التي كانت تخامرهم بأنها ليست مكانهم وموطنهم ليتدخلوا في أمورها ، وأنهم لو زرعوها لهبط عليهم جيرانهم الغاليون ، فيحصدون ما زرعوا . وقد أحضر

السوريون معهم بعض الفلسطينيين أو اليهود الذين جابوا منذ ذاك الحين كل إقليم يمكن أن يكسب فيه المال ، فتملك الفلسطينيون برباهم الفاحش الذي بلغ خمسين في المئة جل ثروات البلاد ، مما جعل سكان بتيكا يأخذونهم على أنهم من السحرة ، كما أن أولئك الذين كانوا يتهمون بالسحر حينذاك ، حُرقوا بغير شفقة ولا رحمة .

ألقت أميرة بابل رحالها في مدينة كانت تدعى في ذاك الحين اشبيليه ، وعزمت أن تبحر في نهر بتيس لتعود الى بابل عن طريق صور ، فترى مرة ثانية والدها الملك بيلوس وتنسى إن أمكن حبيبها المخادع الغدار أو تطلب منه على الأقل الزواج . أرسلت الى فلسطينيين كانا يدبران كل أشغال البلاط هناك ليزوداها بسفن ثلاث ، فأنجز العنقاء معهم الاتفاقات الضرورية واتفق على الأجر بعد قليل من النقاش .

كانت صاحبة الفندق متعبدة كبيرة ، أمّا زوجها الذي لم يكن أقل منها تديناً فكان مفتشاً من أعضاء محاكم التفتيش . ولذلك فإنه لم يخفق في أن يخبرهم أن بفندقه ساحرة وفلسطينيين تعاهدوا مع الشيطان متنكراً في شكل طائر كبير له منقار ذهبيّ .

لما علم المفتشون بأن السيدة تملك كمية كبيرة من الجواهر أيقنوا بلا جدل أنها من الساحرات ، فانتظروا حتى يخيم الظلام ليسجنوا المثنى فارس والخراتيت ، حيث أنهم باتوا في حظائر فسيحة . ذلك بأن المفتشين كانوا أدنياء جبناء .

وأسروا أميرة بابل وإرلا بعد أن أقاموا سدوداً ومتاريس عظيمة خلف الأبواب ، غير أنهم لم يتمكنوا من القبض على العنقاء الذي طار بسرعة فائقة وهو لا يشك في أنه سوف يقابل أمازان على الطريق بين بلاد الغال واشبيليه ، فالتقى به عند حدود بتيكا وأخبره بالكارثة التي ألمت بالأميرة .

حسر الغضب أمازان عن الكلام ، وسلح نفسه بدرع من الفولاذ مرصع بالذهب ، ورمح طوله اثنى عشر قدماً ، وبمزراقين ، وسيف يدعى «الراعد» من شأنه أن يمزق كل ممزق بضربة واحدة كل ما يصادفه من الأشجار أو الحجارة أو الدروديز . ثم غطى رأسه الجميل بخوذة من الذهب يظللها ريش النعام والبلشون . وهذه هي البزة الحربية القديمة لآل مأجوج أعطتها له أخته ألديا عند سياحته في بلاد أسقوثيا . وامتطى خدمه القليلون ظهور خراتيتهم

فاه أمازان بهذه العبارات الحزينة وهو يحتضن عنقاءه العزيز: «أراني مُداناً. فلو أني لم أتناول غدائي مع تلك الفتاة العبقرية في الأوبرا ، في مدينة المتعطلين ، لما وقعت أميرة بابل في هذا المأزق المرعب . فهيا بنا إذن نطير الى المفتشين». فهبط مدينة اشبيليه ، وكان يحرس أبواب الحظيرة التي سجن فيها المثنى فارس والمثني خرتيت خمس عشرة مئة من الحراس

الاسبان ، ولم يسمحوا لهم بأي شيء من الطعام . وفي ذلك الوقت كانت جميع الاستعدادات قد أنجزت لقتل الأميرة ووصيفتها إرلا والصيرفيين الفلسطينيين .

وكان كبير المفتشين قد جلس فعلاً على المنصة في محكمته المقدسة يحيط به ملازموه من صغار المفتشين . وقد تجمع عدد غفير من الاشبيليين مكتوفي الأيدي صامتين ، عند ما قدمت الأميرة وإرلا والفلسطينيين وأيديهم موثوقة الى ظهورهم لابسين ثياب الاعدام .

دخل العنقاء السجن من كوة ، وبدأ الـكنجيون يكسرون الأبواب من الداخل ، بينما حطمها أمازان الذي لا يقهر من الخارج ، وهجموا جميعاً الى الأمام مسلحين وهم ممتطين خراتيتهم وعلى رأسهم أمازان ، فلم يجدوا صعوبة ما في قهر الحراس أو المفتشين ، فلقد كان كل خرتيت يخرق بقرنه إثني عشر دفعة واحدة ، وأمازان المرعد يمزق كل من يصادفه تمزيقاً .

وأخذ أمازان بطوق المفتش الأكبر من فوق منصته وقذف به على المحرقة التي كانت قد أعدت على بعد أربعين خطوة تقريباً ، كما ألقى عليها جميع الأعضاء الآخرين الواحد أثر الآخر . ثم ألقى بنفسه عند قدمي فورموزانتا : فقالت : « يا للعجب ، كم أنت فاتن محبوب ، وكم كنت أعبدك وأهيم بك وأتعشقك ، لو لم تخني بصحبة مغنية الاوبرا » .

وبينما كان أمازان يسوي ما بينـه وبين الأميرة من سوء التفاهم ، وبينما كان رفاقه الـكنجيين يلقون بالمفتشين على المحرقة التي بلغ لهيبها السماء ، اذ به يبصر جيشاً يقوده ملك مسن من فوق رأسه تاج ، مبيماً نحوهم في عربة يجرها ثمانية بغال طهمت بالحبال ، وتبعه مئة عربة أخرى ، كما كان في صحبتهم رجال ارتسم في وجوههم العبوس وقد امتطوا جياداً كريمة ، ومن وراء هؤلاء جميعاً يمشي جمع من الناس في هدوء ، وقد عولجت شعورهم بالدهون .

جمع أمازان رجاله الـكنجيين من حوله في الحال وتقـدم نحو الملك شاهراً حربته ، فلما أدرك الملك أمازان ، ترجل عن عربته الحربيـة وخلع تاجه ثم عانق ركاب أمازان قائلاً : « يا من أرسلته الآلهة ، أنت المنتقم للنوع البشري ، أنت مخلص بلادي . كان هؤلاء الذين طهرت منهم الأرض أسيادي . فـكنت مجبوراً على الخضوع الى قوتهم الاجرامية ، ولربما انتفض من حولي رجالي لو أني رغبت فقط أن أخفف من جرائمهم الفظيعـة . إني لأتنفس منذ هذه اللحظة ، وأسود ، وإني لمدين لك بهذا » .

ثم قبل يد فورموزانتا باحترام كبير ، وتوسل إليها أن تركب عربتـه ومعها أمازان وإرلا والعنقاء .

وتبعت فرق الخراتيت ملك بتيكا الى قصره ، أمّا الصيرفيان الفلسطينيان اللذان كانا

ما زالا مطروحين خوفاً وفزعاً ، فقد رفعا رأسيهما .

كان من مقتضيات الوقار الذي ينبغي أن يضفى على ملك يحكم شعباً ، من أخص صفاته الفقر والقلة ، أن تسير بغاله بخطى وئيدة ، فاتسع بذلك مجال الوقت لأمازان وفورموزانتا أن يرويا له كل مخاطراتهما ، وكذلك تحدث الى العنقاء ففتنه وكثيراً ما كان يعانقه . وأحيط الملك علماً وأدرك بسهولة كيف يجب أن يعتبر أناس الغرب همجيين وحشيين ، وهم يأكلون الحيوانات ولا يفهمون لغتهـا ، وأن الكنجيين وحدهم هم الذين حفظوا وصانوا طبيعة الانسان الأول إلا أنه وافق على الأخص على أن أكثر البشريين همجية هم المفتشون الذين طهر أمازان الأرض من شرورهم ، وكان دائماً يشكر أمازان ويباركه . والآن نسيت فورموزانتا الفاتنة ما حدث في بلاد الغال تمام النسيان ، ولم يعد يملأ روحها غير شجاعة وجرأة بطلها الذي صان حياتها وحفظها . وحينئذ تذوق أمازان طعم السعادة ونشوة الفرح وأسكره الحب العظيم ، لما وقف على حقيقة معانقة فورموزانتا البريئة لملك مصر ولما أخبر ببعث العنقاء .

ثم تناولوا غذاءهم في القصر ، الا أن الطعام كان عديم المذاق رديئاً لأن طهاة بتيكا كانوا أردأ طهاة أوربا ، فنصح أمازان الملك بأن يرسل في طلب بعض الطهاة من بلاد الغال . وفي أثناء الطعام عزفت فرقة الموسيقى الملكية ذلك اللحن الشهير الذي سمي منذ ذاك الحين « مباذل اسبانيا » وبعد الغداء مضوا يتكلمون في المسائل العملية الهامة .

استفسر الملك من أمازان الجميل وفورموزانتا الفاتنة والعنقاء الرشيق عما ينتوون ؟ فأجاب أمازان بأنه سوف يعود الى بابل حيث أنه وارثها المنتظر ، ثم يطلب من عمه بيلوس يد ابنة عمه فورموزانتا الفريدة التي لا تبارى .

وقالت الأميرة : « إن ما عزمت عليه بكل تأكيد هو أن لا انفصل أبداً عن ابن عمي ، لكني أظنه يوافقني على أن أعود أولاً لأبي ، فانه لم يسمح لي الا بهجرة للبصرة وها أنذا قد طفت العالم هائمة » .

وقال العنقاء : « أما أنا فسأتبع الى أي مكان ، هذان الحبيبان الكريمان العاطفيان »

قال ملك بتيكا : « انكم جميعاً على حق ، لكن عودتكم الى بابل ليست من السهولة بحيث تتصورون ، إن أخبار تلك المملكة تصلني كل يوم ، بواسطة السفن الصورية ، والماليين الفلسطينيين الذين يتصلون بجميع أمم الأرض ، بأن جميع الناس يحملون سلاحهم ميممين شطر الفـرات والنيـل . وقد أعلن ملك إسقوثيا حق وراثة زوجته على رأس ثلاثمئة الف فارس كما خرب ملكا مصر والهند شواطىء دجلة والفرات ومع كل منهم ثلاثمئة الف رجل أخذاً بثأرهما من الملك بيلوس جزاء الاستهزاء بهما . وأما ملك الحبشة فغزا مصر

ونهبها بجيش عدته ثلاثمئة الف رجل ، وذلك في غيبة ملكها . وأما ملك بابل فليس لديه سوى ما يقدر بستمئة الف رجل للدفاع عن نفسه .

ثم استطرد الملك قائلاً إنه يعترف بأنه لما سمع بهذه الجيوش التي تدفقت من الشرق وعلم بعظمتها وفخامتها ثم قارنها بجنده العشرين الفاً أو الثلاثين الفاً الذين يشق عليه تغذيتهم ويصعب كساؤهم، تصور أن نصف كرة الأرض الشرقي إنما وجد قبل نصفها الغربي وانه يخيل اليه أن الغربيين انما وثبوا فجأة بالأمس من جوف الماء والهمجية .

قال أمازان : « ان المحدثين يا مولاي غالباً ما يتفوقون على اولئك الذين بدأوا الشوط أولاً ، ويُظن عندنا أن الانسان إنما خلق بادىء ذى بدء في الهند ، ولكني لست على يقين من ذلك » .

ثم وجه ملك بتيكا كلامه الى العنقاء سائلاً : « وماذا تظن في ذلك » .

قال العنقاء : « مولاي : إني لصغير السن جداً حتى الآن لأعرف شيئاً عن القدم ، فقد عشت فقط حوالي سبعة وعشرين ألف سنة ، غير أن والدي الذي لبث في الدنيا خمسة أضعاف هذا السن أخبرني بأنه علم من والده أن البلاد الشرقية كانت دائماً أكثر سكاناً وثروة من البلاد الأخرى ، كما علم أيضاً من أسلافه بأن تولد جميع الحيوانات إنما بدأ على ضفاف الكنج . أما أنا فما داخلني غرور جعلني أعتقد بهذه الفكرة ، ولا يمكن أن أصدق بأن ثعالب البلاد البيض وفئران جبال الألب وذئاب الغال قد تنسلت من حيوانات بلادي ، كما لا أعتقد أن أشجار التنوب والبلوط في بلادك قد تولدت من شجر الكاكاو أو النخيل الذي بالهند .

قال الملك : « ولكن من أين انحدرنا إذن ؟ » :

قال العنقاء : « لا أعرف ، إنما كل ما أريد أن أعرف هو متى يصلح الأمر ما بين أميرة بابل الفاتنة وعزيزي أمازان » :

قال الملك : « كثيراً ما تساءلت ، أمن الممكن أن يقهر بخراتيته المئتين جيوشاً كثيرة تبلغ عدة كل منها ثلاثمئة ألف رجل » ؟ .

قال أمازان : « ولمَ لا » ؟ وعندئذ أُخِذَ ملك بتيكا بقوة هذا السؤال : — « لِمَ لا » — إلا انه كان يتصور بأن الرفعة والسناء وحدها غير كافيين للاستقواء على جيوش لا حصر لها .

فقال : « أنصحك بأن تتوجه الى ملك الحبشة ، فان لي صلة بهذا الأمير الأسود عن طريق عملائي الفلسطينيين وسأزودك بخطاب توصية اليه ، وحيث انه في عداء مع ملك مصر فانه

سيغتبط كثيراً بمحالفتك التي سوف تزيده قوة . وأستطيع ان أساعدك بألفي سياف شجعان، ويجب عليك أن تعتمد على نفسك فتستخدم كثيراً من الرجال الذين استوطنوا سفح البرنيس ويدعون الغسقون . فما عليك الا أن ترسل أحد محاربيك ممتطياً خرتيتاً وتزوده بقليل من الجواهر حتى يترك كل غسقوني قصره وأعني صومعته التي ورثها عن أبيه ليكون في خدمتك ، فانهم أشداء أقوياء أمناء . وبينما أنت تنتظر وصولهم سنقيم لك المهرجانات ونعد السفن . فاني أعجز عن أن أؤدي اليك حق الشكران على الخدمات التي أديتها الي » .

ولقد أحس أمازان بنشوة السعادة لما إستعاد فورموزانتـا وأنس بحديثها في هدوء وشعر بفتنة الحب الصافي ، تلك الأشياء التي تعدل في قوتها ، قوة الشهوة المشبوبة .

وسرعان ما وصلت جيوش الغسقون الفخورة المرحة وهم يرقصون على أنغام الدفوف . وكانت جيوش بتيكا الباسلة قد استعدت ، فعانق الملك العجوز الملوح اللون الحبيبين وزود السفن بكميات كبيرة من الأسلحة والفراش والصناديق الضخمة ، والأغطية ، والملابس السود ، والبصل والدجاج ، والأغنام والدقيق وخاصة الثوم . وتمنى لهم سفراً سعيداً وحبـاً ثابتاً وانتصارات متعددة .

لم تكن حينذاك قرطاجة الفخورة ذات قوة بحرية ، ولم يكن يقطنها غير بعض النوميديين الذين اتخذوا من تجفيف الأسماك على أشعة الشمس حرفة لهم . وكانوا يجوبون الشاطىء من بيزاقينة وسورثة والشطئان الخصيبة التي قامت عندها مدينة قورينة ومدينة خرسونيز العظيمة .

وصلوا أخيراً تجاه المصب الاول لنهر النيل المقدس ، وكانت تستقبل فعلاً جميع سفن الأمم التجارية عند نهاية هذه الأرض الخصيبة في ميناء كانوبوس ، ولم يعلم أحد إن كان الإلـه سهيل قد أسس هذه الميناء أم كان السكان هم الذين صنعوا هذا الالـه ، أم كان النجم سهيل قد أضفى اسمه على المدينة ، أم كانت المدينة هي التي خلعت هذا الاسم على النجم ؟ وكل ما كان معروفاً عن ذلك هو أن المدينة والنجم كلاهما قديم جداً وهذا كل ما يمكن أن يعرف عن أصل الأشياء مهما كانت طبيعتها .

رأى ملك الحبشة في هذه البقعة من الأرض — بعد أن أخضع مصر — أمازان القاهر وفورموزانتا المعبودة ينزلان الى البر ، فقام في نفسه اعتقاد بأن أحدهما هو إلـه الحرب والآخر إلـه الجمال. قدم اليه أمازان كتاب التوصية الذي كان يحمله من ملك اسبانيا . وفي الحال قام ملك الحبشة بتكريمهما وذلك بأن أقام لهما مهرجانات فخيمة كان لا بد منها وفقاً لعادات عصور البطولة .

ثم تشاوروا في الطريقة التي يهيئان بها الحملة الحربية لاخضاع جيوش ملك مصر الثلاثمئة الف ومثلهم لكل من أمبراطور الهند وخان الاسقوثيين الأكبر الذين كانوا يحاصرون مدينة بابل العظيمة الفخورة المليئة بالشهوات .

حينئذٍ قال المئتي إسباني الذين أحضرهم معه أمازان بألا شأن لهم بملك الحبشة وفك لحصار بابل ، بل يكفي عندهم أن أمرهم ملكهم بالتوجه لانقاذها وأنهم قادرون كل المقدرة على القيام بهذه الحملة .

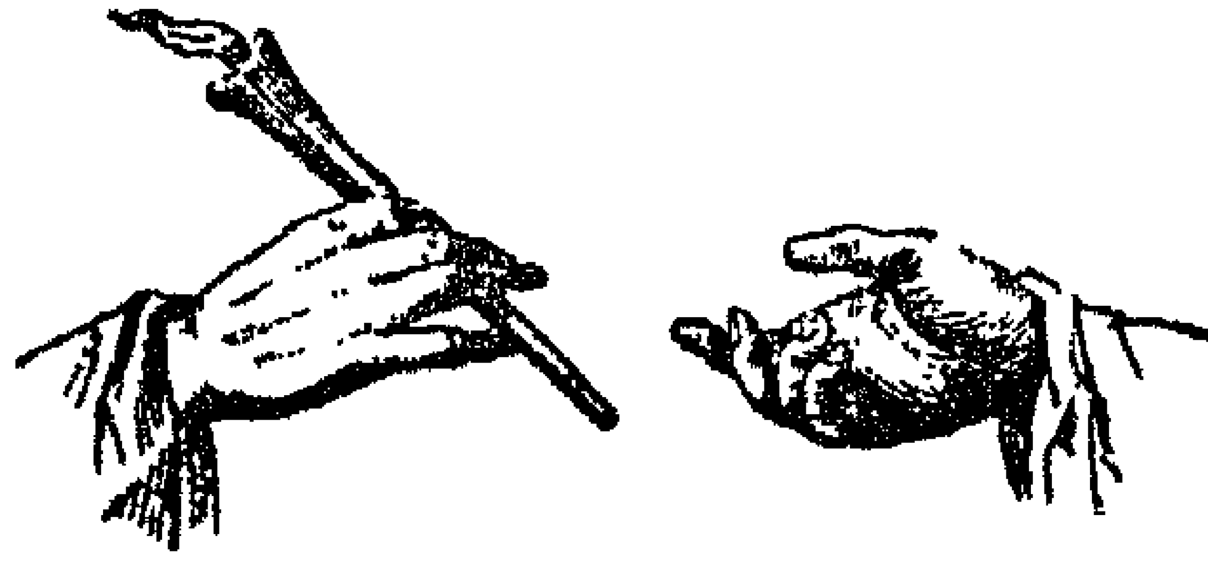
وقال الغسقونيون بأنهم كثيراً ما قاموا بمثل هذه المهمات من قبل وأنهم بمفردهم لسوف يقهرون المصريين والهنديين والاسقوثيين وانهم لن يتحركوا إذا لم يوضع الاسبانيون في حرس المؤخرة .

لم يسع المئتي كنعجي إلا أن يتضاحكوا من ادعاءات محالفيهم ، وأصرّوا على أنهم بمئة خرتيت يمكنهم أن يقتلوا ويبيدوا كل ملوك الأرض . وعلى أثر ذلك هدأتهم فورموزانتا الجميلة بحكمتها وعظتها الساحرة الفاتنة ، وقدم أمازان للملك الأسود جنوده الكنعجيين وخراتيته ورجاله الاسبان والغسقونيين وطائره الجميل .

كان كل شيء على تمام الأهبة للسير من طريق ممفيس ، فهليوبوليس ثم ارسنويه وفترا وارتميتس وصور وأفامين، لمهاجمة الملوك الثلاثة وتتبع هذه الحرب الخالدة التي لا تنسى والتي ان قرنت بها أي حرب قامت بها البشرية، لما كانت بالقياس عليها إلاّ تفاهات .

رددت الشهرة بألسنتها المئوية تلك الانتصارات التي حازها أمازان على الملوك الثلاثة برجاله الاسبان والغسقون والخراتيت ، ورد فورموزانتا الفاتنة الى أبيها ، وأعتق نساء حاشيتها من قبضة ملك مصر ، وأعلن خان اسقوثيا الأعظم نفسه أميراً تابعاً له وسجل زواجه من الأميرة ألديا . وأمّا أمازان القاهر الكريم فأعلن بأنه ولي عهد مملكة بابل،ودخل المدينة يحف به النصر ومعه العنقاء بحضور مئة ملك من أتباعه . وكان الاحتفال بزواجه أضخم وأفخم من الاحتفال الذي أقامه الملك بيلوس من قبل ، وكان مما قدم على المائدة العجل آبيس مشويّاً ، كما كان ملك مصر وملك الهند ساقيا العروسين . وكفى أن هذا العرس قد أشاد به خمسمئة شاعر من شعراء بابل العظام .





المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الحادي عشر بعد المئة

أول نوفمبر ١٩٤٧ ١٨ ذي الحجة ١٣٦٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصريًا وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصريًا وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميريكية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين رفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٧ — ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٦٦

الكوليرا (١)

أو الهواء الأصفر

هذا العابر الأثيم مرَّ بنا منذ ٤٥ سنة مرور المذنب . وكنا نظن انه عبر ولم يعد . فاذا هو يشتاقه جوُّ النيل الجميل وهواؤه العليل وماؤه السلسبيل وخضرته المخضلة فعاد يبتغي أن يتمتع بشتاء خصيب نضر . ولكنه لن ينال من خيراتنا وطراً ان شاء الله ما دامت حكومتنا السنية وعلى رأسها جلالة فاروقنا المعظم يقظة ساهرة .

إن موطن هذا الطاغية الخبيث أرض الهند السفلى منذ أزل لا يعرف أوله . والظاهر أن سكان ذلك الاقليم أصبحوا في مناعة قوية منه . وربما كان اكتفاؤهم منه بمقادير عندهم تعوَّدته أمزجتهم ، فوقتهم من الانقراض به .

ولم يعلم انه سرى من هناك الى البلاد الأخرى قبل سنة ١٨١٧ اذ طغى الى دلتا الجنجس في الهند ثم الى أفريقيا فآسيا فأوربا . ثم أبحر الى الولايات المتحدة في سنة ١٨٣٢ —

(١) هذا المقال مستمد من دائرة المعارف البريطانية آخر طبعة (٢) بكتيريولوجيا ادوين جوردان أستاذ في جامعة شيكاغو (٣) Practice of medicine تأليف ا. ا. ستيفن استاذ في جامعة فيلادلفيا

١٨٣٦ وتردد اليها بعد ذلك ٤ مرات كانت الأخيرة منها سنة ١٨٧٣ . وقد تردد الى مصر بضع مرات كانت الأخيرة منها ١٩٠٢

ينتقل هذا الوباء الفظيع بين الأقطار بواسطة القوافل التجارية والحجاج حيث يحدث الاختلاط بين عناصر الأمم المختلفة .

مع أن ميكروب الكوليرا نفسه ضعيف تقتله أخف مضادات الجراثيم المهلكة حتى الضعيفة منها فهو سريع النمو والتكاثر والانتشار شديد الفتك بالبشر يستعصي لدى كل علاج ويعز عنده الشفاء .

قبل سنة ١٨٨٣ لم يكن سبب هذا الوباء الفظيع معروفاً . فكان بعض المعالجين يظنون أن سببه الغامض في الهواء ، فكانوا يحرقون الكبريت لكي ينتشر بخاره في الهواء فيطهر من الوباء . ولعله سمي بالهواء الأصفر لأن الكبريت الذي يطهره أصفر اللون والله أعلم .

ما هو الميكروب

وقد سمي بالكوليرا لأن الكلمة منحوتة من أصل يوناني هو Choler ومعناه المرارة التي تحتوي على عصير الصفراء . وكانوا قديماً يعتقدون أن هذه الصفراء هي سبب غضب الانسان وتهيجه . وربما جاءت تسميته بالأصفر من صفراء المرارة ، أو المزاج الصفراوي . ولكن ما علاقتها بالهواء ؟

بقي سبب الكوليرا سراً غامضاً إلى أن كشف جرثومته كوخ الطبيب الألماني المشهور مكتشف مكروب السل أيضاً . رآه في امعاء المصابين بالكوليرا وسماه Coma Bacillus أي الباشلوس الضمي لأنه يشبه حركة الضمة (ُ) العربية أو الواوي لأنه يشبه حرف (و) الهجائي ومعنى باشيلوس « عصا صغيرة » أو عود صغير وكان في كوليرا سنة ١٩٠٢ يسمونه المكروب العصوي الضمي لأن شكله يشبه عوداً منحنياً كالهلال . وكان أحرى أن يسمى المكروب الهلالي . وكان في بعض زرعاته يظهر بشكل حرف S اللاتيني

وأخيراً رأوا انه ليس من الأسرة العصوية Bacillus بل هو من الأسرة الزغبية المهتزة Flagillate فسموه Vibrio cholera لأن له ذيلاً يهتز وبواسطته يتحرك ويزحف . ويرى

بعضهم انه نسيب باشيلوس الدوسنطاريا، ولهذا ينجع به العلاج بالسلفاجوانيدين الذي يعالج به الديسنطاريا أيضاً .

طوله نحو ١ — ٢ من الألف من الليمتر . سريع النمو في القلويات نشيط الحركة فيها ويموت في الحامض . لا يعيش في الماء أكثر من أسبوع . يعيش على سطوح الخضرة والفاكهة الرطبة أياماً قليلة . يموت في الحر القائظ وفي الجو الجاف في بضع ساعات . يعيش في الغائط البشري من ٢ الى ٧ أيام . الغريب انه يموت في ضوء الشمس . وفي الدم البشري . يموت في حرارة ٦٥ سنتيغراد وفي برودة ١٥ سنتيغراد فوق الصفر . قد لا يموت في هذه البرودة بل يتوقف نموه حتى اذا دفيء يعود فيعيش . عند الصفر يموت بتاتاً . جميع المطهرات كالفنيك والكريولين وبرمنجنات البوتاس الخ.. حتى الخفيفة منها تقتله . الماء الغالي يقطع دابره بتاتاً .

لهذا يفرض على الجمهور أن يستعملوا المطهرات المختلفة للنظافة . ولأنه يموت في الحوامض فينصح الأطباء للجمهور أن يقطروا في كأس ماء الشرب قطرات من حامض الليموني او الخل قبل الشرب ولا سيما إذا كان الماء آتياً من مصدر غير معقم . وليس ذلك ضرورياً اذا كان ماء الشرب من موارد ماء المنازل لأن شركة الماء تعقمه. وقد أضيف اليه في هذه الأثناء غاز الكلور ، وهو ضد الفساد والعفونة .

مصل الدم البشري يقتل جراثيم الكوليرا حالاً ، ولذلك لا تتطرّق من الأمعاء الى سائر أعضاء الجسم بدليل أنها لا توجد في البول ولا في سائر المفرزات كالعرق ولا يرى إلاّ في الغائط والقيء .

بعد تجارب متعدّدة في خنزير غينيا لم يثبت ثبوتاً قطعيّاً وجود سم في حاصلات ميكروب الكوليرا كما يوجد في حاصلات جراثيم الدفتيريا والدوسنطاريا وغيرها . وإنما يلاحظ أن في داخل جسمه نفسه سمّاً لا يفرزه وإنما يبرز منه في حالة انفلاقه وموته ، ولهذا يشك في فاعلية اللقاح المستخرج منه ، ويظن البعض أن الحصانة بلقاحه لا تتجاوز الستين بالمئة على الكثير وبعضهم لا يعتقد بأكثر من عشرين بالمئة . ومهما كان اللقاح ضعيف الفاعلية نخير أن يستعمل إذ لا بدّ أن يفيد ولو بتخفيف تأثير الاصابة .

العدوى

تنتقل العدوى من إنسان الى إنسان ، من غير واسطة حشرة أو حيوان عن طريق الجهاز الهضمي فيجب أن لايدخل الى الفم شيء إلاَّ اذا كان معقماً وبأصابع نظيفة وأدوات المائدة المعقمة بمحلول الكريولين أو برمنجنات البوتاس .

ومن أردإ وسائل العدوى الذباب الخبيث وهو أعدى أعداء الانسان وأصدق أصدقاء الميكروبات ، ينقلها من القمامات والبراز وسائر الفضلات ثم يحط على جميع أصناف الطعام ويلوّثها وبذلك تجب إبادته برشاش د . د . ت

تأثيره في الجسم

متى دخل الميكروب الى المعدة التقى بالعصارة المعدية . وهذه تحتوي على الحامض الهيدروكلوريك . والحامض يقتله فيسلم الانسان . ولكن « ليس كل مرة تسلم الجرة » . فلا يندر أن تفلت جرثومة واحدة أو بعض الجراثيم من الحامض فتبقى عالقة مع الطعام الذي لم يتم هضمه فتخرج من المعدة الى الأمعاء . وهناك هنّئها بالسلامة إذ تجد حقلاً صالحاً لمعيشتها فتنمو فيها وتتكاثر بسرعة وتترعرع .

ومتى استفحل الميكروب في الأمعاء تحت زغب الغشاء المخاطي Epithelium . فيتهيج هذا الغشاء . والتهيج يحرج الأمعاء أن تطرد المواد التي فيها لكي تتخلّص من السبب الذي أوجب تهيجها . فتطرد بعضها الى أسفل فالى المستقيم فتندفع منه الى الخارج بشكل إسهال متعاقب . وقد سماه الأطباء في كوليرا ١٩٠٢ ذرباً ، وتطرد البعض الآخر الى فوق فيخرج من الفم قيئاً . وقد يكون التقيء تهيعاً أي بسهولة ولا يخفى أنّ هذا التهيج والطرد الذي ينجم عنه يزعج المعدة والأمعاء جميعاً فيحدث المغص والتشنّج .

كل ذلك يستوجب أن ترتد سوائل الدم الى المعدة والأمعاء لكي تجرف معها محتويات المعدة . فالاسهال والقيء الطاردين للمحتويات بما فيها من الجراثيم المسببة كل هذه الهيضة . وكلما نضح الدم السائل الذي فيه تعطّلت وظيفة الدّم وتركز وضعفت دورته . ولهذا لابدّ من

تعويض نقص سوائل الدّم بحقن الوريد بمصل الملح الطبيعي و بمصل الجليكوز لـكي يبقى الدّم قائماً بوظيفتــه . اذا لم يُجدَّد قوام الدم بالحقن يحدث الانهيار فالاحتضار فالموت .

لا تصاب الحيوانات بالـكوليرا ، ليس لها هذا الشرف الخاص بالانسان .

قد يكمن الميكروب أحياناً في الأمعاء من عشرة أيام الى ٢٠ يوماً قبــل أن يظهر فعله . ولوحظ أنه بقي في بعض الأحوال ٦٩ يوماً .

الاعراض

متى ترعرع الميكروب في الأمعاء وبدأ الاسهال فالتهوّع يتوجع المريض مغصاً وتشنجاً بحيث لا يتمالك نفسه . وتهبط الحرارة الى ٣٦ بمقياس سنتيغراد أو أقل ثم يقل البول تدريجاً الى أن ينقطع تماماً إلاّ إذا حقن وريد المصاب بالمصل الملحي ومصل الجليكوز . وأخيراً يقف الاسهال ويستمر الألم والتشنج . يبقى العقل متنبهاً الى ساعة الاحتضار أو الانهيــار Collapse . يستمر الإنهيار بضع ساعات . وقد يمتد الى يوم أو يومين الى أن ينتهي بالموت

لا يندر أن تتحسن الحال قبل موعد الموت . فاذا بدأ التحسن بَشَّــر المصاب بأرجحية السلامة . يعود النبض وترتفع حرارة الجلد وأحياناً ترتفع الى الحــد الطبيعي أو ما فوق الطبيعي . وينقطع الاسهال بتاتاً ويعود التبويل . ولـكن يكون البول معتكراً برهة محتوياً على زلال وترتد القوة العضلية وتنشط الحركة الى أن يتم الشفاء في نحو أسبوعين

مع ذلك يبقى المصاب عرضة للخطر إما بنكسة أو بظهور مرض آخر كالتيفوئيد مثــلاً بحرارة خفيفة وقــد لا يحتمل الجسم المنهوك بالـكوليرا . ويصحبه هذيان يبتدىء بالتسمم وبالغيبوبة Coma وينتهي بالموت

وقد تظهر في مدة انتشار الـكوليرا أعراض تشبهها . ولدى الفحص البكتيريولوجي تظهر الحقيقة . فان لم تـكن كوليرا حادة تـكون أعراض تسمم من اكل أوغيره أو دوسنطاريا، واذن تمكن المعالجة ويؤمل الشفاء .

يبتدىء مرض الـكوليرا حاداً . ثم تنخفض حدته وإنما تنذر بالخطر الشديد . ومعدل

الوفيات بالكوليرا نحو ٥٠ بالمئة اذا كان تحت العلاج . ويندر ان يشفى المصاب من غير علاج . وشفاؤه بلا علاج يكون أعجوبة .

الكوليرا مرض خطير للجنسين وللاطفال والمتعبين ولمدمني الخمرة واضعاف الأجسام والمسنين .

الوقاية العامة

حالما يشتبه بظهور هذا المرض الخطر يجب الحجر الصحي على مكان الاصابة أو منطقتها اذا تكررت فيها الشبهات الى أن يثبت الفحص البكتيريولوجي وجود الوباء ، ثم السيطرة التامة على موارد مياه الشرب وبقاؤها طاهرة ، وعزل المريض الى مخدع محجور عليه ومنع الاختلاط به إلاَّ للممرض أو الممرضة المختصة المدققة في فنها . طرح المطهرات أي مضادات الفساد على القيء والبراز على الفور وتطهير كل ما كان على المريض من ملابس وفراشه وملآته الخ...وجميع أدوات مطبخه ومائدته. ثم مراقبة شديدة للاجتماعات العمومية وكل مكان يكتظ بالجمهور . والأفضل منع الاجتماعات والتجمهر ولاسيما اذا توالت الحوادث في المنطقة الواحدة. ثم اذاعة نشرات على الجمهور مشتملة على النصائح الوقائية والعلاجية والتعليمات اللازمة لسلوك الأفراد في مدة الوباء .

* * *

نصائح للافراد — ١ً — لا تشرب الماء من الموارد العمومية التي ليست تحت المراقبة كالترع والأقنية والمصارف والآبار والأزيار والطلمبات إلاَّ مضطرًّا بعد ان تعقمه بالغلي أو تضيف عصير الليمون أو نقط من الخل الى الكأس التي تشربها . ولا تأكل الجبن والزبدة إلاَّ مطبوخين .

٢ً — اغل اللبن قبل أكله .

٣ً — انبذ الخمور بتاتاً . لأنها خطرة في مدة الوباء .

٤ً — لا تأكل الخضرة إلاَّ مطبوخة . واغمس الفاكهة في الماء الغالي مدة دقيقة أو دقيقتين .

٥ — دع المآكل المملحة والتوابل وكل فاكهة مجففة معرضة للهواء وللذباب كالبلح والعجوة الخ

٦ — احرص على النظافة لكل شيء في جسمك وملابسك وغرفتك وأدوات المائدة والمطبخ

٧ — حاذر من الذباب فانه شر أعداء الانسان لأنه متطوع بنقل العدوى يقع على براز المصاب وقيئه ثم على الطعام ، اقتله حيثما عثرت عليه بواسطة د . د . ت

العلاج

في وافدات الكوليرا السابقة كانت المعالجة مقصورة على عزل المصاب الى فراش المرض حالما تظهر عليه الأعراض ، ثم يوضع الى جنبيه زجاجات ملأى بالماء الساخن لكيلا تهبط حرارته كثيراً . ولا يغذى إلا بماء الشعير ومصل اللبن اذا قل القيء لما في اللبن من الحامض اللبني الذي هو عدو الجراثيم التي تعيش في القناة الهضمية

* * *

لا يعطى مسهلات بقصد تنظيف القناة حتى ولا الزئبق الحلو Calomel ولا الأفيون الذي يعطى في بعض الأحوال ضد الاسهال . ولا بأس أن يحقن بالمورفين ولتسكين الألم . ولا خطر فيه ، لم يكن للكوليرا دواء خاص ولم ينجح بها دواء . وقد استعمل مصل الكوليرا للعلاج ولكن بلا فائدة

وكان لقاح الكوليرا يعطى للوقاية والحصانة فقط . وكان بعضهم يشير بتعاطي الاتروبين صباحاً ومساءً بقدر $\frac{1}{٦٠٠}$ من القمحة أي نحو سُدس المليغرام وبرمنجنات البوتاس يعطى بقدر قمحتين في حبوب تصنع من الكاولين والبارفين الجامد وتغلف بالسالول أو الكيراتين لكي تمر في المعدة الى الامعاء من غير ان تنحل في المعدة بل في الامعاء حيث هناك الجراثيم مترعرعة . تعطى حبة كل ربع ساعة لمدة ساعتين الى ٤ ساعات حسب حدة الحالة . وبعد ذلك تعطى كل نصف ساعة الى أن يتغير لون البراز الى أخضر أو أصفر ويقل قدره

مع ذلك لم يكن هذا العلاج ناجعاً تمام النجع ولم يكتشف للكوليرا دواء خاص به

إلاَّ أخيراً وهو السلفاجوينادين والسلفاديازين حين جرّبا في الهند ، اذ كانا يعطيان للدوسنطاريا فنجحا نجحاً تامّاً اذ انخفضت الوفيات الى ١ أو ٢ بالمئة من الاصابات كما روت إحدى المجلات الانكليزية أخيراً ، ووزارة الصحة العمومية المصرية تعالج به المصابين المحجوزين في المستشفيات الآن .

في حالة الانهيار Collapse يحقن المصاب في الوريد بالمصل الطبيعي الفسيولوجي وهو ٧ بالألف من محلول الملح النقي . وهو يشبه مصل الدم الطبيعي . يعطى كل بضع ساعات لكي يعوض عن مصل الدم المتناقص بسبب شدة الاسهال والقيء . ويتفاوت مقدار المصل المعطى بين لتر ونصف لتر على درجة حرارة ٣٠ سنتغراد .

* * *

وكانوا سابقاً يلفون المريض بحرام أو دثار ساخن أو بوضع زجاجات ماء ساخن الى جنبيه كيلا تنهار درجة حرارته . ويحقن بالعضل ببنزوات الصوديو والكافايين وبالكافور وبخلاصة الغدة النخامية Pituitary . وكان روجرس يفضل أن يكون المصل الملحي مركزاً وفي بعض الأحوال يضيف اليه كلورور الكلسيوم . وعلاوة على الحقن بالوريد كان يعطى المصل الطبيعي في المستقيم الى المعى الغليظ

كذا كانت المعالجة قبل هذا الزمن

والآن يضاف اليهما الحقن بمصل الدم البشري Plasma علاوة على المصل الطبيعي الملحي والجلكوز والسلفاجوادين والسلفاديازين كما تقدم القول

تبتدىء الكوليرا في البلد حادة فتنتاب جماهير اذا كانوا لا يعرفون أو يهملون الوقاية فتفتك بالعشرات والمئات كما كان يحدث في سنة ١٩٠٢ ثم تخف حدتها تدريجاً الى أن تنقطع من نفسها كأنها زالت بأعجوبة . ولعلماء الطب تكهنات مختلفة في سر هذه الظاهرة . ويظن بعضهم ان ميكروباً مجهولاً لا يرى ولا تحفظه المصفاة Filter يعيش مع مكروب الكوليرا عالة عليه فذاك ينمو وهذا يضعف الى أن يهلك الاثنان معاً والله أعلم

نقولا الحداد

للوقاية من الكوليرا

تعليمات وزارة الصحة العمومية

- - - -

أعراض المرض

تظهر أعراض هذا المرض في شكل إسهال وقيء شديدين ومستمرين تصحبهما تقلصات وآلام في المعدة وقد تبلغ شدة المرض درجة دخول المريض في حالة هبوط عام في ظرف بضع ساعات. وقد تكون أعراض المرض في بعض الحالات قاصرة على الاسهال ومثل هذه الحالات الخفيفة الأعراض هي الحالات الخطرة التي قد لا تلفت النظر اليها لخفة أعراضها.

وتود الوزارة أن تطمئن الجمهور الى أن رجالها ساهرون على مراقبة الحال إلاّ أن جهودهم في المكافحة لن تكلل بالنجاح إلاّ بمساعدة الجمهور لهم وذلك بالاسراع بابلاغ رجال الصحة عن الاصابات المشتبه فيها بمجرد ظهورها، حتى يتمكنوا من حصر الداء في موطنه قبل انتشاره واستفحال أمره، وليس ذلك فقط، بل يجب على كل من يعلم بوجود إصابة مشتبه فيها بين أقربائه أو كذلك جيرانه أو معارفه أن يبادر بالابلاغ عنها، كما لو كانت هذه الحالة في منزله. وبهذه الوسيلة يمكن وضع حد لسير هذا المرض واتقاء شر خطره الشديد.

طرق انتشار العدوى

تنتشر العدوى بوساطة الماء أو الطعام الملوّث بافرازات المريض التي تحمل ميكروب المرض كالبراز والقيء.

وتنتقل العدوى اما مباشرة عن طريق أيدي القائمين بخدمة المريض وبالمفروشات والأقمشة والملابس التي استعملها أثناء مرضه أو بوساطة ماء الشرب أو اللبن أو المواد الغذائية التي تلوثت بافرازات المصاب وكذا الخضراوات التي تكون غسلت في ماء ملوّث والأطباق وغيرها من أواني الطعام التي تغسل بماء ملوث وتنتقل العدوى أيضاً إلى أصناف الطعام بوساطة الذباب.

الاحتياطات التي يجب اتباعها

يجب الامتناع عن شرب الماء من غير الموارد العمومية من مثل مياه الترع والقنوات والمصارف أو الآبار والطلمبات الموجودة داخل المساكن وإن تعذر الحصول على مياه الموارد العمومية فيجب أن تغلى مياه الشرب قبل استعمالها .

ويجب الامتناع عن شرب السوائل والمشروبات وتناول المثلجات التي تباع في الأسواق أو مع الباعة المتجولين. كما يجب غلي الألبان قبل تناولها مباشرة

أما الخضروات فيجب ألاّ تؤكل بأي حال إلاّ مطبوخة كما يجب أن تغسل خضر السلطات والفواكه في ماء ساخن بدرجة الغليان لمدة دقيقة على الأقل . كما يجب أن يسخن الخبز قبل تناوله (أي تقميره) .

ونحذر الجمهور من شراء المأكولات بوجهٍ عام من الباعة المتجولين أو من المحلات التي لا تراعى فيها النظافة أو لا تتوفر فيها الشروط الصحية الخاصة بحفظ هذه المأكولات أو التي تترك المأكولات معرضة للذباب ، إذ أن الذباب يعتبر بصفة خاصة من أخطر الوسائل لتلويث المأكولات بميكروبات هذا المرض كما يجب دائماً أن تراعى نظافة الاماكن التي تطهي أو تجهز أو تحفظ فيها المأكولات بالمنازل ووقايتها من الذباب . ويجب أن يراعى في القرى عدم تلوث مجاري المياه بالفضلات الآدمية أو التبول أو التبرز في مجاري المياه هذه أو على مقربة منها .

ونوجه نظر الجمهور الى وجوب مراعاة أصول النظافة الشخصية في كل ما يتعلق بحياتهم اليومية وخاصة تطهير الأيدي أو غسلها جيداً بالماء والصابون قبل تناول أي طعام أو شراب، وكذلك بعد قضاء حاجاتهم اليومية (أي التبرز والتبول) كما يجب دائماً أن تغسل أدوات الطعام كالأطباق والملاعق وغيرها بالماء في درجة الغليان

ونوجه النظر إلى أنه لما كان من المعتاد في مثل هذه الظروف أن تروج الاشاعات بين الجمهور فإن وزارة الصحة تنصح الجمهور بعدم الإصغاء الى تلك الاشاعات وتطمئن الجمهور الى أن وزارة الصحة ساهرة على مراقبة الحالة وأنها تتخذ من الاحتياطات السريعة دائماً ما تستدعيه الظروف

المقتطف : حفظ الله الكنانة من شر هذا الوباء

سيكولوجية النمو

وعلاقتها بالتربية

يمر الطفل بأربع مراحل يتطوّر فيها سلوكه من المستوى الغريزي العشوائي حتى يستقر ويخضع للعقل. ويسمي الدكتور إرنست جونز المرحلة الأولى بالطفولة المبكرة، وتبدأ من الميلاد حتى العام الخامس، ويسمي المرحلة الثانية بالطفولة المتأخرة، وتنتهي في العام الثاني عشر، أما المرحلة الثالثة، وهي مرحلة المراهقة فتنتهي في العام الثامن عشر تقريباً، وتلي ذلك مرحلة النضوج

ويرى الدكتور ارنست جونز أننا نتطوّر دفعتين في حياتنا، فمرحلة الطفولة الأولى تتكرر بصورة أخرى في مرحلة المراهقة، وتتخللهما فترتا الاستقرار. وكأنما تقضي الطبيعة على ما بنته في المرحلتين الأخرتين لتبني من جديد أسس الشخصية. وفي المراهقة استعادة نسبية لمرحلة الطفولة الأولى، وفيهـا يحيا الفرد حياة تشبه حياة الطفل من وجوه عدّة، ويبني جونز آراءه على التحليل النفسي، ومظاهر النمو الجسمي والعقلي.

ويختلف الطفل في مراحله الأولى عن البالغ في تركيب عقـله، وتدل اختبارات الذكاء على أن قواه الذاتية تنمو بالتدريج حتى سن البلوغ. وسلوك الطفل في هذه المرحلة غريزي، وتسعى غرائزه لإشباع ذاتهـا، وبذلك يتعلم الطفل بالتدريج كيف يؤخر الزمن بين المؤثر والاستجابة. ويخضع سلوك الطفل في هذه المرحلة لقاعدة اللذة والألم، وكما يقول مكدوجل من يمس النار يخشاها فيما بعد. ثم يتصل الطفل بالمجتمع، فيعدل سلوكه الخلقي تبعاً للثواب والعقاب، والمدح والذم. ومن مميزات الطفولة الأولى التواكل والاعتماد على الغير جسميّـا ووجدانيّـا، فالطفل يريد أن يستأثر بعطف من حوله، ثم يستقل بنفسه بالتدريج. وخيال الطفل في هذه المرحلة متسع جامح، يكسو الجماد بالحياة، ويخلق لنفسه عالماً يملؤه أبطالاً خياليين، وتعوض أبطاله فيه عما يشعر به من نقص، كما يجد فيها متنفساً عما لا يستطيع أن يسيطر عليه من حقائق. وفي هذه الفترة يحب الطفل التكرار، ويشعر باللذة نتيجة الشعور بالسيطرة، وهي نتيجة سلبيـة قوية، أو خوف واقعي، ولـكي يحدث في نفسه الاتزان ويشعر بالأمن يلعب دور مبعث هـذا الانقلاب. فقد يرى الطفل خاماً وينفر منه، ثم

يتخذ من المساند المنزلية قطعاً من الفحم ، وقد يرى حيوانات مفزعة في حديقة الحيوان ، ثم يستعيد تمثيل مارآه بشغف بعد حين .

وقبل أن تظهر نتائج التحليل النفسي ظنَّ الناس ان الغريزة الجنسية لا تظهر في الطفولة الاولى ، ثم أظهر التحليل النفسي أنّ حياة الطفل الجنسية غنية متنوعة في نواحيها الجسمية والعقليـة ، وإنما هي ضمنية كامنة لا تتجلى وتحتل الناحية العقلية إلاّ في سنّ الزواج . والطفولة مرحلة حب الطفل لذاته ، ولذته فيها مادية حسيَّة ، وفي فمه تتركز معظم خبراته ، وتنتقل عاطفة حبه لذاته فتمتد منـه الى أمه ، دون أن يكون غيريًّا كاملاً ، فالأم مصدر غذائه وراحته . وكثيراً ما يحدث توقف في حياة إنسان عند هذه المرحلة فيظل المرء معلقاً بأمه . على أنّ التطوُّر الطبيعي يجعل من الابوين نواة لعواطف الطفل ، ويرى فرويد أن عاطفة الطفل لأمه عاطفة حب ، بينما هي كراهيه نحو أبيـه ، ويسمي ذلك بعقدة أوديب ، وإنما تظل هـذه العقدة مكبوتة لتنافيها مع المعايير الخلقية الاجتماعية ، وتظهر اذا ظهرت قسوة الأب . أما الطفلة فتحب أباها وتكره أمها ، ويطلق فرويد على تلك العـقدة عقدة الكترا . على انه بالرغم من ذلك قد تكون الصلة بين الأب وابنه والأم وابنتها قوية ، ولا يوضح فرويد علة كراهية الإبنة لأُمها .

وتظهر معالم الطفولة الأولى في حركات الطفل العشوائيـة ، وهي حركات لازمة لتصله بالعالم الخارجي ، فتتكوَّن لديه مبادىء الخبرة ، وفي عامه الثاني تعتمد عملياته الحيوية من تبول وتبرز وغذاء على حواسه ، والفم أهم مراكز خبراته ، يليه البصر فالسمع والشم ، ومن طريق هذه الحواس تتصل الخبرات وتندمج ، وتنمو حياة الطفل العقلية بنموها . ويرى فرويد أنّ الفم مصـدر لذّة حسيَّـة ومركز انفعالات حتى الشهر السادس ، وهو مصدر الشعور بالقوة والقبض على الأشياء حتى العام الثاني . ويمر الطفل في العامين الأولين بمراحل انتقال قد تحـدث بهـا أزمات ، كالفطـام . ولذا يجب أن يكون تدريجيًّا لا فجائيًّا . أما القدرة على السير ، فتهب الطفل شـعوراً بالقوة ، وتساعدة على كسب المهارة ، وتمنحه لذّة التكرار ، وتمكنه من فهم العالم والسيطرة عليه والشعور بالأمن فيه . أما القدرة على الـكلام فتتدرّج من الصراخ والضحـك والمناغاة العشوائية الى الاتصـال الاجتماعي ، ويشعر الطفل بقدره وباستقلاله ، وتتكوّن فكرته عن نفسه ، أساسها اسمه ، وجسمه وقدرته على المقاومة فهو كائن حي يشعر بذاته ، انتقل من دور السلبية الى الايجابية الاجتماعية .

أما بين العام الثاني والخامس ، فتكثر أسئلة الطفل عن العالم المـادي والاجتماعي وعن خبراته الحسية ، ويميل الى اللعب والتكرار ، إذ يريد الشعور بالأمن في بيئته . ويهتم الطفل

بمعرفة مصدر الأطفال ، وهو لا يطلب المعرفة والمهارة لذاتهما ، وإنهما كوسائل للتعامل الاجتماعي ، وفهم العلاقات بالتقليد أو المساعدة التحدي أو الاغتصاب . ويميل الطفل في هذه الفترة للهدم والتركيب ، فالهدم سريع النتيجة ، سهل المأخذ ، ولذا يفضله على البناء . ويبذل الطفل جهداً ليركز انتباهه ويزيد امتاجه في اللعب وتدق حركاته بالتدريج . ومن الضروري لتكوين ذاتية الطفل ما يظهر من غضب وصياح وغيرة وخوف واغتصاب وندم نتيجة تدخل السلطة الاجتماعية إذ تتكون فكرته عن ذاته تبعاً لها . ويستقبل الطفل أحكام السلطة أولاً ثم يطبقها على غيره — وبين ذلك ينمو الضمير ، ويخشى الطفل في هذه المرحلة الموت الظلام وكل ما هو غامض مبهم .

وينمو الطفل بين الخامسة والثامنة نموًّا حركيًّا ولغويًّا واجتماعيًّا ، وتزيد خبرته ومهارته عن طريق اللعب والتجريب ، وتقوى ارادته وقدرته على الانتباه ، ويساير عمره العقلي عمره الزمني تقريباً . وينتقل الطفل من الفردية إلى الجمعية ، دون أن يكون شعوراً اجتماعيًّا ناضجاً ، وإنما هو فرد في قطيع ، يحتاج للقطيع ليشبع حاجات نفسه . وينسب الحياة للظواهر الطبيعية كما تفعل الشعوب البدائية ، بغض النظر عن الذكاء والتعليم .

وتبدأ بعض صفاته الاجتماعية من تعاون وحكم وحنان في الظهور ، ويميز بين ذاته وبين العالم الخارجي ، وفي نهاية هذه المرحلة ينتقل إلى الحقيقة والواقع ، حتى إذا ما جاوز الثامنة من عمره ازداد تعامله الاجتماعي ، وانتقل من الذاتية إلى الموضوعية ، وتحرر من التواكل ، وبدء يندمج في مجتمع ، وأخذ تفكيره في القوة والتحسن .

أما في مرحلة الطفولة المتأخرة أي ما بين الثامنة والثانية عشر ، فيستقر نمو الطفل الجسمي والعقلي . فالنمو الجسمي والعقلي للطفل كالموجة ، وكأنما تتبادل الطبيعة التقدم والاستقرار فيزداد نمو الطفل في عامه الثالث ، ثم يستقر حتى السادس أو السابع . وهذا الاستقرار من مميزات الطفولة المتأخرة . فالطفل مستقر هادىء يعرف كيف يسلك في هذه الفترة .

ويعلل ستانلي هول هذا الاستقرار والاستطراد في النمو تبعاً لنظريته التلخيصية فيرى ان الطفولة استعادة لمرحلة من الحياة كان عمر الناس فيها قصيراً فماتوا قبل النضوج . ويتكيف الطفل في هذه المرحلة تبعاً لمطالب الموقف ، ويفقد هذه القدرة في المراهقة ويستعيدها بعدها .

وتتسم الطفولة المتأخرة باكتمال نمو الغريزة الاجتماعية . فالطفل في سنواته الأولى لا يحب الكبار إلا كوسائل لإشباع حاجاته ومطالبه ، ويكره الوحدة لحاجته إلى غيره .

أما في هذه الفترة ، فيبدأ الطفل حياة الجماعة ، وتصير الجماعة وسيلته للتنفيس عن غريزة السيطرة ، وهو عضو في الهيئة ، ويساهم في مشروعاتها وألعابها . ويجب ألاَّ تحزن الأم إذا ما انصرف الغلام عن المنزل فلا يراه إلاَّ مكاناً للطعام والنوم ، وذلك طريق الطبيعة إلى المراهقة . على ان الغريزة الاجتماعية لم تظهر في أرقى صور السلوك الاجتماعي فهو لم يعلم بعد معنى الايثار ، وإنما تظهر غرائز السيطرة والخضوع حين يقود ويقاد ويخضع سلوكه في هذه الآونة للثواب والعقاب الاجتماعي ، وفي هذه المرحلة بداية العادات الاجتماعية من أخلاق ودين ، ويشعر الطفل بدينه للعصابة ووجوب طاعة قائدها ، والخضوع لرأيها العام . وكثيراً ما يكذب الطفل في المدرسة طاعة للعصابة ، وإنما علينا أن نحول نشاط العصابة لخدمة المجتمع الأكبر ، وفي جماعات الكشافة والنوادي خير حل لعلاج مشكلات هذه المرحلة بما فيها من مبادىء سامية وجماعات راقية .

وتمتاز الطفولة المتأخرة بالاهتمام بالخارج ، وبحقائق العلم ، فيهتم الطفل في العاشرة بالأمور الخارجية أكثر مما يهتم بحياته النفسية الداخلية . ويهوى الألعاب الخارجية وحياة المعسكرات ، ويهتم بالعمل وفي سبيله يحصل على العلم . وهذه المرحلة مرحلة استقرار جسمي ويقل فيها المرض والوفاة ، وحدة الانفعال وسرعته ، ويزداد الفائض من النشاط ، ويدق السلوك وتظهر المهارة ، وتظهر العصابة ذات الزعيم واللغة السرية والمفاخرة والمباهاة ، وما زال سلوك الغلام في هذه الآونة خاضعاً لبقايا السلطة ، ويحترم القاعدة لأنها بنت السلطة ، ثم يتغير تقديره للسلطة إذا ما اصطدمت بالولاء للعصابة ، ويحتقر الطفل الضعف الجسمي والعقلي في هذه المرحلة ، ويحب القوة والحزم . وينتقل من حب للظهور إلى حب للاستطلاع ، ويبدأ في تعليمه العقلي والجسمي بالقاعدة العامة ، ثم يسير نحو التفاصيل الجزئية ، ويميل إلى الجمع والامتلاك ، كمقدمة للاهتمام العلمي كما حدث لداروين ، ثم يحترم حقوق غيره ليأمن على حقوقه ، فيعلم واجباته . ويجد الطفل إشباعاً لميوله المخاطرة في العصابة ، وفيها يدرب نفسه على الثقة بنفسه ، وينمو عقله فيفرق بين الخيال والواقع ، ويرتقي من التأثر بالثواب والعقاب إلى المدح والذم ، ويميل إلى نقد السلطة حتى يثور عليها ، وميوله في هذه المرحلة عملية ، والميول العلمية وسيلة لها وهو يحب الحركة والكشف والجمع والاستفهام عما يراه من حيوان وانسان ، ويهوى العمل اليدوي المحسوس ، والرسم والموسيقى ، ويحب الحركة والمخاطرة .

أما المراهقة فهي شبه استعادة للطفولة الأولى ، يفقد المراهق فيها استقراره وثباته ، ويجد نفسه في عالم غريب ، فقدت عاداته القديمة فيه قيمها ومعانيها جسمياً وعقلياً .

فالمراهق خشن المسلك عنيد كثير الانفعال ، يعتقد انه مضطهد من الجماعة ومحط نقدها . ويعيش بين ثورة جامحة وحزن شديد ، على أن خياله يتسع ، ولكنه ينطوي على نفسه وعقله الباطن . ومن أهم مميزات هذه المرحلة النمو الجنسي الذي يستيقظ ويتجه نحو الغرباء بعد ان كان يدور حول والديه فيما يرى جونز . والغريزة الجنسية لدى المراهق حقيقة حية . ولذا لزم علاج هذه المرحلة حتى يجتاز المراهق أزماتها بسلام . ويرى البعض في الكشافة علاجاً للانطواء ، وفي الرياضة البدنية ميداناً لتوجيه نشاطه ، وربما كان في الفنون الابتداعية اعلاء وتوجيه لمشاكله الجنسية ، على ان التربية الجنسية الصحيحة الصريحة لازمة لازالة ما يحيط بها من خجل وتكتم ، حتى لا يشعر المراهق بشذوذ أو مرض ، مصحوبة بالعطف وحسن التفاهم بين الراشد والمراهق .

ويستقل المراهق بنفسه في هذه المرحلة ، ويجد أبطاله في التاريخ والأدب والحياة ، وربما كان ذلك امتداداً لاعتماده على أبويه . وتصادف تعاليم الدين هوى في نفس المراهق حين يبحث عن مثل عليا تحتل مكان والديه . وفي الدين مخرج للتوتر الجنسي الذي يشعر به ويسكن آلامه ويخفف من وطأة صراع جسمه مع نفسه . على أن الايمان والشك يجتذبانه إذا ما فشل الدين في حل مشاكله الخلقية ، واصطدم بالعلم الذي يتعلمه ، وربما وجد في الفلسفة مخرجاً فيميل نحو الهيلينية الوثنية ذات الاتزان والاعتدال، وربما ترهب للبحث عن الحقيقة في العلم والجمال في الفن . اما السلوك الخلقي للمراهق فهو مضطرب بصورة عامة ، نتيجة للثورة الجنسية الكامنة حيناً ، الثائرة أحياناً . وينتهي إلى ضبط نفسه حين يكون مثله العليا وعواطفه من أبطاله المحبوبة ، فيسير إلى مرحلة الاستقرار ، حين يخضع سلوكه للمثل الأعلى ، لا لمجرد الثواب والعقاب الاجتماعي . وقد وضع هـذه المثل العليا قلة من الناس كثيراً ما خرجوا على المثل المتوارثة ولم يعبأوا بالنتائج الاجتماعية ، بل فرضوا مثلاً عليا أنارت سبلاً جديدة .

***

ويؤدي النمو الجسمي للمراهق الى نمو أعضائه دون اتزان ، فينمو عضو أكثر من الآخر كالشعر ، ويزداد نشاط الغدد التيموسية والصنوبرية والتناسلية . ويصحب التغير الجسمي تغير نفسي يصحبه صداع أو كسل ، ويصحب هذا النمو قلق ، فتنزعج الفتاة حين تكبر قدماها ويداها ، ويتصنع الفتى الرقة ، ويصحب الاضطراب الداخلي اضطراب جنسي من ظواهره عادة الاستمناء عند الأولاد والعادة الشهرية عند البنات . والعادة السرية مهما يكن أمرها وسيلة الى الخلاص من توتر ، على أن أكبر أضرارها ما يصحبها من صراع نفسي

بين مزاولتها والامساك عنها ، وهي وسيلة شاذّة غير طبيعية يشبع بها حاجة نفسه ، وربما كان في تهيئة جو الاتصال الخارجي الى أكبر حدّ ممكن علاج لها .

وتشتد رغبة المراهق في الاستقلال بنفسه ، فيتقدم خطوة اجتماعية ، وتتخذ هذه النزعة صورة ثورة على المنزل والمدرسة وما يمثل السلطة القديمة ، ويبحث عن أبطاله في أماكن أخرى ، كالكتب أو في الواقع ويبحث عمن يلقي بأعبائه العاطفية عليه ، فكثيراً ما تتعلق فتاة بمدرستها أو بفتاة أخرى وترسل إليها خطابات غرامية . والبطل عنصر مهم للمراهق ، وإذا ما قدمت له نماذج مثالية مرغوب فيها ، تحرر من الأفراد والأشخاص ، وانتهى إلى حب الصفات ذاتها . ويشتد ولاء المراهق للجماعة ، ومن مظاهر ذلك الكذب الوفائي . ويبلغ ذكاؤه الذروة في هذه المرحلة ، من ناحية الطاقة لامن ناحية التحصيل . ويخصب خياله ويصحبه إغراق في أحلام اليقظة والتفكير الآني

وينبغي أن تعلى كل تلك النوازع لتعبر عن نفسها تعبيراً مرغوباً فيه ، كالرسم والشعر والموسيقى ، فيحب الجمال وينتج فيه ، ويحب الفلسفة والبحث العلمي وحقائق الكون ، مع تدريب قدرته على النقد . وفي هذه المرحلة يتكوّن الشاعر والفيلسوف والعالم ، كما أن فيها يتكوّن الشاذ والجاهل والمجرم ، ومن فشل في التكيف الاجتماعي ولم يلق عناية وعلاجاً صحيحاً .

وتنتهي هذه المرحلة باكتمال النموّ والرشد لتستمر الى نهاية الحياة ، فينظر الراشد الى العلم والحياة والناس والأشياء ، ويرى الحقائق لا الخيال ، فالراشد رجل الدنيا ، يفخر بعلمه وعمله .

* * *

وتساير مراحل النمو النظم التربوية المثلى ، فتناسب الطفولة الأولى حتى الخامسة مدارس الحضانة ، والطفولة المتأخرة حتى الثامنة رياض الأطفال ، والمدارس الابتدائية حتى الثانية عشرة ، والمراهقة المدارس الثانوية حتى الثامنة عشرة ، والرشد الجامعة تقريباً فإلى أي حدّ تقابل كل الحاجات النفسية لنزيلها في مدارسنا المصرية ؟ ذلك يحتاج الى المزيد من القول نعرض له في المقال التالي ان شاء الله .

محمود حامد شوكت

الانسان

هذا اللغز الأعظم !

يولد الإنسان والمعرفة غريزة مختلطة بدمه ، فتنمو معه وتتشكل وفق عمره وبيئته ومستواه ، بها ينشىء ويعمر ، وعلى هداها تنعقد حياته . فكلما درج به الزمن درجت هي الأخرى تضع مقوّمات حياته . وتسن نواميس الآداب والفلسفات والحركات الفكرية التي يسير عليها في جهاده . فهي من التقدم الجوهر الأصيل الذي بغيره لاختلط العدم بالوجود وتعاقبت الدهور تعاقباً آليـًا لا تمايز خصائصها ولا تتعين حدودها .

يخرج الطفل الى الحياة وبه ظمأ إلى التعرّف على كل شيء ، فتتعاود عليه المراحل الزمنية وهو بينها ذات هائمة تنظر الى نفسها وتنظر الى غيرها ، تتعرف على كل ذلك تارةً بالعاطفة وتارةً بالغريزة، وتارةً بالعقل،فتصطدم بالمظاهر الخارجية وتنتابها شتى الأزمات، فقد تجتازها وهي بصيرة وقد تكبو عندها كبو الأعمى الضرير ، وهي إن اجتازت أو كبت تستفيد من التجارب استفادة كبرى ، وتتحفز للمراحل القادمة تحفز المتطلع المشغوف . فمن المعرفة ، إذن ، طلع الأمل ، ومن الأمل صنع الوجود ، ومنه توائبت الأحداث فلم تدر ما الجمود وما الوقوف في يوم من الأيام . فليس في الفطرة الأولى يأس ، لأنّ الذّات في هذه المرحلة جسورة غير هيّابة ، راغبة غير متراجعة ، مقدامة غير جبانة ، لا تعرف ما الخور لأنّ التطلع هو الوقود الذي شحنت به لتتعرّف على نفسها وعلى الوجود المحيط بها .

ومن هذه الغريزة ، غريزة المعرفة ، صارت الدنيا كما نراها ، وتركبت حياتنا كما نعيشها ونتلمسها ، وبفعلها سار الموكب البشري في سلسلة متصلة الحلقات كل لاحقة أرقى وأعقد من سابقتها ، وكل حاضر هو ثمرة الغرس الذي زرع في ماضي اللحظات .

ولولا هذه الغريزة لما نشطت العقول لوضع الفلسفات المتباينة لتفسير الإنسان وتفسير

الطبيعة ، ولما زخر التاريخ بالمدارس الفكرية التي عجّ بها التاريخ البشري منذ أن دعاه الافراد الى أن بلغ مرحلته الراهنة التي يستعد فيها لوثبات هي أشبه بالمعجزات .

فالإنسان مدني بالطبع ، كما يقول ارسطو ، وكذلك هو نزّاع الى المعرفة بالفطرة أيضاً ، وهو يريد الاجتماع بغيره حبًّا في المعرفة قبل أن يجتمع حبًّا بالاجتماع .

* * *

والإنسان الأول نظر حوله فاذا ببراكين ثائرة تقذف الحمم ، وأعاصير مهولة تجتاح كل شيء ، وأمطار ثقيلة تغرق الزرع والضرع ، وبحار صاخبة تتلاطم أمواجها وترتفع وينخفض عبابها ، كل هذا رآه فاستهوله ، ووضع أصبعه في فمه وراح يفكر ويتأمل : ما هذه الحمم ؟ وما هذه الأعاصير ؟ من يقذف تلك ومن يثير هذه ؟ هل هو إنسان مثله ؟ إذن فليجرب ، ولكن ها هو يفعل فلا يستطيع ، ويحاول فلا يقدر . اذن هي قدرة أقوى من قدرته : فما هي ؟ فليختر لهؤلاء الجبابرة أسماء ، وليسمي لكل ظاهرة إلـه ، فهذا إلـه النار ، وهذا إلـه الماء ، وهذا إلـه الريح ، وهذا إلـه القدر ... الخ . وارتاح الى هذا التفسير واطمأنّ الى ما وصل إليه تفكيره البدائي .

ثمّ تقدّم أكثر وأكثر واجتمع بغيره وتعقّدت علائقه — نظر الى الجمال فراعه ، وشعر بالحب فاستساغ مذاقه ، وشرب الخمرة فانتشى برحيقها . وفطن الى أن يسمي أيضاً آلهة تدل على كل هذا . .

وظلّ يرتقي ويرتقي فنما عقله وامتدّ تفكيره وعمق احساسه فهتف به هاتف من سوّى هـذا الوجود ؟ من أي مادّة صنع ؟ على أي نظام يدار ؟ كيف يتدرّج ؟ وعند هـذا عرف الفلسفة ، وطفق يضع لها المعايير والموازين ، وعرفت الحياة أول فلاسفة يذكرهم الفكر الإنساني وهم فلاسفة « يونيا » فكانت فلسفتهم بدائية بالنسبة الى بيئتهم ، لأنها لم تكن إلاّ صورة مصغرة من « الميثولوجيا » التي فسر بها الأفراد الوجود في أول عهدهم . فهذا يقول أنّ مادّة الوجود النار ، وذاك يقول التراب ، وآخر يقول الماء ، والرابع يجمع كل ذلك فيقول الوجود مزيج من نار وتراب وماء .

وأخذت الفلسفة تعمق كلما تطوّر الانسان ونما ، وراحت لا تنظر فقط الى مظاهر الطبيعة، بل ردّت البصر الى الإنسان نفسه تتفحص عقله وقلبه وغرائزه والبواعث التي توجهه . وابتدأ أفلاطون يبني نظرية « المثل » على أساس ساذج واهٍ فمثل نهاية عهد من التفكير آذن بالأفول ليعقبه عهد جديد مثله ارسطو بفلسفته الكبرى التي كانت أعظم بناء فلسفي عرفته الفلسفة القديمة . فوضع معايير المنطق، وأقام البحث على أسس علمية ؛ ولم يقصر بحثه على الطبيعة وظواهرها، بل أخذ يختبر العقل الإنساني ويمتحن النفس البشرية .

وابتدأت الفلسفة تتدهور من بعد ارسطو ، وراح الفكر الانساني يعاني آثار الاجهاد، فبدا هذا التفسخ في أصناف من المذاهب المنحلة التي جاءت بعد ذلك كالابيقورية والكلبية. ثم قرعت الطبول تؤذن بمجيء النبوّات ، وحلت عصور التفكير الديني التي وضعت فيها أسس الوحدانية ، ودخل الناس أفواجاً أفواجاً في الدين ، فتفيأوا هناك ظلال الإيمان السليم ، يعتقدون بواحد قهّار ، ولا يسألون عن ماهية هذا الواحد الذي ليس فوقه أحد .

ولكن أمن الممكن أن يستريح الإنسان ؟ أمن المعقول أن يؤمن بالعجز ؟ لا . فقد ثارت فيه غريزة الاستطلاع، وراح يفلسف الأفكار الدينية ويبني من جديد المذاهب على أسس عقلية منطقية . وأحسّ الدين أنّ القوائم التي تحمله تهتز ، وأنّ دعاماته تتقلقل ، ولكن رجاله كانوا في سبات ، فلم يحاولوا أن يبنوا الإيمان على أسس غير العاطفة ، وأن يجاروا الزمن .



وقامت الفرق الاسلامية في الشرق ، والدولة العربية في أوجها ، تجدد الدين وتدعمه بفلسفة جدلية قوية، حمل لواءها الغزالي متقدّماً الصفوف في فتوته الأولى ، يهدم ما تواضع عليه القوم من خرافات وخزعبلات لينشأ فلسفة دينية عقلية كبرى . إلاّ أنّ موجات العقائد الزائفة التي وفدت من بلاد فارس ، مع الأسف ، حوّلت هذه الاتجاهات الفلسفية الرشيدة في العالم الاسلامي عن الطريق الذي كانت تسعى فيه لتدلها على طرق جديدة تبلبلت فيها العقول ، وانّ التراجع الذي بدا على الغزالي أظهر ما يميز هذا التبلبل ، فقد انقلب على نفسه

فبعد أن كان يزيف الخرافات صار يحملها على كتفه ليبيعها للناس .

وأمّا في الغرب ، فنحن الآن في القرون الوسطى : الظلام دامس ، والجهل سائد ، والعقل خامد . أينما أدار الفرد بصره لم يجد إلاّ قسساً يسيّرون التاريخ وبابوات يقودون الأمم ، وكنائس تحكم أوروبة ، فعبثاً يفتش الإنسان عن النور الذي يفضح الدجل، وعن المصباح الذي يرشد الى السبيل السوي في هذا الليل الحندس . فالشمس قد اختصت قوماً دون قوم ، والعلم قد ابتذل على أيدٍ تمتطيه للسيطرة لا للنفع وتلح في توزيعه بالقطرات كي لا يفيض سيلاً يكتسح قلاع المتبطرين من السادة والأمراء، ويذيب هذه القيود التي توهن قوى التفكير باسم العادات ، وباسم التقاليد وباسم الدّين ، ولم يكن الدين إلاّ ستاراً يخفي خلفه خزي فضائح رجاله ، وما العادات إلاّ حجباً تفصل بين العبيد الذين يأكلون التراب ويلبسون العري،وبين السادة في الطرف الآخر يأكلون بملاعق من الفضة، وينتشون بكؤوس مرصعة .

* * *

وجاءت الثورة فكانت عنيفة على التقاليد وعلى الدين وعلى الطبقات ، فحاربت كل ذلك بالنور الذي سلطته على العقول التي غلفها الاتباع، وجفف ماءها الخنوع . وانتهب القوم كل ما في الكنائس من أكداس مكدسة من كتب العلم والأدب التي طواها رجال الدين كي لا يستفيد منها عقل،ولا تأخذ عنها جماعة ،والتهم الجوع الثقافي كل ما فيها،وتطلع الناس إلى أشياء جديدة تتوافق والنظم القائمة على الأطلال الدارسة من عقائد الجهال والمحتالين وعلى المؤسسات العتيقة التي أخصب فيها الدود وتساقط منها القدم . ثم كان اختراع الطباعة الضربة الكبرى التي سدّدت للنظم البائدة المنحلة المشبعة بالتهتك ، فتهادت القلاع الشامخة وتشرّد الأمراء ونهض الفرد العادي يصيح بقوته : أنا التاريخ . فشاعت نظم الحرية، وأقيمت دعائم الحياة على أسس تتلاءم مع التفكير الجديد ، وحلّ صراع من نوع جديد ، صراع بين التفاسير الفلسفية والنظم الاخلاقية والعقائد السياسية ، وصارت للفلسفة « أدوار » كما للأزياء أدوار ، وللأخلاق قيم تتغير مع المواسم ، وأما العقائد السياسية

فلم تشهد عهود استقرار أبداً ، ففي كل يوم هزة ، وفي كل ساعة تقيمها وتقعدها ثورة .
وكل هذا متوقع وطبيعي ، لأن عهد الطوائف المسيطرة قد ولى لجاء دور الفرد ، والحياة التي تسلم مقاليدها للفرد وجب أن تقبل آراء متعددة بقدر الأفراد . وهكذا تداخلت الأشياء ، وخضعت الحياة الانسانية لوحدة عامة ، فالأخلاق والاقتصاد والسياسة والفلسفة يفعل كل في الآخر فعلاً إيجابيًا سلبيًا في آن واحد ، واندثرت وامحت تلك الحدود المزعومة التي تفصل بين ما يلبسه الفرد من أصناف الأحذية والقبعات ، وبين ما يرتأيه من نظم السياسة ومواصفات الأخلاق .

***

وامتلأ الجو بضجيج الفلسفات المتعاركة ، وبحركة العلوم التي ازدحمت بها الحياة ، هذا يفسر الوجود بالعاطفة ، وذاك يفسره بالغريزة ، وآخر ينكره وما يراه إلا نهاية وبداية تضيع بينهما الغاية ، وذاك يؤمن إيمان العاجز ، وهذا يؤمن إيمان المهولين الصاخبين ، وآخر هناك يلحد ويسرف في إلحاده حتى يكاد يقيم من أفكاره أوثان جديدة يتعبدها من دون الله . وكان كل هذا يتمخض عن أساس جديد للحياة ، بل لم تكن إلا آلام المخاض التي يعانيها الوجود .

ثم أشرقت الشمس على هذه الأطلال ، وطلع على الدنيا ديكارت بمناهجه في تطبيق أساليب العقل وطرائقه في البحث على كل شيء — حتى الله . وراح يهدم ويبني ، فأنشأ فلسفة ارتفعت أبراجها حتى أمسكت بالسحب ، ونزلت قواعدها حتى رسخت في الأعماق . وظلت فلسفة ديكارت تنمو وتنمو ، وتبعتها فلسفات سرت على نفس النهج تطبق أسلوب الجدل العقلي على كل فرع من فروع المعرفة .

وتزعم العقل كل مذاهب الوجود الى أن جاءت العصور الحديثة بعد صخب واختراعات القرن التاسع عشر ، فاذا بأسسه في مطلع القرن العشرين تتزعزع وبقوائمه ترتج بعد أن جحد الانسان فلم يساير عقله في قفزاته ، كان يخترع وينشىء ويبني في الحيز الذي كانت دراسته لنفسه وأساليبه ونظمه في الحياة كما هي . سخر الطبيعة ولم يسخر العلم لدراسة نفسيته

دراسة علمية صادقة ، فكانت كل جهوده منصبة الى الخارج ، ولم يوجه شيئاً منها الى الداخل .

***

وكان هذا الوضع ملائماً كل الملاءمة لتفسير للانسان جديد ، ولمذهب في الوجود يماشي المطالب المستجدة ، ويملأ الفراغ الموجود . نعم كان هذا الوقت أنسب الاوقات لقيام « سيجمند فرويد » يبشر بتطبيقاته في علم النفس وتحليلاته في ميادين « البيولوجيا » . وكان الزمن أصلح الأزمان لأن يبشر هذا العلامة بمذهبه بأن « الغريزة الجنسية » هي مفتاح السلوك البشري ، هذا المذهب الذي كان ثورة على كل ما تواضع عليه الناس من عرف وآداب ، ونهض الجامدون يحاربونه بأسم التقاليد والعادات والدين ، كما حورب العقل يوماً بها . وما كان فرويد صادقاً في كل تفاسيره ولم يكن صاحب مذهب بلغ الكمال ، ولا نصف المرحلة الى الكمال ، ولكنه صدق في تفسير جوانب كثيرة من السلوك البشري بطريقته العلمية التجريبية . إلاّ أن المتعصبين لم يرقهم ذلك ، وأخذوا يسفهون كل محاولة يقوم بها أي عالم من علماء الاجتماع لتطبيق نتائج بحوث فرويد على الظواهر الاجتماعية . فاذا ما أثبت العالم النفساني الكبير «فرانز الكسندر » [1] بأن أكثر المجرمين الذين أجرى تجاربه عليهم ثبت أن عقدة أوديب قد تمكنت فيهم تمكناً عنيفاً فراحوا ينفسون عن عواطف الكره التي رسبت فيهم بالاعتداء على المجتمع ، ثار عليه الرجعيون مع أن هذا العالم وصل في تجاربه الى أن أكثر من ٧٠ ٪ من المجرمين يحلمون بارتكاب الفحشاء مع أمهاتهم . .

***

ولقد حقق الانسان اليوم ارادته ، ففشلت الدعاوى الزائفة ، وطغى العلم على الحياة ، ومهما قيل في هذه الفوضى فانها فوضى تمخضت عن عالم لا تضله الجهالات ولا العمايات .

بغداد فؤاد طرزي

(١) في مؤلفه المجرم وقضاته



المدنيات القديمة



نشأ العمرانُ في الشرق أولاً بين الفرات والدجلة حيثما ظهرت مدنية الكلدانيين فأخذ البشر عنهم مبادىء الشرائع والعلوم الرياضية والهندسية والفلكية . وعلى شاطىء نهر الكانج استوطنت الحكمة الهندية البرهمية والتعاليم الحرّة البوذية . إن المدنيـة الهندية ثقّفت الفكرَ وظهرت بها قوة الروح ، لكنها مالت الى الخيال أكثر من ميلها الى التعقل . وعلى ضفتي النيل أينعت المدنيـة المصرية فقارنت الكلدانية بالقدم والنجاح ، وفاقت غيرها بالتدين . وفي شواطىء سوريا ازدهرت المدنيـة الفينيقية فاستنبطت الأرقام والحروف فخففت بذلك أساطير الحكمة وسهّلت مداولتها بين البشر ، أما بفلسطين فاشتُـهرت شريعة العدل والحق فأخذ العالم عنها أسمى مبدأ دينيٍّ أي عقيدة الوحدانية بالذات . إن مدنيات على اختلاف نزعاتها مالت إلى المبدء الديني أكثر من ميلها الى الفكرة الفلسفية ، الأمر الذي قيّد الفكر البشري بروابط التقليد فلم تتقدم المعارف بينهم تقدمها في بلاد اليونان وطن الحرية والحكمة

أخذ اليونانيون مبادىء مدنيتهم من تلك الأمم الشرقية القديمـة إلاّ أنهم لم يكتفوا بما حوته من معارفٍ أوليّـة بل هذبوها وزادوا عليها بما أضافوهُ من العلوم والمكتشفات التي أهمها تحرير العقل البشري من التقليد بفصلهم المعارف عن التعاليم الدينية ورفع سيطرة رجال الدين ، فوضعوا بعملهم هـذا العلوم الفلسفية على أصول حقيقيـة قائمة على البحث والاختبار النظري فأينعت وأتت بأشهى ثمار العـقل والحكمة . لقد اقتبس العـالمُ عنهم وسار على أثرهم معتمداً بذلك على فلسفتهم الراقية مستنيراً بأنوار حكمتهم الزاهرة . لكنّ الفلسفة اليونانيـة لم تتمكن من كبح جماح النفس لاستنادها إلى الأشياء المادية وو راءاتهـا الأمور النفعية . وبما أنّ مدنيتهم قامت على مبادئها تأخّر شأنها حتى كاد أن يقضى عليها بتطرق عوامل الفسـاد ، لفساد الأخلاق والمبادىء التي أتلفتها رغبـات أهل الرئاسة والساسة وأهواء الشعب وسفسطة الأدباء والخطباء وأطماع رجال الدين ، فانحلت أنظمة اليونان الاجتماعية لأنهم لم يوفقوا الى وضع تعاليم ترفعُ النفوس الى مبدأ أسمى من المقاصد النفعية أي الى طلب الكمال . لذلك بقيت النفوس عطاشاً لنبع ماءٍ حيّ ينعشهـا ويبرّدُ ظمأها ويخفف أحزانها . لقد انتظرتْ الروح المعزّي عطية الحق لتنوال النعمة السماوية لاحتمال المصائب ومتاعب الحياة الكثيرة بالصبر والتضحية على أمل المكافئة في عالمٍ ثانٍ روحاني

تتساوى فيه الكافة (العموم) إذ لا راحة على الأرض ولا مساواة بين البشر لأن الطبيعة البشرية تميل إلى التمتع بما هو مادي والنفس تتطلب ما هو روحي وقوى الطبيعة صارمة لا ترحم الضعيف والقوي يستبدُّ بالأمر فتتلفهُ مطامعهُ .

إنَّ الله خصَّ كل واحد من البشر بعطايا منوعة ومواهب مختلفة ضرورية لارتقاء نوع الانسان فكما أنَّ الرأس يدبرُ حركة كافة الأعضاء ويسيطرُ عليها لما بهِ نفعها، كذلك اليد العاملة تقدم له ما يحتاج إليه من الغذاء وان باشتراكهما هذا سلامة الجسد كما وانَّ بالتوفيق بين مطالب النفس والجسم راحة الحياة بالاعتماد على قوة الروح . وبما أن المدنية اليونانية لم تتمسَّك بهذه المبادىء طرأ عليها الانحلال فانفرط عقد مجتمعها وتفرقت كلمتهم فلم يُوفقوا لتأسيس مملكة تؤيدُ عنصرهم وتحافظ على مدنيتهم وحينما تسلّط عليهم الرومان أخذوا عنهم مبادىء العمران ونسجوا على منوال مدنيتهم إلا أنهم اعتمدوا على القوة تأييداً لغلطتهم المطلقة وحفظاً لفتوحاتهم الواسعة فلم يلتفتوا الى الفلسفة والفنون الجميلة ولم يستوفوها حقها من الاهتمام ولم يتعلقوا بحب الجمال تعلقهم بمحبة السياسة . لقد اكتسحوا البلاد واقتحموا الأهوال وعاشوا عيشة الأبطال طلباً للسيادة والنوال ، لذلك لم تنتج قرائحهم ثمار الحكمة ولم ترتق المعارف البشرية بينهم .

اشتغلوا بالفلسفة اليونانية معتمدين عليها في تعاليمهم وشرائعهم ، لكنهم لم يوفقوا الى انشاء مدارس فلسفية جديدة . لا بل انحطّ شأن الفلسفة عندهم لأنهم لم يفهموها حقّ فهمها وان توفقوا بمبدإ القوة والعدالة الى ضخامة السلطان وحفظه لكنهم خضعوا لسيطرة اليونان الادبية وان كان هؤلاء من المغلوبين على أمرهم . .

لقد اعترى المدنية الرومانية ما حلّ بوالدتها اليونانية من الادواء (الأرزاء) لأن القوة لا تكفي وحدها لحفظ كيان الأمة بل سقطت ولم تجد الأنظمة للدفاع عن السلطة شيئاً بل انحلت الامبراطورية الرومانية وخضعت للأمم البربرية وهذه الأمم قد تهذّبت بمبادىء الديانة المسيحية فترقت وصارت أهلاً لاقتباس الحضارة اليونانية . تثقفوا بالفلسفة وكانت مشرق أفكارهم تتطاول إليها الهمم وتنتهي عند معرفتها الأفكار، وقد صرفوا الأجيال الطوال في درسها والنسج على منوالها وعلقوا عليها الشروح الضافية حتى كان يكفي أن يقال « قال أفلاطون أو أريسطو لإثبات الحجة وإفحام الخصم وبقيت الحالة كذلك والفكر مبتلى بالعقم الى أن صار الانقلاب الأخير في زمن النهضة الحديثة التي جاءت بطرق جديدة اعتمدتها العلوم في نشأتها وتخلصت بواسطتها الفلسفة من التقليد وسيطرة رجال الدين . »

أسكلة — طرابلس الشام أمين نعوم

الطفل المبتسر

يُطلق هذا العنوان على الأطفال الذين يولدون قبل أوانهم أي قبل نهاية الشهر التاسع من الحمل ، وبعبارة أخرى بين الشهر السادس والتاسع ، كأن يولد الطفل مثلاً في الشهر السابع أو الثامن . أما الذين يولدون قبل الشهر السادس فلا يكونوا أبداً قابلين للحياة حتى وإن كانت مظاهر الحياة الطبيعية موجودة فيهم .

وإذا نظرنا الى الأطفال الذين يولدون خلال الشهر التاسع من الحمل ، أي قبل أن تكمل مدتهم بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع مثلاً ، لا نجدهم يختلفون قطعاً عن الذين قد وُلدوا في أوانهم ، غير أن صغر حجمهم ونقص وزنهم وضعف أعضاء جسمهم ، ولا سيما ضعف معدتهم وأمعائهم مع عمليات الهضم عندهم ، تحتم علينا طبعاً أن نوليهم عناية خاصة ومداراة فائقة ليتمكنوا من قطع تلك المرحلة القصيرة من حياتهم ريثما يتقوّون قليلاً ويصلون الى السن التي يقدرون أن يعيشوا فيها كالأطفال الآخرين الذين وُلدوا في أوانهم .

أما الذين يولدون في الشهر السابع أو الثامن فالحالة عندهم تختلف تماماً عن التي تقدم ذكرها . فوزنهم وحجمهم لا يكونان دائماً أقل مما في الحالة الطبيعية فحسب ، بل أن فرصة بقائهم على قيد الحياة تكون خصوصاً ضئيلة لعدم اكتمال نمو جسمهم ولضعف أعضائهم . وأطفال كهؤلاء لم تكتمل مدتهم بعد يكونون غالباً ضعفاء هزيلين ولا يمكننا أن نعرف بالتأكيد عند ولادتهم إذا كانوا يعيشون أو أن يقضوا نحبهم خلال الأسابيع الأولى من ولادتهم .

والناظر الى الطفل المبتسر يجده نحيفاً مهزولاً ، ذا رأس صغير جداً وجمجمة مدوَّرة رخوة نوعاً ، كما أن بروز قحف هذه الجمجمة مع اليوافيخ [1] تكون عريضة جداً ، والوجه صغيراً دقيقاً مثلث الزوايا ، والفم واسعاً والذقن صغير جداً . والجلد أحمر مغضّن ومغطّى بالشعر ، والأظافر غير تامة النمو ولا تصل الى أطراف الأصابع ، والجلد نفسه يكون قاسياً ضارباً الى البياض وفيه انتفاخات غالباً . ومن المميزات الخاصة عند الطفل نفسه أنه لا يعرق ، وتكون حركاته قليلة أو نادرة ، وصراخه ضعيفاً يشبه الصيء ، وتنفسه صعباً وقلبه ضعيفاً

---

(١) يوجد يافوخان في الرأس وهما اليافوخ الامامي أو اليافوخ الكبير الكائن عند ملتقى العظم الجبهي بالعظمين الجداريين في أعلى الجمجمة ، واليافوخ الصغير ومركزه خلف الجمجمة عند ملتقى العظمين الجداريين بالعظم المؤخري .

في أغلب الاحيان . وهكذا قل عن الهضم فإنه يكون سيئاً نتيجة نقص الافرازات الهضمية.

وهناك أيضاً قضية الوزن عند الطفل المبتسر . فالذي يولد في الشهر السابع يكون وزنه كيلو غرامين ، وفي نصف الشهر الثامن كيلو غرامين وربع ، وفي الشهر الثامن كيلو غرامين ونصف — بينما الذي يولد في أوانه يكون وزنه ثلاثة كيلو غرامات وربع تقريباً . وطبيعي أنه كلما كان نقص الوزن شديداً قلّت فرصة بقاء الطفل حيّـا . ونصف الأطفال المصابين بالضعف الخلقي الشديد والخطر (وهم الذين يزنون أقل من كيلو غرامين يموتون في الاسبوع الاول من العمر . والأطفـال الذين يزنون كيـلو غراماً واحداً أو أقل لا يعيشون أبداً مهما بذلنا من الجهد والعناية أمامهم . أما الذين يولدون في الشهر الثامن من الحمل فيعيشون بنسبة أكبر من المولودين في الشهر السابع)

والذي يجدر ذكره هنا بنوع خاص هو قضية الحرارة عند الطفل الذي يولد قبل أوانه ، فهو لا يفرق من هذه الناحية عن الحيوان ذي الدم البارد كالسمك مثلاً ، ثم إنه لا يقدر أن يقاوم الحر ولا البرد كالأشخاص البالغين ، وتكون درجة الحرارة الطبيعية عنده واطئة جداً (٣٥° أو ٣٦° مئوية) ، وتصعد أو تهبط هذه الحرارة عنده مع درجة المحيط الذي يضعونه فيه — بينما الحرارة نفسها لا تختلف في الشخص البالغ باعتبار الصقع أو الفصل أو الجنس ، فهي أبداً على درجة متساوية تقريباً إلاّ في بعض الأمراض كالحميـات مثلاً . وفي طاقة الانسـان أن يقابل الحرّ أو البرد الشديدين كما يشاهد عنـد الذين يعيشون في الأقطار الاستوائية والشمالية ومحافظته على درجة واحدة من الحرارة .

﴿ مصير الولادات المبتسرة ﴾ : وهنا نتساءل : ما هو مصير الولادات المبتسرة وهل من خطر فعلاً على مستقبل أولئك الأطفال ؟ الجواب على هذا يختلف فيما اذا كانت الولادة قبل أوانها ناتجة أو غير ناتجة عن مرض خطير عنـد الأم . فالذين وُلدوا قبل أوانهم من والدات مصابات بالبول الآحي Albuminurie مثلاً ، أو بالسل أو بأمراض القلب أو بالزهري الذي أُهمل علاجه ، أو بالأمراض المعدية الحادة (كالالتهاب الرئوي والحمّى التيفية والحمّى القرمزية والانفلونزا الشديدة والتشنجـات النفاسية (Eclampsie) أو تسمم الأم من تعاطي المشروبات الروحية والمورفين : يصعب اذ ذاك نشوؤهم ونموهم ولا يستفيدون إلاّ قليلاً من التغذية نظراً الى ضعف عملية التمثيل عندهم لقلة حيويتهم . ثم ان هيئتهم تدل على إنهم قد وُلدوا وفيهم نقص خلقي أو وراثي مكتسب من المرض المصابة به أمهم . وبالعكس لما ينقطع الحمل لسبب من الأسباب العارضية كالاصابة بالجروح ، أو الاصابات التي تقع على بطن الحامل أو الخوف أو الانفعالات الشديدة ، أو الوقوع على الأرض ، أو وجود توأمين ، أو لبس

الاحزمة الضاغطة على البطن لاخفاء معالم الحمل ، أو من وضع الطفل الشاذ في البطن أو عدم قدرة بعض النساء اللاتي لا يصل طفلهن إلى أوان الولادة الطبيعية الخ... ففي مثل هذه الحالات يمكن التوصل بوجهٍ عام الى تربية الطفل دون أية عنـاية أخرى سوى ملاحظتـه وزيادة مداراته والسهر على حياته في سنته الاولى . ومتى وصل الى هذه السن نجد الطفل لدرجة ما متحسناً وصحته جيـدة حتى انه لا يفرق بشيء عن الأطفال الآخرين الصحيحي البنية من السن ذاتها وإذا اقتضى الأمر فإنه يوضع في جهاز خاص حيث يمكن ضبط الحرارة والرطوبة والهواء النقي بالقدر الذي يحتاج اليه الطفل كما لو كان في رحم أمه. كذلك يُعطى الغذاء بقدر محدود يعيّنه الطبيب لأن على هذا الطبيب تترتب مسؤولية مثل هذه الحالات الدقيقة جداً .

﴿كيفية العناية بالطفل المبتسر﴾ : (أولاً — نظام التغذية) : المشاهد في الأطفال المولودين قبل الأوان أنهم لا يستطيعون في الغالب أن يرضعوا أو يمتصوا ثدي أمهم بالنظر لضعفهم ، وهذا ما يقلل افراز اللبن من الثدي . فعلى الأم حينئذٍ أن تنبّـه هذا الافراز وذلك بوضع طفل قوي على الثدي ليمتصه بشدة ، ثم يوضع بعدها الطفل الضعيف على ثدي أمه مدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، وذلك كل ثلاث ساعات في اليوم الثاني والثالث . ثم تزاد مدة الرضاعة في الأيام التي بعدها . وقد تضطر الأم في مثل هذه الحالات الى أن تشفط اللبن من ثديها بالشفاطة وتعطيـه إياه بالملعقة أو بالقطارة اذا كان الضعف شديداً . وإذا كان بلع الطفل للبن غير كافٍ فيُسكَب هذا باحتراس وتأنٍّ في بلعوم الطفل مباشرةً وذلك بوساطة ملعقة صغيرة ، ويمكن أيضاً سكبهُ في أحد المنخرين . والأفضل من هذا كله استعمال قطارة صغيرة ينقط بها اللبن في فم الطفل ، أو تستعمل قسطرة (أنبوبة) صغيرة من الكاوتشوك الأحمر المرن من نمرة ١٥ الى ١٨ على الأكثر وتكون متصلة بحقنة وتمر أفقيـاً في قاع الأنف — بشرط أن تكون فتحتا الأنف نظيفتين جداً وخاليتين من كل افراز حتى تصل الى خلف الزور ثم المعدة، فيصب اللبن تدريجاً من إحدى فتحتي الأنف فيصل الى معدة الطفل بدون مجهود منه . وينصح بعض الأطباء استعمال جهاز خاص لجذب اللبن في الثدي بأحـد طرفيه والطفل يمص اللبن من الطرف الآخر . وغني عن القول ان لبن الثدي بالنسبة لأطفال كهؤلاء هو اكسير الحياة ، فاذا تعذر الحصول عليه من الأم وجب احضار مرضعة لترضعه من لبنها

أما المقدار اللازم لتغذية أطفال ضعاف كهؤلاء فيختلف باختلاف الوزن. فالذي وزنه ٢٠٠٠ غرام مثلاً يجب أن يرضع ٤٠ غراماً من اللبن في كل مرة، وعدد الرضعات ١٠ إلى ١٢ يوميـاً ، أي بنسبة خمس وزن الطفل . وإذا كان وزن الطفل أقل من ٢٠٠٠ غرام فلا يجوز أن تتعدى كمية غذائه اليومي خمس الوزن، وكلما تقوى الطفل قليلاً تقل الرضعات الى ست أو ثماني يومياً.

وربّ سائل يسأل : هل يجوز تغذية هؤلاء الاطفال باستعمال الرضاعة الصناعية ؟ وما طريقة ذلك . الجواب انه يجب علينا في الدرجة الأولى اعطاء الطفل لبن أمه ، إذا لم يتيسر لنا ذلك فلبن المرضعة ، واذا كان وجود هذا متعذراً لسبب ما فلا مندوحة اذ ذاك عن ارضاعه صناعيًّا والرضاعة الصناعية هذه تقوم بتخفيف اللبن المحلى المكثف وذلك بنسبة ١=٨ خلال الأسبوعين الأولين . وبعد ذلك يعطى الطفل مخففاً ثلاث مرات ومضافاً اليه السكر. ولما كان هذا اللبن قليل المواد الدهنية والزلالية فيعطى الطفل في الشهر الثاني بودرة اللبن المخففة لتماثل لبن الام والتي تحتوي على ثلاثة أرباع مواد دهنية ، ويستمر هكذا حتى يستطيع أن يأخذ لبن البقر في النهاية .

وكما أن اللبن ضروري لهؤلاء الأطفال فالماء أيضاً ضروري لهم وعلى الخصوص عصير الفواكه كشراب البرتقال مثلاً ، فيعطى مقدار خمس نقط مذابة في ملعقة صغيرة من الماء يوميًّا وذلك بعد الأسبوعين الأولين من الولادة . وكلما تقدم الولد في السن تزاد كمية شراب البرتقال مع كمية الماء . ويعطى أيضاً الأطفال نفسهم مستحلب زيت السمك الغني أيضاً بالفيتامين والذي هو أحوج وأفيد لهم من سواه .

وعلى كل لا بد في مثل هذه الحالات من التضحية والاخلاص واستعمال الفطنة والروية وبذلك ينشأ الولد صحيحاً معافىً ويصل الى شاطىء السلامة . والمراجع الطبية تؤيد لنا أنه قد أمكن تربية أطفال قد ولدوا حتى في الشهر السادس ونصفه ووزنهم لم يكن سوى ١٥٠٠ غرام بل ١٢٥٠ غراماً فقط .

ثانياً — التدفئة : الأطفال المولودون قبل أوانهم يتأثرون بنوع خاص من البرد ويخشون دائماً منه ، وقد تنخفض درجة الحرارة عندهم فجأة وتصل الى ٣٠ و٢٩ حتى ٢٥ مئوية دون أن يؤدي ذلك الى الوفاة ، فاذا لم نعمل على تدفئتهم بالوسائل اللازمة ، ولفهم بالقطن، وجعل سريرهم مزوداً بزجاجات المياه الساخنة ودلك جسمهم بزيت الزيتون فقد يؤدي انخفاض حرارة جسمهم الى الوفاة . واذا كانت درجة الضعف شديدة فيوضع الطفل في محضن خاص (أي فرن) لمدة أسبوع أو أكثر .

ثالثاً — حماية الطفل من العدوى : ان الأمراض المعدية ، حتى الزكام العادي ، إذا أهمل أمر علاجها فكثيراً ما تمتد الى الرئتين وتسبب التهاباً تؤدي نتائجه الى عواقب سيئة. ولهذا يجب الانتباه وعدم السماح لأي شخص مصاب أو مشتبه بمرض ما ، ولا سيما السعال والزكام أن يقترب من الطفل أو أن يدخل حجرته.

بيروت الدكتور عبده رشدي

حول الدستور الفرنسي الجديد

الثقافة العربية في الجزائر

تستصرخ العرب

يبدو أن قادة العرب لم ينظروا نظرة فاحصة الى ما نص عليه الدستور الفرنسي الجديد من اعتبار (الجزائر العربيـة) بلداً فرنسيـاً لا فرق بينه وبين أي جزء من التراب الفرنسي من حيث الوضع الدولي . فلم يتجاوز موقفهم منه ما هو دأبهم أزاء كل تشريع يفرض على بلد عربي مضطهد من الاحتجـاج والاستنكار الذي لا يعبر عن أكثر من تعزية سياسية ، لذلك البلد المنكوب ، مع أن هـذا الوضع الدستوري الجـديد الذي فرض على الجزائر فرضاً يهم — في رأينا — كل بلد عربي بطريق مباشر كأي وضع دولي ذي علاقة مباشرة بمصالحه القومية وحقوقه الخاصة . وهو لذلك قابل للتأثر، بل عرضة للزوال بما تقوم به الدول العربية ضده — دفاعاً عن حقوقها القومية ومصالحها الخاصة — من عمل ايجابي جدي حازم جريء فأخطر نتائجه — في رأينا — هو تسويغ كل إجراء تتخذه فرنسا (لتخليص) الجزائريين من عروبتهم واستخلاصهم لما يرادون عليه من الانقطاع عن ماضيهم والاندماج الروحي في العائلة الفرنسية الكبرى ضماناً للاندماج السياسي وأماناً من كل ما من شأنه ايقاظ الشعور القومي والنزعة الانفصاليـة من الداخل أو الخارج ولو بعد حين . أو بعبـارة أوجز تبرير العمل بصراحة على ابادة القومية الجزائرية من أسسها الاولى بمحاربة الثقافة العربيـة في الجزائر — بصفتها ثقافة أجنبية — بجميع الوسائل في مأمن من الرأي العام الدولي . إذ لا وزر على فرنسا — كأمة ذات حضارة — أن تعمل على التمكين لحضارتها في جزء من وطنها وإن أدى ذلك الى محاربة ثقافة أو حضارة أخرى داخل ذلك الجزء بحجة أنه ليس بحاجة اليها ، بل قد لا تنسجم مع حضارته القومية ومصالحه الوطنية وقد يكون انتشارها عاملاً في تفكيك

الوحدة التي هي ضرورية لحياة الأمة وليس هذا مجرد حدث قد يخطىء به الغلو في التعصب جادة الصواب .

فبينا ينص هذا الدستور نفسه في مقدمته ومواده الأولى على ضمان الحريات كلها — ومن بينها حرية القول والاعتقاد والاجتماع — لجميع الفرنسيين والقاطنين في الارض الفرنسية ومنهم الجزائريون الذين أطلق عليهم لقب (الفرنسيون المسلمون) نرى أضابير الاوراق المهملة في محافظات جميع المدن والقرى بالجزائر تثبت مئات المطالب بالترخيص في فتح مدارس أو تأسيس جمعيات وأندية عربية مهما كان نوعها وهدفها . ونرى هذا البلد الذي يضم ٥٠ ألف وأحد عشر مليون ناطق بالضاد لا يسمح فيه باصدار صحيفة واحدة بلسانه الذي حافظ عليه وآثره من بين سائر الألسنة ثلاث مئة والف سنة ولا يسمح فيه باستيراد صحيفة عربية أو كتاب عربي من أي بلد عربي آخر وان كان موضوع الصحيفة أو الكتاب لا يخرج عن الدين الذي ينص هذا الدستور على ضمان حريته، في حين يسمح باصدار واستيراد الصحف والكتب بجميع الألسنة الأجنبية الأخرى مهما كان نوعها وموضوعاتها وقد تكون دعاية صريحة ضد السيادة والمصالح الفرنسية . بل لقد أضبح الحديث بالعربية العامية فيه دليلاً على التمرد والخروج على الطاعة ومدعاة لوضع المتحدث بها — كرجل خطير على أمن الدولة تحت رقابة عصبة من الجواسيس — فالدستور الذي يكفل جميع الحريات الفردية والاجتماعية يعتبر الجزائر بلداً فرنسياً ويعتبر اللغة العربية لغة أجنبية وخطيرة على سيادة الدولة ومصالحها القومية فهي لذلك اللغة الأجنبية الوحيدة التي لا تتمتع في الجزائر بالحرية لأنّ حريتها يعرّض سلامة الدولة للخطر — لقد أعلن في عهد حكومة الجنرال شارل ديجول الغاء القوانين الأهلية وهي القوانين الاستثنائية التي كانت مشروعة على الجزائر طيلة عهد الاحتلال . وحسب بعض الأغرار أن الأمة قد أريحت من كابوس خانق ومتعت ببعض الحرية برفع هذه القوانين القاسية فصار في إمكانها النهوض بمستواها الاجتماعي والثقافي . بيد أنها ما لبثت أن أخذت الحقائق تجبهها في قسوة ومرارة . فأعلن الجنرال جورج كاترو بصفته والياً عامًّا لفرنسا في الجزائر ووزيراً مفوّضاً لها في شمال أفريقيا عامة مشروعه الذي يتلخص في انشاء عشرين مدرسة فرنسية لمختلف مراحل التعليم

مهمتها أن تخرج في خلال عشرين سنة مليون شاب لا يعرفون كلمة عربية واحدة وأتبع ذلك بتصريحه الذي يقول فيه (ان الذين يحلمون بإبقاء الجزائر عربية أو بإمكان انفصالها عن فرنسا إنما هم أغرار يستحقون الشفقة والرثاء).ثم جاءت حوادث ٨ مايو سنة ١٩٤٥ فاتخذتها فرنسا سبباً لاغلاق جميع المدارس العربية بحجة أنها كانت وكراً للمتآمرين على سيادة الدولة والأمن العام. مع أنّ الذين اشتركوا في تلك الحوادث أغلبهم من العمال وخريجي المعاهد الفرنسية. وأطلقت لسان صحافتها على العربية والإسلام فكتب نفر من رؤساء أحزابها بما فيها الشيوعية والاشتراكية ومن وزرائها السابقين وفي مقدمتهم المسيو مارك ركار وزير العدلية السابق يطالبون بإبادة المساجد من كامل القطر الجزائري أو على الأقل بترجمة القرآن الى اللغة الفرنسية ترجمة رسمية منقحة يحذف منها كل ما من شأنه إيقاظ النخوة والشعور بالكرامة في النفوس لتفرض على المسلمين لتلاوتها في الصلاة والعبادات،على أن تحرم اللغة العربية عليهم تحريماً قاطعاً اذا ارادت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر كجزء من أرضها لأن اللغة العربية هي أخطر شيء على السيادة الفرنسية . وكان من نتائج هذه الحملة الشعواء التي استمرت حوالي أربعة أشهر وشاركت فيها جميع الصحف الفرنسية الكبرى أن صدر قرار من الولاية العامة الفرنسية بالجزائر ينص على عدم الترخيص لأحد بالتعليم العربي إلاّ بعد أداء امتحان في اللغة الفرنسية ... وعلى عدم الترخيص بفتح مدرسة أهلية إلاّ بعد الاطمئنان الى نزاهة القائمين بها ... وتعهدهم بتعليم الفرنسية والعربية معاً في حصص متوازية ... وشدّدت الرقابة على الحدود التونسية حتى لا يفلت الى تونس طلبة العلوم العربية المغامرون لتلقيها في جامع الزيتونة (صنو الأزهر) وسيق عشرات منهم الى السجون لأنهم حاولوا اجتياز الحدود بغير جواز فالحصول على الجواز أمرٌ ليس في الامكان وعزيز عليهم أن تتقلص ظلال الثقافة العربية من الجزائر العربية — وعلى الرغم من مساعي الجزائريين الذين اشتركوا في وضع الدستور الفرنسي الجديد أملاً منهم في تحقيق بعض رغبات الجزائر القومية من هذا السبيل — فقد أصرّ جميع زملائهم من الفرنسيين على رفض رغباتهم في اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الجزائر الى جانب اللغة الفرنسية فأصبحت بحكم هذا الدستور لغة أجنبية فيها،وأصبح كل ما كان يتخذ ضدها من أعمال أو يشرع من

قرارات ادارية موافقاً لروح الدستور ونصوصه فصار بذلك عملاً شرعيًّا ليس فيه من جناح .

وبديهي ان تضييق الخناق على اللغة والثقافة العربية مساس صريح ومباشر بالحقوق القومية والمصالح الخاصة للدول العربية . إذ من نتائجه زوال نفوذها في بقعة تعتبرها جزء من وطنها الأكبر ، كما أن من نتائجه فقدان مصر وسوريا لسوق كان من أخصب أسواق مكاتبها وصحفها وكان في الامكان أن تزداد نطاقها عن أيام. فهل فكرت الدول العربية في اتخاذ موقف عملي حاسم ازاء هذا الاعتداء ان في امكانها ولا سيما مصر وسوريا انقاذ مصالحها وانقاذ الجزائر من خطر تكرر مأساة الأندلس مرة أخرى في تلك البقعة التي دافعت عن عروبتها قرناً وسبع عشرة سنة دفاع الأبطال .

ففي مصر وحدها ١٣٦ مدرسة فرنسية بمختلف مراحل التعليم ، وفي مصر توزع كل أسبوع ٨٠ صحيفة فرنسية يصدر بعضها في القاهرة ويرد الباقي من فرنسا ففي امكانها أن تطالب بدل كل مدرسة وبدل كل صحيفة بمثلها في الجزائر وهي بذلك غير ظالمة وهي بذلك ستربح كثيراً

***

أما بعد ، فقد وفد على مصر منذ فترة وجيزة الأديب الفرنسي الكبير المسيو جورج دوهاميل داعية للثقافة الفرنسية وكانت أول محاضرة له في القاهرة تحت عنوان (فرنسا حياتي). وسوف لا يصل هذا المقال الى القراء حتى يكون الأستاذ موريس جارسون الأديب الفرنسي المشهور قد وصل مصر لمواصلة ما بدأه سلفه من الدعاية لفرنسا وثقافتها . فهل فكرت مصر في أن توفد الى شمال أفريقيا من أساتذتها من يمد أولئك العرب المتلهفين المحرومين بأقباس من الثقافة وتجدهم في مصر العزيزة التي قطعت بينهم وبينها الصلات منذ زمن طويل. إن فرنسا لم تسمع إلاّ مرغمة وفي إمكان مصر أن ترغمها ان شاءت وعسى أن ينتبه قادة مصر الى هذا الواجب الخطير .

محمد الحاج الناصر الجزائرلي

قصة علم النفس الحديث

الباب

الذي امتنع غلقه ...

... قصة بقلم ماري روبرتس رينهارت ، لعلها أن تكون أقرب الى الواقع الداني منها الى الخيال القصصي ... أهديها الى الناشئة الجديدة من فتيات اليوم ، اللائي لا تكاد تستقر بهن الحياة الزوجية حتى تغشى سعادتهن سحب قاتمة من غيوم الشك والخوف ...

وكان شبح حماتها يكمن وراء الباب الكبير ، أما الآن فقد اختفى ...

حدث هذا أول ما حدث عند ما كانت لويس في المنزل ، وكان روي زوجها في عمله ومابل الخادمة تجادل بعض الصبية عند الباب الخارجي في فترة راحتها المسائية — ولم تكن لويس قد لاحظت شيئاً من قبل ، أو لعلها لم تكن قد تنبهت إليه جيداً ، ذلك أنها لا تكاد تغلق باب مسز اليسون حتى يعود فينفتح إن عاجلاً أو آجلاً ...

وفي ذات ليلة صارحت لويس زوجها بكل شيء ، وقد كانت حذرة في حديثها كل الحذر ، فانها تعلم مبلغ ما يصيب روي من الحزن والألم عند ما يتذكر أمه ... فقالت له « أريد يا روي أن تلقي نظرة على باب حجرة أمك » فقابل روي عبارتها هذه بتجهم ، وقال « وما أمر هذا الباب ؟ ... »

لقد امتنع غلقه ..

— .. هذا سخف . فما الذي يمكن أن يحدث له ؟ ..

— لست أعلم ، وإنما هو مفتوح كل الوقت ، لا نكاد نغلقه حتى يعود فينفتح ..

— هذا أمر يحدث لكل الأبواب ...

أخذ روي حديث لويس على أنه بقايا ضغائن قديمة لم يقبرها الموت ، وكل ما هنالك محاولة خبيثة من جانب زوجته لكي تغلق باب مسز أليسون الى الأبد ، كأنما حجرة الأم كافية لأن تثير الضغائن ..

— وقد أرادت لويس أن تدافع عن نفسها فقالت لروي « هذا غير صحيح ... فأنت تعلم أنني كنت مخلصة لها ، ومن أجل هـذا أسألك وأكرر السؤال ، لماذا يا عزيزي ، وقد كانت هذه معاملتي لأمك ، تفعل هي بي ما تفعله الآن ؟ ... !!

— ما الذي تفعله ؟ ..

— تقف هنا ... منذ عشر سنوات ، من ذلك اليوم الذي جمعنا فيه رباط الزواج ، ... وهي واقفة هنا لا تترك هذا المكان ، كانت تمشي وكنت أنت تظنها قد شلت عن الحركة ... كنت أسمعها بعد أن تنام أنت .. كانت ...

ولكن روي قاطعها في قسوة ، وخرج غاضباً إلى حيث لا يسمع شكوى زوج ترزق في الحياة من أم ترقد في أطباق الثرى ...

أما لويس فقد ظلت جالسة تفكر في الماضي الطويل الذي انقضى ، في هذه السنوات العشر العراض التي حفلت بنظرات البغض وتنفذ كالسهام من حجرة مسز أليسون ، تلك المرأة التي اجتمع فيها الحقد بما لم يجتمع في غيرها ، حتى لقد كانت وهي المشلولة الحركة — كما كانوا يزعمون — تتسرق أخبار المنزل وتحيط بكل صغيرة وكبيرة فلا يفوتها شيء من أحداث المنزل الكبير ... أما هي فقد أخذت تروّض نفسها على نسيان هـذا كله ما دام روي معها بجانبها ، ومع هذا فانه حتى علاقتها بروي قد بدأت تفتر وكأنما كانت هنالك أذن ماكرة تصغي الى كل شيء ، حتى الى خفقات القلوب الحافلة بهوى الشباب ... كانت هذه المرأة العجوز راقدة في سريرها تسمع وتنظر ، ولئن كانت النظرات تقتل فما أحراها نظرة من نظرات هذه المرأة البغيضة كافية لأن تقضي على لويس وأكمام شبابها لا تزال تتفتح ...

كانت لويس جالسة إلى المنضدة تفكر في كل هذا .. أجل ، إن حماتهـا كانت تكرهها بهذه الكراهية التي تمثل غيرة امرأة عجوز فانية من امرأة شابة فاتنة . كانت تكرهها لأن روي يحبها . . منـذ ذلك اليوم الذي عادت فيه مع روي من حفل زواجها ، صادفتها هذه المرأة كعقبة كأداء في سبيل حياتها وسعادتها .. وإنها لتذكر جيداً كيف قابلت المرأة العجوز زوجة إبنها لأول مرة بابتسامة لن تنساها لويس ما بقي لها حياة .. دعتهما مسز أليسون إلى حجرة الاستقبال ليتناولا الشاي لأول مرة وكان أول ما قالته تحية لهما . « إنني الآن امرأة عجوز ، وإنني طبعاً لا أشعر إنني فقدت إبناً بل كسبت إبنـة — ولـكنني من الآن لن أصبح سيدة المنزل »

وقد كان تصريح مسز اليسون مفاجأة لروي غير منتظرة فأبتدرها قائلاً « ولماذا يا أماه

لا ندع الأمور تجري كما كانت ، وأنتِ لا شك تعلمين أن لو أصغر من أن تتولى ادارة منزل كبير . » فأجابت مسز اليسون « لا يمكن أن تجرى الأمور كما كانت يابنيّ العزيز ... فأنت الآن متزوج .. » . ثم كان أن أصرّت مسز اليسون على أن تأخذ لويس مكانها من الطاولة ، كل هذا ونار الحقد تتأجج في نفسها وتنبعث من فمها في صورة ابتسامة . . يالها من ابتسامة !..

... صور الماضي تتلاحق أمام لويس وهي جالسة عند الطاولة تفكر .. « فهذا روي قد أعله الحب والفرح فحمل لويس على كتفيه وأخذ يدور بها في أرجاء الغرفة ، ثم دخل حجرته الخاصة وهو يقول « وأخيراً أنت معي ياعزيزتي .. وفي حجرتي » .. وها هي هذه الفتاة الخجول تبدأ في خلع ملابسها وهي تتردد .. وروي يبصرها وهو جالس في الطرف الآخر من السرير يصفق لخجلها ويضحك من ترددها ... ثم يتبادر إلى سمعهما صوت ارتطام جسم ينبعث من الدهليز الطويل في هدوء الليل ، فيخرجان سريعاً من الحجرة ... فماذا يصادفهما ؟ رأيا مسز اليسون ملقاة على الأرض فاقدة النطق ...

أجل كانت هذه ليلتها الأولى ... وهـذا روي يحمل أمه فزعاً مضطرباً إلى حجرتهـا وتجمع الخدم وحضر الأطبـاء واضطرب كل شيء ... ولمـا أرادت لويس أن تتبع روي أزاحها بيده جانباً كأنه هو لم يعرفها من قبل ... فانسلت لويس وحدها الى حجرة الاستقبال الـكبرى ... كان الجو بارداً وكانت تشعر بقشعريرة ..

وهي الآن تشعر بقشعريرة . فقد طال جلوسها ولا بد أن تعد الطعـام بيدها لأن مابل قد ذهبت إلى منزلها ، ومع ذلك ظلت جالسة تفكر . قد يكون روي على حق وتـكون هي قد أصيبت بجنون . . يالها من سنوات عشر قضتها في ذلك المنزل الـكبير الذي أفلس فيما بعد من المال وقاست هي متاعب الحيـاة فيه ، فكانت تغسل وتحمل الأطباق وتعد الطعـام بيدها وكانت فوق ذلك كله تقوم بخدمة امرأة عجوز تـكرهها ، لا لشيء إلاّ لأن روي يحبها ، عشرة أعوام تمضي وهي تعمل جاهدة على إسعاد روي ، والآن عند ما بدأ الخلاص يقترب ؟ ...

وفجأة تنبهت لويس إلى صعود روي درجات السلم فقامت مسرعة وما إن رآها روي حتى ابتدرها قائلاً « اسمعي يا لو لقد أحكمت غلق الباب بيدي الآن .. »

— وهل كان مفتوحاً ؟ !.

— أجل ! ولماذا ؟

— لأني قد أغلقته بيدي قبيل أن تنزل ...

نظر إليها روي ثم استدار بسخرية لاذعة قائلاً لها .. « انني على موعد الآن .. وأمامي

عملي الذي يجب أن أوليه عنايتي ، وليس لي من الوقت ما أضيعه في ترهات مجانين ... »

وبعد خروج روي ، صعدت لويس بهدوء إلى غرفة مسز أليسون لتتأكد .. فألفت الباب مفتوحاً ..فكاد أن يغمى عليها ولكنها تمالكت وأمسكت الباب بيدها وظلت تنظر إلى فراغ الحجرة الملتحف بالظلام وهي تقول . «ماممي ! » ماذا يجديك من هذا كله ؟ .. ألم يكفك أن روي كان في يدك كل هذه المدة ، حتى بعد زواجي به كان دائماً في يدك ... لا تعتقدي إنني كنت أجهل ، لقد كنت أعلم كل شيء .. ألا تتركينه الآن ؟ . إنني لا أسأل هذا من أجلي ، ألا تريدين أن يكون سعيداً ؟ ... » — وانتظرت لويس جواباً لهذه المفاجأة فهي قد سمعت من قبل أنه في مثل هذه الأحوال تتردد أصوات مبهمة وتنبعث أضواء مختلفة ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وهي نفسها لم تكن تعتقد بشيء من هذه الخرافات فكيف لها أن تعلل ما يدور حولها ، وإذا كانت مخطئة أو واهمة فكيف السبيل إلى التخلص من هذا الوهم ؟ ...

اكتفت لويس بعد ذلك بإحكام غلق الباب ، ثم صعدت الى المطبخ لتعد طعام العشاء لروي . ولما عاد روي كان يبدو عليه النشاط واختفى عن وجهه ذلك التجهم وتلك الصلابة التي قابل بها حديث لويس السابق ، وكان أول ما فعله أن وضع يده على كتف لويس وقال لها « آسف يا لويس فنحن متعبا الأعصاب على ما أظن ولا بد من ذهابنا إلى السينما ... »

وفي خلال عرض الفيلم غشيت روي اغفاءة فنام — وكانت لويس تلاحظه في نومه وقد ملأ الخوف قلبها ... كم تغير روي في خلال هذه الأسابيع الأخيرة حتى لقد بدأ كرجل متعب ، كرجل بدأت حيويته تنضب ، كرجل مريض .. انتفضت لويس لهذا الخاطر الأخير وانتهى الفيلم فاستيقظ روي ولم يكن يدري متى نام ...

وعادا إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل فوجدا الباب مفتوحاً ... فنظر روي الى لويس ضاحكاً وقال لها « أجل يا لو إن الباب مفتوح مع أنني أقسم أنني أغلقته بيدي .. اعتذاراتي لك يا لو ، إن هذا الباب يفتح حقاً » . وكان روي ينظر إلى الباب وهو يغلقه بفم مبتسم فقد أفادته الاغفاءة فقابل الأمر مرحاً وعند ما استلقت لويس في سريرها قبّلها روي وأطفأ النور ...

لكن الباب عاد فانفتح . . وسمعت لويس صريره من خلال الدهليز الطويل فجلست وعيناها تمتلئان رعباً وحشيّاً ... وقالت « لا ... لا يا روي أرجوك »

— ماذا جرى لك ، ألا استطيع أن أنام براحة

— ... الباب يفتح مرة أخرى ... إنها هنا ، أظنها قد ذهبت ، إنها لم تذهب ، إنها في المنزل لم تتركه أبداً ..

فلم يكن من روي إلاّ أن ترك الحجرة للويس وذهب هو لينام في حجرة أمه . وفي هذه الليلة لم تنم لويس دقيقة واحدة . . أحست بمابل وهي عائدة في منتصف الليل تتحسس طريقها في حذر لـكي لا تنبه أحداً إلى وصولها متأخرة . وبين الساعة الثالثة والرابعة سمعت بائع اللبن بحماره وأحست به وهو يفرغ اللبن من الوعاء ، ثم وهو يذهب إلى منزل آخر ...

وفي الصباح كان يبدو على روي الهزال وكان يسعل فأثار هذا خوف لويس وقالت له « انك مريض » فأجاب « ان هذا حال كل زوج تخرجه زوجته من حجرته في الليل ».

ولـكنه أضاف قائلاً « لا يهمك هذا كثيراً ... المهم انني أريد ذهابك الى جهة ما بعيدة عن هذا المنزل للاستجمام فان رحلة أيام في مكان هادىء قد تذهب بما أصاب في أعصابك من الاضطراب ..»

ولـكن لويس رفضت قائلة ً لن أذهب قبل أن تبرأ من هذا البرد ... انني ظللت أفـكر طوال الليل وأتساءل هل قد فقدت عقلي ! .. »

وعند ماهمّ روي بالخروج بعد طعام الافطار كان يسعل بشدة .

وفي الساعة الحادية عشرة حضر نجار بعث به روي لـكي يصلح ما بباب مسز أليسون من عطب إن كان هنالك ثمة عطب ... وقد ظلّ النجار مدة طويلة يعمل في الباب ما يخطر له من ضروب الاصلاح ، وفي النهاية أشار الى متانة الباب واحكام غلقه بحيث يصعب فتحه . وما أن فرغ النجار حتى نظرت لويس إلى نفسها في مرآة الدهليز الـكبرى ، فاذا رأت ؟ . . رأت عينين متعبتين فاقدتي الحياة وشعر رأسها الطويل قد بدأ يتهدّل وينبت الشيب فيه . وقد أخبرت لويس خادمتها بذلك فـكان جواب الخادمة أن على لويس أن تراعي صحتها وتعني براحتها ، إن هنالك رباطاً من المحبة وثيقاً يربط لويس بخادمتها ، فقد عاشا سويًّا في جحيم عشرة أعوام ، كانا خلالها عبدين لجرس صغير تقرعه امرأة عجوز ، كلاهما صعدا درجات السلم وحملا الاطباق وأحضرا الطعام وغسلا الثياب وكلاهما اشتركا في حياة الخوف والشك طوال عشر سنوات ...

— ... ماذا كنت أفعل لولاك يا مابل ؟ ..

— إن كل شيء على ما يرام يا سيدتي . .

— أجل كل شيء على ما يرام يا مابل . وطفقت لويس تردد هذه العبارة . لـكن لم

يكن كل شيء على ما يرام ، لأن الباب قد فتح . . .

* * *

بعد ساعتين من هذا كانت لويس تجلس أمام رجل ينصت إليها بوجه هادئ كريم . .

— أجل ، لقد فهمت ، ولكن منذ متى لاحظت أمر الباب ؟ . . .

— عند ما عدت من جنازة مسز أليسون جماني ، ذهبت الى حجرتها وأقفلت نوافذها وقد كانت مابل الخادمة قد رتبت كل شيء ، وعند ما خرجت أغلقت الباب ، وأنا واثقة من ذلك ، لأنني عدت ثانية وتوثقت من غلق الباب . . .

— ولماذا أردت التأكد من غلق الباب ؟ . .

— لأنني كنت أريد أن يكون الباب مقفلاً . لم أكن أرغب في أن أرى الحجرة مرة أخرى ، فقد قاسيت منها الكثير ، كانت مثار ازعاج لي ، فكنت أريد أن أنسى الحجرة .

— ثمّ ماذا . .

— ... بعد هذا بثلاث ساعات كان الباب مفتوحاً لآخره . .

— ولماذا كنت تريدين نسيان الحجرة ، ألأن مسز أليسون كانت مريضة لسنين طويلة وكانت لذلك مبعث اضطراب وقلق ؟ . .

— ... أجل كان هذا بعض السبب كما أظن ، فقد ذهب شبابنا أنا — وروي ، فأنا الآن في سن الثلاثين ، ولم نخلف ولداً ، فلم يكن هنالك أمامنا غير البؤس ومراقبة الأطباء والدواء . .

— كان هذا كما تقولين بعض السبب . وماذا كان البعض الآخر ؟ . .

— كانت مسز أليسون تمتلىء غيرةً مني . . في الليلة الأولى من زواجنا أصيبت بنوبة في قلبها . .

— هل تظنين أنها كانت نوبة حقيقية ؟ . .

— لست أعلم ولم يكن من الممكن لي أن أعلم أبداً . .

— . . لقد كنت تكرهينها إلى حدٍّ بعيد . أليس كذلك ؟ . .

— كلاّ . . لست أعلم ، لقد كنت دائماً أخاف منها فقد كانت تحاول أن توقع بيني وبين زوجي . .

— ... وفيما يختص بالباب أواثقة أنتِ من أنه يفتح أم أنكِ فقط تخشين أن يفتح ؟ . . أتفهمين ماذا أعني ؟ . .

— لست واهمة في ذلك فلقد رآه روي ورأته مابل الخادمة . .

— . . وماذا تستنتجين من كل هذا ؟ ..

— ... أعتقد أن مسز أليسون عادت ثانيةً من أجل روي ... وأنا أخشى أن تأخذه مني ، ومن أجل هـذا أنا هنا لأعرف وجه الحق منك . ولـكنك لم تعرف هذه المرأة .. إنها قادرة على ذلك .. وروي الآن ليس في حالة طيبة .. إنه ليس على ما يرام منذ موتها .

وفجأة أغرورقت عينا لويس بالدموع ودفنت وجهها في منديلها . . وقالت « إنني أعتقد في نفسي الجنون . . . لا تعتقد إنني لا أقدر صدى هذه الترهات عند سامعها . لـكنني أشعر بوجود المرأة في المنزل ، في حجرتي ، في كل مكان ... »

مال الطبيب بظهره في كرسيه وقال في هدوء .. لا .. ليس بكِ جنون .. وإنما يستحسن انتقالك من منزلكِ هـذا إلى بقعة أخرى ، ولو إلى حين ، فان هذا قد يكون أبعث لك على الاطمئنان »

— لـكن روي لن يقبل أن يترك المنزل الذي فيه ولد وظل طوال حياته

— أفضل أن أتحدث في هذا إلى زوجك . . والآن أوصيكِ بأن تشتري في طريقك قفلاً لتوصدي به باب الحجرة وتحاولي النوم الهادىء . . وثقي أنكِ سليمة وتحتاجين الى بعض الراحة فلا تخشي شيئاً ...

***

في طريقها الى المنزل ، ابتاعت قفلاً ، ووضعته هي ومابل في باب الحجرة قبل حضور روي .

ولـكن روي لم يتنبه الى القفل ، فقد عاد أسوأ مما كان وقد تفاقم مرضه . وكان نومه في هذه الليلة نوماً مضطرباً . أما لويس فلم تنم دقيقة واحدة — لقد كانت قلقة على روي وكان يستولى عليها شعور بأن في الحجرة شخصاً قوياً جداً يريد اختطافه منها . وفي فترة اشتد فيها سعال روي وتقلب كثيراً في نومه ، أخذت لويس توجه حديثها إلى الشخص القوي بصوتٍ مرتفع :

... لا تستطيعين فعل هذا . ليس في مقدورك أن تأخذيه مني . إنه ملـكي أنا . انه لا يزال صغيراً ، فلماذا لا تتركيه ؟

ثم وضعت لويس يدها على رأس روي فاذا به يلتهب من الحرارة ، فانتفضت واقفة في وسط الحجرة المظلمة وقد أحست الاحساس أن هناك صراعاً بين المرأة الميتة وبينها .

صراعاً بين الخير والشر ، بين الحياة والممات ، فكان عليها أن تقاوم . « إنه لن يموت » انه سيحيا أتسمعين هذا ؟ .. »

وفي الصباح إستدعت الطبيب فإذا بروي قد أصيب بالتهاب رئوي وأمر الطبيب أن يعالج روي في المستشفى ..

ومرت أيام عسيرة كان روي في حالة بلغت منتهى الخطورة وبلغ بجسمه الهزال مبلغاً كبيراً ،وكان وجهه يبدو غريباً أقرب إلى وجوه الموتى منه الى وجوه الأحياء .. وكانت للويس حجرة أخرى بجوار حجرة روي ولكنها لم تكن تستعملها ، لم ترد أن تترك روي أبداً لأنها كانت تخشى عليه من أمه التي ماتت ... أجل ، فلقد رأوها ذات مرة تبحث في إحدى أركان الغرفة المظلمة وكأنما هي تتبع شخصاً معيناً . وكان يحدث أحياناً أن تغفو قليلاً في كرسيها ، لكنها لا تلبث أن تثب فزعاً وتطوف بأرجاء الحجرة المظلمة باحثة عن شيء ... كانت الممرضات تلاحظن هذا كله ، فكن يقلن فيما بينهن : هذه المرأة تنساق إلى حتفها ، فهي تخشى أن تنام ...

وذات ليلة لاحظت إحدى الممرضات لويس وهي تحادث روي ولم يكن من المعقول أن يسمعها في هذيانه كانت تقول له « عليك ياعزيزي أن تنساها انها لا تحتاج إليك ، أما أنا فأحتاج إليك ..». وقد أخذتها الممرضة من يدها ونصحتها بالنوم قليلاً حتى لا تتحطم أعصابها .. ولكن لويس لم تنم . بل ظلت تبحث في أركان الحجرة المظلمة ، وبخاصة في الركن المواجه لروي ...

وفي الليلة التي بلغت فيها حالة روي أشدها ، لم يشاهدها أحد تسير في أرجاء الغرفة . فلقد خرجت في الظلام الدامس من الباب الخلفي للمستشفى ، وسارت كما يسير الحالم .. لم تذهب بعربة ، بل سارت على رجليها تتحسس طريقها ... إلى المنزل .

فتحت الباب ثم دلفت في الظلام . لم تحاول أن تنير المنزل ،ولماذا تنيره .. إنها تعرف المنزل جيداً وتستطيع السير في الظلام .. كان كل شيء في المنزل يكسوه التراب وبدا المنزل موحشاً وحشة القبور .. وصلت لويس إلى الطابق الثاني ، وكان الدهليز الطويل يمتد أمامها. وقد أضيء بضوء خافت صادر عن الطريق . وفي نهاية الدهليز رأت لويس الباب المغلق بالقفل مفتوحاً .. لم تكن وحدها في المنزل ، كان هنالك وجهاً يبدو من الباب دقيقاً صغيراً كذلك الوجه الذي كانت تبدو به معز أليسون في ليلة زفافها وهي تقول « لا شيء يمكن أن يكون الآن كما كان يا روي ، إنك متزوج الآن » ...

كانت لويس ترتعش رعباً . ولكنها تمالكت وأخذت تحدث الشبح في ذلك الظلام

قائلةً .. « ليس في مقدورك يامسز أليسون أن تفعلي شيئاً ... لقد انتهى كل شيء .. انتهى كل شيء .. »

.. كان عليها أن تفعل شيئاً . وكانت تعلم أن من الواجب أن تفعله حالاً .. لم يعد الأمر صراعاً وإنما أصبح سباقاً ، سباق الزمن . لقد جمعت لويس ما استطاعت من الأخشاب ثم ألقت فوقها كميات كبيرة من البترول وفتحت النوافذ ... ثم أمسكت بعود ثقاب وألقته بين الأخشاب . . وأخذت تعدو ، حتى إذا وصلت الى القاعة السفلى نظرت الى السلم ودرجاته وقالت :

« آمل أن تجدي سلاماً . لم أكرهك أبداً أبداً »

ثم خرجت بهدوء . كانت النيران خلفها تتأجج ولكنها لم تنظر وراءها ... كل شيء كان عادياً في الطريق المظلم ، ولم يرها أحد وهي تدخل المستشفى قبيل الفجر في تلك الساعة التي تخفت فيها حركة المستشفى ويسكن كل شيء حتى تأوهات المرضى ...وعند ما وصلت لويس الى حجرتها شعرت بما فعلت وكاد أن يغمى عليها لولا انها تمالكت... ثم دخلت حجرة روي فألفته أحسن قليلاً ، كانت عيناه مغمضتين ، ولكن المسحة الرهيبة ذهبت عن وجهه . وكانت لويس مضطربة من فعلتها ، كانت تردد « لقد ارتكبت جريمة » لقد «قتلت أم روي » وعند ما وضعت يدها على رأس روي تمتمت قائلةً « كان عليّ أن أفعل هذا يا عزيزي . كان عليّ أن أحطمها ».

كانت هذه آخر عبارة فاهت بها لويس قبيل أن يغمى عليها ، وقد سمعتها الممرضة ورأتها وهي تسقط فحملتها الى سريرها .

ظلت لويس في سريرها عدة أيام . وكانت تنام في فترات متقطعة من الليل والنهار ، ولم يكن هنالك ما يبدو لها من الحقائق سوى أن روي يتحسن ، ثم بدأ تفكيرها يصفو قليلاً ، ذلك التفكير الذي ظلّ نهبة الاضطراب الشديد فترة طويلة من الزمن .

وفي ذات صباح استيقظت فرأت بجانب سريرها الطبيب النفساني الذي ذهبت لاستشارته من قبل . كان الرجل يبتسم لها،وكان يملؤها الشعور بأنها أمام القاضي ، القاضي الطبيب القلب ، الذي سيحكم على فعلتها ، فإما ردها الى الأمل أو أطاح بها الى اليأس .

— أعتقد أنك عرفت ماذا فعلت أنا .

— ما الذي فعلتهِ ؟

— لقد أحرقت المنزل .

نظر إليها الطبيب وقد فاجأته المريضة ولكنه ما لبث أن ابتسم ثم قال لها « حسناً .. حسناً .. »

— .. أجل ، كان عليّ أن أفعل هذا ... فقد كانت المرأة هنالك ..

فقام الطبيب الطبيب ثم أمسك بيد لويس ونظر الى أظافارها المشققة والى آثار عشر سنوات من الذل والخوف وقال لها بهدوء .

« لويس .. هل كنت تعرفين أن هذا الباب الذي استعصى غلقه لم يكن إلاّ رمزاً فحسب. عند ما كنت تغلقين الباب كنت ترمين من وراء ذلك إلى نسيان الحجرة بآلامها ، ولكن الباب لم يكن ليقفل ، أو بعبارة أخرى لم تستطيعي أن تنسي الحجرة وآلامها ... »

وكانت لويس تنصت الى الطبيب بكل سمعها . ولما انتهى من كلامه سألته « أأنت تعتقد إذاً أنني كنت متخيلة كل هذا ، أليس كذلك ؟ !!

ولكن الطبيب لم يجبها في الحال وإنما قال في حذر « لم تكن كل مخاوفك أوهاماً ولكن معظمها ... » ثم ربت على كتفيها ونظر إليها مبتسماً « المهم يا لويس ، أنك كنت تملكين الشجاعة التي بها حطمت أوهامك . وكم أتمنى لو أن كثيراً من مرضاي البائسين يملكون هذه الشجاعة ... »

وخرج الطبيب العظيم فاستلقت لويس على ظهرها وقد اطمأنت ، فالقاضي الكريم لم يحكم بإدانتها .

... لكن هل من الممكن أن يكون هذا الباب رمزاً فحسب ؟ .. انها لتقفل عينيها فترى باباً طويلاً أبيض اللون ذا مقبض نحاسي أمضت سنيها هي ومابل ترعى لمعانه ونظافته ولقد ظلّ الباب مفتوحاً ، وكان وراءه .

... ولكن الآن كل شيء قد انتهى ولويس لا تشعر بوخز في ضميرها ، بل تنظر الى المستقبل بعين الأمل . ستقول لروي كل شيء ، ولكن ليس في هذا الظرف . بل عند ما يستعيدان صحتهما .

* * *

وفي مساء هذا اليوم أحضروا للويس زوجها وكان يجلس على كرسي ذي عجلات . . شعرت لويس أن الحائل بينها وبين روي قد زال الى الأبد ، وإنها لتحنو عليه بابتسامة امرأة أصيبت وقاست وضحت .. وأخذ روي يدني كرسيه بنفسه حتى لاصق سرير لويس وكان يبدو نحيلاً جداً ، ولكن ثمة تغير في وجهه فقد عادت إليه نظرته القديمة الساحرة .

قال روي لمرضته « اخرجي الآن .. فانها زوجتي ولو كان في مقدوري أن أقف وأصل إليها ، فإنني أحترق شوقاً إلى تقبيلها ... »

* * *

وكانت لويس تنظر وتبتسم ، كانت ابتسامتها تنطق بالحب وكانت أيضاً تنطق بالحنان . ماذا لو أن روي نسي ؟ . لقد فطر الرجال على نسيان الماضي ، أما النساء فيذكرنَ الماضي دائماً . الرجال يبنون بينهم وبين الماضي حاجزاً كثيفاً ، ولا ينتبهون حتى الى محاولتهم النسيان . والآن لقد استطاع روي أن يحيط لويس بذراعيه ، وها هو ذا يمسك بها بشدة وهو يردد :

« عزيزتي .. عزيزتي .. » لقد عاد روي القديم بعينه .

— عزيزتي ، يجب أن نخرج من هنا سريعاً فإنّ أمامنا أشياء كثيرة يجب عملها . وإني لآسف إذ أنهي إليك أنباء سيئة .

— أنباء سيئة ؟ .

— أجل : المنزل القديم قد ذهب أثراً بعد عين .

وكانت لويس تلاحظه باهتمام بالغ .

— إنك ولا شك ستفقد شيئاً كبيراً . يا روي ! أليس كذلك ؟ .

— أنا ؟ أبداً . يا للجحيم ، لقد كاد هذا المنزل أن يقتلك .

... المنزل ، وليست أمه ، التي كادت أن تقتلها — ولكن هذا لا يهم الآن .

لقد بدأ روي يبني لنفسه حاجزاً كثيفاً أمام الماضي ، ونساه الى الأبد »

— أجل يا عزيزي ، لقد كاد المنزل أن يقتلني .

ومال روي عليها وقبلها قبلة طويلة « إننا كلانا معاً الآن . يا الـهي عند ما أخبرت بمرضك »

كم تراه قد علم من ذلك الماضي ؟ كم تراه قد علم من ذلك الصراع الطويل بين أمه وزوجته ؟ انها لن تعلم منه شيئاً لأنه قد نسي كل شيء . وانها أيضاً لن تذكر شيئاً عن الباب الكبير اللهمّ الا أنه لن يفتح مرة ثانية .

فؤاد عوض واصف

ليسانسيه في الآداب والفلسفة

أبو العلاء المعري

فلسفته وأدبه وقوة ذاكرته

اذا قلنا أنّ أبا العلاء كان فيلسوفاً لم نرد بذلك إنه أحدث في عصره مذهباً فلسفيًّا جديداً في مباحث الاجتماع ، أو الدين ، أو السياسة والادارة أو ما وراء المادة ، أو قُوَى النفس البشرية ،ولكننا نريد أنّ له مشاركات حسنةً في نواحٍ فلسفية نمت عليها آثاره الطيبة نظماً ونثراً وأيّدها عمليًّا بسيرته في حياته فهو من هذه الجهة الحكيم كل الحكيم على نهج سقراط وأفلاطون اليونانيين وكنفوشيوس .

وأما أدبه فقد كان ناضجاً واسع النطاق يعدُّ فخراً وتشريفاً للأدب العربي يوم كان الناس لايكادون يفقهون من معنى هذا الأدب إلاّ أبواباً محصورة أشهرها باب الغزل وباب المديح حتى قال الابيوردي :

قالوا تركت الشعر قلتُ ضرورةٌ باب البواعث والدواعي مغلَقُ
خلتِ الديار فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليحٌ يعشقُ

هكذا كانوا يقولون ويعتقدون ، مما يحسب وصمة عار وتقصير وتشويه في وجه الأدب العربي لو لم يتداركه من أهله حيناً بعد حين أفراد قليلون يغسلون عنه هذه الوصمة ويكذبون أصحاب ذلك الزعم بما يتناولونه من مباحث قيِّمة مختلفة بعيدة الآفاق وفي طليعة هؤلاء الفحول الكرام أبو العلاء المعري فقد تناول أغراضاً جمّة نبيلة ولم يجعل للمديح والغزل من قريحته إلاّ نصيباً ضئيلاً . أما المديح فلإخوان له وفضلاء كان يقارضهم الثناء وعلامات الرضى والاعجاب . وأما الغزل فقد ورد تحت أصلة قلمه عفيفاً خفيفاً كما ينتظر من أخلاقه وسيرته . ومن هذا الباب قوله :

زورنا على غير الفواحش قصدنا فلم نستجز إلاّ الذي هو أجوزُ
زنت أعينٌ منّا وعفّت ضمائرٌ فبتنا وأيدينا عن اللمس تحجز

وقوله : منك الصدود ومني بالصدود رضى   من ذا عليّ بهذا في هواك قضى
بي منك ما لو غدا بالشمس ما طلعت   من الكآبة أو بالبرق ما ومضا
إذا الفتى ذمّ عيشاً في شبيبتـه   فما يقول إذا عصر الشباب مضى

وقال أبو العلاء ذاكراً ما للحظ من سطوة وسيطرة :

لا تطلبنّ بغير حظٍ رتبـةً   قلمُ البليغ بغير حظٍ مغزلُ
سكن السماكان السماءَ كلاهما   هـذا له رمحٌ وهـذا أعزلُ

وقبله قال أبو الطيب المتنبي (والجد بفتح الجيم هو الحظ)

هو الجَدُّ حتى تفضل العينُ أختها   وحتى يكون اليوم للامس سيدا

كما قال أيضاً في قصائده الكافورية :

ومالك تعنى بالأسنّة والظبي   وجدُّك طعّانٌ بغير سنان

وجاء بعدها من قال :

وإذا السعادة راقبتك عيونها   نم فالمخاوف كلهنّ أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حبالة   واقتد بها الجوزاءَ فهي عنان

وقال أحد الأدباء الفرنسيين : « اذا استندت الى استحقاقك وحده في الرقي والنجاح ذقت من آلام الخيبة أشكالاً وألواناً » .

***

ومن مختارات شعر أبي العلاء ما كان متعلقاً بدقة شعوره في حنينه الى أوطانه واخوانه قال في هذا الباب متشوّقاً وكان لم يزل في بغداد ضيفاً على الخليفة العباسي القادر بالله . وقصره في محلة من تلك العاصمة تسمى الكرخ .

متى سألتْ بغداد عني واهلها   فاني عن أهل العواصم سآلُ
اذا جنَّ ليلي جنَّ لبي وزائدٌ   خفوق فؤادي كلما خفق الآلُ
وماءُ بلادي كان أنجع مشرباً   ولو أنَّ ماء الكرخ صهباءُ جريالُ
فياوطني ان فاتني بك سابق   من العيش فلينعم لساكنك البالُ
فان أستطع في الحشر آتك زائراً   وهيهات لي يوم القيامة أشغالُ

وقال وهو في تلك الحالة وكان الفصل على ما يظهر فصل شتاء أو ما يجاور هـذا الفصل وقد سمع صوت الرعود وعلم أن البروق تصحبها :

أيا برق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليـه الدهر منذ ليالِ
فهل فيك من ماء المعرّة قطرةٌ   تغيث بها ظمآن ليس بسالِ

قالوا إن الخليفة سمعه يردد هذين البيتين بصوتٍ خافت فأمر خفيةً بعض خدمه ان يعدوا قافلةً صغيرة تذهب بهم الى المعرة فيحضروا اليه مقداراً من مياهها العذبة ففعلوا . وفي صباح وصولها جاء الغلام الموكل بخدمة أبي العلاء وملأ منها كوزه ووضعه في المكان المعين له من غرفة الشيخ والشيخ لا يدري شيئاً من ذلك ثم دخل الخليفة على ضيفه بعلة المؤانسة وفي أثناء جلوسه عطش أبو العلاء فنهض متحسساً حتى بلغ الكوز فما جرع منه جرعة واحدة حتى رفعه عن فيه وقال للخليفة متنهداً : « جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين هذا ماؤها فأين هواؤها » فتعجب الخليفة وأجابه مبتسماً : « اما الماء فقد وصلت اليه قدرتنا واما الهواء فلا تصل اليه قدرة بشرية »

وهذه احدى النوادر التي تروى عن أبي العلاء وهي كثيرة وأخبارها مستفيضة وعلى استفاضتها،يدعو في سياق البحث ان أشير الى بعضها . قالوا : لما كان في حلب أنشده شعراء الشام مختارات من منظومهم فحكم لأحدهم بالتفوق وقال له : اذهب فانك أشعر من في الشام. وبعد بضع سنوات كان أبو العلاء في بغداد فجاءه شعراء العراق وأنشدوه مختارات من منظومهم وبينهم ذلك الشاعر الشامي وكان قد أتى بلادهم لتعاطي بعض الأعمال وأبو العلاء لم يعلم بحضوره فلما أنشده عرفه من نغمته فقال له عند فراغه « ومن في العراق » يريد بهذه العبارة عطفها على عبارته السابقة منذ سنين يوم قال للمنشد « اذهب فانك أشعر من في الشام » ولما خرجوا سألوا الشاعر عما قصده ضيفهم العظيم بعبارته فسرد لهم الخبر فقضوا من ذلك عجباً .

ومما يروى عنه ان شاعراً جاءه بقصيدة لكي ينقحها له بقصد أن ينشدها مدح فيها بعض الأعيان آملاً ان يأمر له بصلة وبعد تنقيحها أخذها واستأنف طريقه فسقطت من يده في النهر وغرقت،فعاد الرجل مكروباً،وكان أبو العلاء جالساً على باب الدار فذكر له ذلك

الحادث،فقال له لا بأس عليك هات قلماً وورقاً ودواة،ففعل ثم أملى عليه القصيدة فأخذها وانصرف وانتفع بها .

ومن تلك النوادر ان رجلين يهوديين اختلفا في قضية حقوقية وادعى أحدهما انه أقرض رفيقه كذا من المال،فأنكر رفيقه الدعوى وليس له عليه بيّنة ، ولا وثيقة خطية فسألهما القاضي ألم يسمعكما أحد حين اتفقتما على القرض قال المدعي كان يشرف علينا من نافذة الشيخ الضرير أبو العلاء،فاستقدمه القاضي وسأله،فقال: انهما تكلما بالعبرانية وأنا لا أفهمها ولكني أحفظ شيئاً من كلامهما فجاؤوا برجل عربي يحسن العبرانية وروى أبو العلاء ماعلق بذاكرته من الكلام العبراني فاذا به يدل على صحة دعوى المدّعي فحكم له بالمال .

***

قلنا إنّ قوة الذاكرة الى هذا الحد تحسب من عجائب الدهر وأعجب شيء فيها اذا كانت قد رافقت أبا العلاء في شيخوخته وهذا الطور من العمر تضعف فيه الذاكرة وإن اشتدّت وظيفة الادراك وحسن التمييز .

ويظهر أننا نحن رجال القرن العشرين من أبناء الأمة المصرية لا نقل عن شيخنا المعرّي في مفخرة قوة الحفظ وقوّة الذاكرة إذ لم ننس فضله ومناقبه ومحاسن أقواله بعد مرور ألف سنةٍ على عهده . ولكن افتخارنا من هذا القبيل ينقلب علينا عاراً وشناراً وحجة دامغة اذا لم نحتذيه حسب جهد كل منا في فضائله ومآثره ولا سيما في غيرته على الحق والصواب والمصلحة الانسانية العامة . وما أجدر خاصتنا أن تقتبس من منهجه فضيلة التواضع الحقيقي ومن ورائها نبل وعزّة نفس حتى يصح أن يقال في الواحد منهم ما قاله أبو عبادة البحتري في ابراهيم بن المدبر أحد أعيان زمانه :

دنوتَ تواضعاً وبعدتَ قدراً فشأناك انحدارٌ وارتفاع
كذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

اللاذقية : سورية

ادوار مرقص
عضو المجمع العلمي العربي

المجنونة الشريدة

«الاشاعة»

تجري هناك وها هنا   تجري وتلهث في ونى
واذا استراحت برهةً   عادت لتطرد أمننا
الجبن أنجبها وربّتها   الطفولة بيننا
خلقت من الضوضاء فهي   تروّع أفئدة لنا
ومن الخرافة والذكاء   ومن ضياعٍ للمنى
ومن التخيّل فهي كالأحلام   وهمٌ للجنى
وبرغم فطرتها تجيد الهمس   فنًّا متقنا
فتزيد من ذعر الأنام   وقد يوطد ديدنا
ما بالها رأت (الكنانة) لا تضارع موطنا
وأخافها الفقر العميم وإن يكن هو ضيفنا ؟!
ما بالها عدّت حكيمة عصرنا بل حكمنا
ما تدّعيه هو الصواب ولو تناول ذلّنا ؟!
كم هدّمت روحَ العلى   فينا فأمضت هدمنا
هيهات أن يغني السلاح   لمن تهيّب أو عنا
والروحُ ان هزمت فما   الشعب ان يتحصّنا

والروح إن سلمت فما تكفي الجراح ليدفنا

*
* *

قابلتها مجنونة تجري هناك وها هنا
وبرغم صورتها يقدّ س زعمها من أمّنا[1]
ولربما لبست مسوح الرشد تخدع من رنا
حتى تراودِ عقله فيرى الضلال ممكّنا
ويظل يحمدها ويمنحها الكرامة والسنا
فهل الجنون جنونها أم في البرية حولنا ؟!

*
* *

لو أن للصدق النفو ذَ لما أصابت مسكّنا
لكنما الكذبُ المسوّ دُ بيننا قد خاننا
بين المخاوف والتوهم والسقوط أدالنا
فترعرعت وتصدرت حتى لتحسب أُمّنا
وتحالفت والمجرمين ومن أباحوا نهبنا
وتناهت الفوضى بها وغدت تعدُّ لنا الغنى
فلمنْ أكُون محذّراً ؟! ولمن أجرّحها أنا ؟!

دكتور
احمد زكى أبو شادى

---

(١) أمنا : قال آمين

كيف تكتب ؟

من كتاب المرشد „لجود"

The Bookmark C. E. M. Joad

قيل أنّ الكتابة مهنة صعبة وتحتاج الى مهارة ، ولا يستطيع ممارستها إلاّ أولئكم الذين ثقفوا فنها ، وتعمّقوا أسرارها .

ولكني أرى أنّ الرجل العادي ، يمكنه أن يجيدها ، إذا أجهد نفسه في الاعراب عما يفكر فيه بوضوح — ولكن العاديين من الناس ، لن يحاولوا ذلك ، لاعتقادهم الثابت ، أن الكتابة تختلف عن المحادثة ، فالمحادثة تؤدي المعنى ، أما الكتابة فتخلق ما يسمونه بالتأثير الادبي .

وترجع علة هذا الاعتقاد ، الى أمرين : أحدهما أن كثيراً من المؤلفين ساروا على أن الكتابة فن ، فن بالمعنى الذي نجده في رسم الصورة ، أو الوضع الموسيقي الاصطلاحي . والامر الثاني ، أنّ كثيراً من الصحافيين ، يزعمون ، أنّ الكتابة ، لا بدّ أن يشع منها البريق ، أو تلمع فيها الفكاهة ، أو تثير النشاط ، والكاتب في الصحافة . ينبغي أن تكون ألفاظه مؤثرة غير مرتقبة ، مليئة بالتأكيدات ، ليضفي ثوب الأهمية على الأحداث ، ولا يبالي العمق ، وانما التأثير في المشاعر ، وهذه السماتُ لا تتفق مع شعور الكاتب الادبي المخلص ، والكاتب الصحافي بدلاً من أن يقول : « جلست القطة على السجادة » يقول : تمدّدَت ، القطة ـ جريمالكين ، في ملاحة ، وأخذت تموء مواءً ينم عن الرضا المأثور ، وربضت على سجادة ثمينة ملونة من طراز يفصح عن الشرق ، وعجائب ألف ليلة » !

ومثل هذا التعبير ، رديء ، وجاف ، ومجرّد عن البساطة ومخالف لأصول الكتابة الجيدة

وما ريبٌ ، أن الكتابة فنٌّ حقّـا ، ولها اصطلاحاتها ، وطريقتها ، وكلماتها المتخيَّرة ، وأسلوبها في الانسجام والوزن ، ولكن لا يجوز أن نحصر كل اهتمامنا في طريقة القول ، دون القول ذاته ، ولا يجوز لنا في هذا العصر ، أن نجاري أدباء القرن الماضي ، الذين كان يعتقد أكثرهم أنّ الأسلوب الكتابي له قيمة ذاتية مستقلة عن المعنى ، ومن بين هؤلاء نذكر جماعة « المنحطين » وعلى رأسهم أوسكار وايلد ، على حين نجد أنّ البعض الآخر من أدباء القرن الماضي ، كانوا لا يرون هذا الرأي ، فكان صموئيل بطلر يقول :

« لا أعرف كاتباً مقروءاً ، يجهد نفسه ، أقل اجهاد من أجل الأسلوب » . وهنا ، قد يتساءل إنسان عن منزلة الأسلوب الموسيقي الماز ؟ والأسلوب الموسيقي ؛ لاغبار عليه إذا جاء طبيعيًّا ، وكان ثمرة من ثمرات الفكرة الأصيلة ، أما اصطناع مثل هـذا الأسلوب ، والسعي إليه ، فإنما هو سعيٌ الى الادعاء والتصنع .

ويقول هازليت ، وهو من أساتذة الفكر الانجليزي : « لـكي تكتب كتابة سليمة ، عليك أن تكتب كما يتحدث إنسانٌ حديثاً عادياً ، على أن يكون إنساناً لبقاً ، له قدرة على اختيار ألفاظه ، والهيمنة عليها ، أو كمن يتحدّث في سهولة وقوّة واشراق ، تاركاً جانباً التعالم والحذلقة » وأريد أن أقول ، أني لم أفكر قليلاً أو كثيراً في أسلوبي ، ولا أعرف إن كان لي أسلوب أو لا ، ولـكنها الحماسة هي التي ألوذ اليها ، ولن يفكر رجل في أسلوبه دون أن يضيع نفسه وقراءه !

ويحسن ، اذن ، أن لا نجاري محبي البريق ، والتنميق ، وأن لا نساير الصحافيين في سطحيتهم ، وعلينا ، قبل أن نخط حرفاً ، أن نقسم ، أن لا نعبر إلاّ عما نقوله تماماً ، أو نتحدث به ، في لفظ سهل بسيط ، يوصل الى الغاية . أو الى المعنى المنشود .

***

وكل من يهوى فن الـكتابة ، عليـه أن يحتفظ بمفكرة لتسجيل خواطره اليومية ، لأن كتابة اليوميات تـعوِّد الـكاتب الـكتابة في صدق ، وأسـلوب طبيعي ، لا أثر فيه للتـكلف أو التصنع ، ومن نماذج هـذه اليوميات ، مفـكرة الـكاتب الانجليزي الشهير صموئيل بيبز Pepys وهو من أعظم كتّـاب اليوميات ، وقد كتبها بأسـلوب شخصي فريد ، لا بأسلوب مزركش منمّـق ، فهي واضحة وطريفة وقوية .

وعلى الـكاتب ، فضلاً عما تقـدّم ، أن يتوخى العذوبة والايجاز ، والاصالة ، بقدر المستطاع ، دون خوف من التعبير عن نفسه تعبيراً طبيعيًّا

وليست هناك قاعدة ذهبية للـكتابة الجيدة ، كما أنه ليست هناك قاعدة ذهبية للمعيشة الطيبة ، وقد يخرج الـكاتب العظيم على جميع القواعد ؛ ويختط لنفسـه طريقة . ويعدّ من الـكتّـاب العظام .

وأعود الى القول ، بأن جمال الألفاظ وموسيقاها ، لها قيمتهما ، على أن يأتيا عفواً ودون تمحل ، وكل مجهود يبذل لتجميل الألفاظ ، وتنسيق موسيقاها ، فهو جهد غير مثمر

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

علة الفاقة

الفاقة علّة اجتماعية تحلّ بالفرد كما تحلّ بالدّولة وتبث شرورها أينما طاب لها المستقرّ .

ومن المؤسف حقّاً أن العالم في تاريخه الطويل — وقد تجاوز في عرف علماء الجيولوجيا ملايين السنين — لم يسلم من هذا الداء ، ولم نعرف عهداً جاء خلواً من علّة الفقر ، ولم نسمع عن بلاد نعمت ، ولو في آونة من حياتها ، برخاء شمل الجميع وعمّ أرجاءها بغير استثناء .

فهذه العلة إذن علة ذات صفة عالميـة أممية — لا قومية وطنية — تنتشر في كل حقبة وفي كل بقعة حتى ليسع المرء أن يقول أنّ الأقمار والنجوم لا يمكن أن تنجو من داء الفقر إذا ثبت أن فيها كائنات حيّة .

واليوم ، يعترض العالم بعد حرب ضروس طحنت المدنيّة ستة أعوام ، ودكّت حصون العمران كالرحى ، وأبادت نفوساً تقدّر عـدّتها ببضعة ملايين قد تتجاوز الخمسة ، واستنزفت الذهب والفضّة وموارد الانتاج ومواد الطعام والثروة الحيوانيـة ، يعترض العالم خطر استفحال علة الفاقة واستشراء داء العوز في القارة الأوربية بوجهٍ خاص ، وفي بقاع العالم الأخرى عامة ، وجهود المصلحين منصرفة الى هـذا الاتجاه ، تروم أن تضع اليد على موطن البـلاء لتعمل على اجتثاث جذوره وقطع دابره . فمن قروض يعقدها خازنو المال للشعوب المفتقرة ، ومن إسعاف في الغـذاء والملبس يرسل على عجل الى أقطار أوربا ، ومن مشروع يصممه الوزير الأميركي مارشال ويشذّبه اقتصاديو أوربا ويقتضيه جمهوريو أميركا ابتغاء الأخذ بناصرة البلاد التي تهالـكت تحت وطأة الحرب وغدت في حالة هي بئس الحالات .

ولـكن الباحث لا تأخذه المظاهر ، ولا يستهويه معسول القول ، فهو إذا أمعن في التفاؤل وسلم تسليماً أعمى بأن المدد سـينزل كالغيث المدرار من الدنيا الجديدة على الدنيا القديمة ، وأنّ أوربا لن تبرح حتى تصبح موفورة الغـذاء مشمولة بالسخيّ من الـكسى ، مغدقاً عليهـا بمال قدروا قيمته باثنين وعشرين ألف مليون دولار ... إذا سلّـم الباحث بكل ما ترويه وكالات الأنباء من أخبار الغوث والعون ، فهو لا بدّ سائل نفسه : « أفي هذه المساعي قضاء على الفاقة وقطع لدابر السغب ؟ وهل حان للعالم أن يتنفس الصعداء ويرفع عن صدره كابوس الفقر الذي جثم عليه منذ حلّ البشر بأرضٍ ؟ » .

يقول العالم الاجتماعي منجولد إنّ الفقر شرّ جميع علل المجتمع فهو يحطم الحياة بأن يدفع بالناس الى الجريمة والى الشذوذات الإجتماعية ويورّط العائلات في مشكلات خطيرة المدى، ويفضي الى اضطرابات اجتماعية من كل نوع . والفاقة تودي إلى السغب والى القصور العقلي والى أمراض قد لا يستطاع دفعها وإلى تدهور صحيّ بدنيّ .

تلك هي نتائج الفاقة ، ولكن كيف تنشأ ، وما هي أسبابها ؟ .

هناك أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة تعمل متجمعة أو متفرقة على خلق هذه العلة .

١ — وأول سبب مباشر للفاقة هو نقص الإنتاج وقصوره عن الوفاء بحاجة السكان . وثروة الشعب كما هو مألوف معروف تقاس بمدى ما تنتجه البلاد من سلع وما يؤديه أهلها من خدمات . فإذا اتبع النظام العلمي في تقدير ثروة البلاد ، واتبع النظام العلمي في الظفر بالعدد الصحيح للسكان أمكن معرفة نصيب الفرد من الثروة القوميـة ، وتسنّى من هذه النتيجة الحكم على مدى كفاية الانتاج أو قصوره .

ويقصر الانتاج عادة عن الوفاء بالحاجة إذا كانت الموارد تعاني نقصاً كأن تكون التربة غير خصبة ، أو تغلّ الأرض غلة قليلة ، أو يفتقر الزارع الى آلات الصناعة الحديثة التي تستخدم في الحقول ، أو يكون المنتج غير ملمٍّ إلماماً علمـيـاً تامـاً بوسائل استنباط أقصى حد ممكن من الثروة الطبيعية ، أو لسوء الأحوال الجوية ، أو لتخلّف الشعب عن متابعة النهضة الحديثة ، أو للعجز عن القضاء على الحشرات المهلكة للنباتات أو الحيوان . وجميع هذه العوامل لا تصيب إلا الشعوب التي لا تزال سادرة في غي الجهالة يخيم على عيونها عمى البصيرة وتعجز عن استبدال المحراث الخشبي الفرعوني بآلات حرث ترفع سافل التربة وتدفن في بطنها أعاليها . فما لا ريب فيـه أن الدول التي استعانت بالآلة وأسرفت في تعميمها ، لم تعد تشكو من علة نقص الانتاج ، وإن كانت هناك علل أخرى تبعث على الجأر بالشكوى . والتقدّم العلمي إذ يتضافر مع المال والأيدي العاملة يستطيع أن يستغلّ مورد الانتاج إلى أقصاه ويهيء للجميع سلعاً . ولذلك ينبغي على الدول التي هجرت الآلة عن وعي أو عن غير قصد ، أن تستعين بها، فهي معوان على تذليل الشدائد ،وأداة تتضاءل أمامها عوامل الطبيعة .

٢ — وثمة سبب مباشر ثانٍ يفضي إلى استشراء علّة الفاقة واستفحال خطرها وهو : القصور الفردي الذاتي .

فإذا تعذر على الفرد أن يقتني من ضرورات الحياة ما يسدّ به رمقه ويطعم به أفراد عائلته كان في هـذا نذير بدنوّ خطر آفة الفاقة . وأسباب قصور الفرد كثيرة ، فقد يكون تخلّفه ناجماً من سذاجة تفكيره ، أو من إسرافه غير الفطن في أبواب لاجدوى من ورائها،

أو من نقص في التثقيف والتدريب ، أو من عيب بدني لا حيلة للمرء فيه ، أو من علة ورثها الابن عن أبيه . »

وعلاج هذا القصور الذاتي يتفاوت بتفاوت الحالات الفردية ، فالجاهل يمنح فرصة للتثقف ، والمريض تهيأ له وسائل العلاج ، وذو العاهة يعنى بأمره في مرافق الدولة الخيرية (كالملاجىء والمستشفيات) والمنكب على لذاذات تستنزف ماله بغير فطنة يُرشد إلى طريق الحكمة ، ليدخر قرشه أو لينفقه في ما يؤول للبناء لا الهدم .

٣ — ومن الأسباب المباشرة المفضية إلى تفاقم مشكلة الفقر ، الاهتمام بالذات وحبّ النفس . فالإنسان محبٌّ لذاته بفطرته ، أناني بطبيعته ، ولكن التثقيف والبيئة والعادات المكتسبة ينبغي أن تحدّ من سطوة العاطفة الإنّية الذاتية ، وتجعل أعمال المرء لا تدور حول محور ذاته ، بل حول محور أوسع وأشمل . وحسبك ان تعلم أن سيطرة الأنانية على الأفراد والجماعات في سباق الحياة من شأنها أن تنشىء منازعات وتطاحناً قد يؤول في منتهاه إلى مضرّة الفريقين المتباريين . فالإفراط في التزاحم والتباري للمصالح الذاتية الخاصة يهدد بأن يستصحب في ركابه الفاقة التي تلقي شباكها على طبقات بأسرها لا على أفرادٍ متفرقين . وحيثما كانت الثروة العامة قادرة على سدّ جميع الحاجات ، فإن الفاقة لا تجد منفذاً تتسلل منه إلى ذلك المجتمع السعيد إلاّ من ثغرة حب الذات والإثرة ، فهي طريق مضمون النجاح . وما كوارث الاقتصاد التي تنزل بالدول نتيجة المباراة في الانتاج وغمر الأسواق إلاّ مظهر من مظاهر تغليب المصلحة الذاتية الخاصة على المصالح العامة .

ولنرتد بعد ذلك مع العالم الاجتماعي منجولد لندرس الأسباب الثانوية التي تؤول إلى الفاقة والتواكل . وهذه الأسباب تكاد لكثرتها وتعددها تجلّ عن الحصر . وإذا تيسّر حصرها فان بسطها ولو بإيجاز كفيل بأن يستوعب فراغاً كبيراً من دوريّةٍ شهرية كالمقتطف

١ — وفي أول القائمة نجد كلمة « الحرب » مكتوبة بالخط العريض ، وهي كلمة لا تغيب عن الذهن في الجيل الحالي والمرجو أن يسلم من شرّها ما يتلو ذلك من أجيال وقرون ، وتلك أمنية ترددها شفاه السائمة من سكان العالم ، ولكن أقطاب السياسة «وتجار الحروب» لا ينفكون يهددون باللجوء إلى الحرب ويتوعدون بالتلميح والإيحاء والاشارة بالنزول على إرادتها وإخضاع الأبيّ بالعنف حين لا يجدي المنطق والفطنة .

والحرب على العموم نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للصراع الاقتصادي بين الأمم . وغالبية الحروب التي ألفها العالم حتى اليوم شنها قادة على قادة آخرين مستخدمين الشعوب كأداة حقد وضغينة تواصل النضال مضحية بالأرواح ونديّ الدم . وقد سوّيت مشكلات

كثيرة بغير حرب ، بيد أن معظم الحروب إن لم تكن جميعها لم تحل مشكلة واحدة وإن كانت قد خلفت وراءها طائفة من مشكلات واضطرابات يُعيي إصلاحها البشر ، ويعجز جيل واحدٌ عن إزالة آثارها . فالحرب لا تزيد في جوهرها على كونها إظهاراً لقوة الفريقين المتنازلين يريد كل منهما أن يسفر بقوته ويبرهن على ان له السيطرة في الجاه على من دونه . والحرب ما برحت منذ عرفها الانسان سبباً من أسباب العوز والمسغبة ، ولا تخرج منها الدول المتقارعة إلاّ وقد أثقلت بالدمار والخسائر وبددت ثرواتها ، وزاد عدد المشوّهين الذين لا يصلحون للسلم ولا للحرب . وسواء كتبت الهزيمة للمحاربين أو ظفروا بالنصرة على العدو ، فالنتيجة التي لا مهرب منها هي أن الفريقين يخسران ، وإن أربت خسارة أحدهما على خسارة الآخر .

والنتيجة الأولى التي تنحسر عنها الحروب هي إبادة الثروة وإفناء الممتلكات ، ودك العمران ، وما نشبت حرب إلاّ وكانت خطراً يستنزف ثروة الشعوب ومواردها ، ويحول معداتها من مناجل للحصد وآلات للنسج إلى أسلحة قتال ومصانع ذخيرة وقنابل . أما وقودها ، فهو كل ما تملكه البلاد من مال وجاه ، وموارد ورجال تلقى في آتونها فتلتهمها النار ولا يبقى منها حتى الرماد المذرّو . وسواء اشتركت الأمم في الحروب أو اكتفت بالتأهب لها ، فلن تنجو من الفقر والعوز ، لأنها مضطرة في الحالة الثانية إلى اعداد الجيوش والانفاق على البحرية وانتاج السلاح والنهوض بأعباء المحاربين القدامى . وهذه جميعاً أبواب في الميزانية ترصد لها مئات الآلاف من الجنيهات لتضيع هدراً ، مع انه كان في الطاقة استغلالها في رفع مستوى المعيشة أو مكافحة الأوبئة أو إغاثة الملهوف أو إيواء المنكوب في حادث ، وما إلى ذلك من الخدمات النافعة المجدية

٢ — واكتظاظ البلاد بالسكان سبب آخر من الأسباب غير المباشرة المفضية الى الفاقة فاذا تعذر على البلاد أن تجد منفذاً للفائض عن طاقتها من السكان ، أو إذا عجزت عن انتاج سلع حيوية تكفي للنهوض بحاجاتهم وتهيئة وسائل العمل والمعيشة لهم ؛ فهي أمام أحد أمرين : إما أن تنهج نهج هتلر وصيفه موسوليني ، فتطالب عمليًّا بمجال حيوي ، وإما أن تجد نفسها في هوّةٍ تزداد عمقاً من العوز والفاقة .

ومصر اليوم على ما يقول استاذنا الدكتور وندل كليلاند في كتابه « مشكلة السكان في مصر » مكتظة بالسكان وغدت أرضها تضيق بساكنيها ، فلا غرو إذا كانت هذه الحالة من الأسباب القوية في تعزيز دعائم الفاقة بين ضفتي النيل ، ومن الاعتبارات التي ينبغي أن يوجه إليها أولو الشأن مزيد عنايتهم .

ويقول رجال الاجتماع ان النسبة بين عـدد السكان ومقدرة الانتاج ينبغي أن تكون نسبة محفوظة ، فلا يصح أن ينمو عدد السكان عدواً كالأرنب ، ويحبو الانتاج زاحفاً كالسلحفاة لئلاَّ تنفرج الثغرة ويعز العلاج . وتلك هي النظرية التي كان لمالتوس Malthus فضل كشفها ، وثبت أن أبا العلاء المعري توصل إليها قبله وصاغها شعراً رائعاً .

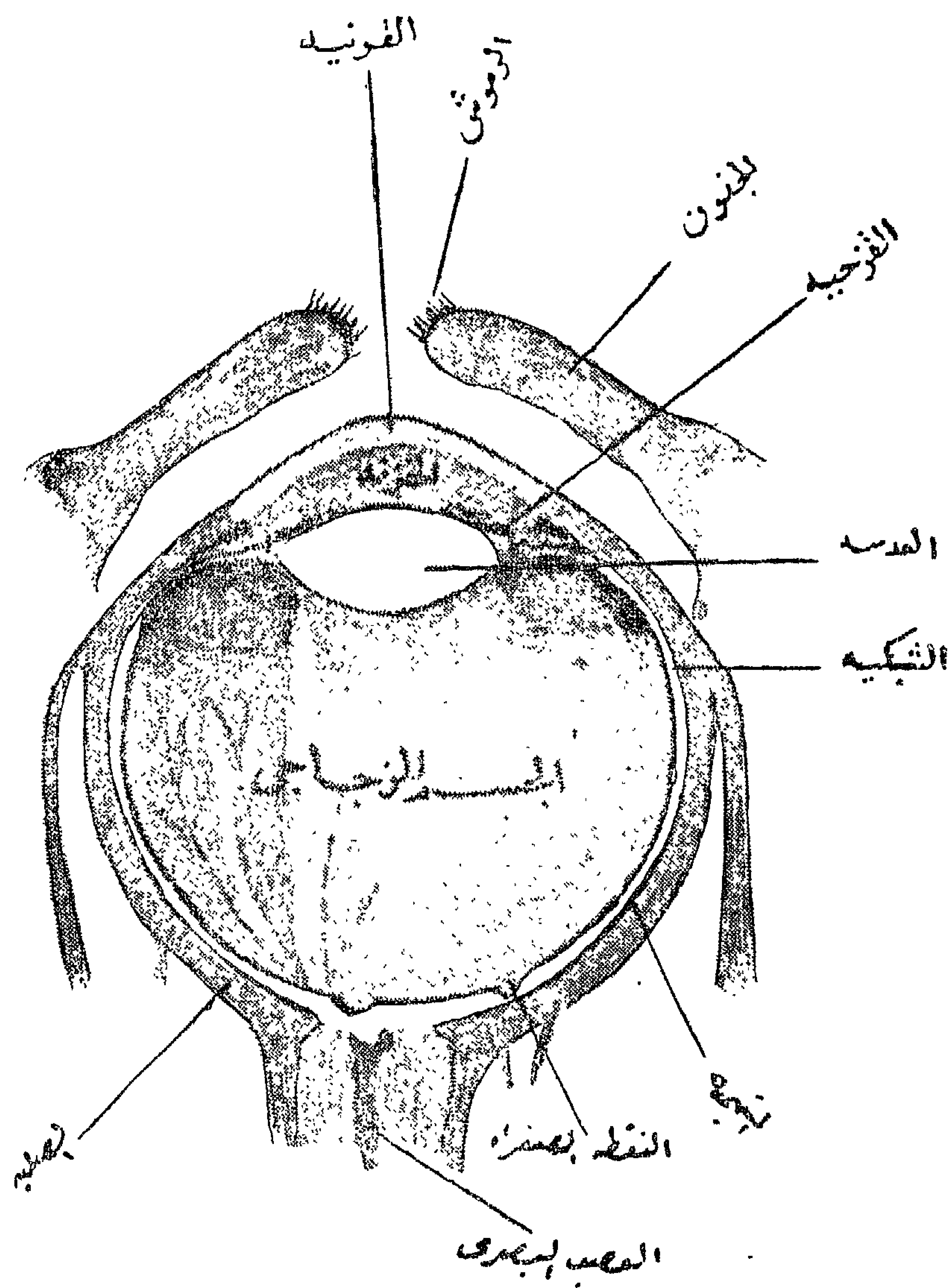
٣ — وهناك سبب ثالث غير مباشر يقود الى الفاقة وهو الافتقار الى التنظيم الصناعي. والتنظيم الصناعي ركنان ركينان ينبغي أن يعهد الى اخصائيين نطاسيين في الاشراف عليهما وهما ركنا رأس المال واليد العاملة . ويدخل في نطاق « رأس المال » الإعداد الآلي الحديث والتنظيم الاداري الكفء وتهيئة الأحوال الصحية الملائمة . فإذا نظم هذا الجانب مثلاً وأغفل جانب العمال عملاً بالمبدأ الاقتصادي المعروف Laissez Faire ، كان ذلك مدعاة الى تسلل الفقر الى الميدان لأن النظام الاقتصادي لا يستقيم حتى تعزز جميع أركانه وتقوى جميع دعائمه ، وإلاَّ إنهار الصرح وخلف ضحايا كثيرين تفترسهم الحاجة وتنهش أبدانهم علل الفقر .

٤ — وثمة أسباب أخرى لا معدى عن سردها إجمالاً ، وهي الغش والتزوير والسرف والافراط والمغالاة في الربا والعادات الشخصية المرذولة كإدمان الخمر واعتياد العربدة الجنسية ورفض العمل والمرض والعجز الجسماني والخمول والجهل وتسخير الصبية في الأعمال في المصانع وحل المنشآت وخيبة الزواج وتقدُّم السن والخيانة ... جميع هذه عوامل تفضي الى الفقر بصفة غير مباشرة . وقد يتسبب تكاثرها وتكالبها على بلدٍ بعينه في إنزال كوارث اقتصادية في صميم كيانه .

تلك هي الاعتبارات التي من شأنها نشر علة الفاقة في العالم ، وإذا أريد مكافحة الداء العضال فلا معدى عن بحث أصوله وفروعه والعمل على إيجاد دواء لكل داء .

ويكاد العالم يكون اليوم — بعد حربٍ كونية أعملت في المدنية بقنابلها وقذائف مدافعها وصواريخها وذرَّاتها وطوربيداتها وغواصاتها وفدائييها وغازاتها السامة ونفَّاثات لهبها ورادارها وماخرات عباب البحر ومتن الجو — فريسة سائغة لجميع العوامل التي تهيء للفاقة مرتعاً خصيباً ، فان لم تتضافر الشعوب والحكومات بمد ثريها يد العون الى فقيرها، ويحمل القوي ضعف الضعيف ، فلا أمل يرجى في إصلاح العطب ، ولا خير في هيئة أمم تلتحم فيها الألسنة بالجدال ، وتضرب قبضات أيدي الأعضاء منصات الخطابة ضربات حماسية وحيوية ، ولا مطمع في رخاء يشمل أركان المسكونة الاربعة وينعم في ظله البشر برغدٍ وبحبوحة .

وديع فلسطين



القرنيه
الرموش
الجفون
القزحيه
العدسه
الشبكيه
الجسم الزجاجي
النقطه الصفراء
العصب البصري

أمراض العيون

العين وتركيبها ، كيفية الابصار وعدم الابصار ، تأثير الهواء والصدمات، أمراض الجفون والملتحمة ، الرمد الصديدي والحبيبي والربيعي، الدفتيري (الدفتريا)

هذه الأمراض التي تصيب العيون لا يتسع المجال لبحثها بحثاً دقيقاً خشية السأم كما هو الحال في شرح المسائل الطبية ، ولكن من الممكن تيسيراً للقارىء أن يلمّ إلماماً تامّاً ، بإيجاز ، بذلك كله .

فالعين — كما لا يخفى — عضو حساس يتألف من أنسجة دقيقة رفيعة لا تتحمل الصدمات ، ولذلك فانّ الله سبحانه وتعالى ، لم يترك هذا العضو الحساس بغير حماية أو وقاية . من أجل ذلك نرى أنّ هناك عوامل متباينة ، تتضافر وتتساند لمصلحة العين ، فقد وضعت العين داخل حجاج عظمي مبطن بمادّة ليفية ودهنية ، وغطيت من الخارج بالجفون لحمايتها من الخارج طبقاً لما نلخصه فيما يلي :

(أولاً)— متانة الجدر الحجاجية وتركيبها الديناميكي ، و (ثانياً) الدهن الحجاجي وهو يحمي العين من الخلف ، و (ثالثاً) الجفون وهي تحميها حماية تامة تطابقها إذا قابلها جسم غريب أو جو شديد ، بالترميش « Winking » وهو الذي يغطي سطح القرنية بالسوائل ويزيل الأجسام الغريبة والميكروبات المختلفة عنها ، ولا يمكن أن يتم عملها إلاّ إذا كان سطح المقلة مغطّى بسائل يتكوّن ويسحب بسهولة تامةٍ وهو ما نسميه بالدّمع (الدموع) ، فهو العامل الوحيد والمهم من عوامل حماية العين . وأخيراً نجد الملتحمة التي تكسو القرنية بامتدادها فتمنع الميكروبات من الوصول الى القرنية « عديمة المقاومة » ، كما تمنع الدمع من أن يتخللها فتذهب بصفائها وشفافيتها .

أما العين ذاتها فعوامل مقاومتها الداخلية هي شدّة حساسية القرنية التي تسابب

« الترميش » وقفل الجفون بسرعة فائقة ، وصلابة الغلاف الليفي الخارجي الذي يتألف من الصلبة والقرنية .

وفيما يلي تفصيل لما أجملناه عن تلك العوامل :

١ — العظام الحجاجي

قيل بأن الجمجمة مؤلفة من فقرات أربع تكدّست طبقات بعضها فوق بعض نشأ عنها ذلك الوعاء العظمي وسميت هـذه الفقرات بالموخرية (Occipital) ، والوتدية الجدارية ، والجبهية ، والأنفية . والثالثة منها هي التي تهمنا ، إذ يتمثل جسمها بالجسم الوتدي ، وثقبها الأوسط بالثلمة المصفدية أو الأثمويدية (Ethmoidal notch) التي يثبت فيها العظم المصفدي ، وتتمثل صفيحتاها أو جناحاها بالجناح الوتدي الصغير ، والعظم الجبهي ، وهذه الفقرة هي التي تحمي امتداد المخ المسمى بالعصب البصري والشبكية . وهي التي تبصر . كما تحمي الفقرات العنقية ، والصدرية والنخاع الشوكي .

ولمعرفة كيف يحمى ذلك الصندوق المفتوح من الأمام ، وهو القوي بمتانتـه من الجوانب ، الذي تبطنه من العضلات والدهن الذي بداخله نقول :

الحجاج العظمي — تتألف الحافة منّ العظم الجبهي والوجهي والفكي والعلوي وكلها عظام، مقاومتها كبيرة نظراً لتركيبها القوي المتين، وصلابتها ومطابقتها لنظام ميكانيكي رائع. فاذا كانت الاصابة من أعلا على القوسي الجبهي العلوي ، انتقلت الرجة الى الجبهتين ، الفكية والوجنية ، ومنهما الى سائر عظام الوجه ، ويشبه هذا النظام القوسي الغوطي (Grothich Arch) في « البناء القديم » . وكذلك الحال اذا كانت الاصابة موجهة الى القوس السفلي الذي يتألف من الحافة الفكية العليا، فانّ القوة تتوزّع الى عظام الجمجمة خلال العمودين اللذين يتألفان من العظم الوجني والناشرة الفكية الجبهية، فاذا اتجهت الاصابة نحو الجدار الخارجي حدث المثل، يضاف الى ذلك التوزيع على القوس الوجني وعندئذٍ يعمل كالقوس الطائر (Flying arch) الذي تقوى به الأقواس الغوطية القديمـة في الكنائس والكاتدرائيات . لذلك نرى أنّ الاصابة مهما بلغت شدتها فإنها تنتقل بهذا النظام الفذ الى مجموعة كبيرة من العظام المقاومة فلا يبقى تأثيرها في مكان واحد .

وكذلك الجدار الخارجي ، تحميه العضلة الصدغية من الخارج ، فاذا وصلت اليه الضربة فانّ التشقق الذي يتسبب عنها يقف عند الشقين الحجاجين العلوي والسفلي اللذين يقفان كخندق قوي يمنع الامتداد الى الجدران الأخرى ، وليست إصابة الجدار السفلي سهلة المنال ، إذ أن العظم الفكي العلوي يقف حائلاً دون ذلك ويقلل من تأثيرها ، لأنّ العظم لا يسهل اختراقه ولأنه يتكوّن من لوحين مفصولين بجيب هوائي ، ولا تأتي إصابة الحجاج الداخلي إلاّ بعد إتلاف محتويات الحجاج ، ولذلك ليس أمام الطبيعة من حاجة ملحة تدعو لصلابة هذا الجدار ، فإنه ينشأ رقيقاً دقيقاً تخترقه الاورام بسهولة كبيرة . أما الجدار العلوي فهو حاجز بين الحجاج والجمجمة، ولذلك تكثر إصاباته . وليس في متانته ولا في تركيبه ما يمنع من تعدّد الاصابات ، علاوة على أنّ المرّات الممتدة إليه في إصابات الحافه العليا تسبب تشققاً بسهولة نظراً لرقته .

وهناك عامل مهم يزيد في مقاومة الجدر الحجاجية للإصابات ، إذ أنها تتكوّن — كما تتكوّن جدران الجمجمة — من لوحين بينهما نخاع عظمي تكدّست طبقاته بعضها فوق بعض مثلها في ذلك مثل الحيطان التي تبنى من طبقتين بينهما مادة عازلة ، إذ تكون أكثر مقاومة مما لو بنيت صماء من طبقة واحدة ، والعظمة الجبهية ، والوتدية ، والجدار الخارجي ، والسفلي كل ذلك يتكوّن من طبقتين ولذلك كان لها تلك المقاومة .

٢ — الدهن الحجاجي

وهذا الدهن الحجاجي عبارة عن مادّة تسهل حركة العضلات خلاله وتعمل كسند أو كساء للعين ، فاذا وجهت للعين اصابة ما من الأمام تقهقرت هذه فلا يمنعها الدهن من ذلك بل يدفعها دفعاً لطيفاً ويعيدها الى مكانها .

٣ — حركات الجفون

هذه الجفون تغلق في أثناء النوم ، وفي الضوء الشديد ، وعند القرب المفاجىء لجسم غريب ، وعند ما تلمس الأهداب جسماً صلباً ، وفي حالة تهيج القرنية والملتحمة ، وفي أثناء العطس ، كما تغلق عند تغيير أو زيادة الدموع ، وعند ما تحس بجفاف السطح القرني ،

وكذلك تذلق الجفون متى تهيج أي فرع من فروع العصب الخامس (Fifth nerve) ، فينتقل الاحساس منه الى نواة العصب السابع وهنا يتم الانعكاس القرني (Corneal reflex) وهو الذي يجب اعتباره من أهم عوامل حماية العين ، ومن أواخر الانعكاسات التي تختفي اثناء التخدير العام .

وللجفون نوعان من الحركة ، أولها سريع لا يتم فيه تطابق الجفنين ويسمى الترميش (Winking) وثانيهما قوي محكم يسمى بالاقفال ويقصد منه حماية العين (المقلة) من دخول جسم مفاجيء .

ويتسبب من الترميش مواصلة انقباض الجزء الغضروفي في العضلة اللاصقة بسطح القرنية والملتحمة ، أو زيادة الدمع في الأخيرة عند الاحساس بالجفاف فيها .

أما الاقفال فيتم بتطابق الجفنين وقفل الفتحة الجفنية تماماً . وعند النوم يتطابق الجفنان بخفة وتندفع المقلة الى أعلا والى الخارج كما يرى ذلك بسهولة في النساء والأولاد خلال الجفن لرقته .

وعند فتح الجفن يرتفع الجفن العلوي بشد العضلة الرافعة ويساعدها في ذلك العضلة التي تسمى بعضلة مولر (Moulter) . أما الجفن السفلي فانه يسقط بثقله عند فتح الجفنين وتسحبه العضلة السفلى لمولر الى تحت قليلاً .

٤ — الدموع

هذه الدموع تفرزها الغدد الموجودة بالملتحمة الجفنية ، ويمكن استمرار إفراز الدموع بكميات كبيرة جداً ساعات متعددة عند حدوث مؤثرات ، وعند وجود حالة نفسية عنيفة ، أو عند تهيج ملتحمي شديد ، ومصدره الدم ، لذلك فانه يتخلل الغدة وينساب بين طياتها (فصيصاتها) ، وينفصل الدم عن القناة الموجودة داخل الفصيص بحوائط متعددة إذ يفصله عنها الغشاء الوعائي والغشاء القاعدي للفصيص ، ويتناول هذا العامل الافرازي سرعة مرور الدم ، وزيادة ضغطه في الغدة ، وزيادة اتساع الأوعية الشعرية ، حتى لقد ينتقل النبض الشرياني الى الوريد .

ويتغير شكل الخلية كثيراً بعد تمام الافراز ، إذ تفقد الحبيبات التي كانت بها ويزيد

مقدار البروتوبلاسم (Protoplassm) نسبيًّا ، ويبدأ الافراز بأن تأخذ الحبيبات الماء والأملاح من السداد المجاورة ، وتتفتح وتنصرف كنقطة سائلة في القنوات التي بداخل الفصيصات . فالعمل الأول موكول الى الخلية التي تكون الحبيبات من البروتوبلاسم بالترسيب وسواه ، وتسحب في سبيل ذلك الاملاح والسوائل من الدم ، كما تأخذ منه المواد المغذية المتجهة من القناة نحو السطح .

قيمة الافراز : ولا يحدث من الافراز عادة الا ما يكفي لتغطية السطح القرني وتعويض التبخر ، ويكون ذلك غالباً من الغدد الملتحمية ، واذا زاد الطلب تدخلت الغدة الدمعية ، وزاد الافراز تبعاً لذلك . ويتجه الزائد من السائل الدمعي من الجفن الخارجي الى الجفن الداخلي بجملة عوامل . أولها : ارتفاع الأول عن الثاني وشدة بروزه . وثانيها الحركة الاختلاجية التي تنقل الجفون برمتها نحو الانف .

ويزداد انهمار الدمع : أولاً — عند ملامسة أجسام غريبة للملتحمة والقرنية . وثانياً عند تهيج غشاء الانف . وثالثاً — عند وقوع ضوء شديد على العين . ورابعاً — عند الاحساس بجفاف القرنية . وخامساً — عند تأثير الاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية على الشبكية وهكذا .

٥ — الملتحمة

والملتحمة قطعة من الجلد تتغير تركيبها تبعاً لوضعها فهي تعتبر كخط دفاع أمامي ضد الميكروبات التي تكثر على سطحها وسطح امتدادها على القرنيــة ، بينما تمثل الخلايا اللمفاوية وحبيباتها (Follicles) التي تكثر في طريق الخط الثاني في تلك السلسلة الدفاعية .

وتحتوي الملتحمة على غدد عرقية (هي الغدد الدمعية) وأخرى شحمية (ميبوميون) (Meibomium) وليس لها عمل إلا في حرف الجفن حيث يتطلبها الاحتكاك المستمر كما أنها قليلة الالتصاق بما تحتها

وتحتفظ الملتحمة بخاصية لا ترى في مكان آخر من سطح الجسم ، مثلها في ذلك مثل الحيوانات الفطرية ، فان لخلاياها خاصية افراز المخاط فتتورم الخلية وتمتلىء بالميوسين ، ثم تنفجر فتخرج محتوياتها كسائل يغسل السطح ويحمل معه ما علق من الميكروبات ، ولذلك فان بالملتحمة آثاراً من الأهداب على قمة الخلية .

٦ — حساسية القرنية

ويوجد تحت سطح القرنية شبكة عصبية نهائيـة تجعل للقرنية حساسية خاصة بالحرارة والبرودة واللمس والوخز، وكلها تحدث حساسية بالألم في القرنية وتؤدّي الى إقفال الجفون بعنف

٧ — مقاومة أغلفة العين

وللعين غلاف ليفي قوي متين جدًّا نظراً لكثرة الأنسجة التي يتركب منها فلا ينفجر الجزء الخلفي من الصلبة عند الإصابة في الجزء الأمامي والعكس بالعكس إلاّ في الإصابات المباشرة . ولذلك فالقرنية شفافة وتتأثر بالحروج (قرح العين) فاذا حصل حرج على القرنية ترك أثراً يسمى سحابة إذا كان الحرج سطحيًّا ، أو ترك عتامة (نقطة) اذا كان الحرج عميقاً أي غير سطحي ، ولذلك فانه يحجب النور الذي يدخل من القرنية الى الشبكيـة ، والعصب البصري بوساطة الحدقة كما يمنع النور من الاتصال بالعصب البصري والشبكية والمخ اذا حدث إفراز والتهاب بالقزحية ، والقزحية الهدبية فيسبب التصاقاً حلقيًّا يسد الحدقة ، أو حدث عتامة للبلورية وهذه تسمى كتركتا وهي مايسميها العامة (ميّـه أو ميّـه بيضاء).

والقرنية — في هـذه الحالة — مثلها كمثل زجاجة الساعة تماماً تكشف ماوراءها ، والهضبة الهدبيـة مؤلفة من الخلف من المشيمة والجسم الهدبي . ومن الأمام بالقزحية ، وهـذه عبارة عن حجاب حاجز مستدير في وسطه ثقب دائري يسمى الحدقة (النّـنّـي) يتألف معظمه من الأوعية الدموية الشعرية مع بعض الخلايا ومغذى بكثير من الأعصاب الحساسة معظمها العصب الخامس ، وهو لذلك يحس بأي أثر ، ويحصـل له التهاب وإفراز شديد يؤلم المريض ويحدث للعين احمراراً شديداً والتهاباً وعدم حساسية بالضوء ، حتى إنّ المريض لا يستطيـع فتح عينيـه الاّ بصعوبة ، ويتأثر من الضوء ولا ينفعه الاّ البقاء في الظلام . ولون القزحية عسلي غامق أو عسلي فاتح كما هو مشاهد في أعين معظم المصريين ، على عكس الاجانب فعيونهم زرق . أما إذا كانت الخلايا غير ملونة بالمادة السوداء فانه يأخذ لوناً أزرق غامق أو لوناً فاتحاً تبعاً للخلايا التي به .

والحدقة مثلها كمثل ثقب آلة التصوير تتسع وتنكمش حسب الحاجة الى الضوء . فتتسع في الظلام لدخول نور أكثر ، وتنكمش في النور القوي وفي الشمس .

أما « الخزانة المقدمة » فهي فضاء بين القرنية والقزحية ، بها مادة ليمفاوية . ويلي القزحية العدسة ، وهي التي تحكم وتكيّف بصر المرئيات . والجسم الزجاجي ، وهو ما يشكو منه بعض الناس بوجود أجسام سود تتحرك أمام الحدقة بسبب وجود عتامات به . ثمّ الشبكية والعصب البصري ، وهي امتداد المخ وجزء منه ، وهي التي يرسم عليها الصورة من الخارج وتأخذ رسماً في المخ ثم تنعكس وتخرج بصورتها الطبيعية ، وهي أهم نقطة حساسة داخل العين . فاذا حدث ضمور أو التهاب ، أو حدث انفصال للشبكية ، فانّ الصورة لا تصل الى المخ ولا ترسم ، ولا تأخذ اتجاهها الطبيعي ، ومعنى ذلك فقد البصر .

الأمراض

وفيما يلي تفصيل موجز لأمراض الجفون والملتحمة والرّمد الصديدي والرمد الحبيبي والبثري والربيعي والدفتريا (أي الدفتريا الرمدية) .

***

١ – التهاب الجفون

عرفنا فيما سبق أن للجفون غدداً دمعية وشحمية ليس لها عمل إلاّ في مكان واحد وهو حافة الجفن بجوار الرموش .

ويصاب هذا الجفن بعدة أمراض ، بينها الالتهاب ، وهو نوعان : قشري ، وتقيحي .
أما القشري فانه نوع من القشرة تعلو الرموش وتسقطها وتشوّه منظر الوجه بالقشور واحمرار حافة الجفن ، وسقوط الرموش .

والنوع الثاني وهو التقيحي : عبارة عن تقيح داخل بصيلات الرموش ، وهو أشد من الأول ، لأنه يكون مصحوباً باحمرار شديد ، ويترتب عليه تقصف الرموش بل وفقدها ووجود دمامل . ويعزون إصابة الجفون بالالتهاب الى عوامل كثيرة جدّاً ، أهمها الفقر ، والعيشة في حالات غير صحيّة ، أو في جوّ يكثر فيه الدخان أو في عمل يقتضي الوقوف أمام النار مثل عمل السمكرية والحدّادين والطباخين ، وكذلك في وسط القاذورات كما يترتب عن الضعف السل ، أو يأتي أيضاً نتيجة أمراض الحصبة . ويحيط كل شعرة من شعرات الرموش مادة تقيحية فتصبح عائمة في الصديد وتظهر كأنها جملة دمامل بالرموش .

وهو كذلك مرض معدٍ كما لا يخفى ، وقد يأتي أحياناً في حالات عدم استعمال النظارات حين تكون لازمة صوناً للنظر الاستجمامي . أما علاج التهاب الجفون فهو النظافة والمطهرات أولاً وقبل كل شيء

***

٢ — الرمد الصديدي

وهذا المرض — ولا شك — معروف في جميع انحاء القطر المصري ، وبسببه تفقد العين بصرها ، إما بإصابتها بالقروح فتفقد العين بصرها تماماً ، وإما بترك عتامة كبيرة (نقطة)، أو بضمور المقلة ، أو ظهور عنبه (زر) فهو لذلك أخطر أمراض العين.

وقد تبين من الاحصاءات لهذا المرض في المستشفيات الرمدية الأميرية انه كان في سنة ١٩٠٤ يبلغ نحو ١٢ أو ١٤ في المئة . أما الآن فلا يصل إلاَّ الى حوالي ٤ أو ٥ في المئة بفضل انتشار التعليم وكثرة المستشفيات الرمدية والخصوصية علاوة على دقة العلاج ، وإنه كذلك بفضل المطهِّرات الفعالة كالبنسلين ومستخرجات السلفا وسواه ، سوف تقل نسبته كثيراً .

أسبابه وعلاجه : الرمد الصديدي ليس هو ما يصيب العين بالصديد وحده بل إنه يحدث ورماً بالجفون واحمراراً في الملتحمة « بياض العين » وهـذا الورم اما أن يكون خفيفاً أو شديداً فلا يتمكن المريض ولا الطبيب من فتح العين إلاَّ بالآلات الخاصة ثمَّ يتكوَّن الصديد بين الجفون ، ولا يمكن المريض في هذه الحالة أن يقاوم الضوء فلا يفتح عينيه، وهنا يأتي الضرر من الميكروب الذي يأكل أجزاء العين بمعنى أن القرنية هي التي تصاب أولاً .

وبما أن هذا المرض ينتج من الاهمال والوساخة ، فانه يصيب معظم العائلات الفقيرة التي تعيش عيشـة غير صحية . وهو ينتقل بسرعة بوساطة الذباب ، واللمس ، والمناشف ، والمناديل ، والمخدات ، ولعب الأطفال بعضهم مع بعض .

وتختلف درجة إصابته باختلاف الميكروب الذي يسببه ، فبعض الميكروبات تسبب قرحة بالعين بين ١٢ و ٢٤ ساعة، والبعض الآخر لا يسبب شيئاً . وتصاب العين به أحياناً، بقرحة بين سبعة أيام أو عشرة .

وميكروب الرمد الصديدي صغير جداً لا يمكن رؤيته إلا بالمجهر المكبر « الميكرسكوب » فيضاعف حجمه نحو ٩٧٠ مرة ويتبين منه أن طوله يبلغ من اثنين الى ثلاثة ملليمترات

وتتعدد ميكروبات هـذا المرض فنها ستافيلوكوكس وميكروب السيلان وجونوكوك والدفتريا وسواها وأشد تلك الميكروبات فتكاً بالعين هو ميكروب السيلان « Gonococs » فانه يفقد البصر في بعض الحالات في خلال ٢٤ ساعة

وسبب إصابة العين بالنقطة في حالة إصابتها بالرمد الصـديدي يرجع الى اهمال علاجها وتأخير فحصها طبيًّا فيشتد حينئذٍ الميكروب وتبقى مقاومة العين للمرض ضعيفة .

العـلاج : — تغسل العين المصابة بالغسيل المطهر أو بالماء النظيف ، بارداً أو دافئاً ، والمس بوساطة الطبيب ، ثم عمل حقن اللبن بوساطة الطبيب أيضاً ، بمقادير خاصة ، واستعمال حقن البنسلين ومستخرجات السلفانا وسوى ذلك .

* * *

تنبيه : من الخطأ ربط العين بالقطن كما يفعل بعض النـاس ، لأنه يحجز الصديد داخل العين ، فيتوالد الميكروب ويتكاثر الصديد داخلها ، فيصبح الضرر عظيماً .

أما الغسيل ، ولو بالماء ، فإنه يطرد الميكروب ويزيله .

العدوى : ليست هناك مناعة للوقاية من الرمد الصـديدي ، فان المريض بعد شفائه يصاب غير مرة بهذا المرض متى اتصلت به العدوى .

وقد يشفى هذا المرض أحياناً من تلقاء نفسه لأنه يستمر سبعة أيام وفي نهايتها ينقطع الصديد من نفسه ويفتح المريض عينيه وتعودان لحالتهما الأولى بعد وقت قصير — اما اذا حدثت اصابة بالقرنية فلا يمكن المريض أن يفتح عينيه بعد السبعة أيام وعنـد عرضه على الطبيب يجد أن القرحة أصابت القرنية تقريباً . ولذلك كان المعتقد قبلاً أن لا تمس العين إلا بعد سبعة أيام بحجة شفائها وحـدها فاذا وقعت الواقعة وأصيبت العين بالقرحة بعـد الأيام السبعة وعرض المريض على الطبيب وفاجأه باصابة العين بالقرحة استغرب وقوع الاصابة بالعين .

٣ — الرمد الحبيبي

هذا المرض يعرف كذلك باسم « الرمد المصري » أو « الحمية » وهو عبارة عن وجود حبيبات على الملتحمة داخل الجفون ، سواء الجفن العلوي أو السفلي ، وهو مرض معدٍ في دوريه الأول والثاني — كما سنفصله فيما بعد — ويسبب إفرازاً بالعين ولا سيما في الصباح ، كما يسبب قفل الجفون

وقد قسمه العلماء الى أربعة أقسام :

القسم الأول : عبارة عن حبيبات صغيرة تكاد تكون غير ظاهرة على الجفون ولونها أبيض يميل الى اللون الأصفر

والقسم الثاني : عبارة عن حبيبات على الجفن « follicles » وهي متعددة فمنها الصغير ومنها الكبير ، ومنها المستدير والمربع ، ومنها المبطط والسميك وسواها . والافراز يوجد بين الحبيبات أو فوق سطحها . فهو مرض معدٍ جداً .

والقسم الثالث : لا يوجد به حبيبات ، بل يكون قد حلّ محلها أثر التحام . وهو معدٍ اذا لم يكن قد تكاملت التحاماته .

وتكون أحياناً مصحوبة بحبيبات رملية ، وهذه غير معدية ، إنما يلزم اجراء عملية لها ، ولا سيما إذا كانت كبيرة وبارزة .

والقسم الرابع : يكون الجفن قد شفي من الحبيبات فيصبح « أملس » ، نظيفاً . ولا عدوى منه .

ورمد القسم الأول يشفى من نفسه بمرور الزمن ، وأحياناً يتحول الى رمد القسم الثاني ، وأحياناً يشفى بالعلاج بقطرة الزنك ، أو سلفات النحاس ، وأحياناً يكون مصحوباً بافراز وهذا الافراز قد يكون غير ظاهر ، أو معدوماً ، وقد لا يشعر به المريض إلاّ إذا وجد هذا الافراز .

أما رمد القسم الثاني فإنه أصعب الدرجات كلها ، إذ أنه يحدث السحابات والعتامات وكثرة الأوعية على القرنية ، والقروح ، والشعرة ، والافرازات وكثيراً ما يكون مصحوباً

ميكروبات تسبب الرمد الصديدي نفسه ، وأحياناً يصحبه ارتخاء في الجفون ، فتؤلم فتحة العين ، وتغطي الحدقة .

وهذا يحتاج الى المس يومياً بنترات الفضة ، ثم باجراء عملية ، ثم بالمس مدة طويلة حتى تعود حالة الجفون الى الحالة التي بسطناها في القسم الثالث ، ويغلب ظهور الشعرة اما في أثناء العلاج ، أو بعد تمامه ، مما يدعو الى سرعة اجراء عملية لها . ويسميها الفلاح : « كأس العمى » كما يسمونها « الشعرة » أو « الرفعة »

***

أما رمد القسم الثالث فيحتاج الى العلاج بالمس وسواه حسب اشارة الطبيب إلى أن يصل الى درجة القسم الرابع أي ان يكون قد وصل الى درجة « أمس »

ورمد القسم الرابع لا يحتاج الى علاج ما

وليس من الضروري أن يكون بالجفن ورم أو انتفاخ يدل على وجود الرمد الحبيبي بل بالعكس فان حالة الجفون من الظاهر تكاد تكون طبيعية

ورمد القسم الثاني ينقسم الى (ا) — ما أشرنا اليه قبلاً و (ب) — تكون حبيباته كبيرة الحجم وأكثر صلابة وتحجراً و (حـ) — كما في قسم (ا).ومصحوبة بالافرازات و(ى) — كما في قسم (ب) علاوة على افرازات قد تشبه أحياناً الرمد الصديدي

وتاريخ الرمد الصديدي والرمد الحبيبي معروف لدى قدماء المصريين ، فقد اكتشف « ايبر » — وهو من العلماء المشهورين في علم الآثار — وجود نوعي هذا الرمد في البلاد قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م ، وكتب ابقراط الطبيب اليوناني المعروف — سنة ٤٣٢ ق.م. عن مرض الشعرة وعلاجه . والعمليات . ووصف سلسس الطبيب الروماني الشهير عمليات الرمد الحبيبي ، كما وصف حالة الجفون وصفاً دقيقاً سنة ١٤ بعد الميلاد . وكذلك وصفه كاسيس فيلكس سنة ٤٤٧ بعد الميلاد أيضاً ، ووصف بيزانتين الطبيب اليوناني الشهير المرض الحبيبي سنة ٦٠٠

وقد عرفه في العهد القديم الاآله توت وكان يعتبره قدماء المصريين الـه الطب وله بحوث طبية ورمدية وتطهير ، والعلاج بسلفات النحاس « التوتيا الزرقاء » والزنك .

أما أطباء العرب فقد وصفوا عمليات الشعرة كما وصفوا الرمد الحبيبي ، بينهم عمر الموصلي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد ، والشاذلي.

ولما غزا نابليون الأراضي المصرية سنة ١٧٩٨ — ١٨٠٢ أصيب جنده بالرمدين الصديدي والحبيبي اصابات شديدة كانت سبباً في ابادتهم الى بلادهم وكانت نسبة المصابين بالعمى من بينهم كبيرة جدًّا.

وتبلغ نسبة الاصابة بالرمد الحبيبي في ريف مصر بين ٩٧ و٩٨ في المئة

وبلغت نسبتها بين تلاميذ المدارس نحو ٩٥ في المئة ثم قلت الى نحو ٩٢ في المئة نتيجة العناية التي بذلت في سبيل علاجهم .

والوقاية من الرمد هي النظافة التامة وعدم الاختلاط بالمصابين أو مصافحتهم ، أو استعمال الأدوات التي يستعملونها.

* * *

قلنا في ما سبق أن الرمد مرض مصري قديم ، وان قدماء المصريين بحثوه وعالجوه ، ونقول هنا انهم استعملوا في هذا العلاج الزنك وسلفات النحاس (التوتيا الزرقاء) — ولا تزال تستعمل الى الآن بعد ما تبينت فائدتها في علاج الرمد الحبيبي .

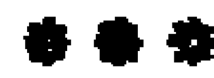
ولا علاج للرمد الحبيبي سوى القطرة في الحالات البسيطة ، ثم المس والعملية والنظافة وعلاج المضاعفات — وفي حالة وجود الشعرة ، يكون بالعملية ، وليس بلقط الرموش فانها لا تلبث ان تعود الى الظهور بعد نحو ١٥ أو عشرين يوماً .

وليست الشعرة معدية بل الرمد الحبيبي هو المعدي ، وكما أن الرمد لا يسبب ضعف النظر فكذلك المس لا يقوي البصر الا إذا كان الرمد مصحوباً بمضاعفات .

وقصر النظر شيء والرمد شيء آخر ، بل ان قصر النظر يكون طبيعيًّا مثل قصر الميوبيا Myopia وعلاجه النظارة .

ومع ان الرمد الحبيبي شديد العدوى فانه الى اليوم لم يكتشف له ميكروب خاص ولا تزال تجري البحوث للوصول الى معرفة أصله .

أما الرمد البثري وهو التهاب بسيط في الملتحمة ، فيحدث من وجود بثرات على الملتحمة (أي بياض العين) أو على حافة القرنية ، وتسبب انهمار الدموع ، وعدم مقاومة الضوء ، ويعزى سبب ذلك الى الضعف ، ولا سيما اذا وجدت مع الغدد الموجودة بالعنق وهي التي يقال أن أصلها درني ، غير أنها توجد في أشخاص سليمي البنية ، كما انها توجد في الأولاد بين سن الخامسة والخامسة عشرة .



الرمد الربيعي : والرمد الربيعي يشبه الرمد الحبيبي في درجة القسم الثاني (ب) ، وقد يصيب الملتحمة الجفنية ، والملتحمة القرنية ، وأحياناً يصيب الاثنين معاً . فاذا أصاب الملتحمة الجفنية ظنه بعض الأطباء انه رمد حبيبي ، وعالجه بالمس والعملية ، ولكن المرض في هذه الحالة يزداد سوءاً ، وهو يكون مصحوباً بأكلان وكرش بالجفون لا يقوى المريض على احتماله مهما كان الدواء الذي يستعمله .

واذا أصاب الملتحمة القرنية ، كانت حالته كحالة التهاب القرنية ، ويحصل بروز بسيط في الأوعية على سطح الملتحمة والقرنية ، ويكون هذا الالتهاب والاحمرار محدوداً أو عاماً حول القرنية .

وقد ظنّ بعض الأطباء أنّ هذا المرض يظهر في شهور الصيف ، غير أن البحوث دلّت على ظهوره صيفاً وشتاءً ، ويصاب به الرجال والنساء على السواء بين سنّ العشرين والثلاثين . والغريب ان هذا المرض قد يزول وحده أحياناً بغير علاج ولا يعود للمريض مرة ثانية . وأحياناً أخرى لا يزول بالعلاج اذ لا يلبث أن يعود الى المريض فلا يقوى على احتماله وقد أدى بحثي الى عملية تمنع بها عودته بتاتاً .

(للبحث تتمة) الدكتور عبد المسيح جرجس

طبيب العيون

التجديد
والأدب العربي

شعلة سرت من جزيرة العرب فأنارت تخوم الشرق أدانيه وأقاصيه فعمرت الرؤوس وأنطقت اللسن تلك هي لغة العرب، وقد عصفت في عصورها المحدثة ريح صرصر عاتية من مهامي الغرب فهبت على هذه الشعلة تريد أن تطفئها ولكنَّ الله حافظها وإن انزوى بصيص من شعاعها في نفر خفت هامهم مشغوفين بالمدنيـة الغربية، تلك الريح هي لغة الغرب وقد أحدثت أدباً ما عتم أن هجم من باب المدنية فشغل مناطق الناس في مجالسهم ونواديهم وبيوتهم وصحفهم وقد ركب أصحابه من رؤوس الناس يستميلونهم الى الأخذ بمعاقد هـذا الأدب السفساف والاستضاءة بلمعانه ولكنه قطع الليل المظلم. غير أن شبابنا لا يجنحون إلاّ إلى ما تستسيغه المدنية الغربية وما يتسهل عليهم الأخذ به وهو في الحق لا يتصعب في درسهم ولا يقطع من زمن لهوهم ولا يجحد ذلك أدباؤنا الذين تقصوا كتب الأدب قديمه وحديثه وتكشفوا أسرار علومه فحذقوه بعد جهد حتى كانوا أثبت في الدار من الجدار لا يتأودون عما استنفدوا فيه أعمارهم بحثاً وتنقيباً واستنهاجاً لنهج المتقدمين وإن تحقق للمحدثين الظفر والغلبة في هذه الأيام على أهل الأدب الحق القديم فكانوا أكثر عدداً وأشيع أدباً وأحظى إكباراً عند شبابنا المصري بقدر ما أوتي نصيباً من لغة العرب وله في ذلك شبه تعذر اذ قد ثبت في نفوس الشباب ذلك الميل الى التجديد وكلما قرب الانسان من المدنية ازداد حاجة الى التجديد وازداد ازدراءً بالقديم.

غير أن التجديد لا يتناول كل شيء فالدين مثلاً لا يقبـل تجديداً ولغة القرآن لا تقبل تجديداً لا في أسلوبها ولا في ألفاظها الاّ مازجً فيها من ألفاظ غيرها ما ليس له مسمى فيها وتلك ضرورة، فاللغة العربيـة لا تبقى حافظة كيانها وعظمتها إذا أقصينا لفظاً قديماً عن الاستعمال بدعوى أنه حوشي،فينسى ثم لا يكون له أثر بعد ذلك فينفرط عقد اللغة ويذهب

بهاؤها بذهاب ثروتها بألفاظها . ولاشك في قدم القرآن وعظمته لفظاً وأسلوباً ومعنى : يتداعى إلى الانحلال أمام كل أولئك بناء الأدب الحديث . ولا ريب أن في القرآن جماً من ألفاظ قد لا يستبينها حقير العلم باللغة من رجال الأدب الحديث فيتوهمها متعاظلة متنافرة، والقرآن روح اللغة وجسمها فاذا تجسم خيال التجديد في الأذهان ولعب الاغرام به في الادمغة نائياً جانباً عن القرآن والحديث وكلام القدامى من فصحاء العرب بدعوى تسولها نفوس طلاب التجديد انها ليست من الفصيح ما دامت مشحونة بألفاظ تنبو عن أفهام مراض الافهام فيعدونها سامحهم الله غريبة متعاظلة، وما دامت سياسة التعليم في بلادنا بعيدة عن أخذ النشء بالاضطلاع والتنقيب في المعاجم وأسفار الأدب القديم ثم هم لا يأخذونهم باستظهار طائفة من مرادفاتها في كل ناحية ينحوها الكاتب فيتمكن من تجويد كتابته ودفع الوصم والنقص عن لغته، وما دامت سياسة الصحفيين والقصصيين في كتاباتهم تحدوهم أن يكونوا بناحية عن أخذ القارئين بالأساليب المرتاتة عليهم، ما دام هؤلاء وأولئك يحبسون عن أقلامهم الألفاظ السوامى عن الأفهام الغضة لتعلة أنها قديمة ووعرة عليهم كان للمعلمين وللصحفيين سوء الأثر في لغة القرآن والسنة .

ومن عبث الأيام أننا نرى فئة الأدب الحديث لا يأبهون لكتابة قديمة ولا لتأليف قديم في الأدب العربي وبخاصة المنبسطة في الوجوه والعلل النحوية والصرفية وهم يكرهون ذينك الفرعين للأدب في النحو والصرف إما لمجرد انصرافهم عن القديم وإما لأنهم لم يستبطنوا قواعدها .

وقد أجمع قدامى ومحدثو رجال الأدب المحققون الا بعض من حبس بنانه للصحافة أو كتابة القصص وجنانه للتعليم أن للأدب أصولاً من الكتب القديمة يجب أن يحذقها الأديب وأكثرهم خصص منها الكامل لمحمد بن يزيد المبرد، وأدب الكاتب لأبي محمد بن عبد الله ابن قتيبة، والبيان والتبيين لأبي عثمان عمر الجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي البغدادي، وجعلوها أصول هذا الفن وأركانه وما سواهن تبع لها متفرع عنها وكلها مفرطة في قواعد النحو مشحونة بتصاريف الصرف مترعة بأبحاث لغوية يستدل منها في كثير من نقد أبيات لمختلف الشعراء في مختلف العصور لم يسلك فيها ناظروها مسلكاً مأمون النقد والكمال لله وحده ،

وهؤلاء يرون أن أصول مباحثهم هذه وبخاصة النحو وهو عماد جُمل الكلام وتوثيق ربطه وقوام المعاني فلا يستقيم معنى لكاتب إلاَّ بمعرفته وأن الآخذين بمعاقد الكتابة ولا أخالهم ينكرون ما يعلمون أن النحو والصرف قد ذهبت بهما أهواء مبغضيهما في دور الصحافة والتعليم وجو التأليف القصصي ببلادنا مع حفظ ما يقف عنده العلم الصحيح ببروز من حذَّقتهم معارفهم وتحررت أقلامهم فلهم في نفوسنا من الاعتراف بما أوتوا نصيباً موفوراً من فضل على الأدب والكاتبين وأولئكم أبعد من أن يروا ما يرى بعض الكتاب أنهما لا تستوجبهما الكتابة ولا تستدعيهما صناعة الأدب وحسب الكاتب من النحو والصرف القدر الطفيف المقرر في كتب الدراسات المدرسية على إن كثيراً من أبوابهما لا يحتاج إليه الكاتب وإننا نرى وليس ينكر أحد ما نرى أن بين الصحفيين وطلاَّب المدارس من يجنح في كتاباته الى سخف التركيب هروباً من تركيب يوضحه الاعراب وهم بعيدون عنه . ومما يقضي منه العجب انَّ من القوّامين على التعاليم في مدارسنا من يرى أن هذه الكتب التي ذكرنا منها جانباً وما نهج نهجها قبور من الأوراق لا يصح أن تعد من آلات الأدب العصري ولا تقع من معارف الأدباء فيجب أن تهمل إهمالاً أو تمحق من الوجود محقاً ليكون النشء بنجوة عن اضطراب عقله لأنها تكاد تطمس منه أدباً أخذه به معلموه وتذهب من خصائصه مقوّماته التي روّضوه عليها بما يلائم عصره وهذا قليل من كثير يلهج به معلمونا وصحفيونا . ولا أراني ملوماً إن قلت إن لغة العرب تذبح على هيا كل العسف برأى ومسمع من أولئك القوّامين عليها وهم الذين كشف الله عن بصيرتهم في دركها وتكشف أسرارها ولا يؤخذ عليّ ان قلت إنّ المصيبة لهذه اللغة إذا ضاعت في رجالها ذهب بهاؤهم وتداعت عظمتهم ولا يداخلني شك في أن أدباءنا كالعقاد والزيات والمازني والجارم وزكي مبارك ودريني خشبة وطه حسين وغير أولئك ممن برزوا في ميدانها عالة على الأمة وجناية على اللغة في بلد عربي إذ لا حاجة لأدبهم ما دامت اللغة في قبضة الموت وهم رجال لم يبلغوا ما بلغوا من سموّ المقام إلاَّ بما أوتوا نصيباً موفوراً من أسرارها وحلقوا في جوّ دقائقها من أصول وفروع ، لذلك لا يسأل في أمتنا غير أدبائنا وعلمائنا في اللغة أمام الله عن لغة كتابه وأمام الأمة عن لغة قوميتها وتلقاء الضمير عما قلدتهم الأمة زعامتها ، تلك الأمانة التي يجب أن يؤدوها بالمحافظة عليها من أيدي العابثين المغرورين الذين يعملون جهدهم اليوم لاستبدال غيرها بها ، فاللغة قوام معلومات أمتهم وداعية ثقافتها وسر عظمتها ، وربما كانت أصل بقائها في هذا الوجود .

وإلى هنا أستوقف القلم .

محمد توفيق عزت

كيف يتكلم الموتى

للعلامة الروحي الشهير شو دزموند

يسألني أولئك الذين لا تفوتهم الدعابة أبداً : وما فائدة الكلام مع الموتى ؟ هل هم يا ترى يعرفون أكثر مما نعرف ؟ هل هم دائماً خير منا وأعقل ؟ » .

إنه بقطع النظر عن العزاء الناجم عن مخاطبة من أفقدنا الموت إياهم مؤقتاً فإننا أحياناً نتصل بالأرواح العلوية الكبرى . وهذا الى أن حرماننا أنفسنا من مصادر عوالم الروح ومواردها الواسعة حماقة تشبه حماقة حرماننا أنفسنا من مصادر عوالم الدين ومواردها — ولست أقصد بالطبع من الدين تلك العقائد التي يخترعها البعض .

وعدا هذا فإن جماعة الأرواح المتوسطي الحال الذين يتصلون بنا ليسوا أحجى منا نحن سكان الأرض — إنهم أحياناً يكونون أقل منا حجى . والواقع أن كثيراً من الأحاديث العادية من عالم الموتى قد يكون من الخير ألا نذكرها . ولا شيء يزيف ويفسد أكثر من التصديق الساذج لكل شيء تتضمنه هذه الأحاديث ، ومن جهة أخرى لا شيء يساعد المحزون وينعشه كبعض هذه الأحاديث .

وقد يظن قرائي أني حين أقول إني كلمت الموتى ورأيتهم أن في الأمر خداعاً . ولكن لا خداع البتة ، فأمامي سجلات ومدونات عن ١٨١ جلسة من جلساتي الخاصة مع الموتى ، وأعرف ألوف الجلسات غيرها ، وفي هذه المدونات التي تدون خلال تلك الجلسات أو عقب فضها مباشرة نجد الأحاديث مع الموتى وقد سجلت بطريقة الاختزال كما سمعت ، كما ذكرت كذلك الأماكن والأسماء ودرجات الحرارة وكثير من التفصيلات الأخرى . وقد عقدت هذه الجلسات الـ ١٨١ تحت رقابة شديدة . فالأبواب مغلقة ومحروسة ، وفي بعض الجلسات كان يحضر رجال العلم ، وكذلك كان يحضرها أناس يعرفون « الموتى المتكلمين » كل المعرفة حينما كانوا « أحياء » فكانوا يساعدون على تحقيق التفصيلات الدقيقة الخاصة بهؤلاء الذين نسميهم موتى .

ولا عجب إذا رأينا علماء عالميين من أمثال الأساتذة بوزانو وريشيه ولاركن ، والأخير هو مدير مرصد لاو Lowe بكاليفورنيا ، قد اضطروا في النهاية لقبول كل النتائج الرئيسية في هذا الصدد ، وكثيرون منهم حاربوا البينات المقدمة سنين طويلة ، ولكن صدق هذه البينات ومتانتها قد أقنعتاهم بأن الإنسان يتمتع بالحياة بعد ذلك الموت الجسماني . وقد ذكرت في مؤلفاتي الكثيرة أسماء كثيرين من أمثال هؤلاء العلماء .

وهنا أقول لقرائي الذين يقرأون كلماتي هذه إنهم غير مجبرين على تصديق ما يصدقه هؤلاء الناس اذا لم يتبينوا ذلك هم أنفسهم . ومهمتي هنا أن أدلهم كيف يتبينونه ويثبتونه . فكيف يكون ذلك ؟ .

حينما تكلمت مباشرةً مع صديقي تمبل ثرستون كاتب الروايات التمثيلية ومؤلف رواية « اليهودي التائه » لم أستمع إليه وهو يحدثني بصوت الوسيط ، ولكنه كلمني من الهواء مباشرةً أمام عدد كبير من الناس ، وحينما سألته تحقيق شخصيته أدلى إليّ بالإسم الذي كنت أنا وحدي أناديه به وهو على الأرض .

ودخل سير ارثر كونان دويل الكاتب الشهير الذي ألف روايات شرلوك هولمز والروحي اللبق الدقيق بعد وفاته بقليل حجرة التحضير ليناقشني في بعض روايات تمثيلية كنت أكتبها إذ ذاك . ولكي يثبت لي أنه هو كونان دويل حين تحديثه ، ذكر لي المكان الذي احتمينا فيه أنا وهو في مدخل بيت مقابل لمحطة فكتوريا بلندن .

وتحدث أمامي ممثلون انتقلوا الى عالم الروح منهم نيلسون تري ورودولف فالنتينو أحاديث طويلة مع أقاربهم وصحبهم ، وكان ذلك في المعمل الذي نسميه « حجرة التحضير » وقد بعثوا برسائل هامة من الجانب الثاني وكانت رسائل سديدة منسقة اعترف متلقوها بصحة محتوياتها .

وقد يسر قرائي أن يعرفوا أن رودولف في العالم الثاني ما زال يتابع عمله الفني ، فهناك في عالم الروح توجد المسارح ودور السينما والمدارس والمعابد .

وإذن فما هي الآلة التي بها يتواصل الموتى مع الأحياء ؟

فأولاً يجب أن تعلم أنهم يعملون ما نعمله نحن حين نريد التكلم عن بعد مع صديق لنا، إنهم يستعملون نوعاً من تليفون يسمونه « صندوق الصوت » ويستطيع أصحاب الجلاء البصري رؤيته .

ولكن قد تسألني « وما هو صاحب الجلاء البصري ؟ » .

صاحب الجلاء البصري ذكراً كان أم أنثى هو الشخص الذي له قدرة على ما يسمى رؤية غير المنظور أو الرؤية عن بعد . ولصاحب الجلاء البصري والسمعي عيون وآذان من الحساسية بحيث ترى وتسمع ما لا يراه ولا يسمعه الشخص العادي لأنه لا يستطيع « التقاط » الاهتزازات .

نحن كلنا أجهزة راديو لا أكثر ولا أقل ، فمن الحقائق العلمية أن الانسان العادي يسمع من الأصوات ويرى من المشاهد التي تحيط به جزءاً صغيراً . والوطاويط مثلاً تصدر عنها طيلة طيرانها أصوات نفاذة مرتفعة الدرجة ولكننا لا نسمعها لأن آذاننا لا تستطيع « التقاط » الصوت . فأصحاب الجلاءين البصري والسمعي يستطيعون فعلاً أن يروا العالم الثاني ويسمعوه ، فهم يسمعون الموتى الأحياء أبداً يتكلمون ويرونهم يغدون ويروحون . وقد رأى ألوف من الناس الوسيطة الكبيرة استيل روبرتس فوق منصة قاعة ألبرت ،وقاعة كوين وهي تصف في دقة وصدق أقوال الموتى وأعمالهم وقد أحاطوا بها فوق المنصة .

وأنا نفسي رأيت وسمعت أقاربي الموتى في بهرة الضوء ، ولكني مع ذلك لا أدعي أني من ذوي الجلاءين البصري والسمعي . وقد سمع أولئك الموتى كثيرون من الناس في نفس الحجرة .

يمكن سماع « الصوت المباشر » للميت خارجاً من الهواء، ولقد سمعنا ثلاثة أصوات تتكلم في وقت واحد في أجزاء متفرقة من الحجرة . والصوت المباشر هو الصوت الحقيقي للميت ، وهو يُسمع كما كان يسمع صوته فوق الأرض قبل مماته ويمكن تبينه على الفور .

وأحياناً يتكلم الميت — ذكراً كان أم أنثى — خلال حنجرة الوسيط الذي يكون واقعاً إذ ذاك في الغيبوبة ، وقد يكون الوسيط في بعض الأحيان واعياً . ولكن سواء أكان هذا أم ذاك فلا بد من وجود وسيط كما لا بد في حالة الراديو من وجود بطارية (أو تيار) . فالوسيط بالاختصار — ذكراً كان أم أنثى — بمثابة تليفون بعيد المدى أو راديو . ونحن هنا على الأرض لا نستطيع استعمال جهاز التليفون أو الراديو دون كهربائية .

***

ولنتجه بعد ذلك الى حجرات التواصل أو معامله في الجانب الآخر من القبر ، والى من فيها من الناس لنعرف ما يفعلون وكيف يفعلون .

ففي غرفة التحضير في دنيانا نجد عادةً (ا) وسيطاً أو بطارية القوة جالساً فوق كرسيه ذكراً كان أم انثى ، فاذا كان وسيطاً للغيبوبة فانه يعد نفسه للوقوع فيها ، واذا لم يكن وسيط غيبوبة فهو يجلس بارادته واعياً ولكن ساكتاً .. (ب) ونجد « الجالسين » أو الزائرين وقد يبلغ عددهم من ستة الى خمسين (حـ) واولئك المكلفين بحراسة الباب المغلق (ى) وبعض العاملين الذين يحضرون ومعهم آلات التصوير وغيرها .

ويكون في الحجرة عادةً فونوغراف لأن الموسيقى تساعد مساعدة عظمى على ترنيم الاهتزاز بين عالمي الأحياء والموتى ، وذلك برغم ان الموسيقى توقف حينما تجيء الأرواح لتتكلم .

وأما في الحجرة التي في العالم الثاني فيوجد كما تقول الأرواح وأيدهم ذوو الجلاءين البصري والسمعي (ا) الروح المرشد أو الروح المهيمن ، وهذا عادةً يكون روحاً سامي العقل مرهف العاطفة . (ب) ومع هذا الروح جلساؤه من الأرواح وهم أولئك الموتى الراغبون في التكلم مع الأحياء — والواقع انه لا موت لأن الجميع أحياء . (حـ) حراس الأبواب من الأرواح وهم المراقبون الذين يمنعون في عالم الروح تدخل الأرواح الشريرة أو الماجنة الكذبة الأدعياء كما يمنع رجال الشرطة فوق الأرض مخالفي النظام في الاجتماعات العامة أو الشوارع و (ى) الصندوق الصوتي الذي يشبه في تأثيره كشك التليفون الذي يدخل فيه الموتى الراغبون في الكلام ، وهذا يستلزم مراناً .

ويحمل تليفوننا الأرضي صوتنا الآدمي الهزيل الى أقاصي الأرض بأجهزة التجديد والتكبير كما هو الحال مع الميكروفون فيستطيع المستمع في استراليا مثلاً التقاط الصوت . ويعمل « الصندوق الصوتي » نفس العمل ولكن بتخفيض درجة اهتزازات صوت الروح المتكلم حتى تستطيع الأذن الأرضية المنخفضة درجة الاهتزاز ان تلتقطه وتفهمه . وأذكر قرائي مرة أخرى ان « الصوت المباشر » يمكن أن يسمع من كل الموجودين في قاعة كبرى .

* * *

وقد حدث أخيراً أن أقيمت اجتماعات عامة في القاعات العامة في انجلترا حضرها مايزيد على الألف ، وخطب المجتمعين « موتى » بأصواتهم المباشرة . وكان من بين هؤلاء « الموتى » الخطباء ازلي هوارد والين تري والعلامة أوليفر لودج .

ترجمة

احمد فهمي ابو الخير



نظرية الذرّة



إن فكرة تكوين المادة من ذريرات صغيرة جدًّا ، على اختلاف أنواعها وترتيبها بهيئات مختلفات تظهر بها هذه المادة، كانت فكرة مرتبكة على زمن فلاسفة قدماء اليونان الذين نجد شرحاً وافياً عن أعمالهم في كتاب « درس التركيب الكيمياوي » تأليف السيدة المتوفية « فروبند » . وكيفما كان فان نظريات تركيب أو تكوين المادة لم تكن في العالم القديم إلاّ تصورات أو بالأحرى تخمينات غير مبنية على البرهان العملي : إننا لا نسمي العجوز الانكليزية المتنبئة مخترعة السيارة لأنها تنبأت أن سيأتي زمن تسير فيه العربات بلا خيل ، كما أننا لا نعتبر فلاسفة قدماء اليونان مخترعي نظرية الذرة ، فان الذي يستحق هذا اللقب الرفيع هو « جون دالتن » الذي ولد عام ١٧٦٦ وتوفي عام ١٨٤٤ للميلاد.

كان دالتن استاذاً في احدى المدارس ، وكان مولده في إيكلزفيلد في مقاطعة كمبرلند ، وقد درس علوم الآداب مثل جميع تلاميذ عصره ودرس شيئاً من العلوم الرياضية ، ولا بد أنه بوساطة هذه الآراء العلمية قد فهم شيئاً عن تركيب المادة وأطال البحث عندها واطلع على آراء نيوتن بهذا الشأن ، وأخيراً هذب النظرية ووضعها في قالب شرح فيه بعض الحقائق التي كانت معلومة وأثبت ذلك بالبرهان العملي الإيجابي أو السلبي الجزئي ان لم يكن الكلي. ومن الضروري أن نلاحظ أن « دالتن » لم يصل الى نظرية الذرّة بوساطة عمليات أجراها بل وصل الى ذلك بالتفكير في إيجاد النظرية أولاً ثم في اجراء التجارب لامتحانها وإثباتها .

لقد بنى دالتن أهم نقاط نظرية الذرّة على ما يأتي :

أولاً — تتألف المادة من عدد كبير من الذريرات التي تسمى بالذرات (معنى كلمة ذرّة غير قابل القسمة وسميت الذريرات بذلك لأنها اعتبرت غير قابلة القسمة ، كما هي الحالة في الجزيئات . إن الذرّات المركّبة من المركّبات لدى القسمة ، بلا شك تنقسم الى ذرّات جزئية وبهذا المعنى نرى أن الذرّة المركبة أيضاً قابلة القسمة أو هي على الأقل أصغر قطعة في المركب الذي يمكن أن نراه) .

ثانياً — إن جميع الذرّات ذوات الجزء متشابهة في جميع الأحوال ومختلفة كل الاختلاف عن الجزيئات الأخرى .

ثالثاً — الذرّات غير قابلة الائتلاف ، وغير ممكن تكوينها أو خلقها .

رابعاً — يحصل التركيب في تكوين أو تأليف المركّب بين الوحدات الصغيرة من اعداد ذرّات الجزء المكوّن .

خامساً — ان جميع الذرّات المركّبة في المركّب متشابهة كل التشابه .

من هذه القواعد (Postulates) لا يمكن الوصول الى النتائج التي يمكن اختبارها بوساطة التجارب مع علمنا انه قد مضى على هذه القواعد زمن لم تكن فيه شيئاً مذكوراً . هذا يجعل في الحال نظرية الذرات مبنية على أساس علمي متين ، ويبرهن هذا على صدق هذه النظرية : لا تنفع النظرية العلمية إلاّ إذا صح اختبارها عملياً ، إما رأساً أو بالوساطة ، ورغماً عن هذه الحقيقة التي لا ريب فيها نجد ان كثيراً من النظريات التي لم تختبر لا تزال يُرتأى بها مذكورة .

إن أول ما يستنتج من نظرية الذرّة يسمى « بقانون التركيب الثابت » يعني ان عين المركب الكيمياوي يتألف دائماً من عين الجزيئات المزوجة بمقدار ثابت الأوزان — ويستنتج هذا من نقاط نظرية الذرة ٢ ، ٤ ، ٥ المذكورة سابقاً . ولما كان هذا أول قانون نصادفه في علم الكيمياء وجب علينا ان نعرف تمام المعرفة ماذا يقصد بكلمة قانون في هذا الموضوع : لهذه الكلمة معنى خلاف المعنى الموجود في جملة « قانون الجزاء » . ومن العبث أن يظن انه إلى زمن « دالتن » كانت التراكيب الكيمياوية لا يجري عليها قانون ، وان الماء مثلاً كان يحتمل ان يتركب تارةً من القصدير والرصاص إذا أُريد ذلك ، وأخرى من الهيدروجين والاكسجين . وليس من المعقول أيضاً أن نتصور مجازاة المركب الكيمياوي إذا خالف قانون التركيب الثابت (مع ان كثيراً من الكيميائيين في منتصف القرن التاسع عشر كانوا يودون من صميم قلوبهم ان يحكموا على الـ Nitrice Oxid إما بالاعدام أو بالأعمال الشاقة لانه لم يطع قانون الأعداد المزدوجة) .

لقد عرفنا إذن ما ليس بالقانون الكيمياوي وقد بقي علينا أن نقر ما هو القانون الكيميائي ، وهذا سهل جدّاً إذا أخذنا مثالاً بسيطاً . القانون الطبيعي ان لكل إنسان عينين ، وهذا لا يمنع الانسان من قلع عينه إذا لم يوافقه هذا القانون ، كما انه لا يمنعه من ان يحمل عيناً ثالثة زجاجية في جيبه ، وحقيقة ان للانسان عيناً ثالثة في قفه أو أعلى رأسه كما خبرنا عنها علماء الحيوان : ومما تقدم يتضح لنا انه من البديهي أو الطبيعي ان يكون

لكل انسان عينان وهذا اختصار في الاختبار التجربي وهو ينطبق كل الانطباق على القوانين الكيميائية ومعنى قانون « التركيب الثابت » انه لم يكتشف للوقت الحاضر مركب مختلف التركيب ، ولو وجدت هذه المركبات لاختفى القانون — ومن هنا نرى الفرق بين قانون الجزاء والقانون الكيميائي : فلو حكم على انسان بغرامة مقدارها جنيه واحد لتركه كلباً يتجول في الأسواق نجد انه لا يحصل للقانون بعد ذلك أدنى ضرر .

لنبحث الآن عن العلاقة بين قانون التركيب الثابت ونظرية دالتن في الذرة : حقيقة الأمر انه اذا صدقت النظرية فيكون من المعاهد ان كل ما يتألف منه المركب الكيميائي يجب أن يكون دائماً ثابتاً . هل من الضروري إذا وجدنا بوساطة التجربة أن ما يتألف منه المركب الكيميائي هو ثابت وهل نظرية الذرة حقيقية ؟ فلو فكرنا قليلاً نجد أن هذا غير صحيح وقليل من التروي يجعلنا نعتقد ان ذلك ليس كذلك كما هو الواقع : لنفرض أن رجلاً كان مسافراً في القطار ، ومن هذا يمكننا أن نتصور نظرية السفر عليه . فننتظر بالطبع أن يأتي الرجل الى المحطة ويشتري تذكرة السفر وان يأتي قبل قيام القطار وان يسرع اذا كان متأخراً وان يحمل معه حقيبة . ولنفرض الآن اننا نرى رجلاً آخر سائراً الى جهة المحطة فهل نستنتج من ذلك أنه سيسافر في القطار ؟ لا شك : لا . فلربما ذهب هذا الرجل ليقابل صديقاً له أو ليطالب بثمن ما أتلف له من البضاعة أو لغير ذلك من الأسباب، الا أن ذهابه نحو المحطة ينطبق على نظرية ذهابه بالقطار ولكن لا يثبت ذلك . لنفرض أن الرجل كان يركض وكان قد قرب وقت قيام القطار وكان يحمل حقيبة وذهب الى مكتب صرف التذاكر ليشتري تذكرة السفر فهل تثبت النظرية الآن ؟ كلا . فلربما كان الرجل مأجوراً من قبل أحد أصحاب الصور المتحركة على ذلك العمل أو كان معتوهاً ، ولا نتأكد حقيقة ذهابه بالقطار الا إذا رأيناه يصعد اليه ويتخذ له مكاناً فيه : فهذا يثبت سفره ويجعل هذه النظرية أصح من نظرية صاحب الصور المتحركة أو نظرية المعتوه وتقبل هذه النظرية لعدم وجود الاثبات الكافي للنظريتين الأخريين .

هذه تماماً عين الحالة التي وجدت فيها « نظرية الذرة » في القرن التاسع عشر ، فلا أحد رأى الرجل يصعد الى القطار ويسافر فيه مع أن البرهان كان في الحقيقة قوياً ، ولم توجد شهود الحال حتى في أول منى القرن الحاضر .

يافا — فلسطين شريف النشاشيبي

عالم الدماغ

شعر علمي فلسفي

الرأس يُحسب سيد البدن · فيه الدماغ الواضع السُّنن
ملكٌ محتمة أوامره · ما كان في سرٍّ وفي علن
والجسم مملكةٌ منظمةٌ · أحكامها محدودة الوطن
وجنودها الأعصاب حارسة · أطرافها المحصاة في مدن
والعقل عدتها وعاملها المسـ · ـؤول عن قبحٍ وعن حسن
ما العقل غير تفاعل بخلا · يا المخ إذ تصحو من الوسن
قالوا الجمال محرّض لهوى الـ · ـقلب الذي ان يستحب فني
والعين تختلق الجمال اذا · ما أبصرت بدراً على فنن
والقلب يشكو العين أن بصرت · والعين تشكوه كمفتتن
كل بسحر الحب متَّهم · من منهما سحر الغرامُ مَنِ ؟

***

في العقل لا في القلب علته · ما العين الاّ علة الفتن
في بؤرة في المخ مركزه · يملي شعور الطهر والدرن
وتحضُّه فيه غريزته · أن يستحب مشيقة الغصن
تطفو العواطف في الفؤاد اذا · هاج الجوى أشواق ذي شجن
كلاّ فما في القلب عاطفةٌ · إن العواطف في الحجى الفطن
في اللبّ كل سريرة نشأت · تنحاز بين الود والضغن
اللبُّ مصدر كل باعثةٍ · للخير أو للشر والظنن
أما المشاعر فهي عدته · وصل المنى والحظ والمنن

تجري بها الآمال منقلة · بالشوق والآلام والمحن
أو بالشعور توزعته يد الـــشهوات والأفراح والحزن
الـكرب والبرحا وكل أسى هي في النخام وليس في البدن
والحسن والطرب الرخيم هما في النفس لا في العين والأذن
ما المرء الا العقل مبتكراً أحداثه والجسم للسكن
هو لعبة الأقدار تنفضه فيميل بين الله والوثن
فتلاطمت فـكر الأنام بها كتلاطم الأمواج والسفن
وتضاربت فيها رغائبهم كتضارب الأسياف والجنن[1]
يبغي السخيف منى فتمحقها من دونه أمنية الركن
فيمَ اختلاف الناس في سخف ولِمَ اختلاف الناس في الفطن
ولِمَ اختلافهم بفطرتهم ولِمَ اختلاف الشكل والسحن
وهم بنو حوا وآدمها ودماؤهم دم شكلها الحسن
لا بل بنو الأرض التي اختلفت ذراتها بالجذب والوهن
لا تعذل النزعات مرغمةً لمْ ما لدى الأكوان من سنن
المرء غير مخير فإذن بيد الطبيعة مقبض الرسن
ما العقل حراً في تصرفه هو تحت أمر حوادث الزمن
داووا المسيء ولا اختيار له والدرة الرعناء لم تُـدَن
هذي الطبيعة لا قياد لها تمضي بلا رشدٍ ولا فطن
من ظلم ذي الدنيا وما عقلت ان الجماد سطا على الذهن

نقولا الحداد

---

(١) جمع جنة وهي الترس

شوقي وحافظ

عاشا يتردَّد اسماهما معاً زمناً ، تعترض حياتهما عواصف تنافسٍ أحياناً ، وتمرُّ بهما نسمات صفاءٍ أحياناً أُخَر ، ولكنهما يشعران أنهما مكمِّلان بعضهما بعضاً في أداء رسالة واحدة . وجَّهتهما الى طريقها عرائس الشعر وطبيعة العصر .

وماتا في عامٍ واحد ، بل لم تستوفِ الشهور الثلاثة تمامها بعد وفاة حافظ حتى كان شوقي قد انتقل إلى جوار ربِّه بعد أن رثى رفيق جهاده الشعريّ بأروع مراثيه ، وذلك منذ خمسة عشر عاماً ، كأنهما شعرا أنهما أدَّيا رسالتهما ولن يستطيع واحد منهما أن ينهض بعد الآخر بعبء تلك الرسالة وحده بعد هذا الجهاد الطويل .

ولقد ترك كلٌّ منهما أثره في جيله ، كما ترك ذلك الجيلُ أثره في شعرهما بحسب طبيعة كل منهما .

قضى شوقي زهرة حياته ناعم البال فكان لذلك أثرٌ كبير في شعره الأول وفيما حفلت به دواوينه في تلك الحقبة حتى اختلفت الأيام وتغيرت عليه فأُبعد عن مصر ، وهنا انتقل شعره نقلةً أخرى ، وتأثر بمؤثرات أخرى .

أما حافظ فقد قضى زهرة حياته على غير ما قضاها شوقي ، محروماً من أهله وعشيرته ثم محروماً من التقدير حتى استطاع أن يشقَّ طريقه . وقد وجد حافظ الطريق التي كان يريد سلوكها الى القصر محفوفة بالعراقيل على حين هيِّئت لشوقي ، فاتّجه ببصره ناحية الشعب ، وكان لهذا الاتجاه أثرٌ بارزٌ في شعره مال به الى التعلُّق باللفظ المؤثر القريب دون المعنى المبتكر البعيد ليصل صوته الى أسماع الناس في حين اهتمّ شوقي بالمعاني مع عنايته بالجري وراء الغريب من اللفظ .



حافظ ابراهيم بك



أحمد شوقي بك

ولقد واتت شوقيًّا الظروف فتهيأت له ثقافة عالية واطلاع بعيد على حوادث التاريخ، وأكسبته رحلاته وعلاقاته برجال القصر ومعرفته بأساليب السياسة ومداوراتها وتياراتها، ما لم يتهيأ لحافظ حيث شغلته حياته عن كسب المعرفة الواسعة إلا فيما كان خاصًّا بالأدب العربي من مطالعاته في أمهات الكتب العربية فاكتسب محصولاً وافراً من فصيح القول ومفردات اللغة اختزنها عقله الباطن وكان يعدُّه بها بين حين وحين، ومن ذلك تبدو ديباجة حافظ قوية منذ نشأته الشعرية عن ديباجة شوقي في بعض قصائده الأولى. لذلك اصطنع شوقي لنفسه طريقته في اختيار الكلمات الغريبة المهجورة، كما قدّمنا، ليغطي هذا النقص.

***

على أنّ موسيقى شوقي التي وُهبها كانت أقوى رنيناً من موسيقى حافظ، ولذلك نجد الألفاظ العويصة التي كان يلجأ شوقي إليها كما يلجأ المترف الثريُّ الى اقتناء التحف القديمة تُصْهَرُ في بوتقة هذه الموسيقى القوية فتتحول الى حركة بعد جمود، وحيوية بعد موات. ومن هذا كان شعره أميل الى الغناء من شعر حافظ حتى أنَّ مراثيه لم تخلُ من موسيقى تجنح الى الرنين الراقص مما قد لا يتفق مع المناسبة كما في مرثيته لعلي أبي الفتوح.

غير أن شوقيًّا ظلّ يقوّي ديباجته لتتفق مع قوّة معانيه وأخيلته في حين لم يُعْنَ حافظ بالمعاني ليزيد ديباجته قوّةً فتأخر عن شوقي في كثير من ضروب القول.

***

واستطاع شوقي أن يأخذ من آثار ثقافته لشعره ما ساعده على التفرُّد بالناحية التاريخية العجيبة في شعره، والحكمة التي كان يبثها في ثنايا قصائده. وظهر أثر هذه الثقافات في أخريات حياته حيث اتجه اتجاهاً جديداً نحو فن جديد، هو الفنّ القصصيُّ الشعريّ.

أما حافظ فكانت ثقافته العربية، وظروفه الخاصة، حائلاً دون الالتفات الى ابتكار جديد، وإن كان هناك نزوعٌ في نفسه الى شيء من هذا بدا في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشعر:

ضِعْتَ بين النُّهى وبين الخيالِ يا حكيم النفوس يابن المعالي
ضعتَ في الشرق بين قوم هجودٍ لم يفيقوا وأمةٍ مكسالِ

قد أذالوك بين أُنسٍ وكأسٍ وغرامٍ بظبيةٍ وغزالِ
ونسيبٍ ومدحةٍ وهجاءٍ ورثاءٍ وفتنةٍ وضلالِ

الى أن يقول :

آنَ يا شعر أن تفكّ قيوداً قيّدتنا بها دعاة المحالِ
فارفعوا هذه الكمائم عنّا ودعونا نشمّ ريح الشمالِ

فهذه الرغبة لم تكد تظهر في نفس حافظ حتى خبت لأنها لم تجد لها من عزيمته ما يدفعه إلى تغيير أساليب كتابته وموضوعات شعره ومحاولة تجديدها ، بل ظل يتناول ما كان يتناوله هو ويتناوله غيره من الشعراء ، وكان في استطاعته أن يجعل لهذه الثورة في نفسه أثراً في شعره ، ولكنه لم يفعل ، ولعله حاول ولم تسعفهُ مواهبه — كما أسعفت مطرانا — فوقف دون تقدم ، ولكن شوقيًّا حاول ، ولم يثنه شيءٌ ، ولم يحُلْ النقد الذي وجّه اليه دون المضيّ في سبيله ولم يستطع صَرْفَهُ عن محاولاته .

وكانت طبيعة شوقي التي تساعده على نظم الشعر حيث وجُد من أسباب الأخذ بكثير من الألوان الجديدة لشعره في حين كانت طبيعة حافظ التي تؤثر الخلوة ، وتؤثر اللفظ على المعنى لم تهيئ له الوقوع على المعاني العابرة بالعين التي يقع عليها شوقي الذي لا تقف الحركة والضجيج دون تهيُّؤه للقول . وفي هذا دليل آخر على سرعة التأثر والحساسية عند شوقي عنها عند حافظ .

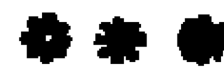
* * *

غير أن شعر حافظ كان أقرب الى التعبير عن آلام المصريين وآمالهم من شعر شوقي الذي كانت عواطفه متجهة نحو العثمانيين تبعاً للسياسة التي كانت غالبة وقتئذ والظروف التي أحاطت به والإحساس بانتسابه اليهم ، فكان شعر حافظ السياسيُّ صدى صوت مصر ، ينطق بعواطفها ويتجاوب مع صيحاتها . وكانت لحافظ جرأةٌ في تناول تلك الموضوعات لم تتهيأ لشوقي مثلها ، وهو الرجل الذي يجاري التيار الموافق لسياسة القصر وقتئذ .

على ان مجالس حافظ المرحة ورغبته في تقوية ملكة الدعابة والظُّرف في نفسه ليستطيع الوصول الى ما كان يتمنى من مجالس العظماء والكبراء كان لها أثرٌ بارزٌ في شعره حتى الوطني

منه، فقد كان يميل الى التفكه والتندُّر كما يتجلى في بعض قصائده التي وجّهها الى كرومر على أثر حوادث دنشواي وإلى مندوب بريطانيا الذي خلفه وغير ذلك . في حين كانت الحكمة تغلب على شعر شوقي إذا مسّ موضوعات كهذه لأنه لم تكن له مثل روح حافظ المرح الطروب الظريف ، ولأن حياة القصر لوّنته بكثير من ألوان القيد والتحرُّز ، فكان أميل الى الحكمة كما كان أميل الى المداراة . ومن ذلك لم تلقَ قصائده بين الشعب ما لقيت قصائد حافظ . ومن يستمع الى فكاهات حافظ ونوادره يجد فيها من الحكمة ما كان جديراً بأن يزخر بها شعره ، ولكنها كانت تجد المتنفس لها في تلك النوادر في حين تجد الباب موصداً أمامها في شعره إلاّ في النادر .

بيد أن هناك جانباً من شعر حافظ يهزُّ من عظمة شعره السياسي ويسيء الى وطنيته التي كانت تحفزه قبل ذلك الى التعبير عن آلام المصريين ، وهي تلك القصيدة التي وجّهها الى السلطان حسين يدعوه فيها الى التعاون مع الانجليز ، وكذلك قصائده التي كان يوجّهها الى مندوب بريطانيا في مصر وكان جديراً بحافظ أن يكون أكثر وطنية وشعوراً بالإباء أو يسكت اذ لم يجد مجالاً للقول ، ولا يُحتج بأن الظروف كانت تدعو — وقتئذٍ — الى مثل هذا القول ، لأن له من شعره السابق الذي وجهه الى ايطاليا والى دول الغرب ما كان جديراً بأن يملك عليه كل السبل فلا يفرّ الى طريق معوجة لا يسلم فيها من الشطط .



وقد استطاع شوقي بعد عودته من المنفى أن يتشرّب روح الشعب وأن يشاركه في عواطفه وميوله ، ويعالج هذه الناحية فوُفّق في ذلك ، وبرز شعره من تلك الآونة الى آخر حياته معبراً عن آمال مصر وآلامها وبخاصة في ظروفها الأخيرة ، بل لم يقف به الأمر عند تناول الحوادث في مصر ، فتجاوز هذا الأفق الى حوادث الشرق يستلهمها فكان المترجم عن مشاعر الشرقيين ، وانتهز فرصة سكوت زميله فأطلق لخياله العنان وارتاد بفنّه نواحي متعددة من سياسية واجتماعية فأحسن فيها القول وأجاد ، على حين استسلم حافظ الى الصمت ، وكان في استطاعته — اذا فُرض أنه طلّق الشعر تحت ضغط قيود الوظيفة — أن لا يحرم

قيثارته العزف عليها في نواحي أخرى كأنْ يرسم صوراً للشقاء الذي يلازم الحياة في مصر ، وهو الذي خبره ولمسه وعاش فيه زمناً ليس بالقصير ، وكان من الأسباب التي دفعته الى نقل رواية البؤساء الى العربية .

***

أما وصف الطبيعة فقد برز فيه شوقي عن حافظ ، واذا كانت قصيدة حافظ عن رحلته الى إيطاليا التي يقول فيها :

عاصفٌ يرتمي وبحر يغيرُ   أنا بالله منهما مستجيرُ

تعتبر لوحة رائعة صادقة التصوير زاخرة بالأحاسيس ، فإن مثل هذا اللون من الدقة في التصوير والتفرُّغ لإتقان الصورة قليلٌ عند حافظ خلافاً لكثرته عند شوقي ، فإن دواوين شوقي زاخرة بألوان تتفاوت قوة واقتداراً وفتنةً ونفنناً في مزج هذه الألوان بحسب تمكُّن الشاعر من فنه ، فالصور التي كان يرسمها خلال رحلاته الى الاستانة لا ترتفع الى مستوى الصور التي رسمها فيما بعد في قصائده عن النيل وغاب بولونيا وغير ذلك ثمّ زادت قوةً ونصوعاً وفتنةً وجمالاً في لوحاته عن لبنان وزحلة وبيروت وفي أبيات متناثرة خلال قصائده ، الأخرى في وصف الآثار.

* * *

على إننا اذا انتقلنا الى جانب من جوانب شعر الرجلين ، وهو الرثاء ، وجدنا شعر حافظ وافراً في هذه الناحية يكاد يستغرق نصف ديوانه — على حدّ قوله — ووجدنا في هذه الكثرة صدقاً في اللوعة والإحساس بالألم لفقد من يرثيهم إذ كان حافظ سريع التأثر ، تركت له حياته الأولى وما قاسى فيها آثار حزن دفين في نفسه لا يكاد يحسُّ بالموت يتخطف واحداً من معارفه حتى يحسّ بالألم عميقاً . ولعله كان يشعر في قرارة نفسه أن أصحابه ومن عرفوه وربطت بينه وبينهم صداقةٌ متينة لم يعرفوه لجاهٍ أو مطمع ، وانما عرفوه لأنهم قدروه حق قدره ، فهو حين يفقد واحداً من هؤلاء إنما يفقد قلباً يزخر له بحب وعطف ونفساً تنطوي له على محبة وتقدير ، ولأن نفسية حافظ كانت ساذجة كل السذاجة ، طيبة كل

الطيبة ، يقبل على من يحبه كل الإقبال ويغضب سريعاً ، ولكن ما تبدو له في الأفق ظاهرة من مظاهر فرح أو أسى لصاحب أغضبه حتى ينسى كل شيء ليشارك صاحبه في فرحه أو حزنه ، ومن ذلك كانت نفسه صريحة واضحة لا غموض فيها بعكس نفسية شوقي الغامضة . فقد كان يحاول طمس الكثير من معالم نفسيته مصطنعاً الحكمة في كثير من المناسبات . ولم يكن لشوقي مثل عاطفة حافظ الحزينة الموروثة عن حياته الأولى لأن حياة شوقي كانت حياة ترف ، وكان أكثر من رثيهم أصحاب مناصب أو جاه ربطت بينه وبين بعضهم صداقات دعت اليها ظروف العمل أو الجوار أو الاتصال بالسراي أو كانوا من الذين أرادوا أن يصلوا بينهم وبينه طمعاً في نفع ، أو طلب اليه رثاء واحد منهم فأجاب . ولا نحس باللوعة في مراثيه إلا في قليل منها كرثيته لأمه ولمصطفى كامل وعمر لطفي ويعقوب صروف وأمين الرافعي وفي أبيات قليلة من بعض قصائد أخرى ، وذلك للروابط القوية التي كانت بينه وبين هؤلاء من شدة تعلق ودوام صحبة وتجاوب فكر ، وللإحساس العميق المتبادل بينهم . والذي كان عاملاً من عوامل الاندماج بين حياة هؤلاء . لأن فيها من حياته أشياء أحس أنه فقدها الى النهاية .

أما مراثيه الأخرى فكانت عنايته بتحسين الاطار التي توضع فيه صورة الفقيد أكثر من العناية بالصورة نفسها ، وكانت تتردد في معظم هذه المراثي معاني واحدة لأنه كان يلجأ الى الحكمة ليستر ضعف الأحساس بالفجيعة .

ومن هنا كان لمراثي حافظ من القوة ما لم تكن لبعض مراثي شوقي ، ولأن حافظاً كان يتفجع بكل شعوره ، وكان الألم ينصب في نفسه انصباباً كما يقول في مرثيته لسعد .

***

وهناك وجه اختلاف بين حافظ وشوقي ، ذلك ان الأخير عند ما تخلص من تقاليد وظيفته وقيودها — أو خلصته الأقدار منها — وارتحل الى المنفى بعث فيه هذا الخلاص تحرراً من كل قيد ، وأكسب التنقل روحه وجسمه طلاقة وانطلاقاً ، فكان في كهولته لا يستقر في مكان كالطائر فاندفع يغرد ، ويلون في تغريده ، في حين قيدت الوظيفة حافظاً فسكت زمناً عن التغريد ، ولم يكن لجسمه وروحه من التنقل الا ما بين مقر عمله ومجالس

أنسه وصحابه فأثر ذلك فيه عند كهولته فسكت ونحّى قيثارته على النقيض زميله الذي مات وهو لم يترك قيثارته ولم يهجر عرائس شعره.

فالحيوية كانت في شوقي مدخرة بينما استنفدها حافظ فلم تواته في أخريات حياته، وبذلك فقد شعره الأخير تلك القوة التي كانت تزخر بها أشعاره الأولى.

***

واتفق الاثنان — شوقي وحافظ — في ظاهرة تبدو في ناحية من شعرهما تلك هي برود العاطفة وجفافها نحو المرأة، وعدم التأثر بها تأثر الغـزلين الحقيقيين، فشعر شوقي الغزليّ وإن كان وافراً عن شعر حافظ الغزلي الشحيح لا يمتاز عنه من تلك الناحية بشيء فهو عند هذا تقليديٌّ كما هو عند ذاك، لا رُوح فيه ولا حرارة، فهو رصفٌ لـكلام عذب جميل. على أن الموسيقى القوية التي امتاز بها شوقي — كما قلنا — كانت تمدُّ بعض أشعاره في هذه الناحية وبخاصة ما نظمه بعد فوات الشباب بما يهبه العاطفة المتقدة. وكثير من شعره الذي لا يمتُّ الى الغزل بصلة يغنَّى الآن، لأن الروح الغنائية فيه كانت متغلبة وربما أمكن التغني بكثير من شعر مراثيه ...ولن يخدعنا شعر حافظ في الناحية التي نتـكلم عليها كما يخدع شعر شوقي لأن شعر حافظ خال كل الخلوّ من حب المرأة. أما شعر شوقي فقد يخدع بعض الناس أول وهلة، ولن ينهض حجةً قوله في قصيدته التائية عن لبنان التي افتتحها بالغزل حيث قال:

فازْورَّ غضباناً وأعرض نافراً حالٌ من الغيد الملاح عرفتهُ

فهـذا التعبير لا يدلُّ دلالة صريحة على دراسة المرأة عن تجربة ومعرفة، ولـكن عن طريق قراءة أو سماع لأن شباب الشاعر كان بعيـداً عن التأثر بالمرأة تأثراً حساساً، وتبدو ألوانه باهتة للباحث الفاحص، ولم تظهر في آثاره تلك الحرارة التي يحاول أن يثيرها في شعره في الطور الأخير، فكيف تجيء بعد أوانها؟

لقد كان شوقي سريع التأثر عن طريق قراءاته وكانت تنطبع على صفحات ذهنه من تلك القراءات صور عديدة لشعراء عديدين، فهو يقرأ مثلاً لابن زيدون مقطوعته:

ودّع الصبر محبٌّ ودّعك ذائعٌ من سرّه ما استودعك

ويعجبه منها موسيقاها وروحها الغنائية التي هيأتها لذلك فيقول :

رُدَّت الروح على المضنى معك أحسنُ الأيام يومٌ أرجعكْ

أو يقرأ للحصري القيرواني :

يا ليل الصب متى غدُهُ أقيـــام الساعة موعدُهُ

فيعارضه بقوله :

مضنـاك جفـاه مرقده وبـكاه ورحّـم عُـوَّدُهُ

ويتابعه في هذه المعارضة كثير من شعراء عصره .

وقد يبدو أن ظروف شوقي التي كانت تدعوه الى المحافظة على مكانتـه في القصر كانت من الأسباب الداعية الى المحافظة أيضاً على عدم اتصاله بالمرأة أو اذاعة شيء من التعلق بها تصنعاً للوقار كما في قوله :

لك أن تلوم ولي من الأعذار أن الهوى قـدَرٌ من الأقدارِ

ما كنت أسلمُ للعيون سلامتي وأُبيح حادثة الغرام وقاري

وفيها يصف رؤيته لحسناء من حسان الاستانة مرّت به وهو على الخليج فقال :

مرّت بنا فوق الخليج فأسفرت عن جنّـةٍ وتلفّـتت عن نارِ

في نسوةٍ يوردنَ من شَطّ الهوى نظراً ولا ينظرنَ في الإصدارِ

عارضتهنّ وبين قلبي والهوى أمرٌ أحاول كتمه وأداري

ولـكن أيّ وقار يحول بين الشاعر وبين أن يصدح بتغاريد قلبه ، وأيّ تقاليد تمنع حتى أصحاب الحـكم من أن ينزلوا على حكم الهوى ؟

لقد سافر شوقي الى فرنسا في مقتبل شبابه الفوّار ، وعاش هناك فترة من الزمن . واذا قدّرنا البيئة التي خلفها شوقي — بيئة المحافظة التي لم تـكن للمرأة فيها ما لها الآن من ظهور بألوان الفتنة ، وقدّرنا الى جانب ذلك تلك البيئة التي تحوّل اليها ، وفيها ما فيها من ألوان الفتنة الظاهرة دون خمار ، واللاعبة دون ستار ، والمتفتحة عن جنّـات تندلع فيها النار ، كان لنا أن نقول إنه كان على شوقي أن يهتف ويهتف من أعماق نفسه في شبابه هتاف الروح

المكتوي بلهب هذه الفتنة . فهل كان لشبابه هناك — وهو الشاعر الفرد الذي لم تكن له من القيود ما يمنعه من البوح بآثار المرأة في نفسه في تلك الحقبة ، حقبة القلب — ألوان شعرية ، بارزةٌ فيها آثار المرأة كما تظهر عند شعراء الغزل الحقيقيين ؟

هذا ما نحاول الكشف عنه .

إن في الجزء الثاني من ديوانه قصيدتين،واحدة عن « باريس » والأخرى عن « غاب بولونيا » وهاتان القصيدتان كتبتا بعد فوات عهد الشباب بزمن بعيد كما يظهر من خلالهما، ما في ذلك شك . فأما الأولى فكل الحديث فيها منصبٌّ على تلك المدينة الساحرة ، ولا يمكن لشاعر أو غير شاعر أن يذكر باريس دون أن يذكر غيدها ولو كان من المتقشفين . وشوقي يعرّج على ذكر الهوى في تلك المدينة الساحرة فيقول هذه الأبيات :

يا مكتبي قبل الشباب وملعبي ومقيل أيام الشباب النُّوكِ
ومراح لذّاتي ومغداها على أفق كجنّات النعيم ضحوكِ
ومهاءَ وحي الشعر من متدفقٍ سلس على نوْل السماء محُوكِ

فالذي يصرّح بحمق الشباب في لهوه حين يقول « ومقيل أيام الشباب النُّوكِ » لا يستعصي عليه أن يصرّح بأكثر من ذلك .

***

وأما قصيدته « غاب بولونيا » فهي ذكرى عاودته بعد الشباب على أثر زيارة لهذا المكان، فبعثت فيه تلك الزيارة ذكرياتٍ قديمة ، ولكن أين أثر هذه الذكريات القديمة في شعره ؟ إنه يقول :

يا غاب بولونٍ ولي ذممٌ عليك ولي عهودُ
زمنٌ تقضّى للهوى ولنا بظلّك ، هل يعود ؟
حلمٌ أريد رجوعه ورجوع أحلامي بعيد
وهبِ الزمانَ أعادها هل للشبيبة مَنْ يعيد ؟

ثم بعد أن يصف ما كان له من ليالٍ هناك حديثها الوتر والعود، ويأخذ من صور الطبيعة

مادة لقصيدته ، وقد سرى في فضاء هذا المكان ، والناس نيام والكون هاجع ، يتنقل من مكان الى مكان .

حتى إذا دعت النوى فتبدّد الشمل النضيدُ
بتنا ومما بيننا بحرٌ ، ودون البحر بيد
ليلي بمصر وليلها بالغرب ، وهو بها سعيد

فهذه القصيدة وليدة الذكرى التي خطرت ، وهو يمرّ بهذا المكان ، وقد ودّع شبابه ، ومكانٌ كهذا لا يمكن يستعيد فيه الإنسان ذكريات شبابه إلاّ ويعطف ناحية الهوى سواء أكان لهذا الهوى أثر في نفسه أم لم يكن ، وسواء أعبّ من كؤوس الهوى كما يعبُّ الشعراء فتبقى النشوة خالدة أم عبّ منها كما يعبُّ كل إنسان فتمضي النشوة سريعاً ولا تترك أثراً . وإلاّ فأين أثر تلك التي خلفها هناك عند عودته الى مصر ؟

أين أثرها في شعره في مرحلة الشباب ؟

لا شيء ! ولعلّ الغموض الذي كان يحيط بنفس شوقي كما أسلفنا القول في ذلك ، والذي كان يدفعه الى اصطناع الحكمة ، كان يدفعه الى أن يقول شيئاً كهذا في الغزل ليستر به ضعفه في هذه الناحية .

***

لقد عاش هذان الشاعران زمناً ليس بالقليل يصدحان بضروبٍ من القول في ضروب من ألوان الشعر السائدة في ذلك الجيل ، وكانا يختلفان في أشياء ويتفقان في أشياء ، ويتفرد واحد منهما آناً بناحية ويتفرد الآخر آناً بناحية أخرى ، ولكنهما — لا شكّ في ذلك — كانا يشعران في صميم نفسيهما بأن هـذا لا بد منه لذاك ، وان التنافس الذي كانت تخلقه بعض الظروف بينهما ضرورة لكيانهما حتى انتقلا من هـذه الدار ، وقد تركا فيها أثرهما للأجيال ثروة تفحص وتمحص بيد النقد النزيه ، بعد أن نفضا أيديهما من الدنيا ، ونفض الناس أيديهما من الرياء لهذا أو ذاك .

حسن كامل الصيرفي



هل يكفي الخروج

من كتلة الاسترليني

لتحقيق استقلال مصر المالي (١)

سادتي : هل يكفي الخروج من الكتلة الاسترلينية لتحقيق استقلال مصر المالي ؟

هذا هو السؤال الذي أحاول أن أجيب عنه في هذه المحاضرة . وأبادر فأقول إني لم أكلف نفسي معالجة هذا الموضوع الخطير ظناً مني أن في استطاعتي معالجته . وانما هي خواطر من حقي وحق كل مصري أن يبدي أمثالها ليساهم بها في حل المشكلة التي نعانيها جميعاً سواء كنا اقتصاديين أو غير اقتصاديين فنيين أو غير فنيين ،فمن سوء الحظ – أو حسن الحظ – أن الجميع سواء أمام مشكلة اليوم .

لست ألقي اذن محاضرة اقتصادية فنية . ولكني فقط استعمل حقي كمصري في معالجة مشكلة يعانيها كل مصري .

وعند تناول الشؤون المالية يجب أن نتجرد من أي عامل سياسي أو عاطفي ، سيما ونحن في هذا النادي الذي يعتبر بحق الندوة الفنية للشؤون الاقتصادية ،فهنا تبحث المسائل من ناحيتها الفنية فقط دون التفات للاعتبارات الأخرى فالحكم في مسائل المال يبنى على المصلحة وكما هو في حالة الفرد هو كذلك في حالة الأمم . ولا شك أن المنازعات التي توجد بين الأمم ما هي إلاّ من أثر السعي لتحقيق المصلحة المادية لبعضها فهي الهدف الذي ترمي إليه كل دولة

قرأنا عن سياسة الحكومة الخاصة بالنقد وهي فيما ترمي اليه من العمل على تحقيق استقلال مصر المالي تتفق في غايتها وما يصبو اليه كل مصري

إنّ الذي يشغل الأذهان الآن هو هل أفادت مصر من قرار الخروج من كتلة الاسترليني وهل يعتبر هذا القرار محققاً لاستقلالنا المالي،وهو الزعم الذي تبادر الى أذهان الكثيرين عند ما تلقوا خبر خروج مصر من كتلة الاسترليني .

لكي ندرك أنّ هذا القرار يعني أو لا يعني استقلالنا المالي، يحسن أن نعرف ما هو الاستقلال المالي وما هي شرائط تحقيقه .

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ احمد عنان بك بنادي التجارة الملكي بمصر مساء الاحد ١٢ اكتوبر ١٩٤٧

يمكننا أن نعرّف الاستقلال المالي تعريفاً سهلاً بسيطاً بأنه الحالة التي يمكن فيها السلطات القائمة على مراقبة النقد والائتمان اتخاذ الوسائل اللازمة لتحقيق التوازن في البناء الاقتصادي والمالي للدولة بكل حرية واستقلال .

والاستقلال المالي لدولة ما لا يكون بمقدار ما لتلك الدولة من ديون على الغير أو حتى ما لديها من احتياطات ، وانما يجب أن يكون هـذا الاستقلال مدعماً ومستنداً الى ثروة حقيقية متجددة ناشـئة عن الانتاج المستمر — فليس غنيـًا من يملك عشرة آلاف جنيه كرأس مال لا يؤتي ثمراً إذ أنه بعد عدد من السنين قلَّ أو كثر سينفد ماله ويتركه معدماً — ولـكن الذي يمكنه أن ينتج ألفي جنيه سنويـًا يمكن اعتباره غنيـًا .

ومثال ذلك بين الدول سويسرا التي تكاد تكون فقيرة في معظم الموارد الطبيعية — ولـكنها عوّضت هذا الفقر بغنى بالغ من نشاط أهلها واتقانهم لصناعاتهم مما جعل لمنتجاتها شهرة عالمية ومكنها من أن تستورد الصلب من انجلترا ثم تصدره اليها في شكل آلات دقيقة الصنع بأغلى الأثمان — فطن الصلب تشتريه سويسرا مثلاً بعشرين أو خمسة وعشرين جنيهاً من انجلترا ولـكنها تحوّله الى ساعات جميلة ودقيقة تبيعها الى انجلترا نفسها وغيرها من بلدان العالم نظير آلاف الجنيهات .

هذه هي الثروة الحقيقية — ثروة الانتاج ، أو بعبارة أخرى المقدرة على الانتاج . ويقيس الاقتصاديون مقدار ثروة بلد ما بقدرة هذا البلد على الانتاج .

فثروة الانتاج هي الأساس الذي لا يمكن بدونه تحقيق الاستقلال المالي وقد دلت التجارب على أنه لتحقيق الاستقلال المالي يجب أن تكون هناك اداتان :

الأولى : غطاء قوي للنقد — والقوة هنا تقاس بقابليته للتحويل الى عملات أخرى .

والثاني : بنك مركزي يكون له من السلطة والاحترام ما يمكنه من الاشراف على توجيه سياسة الائتمان الداخلي .

أما البنك المركزي فهو مسألة قد أثير بحثها مراراً ولم يعد هناك محل لتكرار الكلام فيها ولـكني فقط أود أن أنبه الى فـكرة سيطرت على أذهان الـكثيرين وهي ان البنك المركزي معناه تأميم البنك الأهلي .

والواقع ان التأميم لا علاقة له مطلقاً بوظيفة البنك المركزي ، فالتأميم سياسة جديدة نادت بها في السنوات الأخيرة بعض المبادىء الاشتراكية ترمي بها الى سيطرة الدولة على المرافق العامة سواء كانت مناجم أو سكك حديد أو بنوكاً حتى التي لا تقوم منها بوظيفة البنك المركزي .

وقد قام بنك انجلترا بوظيفته كبنك مركزي خلال السنوات الطوال دون أن يكون مؤمماً، ولم يطبع بهذا الطابع الا من عام تقريباً نتيجة تنفيذ سياسة العمال الاشتراكية .

وسواء أتمت الفكرة بتأميم البنك الاهلي أم بانشاء بنك جديد أم بتحويل بنك آخر إلى بنك مركزي ، فالمهم لدينا أن يوجد هذا البنك وان يكون من القوة والمكانة بحيث يمكنه أن يؤدي بكفاءة الوظائف المفروضة على البنك المركزي .

والنتكلم الآن بشيء من الايضاح عن الغطاء النقدي .

فالمعروف ان الغطاء قد وجد عند اصدار البنكنوت بدلاً من التعامل بالنقد المعدني لكي يعطي الثقة للمتعاملين ، ولكنه تدرج مع الزمن لكي يصبح في الواقع ضماناً للدول الأخرى على القدرة على سداد المدفوعات الخارجية .

فاذا كانت صادرات بلد ما أكثر من وارداته فهو ليس في حاجة الى ان يدفع شيئاً الى غيره من الدول ، بل على العكس من ذلك فهو يستقبل اما ذهباً أو عملات يراها جديرة بثقته ويستطيع أن يحولها للبلاد الأخرى فتقبلها .

أما اذا اختلف الوضع بأن كانت واردات ذلك البلد أكثر من صادراته فعليه أن يسدد الفرق إما ذهباً وإما نقداً مقبولاً من البلاد الدائنة .

فما هو حال غطاء نقدنا الآن — أخشى أن يكون غطاءً وهمياً أكثر منه حقيقياً ، فالغطاء بأكمله فيما عدا بضعة الملايين من الذهب عبارة عن سندات على الخزينة البريطانية وسندات مصرية . فلو أردنا تطبيق وظيفة الغطاء التي شرحناها سابقاً على هذا الوضع لاتضح لنا ما يأتي :

تزيد وارداتنا في الوقت الحاضر على صادراتنا . وكنا نقوم بتغطية الفروق من أرصدة مصر الاسترلينية ، أما بعد تجميدها فلا مناص من دفع الفروق بنقد مقبول — والطريقة الطبيعية هي أن يبيع البنك الأهلي المصري من سندات الخزانة المودعة لديه كغطاء للنقد حتى يقوم بسداد المطلوب من مصر ، ولكن بمجرد أن يتم هذا البيع يصبح الثمن ضمن الأرصدة المتجمدة وبذلك لا يمكن حتى سداد أثمان مشترياتنا من انجلترا ذاتها .

والمعنى الواضح هو أن الغطاء لا يقوم بالوظيفة المطلوبة منه وبذلك لا يكون غطاء بل وهماً وهذه مسألة يجب أن تولى غاية الاهتمام وان يوضع لها العلاج السريع حتى لا تتعرض اقتصاديات البلاد للاخطار . والعلاج لن يتيسر إلا بتكوين غطاء من عملات محترمة في المعاملات الدولية ويسمح للجنيه المصري ان يكون مستقلاً عن الاسترليني .

هذه هي الدعامة التي يجب ان تقوم عليها سياستنا المالية ولا يمكن انتظار أي استقرار

لعملتنا ما لم نشرع في الحال في تكوين هذا الغطاء مهما استوجب منا من تضحيات ومهما تطلب من جهود

والطريقة الاولى وهي الطريقة التقليدية المثلى هي العمل على زيادة الصادرات وانقاص الواردات على ان يكون ذلك طبعاً بقصد الحصول على أكبر قدر ممكن من العملات الصعبة

ولكني أود ان أوجه النظر لدقة هذا الموضوع من حيث تأثيره على الأسعار فان من نتائج تقييد الواردات ارتفاع الأسعار في الداخل مما يترتب عليه زيادة حالة التضخم الموجود والذي نشكو منه الآن ويزيد في المتاعب التي يعانيها ذوو الدخل الثابت

لذلك يجب ان يصاحب هذه السياسة العمل على تخفيض الأسعار أو على الأقل تثبيتها واذا أريد التكلم في سبيل ذلك فالمجال هنا أضيق من ان يتسع للاحاطة بكل شيء وإنما لا يسعنا إلا أن نشير اليها واثقين من ان ذلك لن يفوت رجال ماليتنا.

ولما كان تكوين غطاء كاف بهذه الوسيلة وحدها سيتطلب سنوات عديدة حيث ان حرمان البلاد مدة الحرب من كثير من الواردات في حين كثرت النقوذ المتداولة مما يتطلب بضائع لامتصاصها ، نقول إن هذه العوامل تحد كثيراً من قدرتنا على ايجاد فائض محسوس بين صادراتنا ووارداتنا .

لهذا أعرض اقتراحاً أرجو أن يساعد على الاسراع بتكوين الغطاء المطلوب .

قيل إن الحكومة المصرية تقدمت الى الحكومة الأميركية بطلب قرض مقداره ثمانية وثمانين مليوناً من الدولارات لاستعماله كغطاء لنقدنا وان الحكومة الأميركية اعتذرت من عدم اجابة الطلب بحجة انه لم تجر العادة بالاقراض لمثل هذا الغرض .

إننا نقوم الآن بشراء الآلات والمعدات اللازمة لكثير من المشروعات الانشائية كمشروع خزان اسوان، ومشروع مصنع السماد، ومصانع الحرير الصناعي والغزل ، كما سنحتاج أيضاً لمهمات كثيرة لمشروعات التعدين التي تبدي الحكومة نحوها اهتماماً كبيراً — ونحن ندفع ثمن هذه المواد من مواردنا العادية مقابل صادراتنا ، وهذه المشروعات تستغرق من الأموال التي نحصل عليها من العملة الصعبة جزءًا هامًا . فلماذا لا يطلب عقد قرض بمبلغ يكفي لتمويل كل المشروعات الحيوية للبلاد وبذلك نخفف من الناحية الأخرى العبء على وارداتنا بما يمكننا من ان نكوّن رصيداً يصلح على مدى سنوات قليلة غطاءً قويًا لنقدنا .

لا أظن ان عقد هذا القرض متعذر فسواء أكان ذلك من بنك التعمير الدولي أم من بنك الاصدار الأميركي، أم حتى من الشركات الخاصة فان نوع المشروعات التي ذكرت مما تمنح عدة تلك المؤسسات قروضاً من آن لآخر . وهذه المشروعات بما لها من صفة انتاجية ستساعد

على زيادة صادراتنا من جهة وتقلل من حاجتنا للاستيراد من الجهة الأخرى وبذلك تزيد في ثروة البلاد .

تهتم الحكومة باعلانها أنها تفضل إصدار المواد المرخص باصدارها نظير عملة صعبة، ونحن نوجه النظر الى أنه لا يجوز أن يكون ذلك عند تساوي الثمن فقط بل يجب أن نأخذ في الحسبان أن قيمة العملة الصعبة في الأسواق الحرة تزيد بين الثلاثين والاربعين في المئة على الاسترليني .

فلو فرضنا أن فرنسا تعرض علينا في طن السكر ١٠٠ جنيه استرليني في حين تطلبه سويسرا بسبعين جنيهاً، فيجب أن نعطي الافضلية لسويسرا لأن السبعين جنيهاً من الفرنكات السويسرية تساوي في الواقع أكثر من المئة الجنيه من الفرنكات الفرنسية .

وتعلمون حضراتكم أن سعر الصرف المعين بين سويسرا وانجلترا للجنيه الاسترليني هو ١٧ فرنكاً سويسريًا وذلك عن مبالغ معين متفق على صرفه بهذا السعر . أما السعر الحقيقي في الأسواق فهو يزيد قليلاً على العشرة الفرنكات السويسرية وقس على ذلك الدولار .

فنحن من مصلحتنا أن نعمل على اصدار كل ما يمكن اصداره الى مناطق العملات الصعبة، وعلينا أن نطالب سداد أثمان صادراتنا الى غيرها من البلاد بهذه العملات ولو اقتضى الأمر حتى منح اعانة اصدار نظير الحصول على عملات صعبة .

إن الحكومة تملك مقداراً لا بأس به من القطن ويمكن عند عرضه للبيع أن تتمسك بأن يكون ثمنه بالكامل أو نصف الثمن على الأقل مدفوعاً بالدولارات او الفرنكات السويسرية، ولا مانع في هذه الحالة من أن يكون الثمن الذي يباع به القطن أقل من الثمن الذي يباع به في بورصة الاسكندرية ما دام النقص في حدود الفرق بين السعر الحقيقي للاسترليني والدولار في السوق الحرة .

وهناك مزية كبيرة لا يجوز اغفالها اذا عملنا على الحصول على أكبر قدر من الدولارات ثمناً لصادراتنا وهي أنه في الوقت الذي يمكن فيه تسليم البضائع الاميركية في الحال أو بعد مهلة معقولة فان المصانع الانجليزية لا تبدي استعداداً لتوريد معظم الحاجات الضرورية قبل مضي سنتين أو ثلاث، وكثيراً ما يحدث عند انتهاء الاجل أن يعد ثانية مع التماس مختلف الأعذار .

والحقيقة أن انجلترا تؤثر توجيه صادراتها الى مناطق العملة الصعبة وتعمل على تقليل ما تصدره للبلاد التي لا تدفع إلا جنيهات استرلينية أو خصماً من ديونها عليها .

هذه هي بعض السبل للحصول على غطاء قوي لنقدنا يقبل في المعاملات الدولية ويجعل

لعملتنا هأناً في الأسواق العالميـة ولا يمكن أن نأمل في تحقيق استقلال مالي بدون أن نقدم أولاً وقبل كل شيء على هذه الخطوة، اما أن نقول أن الخروج من منطقة الاسترليني معناه الاستقلال المالي . أو حتى أنه يخطو بنا خطوات في هذا السبيل فهو ما سأتناوله هنا ببعض التفصيل — وفي الواقع قد تساءلت أنا وغيري عما اذا كان قرار الخروج من منطقة الاسترليني بدون اتخاذ الخطوات الاخرى التي أسلفت ذكرها وبدون الاستعداد الكامل في جميع النواحي — هل القرار بهذا الشكل يخطو بنا فعلاً الى هدفنا وهو الاستقلال المالي .

استمعت هنـا واستمع الكثيرون الى المحاضرة التي تفضل بالقائها في هذا النادي من أسبوع سعادة محمود الدرويش بك . وكنا نتوق أن نخرج منها باجابة على هذا السؤال — وقد حاولت جهدي أن أستشف المزايا التي حصلنا عليها من هذا الاجراء وأخشى ألا أكون قد وصلت لأية نتيجة .

وأول ما تبادر الى ذهني هو التساؤل عما اذا كان وجودنا ضمن منطقـة الاسترليني يتعارض مع استقلالنا المالي المنشود . فنحن نرى من بين البلاد التي ذكر سعادة الدرويش بك أنها منتمية لـكتلة الاسترليني بلاداً مسـتقلة تماماً سواء في أمورها السياسية أو في أمورها المالية . ومثال ذلك بورتغال ودانمرك وغيرها .

والواقع أن انشاء هذه الـكتلة كان مبنيًّـا على وجود مصالح تجارية خاصة تربط البلدان المنشقة اليها بعضها ببعض أو بواسطة العقد وهي بريطانيا . فهناك مصلحة لـكل بلد على حدة في هذا الانضمام . ولم يقل أحد أن استقلال الدنمرك أو البرتغال كان مشوباً بأية شائبة لأنها منتمية لـكتلة الاسترليني . كنا نود أن نعرف الفوائد التي عادت على مصر من هذا القرار وفي هذا الوقت بالذات . وقبل أن يبحث موضوع عملتنا بأكمله من حيث الغطاء وقيمته في المبادلات الدولية وما زلنا نبحث عمن يهدينا الى تلك الفوائد التي عجزنا عن تبينها .

من الأسباب التي ذكرت أن ترك منطقة الاسترليني كان ضروريًّـا لإنشاء مراقبة على النقد وعلى الواردات والصادرات . فهل لم يكن من المستطاع انشاء هذه المراقبة ونحن ضمن كتلة الاسترليني .

لقد تلقينا الجواب على ذلك فيما أورده سعادة الدرويش بك في صدد محاضراته هنا في الأسبوع الماضي عندما ذكر أن نيوزيلندا وهي من أقدم الدول المنتميـة لـكتلة الاسترليني والتي لا شك أن الروابط التي تربطها ببريطانيا أقوى بكثير من الروابط التي تربطنا معها . يقول سعادته أن نيوزيلندا كانت تباشر هذه المراقبة من سنة ١٩٣١ أي حتى قبل قيام الحرب الأخيرة ونشوء الضروريات الملحة لفرضها في سائر الدول تقريباً .

وكانت دنمرك واستونيا ولتوانيا تفرض مثل هذه الرقابة . ومعنى هذا الكلام الواضح أن البقاء في كتلة الاسترليني لم يكن ليمنع اطلاقاً مباشرة هذه الرقابة .

والعراق وهو ما زال منتمياً الى هذه الكتلة أنشأ هذه الرقابة وهو يمارسها الآن ، بل لو كانت مصر قد بقيت لما كان هناك مناص من فرض هذه الرقابة فالمعلوم أن هناك مبالغ لا يمكننا تجاوزها في مشترياتنا خصماً من الأرصدة الاسترلينية ، فكان من المحتم ايجاد الأداة التي تمكن من حصر العمليات وضبطها .

بقي اننا نحن الذين لم نعرف الأسباب الداعية الى هذا القرار قد رأينا أشياء توحي لنا — حسبما يصل اليه فهمنا — بأنه لا يتفق تماماً مع ما يسعى اليه رجال الحكومة من تحقيق استقلالنا المالي ، بل نخشى أن يكون قد عاد علينا ببعض الضرر .

ان في منطقة الاسترليني ارتباطاً يتيح لكل دولة داخلة في نطاقه أن تحصل على حاجاتها الضرورية سواء أكانت من منطقة الاسترليني أم العملة الصعبة . وفي الوقت الذي كانت فيه موارد مصر من العملة الصعبة نظير صادراتها الظاهرة والخفية لا تتجاوز العشرة الملايين من الجنيهات كانت مصر تحصل على حاجتها من الأسمدة ومواد الوقود والحبوب من منطقة الدولارات بما يزيد على الضعف أي حوالي ١٤ مليوناً من الجنيهات .

وكانت حصة مصر طبقاً لاتفاقية العملة الصعبة في سنة ١٩٤٥ تبلغ ١٢ مليوناً من الجنيهات من العملة الصعبة فضلاً عن الوقود والسماد والحبوب — وكانت الاتفاقية تنص على تخصيص ٣ ملايين جنيه لنفقات البعثات الدبلوماسية المصرية واعضاء المؤتمرات والمسافرين وغير ذلك من المصروفات غير المنظورة — أما التسعة الملايين الباقية فخصصت لاستيراد مواد معينة بالذات أدرجت بها كشوف ، على ان تستوفي مصر باقي حاجاتها من منطقة الاسترليني وكان من شروط الاتفاقية انه في حالة عدم امكان الحصول على بعض المواد المفروض توفرها في منطقة الاسترليني ان تمكن انجلترا مصر من استيرادها من مناطق العملات الصعبة وان تزاد حصة مصر من تلك العملات تبعاً لذلك .

أما الآن فيخشى أن تواجه مصر ضيقاً شديداً ازاء مطالبة مصدري البترول بضرورة تقاضي أثمان بضائعهم بالدولارات ويبلغ ثمن البترول اللازم لمصر حوالي ٦ ملايين من الجنيهات . ذلك في حين أننا لو بقينا داخل الكتلة كنا نستطيع سداد هذا المبلغ بالجنيهات الاسترلينية طبقاً للنظام وهو النظام الذي وضع أثناء الحرب والذي بمقتضاه تتمكن كل دولة داخل منطقة الاسترليني من سداد أثمان وارداتها من البترول بالجنيه الاسترليني سواء أكان

ذلك البترول وارداً من منطقة الدولار أم من منطقة الاسترليني .

ونحن مطالبون كذلك بسداد أثمان ما يلزمنا من الحبوب بالدولارات

أما السماد فانه طبقاً لاتفاق مع شركة شيلي وضع وقت وجودنا بكتلة الاسترليني يمكن سداد الثمن حتى يونيه القادم بالجنيهات الاسترلينية . ولكن المستقبل غير معلوم .

أيدهش الانسان بعد ذلك اذا ما كان الانجليز قد وافقوا ان لم يكن قد رحبوا بخروج مصر من كتلة الاسترليني حتى يزول عن كاهلهم هذا العبء الذي لا يسرهم بطبيعة الحال حمله في الوقت الحاضر

للانسان ان يتساءل ما الحكمة في ان انجلترا كانت تحتمل عنا هذا العبء الثقيل علينا الواقع ان ذلك ما كان مطلقاً تفانياً في حبنا وانما كان في أثناء الحرب ارضاء لشعب يهمهم المحافظة على مرضاته . كانت انجلترا اذ ذاك في أشد الحاجة الى السلع والخدمات من مصر وكان الحصول عليها هو السبب الرئيسي في تجمع الأرصدة الاسترلينية في لندن . ففي تلك الحالة كان يهم الانجليز ان يعم مصر شيء من الرخاء وان كان وهمياً إذ ان انجلترا أخذت باليسار أضعاف ما أعطته باليمين .

اما بعد الحرب فانها ما كانت تستطيع ان تعاملنا وحدنا دون سائر الدول المنتمية لكتلة الاسترليني معاملة شاذة تظهرها أمام العالم بمظهر الظالم المتحدي وهو الشيء الذي تحرص انجلترا كلما أمكنها ذلك على تغطيته . كما ان أميركا وهي المصدر الأول للدولارات وقد نصبت نفسها حكماً بين دول العالم ما كانت لتوافق على استثناء مصر وحدها من اتفاق معقود مع جماعة من الدول

اما الآن وقد تركت مصر هذه الكتلة بمحض اختيارها فقد أراحت انجلترا من واجب بغيض اليها . كما ان قرار الخروج من كتلة الاسترليني تم في وقت لم تكن الاداة المكلفة بتنفيذ القانون قد أنشئت . وان مراقبة الصادرات والواردات زادت مهمتها اضعافاً مضاعفة فبعد ان كان عملها مقتصراً على منطقة العملات الصعبة أصبح يشمل جميع صادرات مصر ووارداتها .

والواقع ان قانون الرقابة على النقد صدر عشية اليوم المعين لتنفيذه وترتب على ذلك ان التعليمات والاستمارات اللازمة لم تكن قد وضعت، فمضت أيام كثيرة لم تتمكن فيها البنوك من فتح اعتمادات مما مكن المضاربين بأن ينشطوا في نشر الاشاعات عن عدم امكان استيراد بضائع . وقد أدى ذلك الى ارتباك في الاسواق وارتفاع في أسعار المواد المستوردة والمصنوعة محلياً على السواء

هذه بعض النتائج التي لمسناها كأثر لقرار خروج مصر من كتلة الاسترليني في هذا الوقت في

حين لم نستطع أن نلمس فائدة واحدة وما زلنا نتطلع لمن يشرح لنا تلك المزايا التي غاب عنا ادراكها ويهمني أن أتساءل أخيراً هل حقيقة أننا خرجنا عن كتلة الاسترليني ، تنص المادة السادسة من الاتفاق الأخير بين مصر وبريطانيا على أن الحكومة المصرية تتعهد بأنها لن تقيد قبول دفع قيمة جميع المعاملات الجارية بالجنيه الاسترليني — ومعنى هذا أنه لا يحق عندما يعرض شخص ما في الخارج سواء كان في منطقة الاسترليني أو غيرها أن يدفع ثمن الصادرات بالجنيهات الاسترلينية لا يحق للحكومة المصرية أن تعترض . فأين هو الخروج المزعوم من الكتلة .

أما وقد مهدت انجلترا لنا السبيل بخرقها الاتفاق من جانبها فأصبحنا في حل من هذا النص . فليس يفيدنا كثيراً إطالة البحث فيه وعلينا أن نتجه للعمل المنتج .

إن الموضوع من الخطورة بمكان وليست عواقبه مقصورة على فرد أو أفراد ولا على طبقة حاكمة أو محكومة إنما هو أمر يمس مصالح جميع أفراد الشعب ويتعلق به مستقبل مصر بأجمعها من الناحية المالية .

لذا فانا نرجو أن يكون أول ما تتجه إليه الآراء الآن هو حشد جميع المشتغلين بالمسائل المالية من رسميين وغير رسميين وأن نعرض عليهم جميع هذه المشكلات ليضعوا لها دستوراً يكون هو السياسة القومية التي تسير عليها البلاد بدون نظر لتغيير الحكومات أو الأشخاص القائمين على توجيه السياسة المالية ، وبذلك نأمن العثار وتكون خطواتنا بعيدة عن مواطن الزلل . إسمحوا لي وقد تناولت عدّة موضوعات متشابكة أن ألخص في بضع كلمات ما رميت إليه بهذه المحاضرة .

أولاً — إن الخروج من منطقة الاسترليني بذاته لم يقدّمنا شيئاً في سبيل تحقيق الاستقلال المالي .

ثانياً — إن دعامتي الاستقلال المالي هما الغطاء القوي القابل للتحويل والبنك المركزي القادر على توجيه سياسة الائتمان لمصلحة البلاد .

ثالثاً — إن السبيل لتكوين الغطاء هو أن نزيد صادراتنا لمنطقة الدولار وان نقلل من وارداتنا مع العمل في الوقت نفسه على تخفيض الأسعار في الداخل .

رابعاً — عقد قرض لتمويل المشروعات العمرانية حتى يساعدنا ما نصرفه عليها الآن في تكوين الغطاء .

خامساً — تشكيل هيئة من الرجال المشتغلين بالمسائل المالية درس مركز مصر المالي ووضع سياسة طويلة الأمد تكون دستوراً لنا في الشؤون المالية .

صابون الحرب

أصلح وسيلة لخفض أسعار الصابون العادي

ذكرت في سياق مقال على « المخترعات الحربيـة في الحياة المدنية » [1] ان الصابون الحربي صالح لكل الأغراض والأجواء ، حاراً كان الماء أو بارداً أو أجاجاً أو فراتاً ، فيصلح لغسل الأيدي والوجوه والاستحمام والحلاقة وغسل الملابس وأجزاء الأجهزة » .

ولما كانت العائلات جميعها ، غنيُّها ومتوسطها وفقيرها ، أصبحت تشكو ارتفاع أسعار الصابون العادي رأيت التوسع في وصف الصابون الحربي ، لنصير على بينة من أمرنا ، عندما ينتشر بين ظهرانينا في القريب العاجل ، فيحدث بلا شك تنافساً شديداً في الأسواق المحلية فينبغي إذن بحث الأمر من وجوهه جميعها فيما يلي : —

جاء في كتاب الصناعات والصناع ، الذي ترجمته عن الانكليزية وأصدرته في سنة ١٩٢٦ في فصل بعنوان الصابون : —

ابتدع قدماء الأغريق والرومان ، الصابون واستعملوه في زمانهم ، كما إنَّ كثيرين من الأقوام الذين نعتبرهم متوحشين ، لديهم عدة مواد ، تقوم لهم مقام الصابون عنـدنا . قلت « ولعلَّ المؤلف يقصد بذلك شجرة الصابون ، وهذه تزرع في المنطقة الحارة ، وقد سميت بهذا الاسم لأنَّ أوراقها ترغي رغوة كالصابون ، تنظف المواد الدهنية ، وقد تستعمل هذه الاوراق بدل الصابون وذلك في أمريكا الجنوبية » .

ومن الأشجار الصابونية ، شجرة عرق الحلاوة واسمها العلمي Saponaria Officinalis وهي بالانكليزية Soap-wort وكذلك شجرة كستنا الخيل أو الشاه بلوط لأن في ثمرها خاصية الصابون فتستعمل بدلاً منه في بلاد أرياف أوربا .

ومضى المؤلف الانكليزي فقال « ونحن معشر الانكليز ، نفتخر بكوننا أكثر البرية

---

(١) راجع مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤٥

نظافة ، على وجه البسيطة ، غير أنَّ في هذا الزعم بعض المغالاة ، لأننا نعرف شعوباً كثيرة تعدُّ حقيقةً في أسمى درجات النظافة وبالأخص أهالي شبه جزيرة ملايا ، أولئك الذين يقطنون غالباً بضفات الأنهر ، حيث يستحمون مرتين كل يوم . وربما أكثر من ذلك . ولا يخفى أن الماء أعظم ما يفتقر إليه طالب الاغتسال ، وإذا ما أضيف إليه « الصابون » كان له خير معوان على إزالة الأدران » .

والصابون كما جاء في معجم المنجد « مركب من الزيت والقلي ، يغسل به . والكلمة فارسية عربيها الغاسول . والصابونية « عرق الحلاوة » نبات يؤخذ منه نوع من الغسول ، يغسل به » .

وجاء في نبذة بقلمي نشرت بمجلة المفتاح في جزئها المؤرخ في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠٩ ما يأتي : —

تنمو بعضها بجانب بعض في إقليم فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية ، أشجار تسمى أشجار الصابون والشحم » فأشجار الصابون وحدها تنتج محصولاً يصنع منه أنقى أنواع الصابون الممكن صنعه في العالم .

وفي الحقيقة أن حبوبها صابون طبيعي ذو رغوة تشبهها في الصابون الصناعي . ولعظم منافع أثمار أشجار الصابون ، قد انتشرت انتشاراً كبيراً في كثير من أرجاء العالم حتى أنه يمكن الحصول عليها من بلاد الجزائر وبلاد الصين . وأما محصول أشجار الشحم فيدخل أيضاً في صنع الصابون فيتكوَّن منهما معاً صابون جيد . ويستخرج من أثمار شجر الصابون « غير الصابون » زيت لذيذ الطعم جدًّا . ويقال إنه متى عرفت منافع أشجار الشحم معرفة تامة استخرج منها أيضاً زيت لذيذ ينتج أرباحاً كثيرة » .

وقلت في سياق مقال على (الباباز ثمر عجيب) (١)

ويجعل ثمر الباباز الفج « غير التام النضج » وورقه الأخضر كصابون لتنظيف الثياب ويستعمل أهل بارجواي ورق الباباز بديلاً من الصابون . »

ويقال إن الصابون اشتق اسمه من مدينة سافونة القريبة من جنوه من أعمال إيطالية .

---

(١) راجع مقتطف يونيو ١٩٣٥

وذلك أن زوجة صياد سمك من أهل تلك المدينـة ، كانت قد سخّنت ماء الصودا في وعاء كان مشبعاً بزيت الزيتون ، فتكشف لها ذلك المركب مصادفة . ويعتقد فوج من العلماء أن الصابون كان مجهولاً عند الشعوب القديمة . ولـكن ثمة مستند كتابي ، ينفي هذا الاعتقاد كما تقدم القول ، في صدر هذا المقال .

وفي العصور القديمة كانت الناس تدهن أجسامها بزيت الزيتون ، وتستعمل عصـارات النباتات المختلفة ورمادها مقرونة بالطين الاصوانلي ، في أغراض التنظيف .

وذكر بليني المؤرخ الروماني في القرن الأول بعد الميلاد ، صنفين من الصابون هما الصلب والرخو . وقال إنهما من مخترعات الغاليين « التي تكسب الشعر لوناً لامعاً » ، وأثبت أن الصابون يصنع من الشحم والرماد . وان أجود أصنافه ما يركب من رماد خشب الزان وشحم الماعز ، وقـد عثر المنقبون في خرائب مدينـة بومبيي الأثرية على مصبنات ، فاستدلوا من ذلك على أن تركيب الصابون كان معروفاً بلا جدال عند قدماء الرومان .

قلت « وتنظيف الأيدي من الأوضار بالغرين ، عادة ما زالت مألوفة في حقولنا المصرية عند الفلاحين » .

وجاء في احدى الصحف المحلية في صدد مخترعات الحرب العالمية الثانية ومن ضمنها صابون الحرب ما يأتي :

كشف علماء الحلفاء ، النقاب عن كثير من الاسرار الحربية الألمانية ، مما سيوفر على الحلفاء ملايين الجنيهات الاسترلينيـة التي تنفق في سبيل البحوث العلميـة . ويدل ما كشف على أن إختراع الألمان كان يسبق مقدرتها على تحويل النظريات الى مصنوعات وقد استفاد الحلفاء من بعض هذه الاختراعات كثيراً واستخدمت في حرب الباسفيكي . وظهر أن الألمان تقدموا كثيراً في بحث مسألة القنبلة الذرّية وفي انتاج « الماء الثقيل » ولـكنهم كانوا يفكرون في قذيفة يسيرها طيار واحد تستطيع أن تقطع ثلاثة آلاف ميل . ولـكن واضع تصميم هـذه القذيفة كان يتوخى استخدامها في شؤون التجـارة كذلك لنقل الركاب عبر الاطلنطي في ١٧ دقيقة .

وكان الألمان يعملون بطريقة جديدة لانتاج أنواع جـديدة من غازات الحرب . وكانوا

يرجون أن تكون أشد فتكاً من أية مادة كيميائية ظهرت حتى الآن .

وكانت لديهم مشروعات مفصلة بشأن السفن الحربيـة من طراز ممتاز حديث ، منهـا غواصات ذات سرعة أكبر منها في الغواصات الحالية تحت الماء ، ومقـدرة أكبر على تحمل الأعمال الحربية تحت سطح الماء . وكشف الألمان طرقاً جديدة لاستخراج كثير من المواد الصناعية مثل استخراج الكحول والزبدة الصناعيـة ووقود الطائرات والصابون والبنزين من الفحم [1] كما كانت لديهم تصميمات لأنواع سرية مختلفة من المدافع وآلاتهـا . واشترك البريطانيون والأميركيون في كشف هـذه الأسرار . ولا تقتصر التقارير التي وضعوها على تكييف السياسة التي ستتخذ لمراقبة المانيا بل ستؤثر في التحول الصناعي والعلمي كذلك » .

ووصفت إحـدى المجلات العلمية الأميركية التي وردت علينـا حديثاً ، صابون الحرب فقالت : —

الصابون عامل كيميائي من أقدم العوامل التي تعاون على الترف . وقد أصبح الآن يلاقي منافسة عنيفة من المواد الكيميائيـة المنظفة التي اخترعت حديثاً ، وهي الصـالحة للغسل على أحسن ما يرام ، عسراً كان الماء أو يسراً أو ملحاً بارداً .

وكان الغرض من اختراعها في بدء الأمر ، مواجهة مشاكل صناعية معينة ، هي التي لم يقوَ الصابون على تلافيها . فانتشر انتاجها واستعمالها في هذه الآونة انتشاراً كبيراً أفضى الى خفض أسعارها خفضاً كان من شأنه اقبال ربات البيوت على استعمالها في أغراض التنظيف كافة ، تنظيفاً يتعذر على الصابون أداؤه على أحسن وجه .

وتصلح هذه المنظفات الصناعيـة الكيميائية للغسل دون احداث تحبب بغيض يستقر على الثياب أو في أوعية الغسل . وهذا عدا تأثيرها تأثيراً صالحاً في الملابس الصوفية . ثم إن استعمالها في البيوت يؤول الى تخلص رباتها من (الحلقات) التي تتخلف عن الصابون العادي . وذلك في مراكن الغسل « الطشوت » وفي بالوعات الحمامات والمطابخ ، كما يسهل تنظيف الأطباق وذلك لأنها ذات خواص فائقة لازالة الأدهان . وهذا عدا كون المواد

---

(١) راجع مقتطف مايو سنة ١٩٤٣ وغيره من الاجزاء

المنظفة تصنع على أنواع مختلفة ، فتكون إما سائلة وإما عجينية القوام كعجينة تنظيف الأسنان ، واما مركبة تركيباً صالحاً لتنظيف أواني اللبن ومنتجاته ، كما تنظف المعادن مما يعلق بها من الأدران .

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام ، أن المانيا كانت أول دولة ، اخترعت المواد الكيميائية المنظفة . وذلك عقب وقوف رحى الحرب العالمية الأولى « وهذا يطابق ما تقدم ايراده ». ثم عمَّ استعمالها صناعياً ولاسيما في ميادين المنسوجات في بلاد الولايات المتحدة الأمريكية وذلك منذ سنة ١٩٣٠ .

أما قبل الحرب العالمية الثانية فكان المخترع منها أصناف قليلة فاستنفدت في خلال تلك الحرب لشدة الاقبال عليها من جانبي الأسطولين الحربي والتجاري الأمريكيين . وكان مستعملوها حينئذٍ يسمونها «صابون ماء البحر » إذ كانوا يتخذونها وسيلة للتنظيف في وحدات المغاسل المتنقلة ، التي كانت كثيراً ما تحل في مراكز المياه العسرة والأراضي الوعرة، ولغيرها من أشتات الأغراض الصناعية .

وأحدث أصناف المنظفات الصناعية الكيميائية يؤلف من أنواع شتى من المواد الكيميائية وتسمى (صناعية) لأنها اخترعت نتيجة لمباحث كيميائية عصرية . على حين أن صناعة الصابون قديمة العهد . والصابون نفسه تركيب صناعي كيميائي ينتج من تفاعل الصودا الكاوية مع الشحم .

وهذه المواد المنظفة تستطيع أيضاً تفكيك الشحم ، الذي يتعذر مزجه بالماء بأية وسيلة أخرى ، فيتحول الشحم الى دقائق صغيرة يمكن تعليقها في الماء ثم جرفها كليةً معه على حين أن الصابون العادي ينعقد حبيبات لا تذوب مع الكالسيوم وذلك في المياه العسرة ، كما إنه يُتلف بالمحاليل الحمضية التي قد تحتاج اليها المغسلات والتي تتطلبها أيضاً عمليات الغسل الصناعية . أما المواد الكيميائية المنظفة فكثير منها ، على عكس الصابون ، ذات تأثير نافع في المياه العسرة ، فيتيسر استعمالها في المحاليل التي ليست حامضة أو قلوية .

ويتاح صنع هذه المواد المنظفة أسوةً بالصابون ، إما حبيبات،وإما رقاقاً،وإما سوائل، كما يتسنى جعل بعضها قوالب للتنظيف والتبرج عامة .

عوض جندي

باب المراسلة والمناظرة

النظائر والطاقة الذرية

كتب صديقي الأستاذ جريس الشرايحة مقالة في « المقتطف » عدد مارس ١٩٤٧ — بعنوان «النظائر وكيمياء النواة » . والتقيت بالاستاذ غير مرة قبل أن يكتب المقالة وبعد أن كتبها ، وتباحثنا في الموضوع ، ولكن كنا نفترق دون اتمام البحث . وخلاصة رأي الأستاذ ما يلي : ما دامت جميع نظائر العنصر تتفق في العدد الذري والطيف والصفات الكيميائية والاشعاع ، فلماذا نرى اختلافاً في نتائج نظائر اليورانيوم ، أي ان القنبلة الذرية تصنع من النظير (٢٣٥) لا من النظيرين(٢٣٨) و (٢٣٤) . ويعزز الأستاذ قوله بالمثال الآتي : وهو يمكن أن نحصل على ماء اذا مزجنا ذرتين من الهيدروجين رقم (١) و من نظيريه الديتوريوم أو التريتوريوم مع ذرة اكسجين . ثم يسأل الأستاذ اذا كان هنالك نوعان من الكيمياء ، كيمياء تخص مركبات الذرة الخارجية ، وكيمياء تخص مركبات الذرة الداخلية .

هذا مجمل قول الأستاذ والأسئلة التي أوردها ، ومن أراد زيادة فليراجع مقاله .

لا أريد أن أدخل في تاريخ كشف النظائر ولكنّ هنالك أسس أخرى عليّ أن أبينها قبل الشروع في ايضاح المسألة التي نحن بصددها .

والحقيقة ان الوزن الذري لأي عنصر مّا أكبر من العدد الذري . ذلك لأن النواة لا تتركب من بروتونات وألكترونات فحسب — كما كان الرأي سائداً قبل عام ١٩٣٢ — بل هنالك جسيمات أخرى تتركب منها النواة غير ما ذكرنا . ومن هذه الجسيمات النيوترون (المحايد) ، وهذه الجسيمة لها وزن يقارب البروتون ولكنها خالية من كل شحنة كهربائية . هذا ما أردت أن أبينه قبل الشروع في الاجابة على أسئلة الأستاذ .

ان سؤاله فيما إذا كان هنالك كيمياء تتعلق بالذرة وأخرى تتعلق بالنواة أقول : إنه سؤال وجيه لمن أغلقت أمامه معضلات العلم . لقد أصبح معلوماً ان الكيمياء تخص مركبات

الذرة الخارجية أي ما يتعلق بالصفات الخارجية للذرة ، أما النواة ومركباتها فهذه من اختصـاص علم الطبيعة . لأن نواة الذرة تتركب من جسيمات هي في غاية الدقة وهي التي تعين صفة العنصر . فهذه الجسيمات يسري عليها قانون يشبه قانون الجاذبية وقواعد تشبه قواعد الكهرباء . أقول تشبهها لأن القوانين المعلقة بهذه البحوث لها رموز وأعداد وحلول تخص نوعاً من الحساب حولها فقط لأن قانون الكتل الكبيرة والتيارات الكهربائية الكثيفة لا يسري عليها . اذاً فكل البحوث التي تخص مركبات الذرة الداخلية هي من خصائص علم الطبيعة ، أما أهمية الكيمياء ، وخصوصاً الكيمياء الطبيعية لا تنكر في أبحاث النشاط الاشعاعي وتجارب تغيير العناصر وميزاتها .

فوجه الشبه الذي قدمه الأستاذ بين مزج ذرتين من الهيدروجين أو أحد نظائره مع ذرة اكسجين للحصول على ماء ، وبين طاقة نظائر البورانيوم المختلفة هو شبه وجه بعيد جداً . لأن مزج الأول هو من خصائص الكيمياء ويمكن فصلها عند الضرورة . ولكن استخراج الطاقة الكامنة من الذرة هي خصائص الطبيعة . لأن الأول هو مزج ذرة بأخرى . أما الثاني فهو شطرها

ولقد أصبح من الجلي ان الذرة لا تتركب من ألكترونات وبروتانات فقط ، وإنما هنالك جسيمات أخرى كالنيوترون التي تزيد في كتلة الذرة لأن هذه الجسيمة تعادل البروتون وزناً ولكنها خالية من كل شحنة كهربية ، نخلوها من الشحنة الكهربية جعلها أفضل أداة لشطر الذرة . فلها أهمية كبرى في تغيير العناصر وزيادة النشاط الاشعاعي وهبوطه ، حسب السرعة التي تسير بها . فمثلاً اذا استقر نيوترون واحد في نواة احدى العناصر أحدث من ذلك العنصر نظيراً مستقراً وزاد ترتيبه في الجدول الدوري درجة واحدة ، لأن عـدد الالكترونات التي في المحيط هي التي تعين العدد الذري للعنصر كما أن عدد البروتونات التي تحويها نواة الذرة وغـيرها من الجسيمات هي التي تعين الوزن الذري للعنصر ، ونحصل على عدد النيوترونات التي تحويها نواة الذرة بواسطة طرح عدد البروتونات من الوزن الذري. لنأخذ مثلاً عنصر البورانيوم الذي عدده الذري ٩٢ والوزن الذري ٢٣٨ للنظير الأول ٩٢ ألكترون في الخارج تقابل ٩٢ بروتون في الداخل

إذن : ٢٣٨ — ٩٢ = ١٤٦ نيوترون داخل نواة النظير الأول للبورانيوم
أما النظير الثاني وهو ٢٣٥ — ٩٢ = ١٤٣ » » » » الثاني »

وهكذا . فالنظائر تختلف باختلاف عدد النيوترونات التي تحويها النواة . وأبسط مثال على ذلك هو الديتوريوم الذي نواته تحتوي على نيوترون واحد وبروتون واحد وهو المعروف بالهيدروجين الثقيل وان الماء المصنوع منه لا يستحسن شربه ولو ان الأستاذ سوّاه بالماء المعمول من الهيدروجين ذي الرقم (١)

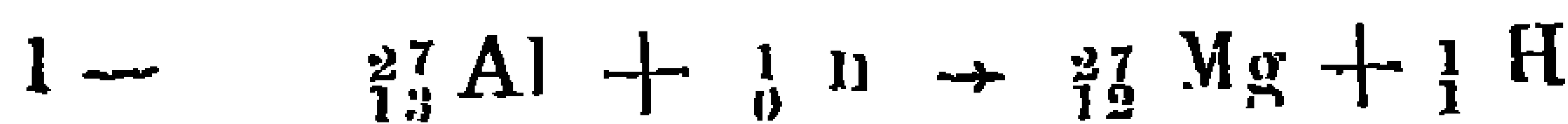
رأينا ان من مركبات الذرة الأساسية النيوترون ، ورأينا بعض أهميته في الأبحاث الذرية ولكن حتى أجيب على سؤال الأستاذ الرئيس وهو هل نظائر اليورانيوم لها نفس الطاقة ، أشرت الى أهمية النيوترون حتى يتسنى فهم ما سيأتي .

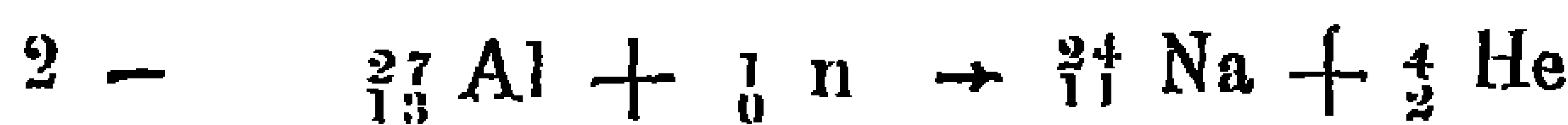
١ — عندما يدخل النيوترون الى نواة العنصر يحذف بروتوناً من الذرة . وبما أن الوزن الذري يتبع عدد البروتونات وهو بدوره يقرر العدد الذري فهكذا عند دخول النيوترون وخروج البروتون ينزل العنصر مرتبة واحدة في الجدول الدوري بينما كتلته تبقى كما هي نظراً لتعادل وزن النيوترون مع البروتون المحذوف .

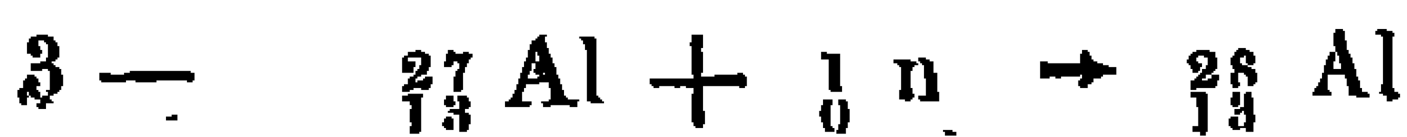
٢ — إن دخول النيوترونات الى النواة أحياناً يبعث دقائق ألفا ، وهكذا فالعنصر الحاصل بعد هذا الفعل ينزل عدده الذري وحدتين أقل من العنصر الأصلي ، في الجدول الدوري وتنزل كتلته ثلاث وحدات وذلك لأن دقائق ألفا هي ذرات هيليوم أي عدده الذري (٢) ووزنه الذري (٤) أي فيها بروتونين ونيوترون مساوي لكتلة البروتون . اذاً أصبحت الكتلة ثلاث وحدات والعدد وحدتين

٣ — اذا كان دخول النيوترون لم يحدث أي من الأحداث السابقة ، فالنيوترون يتحد مع النواة وهذا يحدث نظيراً أعلى للعنصر الأصلي .

واليك البيان بمعادلات كيميائية للحالات الثلاث السابقة ، في عنصر الالومنيوم


1 — $^{27}_{13}Al + ^{1}_{0}n \rightarrow ^{27}_{12}Mg + ^{1}_{1}H$


2 — $^{27}_{13}Al + ^{1}_{0}n \rightarrow ^{24}_{11}Na + ^{4}_{2}He$


3 — $^{27}_{13}Al + ^{1}_{0}n \rightarrow ^{28}_{13}Al$

وربّ سائل يقول كيف الحصول على مثل هذه النتائج والعنصر هو نفسه في الحالات الثلاث ، له نفس عدد الجزيئات والكمية ؟ والجواب هو ، أنه في الحالتين الأوليين يكوّن النيوترون سريعاً جدًّا وفي الحالة الثالثة يكون أقل سرعة أي أن سرعتها انتهت في ذلك الموضع فاستقرت هناك . أما إذا كانت سرعة النيوترون أكثر قليلاً فانه يصطدم في النواة مع البروتون اصطداماً مطاطيًّا . وهذا النوع من الاصطدام يسبب هبوطاً في طاقة النيوترون ولهذا نجد في كثير من الحالات في شطر النواة استعمال الهيدروجين الثقيل ، وذلك لقدرته على الانتشار أكثر من أي عنصر آخر ، كما أنّ فعل البروتونات مع أشعة بيتا لها نفس فعل النيوترونات أي

نيوترون = بروتون + جسيمات بيتا

ولقد مرّ بنا أن بعض العناصر اذا قذفت بنيوترونات سريعة جدًّا انطلق منها أشعة ألفا كما أنّ بعض العناصر المشعة نفسها تطلق هذه الأشعة . وأشعة ألفا تتفاوت طاقتها حسب العنصر . ولقد كانت هذه الأشعة قبلاً البناء الأساسي لدراسة الذرّة . ومن هذه الأشعة ودراستها انكشف لنا نوع جديد من البحث وهو درجات (استواءات) الطاقة . ولكن اذا اختلفت مقادير سرعة النيوترونات حصلنا على مقادير أعلى من الطاقة — في بعض الحالات — فمثلاً اذا اتحد نيوترون بنواة أحد العناصر فهذا الاتحاد يحدث طاقة عالية تقدر من ٧ — ٨ × ١٠^٦ ألكترون — فولت . واذا حصلنا فعلاً على هذه الطاقة فإنها تكون بشكل أشعة جمّا .

ولقد دلت التجارب أنّ النيوترون لا يلقى صعوبة كبيرة في اختراق نواة اليورانيوم وذلك لتجردها من الشحنة الكهربائية ، ولنرى ذلك في نظائر اليورانيوم .

نعلم أنّ جميع نظائر اليورانيوم لها عدد ذري واحد وهو ٩٢ ، ونعلم أنّ النظائر تختلف باختلاف عدد النيوترونات التي تحويها النواة . ولنأخذ مثلاً النظير ٢٣٥ ، هذا يحوي ١٤٣ نيوتروناً كما أنّ النظير ٢٣٨ يحوي ١٤٦ نيوتروناً ، ونرى النظائر تتصرف تصرّفاً يختلف بعضها عن بعض ولهذا نحتاج الى قذائف من النيوترونات ذات سرعة فائقة لاستخراج الطاقة الكامنة في النظير ٢٣٨ والذي يحوي ١٤٦ نيوتروناً نظراً لاستقرار نواته ،

بينما تحتاج في حالة النظير ٢٣٥ والذي يحوي ١٤٣ نيوتروناً أي مقذوفات من النيوترونات بطيئة . وهكذا اذا صنعت القنبلة الذرية من النظير ٢٣٨ احتجنا الى أن نركب سيكلتروناً في القنبلة لقذفها بنيوترونات سريعة حتى يتمكن من استخراج الطاقة الكامنة فيها .

أما في حالة النظير ٢٣٥ فتحتاج الى نيوترونات بطيئة. وهذا فالقنبلة الذرية تتركب من كربون ويورانيوم ٢٣٥ يفصل بينهما معدن الكادميوم مع مقدار كبير من النيوترونات . وميزة عنصر الكادميوم هو امتصاص النيوترونات البطيئة . وليس عنصر الكادميوم وحده له هذه الميزة ، بل هنالك عناصر أخرى مثل نورونيوم والسماريوم وخصوصاً الجودالنيوم . وهكذا في هندسة القنبلة الذرية يوضع رقاس ينطلق في وقت معين ويخرج معه أصابع الكادميوم الموجودة في القنبلة . عندئذٍ يحصل تفاعل النيوترونات مع نوى اليورانيوم ٢٣٥ فتخرج طاقته . لأنه كلما كانت النيوترونات أبطأ كان امتصاص النواة لها أسهل . ولقد وجد البحث نوى عناصر أخرى تتفاعل مع النيوترونات البطيئة وتعطي طاقتها مثل النبتونيوم ، والبلوتونيوم وبعض نظائر الثوريوم ، أما نظير اليورانيوم ٢٣٨ فهو أيضاً يمتص النيوترونات البطيئة ولكنه لاينشطر بل يتكون نظيراً آخر وزنه الذري ٢٣٩ وقد دعي هذا النظير بلوتونيوم وهذا العنصر له نواة مستقرة ولكن اذا قذفت بنيوترونات سريعة جداً فالاشعاع والطاقة حاصلة لا محالة. وهكذا الحال في العناصر ذوات النواة المستقرة فإنها اذا قذفت بنيوترونات سريعة فانها تعطي طاقتها . ومن هنا بدأ التفكير باستغلال الطاقة الذرية في الصناعة .

والآن أجمل القول :

١ — تختلف النظائر باختلاف عدد النيوترونات التي في نواتها

٢ — لا يوجد كيمياء ذرة وكيمياء نواة فالكيمياء تخص الحقل الخارجي للذرة بينما الطبيعة تخص مركبات النواة

٣ — ان استخراج الطاقة الكامنة في نظائر اليورانيوم ممكنة على شرط ان تستعمل قذائف من النيوترونات بسرعات متفاوتة حسب استقرار نواة العنصر أو النظير فمثلاً تحتاج الى نيوترونات ذات سرعة فائقة للحصول على الطاقة الكامنة في النظير ٢٣٨ بينما تحتاج الى نيوترونات بطيئة في حالة النظير ٢٣٥ نظراً لعدم استقرار نواته . فاذا دخل النيوترون الى النواة شطرها وخرجت طاقتها .

القدس فؤاد جمعان

تعليقات أدبية — ردّ على توضيح

قرأت في المقتطف وفي عدد يوليو ١٩٤٧ توضيحاً لشاعر الوادي — محمد الصاوي عمار — حول نقدي للقصيدتين (برلمان الطبيعة، وتلمس في الظلام) وكان الشاعر في توضيحه يؤكد على درج همزة الوصل بعد (ال التعريف) مستشهداً بقوله تعالى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » وقبل أن نردّ على قوله ينبغي أن نقول كلمة موجزة عن القرآن الكريم .

القرآن كتابٌ عربيٌّ مبين « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم » نزل تأييداً لدعوة الرسول (ص) ودستوراً لأمته . ولقد سمح الرسول في بدء الاسلام أن يقرأه العرب على لحونهم بما فيها من فتح وإمالة ومدٍّ وقصر تيسيراً للقراءة وتسهيلاً للناس . وبعد اتساع الفتوح وانتشار العرب اضطربت السلائق ونشأت قراءات غير صحيحة فتجرّد قوم لضبط قراءته فنشأت القراءات السبع المعوّل عليها للقرّاء السبعة وهم « أبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن كثير ، ونافع بن نعيم ، وعبدالله بن عامر ، وعاصم ابن بهدلة الأسدي، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلي بن حمزة الكسائي » وتلي قراءات هؤلاء ثلاث قراءات صحيحة متواترة وهي قراءة أبي جعفر المدني ، وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي، وقراءة خلف بن هشام . ومع هذا وعند ما فشا اللحن وخيف على القرآن . ضبط أبو الأسود الدؤلي أواخر الكلم في المصاحف بالنقط بأمكنتها المعروفة الآن ، وكتبها الناس بمداد مخالف . وبعد تغاير أشكال الخط وتشابه أوضاع الحروف والتباس بعضها ببعض كالجيم بالحاء والدال بالذال أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب فيه الحروف للكلمة ثمّ جاء بعد ذلك الخليل بن احمد فوضع الشكل على هذا النمط المعروف ، فحلّ محل نقط أبي الأسود . هذا ما أوجزناه عن كتاب تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات . ومنه نستنتج على أن القرآن لم ينزل محركاً .

وإذا ما رجعنا الى الآية فيسرني أن أخبر (شاعر الوادي) بأني دققتها في (سورة الممتحنة) من المصحف الشريف طبع مطبعة كريمي (بومبي) فوجدت كلمة (الاسم) ساكنة اللام وثابتة الف الهمزة ومكسورتها . فما هو السبب ؟ ان السبب بلا شك ينكشف من قاعدة التقاء الساكنين النحوية . فاذا قلنا (لم يكمل الامتحان) فالهمزة الأولى تدرج وحينئذٍ يلتقي لامان ساكنان فيكسر الأول ويثبت الثاني على السكون شرطاً ولا يمكن ان يسكن الأول ويكسر الثاني لأنه علاوة على انه ينبو عن الذوق فهو غير مسموع، وإذن فأصبح ثبوت الهمزة بعد (ال التعريف) واجباً وغيره خاطئاً وفي هذا فصل الخطاب . وأما قول شاعر الوادي بأن البيت الثاني فيه تصحيف فمحرر المقتطف أدرى به لأن مسودته عنده

ولكني أستبعد التصحيف لأن زيادته كلمتان . هذا ما أردنا عرضه للشاعر محمد الصاوي عمار، وله منا التحيات .

نقدٌ عروضي

من عادتي ان أقرأ قصائد الشاعر عدنان مردم بك لما تمتاز به من عاطفة جياشة، ومشاعر رقيقة ، وخيال وثاب ، يرود رحاب الفضاء كما رادته حمامته الطائشة في قصيدته المسماة (الحمامة الطائشة) تلك القصيدة ذات الديباجة السهلة المنظومة على البحر الكامل والتي تكاد تكون مصرعة إذ أن أكثر عروضاتها وأضربها (فعِلن) ولكن بالرغم من بنيانها الكامل المرصوص وجدت فيها بيتها الأخير مضطرب الوزن وهذا نصه .

اني لأهوى كلّ طائشـــة ضلت وقد نزحت عن ايكها الجددا

لا شك أن من يزن هذا البيت يجد فيه زيادة هذا الجزء من العجز (ضلت و) كما يجد أن صدر البيت من الكامل وعجزه على حالته الحاضرة من البحر البسيط

ولكي يكون تام الوزن يجب ان يوضع على الوضع الآتي من النظم

اني لأهـــوى كلّ طائشة ضلّت — الى إيكٍ لها — الجددا

ووزنه . مستفعلن مستفعلن فعِلن مستفعلن مستفعلن فعِلن

هذا والقصيدة موجودة في مقتطف يونيو لهذه السنة .

ولقد قرأت في مقتطف يوليو لهذه السنة أيضاً قصيدة رائعة بعنوان (فراق) والحق ان القصيدة عبارة عن أنفاس مصطلية بنار لوعة الفراق المحرقة ، لا بل هي دموع سخينة متناثرة على رمال صحراء الفراق المتوهجة ، جادت بها قريحة الشاعر المبدع (محمد فهمي) ولقد لفتت نظري غفلة عروضية في هذا البيت وهو من مجزوء الرمل .

« من رأى ؟ ... هول هذا المنظر الدامي ... مطيقاً »

ان نقطة اضطراب الوزن هي في كلمتي (من رأى) إذ أن وزنهما (فاعلاً = فاعلن) غير موجود في حشو الرمل والمدة ليست للهمزة ، بل للألف اللينة الساكنة، ومهما يمدها الشاعر لا يمكن أن تكون (فاعلات) فعليه يجب أن يصحح البيت وليكن فرضاً على هذه الصورة

« من رأى ؟ . . هولاً لهذا المنظر الدامي . . مطيقاً »

ووزنه : — فاعلاتن فاعلاتن — فاعلاتن فاعلاتن

هذه غفلات وددنا التنبيه اليها — ويا ما أكثر ما تعرض للأديب — يحدونا الى ذلك قول الدكتور يعقوب صرّوف : (وأجل في العلم مناقشةً لحياة العلم مناقشته)

بشير السعد — القورنة — العراق

باب الأخبار العلمية

د . د . ت . المخفف

لا يقتل السمك

أثبت ثقات العلماء الأمريكيين المتخصصين في علم الحياة ، بنتيجة تجاربهم الست عشرة الخاصة برش مياه بحيرات وادي تنيسي وبركه بسائل د . د . ت المعروف باسم إيروزول وذلك بالطائرات ابتغاء إبادة ما يوجد فيها من البعوض ، أن تلك المادة لم تقتل السمك ولا أنواع الحيوانات الصغيرة التي تعيش في الماء فيتغذى بها السمك ، بينما كادت تهلك البعوض بأسره . وقالوا إن المزيج الذي استعملوه لتلك الغاية كان بنسبة $\frac{1}{10}$ رطل انجليزي لكل ما كانت مساحته فدانا انجليزيا .

أنابيب من العجائن الكيميائية[1]

تحل محل الشرايين

أعلن الدكتور ث . ا . هفناجل الطبيب بثغر بوسطن في تقرير قدمه الى كلية الجراحين الامريكية أنه قد نجح في استعمال أنابيب من مادة اللبوسيت[2] المصنوعة من العجائن الكيميائية ، طولها قدر عقدة أصبع ، وذلك بدل قطع تليفة من الشريان الأبهر « الأورطي » في الحيوانات ، عن طريق تثبيت هاتيك الأنابيب في المواضع الخالية بوساطة غُرَز من خيط حريري مضفور صنع لذلك القصد خاصة . فتبيَّن له عقب إتمام تلك الجراحة ، أن ذلك الشريان المتصل بالجزء اللبوسيتي ، قد قام بوظيفته خير قيام ، في نقل الدم ، كما يرام . مع كون الجراح المشار اليه لم يلجأ الى الاستعانة بالأدوية الضرورية لمثل هذه الحالة ، ومنها الهيبارين[3] والديكومارين اجتنابا لتجمد الدم

(١) راجع مقتطف يوليو سنة ١٩٤٠ (٢) مادة اللبوسيت هي من مخترعات مصنع هادبون، ومنها تصنع أدوات شتى للسيارات وغيرها (٣) راجع مقتطف يناير ١٩٤٥ باب الاخبار العلمية

البحر الميت وكنوزه (١)

جاء في البرقيات العمومية من لندن في الثاني والعشرين من شهر يوليو الماضي ما يأتي: —

قال مصدر في الحي المالي بلندن لوكالة الانباء العربية إن عدداً من كبار المصريين في الاسكندرية، اشتركوا في المفاوضات التي قيل انها جرت أخيراً لشراء امتياز البحر الميت الذي يمتلكه مستر ميتلند ادواردز. فتوخيت إعادة وصف هذا البحر ومنافعه الاقتصادية فيما يلي افادةً للقراء:

لا يحتاج المستحم، من الأحداث في البحر الميت الى أية أداة كانت، من أدوات الوقاية من الغرق. لأن ماء ذلك البحر العجيب (الذي تحيط به الأرض من كل جهة ويصب فيه نهر الأردن) يحتو على كثير من الأملاح الذائبة فيه. حتى أن من يسبح فيه يرى نفسه طافياً على الماء كأنه كيس منفوخ بالهواء. والواقع أنه من الصعب على الاطلاق، الغطس في الماء غطساً كافياً. لأن ماءه يشتمل على نحو ٢٤ ./. من الاملاح المختلفة. ويسمّى هذا البحر علميًّا «بحيرة الأسفلت» وهو واقع في وادٍ عميق بفلسطين وطوله ٤٦ ميلاً، وعرضه يتفاوت بين ثمانية أميال وعشرة أميال. ولما كان ذلك البحر تحدق به الجبال، فانه يتميز بميزة غريبة هي كون الجداول تصب فيه من الشرق والغرب والجنوب، كما يصب فيه أيضاً من الشمال نهر الأردن المشهور جدًّا في الكتاب المقدس. وليس للبحر الميت منفذ. ومن المحال أن يتفرع منه أي نهر. وهذا أمرٌ بدهي، لأنه منخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط نحو ١٣٠٠ قدم، ويبعد عنه نحو ٥٠ ميلاً، وأقصى عمقه ١٣٠٠ قدم.

وسبب تسميته بالبحر الميت، كونه محاطاً من كل جهة بأراضٍ جدباء، ولا تعيش فيه إلاّ قلائل من المخلوقات المائية، وذلك لفرط ملوحة مائه. ومن الأقوال المأثورة بشأنه، أنه واقع فوق أطلال مدينتي سدوم وعمورة المذكورتين بسفر التكوين من التوراة. وهما تانك المدينتان اللتان دمرهما الله تعالى لتفاقم شرور سكانهما. ولكن العلماء يستبعدون ذلك القول. وفي البحر الميت ثروة معدنية وكيميائية لا تقدر بمالٍ. وقد كشفت عنها جماعة من الكيميائيين البريطانيين الذين نالوا منذ نحو عشرين سنة، امتياز استغلال تلك الدفائن الثمينة من حكومة فلسطين. وقد قدرت محتوياته من البوتاسا النقية وأملاح البروم والجبس وكلورور المغنيزيوم وغيرها من الفلزات المفيدة للزراعة والصناعة، بما

(١) راجع مقتطف اكتوبر سنة ١٩٢٩ باب الاخبار العلمية.

يعادل ثلاثة أمثال دين الحكومة البريطانية للولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الأولى. ومما يروى في هذا الصدد أن الدكتور جورج كلود العلاّمة الفرنسي المشهور، أبلغ حكومته أن البحر الميت، يحتوي على ذهب يقوَّم بخمسين بليوناً من الدولارات وهذا عدا ثروته الكيميائية. وأن ثلث ذلك الذهب الابريز، كما يعتقد الدكتور كلود، يتاح استنباطه بالوسائل العلمية الحديثة في خلال ١٥ سنة تقريباً.

آلة كهربائية صغيرة للخياطة

اخترعت حديثاً في انكلترا آلة كهربائية للخياطة، مصنوعة من الالومينيم، تكاد تبلغ حجم آلة الكتابة «التايبرايتر» الصغيرة الممكن حملها من مكان الى آخر. وثقلها ١٥ رطلاً انكليزيًّا. وتوضع في علبة من الالومينيم أيضاً، تسهيلاً لنقلها حيث تريد صاحبتها. وعند ما تبلغ بها مكان العمل، تفتح العلبة وتجعلها كنضدة لحمل الآلة أيضاً في أثناء الخياطة. وتستعمل فيها كرة معدنية بدلاً من (الحدافة) طارة الادارة. ويُلقى الضوء على ابرتها، من أنبوب من العجائن الكيميائية، يقوم بجني الأشعة لكي تضيء منطقة العمل، ويسيطر على سرعتها ذراع معدني يدور بالقدم.

الراديو المصور(١) في حجر الجراحة بالمستشفيات

تمت منذ بضعة أشهر في مستشفى جامعة جون هوبكنز، تحت اشراف مندوبي شركة الراديو الأمريكية، خمس جراحات، قصد تجربة الراديو المصور بصفة كونه وسيلة من وسائل تعليم طلبة الطب، حيث استعانوا على تنفيذ رغبتهم بآلتين حساستين جدًّا من آلات التصوير الفوتوغرافي. فنصبت إحداها على مسند خفيف يعلو منضدة الجراحة علوًّا رأسيًّا قدره أربع أقدام ونصف قدم. ثم رُكّبت المصورة الثانية ذات العدسة الخاصة بالتلفزة في الرواق الملحق بحجرة الجراحة. وذلك بينما تمَّ من قبل ضبط المصورة التي نصبت فوق منضدة الجراحة، وفتحها فتحاً أوتوماتيكيًّا. ثم وضع على المنضدة ميكروفون فكان ينقل صوت الجراح عند قيامه بمباشرة الجراحة وشرحه لتفصيلاتها، على حين نصبت عشرة أبواق لاذاعة هاتيك المعلومات الجراحية القيمة فتلقاها ٣٠٠ طبيب. وعلى هذا النمط أصبح متاحاً بالراديو المصور، اجتناب القيود المادية الخاصة بمدرجات حجر الجراحات وهي التي تجعل مشاهدة الطلبة لدقائق الجراحات ضمن نطاق محدود.

عوض جندي

---

(١) راجع مقتطف ابريل سنة ١٩٣٨

يكتشفون أمريكا الشمالية

قبل كولمبس بقرن ونصف قرن ؟

قام العالم الدنمركي بنشر مولر ببحوث في الشاطىء الغربي من جرينلند ، ونشر عن أبحاثه تقريراً جاء فيه : أنه لا يوجد أثر للمهاجرين القدماء الذين أتوا من اسكنديناوه وحطوا رحالهم في ذلك الجزء من جرينلندا ولا يمكن تفسير ذلك الا بأنهم هاجروا الى قارة أمريكا الشمالية قبل رحلة كولومبس بمائة وخمسين عاماً على الأقل ، وبذلك يثبت العالم الدنمركي أن الجنس الأبيض عرف أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس برحلته المشهورة

ويقول هذا العالم ، انه قد حدثت اقامتان في جرينلندا وذلك في القرن العاشر حين هاجر اليها قوم من ايسلندا ، نزل بعضهم على الشاطىء الشرقي وأقام الآخرون في شاطئها الغربي .

وظل النازلون بالشاطىء الشرقي على صلة بأهل أوربا حتى منتصف القرن الخامس عشر تقريباً ، وتدل مخلفاتهم الأثرية على أنهم كانوا يعيشون عيشة ضنك وبؤس . اذ تدل هياكلهم العظمية على آثار من سوء التغذية ، والمفهوم أن معظمهم قتلوا ضحايا الاسكيمو .

***

أما أهل الشاطىء الغربي من هذه الجزيرة فيبدو أنهم كانوا يعيشون في رغد وسلام ، ويظهر أنهم كانوا يختلطون بأهل الاسكيمو اختلاطاً كبيراً .

وليس هنالك أثر يدل على أنهم كانوا يقتلون ، أو أن مزارعهم كانت تذهب طعمة النيران ، ومع ذلك فان بعثة انقاذ ، زارت هذه المنطقة التي كانوا يعيشون بها عام ١٣٧٠ فلم تعثر على أثر لهم وكانت الماشية تضرب في الحقول شأن الوحوش البرية ، وكانت منازل القوم سليمة لم يمسها ضرر ، أما أهلها فلم يعثر لأحد منهم على أثر .

فإلى أين ذهب هؤلاء ؟ ما دام هؤلاء القوم قد نزحوا عن موطنهم بطريق البحر ولم يعودوا الى إيسلندا أو النرويج ، فلا محيص من ذهابهم الى أمريكا ، وفي أمريكا بالذات يجب أن يقوم البحث عن آثار إقامتهم ، وهل يا ترى نزلوا في نيوفوندلاند أو لبرادور أو منطقة البحيرات العظيمة ، فذلك أمر يتكفل الزمن ببيانه أما المقطوع به ، فان هؤلاء القوم الاسكنديناڤيين القدامى الذين كانوا يعيشون في الشاطىء الغربي من جرينلندا قد هاجروا الى الأرض الأمريكية عندما ساءت علاقتهم بالاسكيمو ، أو لسبب قريب من ذلك ، وهذا ما يغير احدى دعاوى التاريخ التي نعرفها وهي أن كولومبوس أول من زار امريكا من الجنس الابيض الاوربي ، فقد نزل هؤلاء البيض بأمريكا قبل رحلته اليها بمائة وخمسين عاماً .

الروماتزم وأسبابه

جاءت النتائج الباهرة التي حققها الطب الحديث في معالجة أمراض الروماتزم وآلام المفاصل والأمراض الأخرى الناتجة عن نقص التغذية صورة صحيحة لتقدم العالم العلمي الفائق. وحيث أن هذه الأمراض لا تؤدي بحياة المصابين بها إلاّ بنسبة ضئيلة جداً وهي ليست من الأمراض السريعة الانتشار فلا تسبب حدوث أوبئة على الاطلاق وحيث أنها ليست ذات تأثير فعّال في الحياة العامة غير أنهـا كثيراً ما تسبب للمريض آلاماً مبرحة وانحطاطاً عامّـاً في جميع أجزاء جسمه كما تعاني أسرته قلقاً شديداً وتثير عدم النظام في المصنع الذي يعمل فيه.

وقد يجد الطبيب صعوبة كبيرة في تعريف الروماتزم. ولكنه تبين أخيراً أنه من الأصوب وصفه بأنه اضطراب في وظائف الجهاز العضلي أو العظمي يسبب آلاماً وارتخاء في الحركة. أما أسبابه فلا تزال لسوء الحظ غامضة.

وحاول أعضاء جمعية مكافحة الروماتزم تقسيم الاضطرابات الروماتزمية الى عدة أقسام واطلاق إسم معين على كل منها. ولكنهم قرروا أخيراً تقسيمها وتسميتها بما يلي:

أولا — التهاب « المفاصل » وهو الاضطراب الذي « يصيب » المفاصل عادةً.

ثانياً — « الروماتزم غير المفصلي » وهو الاضطراب الذي يصيب العضلات والاربطة وسائر أجزاء جهاز الحركة الدقيقة

الصلة بين الحرفة والروماتزم

ويلاحظ أن لنوع الحرفة التي يزاولها الفرد صلة وثيقة بنوع الروماتزم الذي يتعرض له. فلو قسنا الحرف التي ينهض بها الذكور كالزراعة وأعمال المناجم والتعدين وأعمال البناء وصناعة الأثاث ومزاولة بعض الأشغال الخاصة والأعمال الكتابية وأعمال النقل وجدنا أنّ مرض التهاب المفاصل يشتد انتشاره بوجهٍ خاص بين عمال المناجم. أما داء النقرس فيصيب عمال البناء

وإذا قسنا أنواع الحرف التي تؤديها الاناث كالبائعات أو الموظفات في المحال التجارية والعاملات في المنازل والعاملات باليومية والغسالات والكاتبات والخياطات والعاملات في المطاعم وجدنا أن داء التهاب المفاصل ونوعاً آخر من أمراض المفاصل التي تصيب عادةً المتقدمين في السن (تصلب مفاصل العظام) ينتشر بين العاملات في المنازل بنسبة مئوية كبيرة والنساء عامة أكثر عرضة لمرض التهاب المفاصل من الرجال الذين كثيراً ما يكونون عرضة لمرض الروماتزم غير المفصلي

أسباب الروماتزم لم تزل غامضة

أما أسباب الروماتزم فلا تزال غير

معروفة . ومن العوامل الهامة التي يمكن أن تسبب هذا المرض العدوى والحساسية واضطرابات الغدد والوراثة . وقد اتضح بعد إجراء البحث الدقيق أن مرض الروماتزم الذي يجيء نتيجة لسبب من هذه الأسباب باستثناء الأخير منها – وهو الوراثة – مضمون علاجه .

ووجد في عيادة من العيادات الطبية في لندن بعض حالات التهاب المفاصل ظهر أن لاختلال المعيشة اتصالاً وثيقاً بها . فالأعمال المضنية مثلاً والمتاعب المالية والأمراض وموت أحد أعضاء الأسرة وانفجار القنابل في الاغارات الجوية في خلال الحرب العالمية الثانية وسوء حالة المعيشة — جميع تلك العوامل لها تأثير فعال في حدوث هذا المرض .

***

ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد أن للعوامل الجوية كذلك شأناً كبيراً في الاصابة بالروماتزم . فقد يكثر انتشاره في المناطق الشمالية ولا سيما الأجواء الرطبة .

الكشف عن آثار هامة

استأنفت مصلحة الآثار حفائر الموسم الرابع بمنطقة كوم الحصن مركز كوم حماده باشراف الأستاذ عبد الهادي حماده مدير قسم التفاتيش وادارة الأستاذ شفيق فريد سكرتير فني القسم .

وقد أجرى الحفر في ثلاث مناطق من الكوم فكشف في المنطقة الوسطى عن حوالي ٢٠٠ دفنة بعضها في الرمال أو في مقابر مبنية باللبن. والبعض الآخر داخل توابيت من الخشب أو من الجبس وجميعها يرجع الى العصر الواقع بين الدولتين الوسطى والحديثة (١٧٨٠ — ١٥٨٠ قبل الميلاد)

وعثر أيضاً على مجموعتين من الجعارين من بينها جعران من الذهب الخالص دقيق الصناعة واضح التفاصيل . ولا شك انه يؤلف مع الجعران الفضي المكتشف عام ١٩٤٥ قطعتين فريدتين ، إذ لا يوجد لهما مثيل في المتحف المصري

أما المنطقة القبلية الشرقية فقد أسفر الحفر بها عن كشف أساسات أخرى تكمل المساكن التي عثر عليها في الموسم السابق وقد وجدت دفنات الى داخل جدران المساكن.

وأما المنطقة الثالثة فتقع في الجهة الشرقية من الكوم ، وهي تقريباً في مستوى الأراضي الزراعية المجاورة لها وقد كشف بها عن حوالي ١٠٠ دفنة يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثامنة عشر ١٥٨٠ — ١٣٤٠ قبل الميلاد ، وعثر معها على عقود واقراط من الذهب والعقيق

وستستأنف المصلحة الحفر في أجزاء أخرى في تلك الجبانة الشاسعة في الموسم القادم.

اكتشاف عقار جديد « بال »

أذاع مجلس البحث الطبي لبريطانيا نبأ اكتشاف دواء بريطاني هام سيكون من أعظم الاكتشافات الطبية العالمية شأناً .

ويعرف هذا العقار باسم « بال » وظهور هذا الدواء يعني أن الزرنيخ يمكن استغلاله الآن استغلالاً كاملاً كدواء من الأدوية .

وقد عرف الأطباء منذ أعوام ان الزرنيخ أقوى في قتل بعض الجراثيم من أي مادة أخرى . كما عرفوا ان للزرنيخ قيمة عظيمة الشأن في علاج الأمراض الجلدية المزمنة والأمراض العصبية ، ولكن استخدام الزرنيخ ظل محدداً بسبب تأثيراته أو اضراره الشديدة للانسجة البشرية

على ان اكتشاف هذا العقار الجديد يعني أن هذه التأثيرات الضارة يمكن التغلب عليها سريعاً وتفاديها في أكثر الأحيان

وأذاع مجلس البحث الطبي أخيراً نبأ النجاح الباهر في التغلب على ٤٤ حالة تسمم بريطانية بالزرنيخ

وقد بدأ البحث في اكتشاف هذا العقار في الأعوام الأولى من الحرب العالمية الثانية حينما كانت أخطر الأسلحة الكيماوية التي يخشى اضرارها هو مادة « لويزيت » ومنها يشتق اسم هذا الدواء ، إذ لو سقطت نقطة واحدة من هذه المادة على الجلد لأصابته بحروق شديدة ، ولو أدرك رشاشها الأعين لابتلي المصاب بالعمى ، كما لو تسرب بخار هذه المادة السائلة الى الرئتين لأحدث فيها التهاباً حاداً ربما يفضي الى الموت

وكانت القوات البريطانية مجهزة بدهان خاص يحمي الجلد من الحروق التي تحدثها هذه المادة اذا دهن به عقب الاصابة مباشرة ولكن ذلك لا يقي الأعين ولا يمنع تسرب البخار أو الغاز الى داخل البدن

ومن المعروف ان أنشط عامل في مادة اللوزيت هو الزرنيخ . ولذلك اتجه البحث نحو ايجاد عنصر مضاد لهذا العامل له قوة تمحو أثر الزرنيخ العميق في الانسجة البشرية .

ولتحقيق هذا الغرض تألفت جماعة للبحث في قسم الكيمياء وعلم الأحياء بجامعة اكسفورد وبرياسة البروفسور بيترز

وقد نجحت هذه الجماعة في كشف سائل يزيل مفعول الزرنيخ في الجسم وأطلق عليه الاسم السالف الذكر في مقدمة هذه الكلمة .

وقد دلت التجارب التي أجريت على الأفراد المتطوعين ان هذا الدواء يشفي الجلد من الحروق اذا عولج به بعد ساعة من الاصابة وكذلك الأمر فيما يتعلق بالعين بعد عشرين دقيقة . واليوم أي بعد مرور عامين على اكتشاف هذا الدواء دلت التجارب على أن له أثراً فعالاً ضد التسمم بأملاح الزئبق كما انه يستخدم في علاج بعض أمراض القلب والأمراض الأخرى . وتجري الآن تجربة هذا العقار الهام ضد التسمم الناجم عن الرصاص والقصدير والذهب والمعادن الأخرى .



مكتبة المقتطف

١ — ألحان الحان

للاستاذ عبد الرحمن صدقي — ٤٢٤ صفحة من القطع الكبير ومحلاة بعدة صور بالالوان من ريشة الفنان بيكار — دار المعارف بمصر

لقد تناول كثير من الكتّاب حياة أبي نواس بالبحث والدراسة ، ولكن ناحية من نواحي حياته — وهي أهمُّ ما في حياته — ظلت بعيدة عن الدرس الوافي وعن البحث المتقصي .

فقد كان أبو نواس شاعراً فناناً ، وكانت الروح الفنيّة في شعره هي التي دعته الى الخروج على ما كان يتبعه من سبقه من الشعراء ، بل أنداده في عصره . خرج على وصف الطلول ، ومال الى ناحية جديدة جعل منها مادَّة للكثير من شعره . وكانت الروح الفنية فيه هي التي دفعته الى القول في هذه الناحية في حرية لم يبال معها روح العصر ، ولم يأبه لمركزه في قصر أمير المؤمنين ، وقد عاش أبو نواس في هذا المحيط ونقل في شعره ألوان هذه الحياة نقل إحساس وتجربة ، لذلك كتب لشعره في هذه الناحية الخلود .

على أنّ هذا الجانب ظلَّ — كما قلت — في حاجة الى الدرس العميق حتى سدَّ هذا النقص الأستاذ عبدالرحمن صدقي ، فكانت دراسته جديدة في بابها في الأدب العربي كما هي جديدة بين الدراسات التي تناولت حياة النواسي .

لقد تناول حياة هذا الشاعر في لهوه ، فدعاه هذا الى الكلام على الخمر التي جعل منها

الشاعر عروس غزله ، وعرض صوراً جميلة لحانات الخمر ومجالس الشراب في ذلك العصر ، وما يستتبع ذلك من مفاتن ، فكان قديراً في العرض والتحليل ، ملمّاً كل الإلمام بالدقائق في هذا الموضوع حتى استطاع أن يجعل للخمر حياة تدرس كما تدرس حياة الرجل الذي تغزّل فيها ، ثم درس العصر الذي عاش فيه الرجل وما شاع في مجتمعه من إباحية كان لها أثر كبير في الأدب .

ومن أمتع فصول الكتاب تلك البحوث التي تناول فيها الكلام على خمريات النواسي وخمريات الخيام ، فالأول كان يعاقرها لذاتها وللذاتها . أما الثاني فكان يلجأ إليها لتسكين ثورة النفس عن طريق إشباع شهوات الحس، وكذلك البحث في أوجه التناقض بين النواسي والمعرّي . إنّ هذا الكتاب يدلُّ على روح الفن المتأصلة في مؤلفه .

٢ - كأس الحياة

مجموعة قصص للاستاذ ابراهيم المصري — ١٤٣ صفحة من القطع المتوسط
دار المعارف بمصر

للأستاذ ابراهيم المصري أسلوبه العذب وفنه القصصي الجميل ، وهذه المجموعة تضم أربع عشرة قصة من وضعه ، منها ما يمسّ الجانب الاجتماعي في حياتنا فيكشف عن علل في حاجةٍ الى العلاج ينظر اليها بعين الفنان ، ومنها ما يتغلغل في صميم النفس الإنسانية فيكشف في البسيط منها والساذج عن جوانب سامية تثير الحسّ والشعور .

فقصة « بنت السلطان » على بساطتها عميقة الفكرة ، وكذلك قصة « دولت هانم » وهما مما يثير الحسّ ، ويمثل هذا الاتجاه بعضُ أقاصيص هذه المجموعة مثل « القاتل » و « العمياء » و « الحنان » وما شاكلها .

* * *

أما الأقاصيص التي عنوانها « اعتراف » و « الأرملة اللعوب » و « سلوى » و « منيرة هانم » وغيرها فهي من الطراز الذي عالج فيه الجوانب الاجتماعية في المجتمع في تحليل دقيق

٣ — فلسفة الجمال

تأليف الاستاذ ا . ف . جاريت . وتعريب الاساتذة عبد الحميد يونس ورمزي يسى وعثمان نويه — ١٤٧ صفحة من القطع المتوسط — دار الفكر العربي

أراد الأساتذة عبد الحميد يونس ورمزي يسّى وعثمان نويّه أن يخدموا هذا الجيل باشاعة الإحساس بالجمال في النفوس لأنَّ قوة النهضات لا تقوم إلاَّ على أسس من هذا الاحساس وبخاصة في هذا الوقت الذي طغت قوى الشر في النفوس فأفسدت فيها جوانب الخير وكادت تطمس معالمها . فقاموا بنقل كتاب « فلسفة الجمال » الذي ألَّفه أستاذ فلسفة الجمال في أكسفورد وكبردج ومتشيجن .

وقد تناول المؤلف في الفصل الأول تفسير الخلاف في أذواق الناس وحكمهم على الأشياء بالجمال والقبح . ثم ناقش في الفصل الثاني نظرية الجمال والحق وانتهى الى أن الجمال ليس هو الحق ، بل هو حقيقة كائنة ، وإننا في إحساسنا بالجمال لا نشعر بكشف حقائق غير معروفة قدر شعورنا بنفاذ بصيرتنا في الشعور المألوف . كما ناقش في الفصل الثالث النظرية القائلة بأن الجمال هو الخير ، ودلل على انه ليس مفروضاً أن يكون كل ما يرضينا جميلاً . ثم تكلم في الفصول الثلاثة الأخرى عن حقيقة الجمال ومثاله وعن الجمال والتعبير .

وفي الحقيقة ان هذا الكتاب المبسط في فلسفة الجمال لمن أمتع الكتب التي تبلغ بالنفس الى الهدف الذي قصده المترجمون الأفاضل وهو اشاعة الإحساس بالجمال في النفوس .

٤ — بين العلم والأدب

للاستاذ قدري حافظ طوقان — ٣٠٨ صفحة من القطع الكبير
مكتبة فلسطين العلمية

مؤلف هذا الكتاب معروف لقراء هذه المجلة منذ كان يوافيها ببحوثه التي تجمع بين دقة البحث العلمي ورقة الأسلوب الأدبي . وهذا الكتاب يجمع ما يقرب من الاربعين مقالة تناولت شتى فروع التفكير الأدبي والعلمي بالأسلوب الذي عرف في صاحبها . منها ما تناول مسائل في المجتمع كحاجتنا الى ما يحيي الخصائص العربية ، ومنها ما يتناول عالم الأرقام ، ومنها ما يتغلغل في عجائب الكون .

فالعالم يجد فيها لذة التفكير وعمقه ، كما يجد الأديب فيها لذة المزج بين الأدب والعلم وتبسيطهما . وقليل من المشتغلين بالمسائل العلمية من يوفق الى ذلك

٥ — كريم الدين البغدادي

الجزء الثالث من حلقة « أولادنا » — ١٠٨ صفحة من القطع المتوسط — دار المعارف بمصر

في مقتطف فبراير سنة ١٩٤٧ كتبت كلمة عن جهد دار المعارف في الناحية الثقافية للنشء ، وأشرت الى المهمة التي تنهض بها هذه الدار في الاشراف الفعلي على الثقافة الى جانب وزارة المعارف وتجاوزها حدود هذا الوطن الى أوطان العربية جمعاء وذلك بمناسبة صدور السلسلة التي أخرجتها بعنوان « روضة الطفل » ثم قلت ان هذه الدار آخذة بسبيل إصدار مجموعة أخرى في هذا المضمار بعنوان « أولادنا » . واليوم أعود فأكرر الاشادة بهذه الجهود الجبارة بمناسبة صدور الحلقة الثالثة من السلسلة الأخيرة التي يشرف عليها المربي الكبير الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك ، وقد صدر منها جزءان ، الأول « عمرون شاه » والثاني « مملكة السحر » .

وتمتاز هذه القصص بسموّ الخيال وحلاوة التعبير مما سيكون له أثر كبير في تهذيب ملكات الأطفال ، كما تمتاز بأناقة الطبع التي تميزت بها مطبوعات هذه الدار

٦ — آثار أدبية من الحجاز

بعد أن فرغ الأديب الحجازي الأستاذ احمد عبد الغفور عطار من إصدار ديوانه « الهوى والشباب » في العام الماضي تفرّغ للنثر فأخرج في هذا العام مجموعة من الكتب . اثنان منها للأدب الخالص وهما « المقالات » في ٢٣٨ صفحة من القطع الكبير انطوت على عدة بحوث ونظرات في الأدب والحياة . و « أريد أن أرى الله » وهو مجموعة قصصية في ١٤٦ صفحة من القطع المتوسط ضمت سبع قصص منها اثنتان مترجمتان ، والخمس وضعها المؤلف ، ولعلّ هذه القصص هي باكورة القصة في الأدب الحجازي . ثم وضع في باب التراجم ثلاثة كتب أولها « صقر الجزيرة » ويقع في ثلاثة أجزاء بلغت صفحاتها ٧٧٧ صفحة من القطع الكبير تناول فيها حياة العاهل العربي الكبير ابن سعود وأرّخ فيها للأيام

المملكة السعودية وما مرّ بحياة بطل الجزيرة خلال ذلك من الحوادث حتى دانت الجزيرة له وذلك في أسلوب قصصي شائق . وقد ضمت هــذه الترجمة من الوثائق ما يزيد في قيمتها التاريخية .

أما الكتابان الآخران ، فأحدهما عن وليّ عهد المملكة السعودية ، سمو الأمير سعود ، والآخر عن وزير الدفاع سموّ الأمير منصور ، ويقع الأول في ١٨٠ صفحة والثاني في ١٢٠ صفحة من القطع المتوسط . وقد أبان فيهما عن شخصية هذين الأميرين العظيمين اللذين ورثا عن أبيهما روح البطولة والإقدام .

٧ – ذكرى الامير شكيب أرسلان

٥٢٦ صفحة من القطع الكبير — طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

كانت لخيمة الأدب العربي في الأمير شكيب أرسلان لا تقل عن لجيمة العروبة فيه ، فقد كان علماً من أعلامه وكان من قادة الرأي الذين خلدوا اسمهم في صفحات التاريخ خلوداً يغبط عليــه . لذلك لم يكن عجيباً أن يقام له في كل بلد عربي حفل يجتمع فيه قادة الرأي وزعماء الفكر والبيان لتأبين هذا الأمير — الأمير في نسبه وخلقه وبيانه وإباء نفسه واحتماله لكل صنوف العنف والاضطهاد في سبيل تحرير الشرق العربي .

وقد قام المجاهد العربي الأستاذ محمد علي الطاهر بالوفاء لذكرى هذا المجاهد الكبير فجمع في هذا الكتاب ما قيل في الفقيد من المراثي على المنابر وفوق صفحات الجرائد ، وطبعه طبعاً أنيقاً فكان صنيعاً حسناً منه للراحل الكريم في مثواه . وقد تناول الأستاذ الطاهر حياة الفقيد بدراسة وافية تبين عن سعة معلوماته بالراحل الكريم

حسن كامل الصيرفي

كتاب الجامع لاحكام القرآن

صدر الجزء السادس عشر من كتاب الجامع لاحكام القرآن لأبي عبد الله أحمد الانصاري القرطبي وهو كسابقه من الأجزاء التي صدرت حاوية لتفاسير آيات الكتاب الكريم .

وهو يطلب من دار الكتب المصرية . وثمن النسخة الواحدة ٣٥ قرشاً يضاف إليها أجرة البريد .

من وراء الأفق

ديوان شعر للاستاذ محمد عبد الغني حسن
دار المعارف بمصر — صفحاته ١١٠ من الحجم المتوسط

الأستاذ محمد عبد الغني حسن باحث مرموق يركب العناء في سبيل التوفر على استقصاء جوانب موضوع معين أو نقد كتاب من الكتب التي تستضيفها المكتبة العربية في كل يوم . وهو في هذا المضمار ينتهج المنهج العلمي الصحيح فيرجع الى المظان يستفتيها ، ويعول على العقل يزن به الحجج ويستخلص بمعونته النتائج الصائبة .

وهو الى جانب هذا شاعر يتوخى استخدام اللفظ السهل والمعنى القريب ، فلا يعمد إلى التعقيد أو يحمل القارىء شطط الغوص وراء معنى مستسر أو مقصد خبيء .

وديوانه الأخير « من وراء الأفق » ديوان جرى فيه هذا المجرى السهل ، يصوغ عباراته وألفاظه صوغاً ميسراً ، ويستطيب أن يقول الشعر هيناً ليناً ، حتى ليسع العادي من القارئين أن يفهم مفردات قصائده وجملها بغير حاجة الى استشارة المعجمات وإجهاد الفكر .

والشاعر — على نقيض كثيرين من أترابه — مفتون بالطبيعة ، يكاد ينشد كل شعره في تصوير جمالها وروائها . ولن تجد في الديوان على كثرة ما احتواه من قصائد ، قصيدة حب أو ترنيمة هوى مع أن فرائده كافة انتظمت عقودها والشاعر لا يزال في مقتبل العمر يطلب العلم ويعزف « إلين » ويظفر برسم فتاة مرحة تعشق ظلال الصنوبر . ولذلك تجد الديوان خلواً من شعر العاطفة ، وهو في عرفي أكثر أنواع الشعر تعبيراً وإفصاحاً . ولست أدري هل تعمد الشاعر بعدما أضحى يحث الخطى الى الكهولة أن يدفن شعر العاطفة بين جوانحه ويطوي صفحاته في مكمن نفسه ، أم انه لم يجد بشعر العشق والهوى وهو شعر السليقة والسجية . ولعله قنع من شعر الحب بالعتاب والتحبيب ، ومن ذلك قوله :

في ذمة الله ليلاتي التي سلفت ... وأخضبت بالهوى فيهنَّ أوراقي
كَمْ لألأت بغنانا أيَّ لألاءٍ ... وأشرقت بهوانا أي اشراق

***

أخلفت بالصد ميثاق الهوى زمناً ... لكنني في الهوى أحكمت ميثاقي

وللاستاذ عبد الغني حسن في مجال الوصف جولات موفقة ، وإن كانت له جولات أخرى غلبت عليها الصنعة والكلفة. ومن أبياته الجميلة في وصف النيل قوله :

ينظم الله به الروض كما ينظم الناظم عقداً من جمان
لا تقولوا هو من ماء الحيا إنه يا مصر من ماء الجنان
هو أنغام على وجه الثرى وأناشيد عذاب وأغاني

ومن نظمه التصويري الرائع قوله :

ذلك الجدول يا إيلين في الغابة حالم
هو كالطفل على صدر الفتاة الطهر جاثم
يسرق الخطو كما يمشي إلى الريبة آثم
همسه فوق حصى الغابة بالفتنة ناغم
خافت الصوت كشيخ عازم التوبة نادم
وشعاع الشمس فو ق الغابة الخضراء باسم

وله في الوطنية بضع قصائد شيّع في واحدة منها جنازة الامتيازات الأجنبية التي رزحت مصر تحت عبئها ردحاً ، وحيّا في ثانية الزعيم سعد زغلول ومجدّ في ثالثة على أيدي نسوة الشرق وقد ائتلف عقدهنّ في مؤتمر نسوي عام .

ولست أدري لِمَ اكتفى الأستاذ عبد الغني بأن يطوي ديوانه هذا على قصائده التي نظمها منذ خمسة عشر عاماً أو نحوها ، وآثر أن يدع قصائده الجديدة مطوية غير منشورة .. فلا ريب أن الشاعر يزداد مع الأيام تمكناً وتتأصل فيه الشاعرية كلما اطّرد غُنْمه من المطالعات . وأذكر أني قرأت له شعراً حديث العهد يفوق كثيراً بعض ما ضُمِّن ديوانه « من وراء الافق » ، وكان يجدر بالشاعر أن يضيفه إلى ديوانه ليعززه ويغذيه « بدمٍ جديد » .

وهذه الملاحظة أسوقها بوجهٍ خاص بعد ما قرأت ما كتبه الأستاذ سهيل ادريس من نقدٍ لديوان عبد الغني حسن في مجلة « الأديب » البيروتية وقد جاء فيه « إننا لم نجد في هذا الديوان إلاّ شعراً باهتاً لا شخصية له ولا ميزات ، هو شعر لا تجول في ثناياه

الأحاسيس المرهفة، ولا تلتمع المعاني المبتكرة، وليس فيه إلا الوصف العادي الذي لا يضفي على الموصوف أي جمال ، بل لا يكاد ينجح في أن يصف جماله الطبيعي » .

ولو علم الاستاذ ادريس ان معظم شعر « من وراء الأفق » نظمه الأستاذ عبد الغني حسن وهو لا يزال طالباً في معاهد أوربا وأنه لهذا السبب حوى مثالب وافتقر إلى « الشخصية » لكان ليّناً في نقده رفيقاً في عرضه للديوان .

وديع فلسطين

مجلة الأديب

يسرّ مجلة المقتطف أن تشيد بالمجهود الطيب الذي يبذله الأستاذ ألبير أديب باصداره مجلته « الأديب » في حاضرة لبنان ، فهي مجلة أدبية علمية اجتماعية فنية تعني بالبحوث التي تتصل بمسارب الفكر وتنشر الرفيع من الأدب من كل قطرٍ عربيٍّ ومن مهاجر اللبنانيين في ربوع الكرة الأرضية .

ومن الموضوعات النفيسة التي ضمها عدد شهر اكتوبر (تشرين الأول) بين دفتيه مقال للاستاذ قدري قلعجي عن « المثقفين والمجتمع » ومقال نفسي للأديب المغربيّ المعروف الدكتور أبو مدين الشافعي، وقصيدة شعرية رائعة للشاعر السوري الموهوب عمر أبو ريشة، وصفحة تعرض جانباً من عبقرية الألم في حياة الموسيقي الكبير بيتهوفن للأديب السوري أنطون حمصي ، وقصة تغلب عليها النزعة الفلسفية عنوانها « طفل » للأديب المصري الأستاذ يوسف الشاروني ، وقصة أخرى للقاصّ المصري المعروف الأستاذ أمين يوسف غراب ، وبحث مترجم عن الايطالية بعنوان « التأليف الكبير » للأستاذ مصطفى آل عيال، وصفحة من الشعر الوصفي المنثور للأديبة الأردنية ثريا ملحس، وأشعار للاساتذة عبد اللطيف شرارة وعلي محمد شلق وناصر بن سليمان أبو حميد ، وموضوعات طلية أخرى للأساتذة فؤاد أيوب وسعيد تقي الدين وقدري حافظ طوقان وجلال فاروق الشريف وأنطون مارين والآنسة نجوى قعوار عدا أبواب المجلة الشهرية وهي باب الأخبار العلمية وباب مكتبة الأديب وجولة الأديب في شهر وبرقيات أدبية وأنباء العالم في شهر .

« ومجلة الأديب » على حداثة عهدها بالظهور تعدّ في طليعة المجلات الأدبية في العالم الناطق بالضاد، ويستطيع الأدباء المصريون أن يقتنوها بالاتصال بوديع فلسطين في جريدة وثمن النسخة عشرة قروش مصرية .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الحادي عشر بعد المئة من المقتطف

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان (الاستاذ يعقوب عودات

وفي فلسطين) القدس الشريف باب العامود

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي و أ. لاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y— U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

من سنة
ص

١٢٠ في القطر المصري والسودان

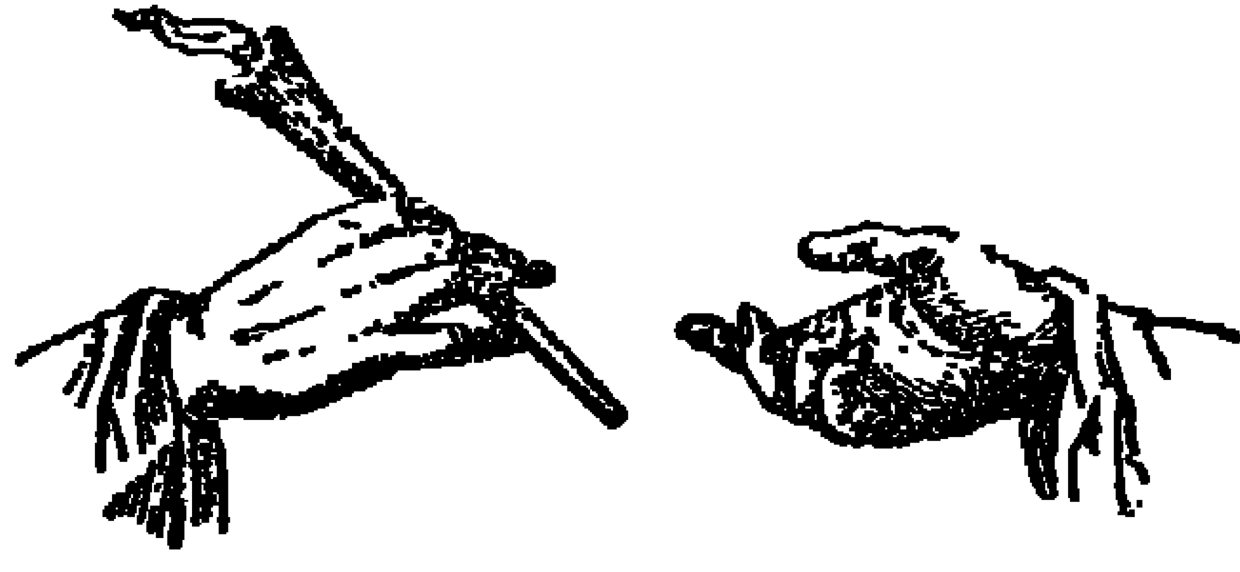
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادي»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الحادي عشر بعد المئة

أول ديسمبر ١٩٤٧ — ١٩ محرم ١٣٦٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميريكية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين رفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١ ديسمبر سنة ١٩٤٧ — ١٩ محرم سنة ١٣٦٧

التكافل الاشتراكى

نظرية مّـا في النظام الاجتماعي

البحث الاول فى تحليل النظرية

١ — التكافل : انتقال من حالة العجز الى حالة القدرة

الانسان حيوان تجري عليه كل النواميس التي تجري على غيره من الحيوانات التي تنزل عنه مرتبة في سلم الوجود . ذلك ما أبان عنه علم الأحياء (البيولوجيا) في حياة الفرد ، وما أثبته بصورة قاطعة علم التطور في تأصل الأنواع .

ظل الانسان أحقاباً تلو أحقاب يتوارث تلك الخرافة القديمة ، خرافة أنه من طينة غير طينة الأحياء ، وانه يعود بأصله الى خليقة قدسية ، وانه النوع المختار في نظام الكون وانه سيد جميع المخلوقات . ترتب على ذلك ان يقوم في نفسه اعتقاد ثابت تنقل معه خلال الأزمان ، اعتقاد أن كل النظامات التي ورثها عن بدائياته الأولى إنما هي نظامات فيهـا من القدسية ومن الأزلية والثبات ، ما في ذلك المنبع التي ادعى الانسان جهلاً وزوراً أن أصله يعود اليـه . فبقدر ما في طينة الانسان التي ادعاها لنفسه من أصل سماوي كان في نظاماته الاجتماعية كذلك أقباس قدسية تسيره وتخلق في مجتمعه طبقات بعضها يعلو بعضاً ، وأقدار

تقسم الحظوظ ، وتوزع الأرزاق حتى ترتب على ذلك أن يقوم في نفس الفرد وفي مخيلة الجماعات ان الخروج على هذا النظام ، بالفكر أو بالفعل ، افتيات على السلطة العليا التي فرضته والارادة الشاملة التي صورته وأقامته على أنه النظام الذي يجري على سنن ثابتة ، كأنه الجاذبية التي تحفظ نظام الافلاك ، أو نواميس العدد والحساب .

مما قام على ذلك الوهم نظرية الحق الالهي للملوك في أن يحكموا في الأرض بارادة الله ، وان لهم أن يوزعوا من ذلك الحق وهذا السلطان مقادير على من هم دونهم من أصحاب الحظوظ الذين يحكمون باسمهم ، وراح الناس لهذا خاضعين لأن الذي يعتدي على هذا الحق انما يعتدي على الارادة التي شاءت أن يكون النظام على ما هو كائن أبد الآبدين ودهر الداهرين .

ومما قام عليه أيضاً وهم أن الكنائس وأرباب السلطة الدينية هم وكلاء الديان الأعظم وانهم يستمدون منه الجبروت والسلطان ، فنشؤوا فكرات ومذاهب راحوا يطبقونها على الناس خلال عصور طوال ، حتى لقد اعتقدوا ان الخلاص ودخول الجنة من الأشياء التي تجدي فيها القوة والجبر ، فراحوا يفتكون بالأنفس والأرواح حرقاً وذبحاً وتمثيلاً ، حتى ولو قال زاهد في الجنة إنه زاهد فيها ، لما ترددوا في أن يجدلوه بالسيف أو يلقمونه النار لأن دخوله الجنة فرض عليهم ولو زهد هو فيها ، لأنهم بذلك إنما يتقربون الى الله .

ولو اننا أردنا أن نعدد غير ذلك من أوهام البشر ، لاحتجنا الى فراغ كبير ولكن يكفي أن نقول إن كثيراً من هذه الأوهام ، أو قل جلها ، قد زال وانقشعت غياماته من سماء العقل ، وانحدرت الى حيث تطويها ظلمات القرون . أكثر هذه الأوهام ومنها المعجزات والخوارق والكرامات وما الى ذلك قد ماتت الآن ميتة سحرية ، حتى ان أحداً لم يحس بها كيف ماتت أو كيف اقتلعت جذورها من رحاب العقل ، وتلك ظاهرة لا معلل لها عندي الا تقدم المعرفة وضعف الاحساس بأن للغيب أثراً مباشراً في جزئيات هذه الحياة ومتعلقاتها . وتطور الفكرة الحضارية ، بمقتضى النواميس والحقائق الثابتة التي كشف عنها العلم في العصر الحديث .

كشف العلم عن وحدة الحياة . فإن الحياة الآن سواء أظهرت في صورة نبات أو حيوان إنما ترجع الى وحدة هي الخليّة البسيطة التركيب الغرارية القوام ، التي يمثل الحركة

الحيوية فيها شيء يقال له « النواة » نخلية نباتية بلا نواة » هي خلية ميتة وكذلك الخلية الحيوانية . فانك إن انتزعت منها « النواة » انتزعت منها سر الحياة ، وانتزعت منها قوّة التكاثر بالانقسام ، بل أنك تكون قد انتزعت منها كل ما يخرجها من عالم الحياة الى العوالم الموات . وليس الانسان في ذلك خلقاً وحده . فإن أصله خلية واحدة ، طبيعتها من حيث أنها حية ، طبيعة خلايا جميع الأحياء . فالإنسان بمقتضى ذلك حيوان جرت عليه سنن الوجود بما جرت على غيره من الأحياء ، فتنقل في منازل من التطور دلت عليهـا بضعة مكتشفات علميـة أظهرته في بداياته الأولى أقرب الى القردة العليا منه الى الإنسان الحالي ، وبين هذين المدرجين حلقات طويلة من التطور طواها الزمن في ثناياه .

وكشف العلم عن أن الأرض التي هي مقرّ الانسان بأصله المقـدس وطينته العلوية ، إنما هي ذرّة بسـيطة في وجود يكاد لا يتناهى ، وأنها هباءة تدور من حول نجم منير ، هذا النجم بذاته ليس إلا كلا شيء بالقياس على الأكوان التي تتراءى في ذلك الفضاء . فلم تصبح الأرض مركز الوجود الكوني ، ولا مكانها هو المكان المختار منه ، لتكون مَقَرّ الخلق المختار ، الذى هو الانسان .

تبدّدت الأوهام التي تجمعت في خيال الانسان وانفجرت كأنها فُقّاعة من الصابون ضغطها الهواء ، فنشطت العقول الى البحث ، وراحت طبيعة الانسان تدعوه الى أن يعدّل مركزه الوجودي بمقتضى الحقائق الجديدة ، نخلف وراءه المعجزة والخارقة والكرامة ، ونسي قانون الصدفة ، ليؤمن بقانون السببيّـة الشامل في هذا الكون وفي هذه الحياة .

فالعلم إذن هو الأساس الذي تقوم عليـه معرفتنا بحقائق الحياة . ولم يبق للعقيـدة والأسطورة والمعجزة من مكانٍ بجوار العلم . وما يثبت العلم هو الواقع ، وما ينافيـه هو الأغلُـوطَة . وتلك هي الجادة التي ينبغي لنـا أن نتبعها في حياتنا الحضارية الحديثة . فمن أخذ بها أخذ بالسنة التي تنير سبيله في الدنيـا فرداً أو شعباً أو جماعة ، ومن تنكر لها تنكر له الوجود

وتلك هي جناية العلم . جناية جناها على القدماء وعلى المحدثين . بدّد الأوهام التي عاش أوائلنا سامدين في كنفها ، راضين بأن يلقوا بحياتهم في أحضان المعجزة والمصادفة والغيب

وفتح أمام المحدثين رحاباً حفزتهم الى التطلع الى آمال وأغراض بعيدة الآفاق طويلة الآماد فسيحة الرّحاب ، ونقل الانسان من الايمان بالآخرة الى الإيمان بالدنيا، وإن شئت الحيطة ، فقل إنه جعل إيمانه بالدنيا سبيلا الى الإيمان بالآخرة ، فارتدت أمام العقل آفاق وسعته في أيام جهالاته وأساطيره الأولى ، وحلت محلهـا آفاق أخرى تتسع دواليك وتترامى حنياتها بنسبة اتساع العقل ووقوفه على أسرار هذا الوجود الإنساني في أية صورة تشكل وبأي طابع طبع ، فرداً أم جماعة ، أسرة أم قبيـلة ، حكومة أم شعباً ، وبيّـن السبيل وأنار الطريق الى أهدافٍ تراءت أمام العـقل ، حتى لقد استبان فيها الأسـباب التي أدّت الى تعاساته وشقاواته ، وأمدّه بنور كشف له عن سبيل قد تسلم به الى درجات من الارتقاء والتطـور قلما خطرت ببال انسان قبل قليل من الزمان .

* * *

استحدث العلم جملة انقـلابات صارخة في التّـعَـقُّـل الانساني . من ذلك جحوده المعجزة وإيمانه بالسببيّـة . ومنها أنه حيوان قابل للارتقاء والتقدم ، لا خلق جامد صوّر على نموذج لا يتطوّر . ومنها قدرته على الخلق ، بمعنى استحداث توليفات جديدة من المادة أو الفكر ، مستمدة من عناصر قديمة . ومنها إيمانه بذاته بالقوى المجهولة التي احتكمت في خيالاته وقدرت حالات حياته تقديراً . أمّـا أعظم هذه الانقلابات جميعاً وأبلغها أثراً في حياته الاجتماعية، فتقييم نظاماته الحضاريّة. بمقتضي المنفعة والحاجة ، ويقينه بأن قِيم هذه النظامات ليست جامدة ، بل هي تطورية تجري عليهـا نواميس النشوء جريانها على كل ما في الوجود ، فقيمة شيء ما من أشياء الاجتماع قد تصلح لعصر ، ولـكن لا تصلح لغـيره ، وان هـذه النظامات تَـكَـامُـلِـيَّة ، بمعنى أن جزءاً منها إذا تطور انبغى ان تتطور معه بقيتها ، وإلاّ اعتـل مجموعها باعتلال أجزاء منه ، وما اعتلاله إلاّ تخلفه عن التطور .

هذا الانقلاب الذي أحدثه العلم ، هو في معتقدي من الأسباب الصّـارمة التي وجهت خطى الجماعات في العصر الحديث ، وهو الذي يعود إليـه كل ما في المجتمعات الحديثـة من صور وأشكال ، شيوعية أو اشتراكية ، جماعيّـة أو ضماميّـة ، استبدادية أو ديمقراطية ، دكتاتوريّـة أو فوضوية . وحتى مذهب العدميّـة ، فإنه لا يخرج عن حكم ذلك . فإذ هذه

الاتجاهات والنزعات هي في الواقع انعكاسات مختلفة تصدر عن بيئات مختلفة ، وتتباين فيها قيم النظامات الاجتماعية . على إنها جميعاً انما تدل على أن القيم الاجتماعية التي آمنت بهـا الجماعات الإنسانية حتى وقت قريب ، قد أخذت تتطور ، وانه بمقتضى ما لنا بهـا من علم قياساً على إحداث التاريخ ، قد أخذت تزداد مرونة حتى أن تشكـلها في صورة بعينها من الصور ، قد أخذت تكتمل قسماته وتُستـبان تفاصيله .

لا نستطيع أن نصدر حكماً تعميميـاً في واحدة بذاتها من هذه القيم الاجتماعية ، فنقول بأنها ستصبح صاحبة الأثر الشامل في نظام الاجتماع . فليس في مستطاعنا مثلاً أن نقضي بأن وجهاً بعينه من وجوه الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرها من المذاهب أو القيم ، هو الذي سوف يكون له السلطان على أقدار البشر . إنما الحكم في مثل هذه الأشياء ضربٌ من التفريط لا تسوّغه طبيعة العلم . والعلم ايجابيّ عقلي محدود الأطراف . وقصارى ما يدلنا عليه العلم استنتاجاً من ظروف الحالات والاتجاهات التطوريـة التي شهدناها في خلال قرن كامل من العصر الحديث ، أن هنالك وجهاً من التطور سارت في دربه الجماعات الإنسانية ، وجهاً جـديداً أقام في نفس كل مفكر ، مهما اتضعت قوى فكره ، ان الحضـارة تتجه في تطورها نحو نظام تتسع فيه دائرة المشابهات بين الأفراد ، وتضيق فيه دائرة الفروق بينهم ، وانه بمقتضى التدرج في هذا الاتجاه ستقل الفروق التي أقامتها الأوهام القديمة بين الطبقات . أما الحكم في الصورة النهائية التي سوف تلابس هذا الاتجاه التطوري ، فالقول بهـا راجع الى تقديرات تختلف باختلاف قوة الحكم وتباين النزعات والمشاعر والعواطف بين الباحثين ، كما إنها تخضع في أحيان كثيرة لظروف البيئة والوراثة فردية واجتماعية في السلالات والشعوب .

لقد زوّد العلمُ الانسان بقوىً جديدة ، وهيأ له من الأسباب ما مكّن له في الأرض ، حتى لقد يستطيع اذا رشدت أحلامه ان يكون له أثر في توجيه خطى التطور نحو أهدافٍ جديدة تقربه شيئاً بعد شيء من عصره الذهبي الذي تطلع اليه كثير من الفلاسفة . لهـذا لا ينبغي لنا أن نيأس من قدرتنا على توجيه خطى التطور نحو الغايات العليا والمثل التي تتطلع اليها ، بل يجب أن نستمين بالعلم ونسترشد بأحكامه وحقائقه ، موقنين بأن التطور إن كان من أشياء الطبع ومن خصائص الطبيعـة ، فانه في الاجتماع من الأشياء التي يمكن أن تحتكم

فيها الارادات الإنسانية ، وإنه يمكن توجيهه في طريق مأمون سليم من عنف الفوضى ومن عواقب الانقلابات الفجائية . واعتقد فوق ذلك ان إقامة نظام المجتمع على قاعدة « التكافل الاشتراكي » هو آمن سبيل تُوَجَّه فيه الاتجاهات التطوريّة . وإذن نتساءل ما هو « التكافل » أوّلَ شيء ؟

* * *

« التكافل » في عالم الاحياء معناه « المعايشة » أو « التعايُش » . ومجرد النظر في « التكافل » من ناحية لغوية صرفة ، ينقل الى الذهن معنى ينافي معنى « التنافس » في الحياة الاجتماعية ، ومعنى « التناحر على الحياة » في الحياة الطبيعيّة . وفي التكافل معنى « التفاعل » وهي صيغة تدل على تبادل الأثر . جاء في لسان العرب .

« الكافل العائل : كَفَلَه يَكفُله وكفّلَه إياه ، وفي التنزيل العزيز وكَفّلها زكريّا ، وفي الحديث أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة له ولغيره ، وقوله كهاتين اشارة الى أصبعيه السبابة والوسطى ، والكافل القائم بأمر اليتيم المربّي له ، وهو من الكفيل الضمين ، وتكفّل بدينه تَكفُّلاً . ضمنه ؟ الخ .

فأنت ترى من ذلك أن « التكافل » معناه « التضامن » ، تفاعلاً بين طرفين . والتكافل في اللغات الأعجمية تدل عليه كلمة مركبة (Symbiosis) من كلمتين يونانيتين تخريجهما « التحايي » أو « التعايش » ، والمدلول العلمي هو « الحياة المتحدة أو الاتحاد الحيوي بين كائنين عضويين »

ولا ضرورة للمضي في ضرب أمثال علمية من حياة الحيوان والنبات لتبيان ذلك ، إذ يكفي هنا أن نعرف على وجه الاختصار أن التكافل في الحياة العضوية معناه ضرب من المعايشة يتوقف فيه حياة كائن على حياة آخر ، بحيث تصبح حياتهما مرتبطة ارتباطاً تكافليًّا تشترك فيه المصالح بينهما اشتراكاً حيويًّا لكليهما

من الخصيات البينة في النظام الاجتماعي الذي ورثته الحضارة عن نظام الاقطاعات ، خصية قيام الحياة الاجتماعية على قاعدة التنافس ، مع تفاوت الفرص بين الناس . وكان من الطبيعي أن نظاماً يخرج من ثنايا النظام الاقطاعي لا بد من أن يرث الكثير من خصائصه . ولكن هذه الخصائص التي ورثها العصر الحديث عن القرون الوسطى ، كانت ولا شك بزرة

الفساد التي حملتها المدنية الجديدة الى أجيالنا التي نعايشها . ولقد فرّخت تلك البزرة وتكاثر نسلها وتشعب في نواحي المجتمع ، وكان من أخص ما فرّخت ، النظام الرأسمالي على الصورة التي نعهدها في عصرنا هذا .

لا شك أنه من الطبيعي أن يتولد من النظام الاقطاعي نظام فيه تفاوت كبير بين الطبقات . على أن هذا النظام المتطور عن نظام الاقطاع إن كان قد خطا بالانسانية خطوة كبيرة نحو تقارب الطبقات ، فانه ولا شك قد حمل في ثناياه كثيراً من مفاسد ذلك العصر ونقائصه .

النظام الرأسمالي الحديث نظام فيه من تقارب الطبقات قدر يمكن أن يعتبر خطوة الى الأمام ، بالقياس على حالة الجمود التي اتصف بها العصر الاقطاعي . غير انه حمل في طياته أعظم نقائص ذلك العصر . حمل معه نقيصة تفاوت الفرص بين الأفراد بدرجة واضحة . فالفرد الحر ، من أجل أن يكون حرًّا بمعنى الكلمة ، ينبغي أن يعطى فرصة مساوية أو مقاربة للفرصة التي تتهيأ لغيره من أفراد الجمعية . أما أن يكون حرًّا أمام القانون ، بمعنى أنه ليس عبداً رقيقاً من وجهة النظر القانونية وحدها ، وان القانون يحرره من كل القيود التي قيدت العبيد والارقاء في العصر الروماني وفيما تبعه من عصور الحضارة الاوربية إلى حدود العصر الحديث ، ثم يترك مستذلاً بقوة الطبقة التي تعلوه ، وما قوتها إلاّ المال ، تستغل به الفرص التي ينبغي أن تكون مشاعاً للجميع ، فإن ذلك هو عند الواقع إنتقال من حال من العبودية الى حال تماثلها ، مع فرق واحد ، هو الاعتراف نظريًّا بتساوي الجميع أمام القانون .

غير ان خروج الجماعات من أسر النظام الاقطاعي قد هيأ لها فرصة حقيقية مهدت لها سبيل الارتقاء . هيأ لها فرصة الشعور بالقوة ، وبدّلها من الشعور بالضعف والاستكانة شعوراً بأن لها حق الحياة ، وان حق الحياة حق مشاع لكل أفراد الجمعية ، على ان يكون فيه من تساوي الفرص ما يضيق دائرة الفروق بين الطبقات على أوسع صورة مستطاعة .

على ان تفاوت الفرص أمام الأفراد ، وحصر المال في يد فئة بعينها من الجمعية ، قد قلب نظام المجتمع ، مع حلول العصر الصناعي ، من ركود العصر الاقطاعي الى تنافس العصر الانتاجي ، فظهر الاجتماع الإنساني في صورة معركة حامية الوطيس بين الرأسماليين الذين

يستغلون بمالهم أمحى الفرص، وبين اللارأسماليين الذين تفوت عليهم فرص الحياة بسبب ضعفهم المالي، وحاجتهم الى سد مطالب الحياة التي لا تسد إلاّ بالعمل، سمت صورته أم اتضعت، حسنت أم فسدت. فانقسم الناس بذلك معسكرين كبيرين، العمال واصحاب المال، وظهر بذلك مذهبان مذهب القول باستعباد الفرد لصالح الجمعية، وهو مذهب التطرف الاشتراكي، ومذهب استعباد الجمعية لصالح الفرد، وهو مذهب التطرف الرأسمالي.

وأعتقد ان كليهما مُحَطِّم لناحية ضرورية من نواحي الحياة الاجتماعية، فالفرد ضروري للمجتمع وحريته كفيلة بتطور الجماعة، والجماعة ضرورية للفرد على ان لا يكون لسيادتها عليه من الأثر ما يضيع على الجمعية أثره الفرديّ. إذن فلا بدّ من قيام نظام اجتماعي على قاعدة « التكافل » بين الفرد والمجتمع، حيث يتكاملان بدون أن يطغى طرف منهما على صاحبه. وذلك هو موضوع النظرية في هذا البحث.

إن النظام الذي خرجت به الحضارة من عصر الاقطاعات، نظامٌ أصاب الجماعات بضروب خاصة من العجز. وهو بما ينطوي عليه من تسود أقليّة محظوظة على أكثرية غير محظوظة، بأسلحة يورثها لطبقة بعينها ويحميها القانون بمقتضى أنه قانون خرج من جوف ذلك النظام ومن بيئته، قد أفرغ على الجماعات صورة من التفاوت الطبقي هي بذاتها دليلٌ حيّ على عجزه عن خلق صورة من الاجتماع يسود فيها السّلام. صورة تركب بحيث تدفع كل فرد نحو العمل بأقصى ما تصل استطاعته لخير الجمعية، وتركّب الجمعية تركيباً من شأنه أن تنمي الكفايات الفرديّة.

النظام الرأسمالي نظام تنافسيٌّ. ولكنه مع ذلك يصد الكفايات الفردية عن النماء. فان تفاوت الفرص التي تهيأ فيه للناس وعدم تقاربها يجعل استغلال الكفايات الفردية الكامنة في مجموع الأمة أمراً مستحيلاً بذاته على المجموع الأكبر من الناس. وكذلك النظام الاشتراكي المتطرف الذي يجعل الدكتاتورية أساس حكمه من شأنه أن يصد الفكر عن الابتكار ويصد التطور عن أن يخطو في الطريق السليم الذي يدفع الجماعات نحو غايات مثالية من التعاون المعاشيّ والفكريّ.

أما التكافل الاشتراكي فنظام من شأنه أن يصد طغيان الفرد على الجمعية، ويصد طغيان الجمعية على الفرد. هو تركيب اجتماعي تتساوى فيه الفرص عند الفرد لتنمية كفاياته الفردية، وعند الجمعية لتساير مقتضى التطور الضروري لوجودها. هو نظام يخرج الجماعات عن حالة العجز التي ورثتها عن عصر الاقطاع الى حالة القدرة التي سوف تبلغ بالجماعات البشرية الى غاياتها العليا.

اسماعيل مظهر

باكستان

١ – حقائق عامة

تبلغ مساحة الهند ٠٠٠ر٥٧٢ر١ ميل مربع وعدد سكانها وفقاً لاحصاء عام ١٩٤١ — ٩٥٥ر٩٩٧ر٣٨٨ نسمة يؤلفون خمس سكان العالم . ويتكوّن السكان من عدد هائل من الاجناس والديانات المختلفة .

وفيما يلي التوزيع الطائفي لسكان الهند وفقاً لذلك الاحصاء

الطائفة	العدد	النسبة المئوية من المجوس
الهندوس (عدا المنبوذين)	٣٢٦ر١١٧ر٢٠٦	٠ر٥٣
المنبوذون	١٨٠ر٨١٣ر٤٨	٥ر١٢
	٥٠٦ر٩٣٠ر٢٥٤	٥ر٦٥
المسلمون	٤٢٨ر٣٨٩ر٩٤	٣ر٢٤
مسيحيون	٦٦٥ر٠٤٠ر٦	٦ر١
السيخ	٤٤٧ر٦٩١ر٥	٥ر١
طوائف أخرى	٩٠٩ر٩٤٥ر٢٧	٧ر١
	٩٥٥ر٩٩٧ر٣٨٨	١٠٠

وينتشر الاسلام في كافة أنحاء الهند بنسب مختلفة ، على أن أعظم نسبة له هي في الشمال الغربي والشمال الشرقي للبلاد . فعلى الحدود الأفغانية الهندية أو خط دورانه كما يدعى ، نجد ولاية الحدود الجديدة التي يقطنها أكثر من مليون وربع مليون نسـمة كلهم مسلمون من القبائل الأفغانيـة مثل الأفريدي والوزيري وهي قبائل قوية الشكيمة عانى منها الانجليز حروباً متصلة بسبب نزوعها الى الاستقلال وأنفتها من الخضوع لأجنبي،ولا يحكم الانجليز قط هذه القبائل بل تحكمها مجالسها الخاصة وزعماؤها المختارون . وعلى نهر كابول تقع مدينة

بيشاور عاصمة ولاية الحدود الشمالية الغربية وعدد سكانها ثلاثة ملايين ٩١ ./. منهم مسلمون من الجنس الأفغاني .

أما ولاية البنجاب — وتقع على الضفة الشمالية الغربية لنهر السند — فيبلغ عدد سكانها ٢٨ مليون نسمة فضلاً عن خمسة ملايين نسمة سكان ٤٥ امارة يحكمها أمراء وطنيون وتقع ضمن نطاق الولاية . وولاية البنجاب هي المنتج الرئيسي للقمح والقطن الطويل التيلة في الهند . فيبلغ انتاجها السنوي من القمح ٣ر٥ مليون طن تعادل ٣٥ ./. من مجموع محصول الهند منه. وعاصمة الولاية مدينة لاهور وعدد سكانها ٦٧٠ ألف نسمة وتعتبر خامسة مدن الهند في عدد السكان ، وهي مركز صناعي هام ونقطة تلاقي خطوط السكك الحديدية في البنجاب ، وبها الجامعة الوحيدة في الشمال الغربي من الهند . وشرق لاهور تقع مدينة امرتسار وسكانها أربعمائة ألف نسمة وهي المدينة المقدسة للسيخ . وسكان البنجاب بوجه عام متجانسون من ناحية الجنس والعادات . فاللغة الشائعة هي الاوردية وتكتب بحروف عربية وتكثر فيها الكلمات العربية والفارسية ، إلا أن للسيخ لغتهم الخاصة . وغالبية سكان البنجاب مسلمون ونسبتهم الى مجموع السكان ٥٧ر١ ./. ثم يأتي بعدهم الهندوس ٢٨ ./. ثم السيخ ونسبتهم ١٤ر٥ ./.

ومن ولايات الحدود الشمالية الغربية والبنجاب وبلوخستان والسند يتكون الشق الشمالي الغربي من الباكستان كما طالبت به الرابطة الاسلامية في مبدأ الأمر ومساحته نصف مليون كيلو متر مربع وعدد سكانه ٣٦ مليون نسمة منهم ٢٢ مليون مسلم ونسبتهم الى مجموع السكان ٦١ر١ ./. بيد أن ثمة إمارة إسلامية هي كشمير ويحكمها راجا هندوسي في شمال البنجاب ومساحتها مائتا ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها أربعة ملايين ٧٦ ./. منهم مسلمون

وتقل الأغلبية الاسلامية كلما اتجهنا شرق الهند وجنوبها الى أن نصل الى ولاية البنغال في الشمال الشرقي للهند . وتبلغ مساحة البنغال مائتا ألف كيلومتر مربع وينوف عدد سكانها على الستين مليوناً ٥٤ ./. منهم مسلمون . وتقع البنغال على دلتا نهر الجانج فهي من أخصب بقاع الهند ، وأهم محصولاتها الأرز والجوت ، وعاصمة الولاية مدينة كلكتا وعدد سكانها مليونان فهي أعظم مدن الهند سكاناً وأهمها من الناحية الاقتصادية ، كما أنها من أعظم نقط المواصلات الحديدية وتكاد تتركز فيها صناعة الخيش بيد أن معظم سكانها من الهندوس .

وشرق البنغال تقع ولاية آسام ومساحتها ١٤٢ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها عشرة ملايين ثلثهم مسلمون . وهذه الولاية أهم مراكز الهند في زراعة الشاي كما أنها تنتج النفط . ومن البنغال وآسام يتألف الشق الشرقي من الباكستان وعدد سكانه سبعون مليوناً

٥١٫٤ ٪ منهم مسلمون ومساحته ٣٤٢ ألف كيلو متر مربع .

ولا يفوتنا أن نشير الى إمارة حيدر أباد في وسط الهند وهي أعظم إمارات الهند التي يحكمها أمراء وطنيون . فمساحتها ٢٤٤ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانها يتجاوز الستة عشر مليوناً ويحكمها أمير مسلم يلقب بالنظام . بيد أن نسبة المسلمين من سكان الامارة ١٥ ٪ من مجموع السكان في حين أن نسبة الهندوس ٨٤ ٪ . وإمارة حيدر أباد هي الامارة الوحيدة التي لها نظامها النقدي الخاص ، ولقد أعلن أميرها أخيراً رغبته في اعلان استقلالها عن الهندوستان والباكستان على السواء .

* * *

تلك هي بعض الحقائق الاقتصادية والجغرافية عن توزيع المسلمين الأساسي في الهند رأينا إيراد ذكرها قبل أن نخوض في الحديث في الناحية السياسية لدولة الباكستان .

٢ — القومية الاسلامية في الهند

يبدأ تاريخ الاسلام في الهند في صدر الاسلام حين افتتح العرب المسلمون السند ثم فتح السلطان محمود بن سبكتكين (السلطان محمود الغزنوي) ملتان سنة ١٠٠٥ ميلادية واستمر في فتوحاته حتى عام ١٠٢٥ فافتتح جانباً كبيراً من السند وأخضع جانباً آخر عن طريق أداء الجزية له . واستمر كثير من خلفائه في الفتوحات حتى أصبحت سيادة السلطان المسلم بدلهي معترفاً بها من كافة سكان الهند وأمرائها . وتقلب سلطان المسلمين بين القوة والضعف فبلغوا غاية قوتهم في عصر بابر (مات عام ١٥٣٠) وأكبر (ومات عام ١٦٠٥) وأورنجزيب (١٦٥٩ — ١٧٠٧) وبعد ذلك ضعفت شوكة دولة المسلمين في الهند حتى قوّض الانجليز أركانها عام ١٨٥٧ بعد أن لبثت سيادة الاسلام السياسية أكثر من ثمانمئة وخمسين عاماً تخلعوا السلطان بهادر شاه وولوا الملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند .

ولقد كان مركز المسلمين في الهند الشغل الشاغل لكثير من ملوكهم فيها . فانه وإن اعترف امراء الهندوس بسيادة السلطان المسلم في دلهي وارسالهم الجزية إليه ، إلاّ أن قوتهم السياسية ظلت حائلاً دون انتشار الاسلام بين رعاياهم فضلاً عن ان اضطراب أحوال الهند بتأثير الغزوات المنغولية والفارسية المختلفة والفتن الداخلية بين الحكام حدّت تقدم الاسلام الروحي كثيراً .

وكان يروع ملوك الهند الحصيفين انقسام بلادهم وتفرق كلمتها فابتكر السلطان أكبر لغة الاوردو وهي مزيج من الفارسية والعربية وبعض لغات الهند كي تحل محل لغات الهند المختلفة واجتذاباً للهندوس ، وعمد الى الغاء الجزية ورحب بهم في الوظائف العامة وشجعهم

على المساهمة في ادارة شئون البلاد حتى كان منهم الولاة والوزراء . بيد أن سياسة أكبر وان أفلحت في تهدئة أحوال الهند واشاعة الأمن في ربوعها، الا أنها لم تفلح في استئصال جذور الخلافات بين عناصر الهند المختلفة وفي القضاء على أسباب العداوة والبغضاء الكامنة في النفوس . والواقع أن الطائفية في الهند ليست مجرد دين ولكنها تعني هناك نظاماً يربط أفراد الطائفة الواحدة دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا . ونجد المجتمع الهندوسي ينقسم عدة طبقات ينفصل بعضها عن بعض وتعتبر الطبقة الأخيرة منها طبقةمنبوذة ويلقب أفرادها بالأنجاس .

ومن ثمّ بدت الطائفية في الهند في مظهر فذ . بيد أن حدتها لم تك طوال الحكم الاسلامي بالشدة التي هي عليها الآن . وبعد ثورة ١٨٥٧ وقد ساهم المسلمون فيها بالنصيب الأوفر أبعد المسلمون عن وظائف الدولة والمهن الفنية الحرة كالطب والمحاماة وبيعت كثير من أملاكهم فأدى هذا الى تقوية النفوذ الهندوسي في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعزز ذلك نفور المسلمين خلال القرن التاسع عشر من المدنية الأوربية فانتفع الهندوس بها .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجتمع الاسلامي الهندي يفيق من سباته . ففي عام ١٨٧٥ أنشئت كلية عليكرة ثم تتابع انشاء المعاهدالعلمية والصحفالاسلامية ، وتقدمت النهضة الاسلامية علميًا واقتصاديًا . وكان طبيعيًا أن تتخذ الحركات السياسية في الهند مظهراً دينيًا . فأقبل الشعراء المسلمون يتغنون بمجد الاسلام وعظمته والكتاب على انشاء المقالات وتأليف الكتب في تاريخ الاسلام والنظم الاسلامية . وتألفت الجمعيات المختلفة وعلى رأسها « جمعية الخلافة الاسلامية » برئاسة الشقيقين شوكت علي ومحمد علي . وأيدتها جماعة علماء الهند . وكانت تنحو كلها الى نصرة الاسلام وتعتبر مسلمي الهند جزءًا لا يتجزأ من مسلمي بقية العالم الاسلامي وبخاصة مسلمي الشرقين الأوسط والأدنى ، واتخذت الحركات السياسية الاسلامية مظهراً معادياً لبريطانيا بسبب موقفها من تركيا في الحرب العالمية الأولى ، وفي سنة ١٩٢٠ وافقت جمعية الخلافة على برنامج غاندي القاضي بعدم التعاون، وعقب ذلك وافق مؤتمر عقد بمدينة أله أباد ضم زعماء المسلمين والهندوس على ذلك البرنامج . وعزز هذا التقارب ما فرضته معاهدة سيفر على تركيا (١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠) من شروط فادحة . بيد أن ازالة الخلافة العثمانية قلل كثيراً من حماس جمعية الخلافة . ثم جاء الخلاف بينها وبين غاندي وانقسامها فريقين انضم أحدها إلى المؤتمر بزعامة مولانا أبو الكلام آزاد ، والثاني ظل على ولائه للجمعية وتبع ذلك الانقسام تجدد المنازعات

الطائفية وضعف شأن جمعية الخلافة فحلت محلها الى التعبير عن أماني مسلمي الهند وآرائهم « الرابطة الاسلامية » التي قامت على أسس جـديدة تتفق وطبيعة النظام الطائفي في الهنـد وتهدف الى انشاء وطن اسلامي هندي .

* * *

ففي سنة ١٩٣٧ انتشرت فكرة الباكستان عن الوطن الاسلامي الهنـدي ، والكلمة مشتقة من الحروف الأولى للكلمات التالية : بنجاب — أفغان الحدود — كشمير — سند بلوخستان . وفي عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ أصدر مؤتمرا الرابطة بمدينتي لاهور ومدراس على التوالي ، قراراً بأن المسلمين يقاومون كل حل للمسألة الهنـدية لا يحقق فكرة الباكستان ، ولقد كان تجدد الاضطرابات الطائفية وأخذها شكلاً عنيفاً جداً بعد الحرب الأخيرة، ماحدا بالحكومة البريطانيـة الى تقـديم مشروع يعترف بتقسيم الهنـد دولتين : اتحـاد الهنـد والباكستان . وقـد قبلت طوائف الهند المختلفة المشروع البريطاني، وفي ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ نودي بدولتي اتحاد الهند والباكستان وتتخذ الاجراءات الآن لتعيين حدود الدولتين وفصل المصالح المختلفة .

٣ — مشكلات تقسيم الهند

الباكستان دولة ذات شقين : الأول في الشمال الغربي ويشمل حوض نهر السند ، والثاني في الشمال الشرقي ويتضمن دلتا نهر الكانج والبراهما بوترا ، ومتوسط نسبة المسلمين في شقي الباكستان كما طالبت به الرابطة الاسلامية في مبدأ الأمر بـ ٥٦ ٪ من مجموع سكانهما وتشمل (وبفرض ضم كشمير اليها) ٦٦ ٪ من مسلمي الهند

ولما كانت نسبة الأقليات غير الاسلامية كبيرة تعوق اكساب هذه المناطق طابعاً اسلاميًّا مميزاً فقـد رؤي فصل المناطق التي تحتوي على أكثرية غير اسلامية كلما أمكنت الأحوال الجغرافية والاقتصادية ذلك . وهذا ما نص عليه مشروع الحكومة البريطانية إذ قضى بتقسيم البنجاب والبنغال بين دولتي القـارة الهندية . ويوافق المسلمون على فصل مقاطعة أميالا حيث يكون المسلمون أقليـة السكان، وبذلك ترتفع نسبة المسلمين في البنجاب الى ٦٢٫٧ ٪ بدلاً من ٥٧٫١ ٪ أما الشق الشمالي الشرقي من الباكستان (أي البنغال وآسام) فيراد فصل مقاطعة بوردان حيث للهندوس الأغلبية الساحقة وبذلك ترتفع الأغلبية الاسلامية في البنغال إلى ٦٥ ٪ بدلاً من ٥٤ ٪

وتبدو مشكلة التقسيم واضحة من البيان الاحصائي التالي :
أولاً — عدد سكان الباكستان (كما طالبت به الرابطة من مبدأ الأمر)

	١٠٧ر٠٠٤ر٧٨٣	نسمة
منهم سكان مسلمون	٥٩ر١٠١ر٢٠٧	«
نسبتهم المئوية	٥٥ر٢٣	٪
المساحة	٣٤٨ر٣٣٧	ميلاً مربعاً

ثانياً — عدد سكان الباكستان (حيث توجد أغلبية اسلامية مطلقة) .

	٦٨ر٧٧٩ر٩٣٥	
عدد السكان المسلمين منهم	٤٩ر٣٩٥ر٠٣٠	
نسبتهم المئوية	٧١ر٨٢ ٪	
المساحة	٢٣١ر٦٣١	ميلاً مربعاً

مساحة المناطق المتنابذ عليها (شرق البنجاب وغرب البنغال ومعظم آسام)

	١١٦ر٧٠٦	ميلاً مربعاً
عدد سكانها	٣٨ر٢٢٤ر٨٤٨	نسمة
عدد السكان المسلمين منهم	٩ر٧٠٦ر١٧٧ — ٢٥ر٣٩ ٪	

عدد السكان المسلمين في الهند	٩٤ر٣٨٩ر٤٢٨	نسمة
تضم دولة الباكستان من مسلمي الهند	٥٢ ٪	
« « (بفرض ضم كشمير)	٥٧ ٪	

ولقد اعترضت عمليـة تقسيم البنجاب والبنغال مشكلة المدن الثلاثة العظيمة : لاهور وأمرتسار في البنجاب ، وكلكتا في البنغال . فالمدينتان الأوليـان أهم المراكز الحضرية في البنجاب . ولقد تمّ الاتفاق على ترك لاهور للباكستان وضم امرتسار الى هندوستان باعتبارها ذات أهمية حيوية لطائفة السيخ فهي مدينتهم المقدسة . أما كلكتا فهي أعظم مركز تجاري في الهند وأكبر موانيها ، وهي عاصمة طبيعية لولاية البنغال ومركز صناعة الجوت الذي تتركز زراعته في الباكستان الشرقي . بيد أن الأغلبية الساحقة من سكانها من الهندوس . ولقد تقرر ضمها الى الهندوستان مع ترك ميناء شيتاجونج في آسام للباكستان كما تقرر ضم معظم ولاية آسام الى اتحاد الهند ، وضم مقاطعة سلهيت الى الباكستان .

وستضم دولة الباكستان بشقيها (وبفرض ضم ولاية كشمير اليها) ٥٧ ٪ من مسلمي الهند فحسب ، وسيظل أكثر من اربعين مليون مسلم خارجها ، بينما ستضم بين ظهرانيها حوالي الخمسة والعشرين مليوناً من الطوائف الأخرى

ولقد اقترح وقتاً ما نقل السكان من مناطق الى أخرى حلاً للمشكلة ولكن نشأت صعوبات جسيمة في مقدمتها العدد الهائل من السكان الذي تتبادله حركة النقل ، كما أن السكان في المناطق المختلفة قد ألفوا أوضاعاً اقتصادية خاصة ، فمن المستحيل نقل سكان يشتغلون بالصناعة في هندوستان الى مناطق زراعية في باكستان ، أو سكان يعملون في صناعة القطن الى مناطق تصنيع الخيش . وهذا ما حدا بالفريقين الى نبذ موضوع تبادل السكان بين الدولتين حلاً للمشكلة .

ومن المشاكل التي تقابل عملية التقسيم مسألة فصل المصالح العامة ووسائل المواصلات وبخاصة السكك الحديدية والمسائل الاقتصادية المختلفة مثل نظامي النقد والجمارك ومن الجدير بالذكر أن الشق الشمالي الغربي من الباكستان ينتج القطن والقمح وغيرهما من المواد الأولية في حين أن مصانع القطن تقع في الهندوستان . ومثل ذلك يقال عن الشق الشرقي من الباكستان الذي ينتج الجوت في حين أن مصانع الخيش تقع في كلكتا .

ويحول دون اتصال شقي الباكستان مملكة نيبال ووقوع ولايتي بيهار والأقاليم المتحدة حيث أكثرية السكان من غير المسلمين . ومن أهداف الباكستان التي صرح بها السيد محمد علي جناح الحصول على ممر يصل بين شقي الباكستان .

ومهما يكن من أمر صعوبات التقسيم فلا يختلف اثنان في أن من ثماره استتباب السلام في ربوع الهند بل آسيا والعالم . فان في الهند أمتين متميزتين في الجنس والدين وفلسفة الحياة والعقلية . ولقد بسط السيد محمد علي جناح سياسة الباكستان . ومما قاله :

« ينبغي أن تكون العلاقات بين الباكستان والهندوستان ودية وتبادلية وستكون حكومة الباكستان حكومة شعبية ممثلة لجميع العناصر كما ستسعى الى الانضمام الى عضوية الأمم المتحدة » . ورحب في حديث آخر بالتعاون بين باكستان ودول الشرق الأوسط وبخاصة مصر . ولقد كانت مصر أول الدول في الاعتراف بدولتي الباكستان واتحاد الهند وقررت تبادل التمثيل السياسي معهما على أن تنشأ سفارتان ملكيتان في كل من الدولتين .

فؤاد محمد شبل

شفاؤك عيد

تهنئة بشفاء جلالة مليك الوادى

لشاعر الاقطار العربية خليل مطران بك

شفاؤكَ عيدٌ به نسعدُ ونحمَدُ للهِ إمّا تحمدُ
وشعبكَ بعدَ ضراعاتهِ لخالقهِ شاكراً يَسجدُ
لربكَ عندكَ في كلِّ يومٍ يدٌ يا مليكي تليها يدُ
عِنايةُ مولىً خليقٌ بها أبرُّ أولي الأمرِ والأجودُ
بلادُ العروبةِ بالتهنئا ت يجاوِبُ أقربَها الأبعدُ
ولمْ تكُ إلاّ على حبِّها لفاروق يجمعُها مقصِدُ
لقدْ أمنتْ دهرَها إذ نهضتَ وعزمُكَ والحزمُ ما تعهدُ
تَصونُ ملوكٌ كراماتِها وأنتَ لها الضّائِنُ الأيِّدُ
وتقضي شعوبٌ كبارَ المنى وأنتَ المؤازرُ والمسعِدُ
فرأيكَ موئلُها المطمئن وبأسُكَ معقِلها الأوطَدُ
أمولايَ أرفعُ آيَ الولا ءِ وقلبيَ يسطُرها لا اليدُ
إذا أنضبتْ عللٌ موردي فمِنْ منبعِ الفخرِ لي موردُ
أليستْ فِعالكَ في كلِّ ما يُعزُّ بلادَكَ لا تنفَدُ
وكمْ لكَ فتحٌ جديدٌ بهِ تبارى نُبوغُكَ والسؤددُ
فدُمْ للكنانةِ . دم للعرو بةِ وليرعَكَ الأحَدُ السرمدُ

خليل مطران

٢- نظرات في النفس والحياة

١ — ما كانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكاناً في العالم كما غزت لولا إنها كثيراً ما تكون ممزوجة في أنفس أصحابها بشيء من الاعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن شأنها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها — وقد يختلط الاعجاب بالنفس بالاعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهيء لها جنداً وأعواناً ، إلاّ انه كثيراً ما ينقص من طهارتها ، وكمال نبلها،أو قد يقضي عليها بما يدعو إليه الاعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فان المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذي من خالفه لانه يعد مخالفه أو عدوه مخالفاً وعدوّاً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قلّ حظه منها .

٢ — إذا أسفنا لِنَبْوةِ مَنْ نبا عنا فاننا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده رمزاً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم في عشرتنا ورغبتهم في أن يكونوا معنا — فنعتزّ بالأصدقاء في أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهاً : أي أن الأسف لِنَبْوةِ صديق أساسها الأثرة وحب النفس — ولكن هذا الأساس لا يمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة فكثيراً ما يختلط الايثار بالأثرة في النفس حتى عُدّ مظهراً من مظاهرها إذ أن النفس تنشد في الايثار شيئاً يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلباً نبيلاً .

٣ — في بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ، ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغيره وخلافه لنفسه إلاّ اذا تغيروا له وكان لهم مأرب في تغيير حكمهم عليه فاذا حدث ذلك ربما اتهموه بمخادعتهم وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به وسواء أفطنوا الى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعاً فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون معذورين في انخداعهم لأن الحياة تفرض التجانس في صفات النفس الواحدة كي يسهل فهمها ومعاشرتها . حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شيء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت في النفس الواحدة .

٤ — في بعض الاحايين يفضّل المرء أن يُحْرَمَ من أن يُنْسب إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التي دعته الى عمل ذلك الخير، فيظهر من الاسباب غير ما يبطن

٥ — لعلّ أعظم النجاح في المهارة التي بها يقنع الماهر الناس إنهم لا يستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه، وقد يسعون فيما ينفعه هيبة واتقاء لشره — ولكن لا يستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لا يتقنها ومن لا يعرف أساليبها ودهاءها ومستلزماتها . لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون ان يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه وقد يفعلون. فإذاً ليس من الكياسة ان يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافياً لنيل احترامهم وهيبتهم إياه .

٦ — من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة في الأدوية بمقادير لا تسم، على انه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته . إلاّ ان الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً، كما ان بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر .

٧ — من الصعب ان يحب إنسان إنساناً تجرد من كل دواعي الاحترام . ومن الصعب ان يحب إنسان إنساناً بـذَّهُ وشَآهُ . فالنفس تأبى في أكثر الأحايين ان تحب من تجرد من كل دواعي الاحترام ومؤهلاته . ولكن إثرتها تأبى ان تحب من تستصغر أمرها وتزدري شأنها عند استجلاء عظمته وعلو شأنه وان كانت تحترمه سرًّا أو علانية ولكن الحالات الشاذة قد توجد في الأمرين .

٨ — من الصعب ان تحترم النفس من لا خير له ولا شر .

٩ — كثير من الناس عدّوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير — وهذا يذكرنا قول هنري هين الشاعر الألماني « ان شجرة الانسانية قلما تذكّر بالزارع الذي سقاها ورعاها وإنما تذكّر بالعادي الذي حفر اسمه على جذعها بحديته » — نعم ان سِيَرَ العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مُسْرف . وهذا مشاهد في حياة أمثال الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت. ولكن اذا كان الناس في بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يعبثون بالأمن الى مراتب البطولة فلا غرو ان يفعل الناس ذلك مع من صهروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شرًّا كثيراً اذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء .

١٠ — ان العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم وانما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون — وهذه النظرة تفسّر السابقة . وليس معناها ان العظماء أذل

فضائل ، وإنما يعني أن الناس تتوقع خلوّهم من النقص خلوّاً تامًّا بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم . أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة أو ... وزهم مما يبرز نقصهم . أو ان ما يزاولون من عمل الخير ربما جرّ شرًّا ونقصاً .

من نظرات ليوباردي

١ — المكر وهو من جهود العقل والذكاء قد يلجأ اليه الماكر كي يخفي نقص عقله وذكائه وذكاء المكر هذا كثيراً ما يلجأ اليه الناس في البيئات التي حال فساد الحكام فيها دهراً طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف فترى فيهم الجهل وقلة النمو الفكري والسذاجة وشيئاً من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضاً نوعاً من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ — في بعض البيئات التي بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيراً جدًّا احتقره في سريرتهم من هم أحسن منه حالاً من الناس حتى يكاد يسقط وينزل في نظرهم عن مرتبة الانسان. واذا كان غنيًّا لم يكن آمناً على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده — وهذا صحيح في البيئات التي يثري فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعاً . وفي هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فأنهم يجلون المجرم العابث بالأمن حتى انهم قد يلبسوه صفات البطولة والعظمة وكثيراً ما تتم هذه الصفات حيث لا يجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم في أغراضهم. وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى وعهد سابق وأحوال في الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف في نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستعصية باقية .

٣ — في بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها في غيرنا فنسرع الى مدح تلك الأعمال والصفات — ويحجم المرء عن المآثم والنقائص اذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم فاذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل. وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره عن ما يفعل مثله اذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره وان لم يكن بينهما فرق

٤ — أكثر ذوي الفضل كانوا على بساطة في السلوك والعادات . ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلة الفضل والعقل — وذلك اما لأن تلك البساطة تشابه في أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة وإما لأن البساطة تنافي التكلف لهم الذي يغري بالظهور بالمظهر الذي يرضي رغباتهم وفوائدهم . وهذا التكلف لهم منبعه مكر الباقة الذي يبدونه

أعظم مظاهر العقل ومزاياه لأنه يحوطهم بما يشاءون وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصاً في الفضل والعقل .

٥ — مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأحوالها بعد اختبارها فانها لو أومضت له وابتسمت ودعته اليها لبّاها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع الى الائتناس بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد اليه ممن اختبرهم وساء رأيه فيهم فاذا لم يعد لمعشرتهم اذا توددوا له قل سوء رأيه فيهم .

٦ — يحسب المرء أنه إذا خاب حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته واذا نجح فرحوا بنجاحه . ولو كُشِفَ له عن مكنون سرّهم لوجد فيه عكس ذلك في كثير من الاحايين — أو على الاقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعوراً بالمسرّة يخالطه مخالطة النقيض للنقيض وبجانب السرور لنجاحه شعوراً بالامتعاض والاستخذاء يناقضه ولكنه يخالطه وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرتها كل التغلب وان تغلبت على بعضها .

٧ — أكثر الناس لا يخجلون من الأذى الذي يصنعونه للناس وإنما يخجلون من الأذى الذي يصنعه بهم غيرهم لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم — أما إذا خشي المرء ان يخجل إذا ظلم غيره فانه يعمل على ان يُشرِك الناس في ظلم المظلوم فاذا نجح في حمل الناس على مشاركته في ظلم المظلوم أمن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطغاة قديماً يتخذون من الناس رجلاً يكون اداة لتنفيذ ظلمهم حتى إذا لم يعد صالحاً لتنفيذه قضوا عليه واتخذوا غيره وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم .

٨ — الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لا ينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد ان يعلو حظه وجب عليه أن يُوَدّع الحياء وان يكون لسانه بوقاً يدعو الناس الى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو المزعومة أو ان يجد أناساً لهم رغبة وفائدة في ان يكونوا أبواقاً له . أما اذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله واعلانه فانه لن يرى إلاّ مَنْ يُسْرِعُ الى إخفائه .

٩ — لو حُوسِبَ كل إنسان على ما يقوله في غيبة أصدقائه لما رضي ان يقولوا فيه مثل ما قال فيهم — فانه مهما كان مخلصاً لهم لا يسلم لسانه من سقطات في غيبتهم لا ترضيهم. وهو بالرغم من ذلك يُدْهَش اذا بلغه ان أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ويَعُدُّ نفسه مظلوماً لا يجد جزاء اخلاصه وسلامته لهم في غيبتهم .

١٠ — قلما يكون البعيدَ عن الناس القليل الاختلاط بهم مسيئاً الظن بهم إلاّ اذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أسوأ رأي في الناس مما يرسخ في النفس بقراءة الكتب التي تعلم

سوء الظن بالناس وانما يكون هذا المقتبس من الكتب كلاماً غير راسخ في النفس لأن العشرة هي التي تفطن الى سوء الرأي في الناس بسبب مرارة اختبارهم — وليس أشد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فاننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها وثقته بنفسه قد تدعوه الى حسن الظن والرأي، فيحسب ان الناس يعجبون بنفسه كما يعجب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما أن ذلك العطف يتفق وما في نفسه من العظمة المزعومة التي تقضي ان يشمل الناس ببركات خيرها . واذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأي في الناس كان سحابة صيف عن قليل تتقشع .

من نظرات شوبنهور

١ — مما يجعل الانسان غير مبالٍ تعاسة التعساء ولا آبهٍ لها أنه يعتقد في نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك اذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه اذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا في حياتهم بؤساً فانهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم — على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا وامتعضوا . ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا ما يؤذي حسهم وبصرهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، اذا نجح، قد يُعوّدُ بعض الناس برودة الطبع والقسوة إذ يعد كل معاملة للناس قتالاً كالذي تعوّده في الكفاح ويرى أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كي يضمد جروح الجرحى . فينسيه هذا الرأي فائدة التعاون .

٢ — قد يكون سبب سعادة الانسان ونجاحه في الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائي عند رؤيتها وينشرح صدره فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده . وقد يحسب الرائي بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والاحقاد وهي قد تكون كذلك وقد لا تكون — إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقته من غير حقيقة خلقية خلف ذلك التكوين أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر في إخفاء سريرته — فينبغي لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير في قصة هامليت « قد يكثر المرء من الابتسام وهو وغد » .. ولكن من ذا الذي لا يغبط صاحب هذه الابتسامة التي هي مفتاح القلوب والخير .

٣ — بعض ذوي الكفاية العظيمة في أمور الحياة أو العبقرية لا يحاولون اخفاء عيوبهم ولا سيما اذا كانت من الاخطاء أو العيوب التي يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليل عليها . وهم لا يحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لأنهم يرون أنهم قد أدّوا ثمنها من كفايتهم . وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لا بأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون ويتملكهم الغيظ اذا ظهرت أخطاؤهم ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلاّ لأنهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم — بالرغم من ميل الناس إلى التشفي من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم — فزية من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء. وقد تبالغ كل طائفة في خطتها فالطائفة الأولى في رفع الكلفة والطائفة الثانية في استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لاثبات خلوها من العيوب ونقلها الى غيرها : وهناك طائفة ثالثة هي من أهل العجز يحاكي آحادها ما يحسبون أنه من عيوب ذوي الكفاية كي يُسلَكوا في زمرتهم ويعدّوا منهم .

٤ — من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم او منافس أو عدوٍّ حزناً كثيراً اذا افتقد ذلك الانسان خصمه الميت عند النجاح والظفر فيود لو كان حيّاً كي يرى كيف ظفر في الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفّي من الميت يكون عند ذوي النفوس الدنيئة .

٥ — رغبة الانسان في أن يظل شهيراً بعد موته انما هي مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ — اذا غالى النـاس في اعتناق رأي أو مبدأ أو مذهب فلا بد أن يعودوا في المغالاة الى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وانما مثلهم في الذبذبة مثل رقاص الساعة .

٧ — كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل ذلك كثيراً ما نخطىء في الحكم على الناس فقد ننسب الى انسان الفضيلة التي هي من نوع رذيلته أو الرذيلة التي هي من نوع فضيلته فيظنُّ الحازم المتأني جباناً والمقتصد المدبر بخيلاً والمبذر المتلاف سخيّاً كريماً وسيء الأدب صريحاً مستقيماً والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس الخ .

٨ — كثير ممن يجهلون عظم منزلة الانسان في العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون في القسوة في الحكم اذا حكموا وفي معاملة آحاد الناس إذ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الانسان التي أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الانسان ولا تؤاتيه والعقل كثيراً

ما يسخف أو يخطىء أو يسهو فعظم منزلة الانسان في الكون بسبب ما هو معرض له في حياته من آلام ومصائب وعذاب وجهازه العصبي أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها. فاذا عاشرت انساناً لا تنظر الى ما في إرادته من شر وما في عقله من قصور وما في آرائه من سخف أو هوى فانك ان فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر الى آلامه من واقع ومنظور والى حاجاته وتعبه في الحصول عليها والى بواعث القلق في حياته فان من يتحمل كل ذلك خليق بالعطف والمحبة والاعظام .

٩ — قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لا يجتمعان . ولكن قصور العقل قد يساعد على افشاء رذائل صاحبه فتحسب انها ناشئة منه . فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل اخفاء شره ويستطيعها فيحسب انه خال من الرذائل وان العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً . كذلك سوء الطبع قد يستهوي صاحبه فيمنعه من ادراك الحقائق التي لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله وقد تتضح في حالات دون حالات .

١٠ — كل حيوان لا يقسو الا ليأكل أو للدفاع عن نفسه . أما الانسان فانه قد يقسو من غير داع الا التلذذ بالقسوة فهو كما سماه العلامة جوبينو صاحب كتاب الاجناس البشرية « الحيوان الذي بذ كل الحيوانات في خبث طبعه وشره » واذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل، فما ذلك الا كما يقول الفرنسيون في أمثالهم عينه أكبر من معدته — فالانسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلا التلذذ بالقسوة. وقد يبلغ هذا التلذذ رتبة الجنون وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة في عهد الحضارة والثقافة . وكأن شهوة القسوة تفرز في جسم الانسان سماً زعافاً يتجمع كسم الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كي يؤذي به بعض الناس أو الحيوانات . ولعل التلذذ بقسوة الالفاظ المؤلمة والنظرات التي تنم عن القسوة وبالدسائس والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هي عرض سيكولوجي مما كان يصنعه الانسان في أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سراً وعلانية من غير رادع . ومن العجيب ان بعض المرضى بمرض نفسي أو عقلي يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم . وما دام الانسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبي وذو خيال وعقل فلا سبيل الى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو — إلا إذا أسعف طب الغدد الحديث — وربما كان تلذذ الانسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله . فهي نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس .

ع . ش

أمراض العيون

— ٢ —

الدفتريا الرمدية

﴿ الرمد الدفتيري ﴾ من المعلوم أنَّ مرض الدفتيريا من الأمراض التي عني بها رجال الطب عناية كبيرة أدَّت الى سنّ قانون لتطعيم الأطفال إجباريًّا في سن الطفولة للوقاية.

وكما أنَّ هذا المرض يصيب الحلق فإنه كذلك يصيب العين والأنف ويسمى في هذه الحالة بإسم : « الرمد الدفتيري » وهو نوع من أنواع الرمد ينشأ عن ميكروب الدفتيريا، مثله في ذلك مثل الرمد الصديدي إلاَّ أنه أشدُّ فتكاً منه في بعض الحالات ويكون مصحوباً بغشاء فوق الجفون، وفوق غشاء الأنف — وهو عينه الذي يصيب اللوزتين والحلق — ويكون مصحوباً بارتفاع في درجة حرارة الجسم بين ٣٨ و٣٩٫٥ وغالباً ما تصل الدرجة الى الأربعين .

وعلاج هذا النوع من الرمد يتوقف على التشخيص نفسه فيحقن المريض بكمية كبيرة من المصل تبعاً لشدة المرض لا تبعاً لسن المريض .

وليس من الضروري أن تكون نتيجة التحليل إيجابية بل ينظر الى المشاهدات الاكلينكية ، لأن ميكروب الدفتيريا يندر ايجاده من تغلب ميكروبات أخرى موجودة معه في العين أو في الحلق فتظهر تلك الميكروبات في التحليل ولا يظهر ميكروب الدفتيريا .

***

وأذكر بهذه المناسبة نوعاً من هذا الرمد الدفتيري ظهرت أعراضه في مستشفى الرمد بأسيوط عام١٩٢٢ وكنت وقتئذٍ الطبيب الأول بالمستشفى .

فكيف حدث؟ وكيف شاهدنا المرض وعالجناه بالسرعة الواجبة قبل أن يستفحل

والمعلوم أنّ الرمد الدفتيري في مستشفيات الرمد له نظام خاص فيعزل المرضى به في جناح خاص من المستشفى ويصرف لكل مريض وماء خاص به «غسيل» فيتولى هو او اهله الغسيل بارشاد الطبيب ويتولى الطبيب الأول علاجهم ويكشف عنهم كل يومين أو ثلاثة حسب مقتضيات ظروف عمله بالمستشفى ويتولى الطبيب الثاني العلاج في الأيام الأخرى .

وذات يوم بينما كنت أفحص وأعالج الأطفال المرضى في ذلك القسم اشتبهت في طفلين علا على أعينهم غشاء يشبه غشاء الدفتيريا فأخذت من كلٍّ عينة وبعثت بها للتحليل في معامل الصحة بالقاهرة وعزلت الطفلين بعيداً عن سائر المرضى فكانت نتيجة التحليل إيجابيـة ، أعني أنّ صاحبي هذا الرمد مصابان بالرمد الدفتيري ، فأسرعت وفحصت عيون سائر المرضى فوجدت بينهم ثلاثة مصابين بنفس المرض .

وهنا لم أجد بدًّا من أن أتولى علاج المرضى بنفسي بعد عزلهم وأبرقت لولاة الأمور في وزارة الصحة بشأن هذا المرض في ذلك المستشفى وطلبت الخيام اللازمة لعزل المرضى فتم ذلك في يومين وتمكنت من وقف سير المرض وانتشار العدوى اذ حصرت المرض في عدد من المرضى بلغ مجموعهم ٣٨ طفلاً بينهم خمسة كانت حالتهم شديدة (أي أن إصـابتهم كانت بدفتيريا مصحوبة بغرغرينة في الحجاج) ورغم العناية بالعلاج والحقن بالمصل ضد هذا الوباء وبالغسيل وباللمس وسواها فان الوباء كان شديد الفتك وكانت نتيجته أن بعضهم فقد بصر العين وتوفى البعض الآخر

ومن أجل ذلك بادرت وزارة الصحـة فندبت أحد رجالها لفحص عينات ذلك المرض محليًّـا (أي في أسيوط) وذلك بتحليل الغشاء بكتيريولوجياً حتى لايضيع الوقت في ارسال العينات الى القاهرة للتحليل وانتظار معرفة النتيجة .

***

فهذا المرض — كما قلنا — يصيب ميكروبه العين والحلق والأنف ، وأحياناً تكون نتيجته ايجابية في العين والحلق والأنف وأحياناً تكون في العين والحلق وحدهما كما تكون في الحلق دون العين ، أو في العين وحدها .

سئلت ذات مرة في أحد الاجتماعات الطبية العامة عن ذلك المرض وكان نص السؤال هو

« هل الميكروب الذي يصيب العين هو نفس الميكروب الذي يصيب الحلق والأنف »
فأجبت : نعم ، أن الميكروب هو ميكروب الدفتريا في العين والحلق

وقد تأتي العدوى من مريض بالدفتيريا الحلقية أو من دفتيريا في الأنف كما قد يصاب مريض في حلقه من مريض بعينه أو بأنفه . والدليل على ذلك انني في ذلك العام (١٩٢٢) دعيت لعلاج طفل علاجاً خاصاً في منزله (وكان والده من الأثرياء) كان مصاباً برمد صديدي فلما فحصت عين الطفل المريض تبين لي أنه مصاب برمد دفتيري لا برمد صديدي عادي (لأن الرمد الدفتيري شبيه بالرمد الصديدي فتتورم الجفون وتحمر المقلة الا أن الرمد الدفتيري يزيد الورم فيه أحياناً ويكون شديداً) فبادرت بحقن الطفل بالمصل اللازم وأسعفته بالعلاج وجئت له بممرضة خاصة تقوم على خدمته والعناية به ، ولكن أمه أبت أن تترك لتلك الممرضة وحدها الاشراف عليه لأنه كان وحيدها إذ قد فقدت ثاني أولادها من سنتين ، وهنا كانت الطامة الكبرى إذ مرضت الأم بحلقها بعد شفاء ولدها من الرمد الدفتيري ولما شخص الطبيب مرضها بأنه عبارة عن التهاب بسيط في الحلق خالفته في رأيه وطلبت معالجتها بالحقن ضد الدفتيريا فأهملوا مشورتي . ولما اشتد المرض على تلك السيدة بعد يومين أو ثلاثة عاد أهلها الى التفكير فيما نبهت أنا اليه ولكن العلاج جاء متأخراً وقضت السيدة الى رحمة الله نتيجة عدواها بالدفتيريا من رمد دفتيري .

والدفتيريا الرمدية تصيب الأطفال من سن الثانية الى الخامسة ، وقد تسبب فقد البصر والوفاة كما سنبين فيما بعد

* * *

تكلمنا فيما تقدّم عن الدفتريا الرمدية وبينا أنها تنشأ من الميكروب الذي أطلق عليه إسم كليب لوفر باسيلس نسبة الى مكتشفيه البروفسور الأستاذ كليب (Kleb) والأستاذ (لوفلر) (Lofler)

وهذا الميكروب يوجد في الغشاء المخاطي للجفون وفي الأنف والحلق (في ثنايا اللوز والحلق) فيفرز مادة سامة تسمى توكسين (Toxin) تدخل الأوعية اللمفاوية وتسبب

ضرراً كبيراً ، والسم الذي يفرزه هـذا الميكروب ينتشر في الجسم فيسمه ويقضي على حياة صاحبه .

ويأتي هذا التسمم من مادة التوكسين المشار إليها متى ملأت الأوعية اللمفاوية فتتأثر الكلى تأثراً بالغاً في بعض الاحيان ويتعطل افرازها للبول وهنا يحدث التسمم .

كما تؤثر تلك المادة السامة على القلب فتضعفه الى درجةٍ كبيرة فلا يقوى على تأدية وظيفته . وتحدث الوفاة من هبوط القلب .

وفي حالات أخرى يكون التأثير على المخ .

وقد يحصل شلل في البلعوم (الحلقوم) فترجع جميع السوائل من الأنف .

كما يحدث شلل في عضلات تكييف الأبصار فيضعف البصر .

أسباب العدوى

وترجع أسباب العدوى من هذا المرض الخبيث الى الحالات التالية وهي :

١ — اللمس

٢ — الذباب

٣ — السعال (الكحة) : فينتقل الميكروب اثناء السعال من حلق المريض الى الطفل الموجود أمامه

٤ — حامل الميكروب

فالميكروب ينتقل من الجسم المريض الى الجسم السليم في احدى تلك الحالات ولا سيما أن المريض بدفتيريا الأنف تكون درجة حرارته طبيعية ولا يظهر عليه مرض من الأمراض ولكن ميكروب مرضه هذا الكامن في نفسه ينتقل بواسطة افرازه من أنفه الى حلقه أو الى عينه فاذا اتصل بالحلق سبب دفتيريا الحلق ، كما يسبب دفتيريا الرمد اذا اتصل بالعين . وفي كلتا الحالتين ترتفع درجة الحرارة . ولذلك يجب حقن المريض بمصل الدفتيريا حالاً عند الاشتباه ولا ضرر منها كما يعتقد بعض الناس .

الوقاية

وللوقاية من هذا المرض — ولا سيما عند الاطفال لأنهم أكثر من غيرهم تعرضاً للإصابة بهذا المرض — يجب حقن جميع الأطفال ثلاث حقن وقائية عقب ولادتهم . وقد فرضت وزارة الصحة ذلك فرضاً إجبارياً .

فكان لحقن الأطفال في طفولتهم أثر كبير في قلة اصابتهم ووقايتهم من هذا المرض .

وليس لهذا الوباء موعد محدد خلال السنة فالاصابة به تحدث صيفاً وشتاءً على السواء غير أنه اذا ظهر خلال الصيف كانت الاصابات به أكثر فتكاً مما لو ظهر خلال الشتاء .

وعند ظهور هذا الوباء في المستشفيات ، يعزل المصابون في معازل خاصة خشية أن تنتقل العدوى بواسطة الذباب الى الأصحاء .

وقد بين المرحوم الدكتور علوي باشا في كتابه « الأمراض العينية » أنه يعتقد أن الدفتيريا الرمدية قليلة في القطر المصري بالنسبة للبلاد الأجنبية . ولكنه يعتقد كذلك أنه اذا انتشرت كان انتشارها بحالة وباء . وقد كان هذا الوباء الذي حصل في سنة ١٩٢٢ الأول من نوعه في تاريخ الرمد بالقطر المصري .

الوصف الأكلينيكي

سبق أن قسمت الوصف الاكلينيكي لهذا المرض الى ثلاث درجات كالآتي : —

١ — ورم بسيط بالجفون ، وإفراز بسيط وغشاء خفيف على الملتحمة ، وتكون درجة الحرارة بين ٥ر٣٧ و ٣٨ درجة .

٢ — ورم شديد بالجفون ، حتى لا يمكن رؤية داخل العين أو قلب الجفن إلاّ بصعوبة ، وإفراز صديدي شديد ، وارتفاع في درجة الحرارة قد تبلغ الأربعين اذا ما تعددت أنواع الميكروب . ومعظم أنواع الرمد ولا سيما الصديدي يسبب الصداع والأرق .

٣ — ورم شديد بالجفون فلا يمكن فتح العين ولا قلب الجفن بسببه لوجود حالة (غرغرينية) في الجفون ، وترتفع درجة الحرارة بين ٣٨ و ٣٩

وفي حالات الرمد الصديدي يحقن المصاب بحقنة لبن فتتحسن صحته والأمر بالعكس إذا حقن مصاب بالرمد الدفتيري بتلك الحقنة فان حالته تسوء ولذلك يجب التأكد من نوع الرمد أولاً

ولما كان ظهور هـذا الوباء يعتبر الأول من نوعه في أسيوط في تلك السنة فقد عزل المصابون في أقسام ثلاثة بالترتيب التالي :

فالقسم الأول خصص للحالات الايجابية وقد أحيط بأسلاك لا يدخلها الذباب fly proof

والقسم الثاني : للحالات السلبيـة التي يظهر اكلينيكيًا إنها ايجابيـة وأحيط كذلك بالسلك المانع للذباب .

والقسم الثالث : للحالات المشتبه فيها أو السلبية (ولا نشك إنها إيجابية اكلينيكيًا) وحوله السلك المانع للذباب أيضاً .

وخصص لـكل قسم من تلك الأقسام خادم وخادمة يشرفان على خدمة المرضى ولا يختلطان بخدم القسمين الآخرين .

وقد وجد ميكروب السيلان الجونوكوك مع ميكروب الدفتيريا في ١١ حالة من ٢٠ حالة وميكروب الـكوخ ويك (Koch Week) في ٧ حالات وميكروب Xerosis في حالتين . وتوفى من تلك الحالات أربعة أطفال بسبب غرغرينة بالمقلة وبلغت نسبة العمى ٥٥ في المئة .

ووجد ميكروب السيلان في ١٢ حالة من الحالات السلبية التي أعتقد إنها ايجابية بسبب تغلب ميكروب السيلان على ميكروب الدفتيريا وتوفى في تلك الحـالة اثنان وبلغت نسبة العمي ٤٦ في المئة .

فوفاة ستة أطفال بين ٣٥ طفلاً أي بنسبة ١٧ في المئة كان أمراً له خطره . ولا سيما اذا عرف أن الناس كانوا لا يظنون بل ولا يعتقدون ان الرمد الصديدي يسبب الوفاة .

كما ان فقد البصر وقد بلغ ٥٠ أو ٥٥ في المئة — وهي نسبة كبيرة جدًا — لا يمكن القضاء عليها إلاّ بالحقن ضد الدفتيريا ، فقد تم حقن أطفال الحالة الشديدة من ٦٠ ألف الى ٨٠ ألف وحدة وحقن أطفـال الحالة المتوسطة من ٢٥ ألف الى ٤٠ ألف وحدة وحقن أطفال الحالة الخفيفة من ٨ آلاف إلى ٢٠ ألف وحدة .

ومن ذلك يتبين خطورة الدفتيريا سواء كانت حلقية أو رمدية .

وهذا ما يجب توجيه نظر الناس جميعاً اليه ليصونوا أطفالهم بحقنهم بالمصل الذي يقيهم هذا الوباء وشره .

الزهري

تاريخه وأعراضه وتأثيره على أجزاء العين

والزهري — كما هو معروف — مرض من أمراض التناسليات يصيب الناس جيلاً بعد جيل وينقسم الى : اولاً — مكتسب . وثانياً — وراثي .

وقد عرف باسم الزهري ويسميه العامة بالتشوبش أو داء البلاء أو التشويه لأنه يشوه الجسم .

تاريخه : يحسن في هذه المناسبة ذكر تاريخ ظهور هذا المرض حتى يلم الناس به الماماً ويعرفوا مصدره . وقد جاء في كتاب الطب المصري القديم لمؤلفه الدكتور حسن كمال أن الحكومة المصرية ألفت لجنة برياسة الأستاذ أليوت سميث والأستاذ وود جونسن وكيله لفحص ما يكتشف من الجثث المدفونة في البلدان التي كانت في النية اغراقها في بلاد النوبة بعد تعلية خزان اسوان ، وقد وضعت هذه اللجنة تقريرها وضمنته النتائج التي وصلت اليها من الفحص مقرونة برسوم متعددة لجثث محنطة في عصور شتى ، وتاريخ هذه الجثث كان قبل العهد الفرعوني في مصر وتنتهي بعهد اليونان . وقد أثبتت هذه اللجنة ان أمراض الزهري والسرطان والكساح لم يكن لها وجود مطلقاً في وادي النيل ، بل ان الذي كان منتشراً في بعض المناطق هو الالتهاب العظمي المفصلي المسمى Rheumatoid Arthritis ودل التحليل الكيماوي على أن داء النقرس داء الملوك gout كان موجوداً عندهم التهاب النتوء الحلمي Mastoid disease وعن التهاب حول الزائدة الدودية وعلى التصاق الجمجمة بأعلى العمود الفقري نتيجة المرض المسمى Spondylitis deformans . كما ظهر في بعض جماجم النساء تقيح نتيجة حمل « زلع » الماء أو ما يشبهها .

ويشير بعض الكتاب الى أنه لم ير أثر للزهري في نصف الكرة الشرقي قبل سنة ١٤٩٣ أي قبل « كريستوفر كولمبس » ففي تلك السنة انتشر الزهري في برشلونه بواسطة البحارة الاسبانيين ، كما انتشر في إيطاليا في عهد شارل الثامن فقد نشر جنوده هذا المرض في نابلي ثم في بلدان إيطاليا وسائر الاقطار الاوربية .

وهناك مؤرخون يقولون بوجود هـذا المرض في آسيا وأوربا من زمان قديم ، وهم في قولهم هذا يتحدثون التاريخ القديم والطب القديم والتوراة من وجود أعراض تشبه مرض الزهري في عظام الهياكل والأدوية التي كانت تستعمل وقتئذٍ مثل اليودور والعشبة .

ولكن الثقات يرجحون الرأي الأميركي من أن هذا المرض جاء الى أوربا وآسيا من أميركا ، وكانوا يسمونه أولاً بالمرض النابلي نسبة إلى نابلي ، ويسمونه « الحب الفرنسي » (French pox) وفي سنة ١٥٣٠ سمّى فراكستوريبوس وجاليكس ومن ذلك الوقت أخذ الاسم الأخير وهو الزهري .

* * *

وكانوا يظنون أن هـذا المرض ينتقل من شخص الى آخر أسوةً بالأمراض المعدية ولكنهم عرفوا فيما بعد طبيعة انتقاله التناسلي . وكان الدكتور فرنل الطبيب الباريسي (Fernil) هو أول من قال بضرورة أخذ القرحة الأولى للمرض وذلك في القرن السادس عشر . واكتشف الدكتور بارسلس (Paracelsus) انتقال هذا المرض بالوراثة .

وفي ذلك الوقت كانت أعراضه أشد فتكاً مما هي الآن .

وفي سنة ١٨٠٠ اكتشف Lancisi الصلة بين مرض الزهري ومرض (Aneurism Aorta) وشرح (Morgagni) تأثير مرض الزهري على الأمعاء الداخلي .

وعند ما طعّم نفسه (Hunt:r) — تحت تأثير خاطىء — بهذا المرض ، جمع بين وحدة القرحة الرخوة والسيلان والزهري .

وفرّق (Ricord) بين القرحة والرخوة الصلبة في القرن التاسع عشر حيث عرفت جميع الأعراض الاكلينيكية ، إلاّ أن المسبب لذلك لم يعرف حتى سنة ١٩٠٥ عندما اكتشف شودن (Schaudinn) وجود الميكروب المسمى اسبيروكيتي Spirochoete في القرحة الأولى .

وفي سنة ١٩١٠ أعلن ارلخ (Ehrlich) اكتشاف المركب الذي يقتل الميكروب من الدم ولا يضر الانسان ، وهو المركب الزرنيخي ٦٠٦ و ٩١٤ .

العدوى من مرض الزهري

والعدوى بمرض الزهري المكتسب تحصل باللمس ، فاذا ما وجد جرح أو تسلخ بسيط على الغشاء المخاطي أو الجلد خلال الجماع ، ينتقل الميكروب من القرحة الى التسلخ أو الجرح وبسبب العدوى بالقرحة الأولى كما ذكر فرنل الطبيب الباريسي بضرورة وقوعها في حالة الزهري المكتسب أولاً والتي تسمى بالقرحة الصلبة .

وليس الجماع هو السبب الوحيد للعدوى بالزهري المكتسب ، بل وجدت حالات انتقلت خلال تقبيل مريض بالزهري انساناً سليماً متى وجد به جرح بسيط أو خدش (خربشة) وكان الميكروب موجوداً عند التقبيل .

وكذلك يحدث أثناء الولادة إذا ما وجد الميكروب بأصابع الطبيب أو المولدة ولذلك يلبس الأطباء والطبيبات قفازات مصنوعة من الجلد (اللستك) بعد تطهيرها .

أما العدوى بالزهري الوراثي فإنه يصل الى الطفل من والديه أو أحدهما عن طريق الدورة الدموية خلال مدة الحمل حيث تكون الأوعية الدموية للطفل متصلة بالأوعية الدموية لرحم الأم .



وقد ذكرنا في ما تقدم ان العدوى الأولى في الزهري المكتسب هي القرحة التي تصيب المصاب محل اللقاح من ثلاثة الى أربعة أسابيع . وهنا تكون القرحة اولاً بلا افراز إلا إذا صحبها عدوى بميكروب آخر ، وتستمر شهراً وتتحجر حوافها ، ولذلك سميت بالقرحة الصلبة ، ثم تتحجر الغدد القريبة والبعيدة منها ، ثم يحصل الطفح على الصدر والبطن والشفتين ويلتهب الحلق ، وتصاب اللوز بقرح تشبه حالة الالتهاب كما يلتهب الأنف وتبدو رائحته كريهة ، ويصحب ذلك ارتفاع في درجة الحرارة ، ويصحب تلك الحالات أحياناً ، صلع جزئي أو عام في الرأس . وجميع تلك العلامات تشفى وتزول خلال ستة أشهر ، وكأن المريض لم يصب بشيء ما ، ولكن سرعان ما تظهر عليه علامات الدور الثالث للقرحات على الجلد

والأيدي والساق والمقعد ، وتظهر حالة (grimus) في أعضاء الجسم مثل ورم بالكبد والرئة والعظام بصفة عامّة وعظام الجماج بصفة خاصّة ، ويؤثر ذلك على الشرايين فيحدث ما يسمى بتصلب الشرايين بالجسم وبالمخ ، فينفجر شريان المخ ويصاب المريض بالنقطة المخيّة والشلل والموت .

أما علامات الزهري الوراثي ، فانها تظهر على الطفل بعد ولادته بثلاثة أو أربعة أسابيع على الأقل ، وفي حالات أخرى لا تظهر إلاّ بعد سنتين .

وأهم ما يظهر على الطفل بعد الولادة في الأسبوع الرابع ، فهو العطس ، ورائحة كريهة بالأنف . ويظن أهل الطفل أنه أصيب بالبرد فيعالج على هذا الأساس ولكن العلاج لا يفيده وسرعان ما تظهر عليه تقرحات بالشفتين وحول الشرج والأنف وتزيد هذه التقرحات في الشهر الرابع والخامس ، وغالباً تنتهي بوفاة الطفل ، وتلك علامة من علامات الزهري الوراثي أي أن الطفل يموت في الحول الاول من عمره ، أما الأم فقد تجهض في الشهر الثاني أو الثالث من حملها ، فاذا أتمت شهور حملها وولدت طفلاً سليماً ، ففي الغالب يصاب الطفل بالعلامات التي أشرنا اليها فيما تقدم .

وليس كل امرأة زهرية (أي مصابة بالزهري) تجهض أو يموت أطفالها في الحول الاول ، بل الأمر قد يكون بالعكس . ولكن حدوثه يكون معناه الاشتباه بالزهري الوراثي والاهتمام بعلاجه بعد الفحص والتشخيص .

وقد تظهر على الطفل علامات ضعف البصر ، وضعف السمع ، ويلاحظ ذلك بين سن الخامسة والخامسة والعشرين ، وتأخذ الجبهة شكلاً معيناً ببروز في عظم الجبهة وانخفاض في عظم قمة الأنف ، وتأخذ الأسنان من الأمام شكلاً مخصوصاً بالانبعاج والشرشرة وسوى ذلك مما لا محل لذكره هنا فانه من عمل الطبيب الذي يتولى فحص الدم بطريقة ويسرمان Waserman وطريقة كالمز Kalm's . وليس كل تحليل سلبي معناه عدم وجود ميكروب زهري فان الميكروب يكمن أحياناً في عضو من أعضاء الجسم فلا يتحرك ويخرج الى الدم الا بعد حقنه ، والمهم في ذلك كله التشخيص الاكلينيكي مع تحليل الدم .

« للبحث تتمة »

الدكتور عبد المسيح جرجس
اخصائي في امراض العيون

الثقافة العامة

وتنظيم وسائل الاشراف عليها

أدرك القائمون على وزارة المعارف أن اكتساب المعرفة لم يعد مقصوراً على التلقين يقوم به المعلمون في حجرات الدرس ، بل ولم يعد مقصوراً على فترة معينة من العمر يقضيها المرء في تنمية الملكات واكتساب المعارف ، فوسعوا من اختصاص الوزارة حتى يشمل كل المرافق المتصلة بالمعرفة بل والتربية في أوسع مداها ، واذا كانت العناية بالدراسة النظامية واجبة ، فالعناية بالدراسة غير النظامية أوجب ، ذلك لأن الرقابة على الأولى أوجدتها سنن وتقاليد ونظم رسخت على الأجيال ، أما الثانية فجديدة وتأثيرها في النفوس أشد وأمكن لحرية وسائلها ومسايرتها لمراحل الحياة جميعاً . ومن ثمّ كان الغرض من اشراف وزارة المعارف على الثقافة العامة هو توجيهها للصالح الخاص والعام وتقويم المعوج من أفرادها وأدواتها وسد النقص الذي قد ينجم في ناحية من نواحيها مع المحافظة على التراث العقلي والعموري للأمة المصرية بنشر ذخائرها والكشف عن المطمور من نفائسها والعمل على تنسيق النهضة الثقافية في مصر معها في الأمم العربية الشقيقة من ناحية والأمم الغربية من ناحية أخرى .

ولكن عدم الاستقرار الذي تتسم به هذه الفترة من حياة الأمة ، وهي بفترات الانتقال أشبه ، جعل الوزارة لا تستقر على خطة معينة واضحة في اشرافها الثقافي الجديد ، آية ذلك أنها فهمت من الثقافة العامة وسائل اكتساب المعرفة خارج المدرسة حيناً ، فقصرتها على الترجمة والتعاون الثقافي والاحصاء ، دون أن تبين ماهية هذا الاحصاء . ثم جاءت بعد ذلك فجعلت حد الثقافة — كما يقول المناطقة — خارج الفصول الدراسية ، فضمت الى اداراتها ما يتصل بالنشاط المدرسي من رحلة وتمثيل ، أضف الى ذلك أنها وكلت هذا الاشراف الثقافي الى جماعة من المدرسين القدماء أعترف بكفاءتهم وعلمهم وفضلهم وتفننهم في علوم كثيرة ، ولكني أعترف كذلك بأن تعريفهم للثقافة غير جامع لكل الوحدات التي تتألف منها في عصرنا هذا الحديث . وهم لذلك وقعوا في خطأين واضحين

الأول عدم التفريق الحقيقي بين التعليم والثقافة العامة. والثاني احتفالهم بالكلمة المكتوبة وايثارهم للتأليف والترجمة والنشر واهمالهم لتلك الوسائط الثقافية الجماعية الخطيرة كالسينما والاذاعة والصحافة ، وهم اذا التفتوا اليها فانما هي الالتفاتة العجلى التي تتذبذب بين وظيفة التعليم المدرسي ووظيفة الثقافة العامة .

والأداة الحكومية عندنا في تطورها من السلبية الى الايجابية أو من البيروقراطية الى الديمقراطية دفعت أولي الأمر الى معاودة تصنيف الادارات الحكومية القائمة واستحداث ادارات بل وزارات جديدة ، بيد أن هذا ايضاً لما يستقر على خطوط واضحة فأصبحنا نرى — فيما يتصل بموضوع الثقافة العامة وزارات الداخلية والشؤون الاجتماعية والمعارف تتنازع الاختصاص في بعض المسائل والاشراف على بعض الادارات والمصالح ، مثال ذلك ان شئون التمثيل ودار الأوبرا تستلحق بوزارة المعارف حيناً وبوزارة الشئون الاجتماعية حيناً آخر مع أن وظيفة كل وزارة تختلف عن وظيفة الأخرى ، وان الرقابة السينمائية تتوزعها وزارتا الداخلية والشئون ولا تحتفل بها وزارة المعارف ، مع أنها وسيلة من أهم وسائل الثقافة العامة . ومن هنا تضاربت الخطط والاختصاصات وأصبحت الهيئات الحكومية تسير كل واحدة منها في خطتها ، بل وأصبح الأفراد والجماعات يعمل كل حسب نزعته المستقلة دون تنسيق للحركة الثقافية ، وهو التنسيق الذي يعمل على عدم تكرار الجهد أو تضاربه والذي يجعل كل فريق يفيد من تجاريب الفريق الآخر ويبني عليها ، ولهذا كان لزاماً أن توضح وظيفة كل وزارة ، فالداخلية تشرف على العمل الثقافي من حيث مساسه بالأمن العام ، والشؤون الاجتماعية تشرف عليه من حيث مساسه بالخلق العام ، أما وزارة المعارف فهي المعنية به القوّامة عليه تشجعه وتدعو إليه ، بل وتخلقه خلقاً إذ اقتضى الحال .



وقد آن لنا أن نعيد النظر في إشراف وزارة المعارف على شؤون الثقافة العامة ، ذلك لأنّ مهمتها في هذه الناحية لا تقل ، إن لم تزد ، على مهمتها في الاشراف على الوحدات التعليمية النظامية ، لأنّ وسائل الثقافة العامة تتصل بالحياة العقلية ، الفردية والجماعية على السواء ، وبخاصة في هذه الفترة التى نحاول فيها أن نحمي الشباب من الآراء الهدّامة والتجمعات الفاشية المعارضة للنظام الديموقراطي الذي نريد أن نمكن له ونرسخ أصوله ، وقد فطن لذلك بعض الخبراء في العقلية الجماعية ، فدعوا الى الإشراف الرشيد على وسائل الثقافة العامة ، وأعني بالرشيد هنا الى ما لا يتعارض مع حرية الفكر وحرية التبادل الثقافي في حدود المحافظة على مقوّمات الأمة في ظل النظام الديموقراطي ، وقالوا إن هذا الاشراف

ينطوي على مهمتين : إحداها سلبية تعمل على الحماية من تسرب الثقافات الضارة ومن إساءة استعمال وسائلها ، والأخرى ، إيجابية تشجع القائمين بأمر الثقافات المفيدة وتستحدث ما ينبغي أن يوجد منها .

ولم تعد العلاقة بين الدول مقصورة على الاتصال السياسي والتبادل الاقتصادي والتجاري بل شملت التعاون الثقافي بأوسع حدوده ، فأنشئت شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة « Unesco » وهي التي تنظم العلاقات الثقافية بين الأمم ، وتشرف على تبادل الآثار الفنية والعلمية بين مختلف الشعوب ، وتصدر النشرات والاحصائيات ، وقد نظمت هذه الشعبة بحيث تنتظم الكلمة المكتوبة والملفوظة وسائر الفنون البصرية والسمعية التي تؤثر في الفرد والجماعة وتشجع القائمين بها وتنسق الجهود المساهمة فيها ، كما أنَّ جامعة الأمم العربية لم تغفل الثقافة العامة وأثرها في التقريب العقلي والشعوري بين هذه الأمم فأنشأت مكتبها الدائم ودعت الى المؤتمرات الثقافية ، وهي تحاول جاهدة أن تكشف عن نفائس المخطوطات والآثار الفنية وأن تشجع النهضة الفكرية وتعمل على تنسيق خطواتها .

* * *

أما وقد أصبحت للثقافة العامة هذه المكانة الملحوظة في الحياة الوطنية والدولية فقد صار من المحتم علينا أن نعيد النظر في الأداة الحكومية المهيمنة عليها ،

ومن ثمَّ لم تثبت على نظام أو تستحدث سنة ، فاذا اضطرت الى القيام بعمل من الاعمال وكلت به الى غير أهله أو دفعت به الى المختصين فيه من غير رجالها

وقد آن لنا أن نهتدي بتنظيمات الشعبة الدولية والمكتب الدائم للجامعة العربية ، وأن ننشىء الأداة المشرفة على الثقافة العامة بالوزارة من جديد ، على أنه لا يعزب عن بالنا أن الإفادة من هذا التعاون الثقافي الدولي يجب أن تكون بقدر وأن نفرق بين ما يقصد للدعاية وما يقصد للثقافة وأن نحذر التبعية الثقافية لأنها وخيمة العاقبة كالتبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وقد تكون مقدمة لها وداعية إليها « ولعلَّ أول ما ينبغي أن نحتفل به هو العمل على استصدار قانون يحافظ على الملكية الأدبية والفنية والعلمية حتى لا تصبح المؤلفات والآثار الفنية نهباً للنقلة والمقتبسين بغير حق ، وقد ترددنا في استصدار هذا القانون لأننا لم نرد أن نقفل الباب في وجه المترجمين ولما نزل في نهضتنا الفكرية عيالاً على غيرنا ، ولكن العقلية المصرية تأخذ مكانها التدريجي بين العقليات العالمية فالباب الذي فتحناه من ناحية بعدم استصدار هذا القانون يقفل في وجوه الفنانين

المصريين أبواب الافادة من جهودهم اذا أريد نقلها أو الاقتباس منها ، وسيدعو التبادل الثقافي الدولي الى عقد المعاهدات الثقافية وما يشبهها ، فعلينا أن نحترم الملكية الثقافية لغيرنا حتى يحترموا ملكياتنا .

ولسنا نستطيع أن ننظم هذا الاشراف الثقافي العام إلا إذا عرفنا ما عندنا وما ينقصنا باصطناع الاحصاء الثقافي الذي تبنى عليه المناهج والتوجيهات في كل فرع من فروع الثقافة ، ونحن اذا أردنا أن نحرص على مكانتنا الثقافية كان لزاماً علينا أن نأخذ بأكمل الوسائل الاحصائية من تسجيل وتصنيف وتحليل ، حتى يصبح هذا الاشراف قائماً على العلم الصحيح بنفسيتنا الجماعية وقدراتنا العقلية والشعورية .

وما دمنا قد أخذنا باللامركزية في شؤون التعليم وعرفنا فائدتها في حسن التوزيع وملاءمة التعليم للبيئات المختلفة قدر المستطاع ، فمن الضروري أن نأخذ بهذا النظام نفسه في التقسيم الثقافي حتى لا يتركز اهتمامنا في منطقة أو منطقتين . علينا أن نقسم القطر الى أقسام ثقافية أو نفيد من التقسيم السابق الى مناطق تعليمية فنلحق بها ادارات ثقافيـة تنظر في حاجة القسم أو الاقليم أو المنطقة الى الثقافة العامة أو نستكثر من الجامعات الشعبية ونوسع من وظيفتها أو ننشيء مراكز ثقافية قائمة برأسها .

* * *

وقد أدركنا في مطلع نهضتنا الفكرية أننا أحوج ما نكون إلى الترجمة فنقلنا الكثير من التآليف في شتى فروع المعرفة . وفي الأدب والعلوم الانسانية بخاصة . ولكن هذه الحركة قصرت جهدها كله تقريباً على اللغتين الفرنسية والانجليزية حتى أن قادة الرأي فينا كانوا يقسمون أنفسهم الى مدرستين : لاتينية وسكسونية . وقد أراد المشرفون على وزارة المعارف في يوم من الأيام أن يتخلصوا من هذا الضرب من الاحتكار الثقافي فأضافوا لغات أخرى إلى ما يدرس بالمدارس وجعلوا للطالب في مرحلة التعليم الثانوية أن يختار اللغة الأجنبية الاضافية . بيد أن هذه الحركة لم تؤت ثمارها لهذا السبب أو ذاك . فأولى بنا أن نوسع من حركة الترجمة ، نأخذ ما ينقصنا من جميع اللغات والشعوب بلا تفريق ، وستعاوننا في ذلك من غير شك شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة .

ولما أنشأنا مراقبة الثقافة العامة في وزارة المعارف وألحقنا بها ادارة للترجمة الفنية ، ونقصد بالفنية هنا الترجمة غير الادارية وقعنا في خلاف فقهي : أتقوم الدولة بالترجمة أم تشجع القائمين بها فقط . ولم يكن لهذا الخلاف محل لأن الدولة الآخذة بأسباب النهوض الفكري عليها أن تساهم مساهمة حقيقية في حركة الترجمة ، ولسنا في ذلك بدعاً ، فقد سبقتنا

حكومات كثيرة بترجمة نفائس الكتب التي تحتاج إليها أممها .

وحركة الترجمة على طول مداها وتشعب موضوعاتها وكثرة المشتغلين بها لا تزال قاصرة من وجوه كثيرة ، فروائع الأدب العالمي لما تكمل ترجمتها بعد ، وفروع العلم الطبيعي لا تزال عصية على المترجمين اما لأن أساتذة هذه العلوم قد درسوها بلغات أجنبية واما لأن المصطلحات لم يتفق عليها بعد . ونحن قبل أن ننظم الحركة للترجمة نرى لزاماً علينا أن نحصي المترجمات القائمة وأن نصنفها على موضوعاتها وأن نبين الصالح منها وأن نفيد من تجارب الذين قاموا بها في نقل العبارة والاصطلاح والاسلوب جميعاً . وأن نحصي المترجمين القادرين ونشجعهم بالارشاد والعون المادي وهذا مطلب من مطالب الشعبة الدولية لكي يتيسر لها أن تنظم التبادل الثقافي بين الأمم .

أما رسم الخطة لحركة الترجمة بعد هذا التمهيد فلن يكون عسيراً لأننا سنعرف ما ينقصنا من روائع الأدب العالمي فنعكف على نقله ونقف على الكتب العظيمة التي أثرت في العقل الانساني فنترجمها ونشرحها ، وندرك ما نحتاج اليه من فروع العلم فنعربها ونتتبع ما يؤلف في اللغات الأجنبية عن مصر والعرب والاسلام فنرد على ما يستأهل الرد ونترجم ما يستحق الترجمة .

ولا يفوتنا جانب خطير من جوانب الترجمة ، هو النقل من العربية الى غيرها من اللغات ويكاد يكون الاهتمام به معدوماً ، ولست أقصد به الدعاية لمصر وآثارها ونهضتها كما يفهم الكثيرون ولكني أقصد به اعطاء العبقرية المصرية فرصة اظهار كفاءتها بين العبقريات الأخرى ، فنحتفل بما تطلبه منا الشعبة الدولية من ناحية ونساعد المصريين الذين يجيدون لغة أجنبية ويريدون الترجمة اليها على القيام بهذا الجهد الشريف من جهود الثقافة العامة .

ومن العجيب اننا لا نزال نعامل المترجمين الفنيين اذا أردنا تشجيعهم أو الافادة من عملهم بذلك « التسعير الجبري » الذي أقره مجلس الوزراء في زمن مضى وحاولت مراقبة الثقافة العامة أن تغير من هذا الوضع فلم تفلح ، أو لعلها أنظرت الى يوم قريب أو بعيد ، وكان خيراً لها لو عاملت المترجمين بغير هذه المعاملة فاشترت حق الطبع بالقدر الذي يدخل التشجيع فيه .

وذكرت مراقبة الثقافة الحالية التأليف الى جانب الترجمة ، ولكنها ذكرته كما تذكر الالفاظ المتضايفة لاغير ، وفهمت منه القدرة على التحرير فوكلت أمر تشجيعه الى بعض المتخصصين في اللغة العربية دون سواهم مع أن هذا التشجيع يجب أن يوكل الى جماعة من

المتفننين في علوم كثيرة يعرفون ما تحتاج اليه الأمة فيدعون الى التأليف فيه ولا يقتصر عملهم على قراءة الكتب وبيان ما يصلح منها المكتبات المدرسية . وقد فطنت الوزارة الى تشجيع التأليف بوضع الجوائز وعقد المسابقات فأعلنت عن مسابقة منها لكتب الثقافة العامة وكتب الأطفال وكتب الآباء والأمهات ، وليس من الضروري أن تنشر الوزارة بنفسها المؤلفات التي تشجعها وتعين على تأليفها . وقصاراها أن ترغد الناشرين اليها وأن تساهم في الدعاية لها وأن تنشيء جمعيات « الكتاب » وأنديته في كل مركز ثقافي أو معهد لتحث أوساط المتعلمين على القراءة المفيدة المنتجة وتبصرهم بالكتب الناقصة وتعلمهم التمييز بين الكتب والثقافات .

واذا كانت الحكومة لا تستطيع أن تقصد الى الربح من أعمالها ، وبخاصة الثقافية منها فانه يجمل بها أن تعاون الهيئات والأفراد الذين يعملون على نشر الكتب جادين مخلصين وألا تقف في معاونتها هذه عند الحدود المرسومة الى الآن وألا تقتصر هذه المعاونة على الجانب المادي وحده ، بل يجب أن ترغدهم الى المخطوط النفيس والمؤلف القيم والمترجم الأمين أو حتى تمدهم به فتعفيهم من حق التأليف ، وتلك معاونة صادقة تزيد على المعاونة المادية . أضف الى ذلك أن الوزارة نفسها « عميل » مهم في سوق الكتاب . تشتري كثيراً من الكتب لتوزعها على مكتبات مدارسها أو تفرقها على تلاميذها وهي تتبع في هذه الناحية أسلوبها التقليدي في تأليف اللجان التي اذا اجتمعت فانما تجتمع مرة كل ستة أشهر ، وتتوقف بأمر يصدر بايقاف الانفاق على الكتب . لا بد من سياسة ثابتة رشيدة تتبع في شراء الكتب فلا يؤخذ من بند المقررات ما رصد على المكتبات ولا يتأثر التقدير بالحظوة من كبار الرجال فتطغى المحسوبية على المعايير الثقافية وما تطمح إليه من مثل .

ونحن مطالبون بحكم اتصالنا بالمؤسسات الثقافية العالمية أن نرصد جهدنا الثقافي بين الحين والحين ، وأن نصدر نشرات تسجل هـذا الجهد وأن نتبادل هذه النشرات مع الأمم الأخرى مساهمة منا في حركة الأخذ والعطاء في ميادين العلم والتربية والثقافة العامة ، أفليس من واجبنا والحالة هذه أن نذيع في جمهور المتعلمين عندنا خلاصة حقيقية لجهدنا الثقافي وهم بعلمه أولى من غيرهم وأن نضيف إليـه جهد الأمم الأخرى حتى يفيدوا منه ويبنوا عليه . واذا كانت وزارة الدفاع تصدر صحيفـة عن الجيش تعمل على تثقيف ضباطه والتقريب بين عقلياتهم ، بل واذا كانت وزارة الشؤون الاجتماعية تصدر مجلة يكاد يختص فيها الطابع الرسمي وتخرج بها الحكومة عن مألوفها في عدم الاتجار بأعمالها فان مراقبـة الثقافة في وزارة المعارف أولى من غيرها بأن تصدر صحيفة تبين فيها الحركة الثقافية في مصر والأمم الأخرى

أولاً بأول حتى يطلع المثقفون ، وبخاصة رجال التعليم ، على نواحي النشاط العقلي في العالم وقد يشحذهم هذا الى العمل الثقافي الايجابي .

وليس أدعى الى التأليف بين وحدات العقلية المصرية العامة أو العقلية العربية العامة من الكتب الجامعة أو دوائر المعارف ، وقد تنبه الى ذلك القائلون بالعالمية ، فدعوا الى تأليف دائرة معارف عالمية تنتظم الحياة الانسانية مبرأة من شوائب العصبية والشعوبية وما جرته على الانسانية من محن وكوارث وحروب . والأمة المصرية لم تصدر الى الآن كتابها الجامع لجهد أبنائها وجماعاتها منذ أنفأت حضارتها المكينة على ضفاف وادي النيل بل واللغة العربية تنتظر دائرة معارفها الكبرى التي تقف الى جانب دائرة المعارف البريطانية أو الفرنسية ، ناهيك بدوائر المعارف الخاصة بالفنون والعلوم وضروب الجهد الانساني ، ونحن لن نستطيع بطبيعة الحال ، ولما نستكمل بعد أدواتنا ، أن ننشىء دائرة معارف مثالية ولكنا نستطيع أن نحاول مفيدين من تجاريبنا وتجاريب غيرنا .

ومن حق وزارة المعارف أن تمد اشرافها الثقافي العام على دور الكتب وأن تعين الهيئات الاقليمية والخاصة على إنشاء دور جديدة وأن تنتخب لها الكتب ، وقد تزودها بها إن استطاعت وتهيء طبقة من المتخصصين في فن المكتبة توزعهم على هذه الدور وأن تجعل مكتبات المدارس ومعاهد العلم مكتبات عامة لغير المدرسين والتلاميذ كلما وجدت الى ذلك سبيلاً ، وأن تنظم مكتبات خاصة بالصبيان أو الشبان أو النساء ، ومكتبات فنية خاصة تنتظم مصادر هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة وأن تفيد من وسائل النقل فتدفع « بالمكتبة المتنقلة » الى أطراف المنطقة الثقافية أو الاقليم الثقافي وقد حوت النشرات والكتب والصور والأخبار التي تفيد الناس في معاشهم وتعينهم على استغلال فراغهم .

وثمة جانب من جوانب الثقافة القومية العامة قد أغفلناه وهو الأدب الشعبي ، وقد عنيت به شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة من ناحيتين : من الناحية الأدبية الخالصة ومن ناحية دلالته على الأمة التي صدر عنها ، ولمصر أدب شعبي عني به العلماء الاوربيون في حين غلب علينا الأدب الفردي الأرستقراطي ، ولما احتجنا الى القوالب القصصية والتمثيلية مددنا بأبصارنا عبر البحر المحيط ولم نحاول أن نقيم أدبنا القصصي والتمثيلي على أصوله ، وان تكن ساذجة وحرام علينا أن نترك تراثنا لغيرنا يدرسونه ويشيدون به ونوقف جهودنا على آداب الفرس واليونان ومن اليهم ! . على وزارة المعارف مستعينة بالمتخصصين أن تجمع آثار هذا الأدب وان تعمل على تنقيته مما علق به من الشوائب على

يد النقلة والناسخين والجامعين ! وأن تدفع بأصحاب المواهب الى أن يعيدوا تأليف بعض مشاهده وأن تشجع على تمثيل بعضها الآخر على خشبة المسرح أو على الشاشة البيضاء .

ولما أردنا أن نشجع التمثيل ، دعونا لجنة لترقية المسرح حشرنا فيها بعض المشاهير في كل الشئون حتى شئون المال والأعمال ، وكانت هذه اللجنة قلما تجتمع ، واحتفلنا بالترجمة والتأليف جميعاً فعينا تمثيليات من روائع الأدب المسرحي العالمي لكي تترجم ووزعت بالفعل على طائفة من الأدباء النابهين فترجموا بعضها ، وأكاد أقول إنه لم يمثل شيء منها ، ورصدنا الجوائز للتأليف المسرحي فلم ينتعش حتى قال قائل ان العقلية المصرية قاصرة عن انشاء الأدب التمثيلي وتبلبلنا بين اللهجة الفصيحة والدارجة وبين الشعر والنثر ووفقنا الى عصير دار الأوبرا دون أن نهمل سنتنا الحسنة في استدعاء الفرق الأجنبية الشهيرة ، وألفنا فرقة حكومية للتمثيل وأنشأنا معهداً يدرس أصوله وفروعه وجعلنا التمثيل من النشاط المدرسي وعينا له المفتشين . ولكن هذا كله لم ينهض بهذا الفن الجميل لأن تشجيعنا اياه كان مرتجلاً ، ولأن وزارتي المعارف والشئون الاجتماعية تتنازعان على داره الأولى ومعهده العالي ، وليس أدل على انحطاط مستوى هذا الفن من أن بعض المسرحيات التي تعرضها الفرقة الحكومية باللغة العامية سفسافة يعرف معظم المثقفين أنها منقولة عن أصل أجنبي ومن أن المعهد العالي للتمثيل يدرس فيه عصاميون لا مؤهلات لهم يتسورون الأدب اليوناني من غير فهم له في لغته أو حتى في لغة أخرى .

ولا يمكن أن يشجع هذا الفن الا اذا اشتق من صميم البيئة المصرية واعتمد على التراث القصصي الشعبي وتعاون القائمون به على نهضته مع المشرفين على الحركة الثقافية العامة من تأليف وترجمة مع توزيع المسارح المتنقلة على المراكز الثقافية وفروع الجامعة الشعبية والمدارس والساحات الريفية ، وأن يناط بهذا كله الى وزارة المعارف دون سواها ، لأن التمثيل من صميم الثقافة الشعبية العامة واذا كان لغيرها أن ينهض بشيء من الجهد فيه فليكن باعارة الدور التابعة للمجالس البلدية أو بالاعانة المالية والادارية .

وعدت شعبة التربية والعلم والثقافة الخاصة بالأمم المتحدة السينما من أخطر الوسائط الثقافية الجماعية وأقواها تأثيراً في النفوس وخصتها بعنايتها من ناحية التأليف لها ومن ناحية الصناعات الفنية المتصلة بها ، وهذه الشعبة تشجع على تبادل العمل الفعلي وتزاور القائمين به ، فعلى وزارة المعارف أن تعرف للسينما قدرها فتحتفل بالتأليف والترجمة لها وتزود سوقها بالعقليات المستنيرة وتعين الأفلام الثقافية والتاريخية وتدفع الى تعريب الحوار في الروائع الأدبية التي تصدرها شركات السينما في الخارج حتى يفيد منها أكبر عدد

من الجمهور المصري فيرتقي ذوقه ويدفع المشتغلين بصناعة السينما الى الاجادة والاتقان ، وتنتخب من القصص المصري الممتاز ما يصلح للسينما فتعطي بذلك المؤلفين فرصة مزدوجة للافادة من مواهبهم ، وتزوّد المراكز الثقافية بآلات العرض وتستبدل الآلات الموجودة في المدارس بأخرى تصلح للفيلم العادي وتنشر الثقافة السينمائية الفنية بشتى فروعها من تأليف القصة والسينـاريو والحوار والتنكر والاضاءة والتصوير وتسجيل الصوت وتقطيع مشاهده . وما اليه مع تخريج طبقة من النقاد تبصر الجمهور بمـا ينبغي أن يرغب فيه من المشاهد والأفلام .

أما الاذاعة — وكل ما يصدر عنها داخل في العمل الثقافي الخالص — كان المنتظر أن ترفع الشعب اليها لا أن تنزل هي اليه وبخاصة لأنها ليست كالسينما تعتمد في وجودها عليه وتقصد إلى التجارة والربح . يجب أن يوكل برنامجها الى الهيئة المشرفة على الثقافة العامة في وزارة المعـارف وأن تتدرج هذه الوزارة في ترقيـة الذوق الشعبي ونشر الثقافة المبسطة وترقية الغناء الموسيقي ونقل روائع الأدب الاذاعي التي تلائم المزاج المصري .

* * *

والصحافة سواء أكانت ثقافية خالصة أم عامة، عامل من أقوى العوامل في تدوين الرأي العام الثقافي ، وقـد حددت ظروف الحرب من صفحاتها وجعلتها لا تحتفل بالثقافة إلاّ قليـلاً ، ولـكن هذه الظروف آخذة في الزوال وستحتل الثقافة مكانها القديم وتعود المقالة الأدبية أو العلمية أو الأقصوصة القصيرة الى الظهور . لن تناقض هذه الانواع الثقافية « الخبر أو الحادثة » ولـكنها ستقف الى جانبهما . فمن واجب وزارة المعـارف أن تشرف اشرافاً أدبيًّـا على الصحافة الثقافية وعلى أبواب الثقافة في الصحف العامة ، وأن تشجع هذه الناحية باعانة الأولى وتزويد الثانية بالارشاد واستغلال العمل الصحفي في الدعاية للنشاط الثقافي وتهيئة النفوس للاقبال عليه والافادة منه .

وليس أدل على حيوية الأمة من الاهتمام بماضيها والمحافظة على آثارها واقامة المتاحف المجسمة لجهودها في سبيل الحضـارة ، فالمتحف أفصح من الـكتب والمدارس ، ومتاحف الآثار المصرية منفصلة عن بعضها وكأنما عاشت مصر على فترات منقطعة وهي تخضع للمنهج القديم الذي يقسم التاريخ الى دول غازية وأديان مختلفة . فما أحوجنا الى توحيـد المتاحف في متحف واحد للحضارة المصرية في شتى عصورها ، وقد أقيمت للعـلوم المختلفة متاحف وللمرافق العامة متاحف من حق وزارة المعـارف أن تشرف عليهـا اشرافاً ثقافيًّـا وأن تكون هي الواسطة الجامعة لها المنسقة لاداراتها وان ألحق كل منها بالمرفق الذي يدل عليه.

وكما أن المتحف يدل على الجهود الماضية ، فالمعرض يعطي صورة للنشاط الحاضر ، ومن ثمّ كانت المعارض من أقوى وسائل الدعاية ، والعمل الثقافي كسائر الأعمال يحتاج الى الدعاية له بالكلمة المكتوبة والملفوظة والصورة والمثال . وقد أقيم معرض ثقافي خاص بالكتاب العربي ولكنه كان معرضاً قاصراً تبدو العجلة على كل ناحية من نواحيه . فعلينا أن نقيم أمثال هذا المعرض بعد أن نستعد له وألاّ نغفل المعارض النوعية كمعارض الصور والتماثيل وأن نساهم في المعارض غير الثقافية فنجعل من معارض النبات والحيوان والحرف والصناعات معارض ثقافية وألاّ نقصرها على اقليم دون اقليم وأن تتعاون وزارة المعارف مع شتى الوزارات والمصالح التي تريد اقامة معرض من المعارض فتمدها بالخبراء في هذا الجانب من الثقافة من ناحية وبالمتخصصين في تنظيم المعارض وتصنيف المعروضات من ناحية أخرى .

ووزارة المعارف تقدم العون الأدبي والمادي للجمعيات والأندية الثقافية بالفعل وتخضعها لنوع من الاشراف الاداري والثقافي وتبعث المفتشين الاداريين للنظر في حساباتها وأنظمتها ، بل وترسل المفتشين الثقافيين للتحقق من وفائها بالأغراض الثقافية التي انتدبت لها . ولكن هذا الاشراف بصورتيه الادارية والثقافية صوري أو يكاد . . . وما رأيك في أننا كنا نرسل متخصصاً في الثقافة الفرنسية للتفتيش على هيئة خريجي قسم اللغة الانجليزية مثلاً . ونرسل مدرساً من مدرسي اللغة العربية المتخرجين في دار العلوم للتفتيش على أعمال المجمع المصري للثقافة العلمية، ما جدوى تفتيشهما وما قيمة تقاريرها ؟ ان الاعانة تصرف بمقتضى هذا التفتيش وتلك التقارير ولكن هذا ليس كل شيء ، فان هذه الجمعيات وتلك الأندية ومنها ما هو في مصر ومنها ما يمثل الثقافة المصرية في الخارج . ينبغي أن تخضع لإشراف الوزارة الثقافي الجدّي فتعينها بالبرامج وبالارشاد وبالأخصائيين وبالكتب وتتبع أعمالها من حين الى حين ، لا بالتفتيش عليها مرة واحدة في كل سنة وتشجع الأفراد والهيئات على تأليف اللجان والجمعيات والأندية الثقافية الخالصة للقيام بالأنواع التي تنقصنا ، كما تشجع الهيئات النقابية الخاصة والأندية المنشأة لاستغلال أوقات الفراغ بصورة من الصور على أن تكون الثقافة بمعناها الواسع من أهم ما يشغلها ويشغل أعضاءها في شيء من التنسيق بين جهود هذه الهيئات جميعاً حتى تشمل كل فروع الثقافة وتوزع على كل المناطق ويسهل التبادل الثقافي والتزاور فيما بينها تيسيراً للوحدة الثقافية العامة التي ننشدها .

ومن الأخطاء التي ينبغي أن نتنبه إليها أن كل مثقف أو متخصص في ناحية من نواحي الثقافة لا يستطيع بالضرورة أن يشجع الحركة الثقافية ويهيء النفوس لاستقبال العمل الثقافي ومعرفة ما يصلح وما لا يصلح لهذه الهيئة أو تلك الطبقة . فجدير بنا أن نعمل توًّا على إيجاد

جيل من « الثقافيين » يدرسون السيكلوجية الجماعية عامة والمصرية خاصة وحاجياتها . وطرائق التأثير فيها والالمام بما تفعله الأمم الأخرى في هذا السبيل بارسال البعثات وانتخاب بعض ذوي الاستعداد ليكونوا مع الملحقين الثقافيين في سفاراتنا بالخارج وتنظيم الزيارات الموسمية للمؤسسات العاملة على نشر الثقافة مع تخريج عدد من المتخصصين في فنون المعارض والمكتبات وما إليها .

وهذه الجهود لا يمكن أن يزاولها المكلفون بها على وجهها الصحيح في ديوان الوزارة وفي تلك الحجرات التي يستطيع أن يغشاها كل من أراد ولو لم يكن له عمل متصل بها ، وهي إن ساعدت على عمل فانما هو العمل الديواني العتيق الذي يعتمد على الحركة العضلية الآلية أكثر مما يعتمد على التأمل والتفكير ودراسة ومراجعة النشرات وتحليل الاحصائيات . كما أن اداراتها مبعثرة لا ارتباط فيها بين قسم وقسم ، مع أن التنسيق هو بمثابة الأصل الذي ينتظم أصولها . وقد أدّى هذا الى عدم اتضاح الحدود والأعمال وانعدام المسئولية الفردية ومن الخير أن تستقل بمبنى خاص يجمع أكثر مصالحها واداراتها ان لم نستطع أن نجمعها كلها في صعيد واحد وبخاصة لأنها تحتاج في عملها هذا الى الاتصال بالهيئات الثقافية الدولية والعلماء والفنانين النابهين . وكم من عالم شرقي أو مستشرق أو أديب غربي اضطر الى زيارة قسم من أقسام مراقبة الثقافة الحالية فاصطدم بالواقع الذي يباين سمعة مصر الثقافية الحسنة في الخارج .

* * *

اما تقسيم هذا الاشراف الثقافي الى مصالح ومراقبات وادارات وأقسام . فذلك بعد الذي شرحنا يسير لأنه يقوم على تقسيم العمل على الفروع والأنواع . وما دامت وزارة المعارف قد انتهجت سياسة التخفيف عن كواهل التلاميذ في مراحل التعليم النظامي فبسطت البرامج ويسرت الامتحانات وأنقصت اليوم الدراسي فزادت من فراغ التلاميذ وبخاصة المراهقين وصغار الشبان فمن واجبها أن تحتفل بالنشاط المدرسي واستكمال ما لم يحصله التلاميذ في المدرسة بالثقافة العامة وغرس الهواية المفيدة في نفوس الشبان وشغلهم في أوقات الفراغ بما يصلح أخلاقهم وينفع أمتهم ويسمو بغرائزهم وعواطفهم ، وإلاّ اضطر هؤلاء الأحداث الى الانحراف والغواية والافتتان ببعض الآراء المتطرفة والانسياق وراء بعض الزعماء الذين يستغلون عواطف الشبان باسم العدالة الاجتماعية حيناً والمحافظة على مقومات الدين حيناً آخر .

عبد الحميد يونس
عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية



في التربية

— ٢ —

مشاكل النمو والصراع النفسي



— ١ —

قبل أن نعرض لما ينتاب الناشىء من أزمات تحول دون نموه نموًّا طبيعيًّا، نشير الى أنواع المدارس التي تساير مراحل النمو في مصر إشارة عامة. انقسمت مراحل الدراسة الماضية أربعة مراحل، يزدوج في كل مرحلة منها نوعان من المدارس فرقت بين نزيلهما المصروفات. ففي المرحلة الأولى المدرسة الإلزامية، ورياض الأطفال، وفي المرحلة الثانية المدرسة الأوليـة والمدرسة الابتدائية، وفي المرحلة الثالثة المدارس الصناعية والتجارية والزراعية، والمدرسة الثانوية، وفي المرحلة الرابعة المدارس العليا والكليات الجامعية. وقد بذلت مساعٍ جد حديثة لتقريب المستوى المادّي والعلمي لهذه المدارس، وبدأت بتيسير وسائل التعليم والتوسع في نسبة المجانية، ومحاولات لجعل التعليم الابتدائي مجانًا، وتقسيم التعليم الثانوي الى تجاري وصناعي وزراعي ونظري، وتيسير اختيار السبيل تبعًا للمواهب، ومواصلة الدراسة منها إلى ما يناظرها في التعليم العالي. وقد تلونت هذه الحركة بالروح الديموقراطية الحديثة والسعي الى تعليم الشعب، وكان اتجاهها الرئيسي نحو تعميم المجانية وتيسير الدراسة.

وتلت ذلك حركة أحدث منها، بل تعاصرها، قوامها السعي إلى ترقية مستوى التعليم من ناحية الكيف، مع الاستعانة بأساليب التربية وعلم النفس الحديثين، وتنادي بالمدرسة الواحدة في المرحلة الأولى، وتحويل المدارس الأوليـة والالزامية والابتدائية الى مدرسة أولية جديدة تؤدي الى التوسع في التعليم العـام، وفي نفس الوقت الى تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بصورة عملية، وتسعى إلى إعداد مدرس جديد في معاهد جديدة على أسس حديثة. وتلي هذه المرحلة مرحلة دراسة وسطى، تناسب مرحلة الطفولة المتأخرة، ومرحلة الدراسة الثانوية، وربما كان من النافع تنويعها فتتسع للمدرسة الثانوية التي اقترحها رجال المدرسة الأولى، فتصل الناشىء الى الجامعة. على أن مشكلة المناهج والكتب الصالحة وطرق التدريس

لم تحتفل بثورة الاهتمام بعد ، وهي في حاجة الى جهود كل من له صلة بالتربية ، وعقد مؤتمرات عامة ، وتجربة المشروعات في نطاق أوسع مما تجرب فيه اليوم بالمدارس النموذجية ، ومن الممكن تعميم طرق المشروعات في المرحلة الأولى ، وطرق المشاكل وأساليب مدارس الفن في المدارس الثانوية والمثل الأعلى للنمو القويم إشباع حاجات الناشيء في كل مرحلة من المراحل ، وإنماء ذاتيته تبعاً لمواهبه إذا أردنا لمجتمعنا هذا رقيًّا مثاليًّا . ومن المغالطة الاحتجاج بقلة المال ، فباب الضرائب مفتوح ، وفي مصر ثروات محتكرة وإنما جمعت من مال المستهلك والعامل والصانع والفلاح والشعب المصري ، ولا يستقيم الشعب ويعالج ما به من فقر وجهل ومرض إلاَّ بالتربية السليمة ، وانه لوهم أن يعتقد فرد أن التربية الصحيحة ستضر بمصالح طبقة من الطبقات .

— ٢ —

وقد يحدث ألاَّ ينمو الطفل نموًّا سليماً طبيعيًّا ويجتاز مرحلة الى أخرى ، فقد يقف عند مرحلة لا يتعداها ، وقد يحدث له نكوص وارتداد الى مرحلة سابقة .

يدل على ذلك ما وصل اليه فرويد ومدارس التحليل النفسي من نتائج البحث في عالم اللاشعور . على أن فرويد يرجع أسباب الشذوذ الى الغريزة الجنسية ، ولا يوافق مكدوجل على ارجاع كل المشاكل الى هذه الغريزة وحدها ، وإنما يرجعها إلى ما يسميه الدافع الهورمي ، أي الدافع للحياة ، ويقابل اللبيدو عند فرويد ، وهو يشمل الدوافع الغريزية كلها ، بما فيها الغريزة الجنسية ، ومناطق الشعور ومناطق اللاشعور على السواء . أما رجال التحليل النفسي ، فيرون أن الشعور وميدان العقل والخبرات الفردية إنما هي مظهر الحياة النفسية وسطحها بينما الجوهر الخافي الذي يسير الحياة هو اللاشعور ، ولا يدرك كنهه الاَّ بالتحليل النفسي والتأمل الباطني على أن في هذا التفسير للحياة النفسية ما يشبه الدوافع الحية النامية (الهورمية) والاحتفاظية (الميمية) عند مدرسة مكدوجل ، فأساس الحياة النفسية قدرة على النمو واستعداد للاحتفاظ بالخبرات ، ينتج عنهما مركبات أو عقد تنشط في اللاشعور وترى هذه المدرسة أن العواطف مركبات تكونت بهذه الطريقة ، وتلونت بألوان وجدانية نزوعية اتصلت بفكرة ، وتنتظم هذه العواطف تحت سيطرة عاطفة الذات .

ولو حدث النموُّ يسيراً ناعماً لما كان هناك شذوذ ، فلو قام اللاشعور أو البناء النفسي بوظيفته بانسجام أدّى الى انسجام السلوك لنما الإنسان نموًّا مثاليًّا ، وإنما توجد ميول خاصَّة تتمرد ولا تتعاون مع غيرها من النزعات تحت سيطرة عاطفة اعتبار الذات ، أو الذات المثلى . ولا تبقى هذه النزعات المتمردة راكدة بل تنشط في اللاشعور وتنازع غريزة

اعتبار الذات وتظهر آثارها في السلوك وتؤدي إلى انقسام الشخصية ونمو سلوك شاذ . ويحس الفرد بمثل هذا الصراع في قرارة نفسه بين شهوات البدن والروح ، وتنازع انفعالات الغضب والحنو ، والخوف وحب الاستطلاع . على أن هذه الصور بسيطة زائلة مؤقتة بينما يوجد انفعالات وعواطف دائمة الحرب . وعلاجها هو اكتشافها وتحليلها ومحاولة التوفيق بينها حتى تنسجم تحت عاطفة الذات المثلى . ولا صلح دون مفاوضة ، كذلك لا سلامة نفسية بدون معرفة النزعة الشاردة والتوفيق بينها وبين الذات المثالية ، وتلك مهمة المحلل النفساني وميدانه هو تفسير الأحلام ، وعثرات اللسان ، وتداعي الكلام الحر ، وغير ذلك مما يكشف للفرد نزعاته المكبوتة الباطنية ، وبقدر ما يوفق بينها يحدث اتزان في الشخصية . أما إذا اشتد بأس العقد المكبوتة ، وزادت سطوتها فظهرت في السلوك ، ولم تعد الذات تسيطر عليها ، فيحدث في النفس ما يشبه حرب العصابات ، وتسعى العقد المكبوتة إلى الظهور على السطح ، وإذا زاد بأسها خلقت شخصية أخرى مركبة قوامها النزعات الشاردة فتقسم شخصية الفرد إلى شخصيتين ، وتتناوب مع الشخصية الطبيعية الظهور والسيطرة . وفي الحالين يقاسي الفرد من المجهود النفسي الذي يبذله بكبت العقد التي تظل في اللاشعور تنتظر الفرص للظهور .

ويفسر فرويد اللاشعور تفسيراً رمزياً تصويرياً ، فيجعل منه حجرة انتظار كبيرة تؤدي الى حجرة صغيرة هي ما قبل الشعور . ويزدحم كل أنواع المشاعر التي تريد الدخول في حجرة اللاشعور ، وتسعى الى الدخول في حيز ما قبل الشعور ، لولا الرقيب الذي يختار ما يصل الى حيز الشعور ، بينما يمنع المشاعر الأخرى فتكبت . على أن أحدها قد يتنكر في ثوب ما ويخدع الرقيب ويدخل الى حيز الشعور . وهذا التفسير فرض نظري خالص ، فالتشبيه مضلل إذا صار سيداً لا خادماً ، أما اذا اعتبر فرضاً كفرد من الخبرة والعقد النفسية والشعور ، كان معناه ما يأتي : تنشط العقد المكبوتة في النفس وتصطرع لتظهر في حيز الشعور ، فيضعف تكامل الشخصية وانسجامها ، وتستقل العقدة النفسية ولا تتعاون مع الشخصية . وقد تنشط وتظهر في ميدان الشعور في ثوب بريء لا يكشف عنها مباشرة ، وبذلك يكون لها معنى رمزياً . وتكثر هذه الرموز في الاحلام إذ ينام الرقيب فتنطلق العقد المكبوتة وتمرح في الشعور وتوجه السلوك سافرة غير متنكرة ، ولكن تنافي هذه الأحلام معاييرنا الخلقية الاجتماعية ، لذا ينتابها النسيان . وقد تظهر العقد في الأحلام بصورة رمزية ، ويرى المحلل أن هناك رموزاً عامة مشتركة بين الأحلام ، فالملك يمثل الأب ، والشمس والقمر والكواكب تمثل الأب والأم والإخوة كما ورد في حلم يوسف .

— ٣ —

وقد ألقت أبحاث فرويد وينج وأتباعهم ضوءًا على الأحلام ، فكثر أحلام الخوف في مراحل الطفولة والمراهقة ، وتفسر بأنهـا خوف من عقد مكبوتة توشك أن تكشف عن حقيقتها فتفزع الشخصية الطبيعية ، وتتدخل في اللحظة المناسبة . والسير أثناء النوم رمز للصراع الذهني ، وتمتزل فيه الشخصية الرئيسية مكانها وتهبه للشخصية الثانية ، والقهقهة في الحديث دليل على صراع عقلي ، ربما سببه خوف الأب ، الذي قد يظهر في صورة استعمال الطفل ليده اليسرى رغبةً في المخالفة . ويرى فرويد أن النسيان وعثرات اللسان وتجنب تعبيرات خاصة مظاهر الكبت ، كذلك المبالغة في العناية بشيء ، وسقوط أداة ، وبقعة تصيب الخطاب عفواً ، وخطأ في عبارة ، كلها عقد تسللت والرقيب نائم ، أو تنكرت وخدعته فظهرت في الشعور ودلت على دوافع خفية . ومظاهر ذلك في المدرسة عبث التلميذ بكراسته وهروبه من المدرسة ، وعثرات لسانه . وكل مظاهر الشذوذ رمز لا شعوري لعدائه للمدرسة والنظام والدرس ، ومن يحضر متأخراً عن ميعاده يعبر تعبيراً لاشعوريًّا عن كبت في نفسه رغم اعتقاده بأنه لا يقصـد الاهمال أو المماكسة . وقد يدل الحماس الزائد المبالغ فيه على عكسه ليغطي الفرد به ما يكبت في لاشعوره ، فن ذلك النظافة المبالغ فيها ، التي قد تغطي شعوراً بإثم باطن ، ومنه محاولة عمل يفوق الطاقة تعويضاً عن ضعف أو انحطاط ، ومنه قسوة النقد على الغير تغطية لخطأ مكبوت . ولكل من يسعى الى علاج الطفل المشكل أن يرجع الى معين اللاشعور وصور الصراع النفسي ، وتتعدد هذه المشاكل في مراحل المراهقة ، فقد يفشل المراهق في التكيف مع العالم الخارجي ، فيشغل بما في عالمه النفسي وينطوي على ذاته أكثر مما يتصل بالعالم الخارجي ، ونتيجة ذلك أن يكوّن فكرة سيئة عن العالم ، وينغمس في أحلام اليقظة التي تنسج له عالماً وهميًّـا يحيا فيه وفق رغباته . وكثيراً ما يشكو المراهق من التعب ، والأمراض الوهميـة ، ويسعى للنوم ، وذلك تعبير عن عجزه عن مجابهة حقائق الحياة ، ورغبته في الانسحاب من معركتها .

***

وليست الراحة مهرباً له من مشاكله ، وإنما العـلاج إشراكه في النشاط الخارجي ، والرياضة دواء لمشاكله البسيطة ، ففيها مجال يعبر فيه المراهق عن ذاته ، ولا بدّ من عناية خاصة لمشاكله المعقدة ، فربما انتهى الصراع النفسي بالجنون .

وقد يؤدي الفشل في التكيف إلى نكوص ورجوع الى مرحلة أولى ، يشعر الفرد بأنه

كان أكثر راحة فيها منه في حاضره ، ويظهر ذلك في التعلق بالقديم ورفض استبداله بالجديد
وربما تحمل الآباء مسئولية ما يحدث من وقوف نمو أبنائهم عند مرحلة أو نكوصهم إلى
مرحلة أولى إذ يؤدي بهم الحنان الى خلق ابن متواكل يعتمد عليهم في كل صغيرة وكبيرة
ولا يسمحون له باستقلال في الرأي والتفكير . ومن مهمات التربية أن نساعد الناشيء
على الاستقلال في كل المشاكل ، والاعتماد على نفسه وتفكيره في مجابهة الحياة .

* * *

ومرحلة المراهقة هي مرحلة الشذوذ والاجرام إذا اشتد الفشل في التكيف ، فيحدث نكوص يرجع بالمراهق الى مستوى الطفل الغريزي ، فيدع غرائزه تعبر عن نفسها تعبيراً غير اجتماعي . وربما كان للغريزة الجنسية أثر في أخطر الجرائم ، وربما كانت الجريمة مظهراً لغريزة السيطرة معكوساً بعد أن فشل صاحبها في توجيهها توجيهاً اجتماعيًّا ، فقام المجتمع مقام الأب المكروه ، دون أن يدري المجرم سبب ارتكابه لجريمته . وربما كان الهرب من المدرسة مظهراً للتمرد على سلطة الأب ، أو رغبة في الاستقلال أو السيطرة ، وربما كان مظهراً للبقاء تحت كنف الأبوين أو ثورة عليهما . كذلك الكذب فهو مظهر لعقدة مكبوتة في الأعم الأغلب . والسرقة مسلك شاذ للتعبير عن غريزة حب التملك ، وربما كانت مظهر ثورة على الأبوين حل المجتمع محلهما . وعلاج ذلك كله إعلاء الغريزة وتوجيهها توجيهاً اجتماعيًّا مرغوباً فيه ، وعلى المربين أن يوفدوا في المدرسة مجال إعلاء هذه الميول ، ولا ينفع العقاب كما يضر ، وإنما يزيد في دفع المذنب إلى جانب العداوة للمجتمع ، والكبت في التربية من الأمور الخطرة الخاطئة ، وإنما يوفر المربي المجال لكل الدوافع حتى يعبر عن نفسها ويشرف على ذلك إشرافاً يصحبه الحنو والعطف وصدق الفهم . وإذا أردنا أن نربي شخصيات مثالية ، تخلق مجتمعاً راقياً تقيًّا نبيلاً متحرراً ، ففي مرحلة المراهقة بدء الطريق .

***

فهل تحبب مدارسنا الثانوية بإداراتها ونظمها ، ومناهجها وكتبها المراهق فيها ؟ وكم من أبنائنا يجتاز هذه المرحلة ولم يعترضه مظهر من مظاهر الشذوذ ؟ وما هي أسباب هذا الشذوذ ؟ إن في ذلك مجال ليفكر فيه الأب والمربي والمصلح .

محمود حامد شوكت

العناية بالدواجن

وتحسين أنسالها في روسيا السوفيتية

Stockbreeduig and the Artificial Insemination of Livestock. By V. K, Milonanov and I. I. Sokolovskaya. Trans. by Dr. A. G, Morton : London. Hutchinson : 1947 : 25s. net.

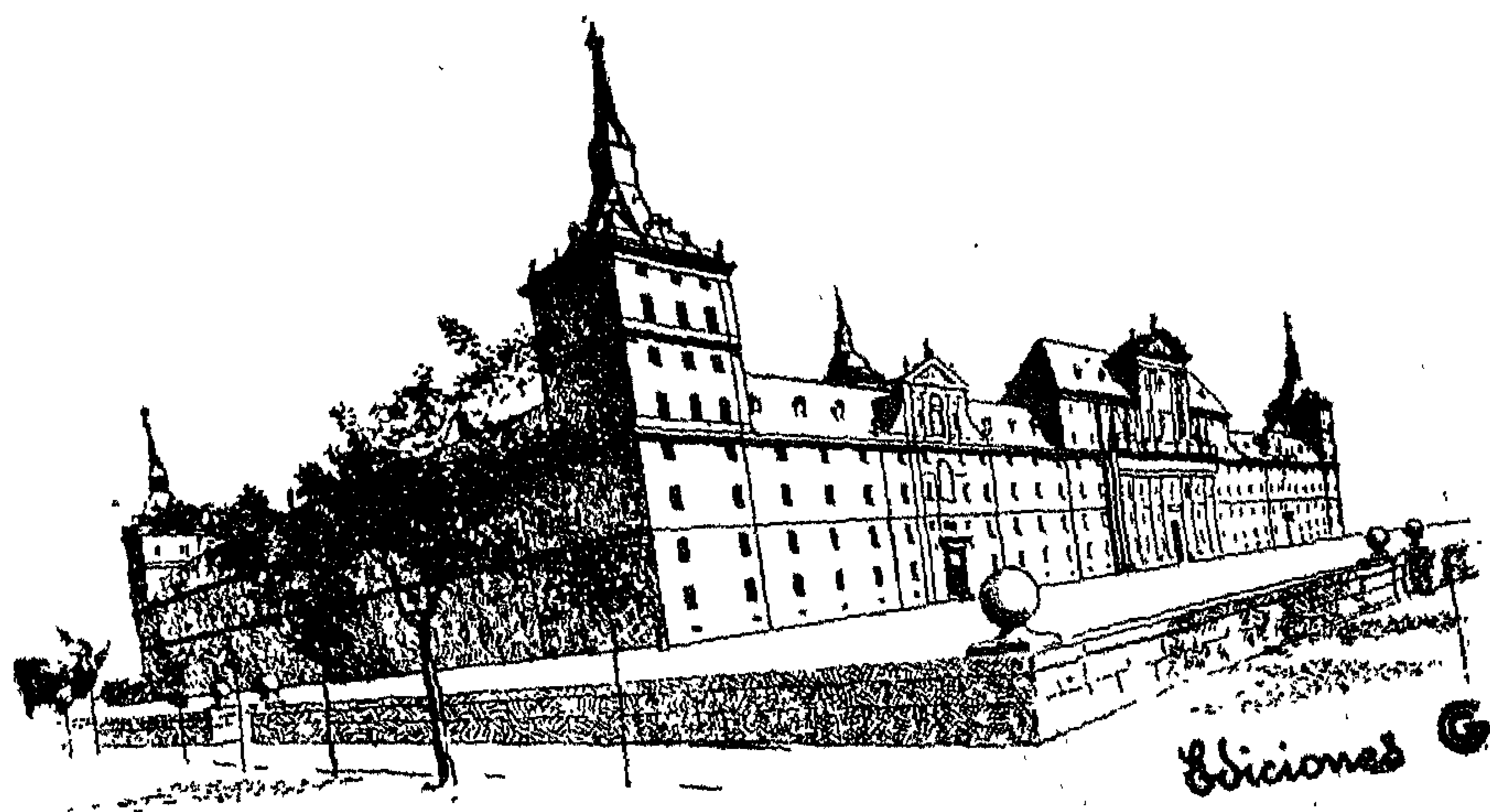
تحاول روسيا السوفيتية أن تسابق الامم في مضمار الرقي ، على أن يشمل ذلك جميع مرافق الحياة . وفي هذا الكتاب عرض للاساليب النظرية والعملية التي يؤمن بها علماء الروس في تحسين نسل الدواجن . ولقد نوه المؤلفان بالجهود التي بذلتها انجلترا في هذا الشأن في مقدمة الكتاب ، وأشادا بجودة بعض ضروب الدواجن التي استطاع العلماء والهواة في انجلترا أن يفوزوا باستخلاصها . ثم عطف المؤلفان على نظرية « دارون » في قابلية تغاير الاحياء وعلى مذهبه في الانتخاب الطبيعي ، فاستغرق ذلك البحث الفصلين الاولين منه . وقد عززا نظرية « التغاير التقابلي » Correlated Variation بمشاهدات أثبتاها في الدواجن الروسية وأثبتاها بالتجارب التي أجرياها على كثير من أجزاء الجسم والانسجة في الغنم والماشية وألبانها ولحومها ، وأظهرا عملياً ما بين بعض هذه التراكيب وبعض من النسب الثابتة . وقد ذهبا الى ضرورة إيجاد البيئة ذات الحالات الصالحة لاستخلاص أنسال تؤدي أغراضاً خاصة بالانتخاب الطبيعي .

على أنهما لم يقتصرا على ذلك . بل تابعا البحث في نظريات جديدة ذهبا إليها ، كقولهما بأن النشاط العصبي يتفق كثيراً مع تكوين الجسم . وقد أيدا قولهما بمذهب « بافلوف » الروسي القائل بأن الحيوان الرقيق التكوين يكون فيه ضعف سواء أمن ناحية التلبه أم من ناحية الكبح على السواء .

وعقدا فصلا في التزاوج ، فقال ان تزاوج غير السويين ، أي أن يكون أحد الفردين ناقصاً والآخر كامل ، ليكمل الكامل منهما ناحية النقص في صاحبه ، نظرية مرفوضة ، وذهبا الى أن تزاوج الاسوياء هو الاسلوب الصحيح في تخليق الانسال ، وعطفا على أساليب الاستيلاد ، وبحثا في توالد الاقرباء ، وتوالد الانسال الصحيحة ، والتوالد بالتهجين ، وأبانا عن الاساس العلمي والعملي لكل من هذه الطرق .

ولا شك في أن أفيد فصول الكتاب هو الفصل المعقود على طريقة التلقيح الصناعي في الدواجن ، وشرح الطريقة المتبعة في روسيا في تلقيح الاناث بنوع من الورق مشبع بعناصر الذكور . وان كثيراً مما قرر المؤلفان في هذا الفصل يمكن تأييده عملا وعلماً وإن خالفا فيه بعض الاساليب التي جرى عليها علماء اختصاصيون في انجلترا وفرنسا والمانيا . ومما ذهبا إليه ان زيادة الحييوينات المنوية في التلقيح الصناعي أو قلتها عن نسبة معينة ، لها نتائج ضارة تصيب الالقاح ذاته . وقد ضربا على ذلك الامثال الكثيرة ، ووصفا الطرق التي تتبع في الفحص عن صفة اللقح (المني) قبل استعماله ، ومضيا في بحث الانتخاب الالقاحي في بييضات الارانب ، بأن ألقحاها بحييوينات ضربين مختلفين تمام الاختلاف .

ويتبع ذلك فصول كبيرة الفائدة في التفريخ والتوالد والتربية كلها قائم على أساس علمي وعلى أساليب عملية .



قصر الاسكوريال

الاسكوريال

في صيف هذا العام أوفدت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بعثة من أساتذتها وطلبتها وخرّيجيها لزيارة معالم أسبانيا وأهم آثارها فكانت رحلة موفقة تمكنت البعثة خلالها من زيارة أهم مدنها ومعالمها ومن بينها الاسكوريال ثامن عجائب الدنيا .

ويطلق هذا الاسم على بناء مستطيل ضخم شاهق الارتفاع يضم بين جدرانه كنيسة ومكتبة وقصراً ملكيًّا ومقابر للملوك وديراً ، ويتقدم هذا البناء ساحة كبيرة تتناسب مع ضخامته كما يشرف على قرية صغيرة تعد ضاحية من ضواحي مدريد وتبعد عنها الى الجنوب بنحو خمسة وخمسين ميلاً ، وقد شيد الاسكوريال على السفوح الجنوبية لجبال سيرادي جوادراما وعلى ارتفاع ٣٫٤٣٢ قدم فوق سطح البحر .

وقد اشتق اسم الاسكوريال من الكلمة اللاتينية المقابلة لها ومعناها الفحم . ولذلك تعتبر الاسكوريال نسخة أخرى من كنيسة القديس سان لورانس التي تهدمت من قبل وأعاد بناءها فيليب الثاني ملك أسبانيا (٥٦ — ١٥٩٨) في القرن السادس عشر تخليداً لذكرى هذا القديس وذلك على أثر انتصاره على الفرنسيين وطرد جيشهم في موقعة سانت كونتين في ١٠ من أغسطس عام ١٥٥٧ .

واستغرق بناء الاسكوريال نحو سبعة عشر عاماً ويشغل ساحة قدرها ٣٩٦٫٧٨٢ قدماً ويشتمل على سبعة أبراج وخمسة عشر مدخلاً وما لا يقل عن ١٢٠٠٠ نافذة وباب .

١ — « الكنيسة » : أهم المباني وأرفعها منزلة يحج إليها الاسبانيون من آن لآخر اعلو شأنها . كما أنها إحدى كنائس أوربا الهامة التي ترجع إلى عصر النهضة . وتبلغ مساحتها ٧٠٫٠٠٠ قدم تتوسطها أربعة دعائم ضخمة شيدت عليها قبة ترتفع قمتها ٣٢٠ قدماً ويتصدر القبة المكان المقدس (المذبح) ويصعد إليه بنحو ست عشرة درجة وهو من عمل أحد مشاهير الرسامين البلجيكيين ويقدر ثمنه بنحو ثمانية ملايين من الجنيهات .

٢ — « المكتبة » : تقع فوق الايوان الرئيسي للكنيسة وهي من أشهر ، بل من أعظم مكاتب العالم لما تحتويه من مخطوطات قديمة قيمة ، كان بعضها ملكاً خاصًّا للملوك

الاسبان والبعض الآخر وصل إليها عقب انتصارهم على سلطان المغرب مولى زيدان(١٦٠٣ ـ و١٦٢٨) كما حفظ بها مخطوطات الكنائس والأديرة المديدة حتى لا تصل اليها يد العابثين من الثوار وقت الاضطرابات التي تعرضت لها اسبانيا في العصور السالفة وبها أقدم مجموعة من المخطوطات العربية والعبرية واليونانية واللاتينية البالغ عددها ٤٠٠٠٠ مخطوط منها كتابان مقدسان يرجعان إلى القرن العاشر ، وأخريان إلى القرن الحادي عشر كما حفظ بها بعض أعمال الفونسو الحكيم (١٢٥٢ـ١٢٨٤) ومصحف من القرن الثالث عشر زخرفت هوامشه وفواصله بألوان زاهيـة لا زالت محتفظة بجمالها إلى اليوم . ويدل تسامحهم الديني على عرض هـذه الـكتب المقدسة بجانب بعضهـا في قاعة واحدة ، بل وعلى منضدة واحدة ، كما عرض على إحدى هـذه المناضد كتاب « السلوان المطاع » وهو كتـاب قصصي تاريخي مزين بالصور التوضيحية ويرجع تاريخه إلى عام ١١٧٦ . وزخرفت هـذه القاعة وسقف المقبرة برسوم الفرسكو لاشهر الفنانين الاسبان .

٣ ـ ﴿ المدافن الملكية ﴾ : خصص الطابق الأول من هذا القسم للمدافن الملكية فأقيم تحت مذبح الـكنيسة حجرة مثمنة خصصت لدفن الملوك والملكات يمكن الوصول إليها من داخل الـكنيسة أو من خارجها . يتصدر هذه الحجرة المثمنة المسيح واصطفّ عن يمينه وعن يساره ستة وعشرون تابوتاً من الخشب النفيس المطعم بالعاج والأحجار الـكريمة لا يزال ثلاثة منها خالية تنتظر رفات من يوافيه القدر .

وتؤدي هذه الحجرة إلى دهليز يوصل إلى حجر صغيرة خصصت لدفن باقي أفراد العائلة المالكة من الأمراء والنبـلاء وهي مقابر من المرمر أو الرخام البديع الصنع يعتلي بعضهـا تماثيل لاصحابهـا على وسائد يحسبها الرائي وسائد من ريش النعام كما نقشت عليهـا نبذة تاريخية مع شارته الملـكية . وينتهي هذا الدهليز بحجرة صغيرة يتوسطها مقـابر صغيرة على شكل دائرة خصصت للاطفال الابرياء دون سن السابعة من أبناء الملوك ولذلك تسمى هذه الحجرة بحجرة الابرياء .

٤ ـ ﴿ القصر ﴾ . سمت نفس فيليب الثاني عن الدنيا وزهدت في الملك فأراد أن يتقرب الى الله بروح خالصة فبنى له بجوار بيت الله قصراً متواضعاً بعيداً عن أبهة الملك وجلاله وزوده بالقليل من الرياش والأثاث وزينه بالرسوم فجاء آية من الجمال الفني وفي غاية الروعة طليت جدرانه وسقوفه بأبدع ما انتجه الفنانون الاسبان والبلجيك من رسوم الفريسكو أمثـال بللجرينو ، وبارتلوميو ، ولويس دي كاربجـال ، وتيبالدي ، وتيبيان ، وتنتوريتو ، والجريكو وجوريا وروبينو وكاتون وبن فولتيني وشيلني. كما غطى بعض جدرانها بالسجاجيد



المكتبة في قصر الأسكوريال

الفاخرة نسجت خيوطها من أسلاك ذهبية وحريرية في المصانع الملكية عليها رسوم دينية واجتماعية زاهية اللون كسجاجيد حجرة الاستقبال من رسم جويا . وزودت هذه الابهاء بالستر النفيسة والثريات الرائعة . وروعي أن يسود بعض هذه الأبهاء لون واحد كالأخضر أو الأصفر أو الأحمر وعرفت بعض الصالات بهذه الأسماء .

وتتوسط هذه القاعات قاعة العرش تتصدرها منصة مرتفعة تعلو عن الأرضية بدرجتين وأقيم عليها كرسي العرش لجلوس الملك ، أما الملكة فخصص لها كرسي بجوار الحاشية على خلاف العروش الأوربية الأخرى حيث تجلس الملكة بجوار الملك على منصة واحدة .

يجاور قاعة العرش قاعة أخرى من رسم الرسام البلجيكي روبينو ، ثم يليها قاعة السفراء ، وأخرى لمكتبه الخاص صنعت من خشب العود الخالص وغيرها لعبادته من خشب الابنوس رسم رسومها الرسام بن فولتيني ، أما حجرة الصيد فمن طراز بومبي . وهناك قاعة طويلة زين جانب منها بالفريسكو برسوم تمثل المواقع الحربية التي وقعت بين جون النمسوي ومحمد الثاني أثناء القرن السادس عشر .

وقد تعوّد الملوك الذين تعاقبوا بعد فيليب الثاني على اسبانيا أن يتخذوا من هذا القصر حجراً خاصّة لهم شملوها ببعض التعديل .

هذا في الطابق الثاني ، أما الطابق الأول فقد خصص لسكن فيليب الثاني ولم يقطنه أحد سواه سوى ابنه منذ القرن السادس عشر . ولذلك لا تزال حجراته محتفظة بطابعها القديم وفرشها وأثاثها بنظامها الذي كان أيام فيليب ومن بينها حجرة نومه وسريره الذي فاضت عليه روحه في ١٣ سبتمبر سنة ١٥٩٨

أما باقي بناء الأسكوريال فقد خصص لسكن الرهبان الذين يشرفون عليه . ولا يزال الأسبان يعتدون بهذا الأثر الجليل ويحيطونه بكل روعة وجمال ودأبوا على المحافظة عليه رغم الحوادث التي توالت عليه وما تعرض له من دمار بعض أجزاءه عقب الحريق العظيم عام ١٦٧١ ولم ينجُ منه إلاّ الكنيسة وجزء من القصر وبرجان ، كما تعرّض البناء جميعه لانتقام الفرنسيين ١٨٠٨

ويقصد الأسكوريال من آن لآخر كثير من المشتغلين بالفن والآثار ودراسة المخطوطات القديمة .

محمد رجب البيلي

مشهد من مسرحية كليوباترا

للشاعر محمد فهمي

(منظر بهو في القصر الملكي . تسمع موسيقى هادئة وتشاهد الملكة كليوباترا جالسة على عرشها بملابسها الزاهية الفاتنة في حالة تفكير وعلى مسافة منها جمع من الراقصات الجميلات تخاطبهن رئيستهن)

رئيسة الراقصات : يا صبايا تبارين في كل مبتكرْ
ولتكنْ رقصة المنى لانطونيو اذا حضرْ

كليوباترا وكأنما تناجي نفسها : —

يا فؤادي أي سرٍّ دهانا هاج بالقلب والفؤاد هوانا
كان قبلاً نسائماً تتهادى فغدا اليوم نافثاً نيرانا
يا غراماً نموتَ طفلاً لعوبا كيف ألقَى على يديك الهوانا
من لقلب مكبلٍ كأسيرٍ ويرى الناس حوله عِبدانا
كم يروع الجلالُ منه البرايا إنه الآن يستجيش حنانا
قدرٌ قد أهلَّ يوم التقينا آه .. مما جرى به لقيانا
رحت أسعى اليه بين فتون يأسر اللب .. فاستُطير جنانا
فوق فلك كأنها خِدع الوهم بهاءً وروعةً وافتتانا
قد سباه الجمال فهو أسيري كيف أنطونيو تسومني طغيانا ؟
أكذا الحب هادئٌ فجميلٌ فضُرامٌ . من مجيري ؟ وقد غدا بركانا !

هي وكأنما تنبهت : —

ايه لا . لا . فؤاديَ رفقاً انظر الآن ما ترى عقبانا ؟
كل طاغٍ لمصر باغٍ عدوٌّ راح يعوي وكم دعى ذؤبانا
ان للحب غفلةً فتيقظ حق مصرٍ يفوق حق هوانا

(تسمع أصوات أبواب تنطلق فجأة خارج البهو . يدخل أنطونيو متجهاً نحو الملكة)

أنطونيو [بلهفة] : كليوباترا ملاكي

كليوباترا وقد همت لاستقباله : أنطونيو حبيبي!

أنطونيو : قد هاج بي شوق اليك يهزني جم النوازع ثائر الصبوات

كم راح يهتف في الضلوع مدوياً أنت الحيـاة وضيئة البسمات

أغشى المعامع كالقضاء وهوله فاذا ذكرتك رقرقت عبراتي !

كليوباترا : حقـًّا أتصدقني ؟

أنطونيو : وأقسم جاهداً اني أترجم صادقاً خفقاتي

لو شئت خضتُ النار أبسم هازئاً أو شئتِ بدلتُ الحياة مماتي

كليوباترا : حاشا أشاء .. ومن يصاول في الـــوغى بطعان جبارٍ وعزمة عات ؟

ويذود اعداءً إذا هم بيّتوا ومشت جحافلهم الى عتباتي

تغلي بنار الحقد هاج ضرامها حسدٌ تأجج في صدور عداتي

رب الـكماة ومن تملك مهجتي أترى نحقق حالم الرغبات ؟

أنطونيو : فيكِ تمثـل عذب أطياف المنى فتناً .. تهدهد حسنـها خطراتي

فدعي حديث الحرب .. عندك ربها إن هب روع . . تلقه عزماتي

الحرب في عينيك . يالأوارها أعيا إله الحرب . أين ثباتي !

(ينحني عليها مطوقاً)

كليوباترا متنهدة :

ويح الوشاة وويح ما يصفونه قد أكثروا من حولنا الشبهات

أزروا بقدس الحب فيما ثرثروا واستمرأت أحقادهم حرماتي

هل يعلمون بأنه الحب الذي يطغى عليك وأكتوى حرقاتي؟

ماذا عليهم لو تدارك مكثرٌ

أنطونيو : فليكثروا . . ها أنتِ أنت حياتي

(يضمها مقبلاً)

تشريح الهر

Functional Anatomy of the Mammal. A Guide to the Dissection of the Cat and an Introduction to the Structural and Functional Relationship between the Cat and Man By Prof. W. James Leach.

London, McGrow-Hell Book Co. 1946. 12s. 6 d.

إن اختيار حيوان ثديي للتشريح يصلح أن يكون تشريحه مدخلا لعلم التشريح الانساني ودرس وظائف أعضائه ، قد اقتصر الى الآن على الارنب والفأر . ولكن الحيوانات القواضم : Rodents التي منها هذين ، أقل ملاءمة لهذا الغرض من الحيوان اللاحم Cornivore فان اللواحم أقل بدائية من القواضم ، وأقرب تركيباً من الانسان . لهذا نوه كثير من العلماء بظهور هذا الكتاب ليكون مدخلا لتشريح ذوات الثدي ، لاسيما وان الهر حيوان كثير الوجود ويسهل أن يحصل عليه المشرحون.

ولقد مضى المؤلف يعقد موازنات بين تشريح الهر والانسان وخصائصهما الوظائفية ، ووضع ملخصات مفيدة للطالبين . وعقد بحثاً في تأثير الوضع الجسمي على التكيف التركيبي وبخاصة فيما يتعلق بانتصاب القامة في الانسان ، توخى فيه سهولة العرض والاداء اذ استطاع أن يتخلص من استعمال كثير من المصطلحات اللفظية التي تحشى بها المتون العلمية . ومن الفوائد التي لا تنكر في هذا الكتاب ملخصات وضعها المؤلف في وظائف الاعضاء وآلية العضلات وجراحتها ، وغير ذلك من الاشياء التي تحتاج إليها الممرضات أو الاطباء المبتدئين.

وعطف المؤلف بعد ذلك على الجهازات المختلفة في الجسم ، وبحثها عمليا في هرر حقنت بالمخدرات. وقد قيل في بعض النقود التي وجهت الى الكتاب أن المؤلف اذا كان قد اتخذ من صغار الهرر موضعاً لبحثه بدل الهرر البالغة ، لكان عمله أوفى ، فان أجزاءها الدقيقة تكون أبين ولو أنها أصغر حجما ، وإن هذا أظهر ما يكون في الجهاز العصبي السمبتاوي الذي يمكن استبانته بجلاء وسهولة بالنظر الى كبر حجم العقد وصفة الانسجة الضامة اذ تكون هلامية القوام .

حافظ وشوقي

صدى الحوادث عند الشاعرين

مرّت بالشرق العربي والعالم الاسلامي عامةً وبمصر خاصةً خلال الحقبة التي عاشها الشاعران أحداثٌ وحوادث كان لها أثرٌ قويٌّ في قرائح الشعراء وقتذاك ، فانطلقوا يسجّلونها ، كلٌّ على قدر طاقته ومواهبه ، وحسب الأثر الذي تركه كلٌّ منها في نفوسهم ، فكانت قصائدهم صدى هذه الأحداث ومعرض هذه الحوادث . وكان شاعرانا من المجلّين في هذه الحلبة .

لذلك نطوي السنين القهقرى حتى هذه الحقبة لنستمع إلى صدى هذه الأحداث والحوادث عند هذين الشاعرين ، ولنرى كيف تصرّف كلٌّ منهما فيها بفنّه ومدى توفيق كلٍّ منهما في هذا التصرف . فتبرز لنا في مقدمة هذه الحوادث والاحداث :

حادثة دنشواي

في ١٣ من يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت هذه الحادثة حيث ذهب بعض الضباط والموظفين البريطانيين لصيد الحمام في هذه البلدة فأصابت رصاصةٌ من رصاصاتهم امرأة وحرقت جُرْناً فتجمع الأهلون غاضبين فاعتدى البريطانيون عليهم بأسلحتهم ، ولكن القوم حملوا عليهم بالطوب والعصيّ وانتزعت منهم أسلحتهم فجُرح بعضهم جروحاً خفيفة ، وفرَّ منهم جريح وظلَّ يعدو نحو المعسكر حتى أصابته ضربة الشمس بعيداً عن هذه البلدة . وثارت ثائرة الانجليز لهذه الحادثة فعقدوا محكمة عسكرية قضت على واحد وعشرين رجلاً بأحكام مختلفة أُعدم منهم أربعة . وقد صدر هذا الحكم في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٦ أي بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً .

ولقد كان لهذا الحكم الوقع السيء في النفوس ، وأثار الزعيم المرحوم مصطفى كامل سخط العالم على هذا الحكم . وهبَّ بعض النواب الأحرار من البريطانيين يناقشون الحكومة في البرلمان عن هذا العمل المنكر . وكانت حملة مصطفى كامل عاملاً قويًّا زعزع مركز كرومر فاستقال من منصبه بعد شهور .

تلك حادثة دنشواي التي يقول عنها الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك إنها « من حوادث مصر التاريخية التي لا تنسى على مرّ السنين لما كان لها من الأثر البليغ في تطوّر الحركة الوطنية وفي مركز الاحتلال الانجليزي ، فهي نهاية عهدٍ كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومي عمَّ فيها الشعور الوطنيّ بعد أن كان الظنّ أن سواد الأمة راضٍ عن الاحتلال »[1] — هذه الحادثة وجدت في شعر حافظ صداها قبل أن تجده في شعر شوقي ، ولا ندري السبب الذي أخّر شوقيًّا عن تناولها في وقتها ، ولعلَّ منصبه في القصر وصلته به كشاعر ربّ القصر هما اللذان حالا دون تناوله هذا الحادث حتى حدث من كرومر ما حدث بعد ذلك من إهانته للمصريين والخديو اسماعيل في الخطبة التي ألقاها في الحفلة التي أقيمت توديعاً له . فرأى شوقي أن الجوَّ ملائم للقول في هذه الحادثة بعد مرور عام عليها وذلك بمناسبة طلب العفو عن سجنائها . وقد نشرت هذه القصيدة بجريدة « اللواء » في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٠٧

أما حافظ فقد ردّد ذكر هذه الحادثة في أكثر من قصيدة ، وكان أول ما نظمه فيها قصيدته الدالية التي نشرت في ٢ من يوليه سنة ١٩٠٦ أي بعد صدور الحكم بخمسة أيام ، وفيها يقول :

جاء جهّالنا بأمرٍ وجئتم ضِعف ضعفيهِ قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ أقِصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمُ أم جمادا ؟
ليت شعري أتلك (محكمة التفتيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القويّ التشفّي من ضعيفٍ ألقى اليه القيادا ؟

---

(١) كتاب « مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية » للاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك — ص ٢٠٠

إنها مُسْلَمَةٌ تشفُّ عن الغيـ ـظ ولسنا لغيظكم أندادا

وهذه القصيدة على ما فيها من السخرية التي أرادها في قوله :

واذا أعوزتكمُ ذاتُ طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواءٌ لم تغادر أطواقنا الأجيادا

لم تخلُ من حذر في توجيه الخطاب الى الانجليز ، وكان جديراً أن تكون قاسية كل القسوة لأن الشاعر كتبها بعد صدور الحكم ونفوس المصريين تغلي حقداً وكراهية ، فهو يبدأها بهذا البيت اللين الناعم حيث يقول :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟

ثم يقول فيها :

أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

أمة النيل أكبرت أن تعادي من رماها وأشفقت أن تعادَى

في حين أنه تناول « المدعي العمومي » في هذه القضية ، وهو مصريٌّ ، بالنقد الجارح الشديد والتهكم اللاذع المرير . وكان المغتصبون الجناة أولى بمثل هذه القسوة والشدة في النقد والتجريح لأن تهكمه في أبياته التي قالها فيهم لينة وادعة بجانب قسوته على « المدعي العمومي » المصري . حيث قال فيه بعد أبيات لاذعة :

إيهِ يا مدرَه القضاء ويامن ساد في غفلة الزمان وشادا

أنت جلادُنا فلا تنسَ أنّا قد لبسنا على يديك الحدادا

وفي قصيدة أخرى وجّه القول فيها إلى كرومر وأشار الى ما ادعاه البريطانيون على المصريين من أن السبب في حادثة دنشواي هو التعصب الديني من المسلمين في مصر فهو يدفع هذا بقوله :

إن أرهقوا صيّادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضنَّ الفقير بقوته وسخا بمهجته على من يغضبُ

ثم يصف الشاعر هذه الحادثة في الأبيات التالية ، ويصور هول تنفيذ الحكم فيمن اتهموا تصويراً بلغ حد الروعة يحسُّ فيه قسوة الحكم الظالم العجيب في تاريخ القضاء ، وما

أصاب المحكوم عليهم من حيرة وذهول أمام هذه القسوة فيقول :

في دنشواي وأنت عنا غائبٌ لعب القضاءُ بنا وعزّ المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلةً فتسابقوا في صيدهنّ وصوّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنتَ حاضر أمرهم لم يُنكبوا
خلّيتهم والقاسطون بمرصدٍ وسياطهم وحبالهم تتأهبُ

ثم يقول في لفتةٍ عجيبة وتصوير رائع :

جُلدوا ولو منّيتَهم لتعلّقوا بحبال من شَنقوا ولم يتهيّبوا
شُنقوا ولو مُنحوا الخيار لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا
يتحاسدون على الممات ، وكأسُهُ بين الشفاه وطعمه لا يعذُبُ
موتان : هـذا عاجلٌ متنمرٌ يرنو ، وهـذا آجلٌ يترقبُ
والمستشار مكابرٌ برجاله ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحزّبُ
يختال في أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصببُ

* * *

هاتان قصيدتان من شعر حافظ تناولتا هـذه الحادثة ، فأما الأولى فأسلوبها خطابيٌّ تقريريٌّ ، وأما الثانية فتصويريةٌ امتزج فيها الواقع بالخيال ... فلننظرْ في قصيدة شوقي التي نظمها بعد مرور العام عنـد طلب العفو عن سجناء هذه الحادثة . وذلك بعد أن استقال كرومر وعاد الى وطنه ، وفيها يقول :

يا (دنشوايَ) على رُباكِ سلامُ ذهبتْ بأنس ربوعكِ الأيامُ
شهداءُ حكمكِ في البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظامُ
مرّت عليهم في اللحود أهلّةٌ ومضى عليهم في القيود العامُ
كيف الأرامل فيك بعـد رجالها وبأي حالٍ أصبح الأيتامُ
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها بعـد البشاشة وحشةٌ وظلامُ
يا ليت شعري في البروج حمائمٌ أم في البروج منيّةٌ وحِمام
(نيرون) لو أدركتَ عهد (كرومر) لعرفتَ كيف تنفّذ الأحكامُ

ثم يلتفت الى فظائع الحكم في القضية يصور هوله فلم يقدر له أن يبلغ روعة الصورة التي رسمها حافظ — مع قدرة شوقي التصويرية — ويبدو في قصيدة شوقي مدى التأثر بقصيدة حافظ البائية التي ذكرناها ... قال شوقي :

نُوحي حمائم دنشواي وروِّعي شعباً بوادي النيل ليس ينام
إن نامت الأحياءُ حالت بينه سَحراً وبين فراشه الأحلامُ
متوجعٌ يتمثل اليوم الذي ضجّت لشدة هوله الأقدامُ
والمستشار الى الفظائع ناظرٌ تَدْمى جلودٌ حوله وعظامُ
في كل ناحيةٍ وكل محلةٍ جزعاً من الملإ الأسيف زِحامُ
وعلى وجوه الثاكلين كآبةٌ وعلى وجوه الثاكلات رَغامُ

تلك حادثة من الحوادث الكبيرة التي أثارت الشعور في مصر ، وأثارت الرأي العام في العالم ، وقد أثارت شاعرية حافظ ثم أثارت شاعرية شوقي . على أن الباحث المنصف يرى قدرة حافظ في تصوير هذه الحادثة فقد وفّق في إبراز صورته مكتملة لعناصر القوة والحركة على حين نجد صورة شوقي ينقصها ذلك ، وكما وُفّق حافظ في إبراز صورة هذه الحادثة فقد كان السبّاق الى تسجيلها والتأثر بها .

وداع كرومر

وفي ابريل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر من منصبه فودّعه الشاعران بقصيدتين ، فأما قصيدة حافظ فهي عندي أقرب الى المقال الصحفي يريد كاتبه أن يجعل من نفسه مؤرخاً ، يعرض شتى الآراء ، وكذلك شاء حافظ أن يحمّل الشعر في هذا الظرف هذه المهمة ، فكان في هذا مسجّلاً فاته الشعور كما أخطأه الإحساس الوطنيُّ ، فهو بعد أن يذكر لكرومر ما يراه من فضل ، قائلاً إننا لسنا « أمة تجحد اليدا » يعود الى ذكر أقوال المهاجمين لسياسة كرومر ويختم قصيدته بهذه الأبيات :

فهذا حديث الناس والناس ألسُنٌ إذا قال هذا ، صاح ذاك مفنّدا
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم استجّاتُ لي رأياو بلّغتُ مقصدا

ولكنني في معرض القول شاعر أضاف الى التاريخ قولاً مخلّدا
فيأيها الشيخ الجليل تحيّةً ويأيها القصر المنيف تجلّدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلةٍ لقد لبثت آثاره فيك شُهّدا

وأما قصيدة شوقي فهي أقرب الى روح الشعر وكانت غضبة على كروم للموقف الذي وقفه في حفلة وداعه وتهجّمه على أهل هذا البلد وإهانته للخديو اسماعيل بدون أن يراعي شيئاً من المجاملة لابنه الذي حضر حفلة التوديع وهو الأمير — السلطان فيما بعد — حسين كامل . ولذلك نرى أن قصيدة شوقي قصيدة العاطفة بينا نرى قصيدة حافظ أقرب الى الصناعة . وليس أدلّ على شدة السخط عند شوقي من هذا البيت في قصيدته الذي يظهرنا على أنه كان منساقاً بعاطفته:

لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء رحيلا

على حين قال حافظ في تخاذلٍ عجيب يخاطب كروم بهذه الابيات :

أمِنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلكاً ونمنا فلم يطرق لنا الذّعرُ مرقدا
وكنتَ رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا
ولولا أسىً في دنشواي ولوعةٌ وفاجعةٌ أدمتْ قلوباً وأكبُدا
ورميُكَ شعباً بالتعصب غافلاً وتصويرك الشرقيْ غرّاً مجرّدا
لذُبنا أسًى يوم الوداعِ لأننا نرى فيك ذاك المصلح المتودّدا

على أن شوقيّاً كان منصفاً للتاريخ القوميّ حين ردّ على كروم بأنه إذا فاخر بشيء من العمل في سبيل تقدّم هذا البلد فان هذا البلد لم يعدم وسائل الإصلاح في عهد محمد علي وفي عهد اسماعيل قبل ان يصاب الوطن بالاحتلال الانجليزي . في حين أغفل ذلك حافظ. ويظهر ان حافظاً أحسّ أن قصيدته هذه قد فقدت عنصر الشعور الوطني الصريح، فلمّح في قصائد أخرى بعد ذلك الى مساوىء العميد الراحل ولم يجعل عَرْض هذه المساوىء منسوباً الى آخرين كما حاول ذلك في قصيدته التي ذكرنا شيئاً منها ، بل عرض هو هذه المساوىء بإحساسه ورأيه . ونحن لا نستطيع تعليل مسلك حافظ في هذا الموقف مع إنه لم يكن مقيداً بشيء

ومهما يكن من شيء فإن هذا الحادث لم يجد فيه الفنّ الشعريّ عند الشاعرين أثراً

يمتدُّ به الاعتـداد الذي يجده في أشعارها في حوادث أخرى . فلننظر في شيء آخر من الاحداث التي لقيت من فيض قريحتيهما ما هو جديرٌ بالخلود والبقاء .

وفاة مصطفى كامل

في ١١ من فبراير ١٩٠٨ خفق قلب مصر خفقة الجزع لمصاب البلاد في وفاة زعيمها الشاب مصطفى كامل باشا الذي بعث الحركة الوطنية في هذه البلاد بعد خمود ، وأيقظ الجهاد في النفوس بعد طول هجود ، وأقضّ مضجع الغاصب وكان قد اطمأنّ الى أن العزم في نفوس المصريين قد فتر ، وان روح الكفاح فيهم قد همدت ، وان شعب وادي النيل قد استكان الى حالته ، حتى شاءت عناية الله بكنانته أن يستيقظ هذا الشعب — الذي شيب الزمان ولم يشب — على صوت جمع كل معاني القوة والفتوة ومضاء العزم ونزاهة القلب والضمير واليد واللسان في إهاب شابٍّ هو الشعلة المتقدة ، تخفق لصدى صوته كلُّ قلب ، وتحرك لندائه أبناء الوادي مستيقظين كما يستيقظ على ضوء الصباح كل حي .

ولـكن هذه الشعلة من الوطنية التي كانت تحترق لتضيء الطريق للعابرين لم ترحم نفسها في بلوغ هدفها ، فكان مصطفى لا يسمع نداءً غير نداء وطنه ، ولم يستجب لنداء الجسد في حقه من الراحة لأنه لم يعرف الاستسلام واليأس . وهو الذي علم أبناء الوادي أن لا حياة مع اليأس وان لا يأس مع الحياة .

لذلك كان موت هذا الزعيم الشاب خطباً جسيما روّعت له البلاد واصطكت لهوله الأسماع ووجفت القلوب ، واهتزت المشاعر فتدفقت قرائح الشعراء في رثائه ، ولا عجب فقد أحيا الشعور في البلاد .

وقد برزت من مراثي الشعراء فيه — يومذاك — قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها :

المشرقان عليك ينتحبانِ قاصيهما في مأتمٍ والدّاني

وهذه القصيدة من عيون شعر الرثاء عند شوقي ، وقد صوّر فيها في دقة تامة إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب ، وصوّر آخر لقاء وإياه وهو يعوده في مرضه الأخير تصوير الأخ المفجوع في أخ عزيز . ولـكن هذه القصيدة على دقة الإحساس فيها تخلو

من تناول حياة الفقيد السياسية تناولاً يجعلها صورة للراحل . فهي من هذه الوجهة يمكن أن يقال إنها مرثية لصديق عاديٍ ، ولم يكن مصطفى بالفرد العاديّ في الناحية التي لمع فيها اسمه ، وهي الوطنية المتأججة .

كان على شوقي أن يصور هذا الجانب في الفقيد وأن يجلوها كل الجلاء لتكون الصورة واضحة المعالم عن سياسي كانت حياته كلها جهاداً وكفاحاً وإقلاقاً لراحة الغاصب وإشعالاً لنار الوطنية في النفوس ، وتطرُّفاً في هذه الوطنية .

وكان على شوقي — وقد زامل الفقيد في مراحل نموّه — أن يصوّر هذا الشعور الوطنيّ وهو ينمو مع صديقه حتى بلغ به هذا الحدّ من العظمة واسترعى أنظار الناس إليه ليس في مصر حسب ، وانما في شتى بلاد العالم.

كان عليه أن يتناول هذا الجانب من حياة الفقيد في مرثيته ، ولكنه على الضدّ من ذلك كان حذِراً في مسّ هذا الجانب ، ما يكاد يقرب منه حتى يبعد عنه ، وما يكاد الموقف يجرُّه الى ذكر ذلك حتى يعود أسرع ما يكون الى التخلص من هذا الخاطر ، فهو حين يقول :

هل قام قبلك في المدائن فاتحٌ غازٍ بغير مهنّدٍ وسنانِ ؟

يخيّل لمن يسمعه أنه سينتقل الى جهاد هذا البطل الذي أيقظ في نفوس أبناء الوادي روح الوطنية وأثار عزيمتهم للكفاح والجلاد ، وكانت خطبه ومقالاته وصحفه مدرسة للوطنية يتخرج فيها شباب الأمة وقد عرفوا معنى الحياة ، وان الشاعر سيذكر كل ذلك صريحاً واضحاً . ولكن لايلبث السامع أو القارئ أن يجد الشاعر يقول بعد هذا البيت :

يدعو الى العلم الشريف وعنده إن العلوم دعائم العمرانِ

وبذلك يتخلص من شبح السياسة قبل أن يقوده الى ذكر شيء من ذلك في المرثية ، وينتقل فيتكلم في نواحٍ أخرى من حياة الفقيد حتى تقوده العاطفة المتقدة مرة أخرى الى غير ما يقصد فيقول :

عوفيتَ من حَرَب الحياة وحرْبها فهل استرحتَ أم استراح الشاني
يا صَبَّ مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصرٍ فنمْ بأمانِ
اخلع على مصرٍ شبابك عالياً والبس شباب الحور والولدانِ

فلعلّ مصراً من شبابك ترتدي مجداً تتيهُ بهِ على البلدانِ
فلو انَّ بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرَّك الهرمانِ
علّمتَ شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبّانِ

وهنا يتوقع السامع أن يجد الشاعر قد اقترب من أبرز النواحي في حياة مصطفى كامل — ناحية الوطنية التي لا تعرف المهادنة أو المسالمة في تلك اليقظة أو الحركة التي أقضّت مضجع الغاصب وزعزعت سلطان عميده بعد حادثة دنشواي ، وأنّ الشاعر سيضرب على الوتر الحساس في هذه الناحية ، ولكن شوقيًّا يئوب من هذه العاطفة التي تسوقه الى ما لا يقصد فيتنبه ، ويبتعد عن هذا ويقول ليختم المرثية :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عظامك حانِ
أقسمتُ أنك في التراب طهارةٌ ملكٌ يهاب سؤاله الملكانِ

ولعلّ سبب هذا الحذر مركز الشاعر من القصر — كما قلنا عند الكلام على موقفه من حادثة دنشواي — ومراعاته لظروف خاصة هي أنّ العلاقة القوية التي كانت بين الخديو ومصطفى كامل والتأييد الذي كانت تلقاه الحركة الوطنية من سموّه قد اعتراها في السنوات الأخيرة من حياة مصطفى شيءٌ من الفتور فالجفاء ، فكان على شوقي أن يكون حذراً في الرثاء فلا يظهر شعوره في هذه الناحية لفقد الزعيم الوطني وإنْ أظهر شعوره بالألم والتفجع لموت الصديق الذي كان يهتف بقصائده ويجلُّ فوق النيرات مكانه — على حدّ تعبيره — وقد صوّر شوقي في أبياته التالية مشهداً رائعاً للفقيد في مرضه حيث يقول :

ولقد نظرتُك والردى بك محدقٌ والداءُ ملءَ معالم الجثمانِ
يبغي ويطغى والطبيب مضلَّلٌ قنطٌ وساعات الرحيل دواني
ونواظر العُوَّادِ عنك أمالها دمعٌ تعالج كتمه وتعاني
تملي وتكتب والمشاغل جمَّةٌ ويداك في القرطاس ترتجفانِ
فهششتَ لي حتى كأنك عائدي وأنا الذي هدّ السقامُ كياني
ورأيتُ كيف تموت آساد الشرى وعرفتُ كيف مصارع الشجعانِ
ووجدتُ في ذاك الخيالِ عزائماً ما للمنون بدكّهنَّ يدانِ

وجعلتَ تسألني الرثاءَ فهاكه من أدمعي ومرائري وجَناني

فإذا كانت الظروف هي التي دعت شوقياً إلى أن يكون حَذِراً في رثاء مصطفى يومذاك فإننا سنرى بعد ذلك كيف وفّى شوقي حقّ صديقه الزعيم الوطني بعد أن خلص من قيود الوظيفة وأغلال الظروف .

فقد انتهز شوقي فرصة الذكرى السابعة عشرة للفقيد — أي في سنة ١٩٢٤ — وكانت البلاد قد تفرقت شيعاً ودبّ في النفوس دبيب التنافر والخُلف فقال شوقي :

إلامَ الخُلْفُ بينكمُ إلاما ؟! وهذي الضجّةُ الكبرى علاما ؟!

وهذه القصيدة من أروع قصائد شوقي ، وهي الدليل على امتلاكه ناصية القول والتعبير عن آمال المصريين من حافظ في الدور الأخير من حياتيهما ، أو على الأصح بعد عودة شوقي من منفاه في سنة ١٩٢١ واستكانة حافظ الى قيده وصمته .

فلقد صوّر شوقي في هذه القصيدة العيوب التي وقع فيها القادة ودعت الى تأخير قضية الوطن .

* * *

والى جانب هذا التصوير أحسّ شوقي بأن الاسباب التي حالت بينه وبين الوفاء بحق صديقه الزعيم الوطني مصطفى قد زالت فصوّره في هذه القصيدة أروع صورة ، صوّره غير حذرٍ ولا متقيد بظروف فاستطاع أن يعطي الصورة الصادقة عن أبرز ناحية في حياة مصطفى ، وهي التي لم يصوّرها في مرثيته قبل سبعة عشر عاماً . . . قال — وهذا ما يعنينا من هذه القصيدة الآن :

شهيدَ الحق قم ترَهُ يتيما بأرضٍ ضيّعت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريباً ومرّ على القلوب فما أقاما
سقمتَ فلم تبت نفسٌ بخير كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أرَ مثل نعشك إذ تهادى فغطى الأرض وانتظم الاناما
تحمّل همةً ، وأقلّ ديناً وضمّ مروءةً وحوى زماما

وما أنساك في العشرين لما طلعت حيالها قمراً تماما
يشار اليك في النادي وتُرمى بعينيْ من أحبَّ ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت قسّاً اذا هو في عكاظ علا السناما
وأنت ألدُّ للحق اهتزازاً وألطف حين تنطقه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجهاً صراحاً ليس يتخذ اللثاما

* * *

تلك صورة صادقة لوطنية مصطفى ونبوغه ، وهذي صورة لجهاده يرسمها شوقي في هذه القصيدة أيضاً :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معلمهم وناما ؟
مِهارُ الحق بغّضْنا اليهم شكيمَ القيصرية واللجاما
لواؤك كان يسقيهم بجامٍ وكان الشعر بين يديَّ جاما
من الوطنية استبقوا رحيقاً فضضنا عن معتقها الختاما
غرسنا كرْمها فزكا أصولاً بكل قرارةٍ وزكا مداما
جمعتهمو على نبرات صوتٍ كنفخ الصُّور حرّكت الرجاما
لك الخُطب التي غصَّ الأعادي بسوْرتها وساغت للنّدامى
فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بُغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافةَ أو مناما
بنيتَ قضية الأوطان منها وصيَّرت الجلاءَ لها دعاما
هززتَ بني الزمان به صبيّاً ورُعتَ به بني الدنيا غلاما

* * *

وفي سنة ١٩٢٦ نظم شوقي قصيدة ثالثة في مصطفى هي خواطر أوحتها اليه ذكراه . ويمكن أن يُقال إنها ردٌّ على قصيدته السابقة التي تناول فيها خلاف الأحزاب . فقد نظم قصيدته بعد إذ كان الصفاء قد عاد الى النفوس ، وتناسى الزعماء خلافاتهم ، وطووا

أحقادهم ، واجتمعت كلمتهم ، وتآلفت أحزابهم صفّـا واحداً . فهو يتذكر في هذه الآونة مصطفى ويقول :

أعـوزَ الحقّ ذائدٌ والى « مصطفى » افتقرْ

ويخاطب أهل وطنه قائلاً :

أيها القوم عظّمـوا واضع الأُسّ والحجرْ
اذكروا الخطبة التي هي من آيهِ الـكُبرْ
لم يرَ الناس قبلها منبراً تحت محتضِرِ

ويلتفت الى زميل صباه فيقول :

يا أخا النفس في الصبا لذةُ الروح في الصغر

ويهتف به بعد أبيات :

قم ترَ القـوم كتلةً مثل ملمومة الصخُـرْ
جدّدوا أُلفة الهوى والإِخاء الذي هطر
ليس للخلف بينهم أو لأسبابه أثر . . .

* * *

تلك مراثي شوقي في مصطفى . . . تبلغ المرثية الثانية منها حدّ الإِبداع لأنها صورة حقيقية لذلك الزعيم ، أطلق فيها الشاعر نفسه على سجيتها ، ولم يتقيد فيها بشيء . ولولا ذلك التنبه والحذر اللذان أخذ نفسه بهما في مرثيته الأولى لارتفعت الى مرتبة المرثية الثانية أو فاقتها ، ولجمع فيها الى التفجع الأليم وصدق الاحساس مطابقةَ الصورة لصاحبها ، ولـكان لها الى جانب روعتها في صدق الشعور جانبُ روعة الصدق في التصوير ، ولـكنها فقدت هذا الجانب وخلت منه ففقدت أهمّ جانب من رسالةَ مصطفى التي اشتهر بها وعاش لها ومات من أجلها ، وهو الجانب الذي يلتمسه الباحث الناقد عند الشاعر في تلك المرثية فيعز عليه .

حسن كامل الصيرفي

باب المراسلة والمناظرة

رد على نقد

كتب الأستاذ الفاضل رشيد السعد (القورنة — العراق) بالعدد السابق من المقتطف كلمة نقد رقيقة عن هفوة عروضية في قصيدتي « فراق » المنشورة بمقتطف يوليو هذا العام وقعت في البيت :

(من رآى . . . هول هذا المنظر الدامي مطبقا)

وأجيب أن الأمر خطأ مطبعي فقد صححتُ بنفسي « بروفة » تجارب الطبع وكان البيت هكذا :

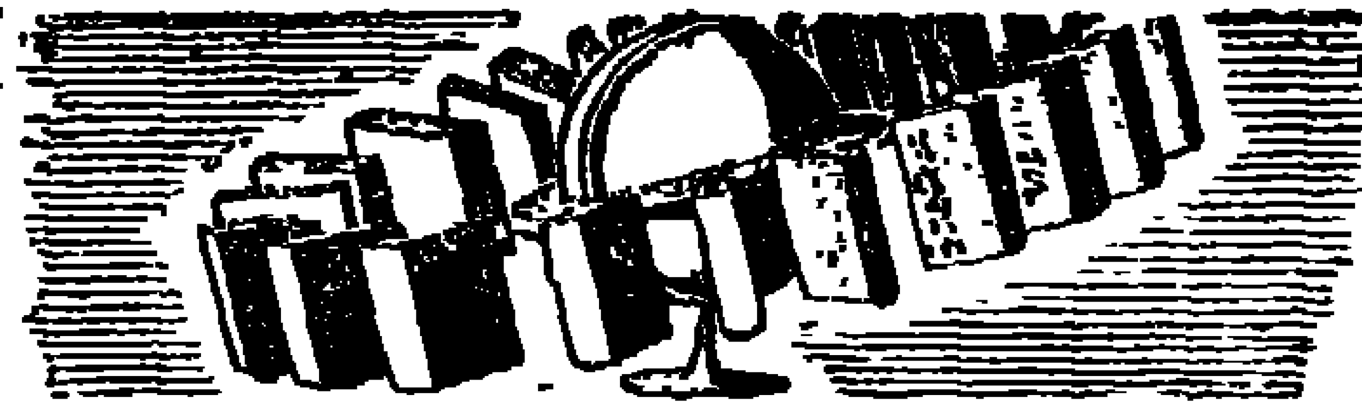
من رآى ... يا هول هذا المنظر الدامي... مطبقا ؟!

* * *

وبعد صدور العدد راجعتُ ادارة المقتطف في هذا الأمر ومن حسن المصادفة كنت قد احتفظت بنسخة من تلك التجارب قبل أن تسقط من البيت « يا » فاعتذر رئيس المطبعة بسقوطها عند الطبع ولكن أُغفل التنويه عن ذلك وكان واجباً . على إني أشكر هذه الفرصة التي أتاحت لي الاتصال بالأستاذ رشيد اتصال روح بروح وإنه ليسرنا هذا الاهتمام النبيل الذي يبدو من القراء الأفاضل في مختلف أقطار العالم العربي حتى لنحس وكأننا عصبة واحدة قد اجتمعت على رفع شأن اللغة العربية والأدب العربي رغم تنائي الديار . وإني لأشكر للاستاذ رشيد حسن تقديره وجميل تعبيره ولعله لا يحرمنا اهتمامه في المستقبل والسلام

المخلص

محمد فهمي — القاهرة



مكتبة المقتطف

المُسْنَد

تطبعه دار المعارف بالقاهرة في أجزاء متتالية : وقد صدر منه ثلاثة أجزاء

لصديقي الأستاذ أحمد محمد شاكر العالم الثبت ، يد على أدبنا الديني وتراثنا الأدبي لا تنكر. فقد عمل منذ أن شب عن طوق التعلم على نشر الكتب القديمة بعد مدارستها والإكباب عليها والتوفر على الكشف عن مواضع الخطأ فيها ، حتى لقد أصبح كتاب يحققه الأستاذ، من المراجع التي يوثق بها . وآخر أثر من هذه الآثار الأدبية الرائعة الطبعة الجديدة من كتاب المسند في الحديث للعلامة احمد بن محمد بن حنبل إمام الاسلام ومثله الأعلى في صدر الاسلام

ولقد قدّم الأستاذ لهذه الطبعة الفريدة بمقدمة مستفيضة شرح فيها الأسلوب الذي انتحاه في تحقيق الأحاديث ، وأبان عن الطريقة التي انتحاها في وضع فهارسه ، وقد مكث أياماً طوالاً يضع خطط العمل ومناهجه ، ويغير فيها ويبدّل ، حتى استقامت له السبيل ووضح النهج واستنار ، فشرع في العمل » . قال :

« وجعلت لأحاديث الكتاب أرقاماً متتابعة من أول الكتاب الى آخره ، وجعلت هذه الأرقام كالأعلام للأحاديث ، بنيت عليها الفهارس التي ابتكرتها كلها » .

أما الفهارس اللفظية فهي : (١) فهرس للصحابة رواة الأحاديث رتب على حروف المعجم : (٢) فهرس الجرح والتعديل : (٣) فهرس للأعلام : (٤) فهرس الأماكن : (٥) فهرس لغريب الحديث .

أما الفهارس العلمية فهي الأصل لهذا العمل العظيم. وقد بنيت هذه الفهارس على الأرقام التي رقم بها الأستاذ الأحاديث ، وهي أرقام مسلسلة تجعل العثور على الحديث سهل هين حتى ولو تعددت طبعات الكتاب فيما بعد . قال محقق المُسْنَد حفظه الله :

« وأرجو أن يكون عملي هذا محققاً لكلمة الامام أحمد لابنه عبد الله : « احتفظ بهذا المسند ، فإنه سيكون للناس إماماً » . وهي الكلمة التي رواها ابن الجوزي في مناقب احمد

ص ١٩١ وجعلناها في صدر هذا الكتاب عنواناً له » .

قال : « وقد قال الحافظ الذهبي ، فيما رواه عنه الحافظ شمس الدين بن الجزري في كتاب « المصعد لأحمد » : « فلعلّ الله تبارك وتعالى أن يقيضَ لهذا الديوان السّامي من يخدمه ويبوّب عليه . ويتكلم على رجاله ، ويرتب هيئته ووضعه ، فانه محتوٍ على أكثر الحديث النبوي ، وقلّ ان يثبت حديث إلاّ وهو فيه » .

على أن في صدور هذه الطبعة من المسند لفرصة انتهزها للكلام في بعض أشياء تتعلق بالأحاديث الاسلامية . ولكن المقام هنا قد يطول . فإن الكلام في هذا الباب يتناول نواحي شتى من التاريخ والاجتماع ، ولا بدّ من أن يرجع الى آراء بعض المؤرخين والبحّاث من المستشرقين الذين كتبوا في الاسلاميات . بيد ان هذا لا يحول دون أن نستطلع رأي الأستاذ شاكر في أمرين استخلصتهما من اكبابي على درس ما تناول المستشرقون من بحوث في الحديث : الأول هو تعريف طبقات الأحاديث ، والثاني تاريخ القُصّاص .

ففي كتاب الأستاذ جيليوم عن الحديث وأدب الحديث المطبوع في مطبعة جامعة اكسفورد سنة ١٩٢٤ تعريف كامل عن طبقات الأحاديث استنتجها على ما يظهر من جملة ما استوعب من تاريخ نشوء علم الحديث ، وهي عنده مصنفة كالآتي .

(١) الصحيح (٢) المسند : وهو الحديث الذي ينقله ثقات عن النبي مباشرةً (٣) المتصل الذي لا اضطراب في سنده ، فاذا لم تتصل روايته بالنبي فهو معلق (٤) المرفوع : وهو الذي يرجع به الى النبي : فهو إما متصل أو معلق (٥) المُعنعَن : مسنود بكلمة « عن » بدلاً من أن يكون النقل بالذات (٦) المعلق : ينقص سنده حلقة أو أكثر من الرواة ، فاذا كانت الحلقة (أي الاسم) ناقصة من وسط السلسلة فهو منقطع ، واذا كانت من النهاية فهو مرسل (٧) الفرد : الذي روى في مكان واحد بعينه أو نقل عن واحد لا أكثر ، فيعتبر ضعيفاً (٨) المدرج ، الذي يكون قد أقحم في سنده اسم واحد من أوالي الرواة (٩) المشهور : الذائع الذي نقله رواة كثيرون (١٠) الغريب : الذي يرجع الى ثقة واحد أو راوٍ واحد (١١) العزيز : الذي يرويه اثنان أو ثلاثة لا أكثر (١٢) المصحف : الذي اضطربت عبارته إما لذكر اسم شخص ما في سنده أو لاختلاف في نصه (١٣) المسلسل : يرتد سنده الى النبي وفيه يقال « سمعت » كذا وكذا (١٤) الضعيف (١٥) الموقوف : لا يتصل سنده بالنبي ، فينقصه شرط من شروط الصحة (١٦) المقطوع : مصدره الصحابة ، فيروي شيئاً من أقوالهم وأعمالهم (١٧) المرسل : منقول عن الصحابة عن النبي (١٨) المنقطع : الذي تنقصه حلقة في السند (١٩) المعضل : الذي ينقصه اسم أو أكثر في السند : كقولهم عن

مالك أن محمداً قال (٢٠) الشاذ : الذي يناقض حديثاً آخر صحيح السند (٢١) المنكر: حديث ضعيف ويناقض حديثاً ضعيفاً ، (٢٢) المعلل : فيه غلطة مستنكرة تدرك بالتأمل أو فيه اضطراب (٢٣) المدلس : فيه غلطة مستترة ا إما بادعاء صلة منتحلة بين رواته ، أو أن أحد الأسماء الواردة في روايته قد قُنِّع عمداً بذكر كنية (٢٤) المضطرب : الذي لا يتفق نصه مع حديث آخر (٢٥) المقلوب حديث يعرف أنه روي عن شخص غير الشخص الذي تنسب اليه روايته (٢٦) الموضوع : المنقول بحيث يختلف فيه الرأي بين انه صحيح وانه منتحل (٢٧) الحسن : الذي تتوسط مرتبته بين الصحيح والضعيف .

على هذا التصنيف جرى جلة المؤلفين من رجال الغرب ، فهل للاستاذ الفاضل أن يزوّدنا بعلم من لدنه في هـذا المجرى التاريخي ، وان ينقد منـه ما يستحق النقد وان يثبت منـه ما يستحق الاثبات .

ويروي بعض المؤرخين منهم روايات عن القصاص ينقلونها عن أدب المسلمين وتاريخهم وقد يستدل منها على ان أمر الحديث كان قد هان على كثـير من الفئات في ذلك الزمن حتى اتخذ سبيلاً الى الـكيد السياسيّ أو الى التجارة المرذولة .

فقـد روي انّ الشاعر كلثوم بن عمرو العتّـابي الذي عاش في عصر الرشيد والمأمون ، قد جمع من حوله في مسجد ببغداد جمعاً من النـاس وروى لهم حديثاً زعم انه حديث صحيح ومحصله : أنّ الذي في مستطاعه أن يلمس أرنبة أنفه بطرف لسانه ، يثق بأن نار جهنم لن تمسّـه . وما كاد يفرغ من روايتـه حتى أخرج الجميع ألسنتهم ليمتحنوا في أنفسهم : أتنطبق على أحد منهم علامة النجاة للذين قدر لهم أن يدخلوا الفردوس ؟

وكذلك روى أن قاصًّـا من هؤلاء كان يتفق وآخر من شيعته ، فيقف أحدهما بباب شارع ويقف صاحبه بالباب الآخر ، فيروي أحدهما أحاديث تشيد بعليّ ، ويروي الآخر أحاديث تشيد بأبي بكر ، حتى إذا انتهيا وجمعا من الصدقات ما تجود به أكف المؤمنين ، التقيا في ناحية واقتسما ربحهما آمنين .

فهل للأستاذ المحقق أن يزوّدنا بشيءٍ من هـذا التاريخ أو يحقق لنا شيئاً من صحة هذه الروايات إثباتاً أو نفياً ؟ على أن هنالك من الشبه الواردة على رواية الحديث ما لا يتفق والعقيدة السائدة، فيها ينبغي على علمائنا ومؤرخينا أن يفحصوا عنها ويجلوها خدمةً للاسلام والمسلمين .

وختاماً لهذا البحث ننقل هنا ، تعريفاً بقيمة هذا العمل العلمي ، شيئاً من كتاب « مرشد المتعلم » تأليف سير جون أدمز وترجمة الأستاذ محمد احمد الغمراوي ، وذلك من فصل اضافي بقلم المترجم : قال :

« أما الحديث فلا نعرف أحداً وضع له مفتاحاً بالمعنى السابق إلاّ المستشرق فنسنك في أجزاء جاءت الى دار الكتب قريباً ، وله فهرس بالافرنجية أنفع من هذا ، لأنه يدلك على الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد بدلاً من أن يدلك على الأحاديث الوارد منها لفظ من الألفاظ . ولا نعرف من المسلمين مشتغلاً بوضع شيء يشبهه إلاّ القاضي المحدّث أحمد محمد شاكر ، فانه يعمل من زمن في وضع فهرس لمسند الإمام أحمد ، نرجو له في إتمامه تمام التوفيق

١ — زقاق المدق

للاستاذ نجيب محفوظ — لجنة النشر للجامعيين

طالما ساءلت نفسي والحسرة تملأها كلما رأيت التجديد يأتي على أحيائنا الوطنيـة شيئاً فشيئاً .. تُرى هل تُطمس معالم هذا التاريخ الحافل قبل أن يُـخلق الفنان الذي يخلدها إلى الأبد ؟؟! نعم لقـد أخرج توفيق الحـكيم في هذا اللون معجزته عودة الروح . ولـكنها وحدها لا تـكفي . فضلاً عن أن توفيق قد انحرف عن هذا اللون منذ بعيد . وأخيراً وقع في يدي كتـاب خان الخليلي للمؤلف فتناولته متكاسلاً عديم الثقة في أن أقرأ شيئاً يهزني وبدأت أقرأ . . . وتوالت الساعات وأنا لا أدري فقد نسيتُ نفسي لقد استغرقني ما أقرأ وشاقني ما أرى وشاركت هؤلاء النـاس وشاطرتهم بؤسهم ونعيمهم وبسمت قليلاً لحظّـهم القليل من السرور وتألمت كثيراً لنصيبهم الـكثير من الآلام . . . ولا زلت أذكرهم وأحنّ اليهم كأنهم قوم عشت بينهم حقـًا أو تربطني بهم أواصر القربى . . . لقـد استطاع نجيب محفوظ أن يجعلني أحب هذه الأحياء الوطنية التي كانت تتقزز منها نفسي وأن أستروح منـاظرها تلك التي كنت أنفر منهـا قبل أن تـكشف لي يد الفنـان عمـا وراءها من أسرار . . . . هكذا كان شعوري عند ما قرأت قصته خان الخليلي وهو نفس شعوري عند ما قرأت قصته الأخيرة زقاق المدق .

اني أقولها قولة صريحة وأنا لا تربطني صلة شخصية بهذا الأديب وأُعلن اليوم وستؤمّـن على قولي الأجيـال القادمة . لقـد خُـلق لنا أدب قصصي في مستوى الأدب الروسي الذي استرعى أنظار العالم بفضل دستوفسكي وتشيكوف وترجنيف ، وسيقف أدب القصة عندنا بين الآداب العالمية سامقاً يفيض قوةً وحياةً ونبضاً . . .

إنك مع نجيب محفوظ لا تقرأ قصة بل أكثر من هذا . . انك تشاهد وتعاشر وتشارك أشخاصاً وكأنهم في عالم الحقيقة أمامك يضطربون بل في صميم الحياة بلحمهم ودمهم بملامحهم المميزة الواضحة بهمومهم وآمالهم بمثالبهم وفضائلهم حتى أصحاب العاهات والشريرين تشعر نحوهم بعطف لا يقل عما تشعر به نحو اصحاب الفضائل من هؤلاء القوم ...

كم أنا مشتاق الى هذه الفتاة التي لا أخطئها وأنا أسير في شوارع الغورية والأزهر ، إنني أراها أمامي كما وصفهـا المؤلف وأعلم بما تخفيه عني في حنايا نفسهـا من خير وشر فقـد جلا ذلك كله نجيب وكشفه أمام عيني . وعباس الحلو الحلاق ذلك الشاب الذي هو صورة حديثة للطابع الأخلاقي القديم طابع القناعة والرضى والحب والتعلق بالحي والعشيرة رغم ما يقاسيه من قلة في الرزق،ولـكن لا عليه.. ما دام يجد صديقاً يخلص له مثل كامل صانع البسبوسة وخلاف قهوة المعلم كرشة بالزقاق يسمر معهم كل مساء .

والشيخ رضوان التقي الورع والسيد علوان الثري صاحب الوكالة الذي شاء المؤلف أو شاءت قوانين الخلق الفني التي سيطرت على القصة ان تبتر مسراته بقسوة بعد ان كدنا نستروح معه كثيراً من راحة الحياة ولينها وكأنها الواحة الوارفة الظليلة وانه لما يلفت النظر ان الأستاذ نجيب لا يترك في قصصه مثل هذه الشخصيات تنعم بما هي فيه من رغد بل لعل لعنة الحيـاة لا تحل إلا بهم وكأنما لـكي يعيد المؤلف التوازن الى القصـة لا بد لأمثالهم من كارثة! ان الغريب الشاذ في شخصيات نجيب ان يستمتع شخصٌ ما بالسعادة والهناءة فمثل هذا الشخص يُـرخِي له في حبل المسرات لكي يبتره بعد ذلك بتراً قاسياً عنيفاً،ان بين نجيب وبين هؤلاء عداءً عجيباً . لا أدري مبعثه في نفسه . انه يعاملهم بقسوة حتى أن بوارق الهناءة التي تلوح أحياناً في قصصه لا تستطيع أبداً ان تبدد ما يكتنف جوّها من صرامة وقتام . وان أحق ما توصف به قصص نجيب أنها قصص قاتمة حتى أننا لم نسمع في سهرات قهوة المعلم كرشة شيئاً من «النُّـكت» المرحة مما اشتهر به أبناء البلد ، اللهمَّ إلاَّ بعض نكتٍ صارمة ! وذلك اللون الفني القاتم يبدو أيضاً في لوحات بعض الرسامين المصريين العصاميين أمثال حسين بدوي ودرويش ولا بدّ لهذا من علاقة بحياتهم وبيئتهم .

أما المعلم كرشة وزوجته فهما الصورة الحقيقية التي لا «رتوش» فيها لحياة هذه الطبقة من أبناء البلد. وكذا إبنهما حسين الشرس،فقط..ان شذوذ المعلم كرشة يبدو غريباً عليه بعض الشيء ولربما لو كان أصيب به كامل صانع البسبوسة مثلاً ثم تطوّر عنده الى استلطاف بعد تضخم جسمه لأشاع هذا في القصة جوّاً غير قليل من المرح والفكاهة هي في أشد الحاجة إليه

أما نهاية القصـة فلعلّ المؤلف كان يريد أن يشرك حسين الشرس في المعركة،ولـكن حالت دون ذلك بعض الاعتبارات !! والحق أن عدم إشراكه في المعركة كان غير طبيعي وهو الشيء الوحيد في القصة كلهـا تقريباً الذي لم يتبع منطق التحليل والملابسات وقد يكون المؤلف رأى أن اشراك حسين في المعركة ونجدته لزميله يستتبعان حتماً القبض عليه . ومعنى هذا أن الزقاق يقفر من شبانه بعد أن أقفر من فتاته الوحيدة ، ومعنى هذا أيضاً أن القصة

تحمل المنة على الزقاق وهذا ما لا يقبله نجيب لزقاقه المحبوب !

إن صدق التصوير ودقة الوصف وعمق التحليل هي ما يمتاز به فن نجيب محفوظ وإنَّ روح المؤلف وسيطرته على أشخاصه وتحريكه لهم لا تفتر أبداً لحظة من اللحظات طوال القصة التي تستغرق حوالي الثلاثمائة صفحة فضلاً عن التوافق والانسجام بين جميع أجزاء العمل الفني. وليس هذا على أديب بالشيء القليل وإنه في أدبنا لفضل جزيل

محمد فهمي

٢ — الوعي الجديد

للاستاذ حسين دياب — لجنة النشر للجامعيين

آلاف من شباب هذا الجيل في مصر تجيش نفوسهم بشتى العواطف ومضطرم الأفكار مدفوعين برغبة الاصلاح ولهفة الأمل في تقدم بلادهم تقدماً يقفز بها الى مصاف أرقى الأمم. ولكن القليل منهم من تحددت في ذهنه الأهداف واستنار السبيل ثم خطا فيه قُدماً وقد قرن التفكير بالعمل. وفي طليعة هؤلاء النفر القليل الأستاذ حسين دياب مؤلف كتاب الوعي الجديد فهو من أساسه قصة حياة المؤلف نفسه تطرق منها الى عرض قصة حياة الجيل الجديد المثقف في إطار يعبر عن حالة البلاد الاجتماعية وأثر الأوضاع الاقتصادية في طبقات الشعب في أسلوب قصصي أخاذ ينفي عن النفس سأم البحث وملل الاستقراء بينما يدفعك برشاقة الى حيث تجد نفسك أمام مشكلات أنت مدفوع الى التفكير فيها لأنها مشكلات الجيل وقضايا الوطن الاجتماعيــة والاقتصادية التي يجب على الشباب أن يجد لها حلاً. وقد عرض المؤلف حلولاً بعضها يمس صميم الأوضاع الاجتماعية وبعضها يدور حول نظام الدولة في حرصٍ أحياناً وفي جرأة في بعض الأحايين ولذلك جاء بعضها حلولاً وبعضها مسكّنات

والناحية القصصية في هذا الكتاب تعطينا صورة صادقة الى حدٍّ كبير ومحببة الى حدٍّ كبير أيضاً للريف المصري ببساطته وإيمانه وأوضاعه الاجتماعية وتقاليده الخاصة تنطق بها سيرة ذلك الفتى — الذي تدور حوله فصول الكتاب، وأسرته ومحيطه الذي هو طابع واحد لا يتغير في جميع أنحاء ريفنا المصري.

ثم تدرجه في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي وفي انتقاله من مرحلة لمرحلة حتى التحق بالوظائف الحكومية وقد تخدع فتظن الكاتب ما قصد من عرض هذه الصور إلاَّ التسلية ولكنك لا تسير في الكتاب حتى تلوم نفسك على هذا الظن، فما أراد إلاّ الإصلاح، الاصلاح الذي يرضي حماس الشباب والذي بدأه من نقطة الدفاع عن كرامته في محيط وجد كل من فيه وكأنما قد تحالفوا على النيل منها. وما تنتهي من الكتاب حتى تقنع بأن الشعب يجب أن ينال الكثير من الحقوق الاجتماعية وأن يتغير الكثير من الأوضاع الحالية

والتي يجب أن تميل الى مصلحة الطبقات الفقيرة حتى تحيا حياة فيها شيء من لين العيش : أما شباب الجيل من أبناء الطبقة الوسطى فلا أقل من أن يعيشوا كراماً وعلى أصحاب الثروات أن يشعروا نحو مواطنيهم بشعور الاخوة في الوطن والانسانية لا التباعد والاستعلاء ، وواجب الحكومة والديموقراطية أن تهيء الكثير من وسائل الانعاش والرفاهية لجميع الطبقات غير مؤثرة طبقة على أخرى وكما يقف الأفراد سواء أمام القانون فلتكن جميع الطبقات سواء في الاهتمام والمعاملة في نظر الدولة

٣ — ديموقراطية جديدة

الاستاذ احمد جمال الدين — مطبعة الاعتماد

يتناول هذا الكتاب المشاكل التي تواجه أمم الشرق الناهضة ويحاول أن يجد حلولاً للتوفيق بين تراث الشرق الذي يستمد أكثر وحيه من الدين وبين أنصار المدنية الحديثة فانه إذا كان الصراع الفكري في أوربا والغرب يقوم بين المذاهب السياسية والاجتماعية فإنه في الشرق لا بدّ من حسبان عامل ثالث له أثره وله خطره وهو التراث الديني الذي تغلغل بفضل عبقرية المشرعين الاسلاميين الى جميع خلايا الحياة الشرقية تقريباً المدنية والاجتماعية

وقد فهم الأستاذ جمال الدين هذه الحقيقة تمام الفهم فرأى من العبث أن يبسط نظرياته وطريقة فهمه للديموقراطية قبل أن يحل هذه المشكلة حلاً يمهد السبيل إلى غرضه، وقد وفق فيما رآى توفيقاً جديراً بالتنويه : فمن الأمثلة البديعة على فهمه الجديد لتقاليد الدين ومحاولة تطويعها بل مطابقتها للأوضاع العصرية الحديثة قوله في ص ٨١ بعد تمهيد لفكرته — يمكن مقارنة مشاهدة السيدة عائشة لرقص الحبشة بمشاهدة الفتيات للروايات المسرحية والسينمائية ومبايعة النساء يمكن أن يعتبر أصلاً لإعطاء المرأة حق الانتخاب . وسباق النبي للسيدة عائشة في الجري صورته العصرية دور من التنس بين الزوج وزوجته — إذا فهمنا ذلك فلن نجد تناقضاً بين الدين وبين الحياة الكريمة القوية لهذا العصر » .

وتقوم فكرة المؤلف لفهم الديموقراطية على أسس فيها الكثير من التبرم بعيوب المجتمعات الشرقية ، ومن هذه العيوب استلهم فهمه الجديد أو علاجه الجديد للديموقراطية كما يجب أن تطبق في هذه المجتمعات ثم ندد كل التنديد بفكرة المصلح الفرد مهما كان صلاحه . ويرى من الأفضل أن يطول أمد الاصلاح حتى يتحقق على يد الأمة ممثلة في تطورها الديمقراطي بهيآتها النيابية فهو خير من أن يتم في فترة قصيرة على يد فرد مصلح مهما بعدت نواياه عن الأثرة والأنانية .

ويرى المؤلف أن العدالة التي كانت تتحقق في التاريخ الاسلامي على يد بعض الحكام

المخلصين كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لم تضف الى حقوق الانسان شيئاً جديداً رغم تصريح عمر الشهير « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » فان هذا التصريح سرعان ما نُسي. بينما أثبتت الثورة الفرنسية تلك الحقوق اثباتاً قاطعاً جعلها من حق الجماهير غير منازع وكانت أساس كل الديموقراطيات الجديدة.

ونلاحظ أن المؤلف في الفصل الأول ينوّه بفضل الايمان المجرد على المجتمع وأثره في تقدمه ولكنه يعود في الباب الثاني عند حديثه عن الديمقراطية فيبدي مخاوفه من هذا الايمان حاسباً اياه مادة متفجرة خطيرة لا يؤمن وقوعها في يد زعيم مندفع فتسوء العاقبة ، بل انه ليقرر ان مثل هذا الايمان الحماسي لا بد له كنتيجة طبيعية من خلق زعيم وهنا الشر الذي يخشاه المؤلف.

أما آراؤه في اصلاح النظام الديمقراطي بعد أن قرر صلاحيته وأفضليته على جميع الانظمة المعروفة فهذه في حاجة الى مناقشة المختصين في هذه النظم. وكم يكون مفيداً أن يدور الجدل والنقاش حول مثل هذه الآراء الجديرة بالاهتمام التي يبديها المؤلف في كتابه فإننا أحوج ما نكون الى ثقافة سياسية اجتماعية مبنية على فهم النظام الذي نأخذ به وهو النظام الديموقراطي وان في كتاب ديموقراطية جديدة قدراً ان لم يكن كافياً لهذه الثقافة، فهو بلا شك محفّز للاستزادة منها وموجّه حسن التوجيه للراغبين.

٤ — رسالة بإنشاء مجلس فاروق الاول لتقدم العلوم باللغة العربية

الاستاذ محمد علوي عبد الهادي

هي رسالة صغيرة الحجم يتناولها القارىء وهو غير معتقد أن سيجد فيها فكرة يستطيع الوقوف عندها طويلاً فإذا قرأها وقف مفكراً وأمعن في التفكير في محتويات هذه الصحائف القليلة التي استطاع كاتبها الأستاذ محمد علوي عبد الهادي أن يطرق فيها موضوعاً على جانب من الأهمية نحن في أشد الحاجة اليه لتسير نهضتنا الحديثة على أسس ثابتة الدعائم وان البراهين التي ساقها المؤلف وغيرته على اللغة العربية والقومية الشرقية التي تتجلى في آرائه والحماس المدعم بالاطلاع اللذين يعزز بهما آراءه كلها مما يحملنا على التنويه بفضله وجهده. وكم نتمنى أن يكثر أمثال المؤلف من خريجي الجامعات المصرية فيجعلون همهم بعد التخرج استخدام ما تعلموه واكتسبوه من ثقافة الغرب كوسيلة للنهوض بثقافتنا الشرقية الخاصة ، والتنويه بتراثنا الفكري الذي كان له فضل بعث الحضارة الأوربية الحديثة والذي يقوم مع الأسف بعض علماء أوربا بالاشادة بفضله أكثر مما يفعل أبناؤه.

م . ف

١ — لمحات من الدراسات المصرية القديمة

للدكتور باهور لبيب — مجلة المقتطف — ١٤٢ صفحة من القطع الكبير

لعلّ المصريين أجهل الناس بتاريخهم القديم

هذه حقيقة مرّة، ولكن هذا لا يحول دون أن نسجلها هنا .

فلو كنا من الفراعنة مجهولون عندنا وإن كانوا معروفين عند طائفة كبيرة من علماء الغرب حتى غير المشتغلين منهم بعلم المصرولوجيا . وفلسفة الفراعنة تنال عناية من الأعاجم أكثر مما تلقاه من المصريين أنفسهم. ولعل هذه الحقيقة هي التي حدت بالأستاذ أحمد زكي سعد العالم الأثري المعروف الى طبع كتاب عن حفرياته في حلوان باللغة الانجليزية لا العربية لأنه أحسّ أن في نشر كتابه بالعربية وأداً له بينما نشره بالانجليزية يتيح لمصنفه فرصة إثارة اهتمام بين الأوساط العلمية الأجنبية .

فالدكتور باهور لبيب مشكور إذن على عنايته بنشر كتابه الجديد «لمحات من الدراسات المصرية القديمة » ، ومجلة المقتطف محمودة الجهد في اشرافها على طباعته وفي خص قرائها به في خاتمة عامها الحالي كهدية سنوية نفيسة .

ولو شاء المرء أن يدوّن ملاحظات من قراءاته في كتاب الدكتور لبيب لكان عليه أن يعيد كتابة الكتاب بأسره . وما ذلك إلاّ لأن المؤلف صاغ في قليل من الكلام كثيراً من الحقائق ، وتخير بوجهٍ خاص تلك الحقائق التاريخيـة التي تبرز المصريين القدماء — من فراعنة وقبط — بمظهر أصحاب عصر انبعاث في شتى مرافق الحياة .

وجولة قصيرة مع المؤلف في عالم مصنّفه توقفك على ما فطر عليه المصريون الأقدمون من سعة أفق وصفاء ذهن وحسن استعداد لقبول الحضارة والعمل على تنميتها والأخذ بناصرها . ومن آفاقهم البعيدة في الرأي ، حرصهم على وحدة وادي النيل وحدبهم على شطر مصر الجنوبي حتى كان حاكم السودان يلقب باسم ابن الملك دلالة على أن فرعون ينتدب من يقوم مقام ابنه في ادارة شؤون السودان . وكان المصريون الفراعنة متضلعين من الطب — فعرفوا التشريح والتحنيط وتخصص أطباؤهم في أمراض الأسنان والبطن والعينين فدلّوا على أنهم كانوا عصريين في تفكيرهم . وليت الدكتور باهور أثبت في هـذا الشطر من كتابه ما كان للمصريين من فضل في كشف طريقة يتسنى لهم بها معرفة جنس الجنين قبل ولادته تلك الطريقة التي تبين أخيراً بفضل بحوث الطبيب المصري الدكتور نجيب رياض صحتها . وعرف الفراعنة القانون الجنائي والقانون المدني وكانت لهم محاكمات حكم في أكثرها إمّا بالاعدام

بالخازوق أو بالنفي أو بجدع الأنف كما إنهم عرفوا محاكم الاختلاط لرفع الدعاوى على الأجنبيين من السكان . وتعشق المصريون الفن بضروبه فعرفوا الموسيقى والهندسة وتعلقت النساء بالزينة والتطرية وبرع منهن كثير في الرقص .

ومما يجدر إبرازه هنا بوجه خاص اهتمام الدكتور باهور بالتنبيه على الأخطاء التاريخية الشائعة فبيّن أن مقالة « مصر هبة النيل » لم يكن هيرودوت أول من فاه بها وإنما نقلها عن عالم جغرافي يوناني إسمه هيكاتييه ، ودلّل على أن الأدب القبطي والفن القبطي لم يكونا مقتصرين على الشؤون الدينية وإنما شملا كذلك شؤون الدنيا . وبرهن على أن سرابيوم الاسكندرية من صنع بطليموس الأول لا الثالث كما يقول البعض ، وأقام الدليل على أن الهكسوس من أصل سامي شرقي لا غربي .

وصفوة القول ان كتاب « لمحات من الدراسات المصرية القديمة » تعريف طيّب للمصريين بالمصريين القدماء ومبحث نفيس يرجع إليه الأديب والعالم على السواء ليقفا على حقائق تاريخية مشرقة مشرّفة .

٢ — عالم الروح

مجلة شهرية يصدرها الاستاذ احمد فهمي أبو الخير

الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير رائد مصري في علم الروح وعلَمٌ من أعلامه في الشرق — وهم قلّة

وعلم الروح علمٌ أصبح له خطره في الغرب حتى غدا مادة تدرّس في الجامعات الاوربية وتعين لها كراسي في الجامعات العالمية الكبرى ويعترف بها رجال الدين في لندن

فليس أمراً عجيباً أن يصدر الأستاذ أبو الخير مجلة شهرية روحية تحمل رسالة هذا العلم الجديد إلى قارىء الصحف بعدما كانت الرسالة مقصورة على قارىء الكتاب وليس من المبتسر أن تصدر تلك المجلة الخاصة بين زحمة الدوريات العامة التي تخرجها دور الطباعة في كل يوم

ولا ريب في أن في علم الروح أموراً كثيرة لا تزال مستغلقة على الفهم . ومهمة مجلة « عالم الروح » أن تفسر تلك الحقائق المستسرّة للعامة وتبين لهم أن وراء كثير من الاحداث عنصراً روحيًّا مجهولاً . وآية ذلك ما جاء في مقال نشرته المجلة من أن الرئيس روزفلت كان يستهدي في أعماله بآراء عالم الروح عن طريق الوسطاء الروحيين. وهذا القول له خطره لأن الرئيس روزفلت أعظم رؤساء أميركا بغير استثناء ومدة حكمه أطول مدة لرئيس فرد قضاها في البيت الأبيض .

فالأستاذ أبو الخير جديرٌ بالتهنئة على مجلته الجديدة ، ومن الامتاع والتثقيف الاقبال على تلاوة هذه المجلة .

وديع فلسطين

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

لحق المقتطف

June — December 1947

يونيو — ديسمبر سنة ١٩٤٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الحادي عشر بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 111

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الحادي عشر

بعد المئة من المقتطف

مريوط

هويدي

جنة الصحارى الأفريقية وروضة الصحراء الغربية

خميلة الحب .. وأيك الغناء .. وبسامة الطبيعة

بقلم

عبد اللطيف واكد

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

الماء في الصحراء

بما أنّ الماء يكوّن ٨٥ ٪ من جسم الإنسان والحيوان ، وما يقرب من ذلك في مختلف أنواع النباتات، فقد وجب بحث مشكلته في الصحراء قبل كل شيء.. فحيثما وجد الماء وُجِدَتْ الحياة . وازدهرت جناتها ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز « وجعلنا من الماء كل شيء حي »

وقديماً . . وقبل معرفة الخلق للخالق عزّ وجل . . وحتى الآن . . اتخذ الناس من دون الله أرباباً . . فمنهم من عبد الشمس ، ومنهم من قدّس النار ، ومن سجد للشيطان ، ومن صلى بين يدي الحيوان ، الى غير ذلك من الأصنام والأوثان.. ولكنني لم أر أحداً يُلْتَمسُ له العذر ، فيما اتخذه معبوداً من دون الله ، غير المصريين القدماء ، فقد جاءت أجيال منهم ، وعبدت النيل . . !!

أليس هو الذي يروي الزرع والضرع . . ويحيي بإكسيره الإنسان . . !!

ليس هذا بحثاً في فوائد الماء ومنافعه ، وإنما هي إشارة لابد منها ، قبل أن نتحدث عن الماء في الصحراء . . !!

ونستطيع أن نقسم الصحراء الليبية من الوجهة المائية ثلاثة أقسام :

١ — قسم فاقد الماء ٢ — قسم موسمي الماء ٣ — قسم دائم الماء . . !!

١ — القسم العديم الماء

وليس معنى عدم وجود الماء فيه ، أنه لا يحتوي على كائنات حية ، حيوانية أو نباتية. « كلاً » فانه ليضم مجموعة من النباتات الجافة (١) التي لها قدرة على مقاومة الجفاف ، فتعيش رغم تقلبات الطقس ، على أقل نسبة من الرطوبة الجوية أو الأرضية .. وعلى هذه النباتات تعيش بعض الحيوانات الصحراوية البرية ..كالغزال الذي يكثر وجوده في هذه المناطق ، متخذاً من لونها الذي يشابه لونه ستاراً .. ويكتفي في ارواء غلته ، وإطفاء ظمئه بما يخلفه الندى ، الذي يهبط بغزارة في الصحراء آخر الليل ، على الصخور التي تتضمن أحياناً

---

(١) في آخر الكتاب تعليقات وشروح

تجاويف متعرة ، يتجمع فيها ماء الندى ، فيأتي الغزال قبل شروق الشمس فيلعقه بلسانه .

وعلى هذا المأكل والمشرب يقضي حياته ، محتفظاً بما وهبته الطبيعة من رشاقة وجمال هما عند البشر مضرب الأمثال .

ويشمل هذا القسم الصحراء الجنوبية . وتمتاز هذه المنطقة بكثرة كثبانها الرملية المتنقلة التي يسميها أهل الصحراء بالغرود . !!

والغُرود (٢) واحدها غـرْد .. ولقد نتجت في هـذه المنطقة من تأثير الرياح على مكونات الأرض الرمليـة الرخوة في منخفض القطارة (٣) ثم انتقلت من مكان الى مكان حتى ترسبت أخيراً في الجنوب الشرقي للمنخفض ، على هيئة تلال شاهقة ، تقع في خطوط تكاد تكون مستقيمة بعض الشيء .. أما انتقالاتها فمع هبوب الرياح التي تحملها غالباً من شمال الشمال الغربي ، الى جنوب الجنوب الشرقي .. وتمر مع الهواء على هيئـة سحب رملية رقيقة تسمى سافيات الرمال ، لا تلبث أن يتكاثف بعضها فوق بعض ، حتى يتكامل انتقال التل ، من مكان الى مكان آخر .

وتُـغير هذه الغرود على القرى فتغمرها ، وعلى الحدائق فتطمرهـا ، كما حدث في قرية الموهـيَّـة بالداخلة ، والزبو بالبحرية . . وعلى الدروب فتمحوها . وكثيراً ما كانت سبباً في ضلال الـكثيرين من الضاربين في الصحراء ، وليس أدل على ذلك من هلاك جيوش قمبيز في طريقها بين الواحات الخارجة وسيوه عند ما أرسلها في عام ٥٢٥ ق. م. لتحطيم معبد آمون الذي كان له مركز عظيم في عالم اللاهوت ، في ذلك الحين . وكما أن لها مثل هذه الأضرار فلها فوائد أخرى ، إذ يلجأ اليها الأهلون بالواحات في ليالي الصيف هرباً من الدور التي تكثر فيها العقارب والحشرات الضارة إذ أن هذه لا يمكنها السير فوق ذراتها الدقيقة فيمكنهم تمضية الليل في هدوء واطمئنان من غارات هذه الأعداء الفتاكة في أثناء الليل فينعمون بنوم هادىء لا يشوبه فزع ولا قلق .

وليس في هذه المنطقة سكان قط غير سكان الواحات الواقعة فيها .

٢ — القسم الموسمي الماء

ويشمل المنطقة الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين الاسكندرية والسلوم بعرض خمسين كيلو متراً في أغلب المواقع جنوبي الساحل. وهذه المنطقة ذات خصب وافر آهلة بالسكان من البدو الرحل الذين يكوّنون قبائل أولاد علي بنوعيها (٤) وهم يشتغلون

بتربية الابل والماعز والأغنام ، وبعض زراعات أخرى صغيرة . ولهذه المنطقة ثلاثة موارد للماء.

١ — المطر : أهم الموارد وعليه تتوقف زراعة الشعير ، وحياة الزراعات الأخرى ، إذ يهطل في هذه الجهات بغزارة في الشتاء ، حتى أن السيول المتجمعة منه تتلف أحياناً طريق السيارات المرصوف . وتجتاح الخط الحديدي الممتد على الساحل ، فتنقله من مكان الى مكان لشدة اندفاعها نحو البحر . ولقد احتاطوا لذلك ، بأن جعلوا لهذه السيول منافذ وممرات تحت الخط الحديدي ، مشيدة بالأسمنت المسلح على هيئة قناطر تكبر وتصغر على حسب انخفاض البقعة بالنسبة لما يجاورها من الجبال والتلال، إذ في المناطق المنخفضة المنحدرة نحو الشاطىء يقوى اندفاع ماء السيول ، وبالعكس ، ولقد أقاموا هذه القناطر في الأماكن التي تعرضت لهجمات السيول غير مرة ، ثم قاموا بحفر جداول محاذية للخط الحديدي تنتهي الى هذه المنافذ ، حيث تنفذ منها الى البحر فيما صنعته لنفسها في الأرض من أودية عظيمة .

ويستغرق فصل الأمطار حوالي الخمسة أشهر إذ يبدأ في اكتوبر وينتهي في أواسط مارس . أما ما بقي من أشهر السنة فلا تتساقط خلالها الأمطار لذلك تشتد فيها حرارة الجو وتكثر العواصف الرملية .

ويبلغ متوسط سقوط الأمطار ١٦ سنتيمتراً في كل الأعوام تقريباً ، الا ما يجيء فيها مجدباً من الأمطار ، كالأعوام السبعة العجاف التي تنحصر بين ١٩٣٠ وعام ١٩٣٨ فانها كانت أقل من ذلك بكثير لدرجة تجعلها والعدم في صف واحد . وفي الأعوام الغزيرة الأمطار فوق العادة كعام ١٩٣٨ الذي هطل الغيث فيه بعد امتناعه أعواماً فبلغ متوسطه ٧ر٢٥ سم ولقد كان لهطول الغيث بهذه الغزارة أثر حسن ، ونتيجة عظيمة في وفرة المحصول .. وحمل الأرض على أن تخرج أسرارها ، التي احتفظت بها أعواماً سبعة ، على هيئة أزاهير جميلة تنفح الجو بأريجها العطر ..

ويسمي البدو السنين العديمة الأمطار أو قليلتها (جَدَبْ) بتحريك الدال مفتوحة وتسكين الباء .. كما يسمون الأعوام الكثيرة الأمطار الوفيرة المحصول (صَابَا) .. وللمطر عدا ذلك آثاره الملموسة في رفع منسوب الماء الأرضي .. وتغذية الآبار المنتشرة في عرض الصحراء بالماء .. إذ تتشربه التربة .. ثم تزجيه إلى الآبار بطريق الرشح .. !!

٢ — الآبار : ثاني الموارد وأهمها صيفاً، إذ يشرب منها الناس والإبل والأغنام . وتروى منها الزراعات الصغيرة التي لا تحتمل العطش ، وتجلب المياه منها إما بالسواقي التي تقام عليها

أو بالماكينات الرافعة عند الحاجة اليها ، أو بواسطة طواحين الهواء .. أو بالبكرة والدلو.. وهذه الآبار أنواع كثيرة .. !!

ا — المعاطن : ويبلغ عمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار .. وتتجمع فيها المياه من رشح الأمطار والسيول ، التي تتشربها القشرة الأرضية. ومن أهم خواصها طول الاحتفاظ بالماء . وماء هـذه الآبار يصير مالحاً بعد مضي وقت قصير في بعض الجهات . . ويظل عذباً طوال أيام العام في بعض الجهـات الأخرى .. وذلك لاستمرار وورود الماء لهـا بالرشح ، بواسطة روافدها الـكثيرة التي تمتد مسافات بعيـدة في جوف الأرض . . ولقلة الأملاح المختلطة بالتربة الواقعة هي فيها .. وتكاليف حفر البئر من ٣٠ الى ٤٠ جنيهاً .. ويقوم بحفرها بعض الأهلين ممن تخصصوا في هذه الصناعة ..

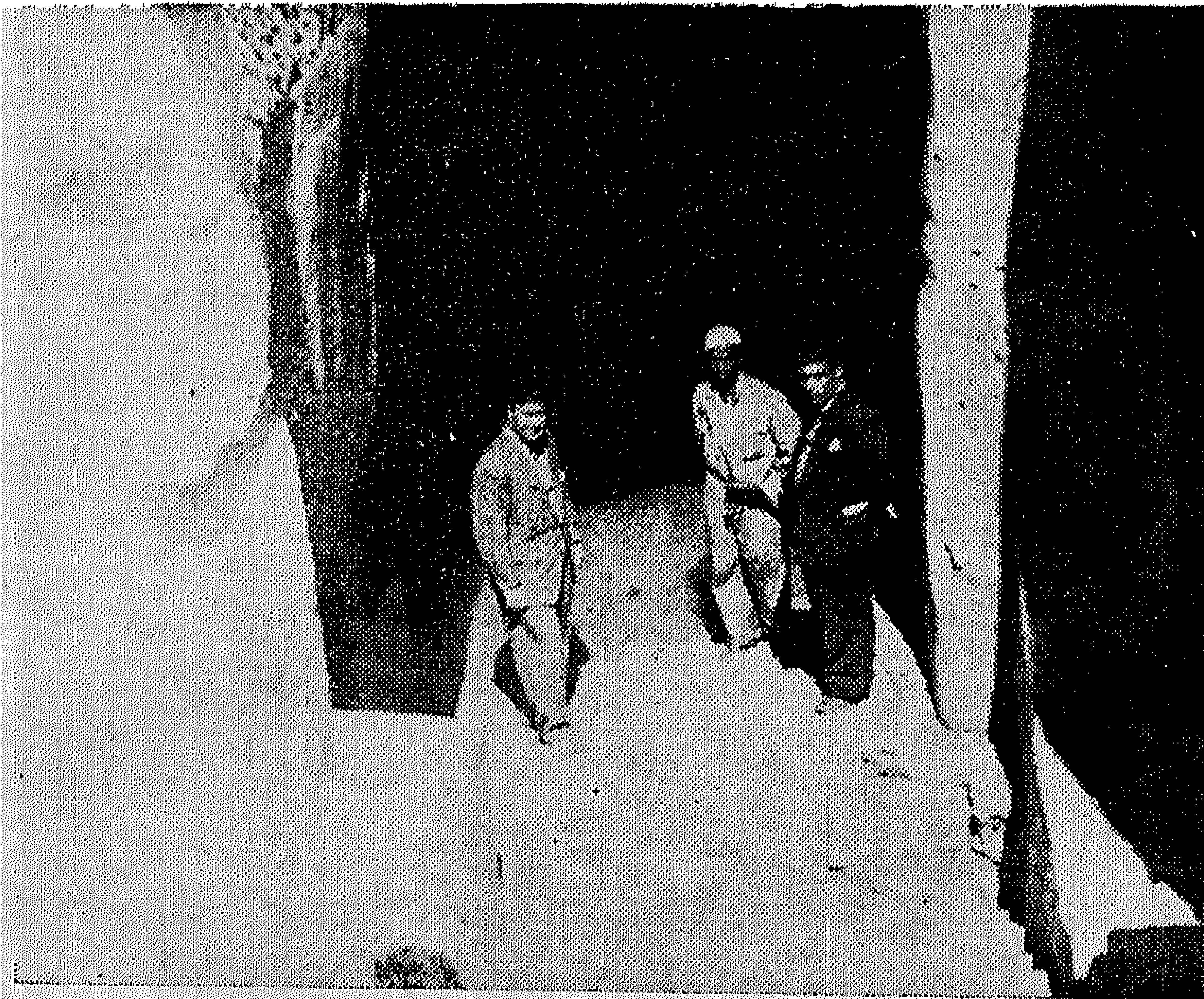
أما طريقة حفرها فتبدأ بحفر البئر المركزية في الطبقة الأرضية العليـا .. إلى أن يصل الحفر الطبقة الصخرية التي تحتهـا ، والتي تحول دون تسرب ماء المطر الذي تتشربه الأرض بواسطة المسام الأرضية إلى أعماق بعيدة . . ثم تحفر قنوات جانبية تمتد إلى مسافات بعيدة في جوف الطبقة السطحية كسراديب تكبر أحياناً حتى تتسع لمرور الرجل بقامته .. وتكون هذه السراديب بمثابة روافد تغذي البئر بالماء المختزن في جوف القشرة الأرضية من مخلفات السيول والأمطار ثم يتسرب إلى مجاريها بالرشح .. وعلى قدر امتداد القنوات أو السراديب وكثرتها تكون وفرة الماء وقلته في البئر .

ب — آبار السماء : وهي خزانات عملت أول ما عُملت في عهد الرومان ، وجهزت باستحكامات تضمن حفظ الماء فيها وقتاً ليس بالقصير ، ويأتيها الماء مما يتجمع حولهـا من السيول التي تتكوّن على أثر سقوط الأمطار فوق التـلال والهضاب المجاورة لمواقع هـذه الآبار ، ويدخلها الماء من فتحات جانبية بمستوى سطح الأرض . ويرفع منها من فتحات في أعلاها تقفل وتفتح حسب الحاجة . . وعادةً لا توجد أو لا تصنع هـذه الآبار إلاّ في منخفضات مستوية القاع بمجال تضمن وصول الماء اليهـا مما حولها من مرتفعات ، وهي لا ترتفع عن سطح الأرض أكثر من قدم أو قدمين .. وتتراوح سـعة البئر بين ألف متر مكعب وخمسة آلاف متر تقريباً ، ويسكن البدو في خيامهم بجوار هذه الآبار أو بمقربة منها . .

جـ — آبار الثواني Sub-soil water أي آبار تحت التربة .. وهي عبارة عن آبار ارتوازية يرفع ماءها بالماكينات أو السواقي . ولقد صنعت أيضاً في عهد الرومان الذين كانوا حريصين دائماً كل الحرص على ضمان بقائها جيدة سليمة عهداً طويلاً . وتعتبر « بئر البردويل » بالعامرية



بساتين الزراعة ببرج العرب سنة ١٩٤٥ وبها شجر الخروب



بئر الجفة ببرج العرب وهي خزان روماني لمياه الأمطار

نموذجاً لهذا النوع من الآبار ، ولقد بنيت جوانبها على عمق (١٦ متراً) تحت سطح الأرض ويبلغ قطرها (١٢ متراً) ويرتفع بناء هذه الجوانب ويكوّن خرزة فوق سطح الأرض بعلو ثلاثة أمتار تقريباً ، ولها سقيفة من الخشب بشكل مخروط مربع ، وتوجد نافذة بكل جانب من جوانب السقيفة عرضها (٨٠ سم) وطولها (٨٠ سم) وتستعمل للتهوية ، وبداخل البئر سلم من الحديد يوصل الى قاعها . وعلى ارتفاع (٥٠ سم) من سطح الماء ، توجد ثماني فتحات حول البناء بشكل أبواب مقوسة طول الواحد منها (١٢٠ سم) وعرضه (٦٠ سم) ويوجد تحت كل باب من هذه الأبواب فتحة أخرى طولها (٤٠ سم) وعرضها (٣٠ سم) ينصب منها الماء المحجوز خلفها الى البئر ، وهذه الفتحات الثماني تتصل بسراديب مبني بعض أجزائها على مسافة لم يتمكن أحدٌ من تحديدها للآن. وهذه السراديب في ثمانية اتجاهات مختلفة . ويظن ان المياه التي تأتي الى هذه البئر ترد اليها من أبعاد مختلفة اذ اتضح عند التطهير الذي أجري عام ١٩٢٧ بواسطة لجنة مياه الشرب الموفدة من قبل مصلحة الصحة (وزارة الصحة الآن) لفحص مياه الصحراء ، أن مياه العيون الأخرى المجاورة جميعاً ، والتي تقع في دائرة قطرها خمسة كيلو مترات حولها ، كانت جافة .

ومدخل هذه البئر على مسافة (١٢ متراً) تقريباً من الجهة الجنوبية ، وبعد صعود بضع درجات من السلم المبني في عصر الرومان . يصل الداخل الى البئر الى باب محفور في خندق وهذا السلم تستمر درجاته داخل البئر وعددها (٤٥ درجة) وينتهي طرفه الى رصيف توجد في إحدى نهاياته فتحة سعتها ضعف سعة النوافذ الموجودة في البناء في جدار البئر (وقد سبق ذكرها) ويمكن لمن يقف في هذه النقطة أن يرى الماء المنصب من الفتحات الى داخل البئر ويختلط فيه بمائه .

وتوجد غرفة بالقرب من البئر بها الآلات الرافعة التي تدار بمحرك يدار بالمازوت قوته (١٥ حصاناً) وتوجد طلمبة ماصة كابسة تدار ثماني ساعات في اليوم . ويخرج الماء من ماسورة قطر فوهتها ثلاث بوصات . ويسير في قناة صغيرة مكشوفة طولها عشرة أمتار تقريباً . وينصب في مزارع مساحتها خمسين فداناً ، والماء الذي يسحب يوميًا يكفي لري أربعة أفدنة فقط.

٣ — ماء النيل : ويرسل إلى المدن الواقعة على الساحل بواسطة بواخر مصلحة خفر السواحل ، إذ بها خزانات مجهزة لهذا الغرض ، ويوزع على الموظفين وكبار الأعيان لاستعماله في الشرب نظراً لأن مياه الآبار أغلبها ملحة غير مستساغة .. وكذلك يحمل القطار يوميًا فناطيس المياه من الاسكندرية لتوزيعها على المحطات .. وأخيراً مدت أنابيب المياه

من أبي المطامير حيث أقيمت مضخات كبيرة ماصة كابسة على نهاية ترعة النوبارية . ولقد بلغت المياه التي تضغطها هذه المضخات في الأنابيب الممتدة منها إلى طبرق في أيام الحرب الأخيرة وقد جعلوا في كل بلد تقريباً (حنفية) عامة لتوزيع الماء منها على الأهلين .

* * *

أما وقد عرّفنا موارد الماء في المنطقة الساحلية فيمكننا أن نبين طرق الري فيها ولكي نتمكن من الوصول إلى طريقة مثالية سنتخذ من مزرعة قسم البساتين ببرج العرب أنموذجاً لطرق الري المتبعة في هذه المنطقة .

أولاً : الري شتاء : تهطل الأمطار فتغمر الأرض كلها . . فيرتوي الشعير . . والأشجار والحدائق وما نما من نباتات برية .

ويسقط المطر فيما يسقط على التلال والمرتفعات ، فينحدر مكوّناً سيلاً يُحتال عليه للانتفاع به ، فتحفر في سفح كل تل قناة ، في منحدر السيل ليتجمع فيها .. ومنها يوزع إلى أحواض الزراعة بواسطة مساقٍ فرعية .. وتسمى القناة التي في سفح التل (ناي) ومجموعها نايات .. !!

ولما تبين للرومان أن توزيع المياه الناتجة عن سقوط الأمطار في مناطق متسعة الانبساط يكون عادة بحال لا يكفي لانتاج محاصيل وافرة . لما تبين لهم ذلك لجأوا الى عمل تلال صناعية في وسط كل مساحة متسعة من حولها ، حتى إذا ما نزلت الأمطار عليها انحدرت الى الأرض المجاورة المنزرعة فتضيف إلى ما نالته مما تساقط عليها من مطر كمية من الماء لا بأس بها ، فينتج عن ذلك زيادة في المحصول .. ونجاح في الزراعة .. وتشاهد آثار هذه التلال حتى الآن في مناطق كثيرة من الصحراء تعرف عند البدو بالكروم .

ولما كان الماء الأرضي يحتوي على ٤٠٠٠ جزء من الرواسب الملحية في كل مليون جزء فقد روعي الاحتراس منه بقدر الامكان عند استعماله للري خصوصاً للاشجار الصغيرة . لذلك لجأت المزرعة لادارة الماكينات أيضاً في الشتاء ، لخلط ماء المطر بماء الآبار المالح ، فيمكن الحصول بذلك على درجة رطوبة كبيرة تستطيع الأرض أن تحتفظ بها وقتاً طويلاً فتستفيد بها الأشجار الدائمة مع تخفيف نسبة الملوحة ، فيقل الضرر الذي ينجم عنها .. !!

ثانياً : الري صيفاً : كانت الأشجار تروى صيفاً بالماكينات والسواقي بالطريقة المتبعة في ري الحدائق بوادي النيل وذلك بأن يجري الماء داخل البواكي القائمة بها الأشجار .. ولكن تبين أخيراً ان هذه الطريقة ضارة بسوق الأشجار وجذورها ، لوجود مركب كلورور الصوديوم في الماء بنسبة كبيرة ، فاتبعت طريقة أخرى ، أمكن بها تخفيف تأثير

الأملاح الضارة ، وذلك بأن جُعل مجرى الماء في قنوات تبعد عن السوق بمقدار نصف متر وكل عام يزاد البعد ، حتى يصير المجرى بين كل صفين من الأشجار ، وهذه الطريقة تستعمل للأشجار الصغيرة ، والمطعمة حديثاً . . وأما الأشجار الكبيرة فلا تروى صيفاً إلاّ إذا قلت نسبة الرطوبة في الأرض ويمكن معرفة ذلك بواسطة جور الاختبار ، التي تحفر في جهات متعددة بين الأشجار بعدد يضمن معرفة النسبة بالضبط ، فان قلّت درجة الرطوبة تروى كالأشجار الصغيرة، ولكن تبين أخيراً أن طريقة الري هذه غير مفيدة في كل الحالات إذ يمكن الانتفاع بها تماماً في التربة الكثيرة المسام التي ينفذ الماء بينها بسهولة. أما التربة التي لا ينفذ الماء فيها بسهولة فليس من الواجب النصح باستعمالها إذ ان الماء يتبخر بواسطة الشمس والهواء قبل ان يتخلل المسام الأرضية فيصل الى جذور الأشجار ، ولذا تتبع الطريقة الأولى في الحالة الأخيرة مع تقليل الري وجعله عند الضرورة .

أما كمية الماء اللازمة لري فدان مزروع أشجاره على بعد خمسة أمتار مرة واحدة فهي نحو (٦٠ طنّـا) فقط ويستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بحوالي (٢٥ مليماً)[١] وكمية الماء اللازمة لري الخطوط مرة واحدة في زراعة العنب البالغة مساحتها فداناً هي (١٣٠ طنّـا) يستهلك في رفعها من الوقود ما تقدر قيمته بخمسين مليماً ذلك لأن العنب مزروع على مسافات قريبة أي ٢ × ٣ من الأمتار . وقد يكفي لزراعة مائة فدان ماكينة واحدة قوتها عشرة خيول ، وطلمبة قطرها أربع بوصات .

٣ — القسم الدائم الماء

ويشمل الواحات المصرية جميعاً ، إذ العيون تتفجر بماء غير دائم الجريان ، لا ينضب له معين ، ولا يتوقف على عوامل جوية ، وإنما يتسرب الماء الى منخفضاتها خلال طبقات الخراسان النوبي ، الذي يوجد في هذه المنخفضات على سطح الأرض ، أو دونه بقليل ، تغطيه طبقة غير سميكة من الحجر الجيري . أو الرواسب البحرية الحديثة . التي يسهل الحفر فيها ، والوصول الى الماء من ورائها ، ولقد تضاربت آراء علماء الجيولوجيا في مصدر هذا الماء ، لا في طريقة وصوله التي علمناها . . فلقد ظن فريق منهم أنه يأتي من النيل ، عند مروره في منطقة النوبة فيتسرب الى الواحات مباشرة ، ماراً بطبقات الخراسان النوبي التي تكثر في هذه المناطق .. ولكن فريقاً آخر عارض في ذلك .. والحجة التي أقامها المعارضون أن ماء النيل ينقص ويزيد. أما ماء العيون فثابت المنسوب ، فما هذا التباين والاختلاف ..؟؟

---

(١) اسعار ما قبل الحرب .

وقالوا إنهم يرون أن مصدر هذا الماء هو بحر الغزال ، حيث الأمطار دائمة الهطول .. والمستنقعات كثيرة تساعد على تسرب المـاء بكثرة ، وأقاموا الدليـل على ذلك بدفء ماء العيون والآبار ، في أغلب الواحات زاعمين أن سبب هـذا الدفء كون الماء يقطع مسافات كبيرة في جوف الأرض ، فيمتص بعض حرارتها .

وجاء فريق ثالث فاعترض على هذا الرأي ، بأن مستوى بعض الآبار أعلى من مستوى مستنقعات بحر الغزال . وأنهم يرون غير هذا الرأي وهو أن مصـدر الماء الذي تتفجر به العيون ناتج عن الأمطار الغزيرة الموزعة على فصول السنة ، والمتساقطة على المرتفعات المكونة للحافة الشرقية لمنخفض بحيرة (تشاد) بالصحراء الفرنسية الكبرى التي تكاد تكون عديمة النباتات . وسبب ذلك أن الحراسان النوبي الذي يغطي الأرض يتشرب الماء الذي ينفذ خلاله الى الواحات . وربما كان هذا الرأي له نصيب من الصـحة ، وربما ظهر عليه ما يخطؤه بعد سنين .

وقال « زيتل » في تقريره الذي نشره عام ١٨٨٣ عن جيولجية صحراء ليبيا أن لمياه العيون المنتشرة في الواحات بهذه الصحراء خزاناً عامـّاً تحت الأرض » .

ومهما كان مصدر هذا الماء مختلفاً فيه أو متفقاً عليه ، فانه يصل الى الواحات متدفقاً بغزارة . وسنأخذ في دراسته وبحثه بكل واحة على حدة .

ا — واحة سيوه

وانه لما يسترعي النظر وانتباه الزائر لواحة سيوة ، كثرة عيونها المنتشرة في أرجائها . والموزعة بحالة تحمل على الاعتقاد بأن الطبيعة قد أوجدتها في أماكنها هذه ، لـكي تكون أنفع وأيسر تناولاً ، مما لو كانت في أماكن أخرى من الواحة . ومما لا يزال يردده الأهلون ان سيوة كانت في العصور القديمة تحتوي على أكثر من ألف عين . ويدللون على صحة ما يقولون بـكثرة المصارف القديمة المطموسة . ذلك لأنه لـكل عين مصرف ينقل الزائد من مائها عن الحاجة ، الى بحيرة الزيتون التي تمتد بين « أغورمي » (٥) و « عزبة الزيتون » . مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريباً . أو بحيرة « خميسة » التي تمتد بين « خميسة والمراقي » (٦) ولا تزال آثار هذه المصارف هي معتمدهم الوحيد للاستدلال على العيون القديمة المطموسة كلما أرادوا إخراج عين جديدة .

والعيون الموجودة الآن مشيدة جميلة البناء .. البناء الذي يكون في أغلبها دوائر ترتفع عن الأرض بمقدار نصف متر . محيطاً بما يشبه بركة واسعة من الماء يتراوح قطر دائرتها بين

٣٠ الى ٦٠ قدماً . واذا ألقى الانسان عليها نظرة ، رأى ماءها الصافي ساجياً عند أطرافه ، أما في وسطه فتخرج فقاقيع من الزبد ، تطفو على وجهه ثم تتلاشى . وهذه الفقاقيع هي نهاية المـاء المتصاعد من قاعها البعيد كحبـات اللؤلؤ ترى عن بعد وهي صاعدة بألوانها الـكثيرة الفاتنة ، التي تحمل رائيها على أن ينسى نفسه معها برهـة غير قصيرة من الزمان . وتظل هذه الحبات اللؤلؤية متصاعدة في تعاقب ، حتى اذا ما وصلت الى السطح انسابت بين الماء ، على هيئة فوران خفيف . ومن العيون ما تشاهد فيها هذه الظاهرة شديدة وسريعة . حتى أن الماء ليبدو وكأنه في حالة غليان .

لذلك نجد أن الماء في سيوه كثير . ويزيد عن الحاجة ، حتى أنهم يتركونه يذهب سدًى الى الملاحات والبحيرات الـكثيرة الانتشار في أرجاء الواحة . ولقد كانت هذه العيون قد وصلت الى حالة لا ترضي من الاهمال . فأوفدت وزارة الأشغال في عام ١٩٣٤ « المهندس البارع محمد أفندي عمر » لاصلاح ما فسد واخراج ما يمكن اخراجه من العيون المطموسة فـكانت نتيجة ذلك أن خرجت عين « تجزرتي » وعين « الدكرور » تفيضان بماء غزير .

***

وتنقسم عيون الواحة ثلاثة أقسام وذلك من حيث الملـكية

١ — عيون مشتركة : وهي العيون التي يملـكها أكثر من واحد ، وينتفع أصحابها بمائها في ري زراعاتهم على السواء . ولهذه العيون نظام يتبع في توزيع الماء . إذ يوزع ماؤها بحساب « الوجبة » والوجبة : هي النهار فقط أو الليل فقط . إذ اليوم وجبتان — وتكثر وجبات العين وتقل على حسب اتساع مساحة الأراضي التي ترويها . وقوة تصريفها ، وتنقسم الوجبة ثماني أقسام ، ويسمى كل قسم « ثمناً » وتباع الملـكيات الزراعية بحساب أو على أساس « الثُّـمن المائي » ويساوي « الثمن » من ٢ الى ٢٤ جنيهاً . ويتوقف ارتفـاع الثّـمن أو انخفاضه على كمية الماء التي تنتجها العين اذا كانت قليلة أو كثيرة . وحالة ملاك العين المالية ، وما هم عليـه من غنى أو فقر ، فان كانوا أغنيـاء متوفرة عندهم القوة الشرائية ، ارتفع ثمن « الثُّـمن » فيها ، وبالعكس اذا كانوا فقراء .

وتقدر ثروة الرجل بمقدار ما يملـكه من ماء ، إذ على قدر الماء يستطيع أن يزرع ويجني الثمر (٧) .

ويقوم بتنظيم توزيع المياه في هذه العيون اثنان :

ا — مؤذّن المسجد العتيق : وعليه اعلان الوقت ليلاً . إذ يؤذن من مأذنة المسجد العتيق ، بعد نصف الليل بساعة ونصف الساعة . ويسمى هذا الإعلان « الثناء الأول »

وبلهجة أهل سيوة «تَسانَـوّل» وله صيغة مخصوصة . ذلك بأن يبدأ بقراءة آيات من القرآن ثم يختم بصوت منخفض مؤذناً « الله أكبر » .

وبعد ساعة ونصف من الثناء الأول يؤذن أذاناً ثانياً يسمونه « تادِهّـبْ » ومعناها أن وقت الثناء الأول قد ذهب . وأما صيغة هذا الآذان ، فهي أن يقول مبتدئاً « نسألك العفو والعافية ، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة » وهنا يترك الماء من هو ماض في الري، ويبدأ من عليـه الدور . ويعمل مؤذن المسجد العتيق بمنازل النجوم الى « تادهب » وبعد ذلك تسير المواعيد بطلوع الفجر ، وشروق الشمس الى أن يتسلم منه الرجل الموكول إليه التنظيم بالنهار .. !!

ب — الرّقّـابُ : وحقيقتها الرقيب ، وهذا يعمل نهاراً منذ شروق الشمس الى غروبها على « المزولة » وعلى كل من له موعد استلام ماء أن يذهب اليه في مكانه الذي اتخـذه عند خص «أبي عجاجة» ويخبره بموعده . فاذا ما حل أبلغ الرّقّـاب صاحب الموعد . وأبو عجاجة هذا رجل صاحب فضل وبركة ، قدم الى سـيوه فابتنى له كوخاً أمام المسجد العتيق وأقام به فتسمى المكان باسمه ، ويظهر أنه من جهة « عجاجي » بالقرب من سيدي براني .

ويأخذ كل من « مؤذن المسجد العتيق و « الرقاب » أجراً على ذلك يقدّر بأربعين صاعاً (٨) من القمح لـكل منهما . تصرف أو تجمع لهما من البـلد عموماً . وكانت فيما مضى تصرف من بيت المال من المتحصل من مزادات العاقول (٩)

﴿ تقدير الوجبات لكل عين ﴾ : علمنا مما سبق أنّ العيون جميعها ليست متساوية في عدد الوجبات ، وبإزاء ذلك نلمس أن نظام الوجبات تقديري في كل عين على حدة ، ولهم في ذلك طريقة خاصة يتبعونها في تقدير وجبات العين بعد اخراجها . ، ذلك بأن ينتدب أصحاب العين أميناً يرتضيه الجميع ليس من ملاكها ، غريباً عن حوضها ، ويكلون اليه أمر التقدير ، فيتولى هذا المندوب مراقبة الري الأصولي ، في جميع الأراضي الواقعة في حوض العين والتي ستروى منها فعلاً ويثبت في كشف بيده عدد الساعات التي تستغرقها أرض كل منهم في الري بالتوالي حتى اذا ما انتهت أراضي أصحاب العين جميعاً الذين أنفقوا في اخراجهـا كل على حسب ما يملـكه من الأرض (١٠) فالذي يملك كثيراً يدفع أكثر من الذي يملك أقل منه ، وهكذا حتى لا يكون في الأمر غبن على أحد .

ويعيد الأمين الري مرة أخرى ويثبت الأرقام ، ثم يعيد الري مرة ثالثة ويثبت الأرقام أيضاً ، ثم يأخذ المتوسط للريات الثلاث ، فيكون هذا المتوسط — لـكل مالك — هو ما يمتلـكه من حق في ماء العين ، وبعد ذلك يجتمع أصحاب العين ويحررون دفتراً بهذه

المواعيد والساعات، ويوقعون عليه ،فيصير بعد ذلك نافذ المفعول ، لا يمكن الخروج عليه أو الشذوذ عنه ..

ولو فرض أن العين روت الأراضي الواقعة في حوضها ، والتي يملكها مخرجوها في عشرة أيام فتكون وجباتها عشرين وجبة ، ويكون دور الري فيها كل عشرة أيام .!

ولكل عين « حسّاب » يرشد أصحابها لمواعيد الري التي تخصهم فيها ، وهؤلاء يذهبون الى « الرقاب » فيخبرونه بمواعيدهم ، حتى إذا ما حلت نبههم اليها ..

إذن فالرقاب واحد . وهو الذي يجلس في « خص أبي مجاجة » وأما الحسابون فهم كثيرون بعدد عيون الواحة ، فلكل عين « حساب » وبيد كل « حساب » كشف بمواعيد العين التي هو « حسّابها » ويأخذ الحساب أجراً على عمله هذا من أصحاب العين أنفسهم وهذا الأجر هو جزء من ماء العين فينتفع به ان كان يملك أرضاً في حوض العين ، أو يبيعه لأحد ملاك العين إن كان لا يملك أرضاً في حوضها الذي ترويه .

وأمثال هذه العيون : عين طموسي . والجوبة . وتلحرام !

***

وهناك عيون مشتركة لا تخضع لنظام « الحساب والرقاب » وإنما يوكل أمرها « لخفير الحطايا » (١١) يوزع الماء بالتوالي ، وأمثال هـذه العيون . أم شندد ، ودهيبة ، وبعض عيون خميسة والمراقي (١٢) وذلك لأن مواقعها تبعد عن البلد مسيرة ساعات فلا يتمكن صاحب الدور من أن يلحق به .!

٢ — عيون عامة : وهي التي لا يملكها أحد ، وللجميع حق الانتفاع بمائها ، بشرط ألاّ يستعمله أحد في الري ، إذ أنها تعتبر من المنافع العامة ، كعين (تابا) الواقعة خلف نادي الموظفين بسيوه .

٣ — عيون خاصة : وهي التي يملكها فرد أو عائلة، يروون منها زراعاتهم ، ولا يشاركهم فيها أحد ، كعين الزيتون التي كانت ملكاً للسادة السنوسية وقد اشترتها الحكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاكهم في الواحة ، وعين أبي شروف التي يملكها السادة المدنية ، وعين قريشت التي يملكها الأمير محمد عبد المنعم .

وتنقسم العيون أيضاً ثلاثة أقسام من حيث استعمالات الماء :

١ — عيون تستعمل للزراعة والشرب كطموسي وتلحرام

٢ — « لا تستعمل إلاّ للزراعة فقط لملوحة مائها كعين قريشت

٣ — عيون تستعمل للشرب فقط كعين « تاجا »

وتنقسم العيون غير ما تقدم ثلاثة أقسام من حيث الحالة الراهنة :

١ — عيون جارية : وهي التي تنتج ماء ينتفع به الأهلون

٢ — « جافة : وهي التي لا تزال موجودة ولكن ليس بها ماء

٣ — « مطموسة : وهي التي امحت ولا تزال آثارها تدل عليها

وتنقسم العيون عدا ذلك قسمين من حيث عذوبة الماء

١ — عيون عذبة

٢ — عيون مالحة . :

على أنّ ماء العيون العذبة في سيوة ، أقل عذوبة من ماء عيون الواحات الأخرى ، ولعلّ ذلك راجع الى أنها في صعودها الى سطح الأرض تخترق في طريقها الطبقات الملحية الثلاثية فتأخذ من أملاحها مقادير كبيرة . . وأهم الأملاح التي تحتويها هي الكلور وكلوريد الصوديوم بنسب كبيرة جدًّا .

وتنقسم العيون قسمين من حيث حرارة الماء :

١ — عيون باردة : وهي التي درجة حرارة مائها ١٥° سنتجراد فأقل كعين أم مغلى وغابة جويدى .

٢ — عيون حارة : وهي التي درجة حرارة مائها ٢٠° سنتجراد فأكثر كعين ملول والجوبة وطمومي على أن يكون ذلك في فصل الشتاء وقلّما تكون درجة حرارة الجو بين ٨°: ١٠° سنتجراد .

ويمكن تعليل اختلاف درجة الحرارة في ماء العيون ، باعتبار أن المياه ذات الحرارة المرتفعة تأتي من الطبقة المائية نفسها ، فتنفذ مباشرة وبسرعة صاعدة نحو سطح الأرض دون أن تمر في شقوق أرضية ، وبذا تكون محتفظة بدرجة حرارتها الأصلية ، أو تفقد شيئًا قليلاً منها . . أما المياه المنخفضة الحرارة فيمكن افتراض أنها بسبب نفوذها في تضاعيف نفس هذه الطبقات ، أثناء صعودها تفقد جزءًا من حرارتها الأصلية ، فتنخفض درجة هذه الحرارة .. ؟

ويلاحظ أن عيون سيوة لا يُعرف بالضبط مقدار ما تنتجه من الماء ، إذ لم يعمل لها ميزان تصريف ، على أن وزارة الأشغال قد قامت بجهرها وتطهيرها وبناء أغلبها ، ولكنها لم تقدر كمية الماء الناتج من كل منها . . !

(ب) قارة أم الصُّغَيِّر

وهي واحة صغيرة منعزلة يتصل منخفضها بمنخفض واحة سيوه من الغرب ، وبمنخفض القطارة من الشرق ، وتحتوي على عشر عيون ماؤها مملوء بالأملاح لدرجة يتعذر معها شربه ، ولا يوجد بين هذه العيون غير عين واحدة عذبة وهي « عين القطارة » التي يستقي منها سكان الواحة ، وعين أخرى أكثر معدنيـة منها تسمى « عين ياجا » ويلجأ اليها الكثيرون لجلب الماء للاستعمالات المنزلية لقربها من القرية إذ الأولى تبعد نحو العشرين دقيقة ، وحاملات الماء ضعاف يتعذر عليهن المسير هذه المسافة وهن يحملن أحمالاً ثقالاً .

وكل ما قيل في عيون سيوه يمكن أن يقال في عيون « قارة أم الصغير » ولكن مع التبسيط .. !!

(حـ) الواحات الخارجة

العيون والآبار . كثيرة الانتشار بالواحات الخارجة ، ولكنها مع كثرتها لا تفي بالغرض المطلوب ، ذلك لأن مساحة الأراضي القابلة للزراعة تزيد عن ٣٤٠٠٠٠ فداناً ويقع أغلبها في المنطقة الممتدة بين « بولاق » « وباريس » (١٣) في سهل خصيب لا يوازيه في خصبه غير الجزر النيلية على أن الحكومة آخذة في هذه السنوات الأخيرة في العمل على استعمار هذه المناطق زراعيًّا بإخراج عيون جديدة . وإذا لم يوقف هذا المشروع الجليل ستصبح الواحات الجنوبية غنية في مائها وثروتها الزراعية في وقت وجيز .

ومن طريف ما يذكر أن الأهلين عندما علموا أن الحكومة قد عقدت النية على استخراج عيون جديدة ، ولم يعد بينها وبين التنفيذ إلا اختيار مواقع هذه العيون . عندما علموا ذلك راحوا يتظلمون خوفاً من أن تؤثر هذه العيون الجديدة على ما تنتجه عيونهم القديمة من ماء .. وذلك قياساً على ما حدث في آبار (شركة استغلال مصر الغربية) التي تأسست في عام ١٩٠٥ بقصد استثمار مساحة كبيرة من الأرض الواقعة شمالي الواحات الخارجة ، وكان رأسمال هذه الشركة يقدر بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ جنيه مصري ، موزعاً على أسهم ، ولكي تتصل هذه الأراضي بوادي النيل ، مدت الشركة خطًّا حديديًّا ضيقاً ، بين الواحات الخارجة ومحطة المواصلة بوادي النيل وأطلقت على محطتها بالواحات اسم « الشركة » وهي أول محطة يقف عندها القطار بعد أن يقطع طريقاً يمتد في جوف الصحراء

هابطاً تارةً صاعداً طوراً .. مسافة ٢١٠ كيلومتراً ، ويلي محطة الشركة ، محطة « المحاريق » (١٤) ثم محطة الخارجة .. وهي آخر الخط . ولقد كان في النية مد هذا الخط الى الواحات الداخلة على نفقة السلطة العسكرية في عام ١٩١٩ . وسار العمل فيـه فعلاً الى نقطة الغراب التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً غربي مدينة الخارجة ، ولأمر ما توقف العمل عن إتمام مد الخط الى الداخلة .

وقد انحلت هذه الشركة في عام ١٩١٤ لنضوب مواردها المالية . فقد استنفد مد الخط الجديدي ، جزءًا كبيراً من رأس المال . وأُنفق جزء كبير آخر في شراء الأراضي والآلات الزراعية ، وحفر الآبار ، وضاع الباقي بين مرتبات الموظفين الضخمة التي كانوا يتقاضونها ، وكانوا جميعاً بين انجليز وأمريكان .

وعند ما انحلت الشركة استولت مصـلحة السكة الحديد الأميرية على الخط الحـديدي لموصل بين وادي النيـل والخارجة ، ونقلت اليـه القطارات والعربات التي كانت تعمل بين أسوان والشلال ولا يزال تحت إدارتها حتى الآن يؤدي خدماته الجليلة لسكان تلك البقاع النائية ، من نقل محصولاتهم وما يصدرونه من منتجاتهم الى استيراد ما يحتاجون إليه من وادي النيل .. !!

ولقد كانت مساحة الأراضي الموضوعة تحت تصرف الشركة كبيرة جدًّا إلاَّ أن المساحة القابلة للزراعة كانت أول الأمر لا تزيد عن الألفين وخمسماية فدان ، ويزرع بها بنوع خاص القمح والشعير والقطن والفول ، وقصب السكر وغيرها من محاصيل الاستغلال .

أما الآبار التي حفرتها الشركة ، وكانت حافزاً لوقوف الأهالي في وجه الحـكومة عند ما بدأت تحفر العيون الجديدة . فقد كان التداخل بين مياهها ظاهراً بشكل واضح . إذ أن البئر رقم (٦) التي كان معدل تصريف مائها سبعة قراريط (١٥) عند حفرها ، قد انقطع ماؤها عن السيلان . عندما حفرت البئر رقم (٥) وكذلك البئر رقم (٨) كان مقدار الماء المتصرف منها كبيراً إلاَّ أنه تحوَّل للبئر رقم (١٣) عند حفرها .. وهذه الأخيرة فقدت جزءًا كبيراً من مائها عند حفر البئر رقم (٣٩) وكذلك الحال في البئرين رقم (٣٧ و ٣٨) فقد قلَّ تصريفهما عند حفر البئر رقم (٥١) التي كان تصريفها يقدر بثمانية قراريط . !

وقف الأهالي بما تعوَّدوه من دل على الحـكومة أمام هـذا المشروع ، وإنَّ لأهالي الحدود لدلاً على الحـكومة غريباً حقًّـا .. ولـكن المهندس الأمريكي الذي نيط به الأمر . استطاع أن يطمئنهم ، إذ أكد لهم أن المسـتوى المائي الذي سيخرج منه ماء العيون التي سيحفرها لا يتصل بمسـتوى ماء عيونهم القديمة في شيء .. وحقيقةً فقد استخرج العين

الأولى على مستوى ١٦٠٠ قدم . بينما الأهالي يستخرجون عيونهم على بعد ٦٠٠ قدم فقط وذلك بإنزال ماسورة الحفر الى أسفنجة مائيـة على عمق أبعد من الأسفنجة المائية التي يحفر عليها الأهلون .. !!

ولقد تدفقت مياه « عين الفاروقيـة » التي استخرجت بجوار محطة سكة حديد مدينة الخارجة ، حتى أنها وازت أقوى العيون القديمـة إذ بلغ تصريفها ٤٨ قيراطاً .. وإن الماء لينحدر من فوهتها كالشلال له دوي وله زبد .. وجريانه شديد الاندفاع . حتى أنه ليبعث الروعة في النفس الى حدٍّ كبير .. !!

ومما هو جدير بالملاحظة أن ماء هذه العين يحتوي على بعض الأملاح والأحماض التي تساعد على الهضم بشكل ظاهر ، حتى أنَّ الأهلين الفقراء لا يحاولون الشرب منها خوفاً من أن تعمل مياهها على هضم الـكتلة الغذائيـة سريعاً فيهاجمهم الجوع ، وتكون النتيجة أن تتعدَّد الأكلات اليومية ، وهذا مما لا يستطيعونه . . ولقد تنبهت وزارة الصحة الى قيمة هـذا الماء . فرفعت نبأه الى الأعتاب الملـكية ، وكانت النتيجة أن أعجب به جلالة الملك فاروق الأول ، وأمر جلالته أن يؤتى له بمقدار منه كل أسبوع بقصد استعماله في الشرب ، فـكلفت مصلحة الحدود ، جاويشاً من رجال الهجانة بالذهاب كل أسبوع الى الواحات الخارجة بالقطار ومعه صندوق به زجاجة كبيرة ، تملأ بواسطة وبحضور الدكتور والمحافظ من فوهة العين مباشرة ، وتختم بخاتم المحافظة ، وترسل برفقـة الجاويش المذكور الى السراي الملـكية . من هذا يتبين لنا ما لهذا الماء من قيمة ، وتأثير حسن على الصحة .

حفر العيون

يتبع في حفر العيون طريقتان : (١) الطريقة القديمة (٢) الطريقة الحديثة

١ — أما الطريقة القديمة فهي التي يتبعها الأهالي ، عند ما يقومون بحفر عين أو بئر وهي طريقة عتيقة ومملة ، إذ أنهم في بعض الأحيان يستغرقون من الوقت سنة كاملة أو أكثر في حفر بئر واحدة ، ملاقين في سبيلها صعاباً جمة ، ويرجع ذلك الى رداءة الآلات التي تستخدم في الحفر ، إذ أنها بطيئة ، تعتمد في كل شيء على قوى سواعد الرجال . وكثيراً ما يصيبها العطب أثناء العمل ، فيأخذون وقتاً طويلاً في إصلاحها . زد على ذلك قلة الأيدي العاملة التي لها دراية بحفر الآبار ، على أن الطريقة المتبعة عند الشروع في حفر عين أو بئر هي أن يجتمع من عقدوا النية على ذلك . ويتفقوا على شروط فيما بينهم ، تبين هذه الشروط حق كل منهم في العين بعـد خروجها ، وما عليه أداؤه أثنـاء الحفر ، على أن أهم شرط

بينها هو أن كل عامل يشترك في حفر العين أو البئر يصبح مالكاً فعلياً لجزء منها ، وجزء من الأراضي التي ترويها » ومنهم من يشترك في الحفر بماله ، ومنهم من يشترك بساعده . . فاذا فُرض أن من اشتغلوا في إخراج العين أو البئر كان عددهم مائة بين منفق مال وعامل بساعده ، فتكون النتيجة أن يكون نصيب الواحد منهم جزء من مائة جزء .

واذا ما اتفقوا على هذه الشروط جميعاً بدأوا في العمل . وهناك بعض من ثراة الواحات ينفقون على حفر آبارهم من مالهم الخاص حتى إذا ما خرجت صارت ملكاً خالصاً لهم . وهناك بعض آخر اتخذ حفر الآبار وبيعها تجارة ، إذ يحفرون البئر ثم يبيعونها بعد خروج مائها ويربحون فيها .

* * *

أما طريقة الحفر ، فتبدأ بأنهم يحفرون حفرة مربعة مساحتها متراً مربعاً ، وعمقها خمسة أو ستة أقدام . وتبطن جوانب هذه الحفرة بجزوع النخيل المشقوقة ، كي لا تسقط هذه الجوانب على القائمين بالحفر ، ويستمرون بعد ذلك في الحفر والتبطين على هـذا المنوال الى أن يصلوا طبقة لينة . عند ذلك يكون القاع شبه عجينة ، فتسوى هذه الطبقة (بمسطرين) ويضعون فوقها (صندوقاً) — كما يسمونه — وهذا الصندوق مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٢٢ بوصة ، وارتفاعه يتراوح بين ٦ و ٨ بوصات . وليس لهذا الصندوق قاع ولا غطاء . ويوضع على السطح الذي سبق أن سوى (بالمسطرين) على أن يكون وضعه في وسطه تماماً ، وبدون أي ميـل . ثم يملأ الفراغ الموجود حول الصندوق بالمونة والحصى حتى اذا ما وصلت (الدكة) الى الحافة العليا للصندوق ، وضعوا فوقه صندوقاً آخر مماثلاً له ودُكّ حوله كما صُنع بالصندوق الأول .. وهكذا يضع الصناع صندوقاً فوق صندوق حتى يصلوا الى حافة الحفرة وبعد ذلك يؤتى بمنقاب قطره تسع بوصات يسمى (الآيسون) ويبدأ في حفر ثقب في الأرض عمقه من ٤٠ : ٥٠ قدماً — كما يتراءى لرئيس العمل — وفي نفس الوقت تكون هناك (ماسورة) من سيقان النخيل أو الدوم ، قد فُرّغت ، وقطرها الداخلي ثمان بوصات ، والخارجي تسع بوصات ، تكون قد أعدّت لتغرس في الثقب الى آخره ، فاذا لم يصلوا الى حجر الماء استعملوا منقاباً آخر قطره ثمان بوصات ، يثقبون به الأرض إلى عمق ٤٠ قدماً أخرى ثم تغرس به (ماسورة) ثانية أقل بوصة في قطرها من سابقتها ، حتى يمكنها المرور في داخلها .. وهكذا الى أن يصلوا إلى حجر الماء .. !!

وعند الوصول إلى حجر المـاء الذي يتكوّن مادة من « الكوارتز » الذي يسهل ثقبه بواسطة منقاب خاص ، غير الذي تقدم ذكره . . فإذا ما اختُرق ، اندفع الماء من ورائه

فوّاراً إلى سطح الأرض .. وهـذا الحجر هو الحائل بين الأسفنجة المائيـة وما فوقه من طبقات .. !!

وبعد تفجر الماء تقدر كمية المياه الناتجة من البئر أو العين ليمكن معرفة كم قيراطاً تنتج حتى يتسنى معرفة كم فداناً يروي ماؤها .. وكم تستحق الحكومة ضريبة عنها .. إذ الضريبة تُدفع عن المـاء ، لا عن الأرض . وذلك بحساب القيراط المائي خمسين قرشاً . . أما القيراط فهو عبارة عن كمية الماء التي تكفي لري خمسة أفدنة في فصل الشتاء ، وأربعة أفدنة في فصل الصيف .. هذا إذا كان تصريف العين غزيراً ، إذ الماء يتدافع قويّاً فيساعد على سرعة الري. أما إذا كان تصريف العين قليلاً وضعيفاً فإن سرعة الماء لا تقوى إلاّ على ري أربعة أفدنة شتاءً وثلاثة في الصيف .

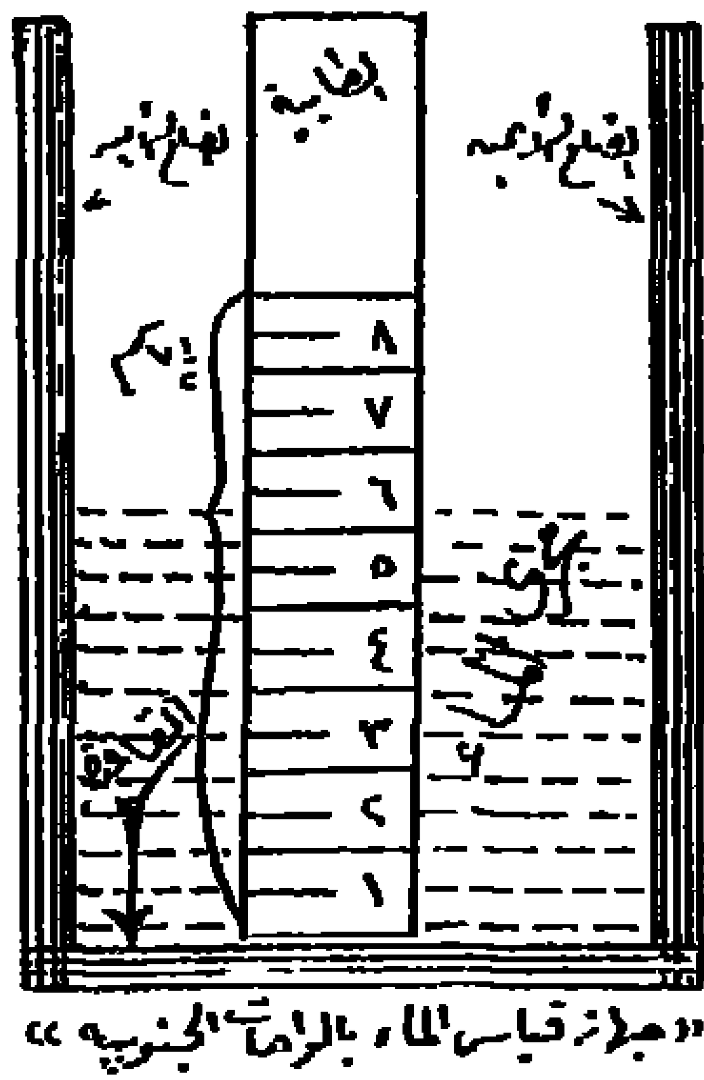
ويقوم بعملية القيـاس ، رجل يدعى (رّيس الدواليب) معترف به من الحكومة ، وحكمه نافذ على أي عين . . وتنحصر عملية القياس في أن يضعوا في غدير العين وهو جارٍ فكّاً من الخشب له قاعدة وجانبان . ويوضع بحيث تكون القاعدة ملاصقة لقاع الغدير بحال لا تسمح بمرور الماء إلاّ من فوقها ثم يمنع مرور الماء بين حافتي الغدير والضلعين الجانبيين للفك ، ويترك الماء يمر من الفك حتى يأخذ سيره الطبيعي . ثم يؤتى بمسطرة مقسمة إلى ثمانية أقسام متساوية مجموعها $٧\frac{١}{٢}$ سنتيمتراً تسمى (الطابية) وتبلل الطابية وتدفن في التراب بضع دقائق وبعد ذلك تؤخذ وتوضع عمودية على قاع الفك تماماً . وهنا يمسح الماء الجاري ما عاق بالجزء المغمور به — من الطابية — من تراب ، فيكون هذا الجزء هو ارتفاع الماء .. !!

أما الارتفاع فثابت لا يتغير ، وأما الجانبان فلا أساس لها في القياس إلاّ لضبط التصريف ، وأما القاعدة فعبـارة عن الارتفاع مكرراً يطوّل ويقصّر على حسب غزارة التصريف ، فإن كان التصريف غزيراً تباعد الجانبان ، وذلك بتضعيف قيمة الارتفاع في القاعدة ، وبالعكس إذا كان التصريف قليلاً .. وبذلك تكون العملية كالآتي :

$$\text{القيراط} = \frac{\text{القاعدة} \times \text{الارتفاع}}{٨} = \text{تصريف العين وعدد ما تنتجه من القراريط المائية .!}$$

مثال ذلك : نرمز أولاً للارتفاع بحرف « ا » وللقـاعدة بحرف « ق » ونفترض ان الماء وصل في (ا) إلى الخط السادس ، وأن القاعدة (ق) تساوي (ا) خمس مرات فتكون قوة ماء العين هي :

$$\frac{\text{ا ٦، × ق ٥}}{\text{٨ (رقم ثابت وهو أقسام ا كلها)}} = \frac{٣٠}{٨} = ٣\frac{٣}{٤} \text{ قيراط .. !!}$$



«جهاز قياس الماء بالزمامة الجنوبية»

ولكن هذه الطريقة في تقدير تصريف العيون ناقصة إذ يتحتم لكي يمكن ضبطها أن نعرف السرعة لتيار الماء المراد قياسه ، فبعض العيون قوي التصريف ، سريع الجريان ، فلا يمكن أن تكون هذه العيون التي هذه حالها كتلك البطيئة . ولقد أرى أن الماء البطيء يتراكم ويعلو أكثر من السريع هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان « ريس الدواليب » (١٥ م) غفر الله له . يستعمل في القياس طريقة خطأ أيضاً . إذ يحبس ماء العين في المجرى وقتاً حتى يرتفع مستواه ثم يبدأ القياس ، فينتج عن هذا أن يكثر عدد القراريط في حين أن ماء العين قليل ، ولا يتبع الريس هذه الطريقة العقيمة ، إلا إذا كان أصحاب العين ليس في « عينهم نظر » فلم يتحفوه بشيء لحسابه الخاص ، وأما اذا أعطوه ما يجود به الخيرون . فان الغدير يحفر مجراه حتى ينحدر ماؤه ويرق ، ثم تجري عملية القياس . . . وتكون النتيجة بالعكس ، ويتبع ذلك قلة الضريبة التي تدفع عن ماء العين للحكومة .

٢ — ﴿الطريقة الحديثة﴾ وتجري بالماكينات البخارية ، وذلك بانزال (ماسورة) قاعدتها حلزونية حادة تغوص في الأرض بقوة الماكينة ، وهذه الاسطوانة الحلزونية القاعدة هي الآلة الثاقبة ، وقطرها حوالي خمسة عشر بوصة ، وبعد أن تغوص هذه الآلة الثاقبة في الأرض بمقدار وصلة من الأنابيب التي ستمد في جوف الأرض مكان الطين الذي خلا جوف الاسطوانة الثاقبة منه يُنزلون الماسورة ثم يتبعون أنبوبة بأخرى ، حتى يصلوا الى الأسفنجة المائية . وكلما تعمقت آلة الحفر في الأرض صبوا الماء في داخلها لكي يجعل القشرة الأرضية أكثر ليونة تحت من الآلة الثاقبة ، وهكذا الى أن يصل الحفر الى الطبقة المائية ، وقد تستغرق هذه العملية حوالي ثلاثة أشهر أو أكثر حسب قرب الماء أو بعده . ويكلف حفر البئر أو العين ٣٠٠ جنيه مصري .

ولقد أنشئت عيون كثيرة بهذه الطريقة ، وانتفع بها الأهلون انتفاعاً كبيراً . وفيها عين الفاروقية بالخارجة . وقد بدأت مصلحة الميكانيكا والكهرباء في العمل بهذه الطريقة بالواحات الخارجة في عام ١٩٣٨ وأخرجت عين الفاروقية على عمق ١٥٥٣ قدماً وبلغ تصريفها ٤٣٠ جالوناً في الدقيقة ، وسمك الطبقة الأسفنجية التي بها الماء ٢٠ قدماً وبلغت نفقات حفرها ٩٥٠ جنيهاً . . ومما هو جدير بالذكر أن هذه العيون الجديدة قد لا تعمر طويلاً

إذأن المواسير الحديدية التي ينزلونها في جوف الأرض . لا تلبث أن يعلوها الصدأ ، فتتآكل ، وتصير غير صالحة لصيانة الماء من أن يتوزع في الطبقات الأرضية التي يمر فيها. وبذلك تضيع الفائدة التي حفرت من أجلها ، ويذهب التعب والنفقات التي أنفقت في سبيلها سدًى ، ولو أنهم جعلوا بدلاً من هذه (المواسير) الحديدية ، أخرى من خشب الدوم ، الذي يكثر في الواحات الخارجة ، ويستعمل في العيون القديمة لهذا الغرض نفسه ، ومنذ مئات السنين ، لكان أضمن لنجاح هذا المشروع العظيم ، ذلك لأنّ خشب الدوم لا يؤثر فيه أي عامل طبيعي ، فيبقى على مر العصور مصارعاً الزمن والتلف والتآكل .. أما وهم يستعملون (المواسير) الحديدية ، فإنه يُخشى على المشروع من أن ينهار من أوله وإن كان ولا بدّ من استعمال الحديد فليُطلى بالقار .

وللماء حسابان : حساب الحكومة للأهالي .. وحساب الأهالي لبعضهم

١ — أما حساب الحكومة للأهالي فبالقيراط ، والقيراط ٢٤ سهماً ويدفع عنه ضريبة قدرها ٥٠ قرشاً سنويًا .

٢ — وأما حساب الأهالي لبعضهم فبالوجبة .. والوجبة تساوي إثنى عشر ساعة .. وهي أربعة وعشرون سهماً .. وعادةً يباع السهم المائي بمبلغ يتراوح بين ٢ : ٤ جنيهات حسب كثرة قراريط الماء التي تنتجها العين ، وحالة مالكيها المالية .

ولضبط الوقت لإمكان معرفة مواعيد الري لكل مالك في العين يستعملون لذلك ساعات رومانية قديمة تسمى الساعات الرملية (١٦) . وأهم العيون بالواحة هي :

١ — عين الفاروقية : وقد سبق الكلام عنها ..

٢ — عين الشيخ : وهي نبع عظيم يرتفع الى أكثر من مترين ونصف متر عن مستوى سطح الأرض المحيطة بها ، ويجري جدولها المرتفع بين ظلال النخيل الى الحدائق الغناء التي يرويها .. وينحدر من هذا المجرى شلال صغير له روعة وجمال بخريره الدائم ، وماؤه الصافي النمير يأخذ طريقه الى مصارف وزارة الصحة ليغذيها بمائه حتى لا تموت — بسبب الجفاف — الأسماك التي تربيها الصحة في هذه المصارف بالواحات جميعاً لإبادة بعوض الملاريا اذ أنها تتغذى على بيضه ويرقاته ، وترسل هذه الأسماك الى الواحات بالطائرات بين حين وآخر . وقد بلغت في بعض العيون أحجاماً كبيرة حتى أن الإيطاليين إبان إحتلالهم لسيوه كانوا يصيدونها ليأكلوها . ومن أهم صفات هذه الأسماك أنها عمياء لا تبصر .

٣ — عين القلعة : وهي عين أكبر من عين الشيخ قليلاً يجري ماؤها في قنوات ثلاث ، اثنتان خصوصيتان وواحدة عامة. أما الخصوصيتان فهما مملوكتان لعائلتين بالواحة ،

وأما العامة فلكاً للأهالي . يروون منها نخيلهم وحدائقهم وبعض حقول الأرز .

٤ — عين الرمَّاح : وتعتبر أهم عين في ناحية باريس . وكانت في بادىء الأمر عيناً صغيرة ، تصريفها لا يتعدى الخمسة قراريط . ولكن الأهالي اجتمعوا وبدءوا في جهرها وحفرها من جديد .. وبينما هم يحفرون وهم مطمئنين الى أن الماء لا يزال بعيداً ، فاذا الماء يفور ، ويقذف بالآلات المستعملة في الحفر ، في وجه الحفارين ، وكان في تدفقه كالسيل الجارف .. وكبّر الرجال وهللوا .. ثم حفروا لها المجرى ، وبقياسها وجد أن تصريفها أكثر من سبعين قيراطاً .. ثم أخذ يتناقص حتى بلغ الخمسين قيراطاً .. !!

وتقع هذه العين في سهل فسيح بين غردين من الرمال ، وتبلغ مساحة السهل حوالي ٤٠٠ فدان .. لا تزرع جميعها ، على أن المزروع يغل غلة وافرة .. وحوض العين مختلف في مناسيب الارتفاع ، فبينما نجد أرضاً ارتفاعها متراً ، نجد أخرى أقل منها ، وثالثة أعلا من الأولى .. وينحدر الماء الى جميع الطبقات فيرويها (بالراحة) وهذه البقعة من الأرض في حاجة الى إصلاح ، حتى يمكن استغلالها على الوجه الأكمل..

٥ — عين دخاخين : وينحدر ماؤها من أعلا الجبل على شكل شلالات متعاقبة على منحدر الجبل الذي تغطيه أشجار النخيل والسنط والبرتقال والعنب والليمون في شكل مدرج وكأنما هي غابة من غابات خط الاستواء الغزيرة النبت ..

وأخذني العجب بمنظرها الخلاب والشمس مائلة من وراء الأغصان ترسل بأشعتها التي تلطف من حرارتها ظلال الأشجار الباسقة والماء المتكسر فوق الصخور والأحجار .. حقاً..إنه لمنظر ساحر يحمل النفس الى عوالم غاية في الروعة والجمال ..!

ويبلغ عدد العيون والآبار بالواحات الخارجة ٢١٤ عيناً وبئراً طمرت منها إحدى عشر والباقية جارية .. تنتج ٨٢٤ قيراطاً من الماء موزعة كالآتي :

البلد	عدد العيون	الجاري منها	المطمور	عدد القراريط	أقل عمق	أبعد عمق	ملاحظات
الخارجة	٩٣	٨٦	٧	٤٢٣	٢٠ قدماً	٧٨٠ قدماً	ويلاحظ أن عدد قراريط
المحاريق	٢٨	٢٧	١	٧٠	« ١٩٠	« ٩٠٠	الماء المذكور بهذا الجدول
جناح	٠٩	٠٩	—	٣٦	« ٠٤٠	« ٥٠٧	هو مقدار الماء
بولاق	٣٥	٣٢	٣	١٢٣	« ٨٠	« ١٠٠٠	الذي ينتفع به
باريس	٤٩	٤٩	—	١٧٢	« ٠٥	« ٦٠٠	الاهالي فقط.

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان أقل بلاد الواحات الخارجة ماءً ، هي قرية جناح ، ولذا فإنك ترى الفقر ظاهراً على أهليهـا ، والكآبة تظللها بظل أقتم .. ويرجع السبب في هـذا لكسل الأهلين واهمالهم عيونهم وتقاعدهم عن القيام بجهرها وعدم دأبهم على المحافظة عليها .. بل يتركونها نهباً لسافيات الرمال تعبث بها فتسد مجاريها منصرفين عنها بالهجرة الى القاهرة وسوف لا يمضي زمن طويل حتى تصير هذه البلدة أثراً بعد عين اذا لم يتداركها الله برحمته

(د) الواحات الداخلة

... والماء دائماً مشكلة المشاكل في الصحراء وخصوصاً في الواحات الداخلة فلا تقوم المداوة بين فردٍ وفرد ، إلاّ من أجل الماء ، ولا تحقد بلد على أخرى ، إلاّ لأن هـذه منخفضة المستوى عنها ، وعيونها تسحب ماء عيونها .. وكما سبق أن بينا على قدر الماء الذي يملكه الأفراد تقدر ثرواتهم :

والعيون تكثر بالواحات الداخلة وتنقسم ثلاثة أقسام .

١ — عيون جارية : وهي التي ينساب الماء منها الى الزراعات فيرويها بغير آلات رافعة

٢ — عيون غير جارية : وهي التي يرفع ماؤها بالسواقي .

٣ — عيون مطمورة : وهي التي جفت وردمت . ولـكن أصحابها لا يزالون يدعون ملـكيتها ، ويؤدون عنها حصيلة الحـكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين قرشاً .. يقودهم في ذلك الأمل الى أنهم ربما يستطيعون إخراجها في المستقبل ، ولـكن أهالي البلاد جميعاً يقف بعضهم لبعض بالمرصاد ، فاذا ما أراد أحد إخراج عين طمرت ، ضجّ الآخرون بالشكوى ، لولاة الأمور في مصلحة الحدود ، مدعين أن فلاناً سيخرج العين الفلانيـة ، وهـذه العين خطر على العيون الأخرى ، لأنها تقع في مستوى أقل من مسـتواها ، وأنها ستسحب ماءها بلا ريب ، وتقوم مصلحة الحدود بدورها فتمنع البادىء في الحفر من إتمام عمله .. حتى ضاقت بهم الحال . وبرمت مصلحة الحدود بكثرة شكاواهم . . وأخيراً فكرت الحـكومة في اخراج عيون جديدة ليست ملـكاً لأحد ، فاذا بهم ينهجون نهج أهل الواحات الخارجة ، في محاولة إيقاف العمل ، بنفس الحجة التي دائماً يتخذونها ذريعـة لمنع الخير عن بعضهم البعض .. إلاّ أن شكوى الشاكين لم تلق اهتماماً ، وبدىء بالعـمل فعلاً في البلاد القليلة المـاء أولاً ، نخرجت عين الفاروقية (بموط) (١٧) وقد بدأ العمل فيهـا في أوائل اكتوبر سنة ١٩٤٠ باشراف المهندس المصري (محمد افندي يوسف طويلة) واستغرق الحفر ثلاثة أشهر ... تفجرت بعدها العين بماء غزير . إذ بلغ تصريفهـا في الدقيقة ١٢٨٠ جالوناً

من المـاء من (ماسورة) قطرها عشر بوصات ، وبلغت نفقات الحفر ٥٠٠ جنيه مصري تقريباً . أما عمقها فبلغ ٧٦٤ قدماً . وهاك قطاعات للطبقات الأرضية التي صادفها المهندس أثناء الحفر :

قدم	سمك الطبقة بالقدم	نوعها	البعد عن سطح الارض بالقدم
٧٦٤	٨٣ قدم	طين أحمر	
	٢٧٠	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأسفنجة المائية الأولى التي يحفر عليها الأهالي لاخراج آبارهم بطريقتهم وتبعد عن سطح الأرض ٨٣ قدماً
	٢٠٥	طين أزرق	٣٥٣ قدماً
	٢٠٦	طبقات رملية مختلفة	وهذه هي الأسفنجة المائية الثانية التي تحفر الحكومة عليها في الواحات الداخلة . وتبعد عن سطح الأرض ٥٥٨ قدماً

وجملة العمق الذي وصلوا اليه ٧٦٤ قدماً

وعند ما تفجر ماء العين قامت مصلحة الحدود بتوزيعه على المستحقين الذين لا يملكون ماء ، أو يملكون ماء قليلاً . واحتفظت لنفسها بالنصف من ماء العين ، على أن تفرض عليهم ايجاراً للماء الذي أعطتهم إياه بعد ثلاثة أعوام ... !

وبعد الانتهاء من فاروقية موط ، أخذت الماكينة تنتقل بين البلدان الأخرى مبتدئة دائماً بالبلدان القليلة الماء ، ثم التي أحسن حالاً منها وهكذا . . وكانت النتيجة ان خرجت في القلمون عين لا تقل عن فاروقية موط في تصريفها ، وبذلك أنقذ القضاء أهل القلمون من شيئين :

الأول : طول المسافة التي يقطعونها لاجتلاب ماء الشرب إذ أن ماء العيون المحيطة بالبلدة والقريبة منها مرّ وبه مادة حديدية قوية جداً حتى أنه إذا وضع قليل منه على الشاي اسود لونه وصار قاتماً .. وهذا يستعمل في المنازل للضروريات .

والأمر الثاني : هو أن الأطفال ينحدرون الى مجاري هـذه العيون فيستحمون فيها ، وتؤثر المياه الحديدية على عيونهم فتصير نصف مقفلة كالعوراء وما هي بعوراء (فرد كريمه)

أما وقد تفجر الماء العذب حول القرية فقد تخلص الأهالي من هذين الأمرين .

وخرجت عيون أخرى بالجديدة وبدخلو ، ولا يزال العمل مستمراً .. !!

وتحاسب الحكومة الأهالي على الماء كالخازجة .. ويحاسب الأهالي بعضهم بعضاً .. بالأميلة .. والأميلة = ١٢ ساعة وتساوي أيضاً ٣٠ قدماً وتساوي أيضاً ٦٠ حبة كبيرة وتساوي ١٢٠ حبة صغيرة ومقدار الحبة الصغيرة ست دقائق .. ويستعملون لضبط الوقت في توزيع الماء ساعات مائية (١٨)

ويؤخذ من كشوف الحصر الذي أجري على قراريط الماء بالواحات الداخلة عام ١٩٠١ أن بلاد الواحات الداخلة كانت تجري عيونها وينابيعها بحوالي ٢٤٨٢ قيراطاً من الماء يزرع عليها مساحة ١٢٤١٠ فداناً ، وكان الأهالي قليلين ، وأما الآن وقد صار عددهم يربو على العشرين ألفاً فان ماءهم نقص الى ١٨٧٢ قيراطاً .. وتبع نقص الماء ، نقص في المساحة المزروعة إذ بلغت ٩٣٦٠ فداناً مما أدى الى سوء الحال وضياع بعض الزراعات التي كانت تغل غلة وافرة . ولنضرب مثلاً على ذلك ما ترتب على جفاف عين الرحمة بالراشدة ، وكانت تنتج واحداً وعشرين قيراطاً ، وصارت بعد جهد جهيد لا تنتج غير ثلاثة قراريط .. وسُمِّيَت بئر الرحمة ، وبجفافها مات من الأشجار ٤٠٠٠ نخلة .. و ٥٠٠٠ شجرة مشمش و ١٠٠ زيتونة و ٥٠٠٠ شجرة برتقال . ولو فرض لكل نخلة عشرة قروش كغلة في العام ولكل شجرة مشمش مثلها ، ولكل زيتونة عشرين قرشاً ولكل شجرة برتقال عشرة قروش أيضاً لكانت الخسارة التي تكبدها أهالي هذه القرية :

$$٤٠٠٠ \times ١٠ + ٥٠٠٠ \times ١٠ + ١٠٠ \times ٢٠ + ٥٠٠٠ \times ١٠ = ١٤٢٠٠٠$$

قرش في العام عدا ما كانت تنتجه أراضي العين من محاصيل القمح والأرز .

على أن الأمل قوي في أن مشروع الماء الجديد سيعيد الى البلاد ما كانت عليه من عز ورفاهية . ومن الغريب الذي يلاحظ ان الماء قل ولا يزال الأهلون يؤدون عنه الضريبة كما ربطت في عام ١٩٠١ والعيون بعضها غاض ماؤه من زمان بعيد . .

وماء عيون الواحات الداخلة مرتفع الحرارة .. وتبدو هذه الظاهرة بوضوح في آبار الشمال أكثر من آبار الجنوب ، ذلك لأن درجة حرارة البلدان الشمالية مرتفعة جداً إذ تبلغ في بئر « الدينارية » مثلاً (٤٠°) سنتجراد وهذه البئر عمقها ١٤٤ متراً . أما بئر العمدة المشهورة في قصر الداخلة فتبلغ حرارة مائها أيضاً (٤٠°) أما البئر الحامية فكان ماؤها يُنضج البيض إذا وُضِعَ فيه بضع دقائق وذلك منذ سبعين عاماً كما يقول بعض المعمرين في الداخلة .

وقد ذكر (بندل) أنه من الصعب معرفة الأسباب التي يعلل بها ارتفاع درجة حرارة مياه آبار الواحات الداخلة ، لأنه لا يمكن تعليلهـا بارتفاع حرارة الصحراء . . مع مراعاة العمق المائل للطبقة المائية التي يأتي منها الماء . . ولا يمكن أيضاً تعليلها بالحرارة التي تتولد من احتكاك قطع الصخور المتحركة لأنه لا يوجد هنـاك ما يحمل على الاعتقاد بأن محركاً كهذا يحدث في هذا الجزء من صحراء ليبيا .

ولـكن يمكن أن يُستنتج أن ارتفاع حرارة مياه هذه الآبار إنما يُعزى الى سبب واحد وهو كثرة العمق الذي تأتي منه هذه المياه ، وأنها إنما بلغت هذا العمق في باطن الأرض أثناء مرورها فيه ابتداءً من المنطقة التي بدأت منها ، الى المكان الذي خرجت فيه بالواحات الداخلة

وذكر (أولومبيادور) أن أهالي الواحات الداخلة كانوا مشهورين بحذقهم في حفر الآبار إلاّ أنهم في خلال غزو العرب أهملوا أمر حفرها فانطمر أغلبهـا ، وبطلت زراعة مساحات كبيرة من الأرض . .

ومن أجمل العيون بالواحات الداخلة العين الموجودة باستراحة عمدة « الهنداو » فانها جميلة مستطيلة صافية يجري غديرها في حديقة منظمة تظلله أشجار الموز والمنجو .. وحولها يقع منحل وزارة الزراعة الذي يغل غلة وافرة .

والماء يخرج فواراً في شكل يلذ للعين أن ترقبه ، دون أن يعتريها الملال ..

ومما يكثر ترديده على السمع في الواحات الداخلة (آبار ميهوب) وهي عبارة عن مجموعة آبار ، مكونة من إحدى عشر بئراً حفرت حوالي عام ١٨٨٥ بواسطة « الشيخ محمد ميهوب » تلميذ السنوسي الكبير ، الذي كلف من قبله بنشر الدعوة للمذهب السنوسي الذي يسيطر على صحراء ليبيـا ، بين برقة وطرابلس ومصر .. وتقع هـذه الآبار في أرض منخفضة المستوى ، لذا فهي تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد اشترتها الحـكومة أخيراً بين ما اشترته من أملاك السنوسية في صحراء مصر الغربية ..!!

(هـ) الواحات البحرية

وتعتبر الواحات البحرية ، أقل الواحات الغربية ماءً ، ذلك بالنسبة لسعة الأراضي التي يجب أن تزرع ، والقابلة للزراعة ، لـكي تفي بحاجة الأهلين الـكثيري العدد ، إذ يزيد عدد السكان عن الستة آلاف نسمة ، ويرجع السبب في قلة الماء هكذا الى أن الأهلين لا يحاولون استخراج عيون جديدة إلاّ نادراً ، وذلك لضعف بنيتهم ، وعدم قدرتهم على الكفاح ولقلة ذات اليد . ولما يوصفون به من الكسل والتواكل في أغلب الأحيان . وهم لا يقومون

بتنظيف عيونهم إلا نادراً . هـذا من ناحية الأهلين . وأما من ناحية الحكومة . فان الواحات جميعاً قد غمرت برعاية الحكومة إلا الواحات البحرية، فانها لم تنل غير عطف المغفور له الأمير عمر طوسون باشا فقد كان كثير الحدب عليهم ، والرأفة بهم ، فكم قام بالرحلات على نفقته الخاصة ، لكي يوزع عليهم الهدايا والصدقات . ولقد أهدى اليهم أكثر من دولاب لحفر العيون ، وأثمر استعمال هذه الآلات بشكل ظاهر . ولقد فقد أهل الواحات البحرية بفقد سموه أكبر نصير لهم عطوف عليهم .!

والمنتظر أن تنتقل ماكينات الحفر الى الواحات البحرية بعد الانتهاء من الداخلة والخارجة.

وأغلب العيون الموجودة بالواحات البحرية تنبع من سفوح الجبال ، وينحصر ماء العين في قنوات تسير تحت الارض بانحدار قليل نحو الوديان التي توزع عليها ، ولقد جعلت عليها – على القنوات – فتحات عمودية . على مسافات قصيرة . كمساقط لتسهيل تنظيفها في أقبيتها والمحافظة عليها والعناية بها .. وهذه الفتحات مستطيلة ، منحوتة في الصخر ، ولها درجات منقورة في كل ناحية ليسهل النزول اليها وقت اللزوم .. !!

ولقد صُنِعَتْ هذه الأقبية في العهد الروماني ، وحالتها الراهنة تدل على أن الذي صنعها خبير ماهر ذو دراية كبيرة ، فانها لا تزال جيدة رغم ما مرّ بها من صروف الزمان .

ويخرج الماء من أقبيته ، الى قنوات مكشوفة ، تنحدر الى المزارع الواقعة في السهول الفسيحة المنبسطة ، وتقع معظم هـذه العيون ذات الأقبية بجوار القرى ، حيث المرتفعات المجاورة للسهول فينساب الماء منها الى الأرض دون استخدام الآلات والدواليب .. !!

ويبلغ مجموع العيون بالواحات البحرية ٢٠٤ عيناً موزعة كالآتي :

٣٢ عيناً بالبويطي و ٥٩ عيناً بالقصر و ٧١ عيناً في منديشة و ٤٢ عيناً بالزبو .. والماء المتصرف من هذه العيون جميعاً يستعمل في الري ولا يعرف مقدار ما تنتجه كل عين ، وذلك لأنه لم يعمل له حساب حتى الآن . والعيون جميعها عذبة الماء باردته ، اللهم إلا عـدد قليل منها يعتبر حار المياه ، ويحتوي ماء أغلب العيون على رواسب مختلفة الألوان .. ومن أهم عيون الواحات البحرية :

١ — عين البشمو[1] : من أجمل العيون بالصحراء الغربية قاطبة ، إذ تتفجر من فجوة في باطن الصخر ، ومن أمامها يبدو واديها المخضوضر في روعته فاتناً كل الفتنة .. ويسير ماؤها في المجرى الذي شقه لنفسه على مر العصور ، تحت سطح الأرض في الطبقـة الصخرية التي تغطي العين ، ثم يخرج الى سطح الأرض من فتحتين منفصلتين متجاورتين تسمى إحـداها

---

(١) وقع خطا في العبارة المكتوبة تحت صورة عين البشمو اذ كتبت عين النجر ، وفي الواحات الغربية بدلا من البحرية .

« البشمو » والأخرى « دردير » .. وإحدى الفتحتين ذات ماء حار إذ تبلغ درجة حرارتها ٣٣° سنتجراد . . وأما الأخرى فبارد ماؤها كثيراً عن الآخر

والمياه التي تخرج من الفتحتين تتجمع على بعد أمتار قليلة من فتحتي الخروج وتكوّن غديراً واحداً يسير مسافة ١٥ متراً ثم ينحدر في شلال صغير قوي استغله الأهالي في ادارة طاحونة لطحن الغلال .. ثم يسير الماء في مجراه بعد هذا الشلال الصغير الى حيث يتفرع في قنوات أربع ، تقوم على أول كل منهـا فتحة منقورة في ساق شجرة من أشجار السنط أو الخرُّوب ، وتسمى كل فتحة (فكّا) وذلك لأحكام توزيع المـاء ، ولكل فك اسم يعرف به .. وهي :

١ — فك النقطة : ويأخذ خُمس ماء العين ، ويستعمل لري الحدائق ، والباقي يوزع بين الأربعة الأخرى .

٢ — فك القصراوية : ويأخذ ربع المياه الباقية بعد ما يأخذه فك النقطة ..

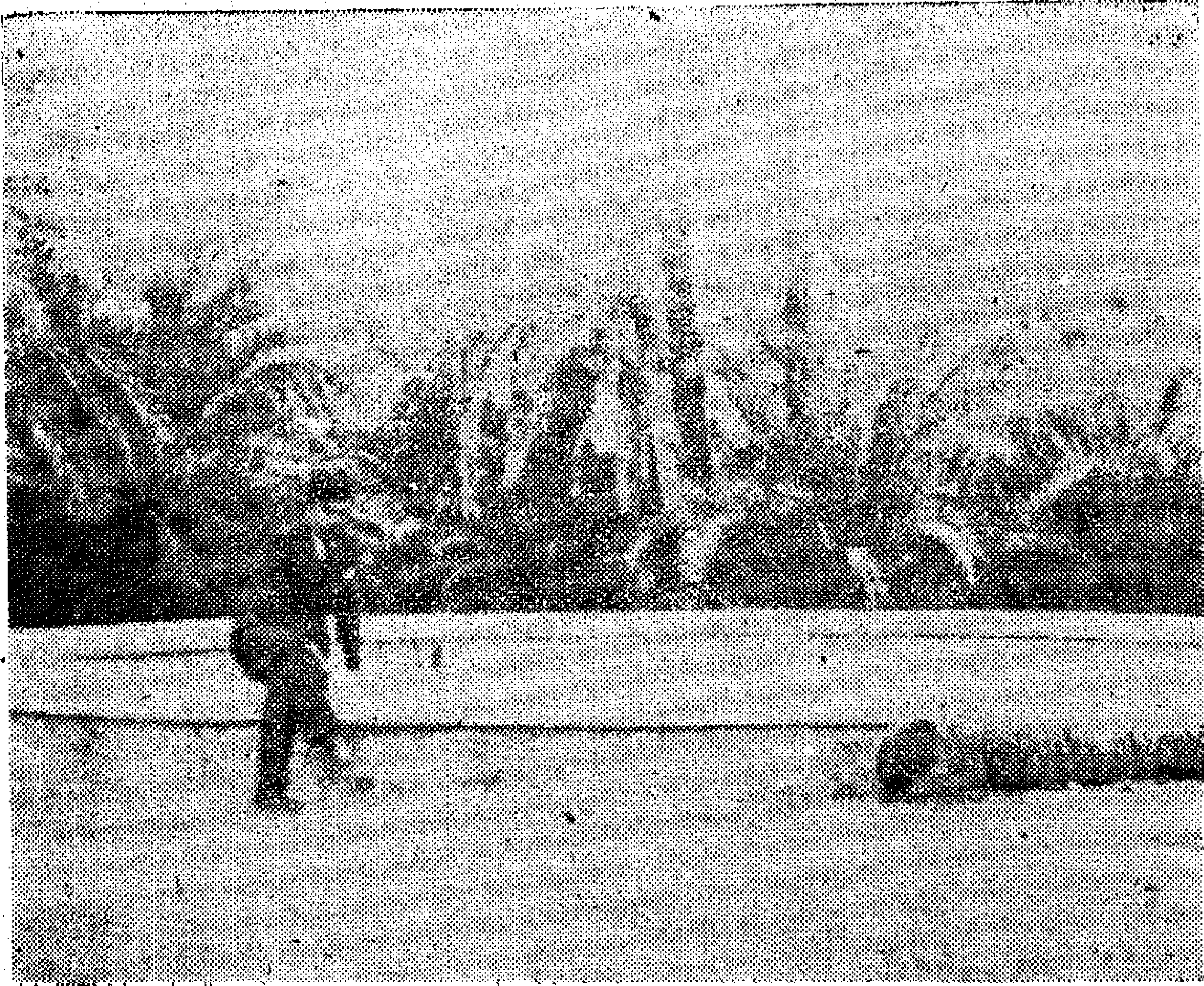
٣ — فك الغبب : ويأخذ ربع المياه أيضاً ويجري في مجرى يسمى باسمه

٤ — فك الأبوار : ويأخذ الباقي ويجري في مجرى يسمى باسمه

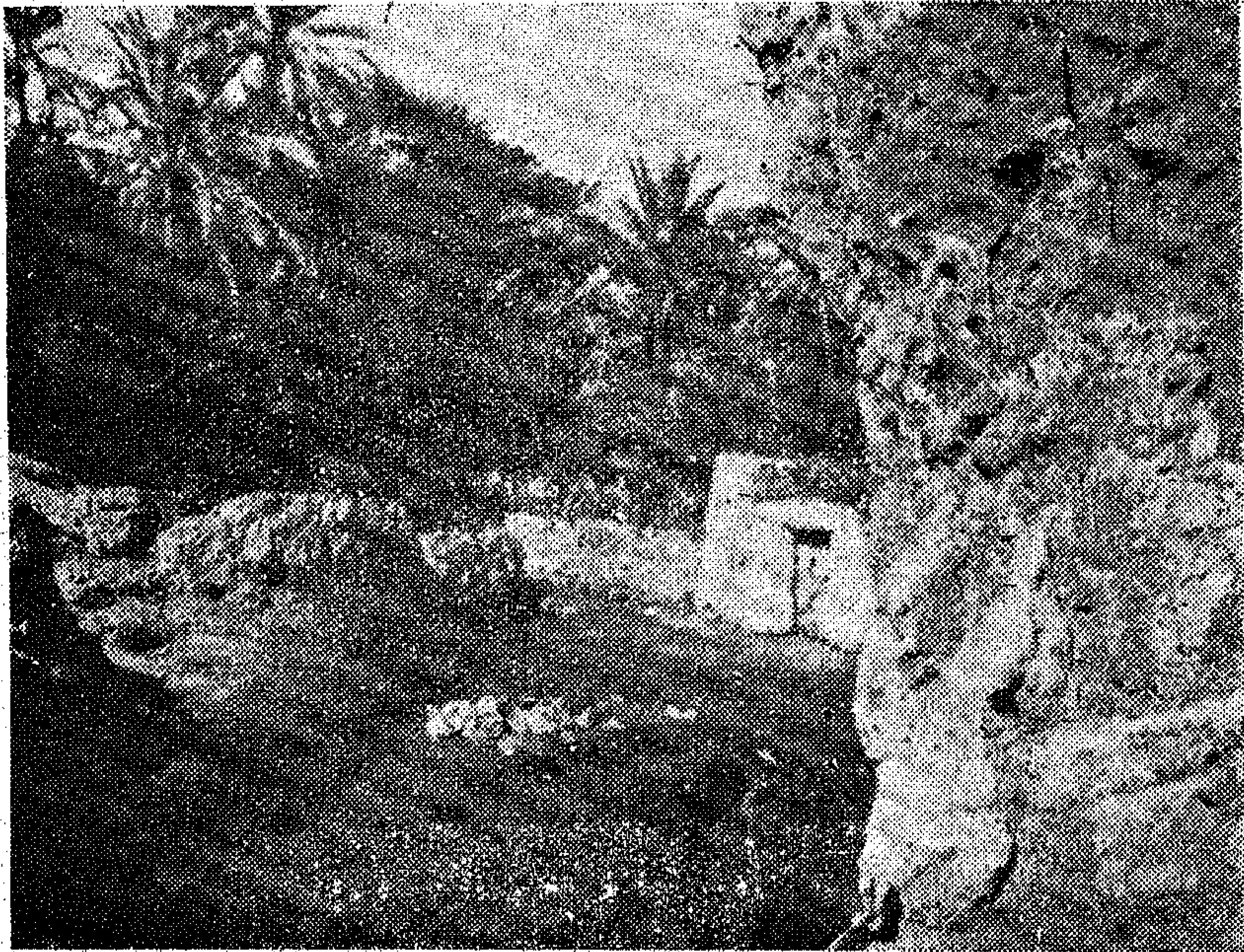
ويستعمل ري هذه الجداول الثلاثة الأخيرة في ري زراعات الأرز

٢ — عين الموفتلاّ : وتقع على مسيرة كيلومترين تقريباً من الشمال الغربي لآخرمساكن قرية القصر . ويمتاز المكان الذي يخرج منه ماء هذه العين بمزايا هامة جدًّا ، فالماء يخرج الى المجرى المكشوف بثلاث قنوات مختلفة ، ولكلٍّ من هذه الفروع ، مميزات من الطرافة بمكان . فالفرع الأول يمر في قبو صخري في الجهـة الشمالية ، وفتحته وجوانبـه الصخرية مغطاة بنبات شعري ، يانع جميل المنظر .. وفي نقطة أخرى يمر ماء الفرع الثاني ، بين شقوق في الصخر ، ويصب في حوض صغير هو نفسه مكان نبع الفرع الثالث .. وهـذا الحوض الصغير المستدير الشكل يبلغ قطره من ٥ — ٦ أمتار تقريباً ، ويخرج المـاء منه على هيئة نافورة ويصعد منها متقطعاً ، فتصعد كمية من الماء ، وتعقبهـا كمية من الرمل ، فأخرى من الماء ورابعة من الرمل ، وهكذا على التوالي .. !!

وتتجمع مياه هذه الفروع الثلاثة في بركة صغيرة تسمى « المحبس » يخرج منها غدير متعرج يسير إلى مسافة بضع عشرات من الأمتـار ، ثم ينقسم الى قنوات تنحدر مياههـا بشلالات منفصلة في ثلاث جهات مختلفة ، وتنصرف الى أكثر من مائة حديقـة ، لا تزيد مساحة الحديقة منها عن فدان تقريباً .. ويلوح أن هاتين العينين من العيون الطبيعية التي لم تعمل في حفرها يد إنسان .. !!



عين طموس وهي أصغر عيون سيوه وعلى حافتها جلس المؤلف وبجوار سور العين جذوع النخيل ملقاة على الارض



عين الشجر وهي أكبر عيون الواحات العربية وتمتاز بان مياهها باردة في قناة وساخنة في قناة أخري ، وكلا الاثنين من منبع واحد

وعداها توجد عيون أخرى كثيرة ذات منظر جميل يلذ للعين أن تستمتع بما له من روعة وجلال ..

ويوزع الماء بين الأهلين بحساب الطرف .. والطرف اثنى عشر ساعة ، ونصفه وثلثه وربعه .. ولا يعرفون حساباً للماء غير ذلك .. والبيع للملكيات على أساس الطرف المائي أو أجزائه .. !!

وأهل الزبو يحسدون أهل القرى الأخرى بالواحات البحرية على كثرة ماء عيونهم ذلك لأن العيون التي يملكها أهل الزبو قليلة الماء بسبب طمر الغرود لها .. وأكثر حقدهم على أهل الباويطي والقصر ، لأنهم ينعمون بعين البشمو العظيمة ، الكثيرة الماء ، وهذا الحسد قديم ، ولقد قام من جرائه كبير بالزبو ، وكان صاحب نفوذ وقوة ، وحفر ترعة كبيرة من الزبو ، وسار بها نحو عين البشمو لكي يحول ماءها لقريته عنوة واغتصاباً .. وكان أن قام أهل القصر والباويطي يدافعون عن مائهم ويذودون عن حوضهم ، واشتبك معهم أهل الزبو بزعامة كبيرهم في عراك قتل فيه كثيرون ومن بينهم صاحب الفكرة .. ولا تزال آثار ذلك المجرى يلم بها الساري في بعض الطريق بين الباويطي والزبو .

(و) واحة الفرافرة

ليس في واحة الفرافرة ما يمكن أن يكتب عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة ، وعيونها لا تزيد عن العشرين عيناً ، تجري بماء يستعمل جميعه في الزراعة ، ولا يترك منه أي مقدار لكي يذهب هباء ، وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وهي القرية الوحيدة بالواحة ، ولا يختلف توزيع الماء فيها عما يتبع في الواحات البحرية في هذا السبيل .

وعلى بعد خمسين كيلومتراً في الشمال الغربي لقصر الفرافرة ، تقع عين « الدالة » في المنخفض المسمى باسمها وتوجد هذه العين في السهل على ارتفاع ١٢٠ متراً من سطح البحر ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضاً بالقياس الى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين في قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ ارتفاع الطبقة الأولى منه متراً عن سطح السهل الواقع في الجهة البحرية ، وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى ، وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء محاطٌ بشجيرات الغاب. والنبع ينخفض بمترين عن قمة الجبل الذي يكوّن هذه قمع

حوله ويمنعه من السيلان في غير مجراه . . وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه صحراء ليبيا .

وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة في الصحراء . ولكنها لا تستعمل للزراعة ، ولكن للشرب . ذلك لأنها تقع في بقاع غير مأهولة بالسكان . غير أنها تؤدي خدمة جليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التي تسلكها ، فتتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق الذي تعنى به في الصحراء القاحلة . . ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية فقد رأينا ألاّ نطيل الحديث عنها خصوصاً وأنها لا تختلف كثيراً عما ذكر من الآبار .

وكل الماء الذي في الصحراء تقريباً يصلح للزراعة ، ولكن ليس جميعه يصلح للشرب ، ذلك لأنّ هناك عيون تزيد نسبة المواد الراسبة في مائها عن ١٠٠٠ جزء في المليون . . وهذه النسبة من الرواسب هي أقصى كمية يُسمح بها في ماء الشرب . . ومثل ذلك كل عيون سيوه وقارة أم الصغير . ولكن الأهلين يشربونه في غير امتعاض لتعوّدهم عليه فقد درجوا على شربه . . أما نحن أبناء وادي النيل ، فعندما يذهب الواحد منا إلى احدى هاتين الواحتين فإنه يمضي أياماً قبل أن يستسيغ الماء . وليس في الشرب فقط عدم الاستساغة بل وفي الشاي والقهوة ، وكل ما يصنع به . وما هي إلاّ أيام ويتعوده كما تعوده أبناء الواحة من قديم الزمان. !!

وتعتبر واحة قارة أم الصغير ، أكثر بقاع الواحات ملوحة للماء إذ يبلغ مقدار الرّواسب في الماء ٦٠٠٠ جزء في المليون ويصل في بعض العيون إلى ٩٠٠٠ جزء في المليون . . وبينما نجد أقل نسبة للرواسب في ماء عيون قارة أم الصغير ٣٧٩٠ جزء في المليون وفي سيوه ١١٩٠ جزء في المليون . . نجد أن أكبر نسبة في الواحات الأخرى ، لم تتعدّ الألف جزء في كل مليون . . هذا إذا استثنينا عين غانم في الفرافرة ، وعين العصيلي والشقرة في البحرية ، وخمس عيون في الداخلة أكثرها في القلمون . . وسبعاً في الخارجة أكثرها في بولاق . . بينها عين منسية وعين الواطية لا تصلحان للشرب اطلاقاً لاحتواء مائهما على مواد حمضية وحديدية كثيرة .



١ — الى الصحراء

..وتركنا القاهرة والشمس الغاربة ترسل أشعة هزيلة،تنعكس على زجاج نوافذ القصور، فتحدث وهجاً أحمر كأنه اللهب المتقد ، تمتـد ألسنته من أتون متأجج . . وأخذت السيارة تطوي الطريق نحو الاهرامات ، والهواء البارد يتدفق على جانبيهـا ، ثم التوت بنا منسابة وسط الصحراء ، مندفعة كالماء ينحدر من شلال ، والشمس تبتعد شيئاً فشيئاً ، حتى توارت بين أسـتار الغسق ، ولم تزل بقية من دمعها الدامي تخضب الأفق ، وتنعكس على الرمال والأحجار الساجية على جانبي الطريق .. !!

وأقبلت بواكير الليل تسـترق الخطى كالـكتائب ، وأخذت سجوف الظلام تمتد فوق ربوع الـكون . ولا زلنا نطوي الأرض ، ولا بصيص لنور يضطرب وسط هذه اللانهاية ، إلاّ ما يقع من مصباحي السيارة الأماميتين ، تشقان الظلمة من أمامها ، وهي تعلو وتهبط غير مبالية بوعورة الطريق ، وحلوكة الليل .

وكنت جد طروب بهذا كله ، إذ أرى فيه صوراً ما كنت على علم بشيء منها من قبل ، وفجأة لمحنا نوراً يلوح في الأفق البعيد ، ما لبث أن اختفى ، وما هي إلاّ لحظة حتى أقبلت سيارة تشق الفضاء ،وكأنها الأمل العارض ، وخلفتنا — ذاهبـة الى القاهرة — كفرصة تتراءى لليائس في ظلام الحياة ، ثم تفلت منه قبلما يتمكن من إدراكها .. !!

وتقدمنا في الطريق أميالاً ، فلاح لنا ضوء جديد ما كدنا نتساءل عنه في أنفسنا حتى أدركناه ، وكانت محطة اللاسلـكي الواقعة في الثلث الأول من الطريق الصحراوي ، وما هي إلاّ لحظة حتى خلفناها وراءنا . وانطلقنا لا نرى شيئاً إلاّ ما يقع تحت مصباحي السـيارة . . ثم لاحت لنا أضواء ومصابيح كهربائية ، وأعدنا الـكرة في التساؤل ، فاذا بنا نقف أمام ما كنا نريد الاستفسار عنه ، وكانت نقطة « مجانة » ترابط في وسط الطريق ، ومقهى ونزل ومطعم ، وبجانب هذا كله يمتد طريق شركة وادي النطرون

وواصلنا السير حتى اذا ما قطعنا بضعة كيلو مترات ، وقفت بنـا السيارة فجأة ، فقيد

أصاب العطب إحدى عجلاتها الخلفية ، وفي هذا الظلام الدامس ، وهذا السكون الشامل الذي يُذكّر من زار آثار الفراعين بسكون مقابر طيبة . . أخذنا في إصلاحها ..

كان الهواء بارداً ولا شيء من حولنا يتحرك إلا يدي السائق تعملان في إصلاح العجلة التالفة . وفجأة ومض فوق رؤوسنا ضوء وسمعنا حركة تدنو ، فأرسلت بصري في هذه الحلكة القاتمة . مستكشفاً هذا النور الجديد . فاذا به من سيارة مقبلة من القاهرة ما لبثت أن اختفت في منخفض من المنخفضات التي ينحدر إليها الطريق ، ثم رحت أحدق في الظلام ثانية علّني أعرف مبعث هذه الحركة التي تدنو . فاذا بها قافلة من الإبل تجتاز الطريق الصحراوي . مقبلة من وادي النطرون ، وبعد دقائق اقتربت منا السيارة ، وكأنها الخير المواتي ، فغمرتنا بنورها ، وكنت أقدِّرُ في نفسي أن من بها سيقفون بنا فيتساءلون : هل من معونة ؟؟ إلا أنني رأيتها وقد ضاعفت سرعتها عند ما اقتربت منا ، ومرت كومض البرق مسرعة !!

وبعد هنيهة كان السائق قد انتهى من عمله ، وتحركت مركبتنا ، وشعرت أن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن صدري ، فقد أخذت سرعتها تتزايد ، وتتضاعف فاذا بالتي مرت بنا ساخرة ، تتخاذل في سيرها ، ثم اذا بنا نثأر لأنفسنا ، فنمر بجانبها دون أن نعبأ بها ، ثم تمادينا في السير ، دون مهادنة في السرعة ، كأنما نجري بقوة سحرية الى فضاء مجهول وبغتة التوى الطريق فألقت السيارة بنورها على أرض بجواره ، فلاحت لنا خضرة كاسية وكان السائق الماهر ملمّاً بكل شيء حول الطريق الذي نجتازه ، فسألته : ما هذه الخضرة التي تكسو رمال الصحراء ؟ فأجاب : انها حقول الشعير التي يزرعها البدو على مياه الأمطار. ولقد كنا في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر وكانت الأمطار قد هطلت بغزارة في اليوم السادس من نوفمبر ، فتكونت عنها سيول غمرت الأرض وقتاً ليس بالقصير . فهذا اذن منبتها.

ورحت أحدق في الظلام علني أرى جمال هذه المزارع النامية في البيداء ، ولكن عبثاً حاولت .. فحلوكة الظلماء حالت دون بصري وما يريد أن يستكشف ، وبينما أرجع البصر محاولاً اختراق سجوفها ، إذ تراءى لي قنديل يضطرب وسط لانهايتها الدامسة . ولم تمض برهة حتى كنا نمر أمام مقر هذا القنديل ، فاذا به في خيمة اعراب ممن يقطنون وسط مزارع الشعير ، ولم أتساءل عنه قبل بلوغه ، فقد رأيت أن من الصواب ألا أشغل السائق بكثرة الأسئلة ، فلا يضطرب ذهنه الذي ينحصر في عجلة القيادة . وبالصبر سأرى بنفسي وأقف على كل شيء .

وبعد ساعة تقريباً بدت لنا شعلة من النور في الأفق البعيد ، كأنها جهنم تتقد بأجساد



الربيع في مريوط (شجر اللوز المزهر)



فتيات البدو في الواحات البحرية

الظالمين . فقد كانت عظيمة المساحة حتى أنني نسيت بأزائها ما عاهدت نفسي عليه من الصمت فسألت السائق : ما هذه الأضواء الجمة ؟ فقال : انها العامرية . وسرعان ما استدرك عند ما مررنا بين ثكنات الجيش الانجليزي القديمة فقال : بل هي الاسكندرية .

عروس الماء ، وغادة الصحراء ، تبعث النور في عرض البحر الزاخر فيهتدي به كل فلك ماخر ، يلاطم عبابه ، ويعلو فوق قبابه . وترسل بأشعتها فوق البيداء القفر فيسترشد بها كل من ضلّ في المسلك الوعر .

وبعد برهة ، وأمام الممر المؤدي الى العامرية ، تركنا الطريق الصحراوي الممهد والتوت بنا السيارة بين مزارع الشعير ، في طريق غير معبد ، الاّ أنه كممشاة وسط بستان أنيق تحف به المروج الخضر من الجانبين ، والقناديل متناثرة هنا وهناك ، تحفق في بيوت الأعراب ، وعلى ضوء السيارة رقصت الأرانب الجبلية التي انبثت وسط المزارع ترعى الكلأ متخذة من ظلامة الليل حجاباً يسترها عن العيون والأبصار . واسترعت بصري شجيرات وسط الشعير أكبر من صويحباتها ، فأدركت أنها ليست كلها من صنف واحد ، الاّ أنني لا استطيع أن أميزها ، لعمق الليل وكثافة الدجى ، وسرعة السيارة ، ولكنها كفتني مؤونة التحقيق والتدقيق ، فقد ميزت نفسها بنفسها ، إذ بدت منها نباتات تحمل أعواداً وهذه الأعواد تحمل أزهاراً فأوقفنا السيارة ، واقتطف السائق حاملاً زهريّاً مما على جانبي الطريق .. يا عجباً يا عجباً .

ان ما بيدي إن هو الاّ عود من أعواد النرجس ، عليه أزهاره العاطرة ، فيالها من طبيعة قادرة ، كست نفسها بنفسها ثوباً بدت فيه روائع الجلال ، فها هو ذا النرجس الجبلي ، يزاحم الشعير ، في منبته ، وها هم أولاء الأعراب ينعمون بجمال كسا الله به القفر فصار روضاً يانعاً .!!

وان الانسان ليجهد نفسه في زراعة هذه الابصال ، وتربيتها في البساتين والحدائق ، ويروح يفخر إذا ما أنبتت نباتاً له من الحسن نصيب ، ولو تجول في ربوع الصحراء الجرداء صيفاً ، الغناء العامرة شتاءً لاستمتع بالجمال الألهي الذي يفني نفسه في تقليده : فتلك هي الأبصال نامية في العراء ، سقياها المطر وبستانيها الطبيعة .. !!

ولم أفق من عجبي إلاّ على أثر انبعاث أضواء كثيرة فجأة ، وكان السائق على علم بأنني لم أطرق هذه الطريق من قبل : فقال دون أن أسأله : وهذه بلدة « كنج مريوط » .. وبها فنادق فخمة للسواح وأصحابها أجانب وهي مصيف جميل يحبه الإنجليز ..

وخلفنا « كنج مريوط » وراءنا ، ولم نبصر بأحد في طريقنا ، إلاّ عند ما مررنا بمحطة السكة الحديدية ، فقد وقف بجانبها ، عند ما اقتربنا منها ، بضعة رجال من الأعراب سحرهم

نور المدينة ، فجاءوا يتلصصون في الظلام ، ليقبسوا في نفوسهم شيئاً مما يشهدون .

وبعد بضعة كيلومترات رحنا نخوض في ماء يغمر الطريق هو من آثار السيول التي غمرت هـذه البقاع والساحل الشمالي في يوم ٦ نوفمبر الماضي [1]. وعند الساعة التاسعة مساء دخلنا قرية « برج العرب » .. !!

ولم يكن بها من صوت ولا حركة ، تدل على وجود الحياة فيها ، فقد كانت هادئة ساكنة كأنها من العدم بحيث لا ينم عنهـا شيء وسط سرمدي الظلام ، حتى ولا قنـديل يختلج في بيت من تلك البيوت التى يلفها الليـل بثوب أدكن .. وأخذنا نطرق باب الدار التي انتوينا قضاء الليل فيها ، ولـكن دون جدوى ، فخيل إلينا أن من بها من صحب ، قد غادروها إلى مكان آخر يقضون فيه سهراتهم الليلية ، ثم لا يلبثون أن يعودوا . ولـكن ما أدهشنا إلاّ ونافذة تفتح في تباطؤ ، ومن خلفهـا صوت يقول في تبلد ، ولا تزال به لـكنة النعاس : من الطارق .. ؟؟

فقلت مازحاً : أفـاق ضل الطريق في هذه الأمسية الدامسة ، فهل من مكان يقيه شر قارس البرد ، وعوادي الظلام ؟ ؟ فإذا بصاحب الصوت يقول : ما تعودنا أن نأوي الضالين في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، فاذهب وابحث لك عن مأوى غير هذا . .

وهنا عرفت أنه قد تعرّف عليّ من صوتي ، فقـد كان صديقي وزميلي ، وكنا ابني بلد واحد .. وأسرج المصباح وفتح الباب . . فسألته أكنت نائماً في هذه الساعة المبكرة ؟؟

فقال : وفيم أنفق الليل هنا اذ لم يكن في النعاس . ؟ ؟

وظللنا في سمر حتى انقضى وقت كبير من الليل ، نمنا بعده كتوأمين يظللهما ذراع أم رؤوم . . !!

---

(١) نوفمبر سنة ١٩٣٨



٢ ـ احلام الصحراء

... وأصبحنا فإذا القرية قد عمرها « الميجر براملي بك » على ربوة من حجر أحمر ، وعلى طراز المغرب الإفريقي وبها عدة أبراج عالية ، ولها بوابتان كبيرتان من بينهما يمر الطريق القديم الممتد بين الاسكندرية ومرسى مطروح.. ولقد كانت مقرًّا لمحافظة الغرب قبل مدينة مرسى مطروح خلال العصر الحالي ..

وغادرناها الى بلدة الحمام التي تبعد عنها سبعة عشر كيلومتراً غرباً، وفي طريقنا اليها مررنا « بالغربانيات » ..

وليست الغربانيات بالمدينة : أو البلدة ، وإنما هي محطة لسكة الحديد يقوم بجوارها مصنع « للجبس » يمتلكه رجل يوناني ، وعلى مقربة منها نحو الشرق يقوم قصر منيف على ربوة وسط الصحراء الساكنة وكأنه المعبد في جلاله ورهبته ومن حوله حديقة ..

أما القصر فرائع حقًّا يبعث في النفس الجلال وقد كساه صمت الصحراء الأبدي فتنة وروعة ، فإنه ليبدو كالزاهد الذي فرّ من طغيان المدنية وفجورها وانتبذ بدينه مكاناً قصيًّا .. وأما الحديقة فما أجمل تنسيقها ، وقد أنشأت صاحبة القصر الأجنبية في زاوية من زواياها حوضاً للسباحة وخميلة بديعة ، وقد قيل ولست أدري أحقيقة هذا أم إنه فرية مما تعوّد أن يهرف به الأعراب .. قيل إنها أنشأت هذا كله ، لكي يكون خلوة لها ولمن تحب .. ؟!

وبعد ما طفنا بهذا كله ، عدنا إلى الطريق مواصلين السير الى الحمام ، فاذا بها بلدة عامرة لا بأس بها ، فيها سوق ومقهًى ومحطة للسكة الحديد ومركز للبوليس وتفتيش للصحة ..

وغادرناها لنسير في طريق يعتدل ويستقيم تارةً ، ويلتوي تارةً أخرى ، وطوراً يعلو مرتقياً هضبة أو تلاً ، وينخفض إلى قاع وادٍ فسيح طوراً آخر ، حيث تغطيه مياه الأمطار ، وفي أماكن كثيرة حفر لها الأعراب حفراً بجوار الطريق كي تتجمع فيها فتبقى صافية نظيفة منها يشربون ويسقون السائمة ، وها هم أولاء فتيان الأعراب وفتياتهم يرعون الأغنام بين شجيرات النرجس التي تشغل مساحات واسعة من الصحراء . وإنهم ليقفون تحت الأشعة المتساقطة ، ترسلها الشمس على أجسادهم ، فتغسلها بحرارتها المستحبة ، في مثل هذا الصباح .

الشَّـبِـمِ الهواء ، وكأني بهم سـعداء في مثل هذه الحياة الهادئة ، التي رسمّها يد الطبيعة الحنون ، بريشة فذّة ضربت في الفن بسهمٍ وافر من قديم الزمان ، ولِمَ لا يكونون سعداء حقًا والغيث هطل بغزارة هذا العام ، وها هي ذي الأرض قد أنبتت الحب الذي بذروه ، ولا يزال البعض منهم يحرث بذره . على ناقة أو جمل ، ويأمل أن يصيب من ورائه اليسر والرغد . .

ولقد ذكرني مرأى الفتى البدوي والفتاة الأعرابيـة ، من وراء الأغنام المنبثة وسط المرج الأخضر ، بقول شوقي على لسان ابن الملوح :

أخذنا وأعطينـا إذ البهم ترتعي   وإذا نحن خلف البهم مستتران ... !

ألا ما أجمله من بيت يرسم حياة الحب في البادية ، وما يحوطها من مناظر خلابة جميلة إنّ الذي يتمثل هذا المنظر الطبيعي أو يراه ، يجد أن الطبيعة التي ينشأ بينها البدوي ، هي الدافع الأول للقلب ، لأن يعشق وأن يحب .. فها هي ذي الأغنام ترعى الكلأ . وها هي ذي العيون تستجلي جمال الطبيعة الآلهي . إذن فلابدّ للقلب من شاغل يملأ عليـه فراغه ، ويعمر حوله هذا الفضاء الواسع الشاسع . . ويجعله في حياة صاخبة وسط هذا السكون .

لابدّ للقلب من أمل يداعبه فيحيا من أجله ، ويخفق عند ذكراه ، ويطلي رمال الصحراء الصفراء بطلاء ساحر يحببها إليه ، ويقدسها عنده ، وليس أقدر من الحب على ذلك . فإنه لعالِم روحي يحيل القفر جنة ، ويجعـل من الفضاء الواسع والسكون الشامل ، عالمًا آخر ملؤه الأماني والأحلام .

ألا ما أمتعها من ساعة . تلك التي يجلس فيها الفتى البدوي ، يبث نجواه الى ليلاه . التي تلقى نظرته الساذجة المغرمة . ببسمة بريئة ساحرة ، هي من فيض القلب الطاهر ، الذي يخفق بين أضلاعها . وترجمان شعورها النقي ، الذي لم تشبه عوامل الخداع المادي ، والمكر الخلقي مما أدخلته المدنية على نفوس الفتيات المتحضرات من خسةٍ وخبث . !!

إنها إن أحبته . فشخصه ليس إلاّ .. لا تجتذبها نحوه عوامل الجاه ، والأبهة الفارغة والمـال الوفير . أو منصبه الـكبير . فعملهما في الحيـاة واحد ، وهو رعي الأغنام . وطعامهما واحد وهو حليب الشـاة وخبز الشعير ، وإن أصابا شيئًا عدا ذلك فيكونا من الرفاهية بمكان.. والحب..الحب وحده غذاء روحيهما الذي على نوره يعيشان ويستمرآن قفر الصحراء .. !

إنك لو أجلت النظر في تلك البقاع المترامية الأطراف ، اللانهائيـة المساحة ، لرأيت بيوتهم التي يصنعونها من صوف الأغنام ، وليس فيها من شيء يدل على الرفاهية ، أو نعمة



بدوية حسناء من مريوط

العيش ، إلاّ أن قناعة تعوضهم ، وسعادتهم الروحية ، تجعلها جنة قطوفها دانية ، فيها يطوف عليهم ولدان مخلدون إن رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً .. ففيها يخلدون . وتنقضي الحياة حالمة ما دام الضرع سليماً . والمطر غزيراً .. !!

فالحب في الصحراء قُدُسٌ مشاع ، إذا ما حلّ سلطانه داراً ، وجد تسامحاً وحَدْباً ، فليس من أبناء الصحراء ، من يقيم في سبيله السدود والقيود . وإنما يتركون القلوب تهيم في جناته ، مفتشة عن سعادتها ، والأرواح سابحة في سمائه ، باحثةعن غذائها ، كما تعوّدوا أن يتركوا الشياه في الأرض ، تسعى وراء الكلأ .. !!

فالمرعى المعشوشب ، وربيع الساعة .. والحب سواءٌ أكان صاحبه سعيداً به .. أو يائساً منه ، فهو ربيع قلبه على أي حال .. وليس هناك أية قوة تستطيع أن تمنع أحداً من أن يحيا وقتاً في الربيع .. ما وجد اليه السبيل .. !!

فالوالد يحترم أحزان فتاته ، وينزل على إرادتها ، ولا يعارض فتاه ، في هواه ، فلقد درجوا جميعاً على الحرية الموروثة في دمائهم ، والتي تناقلوها أجيالاً بعد أجيال ، فلهم في الحياة متاع الى يوم يقبضون ..

وكل بدوي من هؤلاء ، يشفق على العشاق ، ويرثي لحالهم ، فلا يذكر أحد محبّاً بسوء ، أو بخبث دنيء ، وليس بينهم من يضني نفسه ، فيكافها عناء التجسس على فتىً وفتاة اختلسا من يد الزمان برهة . فيها ينعمان بسقيا الهوى ، إلاّ إذا كان غريماً مزاحماً . أكلت الغيرة قلبه . . قتله العشق ، وتيمهُ الهوى . وأضناه الجوى ، فأصبح لا يملك من نفسه زمامها . !!

والجميع من رجال ونساء . يستهمرون ما في رنة الغناء ، من نغمة الحب . ويستطيعون بما جبلوا عليهمن فراسة فطرية ، أن يعرفوا المتغني ومن يعني .. !

والفتاة البدوية لا ترغب في الانفراد في مسيرها أو مجلسها . إلاّ إذا أحبت .. فإنها لتخرج الى الفلوات ، وحيدة فريدة ، فتترنم بأنشودة من صوغ فكرها ، وهتاف قلبها ، فتشكو أساها في هواها . وتردد في لوعة ما بنفسها من حزنٍ وشجن ، وتبدأ هادئة حتى إذا ما احتدم في صدرها الألم ، علا الصوت بأنغامه في ترجيع موجع ، فلعلها تُسْمِعُ من تحب .

فالغناء إذن هو الوسيلة الوحيدة للترسل ، بين العاشقين من هؤلاء البدو .. فإن الصوت ليخرج دامياً من شفاه الجريح العاني منصبّاً في نفس من يعني بشدوه فلا يلبث أن يجيب وإذا ما سمع البدوي صوتاً مشجياً ، ينحدر مع الهواء الى مسمعه ، وفيه رنة آسية ،

أرهف السمع ، وأعمل الفكر . فلا يلبث طويلاً حتى يعرف صاحب الصوت ومن يعنيه في ترديده وشدوه .

وانني لأذكر أن فتاة بدوية رقيقة الحال أحبت فتىً عظيماً من فتيان العرب ، وبادلها الفتى حبًّا بحب ، وأقام على حبها حيناً من الدهر ، ثم مال عنها ، فخرجت ذات يوم لتحتطب ، على مقربةٍ منّ سوق كانت عامرة ، ورغبت إليها نفسها أن تنفّس عنها ، فراحت تردد في أسىً وحسرة :

تعادلْ معاي زمان ومال عزيزْ علَيْ عانوهْ العربْ (١)

وما كاد الصوت يسري مع الهواء الى منْ بالسوق ، حتى انتبهوا ، فقد جاءهم بحلاوة وطلاوة ، ففيه روح تسبح ، وقلب يضطرب ، وأنفاس أحرقتها لوعة الوجد . وآلام الصد والحرمان .

وقضوا برهة وكأن على رؤوسهم الطير ، فكلهم آذان تصغي ، يتعرفون الصوت فيما بينهم حتى إذا ما انتهت من أغنيتها ، عرفوا من هي ، ومن هو المعني منها ، ذو الحظوة لديها ، وكان صاحبها في السوق ، ولقد سمع مع من سمع ، فما كان منه إلاّ أن سار الى أهلها عند المساء ، في نفر من صحبه ، وخطبها لنفسه .. !!

من هذا نلمس مافي نفس رجال العرب من إكبار للحب ، وحدب على صرعاه ، ورحمة بهم ، أما النساء فإنهنّ يحترمنَ الدموع ، إذا ماذرفها رجل ، ويقدرنَ بكاء الرجال ، فيبهنهم العطف . وإن كنّ عنهم راغبات ، فليس من شيءٍ يتملك قلب الفتاة كأن تجد فتى يبكي بين يديها لوعة وحبًّا . !!

ولقد أعرف صديقاً لي ، كان كثيراً ما يختلف الى مربوط ، مرتاداً أسواقها في طلب الأغنام ، للاتجار بها ، وكان يحرص دائماً على أن لا يفلت منه سوق « بهيج » لا لأنه يفضل الأسواق الأخرى في شيء ، بل لأن فتاة تأتي إليه ، ومعها نفر من خدمها والتابعين ، لتبيع ما هم في غنى عنه ، وتبتاع ما هم في حاجة إليه ، وكانت مدللة عند أبيها ، عزيزة عليه . ...أبوها الذي يتمتع بمشيخة قبيلته ، واحترام جيرانه العرب .. وكانت ذات جمال وافر وفتنة .. !!

أحبها صاحبي دون قصد ، وأغرم بها على رغمه . ولما أن أحبها الحب كله ، تهيبها فلم

---

(١) تعادل : توازن أي وضع نفسه في مستواي ، زمان : حين من الدهر . مال : انصرف .. عزيز علي : عزيز عندي ، عانوه : حسدوه من عانه أي أصابه بالعين .. !!

يجرؤ على التحدث إليها ، ولا الاقتراب منها ، وإنما كان يطوف بمجلسها ، وقد افترشت بساطاً من صوف ، كما يطوف الوثني بصنمه ، يتلمس منه البركات .. !!

ولكن المدى طال به ولم يرحمه وثنه ، فلم يباركه ولم يحن عليه ، فاستبدّ به الشجن ، وأضناه العنى ، فراح يشكو أمره وما يلقى من عنت الحب ، الى خلّ من أبناء العشيرة ، وثق به وبإخلاصه في صداقته ، فنصحه هذا بأن يخلع نقاب التهيب فيكون جريئاً معها ، لأن الفتاة البدوية لا تحب من الرجال الخجل ، خصوصاً في الحب .. الحب الذي هو شرعة الصحراء التي تهب بها أبناءها السعادة والنعيم ، فيستعينون بهما على إمحالها ، وما فيها من شظف العيش ، وخشونة الحياة .. !!

وكانت « حمامة » — وهذا اسمها — تصحب معها كل سوق ديكها الذي ربته .. واعتزت به ، ولم تكن لتفارقه يوماً أو بعض يوم .. وجاء يوم السوق ، وذهب صاحبي كعادته إلى محجته وبيت المطاف ، فرأى « حمامة » كعادتها على بساطها الذي كان ينظر إليه فلا يرى فيه غير بساط سليمان ، إذ الدنيا جميعها قد تجمعت فيه ، ما دامت « حمامة » متربعة في زاوية من زواياه ، ومن أمامها ديكها يزهو بريشه اللامع ، وبمصاحبته الحسناء ، التي لا تمر بها عين دون أن ترنو إليها بتمنٍّ وإعجاب ، وكأنما يفاخر الرجال بأنه هو صفيها ، وليس من بينهم من له عندها أقل شأن .. !

وكان صاحبي حقيقة يضمر في نفسه الحسد لهذا الديك السعيد ، لا لأنه صفيها دونه فحسب .. بل ولأنه يسعد برؤياها كل يوم ، ويطعم من يدها الحب ويظفر منها بكل حُب .. فما كان منه إلا أن تقدم من مجلسها ، واختطف الديك من أمامها ، قائلا لها :

— « بكم هذا يا صبية . ؟؟ »

فزمجرت مستنكرة جرأته ، وقالت في صوت فيه موسيقى وفيه سحر :

— « يابن عليك يا فلاّح .. ما هو للبيع .. !! »

فأجاب صاحبي ، وفي لهجته يبدو الوجد ، وفي نبرته تسري اللوعة :

— « ما أنا فلاّح .. ولكن بدوي مثلك يا مليحة .. ! »

وصمت لحظة وعقّب : « تاخذي فيه ريال .. ؟ »

فأجابت وقد لمست في أعطافه حنوّاً عليها ، وحناناً وميلاً إليها : « ما يجي في تسييح دمه »

فقال : « تاخذي فيه جنيه .. ؟ عشر جنيهات .. ؟؟ »

فصمتت وقد أحست ما يرمي اليه ، فألقى اليها بالريال الذي كان في يده ، ومضى والديك

يصيح في قبضته ، فما استطاعت أن تمنعه منه ، أو ترده عنه . !

وسُرّ صاحبه البدوي بما وصل اليه من نتيجة ، وعلم أنهـا مالت نحوه وعطفت عليه وفهمت ما مقصده مما فعل ، وأكبرت فيه هذه الجرأة النادرة بالنسبة اليها ، فما استطاع أحد قبله أن يجرؤ عليها قط فيمس الديك . لذلك تركته يذهب به وهي في شبه ذهول .

وانتهز الصديق البدوي هذه الفرصة ، وراح من ناحيته يعمل على تعزيز مكانته لديها ويطريه بأطيب الذكر . ولقد قال لها فيما قال : إنه بدوي من أصهار خيلانها ، وأنه يعرفها دون أن تعرفه ، فداعبها بهذه الدعابة ، وكان من قبل قد اتفق معه على أن يدعي العروبة وذكر له خيلانها واحداً واحداً ، مذكراً إياه أن يدَّعي النسب اليهم . لأنها إن عرفت أنه فلاح ، وليس ببدوي مثلها ، فما له في رضائها نصيب .

فما كان من «حمامة» إذ عرفت عنه ما عرفت الا أن طلبت الى صاحبه البدوي الذي من أبناء جلدتها أن يدعوه ليشرب الشاي في خيمتهم . !

ولم يسع الصب الوامق إلا أن يقبل دعوة من يحب ويعشق ، وركب معهـا ساعات حتى وصلا الى النجع الذي فيه تقيم . فاذا داوها خيمة من شعر ، تأفف من دخولها في أول الأمر . ولـكنه إذ دخلها وجد فيها الجنة والسحر . !

فمن وسائد حريرية متناسقة الألوان ، الى بسط عجمية بديعة الرسوم ، الى أكواب من فضة ، وغير ذلك من مظاهر اليسر والرخاء .

وجالست الفتاة الضيف ، فقدكان أبوها غائباً عن الدار ، وليس بدعاً في تقاليدهم أن تحيي المرأة الضيف الى أن يحضر رجل البيت . وبذلك جاءت الخلوة تسعى ارتجالاً بين صاحبي وحمامة ، دون تدبير منه أو منها ، فأراد أن يبثها نجواه . فتكلم ولـكن العبرات خنقته ، فأسكتته عن الـكلام ، فاذا به يبكي على رغم منه .

قالت : أتبكي ؟ ومِـمَّ البكاء ؟

فأجاب : لقد احتدم حبك في قلبي الذي هو صريعه من زمان بعيد ، فلم أجد ما أتنفس به عن فؤادي العميد، غير الدموع لعلها تخفف عنه الموجدة ، وما يضطرم فيه من حرارة النيران

وراع الفتاة أن ترى الوجد ينفذ من عينيه دموعاً ، واللوعة تسيل في عبرات فهدهدت خاطره ، وطيبت نفسه ، ثم منحته وعداً بأنها ستكون له رغم كل الظروف . له هو دون غيره

وجاء أبوها فقدمته اليه بأنه من أصهار خيلانها بفاقوس ، تعرفت عليه في السوق فجاءت به ، فأكرم الاب وفادة ضيف فتاته ، واحتجزه عنده أياماً ثلاثة هي مدة ضيافة العرب . ولقد كان خلال هذه الأيام الثلاث موضع الحفـاوة والتجـلة والاكبار من حمامة

وأبيها . ولقد وصف لي حياته خلال أيامه هذه ، بأنها كانت موشاة بأحلام سحرية ، لاقدرة له على وصفها بالنسبة لما أضفته عليها حمامة من جلال .

وسافر مزوّداً بأطيب الأماني والآمال ممن يحب ، وأعاد الكرة خاطباً إياها لنفسه ، ولم يمانع والد حمامة فيما أرادت هي وفتاها . وذهب صاحبي لأبيه يخبره بجلية أمره ، وليصحبه معه لإتمام الزيجة التي وضعها من أمانيه في القمة . ولكن أباه عارضه أول الأمر . ولما أن وجد منه إصراراً وافقه على مايريد ويرغب .

وقال صاحبي متمماً القصة : وضرب أبي موعداً يزيد أجله عن شهر ، فلم أحتمل الانتظار طوال هـذه المدة دون أن أراها . فذهبت الى سوق بهيج لأمتع العين بالنظر الى حمامة . وما كدت أراها حتى تداركت دقات قلبي . ولـكن الذي راعني هو أني وجدت من حمامة ازوراراً عني وصدوفاً وإعراضاً . !!

اضطربت نفسي . ولم أدر ما السبب ، ولـكن ذهولي لم يطل به المدى . فقد أسرع اليَّ صاحبي البدوي ، وسار بي قليلاً منتحياً ناحية بعيداً عنها : وأخبرني بأن أبي قد أرسل إلى أبيها يخبره بعدم صدق روايتي . وبأني فلاح ، ولا صلة لي بفلان أو فلان ، ممن ادعيت النسب إليهم . وإنه لمن الخير لي ألاّ أعود الى الظهور أمامها ففي ذلك خطر عَليَّ .

وصمت صديقي الحضري لحظة ثم استطرد : وانقطع أملي منها ولم أعد أسعى الى مربوط . لا لأنني خفت مغبة ذلك . بل لأن حمامة احتقرتنى اذ كذبت عليها ، وتنصلت من جنسيتي واحتقرت بيئتي في سبيل الوصول إليها . وما أنا بمستطيع احتمال نظرات الاحتقار تصوّب منها إليّ .

وسكتَ عن الكلام وقد رفع يده بمنديله ليجفف عبرة تحدرت على خده .



على أن الفاقة اذا اشتدت بقوم أفقدتهم السعادة في كل شيء . فلقد مرّت بهؤلاء البدو أعوام ذاقوا خلالها الأمرين . إذ امتنع المطر عن الهطول ، وأكلت الأرض الحَبّ الذي بذروه ، فلم تنبتـه . وساءت الحال وعمّ القحط ، واضطر الـكثيرون الى الرحيـل الى وادي النيـل أو الى جواره ، بعد ما باعوا جل أغنامهم بأبخس الأثمان ، ولو علمت يا قارئي أن خمسة خراف بيعت بخمسة عشر قرشاً لهالك الأمر ، ولـكنه ليس بكثير على من لايجد ما يَـطْـعَـمَـهُ أو يُـطْـعِـمَـهُ دابته التي ستهلك أمامه ، فيبيت هو وهي على الطوى أياماً ،

ليس بكثير عليه أن يضحي في سبيل الخبز والشاي الذي لا يعدله شيء عندهم مطلقاً. ولقد كان الكثيرون منهم لا يجدون ما يتبلغون به غير فنجان من الشاي بين الحين والحين يحصلون عليها بأي ثمن ومن أي سبيل. وكانت الحكومة تمدهم بالعون بين حين وآخر وظلوا كذلك الى أن أدركتهم رحمة الله في هـذا العام (١٩٣٨) فهطلت الأمطار غزيرة حتى أن السيول الناتجة عنها قطعت الطرق والخط الحديدي

* * *

... وها هو ذا البحر يتراءى لنا أثناء السير في أماكن، ويختفي في أماكن أخرى. وإنا لنسير والخط الحديدي مسافةثم نتركه لنسير بعيداً عنه .. ثم نجاوره ثانية، وانه ليعلو عن مستوى طريقنا طوراً وينخفض عنه أو يساويه طوراً آخر.. وهكذا حتى سيدي عبد الرحمن .. !!

ويجدر بنا أن نقف بإزاء سيدي عبد الرحمن برهة .. فموقعه يبعث العجب في النفس .. فإن قلنا إنه حارس الماء، فلِمَ لا يكون حامي الصحراء .. ?? فانه ليشرف على البادية، كما يطل على اليم، وتعزف له الصحراء أنغام التجلة والإكبار، على أوتار قيثارة الريح، مرسلة إليه الوفود من ذراتها التي يحملها إليه العَجَاج (١٩) لكي تقدم اليه فروض الطاعة والأماني، أو كأنها الحجيج أتى يتلمس اليمن والبركات.

كما يزف اليه البحر آيات الاعزاز والايثار، في أصوات الأمواج التي تتسابق اليه صاخبة موجرة. فكلاهما يتملقه، وكلاهما يتزلف اليه .. !!

في هذه النقطة التي تبعد عن الاسكندرية ١٣٧ ك. م. تتقابل اللانهايتان. اليم بمائه والبادية برمالها.

وفي هـذه النقطة أيضاً يلتقي الضدان. البحر بزمجرته التي لا تنتهي، والصحراء بصمتها الأبدي الذي لا يفنى.

وفي هذه النقطة يجتمع النقيضان: السيولة والضجيج والعجيج. والصلابة والسكون والصمت .. !!

وهكذا جعلهما الله خصمين متجاورين منذ الأبد، إلا أنهما يتفقان في بعض نواحيهما في التيه والغموض والإبهام ..

وقفت بالسيارة برهة استجلي الزرقة الداكنة التي تلوح عند الأفق البعيد، وكأنها جبل أشم أغبر، يخفي ما وراءه من أسرار، وهذه الصفرة الفاقعة التي تستقر في بعض المواقع

بغلالة سندسية كأنها العروس تحجب حسنها عن أعين الناظرين لكي تزيده فتنة ورواء، ومن وراء هذه الخضرة الكاسية يقوم جبل أعفر يستر ما خلفه من طلاسم .. !!

وكأنما لله لسيدي عبد الرحمن أن يقيم في هذه البقعة لكي يشهد — من فوق هضبته التي يقوم عليها — الصراع الدائم بين الضدين ، الماء واليابسة . وأن يرى حملات البحر ، وهجمات جنوده الأمواج على الشاطىء تريد أن تقتحمه فتغمر الأرض من ورائه ، إلاّ أنها سرعان ما تضعف وترتد مخذولة كسيرة ، فتنجلي عن صخور وأحجار ورمال . تبدو ساخرة منها ضاحكة عليها

ويرى البحر هذه السخرية اللاذعة ، وهـذا التهكم الصامت الصارخ — فيثور ويجمع عزمه ، ويحمل حملة أخرى ، وثالثة ورابعة . وهكذا الى أن تنقضي الحياة الدنيا ، ولن يبلغ الثرثار من الصامت شيئاً ولن ينال منه مأرباً . !!

مثل طيب لرجل العمل . ورجل الـكلام . هذا الصخر . وذلك الماء . !!

فالماء يزمجر ويهدد ، ويرغي ويذبد . « ويهوّش » ثم اذا ما حمل حملة على الصخر . فلا شيء يحدثه غير أنه يتكسر على جوانبه ، ويبرز الصخر بعد ذلك نظيفاً ناصعاً . وقد رجع الماء بكل ما عليه من أتربة وغبار . !!

***

ولسيدي عبد الرحمن مكانة سامية في نفوس أهل الصحراء الغربية واجلال عظيم — وضريحه محجتهم التي يحجون اليها في كل عام حيث ينحرون النذور ويطعمون الفقراء على حبه وتيمناً به ، واذا أقسم إنسان من أهل الصحراء وكان رائده في قسمه الصدق . فبسيدي عبد الرحمن قسمه . ولقد بنى ضريحه وجامعه الخديو عباس حلمي الثاني . !!



٣ – الحياة في مريوط

١ – الطقس

الحرارة : أقصى درجة حرارة سُجلت كانت ٠ر٤٣° وذلك في يوم ٨ يونيو سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل في هذا الشهر كان ٢٧°.

أما أقل درجة للحرارة سجلت فكانت ٠ر٢° وذلك في يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٣ مع أن المعدل كان ٨ر٨°

الرطوبة : المتوسط اليومي يبلغ أقصاه في شهري يوليو وأغسطس حيث يبلغ ٨٠ ٪ أما حدها الأدنى ففي شهر ابريل حيث يبلغ ٧١ ٪

المطر : بلغ أقصاه في اليوم الواحد ٨ر٩٨ ملليمتراً وذلك في يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٠

التبخر : يصل أقصاه في شهر سبتمبر حيث يصير ٧٦ر٨م. م. في اليوم الواحد. وأقله في يناير حيث يبلغ ٤٦ر٦م.م في اليوم الواحد.

الرياح : أغلبها شمالية . وذلك في سبتمبر ، أما في يناير وفبراير فتشتد الرياح الجنوبية الغربية . والغربية الشمالية ، والشمالية الغربية ، وأما الجنوبيـة ففي شهري مارس وابريل ، وأما الشرقية ففي مارس وابريل ومايو ، والغربية فأغلبها في شهري ديسمبر ويناير. والشمالية الغربية في شهر يوليو .

وتهب الرياح الجنوبية الغربية : والجنوبية من قلب الصحراء وتكون في هبوبهـا قريبة من الأرض فتحدث عواصف رملية تبلغ أشدها في مارس وإبريل . وهذه العواصف الرملية سيئة الأثر ، تضر بالانسان والحيوان وتفتك بالزروع . إذ أنها في هبوبها قريبة من سطح الأرض تحمل معها ذرات الرمال التي تتطاير في الأفق ، وتتكاثف في الهواء . فتحدث ظلامة شديدة ، وتحجب ضوء الشمس في بعض الأحيان .

وتبدأ العاصفة إما في أول النهار أو في أول الليل ، وتستمر نصف يوم وقد يمتد هبوبها الى أيام ، ويسمي البدو هذه العواصف الرملية « بالعجاج »

وثورة العجاج في الشتاء، أخف وطأة منها في الصيف، ذلك لأن عواصف الشتاء لا تطول غالباً، وهي عند البدو بشير بسقوط المطر، إذ لا بد لتهدئتها من أن تسقط أمطار فتغسل الأفق مما يتطاير فيه من ذرات وغبار. أما في الصيف فما لتهدئتها من سبيل الا اذا سكنت العاصفة أو تغيرت اتجاهات الرياح.

زيادة على ما تقدم فان لسقوط الأمطار فائدة أخرى، وهي جعل الذرات المتطايرة مع الرياح تكتسب قوة التماسك بعض الشيء، فلا تثور جميعها مع أقل النسمات الهينات عند هبوبها. أما في الصيف، فان لحرارة الشمس الدائمة الاشراق والتي لا يحجبها الغمام، أثراً في تبخر الماء الذي بين هذه الجزيئات المتماسكة، فيفقدها قوة تماسكها، فتتفكك الكتل الصغيرة، وتصير الذرات عرضة للتطاير مع أقل عاصفة، لذلك فهذه العواصف تكون شديدة داخل الصحراء وكلما اقتربت من منطقة سقوط الأمطار خفّت وطأتها الى أن تنتهي الى الشاطىء ضعيفة أو ليس لها أثر.

٢ — القبيلة

... ويقيم العرب في بيوت من الشعر، على هيئة مجاميع صغيرة، تسمى كل مجموعة منها « نجعاً » .. ومجموع « النجع » .. « نجوع » .. « والنجع » وحدة « القبيلة » .. وهو إما أن يضم عائلة واحدة .. أو عدة عائلات .. ومن هذه « النجوع » المتباعدة المتناثرة في عرض الصحراء تتكوّن تلك المملكة الصغيرة، التي يدبر شؤونها رجل واحد، نافذ الكلمة في الجميع، مطاع لا يشذ عن إرادته أحد. وكل من خرج عليه نبذ نَبْذَ النواة، حتى وان كان من أخص خصائص القبيلة .. !!

وإنهم ليقيمون بيوتهم من الشعر، على سفوح التلال، ومنحدرات المرتفعات والكروم (٢٠) ودائماً يجعلون الباب نحو مشرق الشمس .. وهم يجعلونها على سفوح المرتفعات لكي يتفادوا عبث العواصف والأمطار.

وليس لشيخ القبيلة أن يتحكم في مجموعة أفرادها أو يستبد، فالدكتاتورية لا أثر لها بين البدو مطلقاً، وانما الأمر شورى بينهم، فلهم قانون عرفي يتعاملون به، حتى أمام دور الحكومة .. على أن يكون التعامل به قاصراً على مشاكلهم التي لا تتعلق بأحد غير العرب.

وتشكل المحكمة العرفية للفصل بين أفراد قبيلة واحدة، من الشيخ رئيساً، وكبار العائلات أعضاء .. وكل ما يحكمون به، نافذ على المختصمين الذين غالباً ما يلقون الحكم بارتياح ورضى.

أما إذا أريد تشكيل المحكمة للفصل بين قبيلتين ، فتكون من رؤساء القبائل المجاورة ، أو في دار قسم البوليس . فإن كانت الأولى . فالرئاسة لأكبر المشايخ سناً . وإن كانت الثانية فالرئاسة لمأمور القسم أو من يحل محله ويقوم مقامه . وإذا ما أصدرت هذه المحكمة العرفية حكماً ، فليس لأحد الطرفين أن يرفض قبوله ، وإلاّ عرّض نفسه لاتحاد الجميع ضده ، واجتماعهم على مناوأته وإيذائه . وفي هذه الحالة إما أن يجبر على القبول بواسطة أحد الأعضاء أو تكون النتيجة أن يفقد حقوقه أمام هذه الهيئة التي انعقدت للتحكيم . وهنا تكون أمامه الفرصة الأخيرة وهي أن يلجأ الى المحكمة التي يرأسها المأمور . وهنا له الحق في أن يطلب المحاكمة بقانون العرب ، أو بقانون العقوبات . وعادة لا يلجأ أحد لقانون العقوبات إلاّ إذا تنسم في جانبه بعض التخفيف .

ويطلب المختصمون انعقاد محكمة العرب للفصل فيما بينهم باصطلاح درجوا عليه وهو أن يقولوا (نريد الميعاد) معناها يطلبون تحديد الموعد الذي تنعقد فيه المحكمة .

وإذا ما أراد المحتكم المحاكمة بقانون العقوبات أصبحت عضوية مشايخ العرب لا محل لها ، ويحل محلهم بعض الموظفين الموجودين ، والمكلفين رسمياً كهيئة للمحكمة من المحافظة ، إذ الحكم عسكري في الصحراء . وقضاته من رجال البوليس والادارة . فللمأمور حق الضبط . والتحقيق . والحكم . والتنفيذ . وتجري هذه الاجراءات بسرعة مدهشة ، حتى أن الواحد منهم لا يستغرق في بعض الأحيان أكثر من ثلاث ساعات حتى يكون بفضل الله وبهمة رجال الحدود الأفاضل داخل السجن بين جدران أربعة . ومن أرباب السوابق.(وأخيراً أدخل في بعض جهاتها النظام القضائي المدني)

أما قانونهم فيقوم كله على أساس الغرامات وهو متمشٍ مع مذهب الامام مالك والسنّة اللهمّ إلاّ بعض نواحٍ شاذة لا تتفق لا مع السنّة ولا مع مذهب أي امام ، حتى ولا مذهب بوذا الهندي ، واليك بعض نواحيه :

١ — في قضايا القتل

اذا قتل أحدُ أفراد قبيلة ، أحدَ أفراد قبيلة أخرى ، فعلى القبيلة التي منها القاتل أن ترحل عن منازلها ، وتنزل على قبيلة أخرى ، طالبة منها الاستجارة مما لا بد منه ، كاحتمال إغارة رجال القبيلة التي منها القتيل عليها في طلب الثأر وترحل القبيلة التي منها القاتل تاركة ماءها وزرعها ، إن كان لها زرع ، وكل ما لا يستطيعون نقله ، نهباً للآخرين ، ولا يستطيع أحد أن يتخلف عن الرحيل ولو لبضعة أيام ، إلاّ إذا اعتزموا القتال الذي فيه تراق دماء الرجال ، ومن النادر أن يحدث هذا بين قبائل أولاد علي .

والدم غالٍ عند العرب ، لا يتهاونون فيه . ولا يتركونه يذهب هباءً ، وإنما يهدرون في سبيل الدم المسفوك دماً أغلى منه عند آله وأعظم ؛ فلا يأخذون القاتل بدم من قتل ان كان ليس ذا شأن في القبيلة ، بل يطلبون من هو أعز مكانة منه ، حتى وان دعا الأمر لقتل الشيخ نفسه اذا استطاعوا الوصول اليه .

وقد تطول مدة الارتحال عاماً أو عامين ، وناهيك عما في ذلك من إذلال ومهانة لا يرتضيها العرب مطلقاً ، وفي خلال هذه المدة ، تبذل المساعي بين الطرفين ، من القبيلة المجيرة والقبائل المجاورة ، حتى يتفق الطرفان على الصلح ، على أساس دفع « الدية » المقررة بين العرب ، وإذا رفض أصحاب الدم قبول الدية ، وأبوا إلا الثأر ، فمعنى ذلك أن تهب القبيلة المجيرة مع التي نزلت عليها ، وتناصرها حتى تنصرها نصراً عزيزاً ، ربما تذهب في سبيله الضحايا بغير حساب .

فالبدوي لا يعرف التخلف عن الصفوف إذا ما دعى داعي الجد ، وطلب النصرة والعون فكلٌ منهم مهما صغر شأنه أو عظم ، عليه أن يحمل على عاتقه جزءاً من الفادحة على قدر طوقه

والدية عند العرب تقدر بمائة جنيه عند ما يكون القتيل رجلاً . ونصف هذا المبلغ للمرأة ، والرجل والمرأة عند العرب هو كل ذكر أو أنثى ، وإنهم ليتغالون في تقدير ذلك بعض الشيء . إذ يعتبرون « السقط » — أي الجنين الذي تلده المرأة قبل حينه — نتيجة اجهاض بسبب اعتداء أحد عليها ، فينظرون في أمره ان كانت خليقته قد تفصلت ويعتبرون الذكر كالرجل . والأنثى كالمرأة . وتدفع الدية على الأساس السابق الذكر . !

واذا ما تمَّ الصلح على أساس دفع الدية ، فعلى كل فرد من أفراد القبيلة التي منها القاتل أن يؤازر ويتعاون في جمع المبلغ ، على حسب ما يمتلكه ، وعلى قدر طاقته المالية ، فنهم من يدفع عشرة جنيهات ، ومنهم من يدفع خمسة قروش . على أن المعتاد في دفع الدية ، أن تقسط على ثلاث سنوات ، ولا تدفع كلها نقداً بل يصح أن يدفع جزء منها أغناماً وجمالاً تقوَّم بمبلغ معين . وعند دفع القسط الأول من الدية ، فللقبيلة النازحة عن منازلها أن تعود اليها ، آمنة مطمئنة ، لا يتعرض لها أحد ، ولا تخشى شيئاً من خصومها .

وتُدفع الدية أيضاً اذا ولد القاتل ولداً إذ يطلبها ، أهل القتيل ، بحجة أن المرحوم لو كان على قيد الحياة لأنجب ولداً كما أنجب القاتل أو بنتاً ان كان المولود بنتاً وهكذا .

وتُدفع الدية أيضاً في حالات غير هذه ، كأن يكون أحد البدو يملك جملاً أو كلباً عقوراً ذا شهرة في شراسة الخلق ، واعتدى هذا الجمل أو ذلك الكلب على أحد ، وتسبب عن هذا الاعتداء وفاة المعتدى عليه سواء أكان في التوّ والساعة ، أو بعد حين . هنا يُلزم صاحب

الجمل أو الكلب بدفع الدية ، أما إذا نتج عن الاعتداء بتر للساق أو الذراع أو فقد للعين فتكون الدية نصفاً اذ المعتدي عليه أصبح نصف رجل أو نصف امرأة فيعوض عن النصف الآخر الذي فقده بالمال . أما اذا لم يحدث الفقد في أحد الأعضاء المزدوجة ففي هذه الحالة يجتمع مجلس العرب أيضاً ، ويأتي « النضّار » أي الطبيب الشرعي عند العرب ويقدر مبلغ الاصابة وما تستحقه من الدية وتكاليف العلاج، فلكل جرح ثمن . وللاصبع ثمن وللأسنان ثمن ، ولذا يتحدث العربي عن نفسه كانسان قائلاً : « بني آدم كله فلوس »

وفي حالات أخرى غير السابقة تدفع الدية . كأن يفتن أحد على أحد عند البوليس ويتسبب عن هذه الفتنة أن يسجن من فُتِن عليه، ويسوء الطالع ويموت داخل السجن بانتهاء الأجل قضاءً وقدراً ، هنا يطلب أهل الميت السجين الدية من أهل الذي فتَن عليه وتسبب بفتنته في سجنه أو يسلمونه لهم ليقتلوه بدلاً منه .

* * *

هذا في أحوال القتل العادية التي يعترف فيها القاتل أو يُثبت عليه الشهود جريمة القتل أما اذا كان القاتل مجهولاً ، وحامت الشبهة حول أحد ، وسُئل وأنكر، طُلب لأداء اليمين.

واليمين عند العرب ، ليس هو قسم كتاب الله الكريم . بل يقسمون على ضريح أحد المشايخ الموجودين بالصحراء ، فلأولياء الله في نفوس البدو مقام كبير ، يرهبون القسم على أضرحتهم أكثر من القسم على القرآن.ويعتقدون أن من يقسم على ضريح ولي من هؤلاء قسماً باطلاً فلا بد من أن يُنزل به وبأسرته الفناء قبل ثلاثة أعوام ، أما هذا القسم وقسم القتل خاصة . فلا بد من أن يؤديه المشتبه في أمره وخمسة وخمسون من عائلته ، هو يقسم بأنه لم يفعل ، وهم يقسمون على صحة قسمه ، ولا يكون هذا الانكار عادةً الا إذا نكث أحد العهد بعد أخذ الدية ، فقتل ممن قتلوا منهم بعد دفعهم دية قتيلهم ، في هذه الحالة ينكرون إذ أن دية القتيل الثاني مضاعفة أي ٨٠٠ جنيه مصري أي ترد الدية الأولى ويسقط دم القتيل الأول وتدفع دية القتيل الثاني . هذا فيما يختص بالقتل ومشاكله . واذا امتنع أحد أفراد عائلة القاتل الذين يُنتخبون (من الخمسة والخمسين) عن اداء اليمين كان ذلك دليلاً على ثبوت الجريمة وتُدفع الدية .

٢ — في قضايا هتك العرض

أما في حالة ما إذا اعتدى أحد على عرض الآخر ، فانهم يتبعون في عرفهم طريقاً وديـا ، أرى أنهم ما ارتضوه فيما بينهم ، إلاّ محافظةً على دماء الشبـاب الذين ينزو بهم الشيطان ويدفعهم دافع لايُـرَد نحو ارتكاب جريمة الزّنا وهتك العرض ، فانهم ليعتزّون بدم الرجل اعتزازاً غريباً ، ولا يهدرونه بأي ثمن ، وإنهم ليقدرون جميعاً أن الشيطان ظِلٌّ للمرأة ولا ينشط للعمل على الفساد الاّ اذا وجدها مع رجل في خلوة ، لذلك قدّروا وقوع الخطيئة ، في ذلك المحيط الواسع المترامي الأطـراف ، فان جعلوا دم الرجل الزاني ثمناً للعـرض الذي انتهكه ، نتج عن ذلك طلب الثأر من القَـتَـلة ، وهكذا يخرجون من مصيبة ليقعوا في غيرها أشد منها وأدهى ، وتكون النتيجة فناء الرجال من جراء خطايا النساء بتكرار طلب الثأر والأخذ بالدم ، وهل يموت رجلان أو عدة رجال من أجل امرأة ؟

إن المرأة ليست من الأهمية بحيث يريقون من جراء خطيئتها الدماء .. !!

أما هذا الطريق الذي تعارفوا عليه فيتلخص في الآتي :

أولاً : فيما يتعلق بعاملة الرجل لابنته إذا ما زنت . فإنْ قتلها ، وهذا نادر بين أولاد علي ، فليس لأحـد أن يحاسبه على قتلهـا ، أما الزوجة فليس لزوجها أن يقتلهـا من جراء الخطيئة مطلقاً ، وان فعل كان عليه أن يدفع ديتها لأهلهـا ، فإنهم ليقرون جميعاً أن المرأة مِلْـكٌ لأهلها . أي أن أباها صاحب « العظم » فيها فهي له أولاً وأخيراً ، ويتطرفون في هذه الناحية ، فيجعلون كسب المرأة لزوجها ، أما إذا وجدت شيئاً (لقيته) فهذا لأبيها ، لأن « اللقيّـة » هبة من الله ، وكل ما يهبها الله من خير فهو للوالدين .

ثانياً : فيما يتعلق بالرجل الزاني . فقد وضعوا لذلك حدّاً لا يتخطاه إنسان وهو :

١ — اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة « ثيب » أي لا زوج لها ، وكان مكان ارتكاب الجريمة الفلاة ، أي بعيـداً عن دارها ، وكان وقوع الأمر برضاها فهـذه لا حساب لهـا ولا ثمن .. !!

٢ — أما اذا كانت جريمة الزنا مع امرأة ثيب ، وفي دار أبيها أو أخيها . فعلى الفاعل ان يدفع مبلغ عشرة جنيهات ، كثمن لحرمة البيت الذي انتهك حـرمته ، ويسمون هذه العقوبة المالية « مَعـتَـب »

٣ — اذا ارتكب رجل الجريمة السابقة اغتصاباً ، أي برغم المرأة التي زنى بها ، فعليه أن يدفع عشرين جنيهاً لأبيها أو أخيها ، ويسمون هذه العقوبة المضاعفة « كَبارَة » وهي عقوبتان في آن واحد. أي عشرة جنيهات لحرمة الدار التي ارتكبت فيها الجريمة .. وعشرة جنيهات كحق للرجل الذي هتك عرضه .. !!

٤ — اذا ارتكب رجل جريمة الزنا مع عذراء في الخلاء برضائها كانت عقوبة الرجل لا شيء .

٥ — أما اذا ارتكب الجريمة السابقة رغم العذراء كانت عقوبته « كبارة » وذلك للاعتداء على عرض العذراء . وكذلك الأمر فيما لو كان الحادث في دار أبيها .

٦ — اذا ارتكب رجل فاحشة مع امرأة متزوجة ، في الفلاة وبرضائها ، فلا جناح عليه . أما اذا وقع الحادث في دار الزوج وبرضائها أيضاً ، فعليه أن يدفع للزوج عشرين جنيهاً « كبارة » مضافاً اليها المهر الذي دفعه الزوج فيها ، وكذلك النفقات التي أنفقها في سبيلها قبل الزواج . على شرط أن يطلق الزوج زوجه في الحال . وان أبى طلاقها فلا حق له في شيء . لا مهر ولا نفقات ولا كبارة . ومن العربان من يطلقها لينال هذه كلها ثم يردها الى عصمته ثانية . وهذا لا يقام لحادثه وزن بعد ذلك إذ تسقط حقوقه فيما بعد لو وقع له حادث كهذا .. !!

٧ — أما اذا نال رجل امرأة متزوجة في دارها اغتصاباً . فعليه أن يدفع الكبارة فقط .. !!

وتتضامن القبيلة جميعها في دفع هذه الغرامات أيضاً ، كل على حسب ما يستحق كما سبق أن ذكرنا . وإنه لمن العار عند العرب أن تتخلى القبيلة عن أحد أبنائها في مثل هذه الظروف . والطريف في الأمر ان الفاعل يدفع ما يستحقه كأحد الآخرين . على أنهم جعلوا لهذه المؤازرة حداً هو في نصاب العدل تماماً . فقد جعلوا واجب المؤازرة حقاً لكل فرد في الجريمة الأولى أو الثانية بالنسبة اليه ، أما اذا كثرت جرائمه وتعددت أحداثه وتتالت أخطاؤه ، فان القبيلة تعلن بين القبائل ، انها قد تبرأت من فلان هذا ولا شأن لها به . واذا ما أعلنوا « البراوة » — كما يسمونها — بين العرب أصبحوا وهم لا يطالبون بشيء ازاء ما يرتكب هو من أخطاء . وذلك على شريطة ألا يؤازره أحد أفراد القبيلة سراً ويعد له يد العون في الخفاء فاذا ثبتت معاونتهم له في السر وفي طي الخفاء ، ألزموا بكل ما يقع على عاتقه من غرامات ، إذ « البراوة » في هذه الحال تعد باطلة .. !!

ومع كل ما تقدم فان المعتَّب لا يُدفع كله ، ولا الكبارة كلها ، فقد جرى العرف عند العرب أن يتقدم بعض ذوي الشأن فيهم ، لأصحاب الحق ، أو لصاحب الحق ، طالبين ترك

جزء من المبلغ المقرر دفعه « لأجل الخواطر » فمثلاً يتقدم شيخ مهيب لصاحب الحق ممسكاً في يده شعرات ذقنه قائلاً « علشان هذول تسيب كام » فلا يسع صاحب الحق إلا أن يترك مبلغاً لأجل ذقن هذا الشيخ فينطق قائلاً : «سبت جنيهين» ! وهكذا إلى أن ينتهي الأمر على أن يدفع الجاني جنيهاً أو أقل . ثمناً للعرض الذي انتهك .

على أن هذه المبالغ التي تركت إكراماً «لاجل الخواطر» لا تضيع هباء ، وإنما هي دين على من تركت اكراماً لهم ، وهذا الدين لا يدفعونه نقداً وعداً . بل يتركونه إكراماً لهذا الذي تركه اكراماً لهم في مثل هذه الظروف ومن الغريب أن هذا الدين يطالب به الأبناء والأحفاد .. !!

٣ — الزواج

من العوائد الموروثة عند أولاد علي ، ان الفتاة لابن عمها ، ان كان لها أبناء عم .. وما دام بنو عمها لا يزال فيهم من لم يتزوج بعد ، ولم يرفضها أو يصرح لها بالزواج من غيره ، فليس لها الى الزواج من سبيل ، حتى وان تقدم لها ألف خاطب وخاطب .

ولم يجمع «أولاد علي» على هذا العرف إلا ليضعوا حداً لما عساه أن يجد ويحدث من منازعات بين العائلات اذا ما تزوجت الفتيات بغرباء عنهن ، وصدرت اهانة من الزوج لزوجه .. فلا بد لذويها من أن ينصروها على زوجها ، وبذا تبدأ المنازعات والمشاكل من جراء النساء . ولكن وهي عند ابن عمها ، فليس لها ان تطلب من أحد أن ينصرها عليه ، وليس في ظلمه إياها وجوره عليها أي عار على ذويها . لأنها هي منه وهو منها .

ولذلك فإن الفتاة غالباً ما تنشأ عزوفاً عن ابن عمها غير راغبة فيه ، متنافرة وإياه . لأنها تعلم حق العلم أنه هو نصيبها من الدنيا ، حتى وان كان مشوهاً زريا . وكثيراً ما يميل بها الهوى نحو غيره ، وتكون النتيجة ان يعاقبها ابن عمها على هذا الصدود وهذا العزوف ، بأن يضيع عليها الفرصة في كل زيجة تأتيها من الخارج ، وتظل بكراً الى أن يشيب قرناها .

واذا حدث وعُقد العقد على غريب — وهذا نادر — فلابن العم أن يفسخ هذا العقد ، وليس لأحد أن يعترض عليه فيما يفعل . ولا يمكن للوالد أن يحمي فتاته من أبناء عمها اذا طلبوها ما دامت عذراء . فبكارتها لابن عمها ، لا جدال في ذلك . فان شذ أحد عن العرف قوطع من أهله ، وبدأت العداوات والأحقاد .. وربما سالت فيها الدماء .

على أنهم جعلوا للفتاة فرصة بعد ذلك لاسترداد حريتها السليبة وحقها المضيع . وذلك بعد أن تتزوج بأسبوع ، عندما تعود الى دار أبيها لكي تقدم لأمها . « دوار الابز » أي

حتى الابن . هنا لها الحق ان تعود الى زوجها إن كانت تحبه أو وجدت من نفسها ميلاً اليه . أو لا تعود اذا كانت لا تزال نافرة منه ..!!

واذا لم تعد .. قاطع الزوج أهلها . وبقي صامتاً لا يتكلم ، الى أن يظهر في أفق حياة الزوجة النافرة ، العريس المرقوب .. فإما ان يطلقها بعد ما يأخذ منه كل ما خسره فيها .. يضاف اليه الـكبارة . وإما ان يحتفظ بها على البعد فلا يفسح لها السبيل لـكي تصل الى ما تريد . ويكون ذلك بدء العداوة بينه هو وعائلته وبين العريس الجديد وأهله .

واذا ما قبل الزوج ان يسرّح امرأته ، كان على العريس الجديد ان يقدم له المهر والنفقات التي خسرها في سبيلها ، وكذلك « كبارة » لأنه أفسدها عليه . ويأخذ منه مخالصة بكل هذه الحقوق . ثم يعطي لأبيها مهراً جديداً ، ويقوم بنفقات جديدة لا مندوحة عنها ، وغالباً مثل هذه الزيجات لا تفلح ، ولا يطول بها المدى ، ولا يربح صاحبها من ورائها إلاّ إيجاد عداوات جديدة ، بينه وبين قوم ما كان ليناصبهم العداء .

أما مقدمات الزواج فيسيرة جدًّا ، وذلك بأن يذهب العريس أو أحد أفراد بيته لوالد العروس فيقول له : « نريدْ نخالطْ فيكم » فان كان موافقاً رحّب بهم . وبعد ذلك يرسل العريس عدداً من الخراف أو النعاج ، ومقادير من الأرز والعدس والمسلي ، تولم بها وليمة في موعد يحدده هو ، فيذهب هو ونفر من ذويه وصحبه فيأكلون ، ثم يقرؤون الفاتحة . وبعد ذلك تنطلق الاشاعات بين الجيران من العرب « بأن فلاناً ذبح في فلانة » أي خطبها ، وفلانة مذبوح فيها ، يعني مخطوبة . وإذا ذُبح فيها فليس لها أن تعمل بالأجر إن كانت ممن يشتغلنَ بالأجر .

وبعد يوم أو يومين يجتمع هو أو أبوه بأبيها لـكي يتفقا على المهر ، وعادةً يتفقون عليه مقدماً ومؤخراً مناصفة ، فمثلاً نفرض أن الاتفاق تمّ على أن يكون المهر كله ستين جنيهاً . فيدفع مقدماً ثلاثين جنيهاً ويؤجل للمؤخر ثلاثين جنيهاً .

أما المقدّم ، فيُدفع إما نقداً وعدًّا ، وإما أن تقوّم به أغنام وبعض مواد المعيشة ، وبعض المصاغ الفضي الذي تعوّد أن يتحلى به نساء العرب ، وتنحصر في « دملج » أي سوار من الفضة عريض جدًّا «وخناف» وهو فردة من قرط تُلبس في إحدى ناحيتي الأنف.

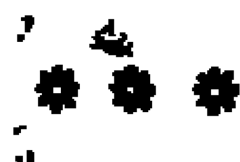
وكل هذه الأشياء المدفوعة ما عدا الحلي يأخذها الوالد ، فلا ينفق منها على فتاته شيئاً مطلقاً ، إذ يعتبرها من حقه كثمن لتربيته فيها . ثم على العريس بعد ذلك أن يكسوا عروسه ثم يذهب فيعد له خيمة بجوار خيمة أبيه . ويفرشها حسب ما يقتضيه مقامه بين العرب . وإذا ما أعد البيت جاء فأخذ العروس وسط حفل يقام فيه الزمر والصفق والغناء . وعادةً يكون

ذلك بعد الظهر بقليل ولا يدخل العريس بعروسه وإنما يُنيب عنه أحد أقربائه وتجري العملية بوحشية وقسوة فظيعتين إذ يمسكها رجلان ويُفلحها رجل والخيمة مفتوحة على مصراعيها أمام الناس ، وهذه عادة موروثة من قبل الميلاد إذ كان ملك الصحراء الغربية — على ما جاء في بعض الروايات — له الليلة الأولى عند كل عروس قبل أن تزف الى زوجها

وبعد أسبوع تعود العروس لدار أبيها حاملة معها ما تستطيع حمله حسب مقدرة الزوج المالية فتقدم لأمها « سوار اللبن » أي حق اللبن الذي أرضعتها إياه وفي هذا الوقت لها الحق في أن تعود أو لا تعود

وأما المؤخر : فالى أحد أجلين، وهذان الأجلان كما يعبِّر العرب ، إما على « عيب » أو « صوب » . والعيب : إذا ضربها أو طردها ، أو انتهك حرمتها فأجبرها على ما لم ترغبه مما يتعارض مع الشرف . والصوب : إذا صوّب عليها غيرها ، أي إذا تزوج عليها ، في هذه الحالة لا تطلق وإنما يجهز لها بيتاً ويقطعها بعض الغنم ، إن كان صاحب غنم ، ويتركها مستقلة ، وكل ما يفعله من أجلها في هذه الحالة من مؤخر صداقها .

ولقد اتخذ بعض البدو طريقة الزواج هذه كوسيلة للكسب من وراء بناتهم إذ يزوج الأب فتاته من رجل ، وعندما تأتي في « السبوع » لا تذهب اليه ، وتبدأ بالمناورة مع رجل آخر . وهكذا ، ما دام كل مبلغ يصل الى يد الأب ، لا ينفق منه شيئاً في سبيلها . ويقولون معبرين عن هذه الحالة « فلان بيتفتف من حول بنته » أي يتكسب من ورائها .



ولا يحررون العقود عند الزواج ، وإنما يعقدون العقد عرفيًّا فيما بينهم ، حتى إذا ما جاء يوم السوق ، ذهبوا الى حيث يلقون المأذون ، الذي يقوم بتحرير عقود الزيجات التي تمت جملةً واحدة ، ومنهم من لا يحرر عقداً مطلقاً.

٤ — اللغة والدين والصناعة

١ — اللغة : لغة البدو المقيمين بالصحراء الغربية أقرب الى الفصحى منها الى غيرها ولكن لهجتهم الخاصة تجعل ألفاظهم غريبة على السمع بعض الشيء ، ولهم غرام خاص بالغن في أواخر الكلمات ، وقلما يفهم الحضري عن البدوي لفظه كله أو كلامه كله لأول أو لثاني مرة ، ولم أجد أحد تبلداً من ذهن البدوي في فهم كلام الحضري إذ لا بدّ من أن تعيد على مسمعه القول مرة أو مرتين .

وللبدو اصطلاحات شتى في لغتهم نذكر منها :

ازمُـطـها : ابتلعها   زَمَـطـها : ابتـلـَعها

كنـك : مالك   هُـك : هناك أو هكذا

أنا بيدي : أنا شخصيـًا   فيسا : بسرعة وهي اختصار لجملة (في ساعة)

قَدوس : انصراف   بِنَّـه : عطر أو رائحة

ربعية : معزة   عويل : طفل أو أطفال

الى غير ذلك من الألفاظ التي ينبو عن الذوق ذكرها وعلاوة على ما تقدم هم مغرمون بالأمثال يضربونها للمناسبات وميلهم الى التصغير في الأسماء والاختصار فيها لا حدّ له مثال ذلك ينادون عبد الرحيم : رحومة.وعبد النبي : نبيوة .. وعبد الـكريم : كرومة أو كريم . وعجل : عجيل . وسالم: سلومة

٢ — الدين : والدين بين البدو الاسلام . ولـكنهم يكادون ألاّ يعرفوا عنه شيئاً .. وكل ما يعلق بأذهانهم منه أن هذا حرام . وذاك حلال . أما الحرام فهو كل ما لا يتفق مع ميولهم . وأما الحلال فهو كل ما وافق هوى النفوس منهم والأفئدة

وقليلون منهم من يؤدون فريضة الصـلاة..والبدوي لا يتوضأ مطلقاً وإنما يتيمم حتى وان كثر الماء من حوله ، فإنهم ليضنون بالماء أن يذهب سدًى في غير الشرب والطهي.لذلك لا يستحم الرجال إلاّ نادراً لأن الاستحمام في عرفهم مذيب للجلد ويفقده خاصية المقاومة والاحتمال لتقلبات الطقس . والرجل الذي يستحم يصير مضرب الأمثال إذ أنهم يجردون من الأوساخ التي تعتلي الجلد وتتراكم عليه سلاحاً يقيهم قارس البرد في الشتاء

والنساء قلما يعتنينَ بنظافة غير وجوههنّ ، وقد تلد المرأة خمساً دون أن تستحمّ لذا فان لهنّ رائحة قذرة . والمرأة التي تعتني بنظافة نفسها هي العذراء التي تطلب الزواج . أو العزبة التي تبحث عن الزوج . وهذه وتلك اذا ما تزوجت أهملت النظافة وصارت كبقية النساء .

وتضع النساء رائحة خاصّـة هي مزيج من القرنفل وبعض الأعشاب البرية ذات العطور ويسمون هذه الرائحة (بنه) . وهي لا تحلو إلاّ لابن العشيرة . أما الحضري فإنه يشمئز منها ويأنف رائحتها .. ! !

والمرأة لا تلبس السروال إلاّ نادراً ، والغالبية منهنّ يستعضنَ عنه بحزام عريض جدًّا من الصوف وغالباً ما يكون أحمر اللون . وهو عندهنّ بمثـابة الجيب الذي تضع الريفيات فيه حوائجهنّ وحقيبة اليد عند المتحضرات ، ولا بد من أن تتوشح الفتيات بالجلابيب الزاهية اللون إذ يتخذنَ منها غطاء للرأس ، والجلباب الجديد هو الأوفق لديهنّ لذلك وإذا قدم بعض الشيء لبسنه وتوشحنَ بما هو أجد وأزهى .

وللنساء غرام خاص بالألوان الزاهية كالأصفر (الكنارية) والوردي (البنبة) والأسود للعجائز والوشم الأخضر في الشفاه واليدين يعتبر زينة تتحلى بها المرأة. ولذا قلما يخلو وجه واحدة منهن منه.

ومصاغهن (الشناف) وهو فردة من قرط تلبس في إحدى ناحيتي الأنف، والدملج، وهو سوار من فضة أو قصدير عريض للغاية.

والفضول، واللكاعة، والكبرياء الكاذب من أهم صفات هؤلاء البدو. فلقد نشأ البدو والفضول طبيعة في دمائهم شغوفين باستطلاع الأخبار التي تسري بينهم كسريان النار في الهشيم فلا يمضي طويل وقت حتى يعلم القاصي والداني بما يقع في أي مكان سواء أكان أمراً مهماً أو غير مهم، والنفاق والخيانة طباع غريزية فيهم منذ القِدَم.

والبدوي درج على «اللكاعة» والكبرياء الكاذب وليس أدل على ذلك من تلك الحادثة المشهورة التي وقعت بين سمو الخديو عباس حلمي الثاني، وأحد أعراب مريوط، إذ ذهب الخديو ذات يوم ايمر بزراعاته هناك فرأى بدوياً يرعى غنمه. فسأله الخديو: (إيش بدّير يا شيخ العرب؟) ماذا تفعل يا شيخ العرب.

فأجاب البدوي وهو متكىء برسغه على الأرض: (بارعى الدبش) أرعى الغنم.

فسأله الخديو: في أرض من ترعى الدبش؟

فأجاب: في أرض عبّاس.

فسأله ألا تعرف عباساً هذا؟

فأجاب: لا والله ما ريته؟

فقال الخديو: أنا عباس.

فأجاب بكل بساطة وهو لا يزال متكئاً كما هو: أنت عبوسة؟ ازّيك يا عبوسة.

وظلّ كما كان ضارباً (كوعه) في الأرض ينظر لمن أمامه كما لو كان ينظر لبدوي مثله.

والرجل المتزوج لا عمل له غير (ترقيع) الخيمة وحياكة الملابس للاسرة وما بقي فيلقى به على عاتق المرأة. فهي ترعى الغنم وهي التي تحتطب وتجيء بالماء وتطهي الطعام.. وتصنع الخبز كل يوم وتحلب الشاة وتغزل الصوف الى غير ذلك مما تتطلبه الحياة المنزلية البسيطة

ويصحب البدوي ولده معه في تنقلاته بين المجالس لكي يعلمه الجرأة ومقابلة الرجال، لذا تجد الولد يتحدث اليك في جرأة وبساطة ربما لا تتوفر فيمن هو أكبر منه من أبناء الحضر

اما صناعتهم. فالزراعة في الشتاء، ورعي الأغنام، وصيد السمان وسنتحدث عن كل ناحية على حدة:

سِماتُ العرب

شُنُورْ = عَلامة قُونِيسْ = عَلامة . سِمَة = عَلامة

العَقَّارِي . الشَّاوِيْ . السَّاجِرَة

عائلة ابراهيم . الهوارة . الحسون

العواقير . القطعان . القنيشات

ولـكل قبيلة من البدو سمة يسمون بها ماشيتهم وآبارهم حتى يمكن تمييزها من غيرها اذا اختلطت أو اختلف فيها والتعرف عليها اذا سُرقت وهم ينطقون « سيمة » بدلاً من « سمه » . ويقولون « سيات » بدلاً من « سمات » .. !!

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي
في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص
في شرقي الاردن — عمان } الاستاذ يعقوب عودات
وفي فلسطين } القدس الشريف باب الساهرة
في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد
في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي جريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»
٧ دولارات لاميركا الشمالية
٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين
وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

June — December 1947 يونيو — ديسمبر سنة ١٩٤٧

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الحادي عشر بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 111

Founded 1876 by Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الحادي عشر

بعد المئة من المقتطف


Bibliotheca Alexandrina
0551392
